

دكتور / محمد حسن العيدروس

تاريخ الجزيرة العربية
الحديث والمعاصر







تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر

تأليف

دكتور محمد حسن العيدروس

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب - جامعة الكويت

الطبعة الأولى

١٩٩٦



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى – اسباتس – الهرم – ج.م.ع – تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:ĒIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

إهداء

إلى من علمني معنى الحياة ،

وغاية الوجود ، وقيمة الإنسان ،

ومخافة الله سبحانه .

أقدم إلى والدي - يرحمه الله - عرفانا ،

ومحبة ، وتقديراً .

فعلى دربك القويم ، ومنهجك الصالح سائرون .

وإلى أبناء العرب بعامة ، والجزيرة العربية بخاصة ؛

ليعرفوا بعض صفحات من تاريخهم ،

وليضيفوا أخرى جديدة لتاريخ البشرية .

السالمية - الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر

المقدمـة

الحمدلله قبل كل أول والآخر بعد كل آخر ، وأشكره على نعمائه ، وأستهديه من القول والعمل لما يقربنى منه ويرضيه ، واصلى على سيدنا محمد خاتم المرسلين ، وعلى آل بيته الطاهرين ومن اتبعهم إلى يوم الدين ، ولكون الحاضر غرس الماضى والمستقبل جنى الحاضر فالتاريخ سجل الزمن لحياة الشعوب والأمم .

أقدم هذا الكتاب عن تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، التى تقع فى أقصى الحد الشرقى للوطن العربى بمظاهره وسماته العربية والإسلامية محتضنا أعرق حضارات الشرق منذ قديم الزمان وجبال اليمن وسواحلها وصحرائها لاتزال آثار الإنسان العربى الأول ماثلة فيها ، وكانت مراكز النشاط التجارى فى الحجاز واليمن تجد فرصا سانحة لتوزيع السلع والمنتجات فى الدول المجاورة الأوروبية والآسيوية وخاصة اللبان العربى والصمغ فى حضرموت وظفار ناهيك عن وحدة اللغة العربية والدين الإسلامى التى انصهرت فى بوتقة المذاهب والآراء على تعددها حتى صارت وحدة متجانسة تمثل شبه جزيرة عربية إسلامية يحيط بها مياه الخليج العربى فى الشرق ومياه البحر العربى والمحيط الهندى من الجنوب ومياه البحر الأحمر من الغرب وبادية العراق والشام من الشمال .

ـ منذ مطلع التاريخ القديم كانت «سبأ» و «عرش بلقيس» و «حمير» و «قتبان» و «حضرموت» من أوائل الحضارات السامية التى احتكرت التجارة الآسيوية عبر المحيط الهندى والبحر الأحمر حتى ساحل البحر المتوسط اضافة إلى رحلة الشتاء والصيف بين اليمن والشام عبر الحجاز حيث ازدهرت الحياة فى هذه المنطقة من غرب وجنوب الجزيرة العربية وعم الرخاء وقد أخذت التجارة العالمية طرقًا متعددة إلى أوربا الغربية ، فمنذ امتداد الامبراطورية الرومانية زادت العلاقات التجارية من الصين شرقًا إلى الوطن العربى وأوربا عن طريق المحيط الهندى والبحر الأحمر إلى مصر والبحر المتوسط ولم يعد الوطن العربى

وحده بمثابة مركز الدائرة الذى تنصب إليه الطرق العالمية ؛ بل أن أوربا شاركت هى الأخرى فى ذلك وبدأت تجارة العبور والترنزيت تسيطر على الجزيرة العربية وموانئها الساحلية حتى ظهور الإسلام وانتشاره من الحجاز كقوة مؤثرة فى العلاقات الدولية . عاد الوطن العربى مركزا يستقطب طرق العالم القديم وتجارته وأدت كل من بغداد واليمن والقاهرة لعدة قرون الدور الذى كانت الدول الأوروبية تؤديه ؛ حيث انصبت فيها تجارة العالم من جنوب شرق آسيا والصين والهند وشرق أفريقيا عبر الخليج العربى والبحر الأحمر إلى كل من البصرة وبغداد وحلب والساحل الشرقى من سوريا أو عن طريق عدن والشحر و«مخا» السويس والقاهرة والاسكندرية وقد حققت تجارة الدولة الاسلامية الجازا هامًا لحضارة أوربا عن طريق «جنوة» والبندقية فى ايطاليا حتى مجىء الاستعمار البرتغالى إلى بحار الشرق ، الذى عكر هذه التجارة لفترة من الزمن وحولها إلى جنوب أفريقيا وإلى أوربا مباشرة ولكنها بعد ذلك عادت من جديدوبقوة كأهم المراكز التجارية وخاصة بعد فتح قناة السويس وما زالت فى تاريخنا المعاصر من أهم مراكز التجارة العالمية التى تربط بين الشرق والغرب .

تم تقسيم الجزيرة العربية الحديث والمعاصر إلى فصل تمهيدى وخمسة فصول ويتناول الفصل التمهيدى الوضع فى الجزيرة العربية قبل مجئ العثمانيين ولمحة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية فى مختلف أقاليم الجزيرة العربية عشية امتداد النفوذ العثمانى إليها مبتدئا أولا من الحجاز تحت حكم الأشراف من القرن الرابع الهجرى حتى عام ١٥١٧م ثانيا من اليمن تحت حكم ، بنو أيوب ، بنو رسول ، بنو طاهر وثالثا من حضرموت ومن هجرة الإمام أحمد بن عيسى حفيد الإمام جعفر الصادق من البصرة إلى حضرموت ثم من السلطنة الراشدية ، سلطنة آل الدغار ، سلطنة آل فارس ، دولة ابن مهدى ، دولة بنى ظنة ورابعًا الوضع فى عمان وشرق الجزيرة العربية قبيل مجئ الاستعمار البرتغالى .

يتناول الفصل الأول الجزيرة العربية فى العصر العثمانى الأول ١٥٠٧ - ١٦٣٥ ، أولاً الاستعمار البرتغالى وجنوب وشرق الجزيرة العربية - الصراع البرتغالى - المملوكى ، الصراع البرتغالى - العدنى - الصراع البرتغالى - الحضرمي - سلطنة الكثيري السلطان بدر أبو طويرق - البرتغاليون والسلطان بدر أبو طويرق ، الصراع البرتغالى- العربى فى عمان وشرق الجزيرة العربية - الصراع البرتغالى العثمانى، ثانيًا : الحجاز تحت الحكم العثمانى فى العصر الأول ١٥١٧- ١٦٣٥ ، ثالثًا : اليمن تحت الحكم العثمانى فى العصر

الأول ١٥٣٨ - ١٦٣٥ - الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - الفتح العثمانى الثانى لليمن ١٥٦٦ ، رابعًا : حضرموت تحت حكم السلطنة الكثيرية - السلطنة الكثيرية وعلاقاتها مع الدولة العثمانية عصر السلطان بدر أبوطويرق - السلطان عبد الله بن عمر أبوطويرق الحياة الثقافية فى عهد السلطنة الكثيرية - الحياة الاقتصادية فى عهد السلطنة الكثيرية - الحياة الاجتماعية فى عهد السلطنة الكثيرية ، خامسًا : عمان تحت حكم الأئمة الاباضية - الإمامة فى عمان - تاريخ الإمامة فى عمان - الإمام ناصر توحيد الجبهة الداخلية .

نتطرق فى الفصل الثانى عن الجزيرة العربية من نهاية العصر العثمانى الأول حتى مجئ الحكم المصرى ١٦٣٥ - ١٨١١ ، أولاً : عمان من حكم الإمامة اليعربية إلى السلطنة البوسعيدية ١٦٣٥ - ١٨١١ - تعزيز المواقع البرتغالية فى عمان اليعاربة وتصفية الوجود البرتغالى فى عمان - نظام دولة اليعاربة - سقوط دولة اليعاربة - عمان فى عهد البوسعيد ثانيًا : حضرموت وعدم الاستقرار السياسى ١٦٣٥ - ١٨١١ - العمودى والسلطنة الكثيرية - السلطان بدر بن عبدالله الكثيرى - بدر بن عمر الكثيرى يستعيد سلطنته - الدور القبلى فى حضرموت ، قبائل حضرموت ، المشايخ فى حضرموت ، الأشراف العلويون فى حضرموت، المجتمع الحضرمى ، عقائد ومذاهب الحضارمة - هجرة الحضارم ، اسباب هجرة الحضارم من حضرموت ، ثالثًا : اليمن تحت حكم الأئمة الزيدية ١٦٣٥ - ١٨١١ ، الإمام المتوكل اسماعيل بن القاسم ١٦٤٣ - ١٦٧٦ ، يوم الغدير - الامام المهدى عباس ١٧٤٨ - ١٧٧٥ ، الامام المنصور على بن المهدى عباس ١٧٧٥ - ١٨٠٩ الاضطرابات الداخلية والأحداث الخارجية - الحياة الأدبية والفكرية فى اليمن - أسر الفكر والأدب فى اليمن - الميادين التى شارك فيها أبناء تلك الأسر ، رابعًا : امارة الدرعية ١٧٧٣ - ١٨١١، الأوضاع فى نجد قبل قيام امارة الدرعية - توسع الدرعية تجاه الإحساء - غارات الدرعية على جنوب العراق - توسع الدرعية تجاه اليمن - امارة الأشراف فى الحجاز، توسع الدرعية تجاه امارة الاشراف فى الحجاز .

نتكلم فى الفصل الثالث عن الجزيرة العربية تحت الحكم المصرى ١٨١١ - ١٨٤ - محمد على والجزيرة العربية - الجيش المصرى وفتح اليمن - الجيش المصرى وفتح الدرعية عودة الجيش المصرى إلى اليمن - الحكم المصرى والأوضاع فى الحجاز ، أولاً : نظام الحكم والإدارة

المصرية فى الجزيرة العربية - الأسلوب الإدارى الذى اتبعه محمد على فى الجزيرة العربية ، عناصر الجهاز الإدارى والمالى واختصاصات كل جهاز، ثانيًا : الحكم المصرى واليمن ، توجه محمد على نحو اليمن - وفاة الإمام المهدى عبدالله ١٨٣٥ - الإمام المنصور على المهدى عبدالله ١٨٣٥ استيلاء القوات المصرية على السواحل اليمنية - استيلاء القوات المصرية على «تعز» - التنافس المصرى - البريطانى فى اليمن والاحتلال البريطانى «لعدن» ، ثالثًا: الوضع فى حضرموت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - الحياة الاجتماعية فى حضرموت - امارة الكسادى فى المكلا - امارة آل بريك فى «الشحر» ، الحكم المصرى وحضرموت ، رابعًا : الحكم المصرى وشرق الجزيرة العربية ، خامسًا الانسحاب المصرى من الجزيرة العربية .

نتكلم فى الفصل الرابع عن الجزيرة العربية فى العصر العثمانى الثانى ١٨٤٠ - ١٩١٦، أولا: شرق ووسط الجزيرة العربية تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠ - ١٩١٦ ، ثانيًا: الوضع فى عمان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثالثًا : الوضع فى حضرموت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - السلطنة الكثيرية السلطنة القعيطية - الجيش فى السلطنتين - الموارد المالية فى السلطنتين - حضرموت تحت حماية الاستعمار البريطانى الشريف أبوبكر بن شهاب العلوى - سلطنة «المهرة» - سلطنات ومحميات عدن ، رابعًا : اليمن تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠ - ١٩١٦ ، الإمام الهادى محمد بن المتوكل ١٨٤٠ - ١٨٤٣ - عودة الإمام على بن المهدى إلى الحكم ثانية - الامام محمد بن يحيى ، النفوذ العثمانى فى تهامة والمخلاف السليمانى وعسير - الثورة اليمنية على الحكم العثمانى ١٨٩١ - العثمانيون يفاوضون الإمام يحيى - موقف الأدارسة من الحكم العثمانى فى اليمن ١٩٠٨ ثورة اليمن ضد الحكم العثمانى ١٩١٠ واتفاق «دعان» ١٩١١ ، خامسًا : الحجاز تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠ - ١٩١٦ سادسًا : التنافس الانجلو - عثمانى فى شرق الجزيرة العربية ١٨٧١ - ١٩١٦ ، التنافس الانجلو - عثمانى فى ساحل عمان - التنافس الانجلو - عثمانى فى قطر والبحرين - اتفاقية الانجلو-عثمانية ١٩١٣ لتقسيم النفوذ فى الجزيرة العربية - اتفاق الانجلو - عثمانية لعام ١٩١٤ .

أما الفصل الأخير الخامس فعن الجزيرة العربية من الثورة العربية الكبرى إلى الوحدة اليمنية ١٩١٦ - ١٩٩٠ ، أولا : الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى - الكويت

فى أثناء الحرب العالمية الأولى - ابن سعود وبريطانيا - الثورة العربية الكبرى - اليمن والحرب العالمية الأولى ، ثانيا : الجزيرة العربية بين الحربين العالميتين وحتى قيام الوحدة اليمنية ١٩٩٠ ، الكويت ونجد واتفاقية العقير ١٩٢٢ ، معركة الجهراء ١٩٢٠ - بروتوكول العقير ١٩٢٢ - ضم ابن سعود للحجاز - ضم ابن سعود لعسير الحرب الاقتصادية بين الكويت ونجد ١٩٢٣ - ١٩٣٧ - الحركة النيابية فى الكويت - الشيخ عبد الله السالم الصباح - اليمن - حضرموت - الانسحاب البريطانى واستقلال دول شرق الجزيرة العربية ١٩٧١ - مجلس التعاون لدول الخيج العربى ١٩٨١- الوحدة اليمنية فى مايو ١٩٩٠ .

أتمنى من الله العلى القدير ، أن أكون قد وفقت فى تقديم صورة أقرب إلى الحقيقة لتاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ، وأن يسد هذا الكتاب اضافة إلى الكتاب عن تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر بعض النقص فى المكتبة العربية عن تاريخ الجناح الشرقى من الوطن العربى ، وأن يعفوا عن القارىء الكريم إذا ما كانت هناك بعض الأخطاء فالكمال لله وحده.

والله ولى التوفيق والمستعان فى كل أمور الدين والدنيا

د. محمد حسن العيدروس

السالمية - الكويت

الفصل التمهيدى

الوضع فى الجزيرة العربية قبل مجئ العثمانيين

لمحة عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية

فى مختلف أقاليم الجزيرة العربية عشية امتداد النفوذ العثمانى إليها .

أولاً : الحجاز

إمارة الحجاز تحت حكم الأشراف حتى عام ١٥١٧ .

ثانيًا : اليمن

١- بنو أيوب / ١١٧٤ - ١٢٢٩

٢- بنو رسول / ١٢٢٩ - ١٤٥٤

٣- بنو طاهر / ١٤٥٤ - ١٥١٧

ثالثًا : حضرموت

١- الامام أحمد بن عيسى النقيب .

٢- السلطنة الراشدية ١٠٠٩ - ١٣٠٠

٢- سلطنة آل الدغار ١٠٦٧ - ١٢٠٨

٤- سلطنة آل فارس ١١٢٠ - ١٢٢٠

٥- دولة ابن مهدى ١٢٢٠ - ١٢٢٤

٦- دولة بنى ظنة ١٢٢٤ - ١٤١٤

رابعًا : عمان وشرق الجزيرة العربية

الوضع فى عمان وشرق الجزيرة العربية قبيل مجئ الاستعمار البرتغالى .

الوضع فى الجزيرة العربية قبل مجئ العثمانيين

يرتبط الشعب العربى السامى بروابط اللغة والأصل الواحد والحضارات القديمة ، وهم أبناء الأمة العربية فى أبعادها الحالية من الشرق فى الخليج العربى والحدود الشرقية «لعربستان» و جبال «زاجروس» إلى المغرب وموريتانيا على المحيط الاطلسى ، وهضبة الأناضول شمالا ، إلى جنوب منابع أعالى النيل ونهاية الصحراء الكبرى المعروفة «بالسودان الغربى» فهؤلاء العرب الذين يقطنون تلك المساحة الشاسعة جمعهم التاريخ واللغة والدين والمصير المشترك وأصبحوا يمثلون وحدة روحية وثقافية فى عالمنا المعاصر اليوم .

خرج الساميون من الجزيرة العربية عامة «والحجاز و «اليمن» خاصة فى هجرات متعددة إلى العراق والشام ومصر والمغرب العربى فكان لابد من دراسة أهم الأقاليم فى الجزيرة العربية قبل التاريخ الحديث الذى يبدأ مجئ الاستعمار البرتغالى .

أولاً : الحجاز

تعتبر الحجاز من أهم أقسام جزيرة العرب موقعه معروف بصورة عامة وكان تعبير الحجاز موجوداً قبل ظهور الإسلام أى فى العهود التى كانت جزيرة العرب يعم فيها التفكك السياسى، ولم تكن هناك دولة واحدة تجمعها وتوحدها وتنظم ادارتها : بل كانت فيها مجموعة من القبائل العاربة والمستعربة أو «العدنانية الحجازية» و «القحطانية اليمنية» التى يستقر كل منها فى منطقة معينة غير دقيقة الحدود وفيها كذلك بعض المدن التى يتمتع كل منها باستقلال ويقوم بتنظيم ادارته .

أصبح الحجاز بعد الإسلام ضمن الدولة «العربية - الإسلامية» التى شملت فى أواخر أيام الرسول ﷺ معظم الجزيرة العربية ثم توسعت من عاصمتها «المدينة المنورة» حتى أصبحت تمتد من أواسط آسيا إلى اسبانيا ولاجدال فى أن كلمة الحجاز كلمة عربية معناها الحد الفاصل ولكن الخلاف على السبب الذى أطلق على هذه المنطقة اسم «الحجاز» وكذلك على الأقاليم التى يحجز بينها وعلى حدوده الجغرافية ، ذكر بطليموس أن الحدود الشمالية تبدأ من ساحل البحر فيما بين «ابلة» و «حقل» ثم تتجه جنوبا إلى الجبال التى تفصل عن بلاد العرب السعيدة «اليمن» وبين بلاد العرب الحجرية حيث الجبال التى ليس فيها خضرة أو عشب ويعنى «بطليموس» الحدود الجغرافية الطبيعية أكثر مما يهدف إلى تعيين الحدود السياسية .

البحر فيما بين «ايلة» و «حقل» ثم تتجه جنوبا إلى الجبال التى تفصل عن بلاد العرب السعيدة «اليمن» وبين بلاد العرب الحجرية حيث الجبال التى ليس فيها خضرة أو عشب ويعنى «بطليموس» الحدود الجغرافية الطبيعية أكثر مما يهدف إلى تعيين الحدود السياسية .

يطلق المؤلفون العرب اسم «الحجاز» على الجزء الشمالى الغربى من بلاد الجزيرة العربية ويضعون حدود الحجاز حيث كانت توضع قبل ذلك شمال البلاد العرب السعيدة «اليمن» وهم أيضًا يعنون بذلك الحدود الجغرافية أولاً . ويذكر «الإدريسى» فى كتابه «نزهة المشتاق» ، أن الحدود الغربية للحجاز تمتد من الميناء التى لا ماء فيها وتسمى «راس ابن محمد» عند مدخل خليج عقبة «ايلة» حتى ميناء «العوين» ونلاحظ أن معظم الذين يصفون حدود الحجاز الجغرافية لايذكرون حدودها الشرقية حيث لم تكن لها أهمية فى ذلك الوقت .

يمكن القول أن إمارة الحجاز التى خضعت لحكم الأشراف تقع فى الناحية الشمالية الغربية من الجزيرة العربية مستطيلة الشكل تمتد من «معان» شمالا إلى ميناء «الليث» على الشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ومنطقة عسير اليمنية جنوبا ، ومن الشرق «شمر» ونجد إلا أن حدودها من جهة الشرق لم تكن حدودا ثابتة شأن بقية مناطق الجزيرة العربية بل كانت مطاطية تمتد وتتقلص تبعا لقوة «الأشراف» ومدى سيطرتهم على شئون الحجاز التى كانت تمتد أحيانا حتى تشمل أجزاء كثيرة من نجد وبلاد «الشحر» ، ويطلق على السهل الساحلى تهامة الحجاز تمييزا عن تهامة اليمن فى عسير .

يتمتع الحجاز بمكانة متميزة لدى المسلمين وفى تاريخ الإسلام ودولته ، ففيه ظهر الإسلام وتثبتت أركان دولته واستقرت قاعدته وفيه عاش الرسول ﷺ كل حياته وقضى الخمسين سنة الأولى من عمره فى مكة المكرمة ؛ حيث نزل عليه الوحى وبدأ الدعوة للدين الإسلامى قبل أن يهاجر إلى «المدينة المنورة» التى أصبحت قاعدة وأول عاصمة لدولة الإسلام ومركز المسلمين . ومنها بدأت الدولة تتوسع حتى شملت الحجاز ومعظم جزيرة العرب وفى الحجاز تقع الكعبة التى يتوجه إليها المسلمون من كافة أرجاء الأرض يوميا فى صلواتهم كما يحجون إليها ، و «المدينة المنورة» التى تضم قبر الرسول ﷺ الذى يزوره المسلمون من كافة أنحاء العالم ؛ والمعالم المتصلة بالإسلام ومع أن عددا من العرب خارج الحجاز أسلموا فى السنين الأولى وأن الرسول ﷺ كون علاقات سياسية مع قبائل تقطن خارج الحجاز فان السلطان الفعلى لدولة الإسلام لم يخرج عن الحجاز إلا بعد فتح مكة .

خضعت الحجاز لسلطة الأشراف منذ القرن الرابع الهجرى فقد تولى أبومحمد جعفر الموسوى مؤسس العائلة الشريفية الأولى حكم إدارة مكة ؛ ومنذ ذلك الوقت والأشراف يتمتعون باعتبار دينى لدى جميع السكان . وكانت أهم الأعمال المنوطة بشريف مكة تأمين قوافل الحج الوافدة من بقاع العالم الإسلامى وسلامة اقامتهم ؛ ولذا كان شريف مكة دائما يسعى إلى أن تكون علاقاته بالقبائل العربية القاطنة على طول الطريق الذى تسكنه القوافل طيبة وخاصة أنه لم تكن لديه قوات عسكرية منتظمة أو جيش يعتمد عليه فى الدفاع عن الأماكن المقدسة ، لأن ذلك من واجب جميع المسلمين وأن مناطق الحرمين مناطق آمنة خاصة للعبادة ولهذا كان شريف مكة فى الغالب يعتمد على شخصيته ومكانته الخاصة .

شهد منصب الشرافة صراعا بين أسر شريفية ثلاث هى الأسرة الموسوية أو الموسويون ويقال لهم أيضا بنو موسى ثم الأسرة السليمانية أو السليمانيون ويقال لهم كذلك بنو سليمان والثالثة الأسرة الهاشمية أو الهواشم وأول من ولى مكة من الأشراف هم الموسويون ويجتمعون مع الهواشم فى الأمير حسين بن محمد الثائر ومع آل قتادة فى محمد الثائر ومع السليمانيين فى عبدالله بن موسى الجون وفى عهد الأسرة الهاشمية استطاعت الحجاز أن تتمتع بشبه استقلال فى القرن لحادى عشر الميلادى وبالذات فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى .

ظهرت فى أوائل القرن الثالث عشر أسرة رابعة هى الأسرة الأدريسية ومؤسسها هو الشريف قتادة بن ادريس الذى استطاع مع قومه الذين كانوا يقيمون فى جهات ينبع وادى الصفراء الاستيلاء على مكة ٥٩٧هـ ١٢٠١م وبهذا العمل مكن هذا الشريف لنفسه وعائلة فى الحجاز . وأنشأ امارة ظلت قائمة بالأمر برغم ما أصابها فى بعض الفترات من ضعف وصراع واستطاع الشريف قتادة أن يخضع لسلطانه مكانة الأراضى الحجازية «العقبة شمالا حتى ميناء «الليث» جنوبًا [١]، واستمر الحكم حتى عام ١٢٢٠م .

تداول أبناء قتادة الحكم فى الحجاز ثم أحفاده طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر والربع الأول من القرن الخامس عشر ؛ حين استطاع فرع من الأسرة الإدريسية وهو بيت بركات بن حسن أو بركات الأول أن يتولى حكم مكة منذ الربع الثانى من القرن الخامس عشر أى فى عهد الدولك المملوكية فى مصر وعندما سقطت هذه الدولة فى عام ١٥١٧ على يد السلطان سليم الأول اعترف الشريف بركات بن محمد بن بركات أو بركات الثانى بالسيادة العثمانية الجديدة . وبذلك ظل آل بركات يحكمون الحجاز طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر

والنصف الأول من القرن الثامن عشر ويستثنى من ذلك فترات حكم فيها أشراف من ذوى زيد وهم الشريف زيد بن محسن ١٦٣١- ١٦٦٦م والشريف سعيد بن سعد ١٦٨٧- ١٧١٦ وفى اثناء ذلك كان النزاع على الشرافة يشتد بين بيت بركات وبين نوع آخر من الهواشم وهو بيت زيد الذى انتقلت إليه الشرافة منذ منتصف القرن الثامن عشر . ماذا كان موقف الدولة العثمانية من المنازاعات المحلية بين الأشراف بمكة ؟ فى الواقع أن الدولة العثمانية لم تكن تريد التدخل فى الشئون الداخلية وإنما كانت تعتبره من خصوصية الأسرة الشريفية كما أن ظروفها لم تكن تسمح لها بالتدخل فى أمور شرافة مكة بسبب انشغال الدولة بحروبها فى أوروبا من جهة واستبداد العصبيات المحلية بالسلطة فى الولايات من جهة أخرى . ومع ذلك فان السلاطين العثمانيين كانوا يتدخلون فى بعض الأحيان لعزل من يريدون عزله من الأشراف عن طريق باشا الشام فكان هذا ينتهز فرصة الفترة القصيرة التى يبقى فيها أحد الباشوات «بجدة» ولكن هذا كان يضطر إلى الفرار أحيانا ولايستطيع العودة إلى جدة إلا مع وفد الحج السنوى ومما يجدر ذكره أن المتنافسين على شرافة مكة كانوا يلقون تشجيعًا من اصحاب السلطان فى الخارج فقد كانت أمور مكة خلال هذه الفترة موضع تدخل حكام الشام واليمن وفيها كان يتصادم نفوذ هؤلاء جميعًا فكان لكل منافس يناصره ، وفى انتصاره وتولية الشرافة انتصار ضمنى لوليه وعلى العموم فقد استمرت منازعات الأشراف بمكة على اشدها حتى نزلت الجيوش المصرية أرض الحجاز فى مطلع القرن التاسع عشر [٢].

ثانيًا : اليمن

تحتل الجزيرة العربية مكانة هامة فى التاريخ لأنها مهد العرب والإسلام ومنها انطلق العرب فاتحين ؛ وشهدت الجزيرة العربية تيارى العروبة والإسلام مع ملاحظة أن تيار الإسلام سبق تيار العروبة ووصل إلى أبعد ما وصل إليه هذا التيار وترجع أصل العنصر العربى إلى اليمن التى تعتبر من البلاد الجبلية التى سماها الرومان «بلاد العرب السعيدة» ذات حظ أوفر فى مقومات الحياة وأكثرها استقرار لكونها أغزر مناطق الجزيرة العربية مطرا وأخصبها تربة كما أنها ذات موقع ممتاز ، فى مواجهة الساحل الأفريقى عند مدخل البحر الأحمر وكان تاريخ اليمن القديم مرتبطا إلى حد كبير بتاريخ السيطرة على الطريق التجارى الهام إذ كانت اليمن تعتبر منطقة عبور للقوافل القادمة من الصين والهند ، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى عن

طريق المحيط الهندى قاصدة الشام لتعود هذه القوافل محملة ببضائع مصر وسوريا وآسيا الصغرى ، وسواحل البحر الأحمر وتمر فى طريقها باليمن وشكل همزة وصل بين اقتصاد الشرقين الأقصى والأوسط (٣).

ارتبط تاريخ اليمن القديم بتاريخ السيطرة على ذلك الطريق الهام كل الارتباطات بالاضافة إلى ذلك فان أرض اليمن نفسها بما يتوفر لها من اعتدال فى المناخ يتضمن أكبر أجزائها مع خصوبة التربة وتساقط الأمطار بكميات كبيرة وكافية . جعل تلك البلاد فى جميع عصورها تلعب دوراً كبيراً فى تاريخ الجزيرة العربية وعمل أهلها بالزراعة وظهرت فيها بوادر الحضارة التى امتازت ببناء السدود مثل «سد مأرب» وبناء القصور مثل «رغدان» وبذلك عرف اليمن بأنه مهد الحضارة العربية الأولى فمنه انطلقت أصل الدول التى قامت فى العراق وسوريا ومصر وغيرها من البلدان وبنت حضارات هامة فى التاريخ القديم وينضوى تحت ذلك ، جميع الشعوب السامية والحامية .

تأسست فى اليمن ثلاث دول عربية كبرى متعاقبة اضافة إلى عدة ممالك متفاوتة أو متعايشة فى زمن واحد ففى منتصف الألف الثانى ق . م ١٥٠٠ - ٨٥٠ ق م أنشئت دولة «معين» نسبة إلى عاصمتها «معين» ابلجوف ، وقد هيمنت على الجزيرة العربية وتعاملت فى تجارتها مع شمال أفريقيا واليونان والحبشة وفارس وأقامت المدن والمراكز التجارية الهامة وقضى عليها «السبئيون» الذين أسسوا دولتهم من أربع ممالك يمنية وعاصمتهم مأرب ٨٥٠ - ١١٥ ق . م وتعتمد على الزراعة بوجه عام ومن ملوكها «بلقيس» التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وأقيم فيها أول سد عرف فى البلاد السامية سد «اذنة» الزراعى .

أسس الملك «كهلان» عام ١١٥ . م أقوى دولة عربية فى التاريخ وهى الدولة «الحميرية» التى كانت تعتمد على القوة العسكرية وانتهت هذه الدولة عام ٥٢٥ م عندما خضع اليمن للاحتلال الحبشى ، ومع ضعف الدولة اليمنية قامت هجرات اعداد كبيرة من سكانها وخاصة بعد دمار سد مأرب وانتقالهم إلى عمان «ازد عمان» وإلى عسير «ازد شنوة» و إلى الحجاز «الأوس والخزرج» وإلى بلاد الرافدين «المناذرة» وإلى الشام «الغساسنة» وعند تسلط الأحباش على اليمن انتشرت النصرانية ،كان الروم يدعمون الاحباش ويشجعونهم على نشر النصرانية كما انتشرت اليهودية وأراد بعضهم من الأحباش الهجوم على بيت الله الحرام .

قام بعض أبناء اليمن بمحاولة طرد الأحباش أمثال «سيف بن ذي يزن» واستعان بالفرس على الأحباش فنجحوا فى ذلك ؛ إلا أن نفوذ الفرس قد حل محل نفوذ الأحباش حتى تم طردهم من اليمن التى دخلت الإسلام حينما بعث النبى محمد ﷺ معاذ بن جبل عام ٦٢٨ والامام على بن أبى طالب عام ٦٣١ ، وخلف أبوبكر الصديق النبى ﷺ بعد وفاته وجاء عمر وعثمان ثم اصبح الامام على رابع الخلفاء الراشدين بعد مقتل عثمان عام ٦٥٦ ويتولى الامام على الخلافة ظهر مذهبا السنة والشيعة الذين يعتبرون الوراثة عاملا اساسيا فى اختيار خلفاء الرسول والشيعة ينقسمون إلى عدة فرق أهمها «الجعفرية» نسبة إلى الامام «جعفر الصادق» حفيد الامام حسين بن على (رضى الله عنهما) الذين يعتبرون المزايا الشخصية عاملا حاسما فى اختيار الائمة من بين سلالة النبى ﷺ ولكنهم يجعلون للكفاءة الدينية «التفقه فى الدين» أهمية أكبر فى الأختيار .

تنسب «الزيدية» إلى الإمام زيد أحد أحفاد الامام على ، ولم يذهب الامام زيد إلى اليمن فقد قتل فى عام ٧٤٠ فى «الكوفة» بالعراق «خلال ثورة وقف فيها ضد الخليفة الأموى فى ذلك الوقت واصبح شهيداً دينيًا وسياسيًا ، وكان الامام زيد بن على (رضى الله عنه) (٨٠ – ١٢٢هـ) يدعوا إلى الخروج على الحاكم الظالم وقد فعل ذلك فى وجه الخليفة الأموى «هشام بن عبد الملك» واستشهد فى معركة غير متكافئة بعد أن خذله الروافض برغم مبايعتهم له وكان الامام زيد قد لخص منهج ثورته فى : «جهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين واعطاء المحرومين وتسمى الفئ بين أهله بالسواء ورد المظالم ... » [٤].

وطدا المذهب الزيدى وجوده فى اليمن إلى جانب المذهب الشافعى فى نهاية القرن التاسع، وأصبح اليمن ولاية من ولايات الدولة الإسلامية حتى انفصلت عن الدولة العباسية وتأسست الدولة «الزيدية» ولم تعد مرتبطة ببغداد ، وكان أول الأئمة الزيدية فى اليمن هو الهادى يحيى الذى جاء من مقر اقامته فى جبل «الرس» فى الحجاز بدعوة من قبيلة «فطيمة» عام ٨٩٥ هـ إلى «صعدة» ومنه بث دعاته إلى مختلف مناطق القسم الأعلى من اليمن الأوسط فى صعدة وصنعاء والقسم الجنوبى من اليمن الشمالى فى «عسير» . وبذلك أسس ، الأسرة «الرسية» الحاكمة التى تولى افرادها على حكم اليمن المستقل بدرجات متفاوتة من النجاح فيما عدا فترات قليلة كان الحكم فيها من نصيب آخرين . وينتهى نسب هذا البيت إلى «القاسم الرسى» الذى يتصل نسبه فى جده السادس بفاطمة الزهراء زوج الإمام على وخلال القرون الستة الأولى لوجودهم لم يستطع أئمة «الزيدية» ولا البيت «الرسى» نفسه السيطرة

على اليمن كله ولكن «الرسيين» فيما يبدون كانوا مصممين على بسط سيطرتهم على اليمن كله (٥). وتولى الحكم منهم حوالى ستة وستين اماما من أشهرهم المتوكل يحيى شرف الدين وإبنه المطهر ، وعندما كان الأئمة الضعاف يصلون إلى حكم اليمن كانت تحدث خلافات وفوضى وينفصل بعض أجزائها وقد يستقل بالحكم .

استندا «بنو يعفر» إلى العباسيين وحكموا صنعاء من عام ٨٦١ هـ حتى عام ٩٩٧هـ . وتمرد «بنو زياد» على «العباسيين» الذين كان امرهم ضعيفا لبعدهم عن مركز الحكم ولطبيعتها الجبلية ووعورة أرضها وللسبب نفسه كانت ملجأ لكثير من الفارين من الحكم العباسى أو الثائرين عليه ومنهم دولة بنو زياد عام ٨١٩ هـ . ثم سيطر «القرامطة» على اليمن بقيادة على بن الفضل عام ٩٠٤هـ ونهبوا مدنها وفعلوا الافاعيل واستباحوا المنكرات وقاموا بكل رذيلة ، وقام بعدئذ «بنو نجاح» وهم من مماليك «بنى زياد» وحكموا «زبيد» وملحقاتها عام ١٠٢١ هـ وسيطر «بنو صليح» على صنعاء ١٠٤٧ - ١٠٩٨هـ وامتد نفوذ الصليحى على حضرموت واليمن الأوسط فى صنعاء وصعدة واليمن الشمالى فى «عسير» حتى وصل إلى الحجاز وخلفهم «بنو همدان» ١٠٩٨ - ١١٧٤م ، وآل أمر «زبيد» «بنى مهدى» من ١١٥٩ - ١١٧٤ هـ وتسلم «آل زريع» امارة عدن ١٠٨٣ - ١١٧٤م.

بنو ايوب ١١٧٤ - ١٢٢٩

فى أعقاب هذه الفوضى وعدم الاستقرار دخل عنصر جديد خارجى عندما جاء «الأيوبيين» عام ١١٧٤ وأرسل صلاح الدين الأيوبى أخاه «توران شاه» فقضى على عدد من الامارات فى اليمن وجمع أمرهم إذ أنهى حكم بنى «همدان» فى صنعاء و«وبنى مهدى» فى «زبيد» و «بنى زريع» فى عدن وبعد عودته إلى مصر أرسل أخاه الآخر «طغمكين» وفى عهد الأيوبيين هدأت الأحوال نسبيا فى اليمن وتوحدت السلطة ولاسيما فى القسم الجنوبى من اليمن الأوسط واستمر امرهم حتى عام ١٢٢٩ .

بنو رسول ١٢٢٩ - ١٤٥٤ .

اتسعت مساحة سلطتهم حتى شملت معظم اليمن ولولا حروب الرسوليين مع بعض الأئمة فى الجوف وخاصة الامام المهدى وولدى المظفر لأمكننا القول أن بنى رسول وحدوا معظم اليمن

لفترة من الزمن ، بعد أن كانت مجزأة مدة أربعة قرون وتلاهم فى حكم الجنوب ومحاولة حكم الشمال عمالهم على عدن الذين ورثوهم وهم بنو طاهر .

بنو طاهر ١٤٥٤ - ١٥١٧

ثاروا على «الرسول» وحاربوا سلطان «الشحر» فى حضرموت كما حاربوا الأئمة فى القسم الشمالى من اليمن الأوسط وخاصة الامام المنصور الناصر بن محمد الذى حصلت بينه وبين الظافر الأول عامر بن طاهر حروب عديدة جاءت لمصلحة الظافر الذى أخرج الامام الناصر من «ذمار» ومن «صنعاء» لكنها انتهت بقتله فى صنعاء بعد معركة حامية بويع بعدها الامام محمد بن الناصر امامًا على صنعاء ، وفى عهد عامر بن عبد الوهاب تعددت حروبه مع أبناء عمه وقبائل اليمن الشمالى فى عسير وخاصة قبائل تهامة «الزرانيق» وغيرهم وكان ظافرا فيها كما تمكن من دخول صنعاء على رأس ١٧٠ ألف مقاتل عام ١٤٩٥ وبذلك تمكن من حكم اليمن الطبيعة بأغلبيتها ولم يخرج عن طاعته إلا بعض المناطق الغربية المحصورة حيث يقيم الامام المتوكل يحيى بن مشرف الدين ؛ وحضرموت .

لكن وحدة الحكم واتحاد البلاد فى اليمن كما هو فى الوطن العربى لم تكن من الأمور اليسيرة إما لشدة الأنانية فى عصور الإزدهار ؛ وإما للجهل فى عصور الانحطاط أو للاثنين معا وقد شاء سوء حظ اليمن أن يدخل عنصر جديد آخر يعمل على الإساءة إلى هذه الوحدة النادرة التحقيق فما أن خضعت اليمن بأغلبيتها لحكم الظافر عامر بن عبد الوهاب حتى وصلت قوات السلطان قانصوه الغورى من مصر واخضعت الساحل اليمنى وكانت مزودة بالأسلحة النارية المجهولة عند اليمنيين وساهمت الخلافات الداخلية والمطامع فى نشوب حرب طاحنة وفى حرب الظافر هذه مع المماليك غير المتكافئة بسبب الأسلحة النارية كانت الغلبة للمماليك فى جميع المعارك التى خاضها عامر خاصة التى جرت مع قائدهم الأمير «برش باى» وبعد مطاردة طويلة للسلطان اليمنى فى طول البلاد وعرضها تمكنت قوات الاسكندر بن محمد من القبض على هذا البطل وذبحه .يعد السلطان «عامر بن داود» الذى انحصرت سلطته فى الجنوب آخر سلاطين آل طاهر بدأ بالتدخل الأجنبى من جديد فى اليمن وذلك بدخول العثمانيين المعترك اليمنى ، وكما كان الامام المتوكل المحصور فى غرب اليمن والمغلوب على أمره لجأ إلى طلب العون من المماليك والكتائب المصرية ضد السلطان اليمنى ، فان «عامر بن داود» كذلك فعل الشيء نفسه بالنسبة للامام شرف الدين بعد أن حاصرا آل

طاهر فى أقصى الجنوب وقد طلب هذا بدوره معونة العثمانيين ضد الإمام ليتمكن من استعادة ملك آل طاهر وإن استعان الأول بالمماليك من مصر ضد منافسه فقد استعان الثانى أيضا بالعثمانيين وأدخلهم البلاد وهكذا فتح الباب أمام الغزو العثمانى فى الداخل .

ثالثًا : حضرموت

أقدم من سكن حضرموت بعد عاد هو قحطان بن عامر بن شامخ بن ارفخشد بن سام بن نوح ، وكان لقحطان عدة أولاد من بينهم حضرموت ويعرب وعمان وجرهم وان يعرب بن قحطان كان ملكا باليمن وأنه استطاع أن يتغلب على بقايا «عاد» ثم وزع اخوانه على الأقاليم المجاورة فأقر أخاه «حضرموت» على المنطقة التى سميت بزسمه فقيل لها حضرموت والمعرفة حاليا ، وعين أخاه عمان على إقليم عمان وولى «جرهما» على الحجاز ومن نسل هذا «جرهم» الثانية لا البائدة . تحدث المستشرقون بشىء من الوضوح والتفصيل عن مملكة «حضرموت» التى كان لها شأن بين ممالك الجنوب القديمة وقد ورد اسم حضرموت فى الكتابات «المعينية» كما تحدث عنها كتاب «اليونان» و «الرومان» عن مملكة «حضرموت» وما كان لها من شأن عظيم فى العالم الاقتصادى بين ممالك الجنوب .

وردت تسمية حضرموت فى التوراة فى سفر التكوين الإصحاح العاشر بلفظ «حضرميت» واسمها الاصلى «وادى الأحقاف» و «ثمود» وهى التسمية القديمة التى اطلقها عليها القرآن الكريم فى قوله تعالى (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف) وذكر المسعودى فى مروج الذهب نسبة إلى حضرموت بن قحطان وأقام دولته على انقاض دولة عاد وأسست دولة «حضرموت» قبل ثمانية عشر قرنا من ميلاد المسيح ومن أهم قبائلها «قضاعة» و «نهد» وملوك العباهلة الذين كتب إليهم النبى ﷺ ومنهم وائل بن حجر الحضرمى الصحابى المشهور وكانت عاصمة حضرموت «شبوة» [٦]. وذكر ابن خلدون أنه كان فى حضرموت ملوك يقاربون ملوك «التبابعة» فى علو الصيت ونهاية الذكر ثم ذكر عددا منهم وجانبا من تاريخهم .

نجح الحضارمة فى صد هجمات «الحميريين» الذين كانوا يطمعون فى ضم حضرموت إلى ممتلكاتهم وأقاموا استحكامات قوية فى وادى «أبنة» ومدينة «ميفعة» ولهذه المدينة سدا قويا وبرجين وأسس الملك «يدع آل بين» مدينة «شبوة» التى أصبحت عاصمة حضرموت بعد ذلك كما أقام السدود . ثم ضم حضرموت إلى حكم التبابعة الحميرين حوالى عام ٢٧٥م

حضرموت نهائيا لحكم ملوك سبأ عام ٢٩٠ م وسمى ملكهم بملك «سبأوريدان وحضرموت» على أن مملكة حضرموت بقيت حتى أيام «شحر برعش» ملك سبأ ، وكان يحكم حضرموت ولاة من الحضارم يحملون لقب ملك غير أنها لم تكن مستقلة تمام الاستقلال بل كانت خاضعة لمملكة سبأ ؛ وتنتهى بانتهاء دولة حمير الثانية ٥٢٥م وبعد ضعف الدولة الحميرية واستيلاء الأحباش على اليمن قبل الإسلام كان حكم اقليم حضرموت الذاتى فى يد قبيلتى «حضرموت» وكندة وتنتمى قبيلة «كندة» إلى قحطان وقد جاءت فى الأصل من عمان إلى حضرموت واستوطنتها ووجدت فيها قبيلة حضرموت القحطانية ومن أهم ملوك حضرموت فى هذه الفترة «وائل بن حجر» الذى قدم إلى المدينة وعرض إسلامه على سيدنا محمد ﷺ.

رحب به النبى وأدنى مجلسه وبسط له رداءه الشريف ليجلس عليه مبالغة منه فى إكرامه ثم عاد وائل إلى حضرموت بعد أن قبل النبى إسلامه وأقره على إمارته ؛ بذلك انتشر الإسلام فى أنحاء البلاد الحضرمية وحل الدين الجديد محل الوثنية وأقبل زياد بن لبيد عاملا على حضرموت من قبل النبى ﷺ فأقام فى مدينة «تريم» وأمده النبى ﷺ بمعاذ بن جبل يطوف بأرجاء البلاد يعلم الناس القرآن ويفقهم فى الدين وأقام زياد عنه نوابا فى أنحاء القطر الحضرمى يجمعون الصدقات وكان زياد يوزع صدقات الأغنياء على الفقراء ويرسل ما يزيد الحاجة إلى المدينة المنورة .

استمر الحكم الإسلامى فى اليمن وحضرموت حتى دب الضعف فى آخر عهد الدولة الأموية وانتشرت حركات التمرد فى سائر الأقاليم وكان أمراء بنى أمية على اليمن من «بنى ثقيف» الذين أذاقوا اليمن وحضرموت أصنافا من الجور والعسف والظلم وقد ضاقت بهذا الأمر حضرموت نواحيها فتكتلت خلف عبد الله بن يحيى الكندى وأعلنت ثورتها على الأمويين عام ٧٤٦ م وكان داعى الإباضة أبوحمزة المختار بن عوف الذى ركز فى ذهن عبد الله بن يحيى الكندى الملقب «بطالب الحق» الخروج على دولة بنى أمية . عندما تولى الخليفة العباسى أبوجعفر المنصور عين معن بن زائدة الشيبانى عام ٧٥٩م واليا على اليمن فعين معن أخاه عاملا على حضرموت وكان مقر ولايته مدينة «تريم» واتصف هذا العامل بالفسق والفجور وسفك الدماء فأثارة هذه الأعمال حفيظة أهل حضرموت فانقضوا عليه وقتلوه مما أدى إلى حالة من الفوضى والاضطراب حتى قيام دولة بنى زيادة فى اليمن عام ٨١٩ هـ والتى أصبحت مستقلة عن العباسيين..

١- الإمام أحمد بن عيسى النقيب (المهاجر)

ولد بمدينة «البصرة» عام ٨٧٣هـ الامام أحمد بن عيسى بن محمد من أحفاد الامام الحسين بن على بن أبى طالب (رضى الله عنهما) وكان أبوه الإمام عيسى وجده الإمام محمد بن على العريض قد قدما إلى البصرة من المدينة المنورة مع أخيه الإمام محمد بن جعفر الصادق، ونشأ الإمام أحمد بن عيسى بالبصرة فى بيت عرف بالسيادة والعلم والتدين وبها درس علوم الدين واللغة على آبائه وغيرهم من علماء البصرة وأخذ التصوف العملى وتهذيب النفس ولما تقدمت به السن أسندت إليه رئاسة ونقابة الأسرة العريضية نسبة إلى جدهم الأعلى محمد بن على العريضة إلى جانب لقبه «بنقيب السادة» لقب «بالإمام المهاجر» نظرا لهجرته من البصرة إلى «حضرموت» ويرجع هجرته بسبب مضايقات الخليفة العباسى المقتدر الذى قام بالتضيق على بنى «السادة» الذين ضجوا من تصرفات المقتدر كما أن العلويين لاقوا أنواع الأذى والامتهان وشدة الهوان مما دفع بالإمام أحمد بن عيسى النقيب إلى الهجرة من البصرة مرتحلا بعائلته وأتباعه الذين ينيفون على السبعين مع ابنه عبد الله وترك فى البصرة أبناءه الآخرين وهم محمد وعلى وحسن ووصل إلى المدينة عام ٩٢٩هـ وفى الثانى من ذى الحجة من نفس العام استباح القرامطة الحرم المكى وانتزعوا الحجر الأسود ونقلوه إلى القطيف فى الإحساء ولم يقصد الإمام أحمد أداء الحج فى هذا العام ومضى متكدر الخاطر ضيق الصدر من تلك الحوادث يفكر فى اختيار البقعة التى يكون هو وذريته فيها بمنجاة من طغيان الفتن وفى العام التالى قصد هو وعائلته مكة المكرمة حتى إذا حجوا رحل بهم نحو اليمن حتى وصل إلى حضرموت فوجدها على وفق مرامه من حيث الهدوء والبعد عن الأطماع.

استقر الامام أحمد فى «الحسية» بالقرب من «تريم» علما بأن غالبية سكان حضرموت كانوا من «الإباضية» فحاربهم الإمام أحمد بن عيسى المهاجر باللسان لا بالسنان وقارعهم بالحجة والبرهان ثم استمرت الحرب مستعرة بعد وفاته بين «الإباضية» من جهة وبين أبنائه وأحفادهم من علماء الحضارم من جهة أخرى حتى تلاشى المذهب الإباضى من حضرموت واضمحل فى القرن السابع الهجرى وساد المذهب السنى الشافعى مذهب الإمام أحمد المهاجر الذى كان يتلقى العتاد والنقود وتأتيه الامدادات تحملها القوافل براً والسفن بحراً من البصرة يرسلها إليه ابنه محمد الذى تركه هناك وكيلا على املاكه ونخيله وتجارته الواسعة فى البصرة (٧).

٢- السلطنة الراشدية ١٠٠٩ - ١٣٠٠م

تنسب هذه السلطنة إلى مؤسسها «آل راشد» وهم أسرة من بنى قحطان إحدى القبائل الحميرية وتقدر مدة دورهم بنحو ثلاثة قرون وعاصمتها «تريم» ويليه سلطنة بن ظنه ١٢٢٤ - ١٤١٤ م يقدر بنحو ثلاثة قرون أيضا ثم السلطنة الكثيرية الأولى ١٣٩٧ - ١٧١٧ م تقدر مدته بنحو ثلاثة قرون ونصف وأن كل سلطنة من هؤلاء الأسر التى توارثت على حضرمو لها مد وجزر وانبساط وانكماش وقد يعتريها الضعف حتى يكاد يقضى عليها ثم تنبعث مرة أخرى من جديد وتجدد شبابها كما أن نهاية زمن السابقة يكون بداية زمن اللاحقة وقد يطول هذا الزمن المشترك بينهما يتنازعون فيه البقاء حتى تتغلب القوية على الضعيفة هذا مع عدم خلو المطاف دوما بحضرموت من أشخاص وأسر وقبائل أخرى تتجاذب الحبل أيضا مع هذه السلطنات فى عهدها (٨).

استولى الأيوبيين على اليمن عام ١١٧٣م بقيادة «توران شاه» شقيق صلاح الدين فأرسل توران شاه قوة إلى حضرموت عام ١١٨٠ م وقد قاوم «آل راشد» القوات الأيوبية التى استولت على حضرموت وابقى «آل راشد» على ملكهم ولكن حب الاستقلال جعل «آل راشد» يخلعون طاعة الأيوبيين وبذلك تم فصل حضرموت عن جسم الدولة الأيوبية .

٣- سلطنة آل الدغار ١٠٦٧ - ١٢٠٨

أنشئت هذه السلطنة كثانى سلطنة بحضرموت ومركزها «شبام» وأنشأها الدغار بن أحمد بن النعمان فى عام ١٠٦٧ وهم ابن عمومة آل راشد سلاطين «تريم» ومن أشهر سلاطينهم أبو الرشيد بن راشد الذى اعتقله عثمان الزنجيلى أحد قواد الأيوبيين وأرسله إلى عدن ومن المع سلاطين آل دغار السلطان عبد الباقى بن أحمد الذى حرر حضرموت من «الأيوبيين» وارجع أبناء عمومته «آل راشد» إلى سلطنتهم «بتريم» وتم القضاء على سلطنة آل دغار عام ١٢٠٨م على يد قبيلة نهد .

٤- سلطنة آل فارس ١١٢٠ - ١٢٢٠

تعتبر سلطنة «آل فارس» السلطنة الثالثة فى حضرموت ومركزها الشحر وأول من عرف من بحكامها السلطان عبد الباقى بن فارس المتوفى عام ١١٥٢م ومن أشهر سلاطين هذه الدولة السلطان فارس بن اقبال الكندى الذى ينتهى نسبه إلى «كندة» وقد يسمى بعض

المؤرخين هذه السلطنة باسمه ، والسلطان فهد بن راشد الذى قاتل «الأيوبيين» وهزمهم ووقع فى يده أسرى وغنائ منهم وبقيت سلطنة «آل فارس» إلى أن غزا حضرموت ابن مهدى وسيطر عليها عام ١٢٢٠م .

٥- دولة ابن مهدى ١٢٢٠ - ١٢٢٤

عندما ملك العادل الأيوبى اليمن وعين حفيده المسعود على اليمن عام ١٢١٤ فبعث الأخير عمر بن مهدى على رأس جيش لكى يبسط نفوذ دولتهم بحضرموت فبدأ غزوه بمدينة «الشحر» والقضاء على سلطنة «آل فارس» وبعد أن تم له ذلك اتجه إلى داخل حضرموت وأخضع سلطنة آل راشد «بتريم» واتجه إلى «شبام» واخضع سلطنة «آل دغار» . وثارت قبائل حضرموت ومنهم «نهد» التى سيرت قوة عظيمة إلى مدينة «شبام» مقرا بن مهدى وحاصروه فيها وقتلوه مع أتباعه وكسروا سجنه الذى يضم اعداد من الحضارم وبهذا تم القضاء على دولة ابن مهدى فى حضرموت عام ١٢٢٤ وبسطت ـ «نهد» سيطرتها على سائر حضرموت .

٦- دولة بنى ظنه ١٢٢٤ - ١٤١٤م

دبت فى حضرموت الفوضى والاضطراب عندما سيطرت قبيلة «نهد» ومن والاها من القبائل على أثر اسقاطهم لدولة ابن مهدى عام ١٢٢٤ لأن قبيلة «نهد» وحلفاءها جماعة بدوية لاتعرف من أمور السياسة ولا الادارة ولا الانضباط شيئا فحصل بين هؤلاء البدو والحضر عديد من المتناقضات وفى هذه الظروف فكر كثير من رجال الاصلاح والرأى فى انتشال بلدهم من هذه الفوضى ، ومن هؤلاء مسعود بن يمانى بن لبيد الظنى من بنى ظنه وكان رجلا عادلا صالحا يتمتع بسمعة فى قبيلته وهى قبيلة بنى «حرام» التى تمت بصلة نسب إلى «نهد» فلما أعلن مسعود الظنى دعوته وعاضدته قبيلته «بنو حرام» تخلت لهم «نهد» عن حكم مدينة «تريم» وقد تولى فى هذه المدينة عام ١٢٢٤ ثم سيطر على «شبام» ثم «الشحر» وفى عصر مسعود الظنى تم توحيد حضرموت تحت رايته وامتد نظره صوب اليمن . ففى عام ١٢٣٠ قام بغزو «الجوف» ومأرب واستمر الحكم فى أبنائه وأحفاده حتى ضعفت هذه الدولة وظهر عنصر الكثيرى عام ١٤١٤ التى قضت عليهم فى معركة «برمان» وبدأ عصر الدولة الكثيرية الأولى .

رابعًا : عمان وشرق الجزيرة العربية

يسكن عمان ما يقرب من ستين قبيلة وهو عدد كبير اذا ما قارناه بعدد القبائل التى تسكن ساحل شرق الجزيرة العربية واذا أخذنا في اعتبارنا عدد سكان عمان التى شمل حدودها المنطقة الممتدة من قطر أو جنوب الاحساء إلى ظفار فى حضرموت وقد شمل مساحة اوسع مما هو عليه الآن ، ويفسر لنا هذه الظاهرة لطبيعة ارض عمان المتعددة بين سهل زراعى وساحل بحر وجبل مرتفع وصحراء هذا إلى جانب صعوبة المواصلات بين أجزاء عمان بالوسائل التقليدية القديمة .

لعبت موجات هجرة القبائل العربية القحطانية من اليمن إلى عمان دوراً كبيرا فى كثرة عدد قبائله وكذلك انقسامها فى العصبية اليمنية وتعرضت عمان لهجرتين اساسيتين من اليمن الأولى فى عهد مؤسسها الأول عمان بن قحطان بن عامر بن شالخ واليه ينسب اسم عمان وهو شقيق حضرموت بن قحطان الذى حكم حضرموت ويعرب بن قحطان الذى حكم اليمن وجرهم بن قحطان الذى حكم الحجاز ، أما الهجرة الثانية فكانت بعد انهيار «سد مأرب» عندما هاجرت قبائل «الازد» الأولى إلى عمان وسميت «بأزد عمان» تميزا عن «الازد» الثانية التى هاجرت قبائل «الازد» الأولى إلى عمان وسميت أيضًا «بأزد عسير» ثم جاءت الهجرة اليمنية الثالثة التى قامت بطرد «الفرس» من عمان قبل الإسلام وبعدها توالت الهجرات اليمنية إلى عمان عبر مختلف العصور حتى العصر الحديث والمعاصر ، كما حدثت هجرات معاكسة من عمان إلى اليمن وخاصة حضرموت مثل قبيلة «كندة» التى تنتمى إلى «عمان بن قحطان» وحكمت حضرموت قبل الإسلام وأصبح هناك ارتباط قوى بين عمان واليمن ويعتبر قبائلهما أبناء عمومة وأخوة ومن أشهر هذه الأسر «اليعاربة» و«البوسعيد» .

اشتهرت كل قبيلة بالاقامة فى اماكن معينة خاصة بها كما هو الحال فى اليمن ، وتغلب الحياة الحضرية على سكان عمان إذ يعيش أكثر أهلها فى مدن قديمة وقرى وسط المزارع وافلاج المياه ولكن بعض قبائل عمان اشتهرت ببداوتها ويتركز البدو فى عمان فى الساحل الشمالى حيث يتجول قبائل العوامر والمناصيل والمناهيل والرواشد فى أرض «الظفرة» وهى الصحراء الممتدة الواسعة من أبوظبى إلى الإحساء وفى منطقة «الظاهرة» الصحراوية تعيش قبيلة «بنى قتب» و «النعيم» و «العوامر» و«بنى كعب» حياة بدوية كما تنتشر قبائل

«الدروع» و «العوامر» فى بادية عمان الداخلية ويقع مركز العوامر فى كل من منطقة «الكدن» و «الوجـن» و «العين» و «الختم» وخاصة «نزوى» ، أما قبيلة «الوهبة» و «الجنبة» و «الحراسيس» فهم فى بادية ارض الشرقية وجعلان .

تسكن القبائل الحضرية وهى كثيرة فى مختلف المدن والقرى والأودية وفى الجبال والساحل وتعتبر العائلة أو القبيلة ظاهرة بارزة فى المجتمع العمانى فى البادية وفى داخل المدينة والقبيلة فى عمان وحدة سياسية واجتماعية ذات شأن وشيخها أو اميرها يتكلم باسم جميع الشيوخ الذين هم دونه وهم يعززون سلطته بتأييدهم له ، ولم تفقد القبيلة فى عمان كيانها وشخصيتها فى الحياة المتحضرة إذ تعيش القبائل داخل المدن فى أحياء خاصة بها ذات أسوار وقلاع للدفاع عن نفسها وكذلك تعيش القبائل وأسرها فى أحياء خاصة فى المدن الحديثة مثل «مسقط» و «أبوظبى» و«دبى» و «العين» وغيرها ، وتنقسم قبائل عمان إلى حزبين «الغافرى» و «الهنائى» جمعتهم مصالح مشتركة ومناطق جغرافية متقاربة ، فقبائل حزب الغافرى يقطنون «امارات ساحل عمان الشمالى» فى رأس الخيمة والشارقة وعجمان وام القوين والفجيرة «والبريمى» وعمان الداخل فى حين تقطن قبائل الحزب «الهنائى» أبوظبى و «عمان الساحل» فى الباطنة فى «صحار» و «مسقط» وغيرها من المناطق العمانية .

يتركز المذهب السنى المالكى فى عمان بين القبائل فى الشمال فى «ساحل عمان» واقليم الشميلية و «الظاهرة» والساحل الجنوبى فى «عمان الساحل» والمنطقة الشرقية وجعلان ، ويتركز المذهب الاباضى فى المرتفعات وعمان الداخلية وأيضا فى بعض منطاق اقليم الشرقية، وتعود نشأة المذهب الاباضى فى عمان إلى أيام الدولة الاسلامية الأولى وينسب المذهب الاباضى إلى عبد الله بن اباض أحد علماء النصف الثانى من القرن الأول الهجرى وهو من بنى «مقاعس» من سكان عمان وقد نشأ عبد الله بن اباض أيام معاوية بن أبى سفيان ولم تخضع عمان لحكم بنى أمية حتى عهد عبد الملك بن مروان وانتشر المذهب الاباضى من عمان إلى حضرموت واحتفظ العمانيون منذ ذلك التاريخ باستقلالهم عن بنى أمية وحكمهم أئمة منتخبون منهم وخلا تاريخ عمان من الصراع بين السنة والاباضية بل عاش كل منهم بجوار الآخر فى سلام كما حدث ويحدث بين الشيعة الزيدية والسنة الشافعية فى اليمن .

شهدت عمان النزاع الذى قام بين المسلمين زمن الأمويين بسبب تحول حكم المسلمين من

الشورى إلى الحكم الوراثى وكان من نتيجة ذلك الصراع أن اعتنق العمانيون فى أواخر الحكم الأموى المذهب الاباضى الذى يؤمن بعودة الحكم إلى ما أوصى به النبى ﷺ «الشورى» ، وانتهزوا الفرصة ونصبوا منهم اماما عليهم عام ٧٥٤ وهو الجلندى بن مسعود بن جيفر بن الجلندى الأزدى وهكذا انشأ العمانيون دولة مستقلة عرفت باسم «إمامة عمان» وفى منتصف القرن السادس الهجرى أى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى تغلبت قبيلة «النباهنة» على عمان وأقامت دولتها بنى «بنهان» وحكمت الإمامة واستمرت من عام ١١٥٤ حتى مجئ الاستعمار البرتغالى إلى المنطقة .

الوضع فى عمان وشرق الجزيرة العربية قبل مجئ الاستعمار البرتغالى

دب الضعف فى كيان هرمز العربية مع بداية القرن الخامس عشر بسبب تفاقم الصراع بين أفراد الأسرة المالكة ولعل ذلك الصراع هو الذى شجع القبائل العربية المنتشرة على طول السواحل الشرقية للجزيرة العربية للتخلص من تبعية «هرمز» والأمر الذى لاشك فيه أن عدم وجود سلطة مركزية قوية هو الذى ساعد المناطق التابعة «لهرمز» على الاستقلال خاصة وأن هذه المناطق كانت تختلف فى تبعيتها لهرمز بين التبعية الاسمية والفعلية ففى حين كانت مناطق «القطيف» و «الاحساء» تعين حكامها كان حكام البحرين يعينون من قبل ملوك هرمز مباشرة كما أن الامتداد الكبير الذى بلغته هذه الدولة كان عاملا هاما من عوامل تقويضها إذ استطاعت أن تبسط سلطانها السياسى على أجزاء مترامية من شواطىء الخليج العربى وجزره شملت السواحل العمانية وامتدت حتى القطيف شمالا كما دخلت جزر البحرين وجزيرة قشم فى تبعيتها إلى جانب قسم كبير من السواحل الشرقية من الخليج العربى وكانت كل هذه المناطق تشكل جزء من تلك الدولة الواسعة الثراء .

تعتبر مملكة هرمز عربية منذ نشأتها وأن أصل الأسرة المالكة التى تعاقبت على حكم هرمز ترجع إلى أصول عربية يمنية وقد كتب أحد حكامها تاريخا كاملا عن تلك المملكة هو الأمير «طوران» ومؤسس هذه السلالة هو الأمير «محمد درهم كوب» وهو شيخ عربى جاء من اليمن وعبر الخليج العربى وكون مملكة هناك وقد يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن العاشر واستمرت هرمز تحتل مكان الصدارة والتجارة البحرية إلى أن قضت جحافل المغول على الدولة العباسية وسقطت عاصمتها بغداد فى عام ١٢٥٨وحينئذ لم تسلم مملكة «هرمز» من الدمار عندما تمكن «التتار» فى عام ١٣٠١ من شن غارات مستمرة على المدينة والاستيلاء على

كل شئ فيها وعمدوا الذبح والتقتيل فى سكانها ومما يستلفت النظر أن الطاقة التجارية الكبيرة التى تمتع بها سكان هرمز لم تجعلهم يستسلمون لغارات المغول المدمرة وإنما انتقل «بهاء الدين» الملك الخامس عشر من السلالة الحاكمة اليمنية مع شعبه ، وهجروا مدينتهم فى البر الاصلى إلى جزيرة «قشم» وأخيرا إلى جزيرة «جيرون» وهو الاسم الاصلى لجزيرة «هرمز» والتى لاتبعد كثيرا عن مدينتهم القديمة وأخذوا من هناك يزاولون نشاطهم التجارى وبمضى الزمن أخذت جزيرة «جيرون» تنتعش اقتصاديا وتستعين مجد هرمز القديمة وتيمنا بعظمة مدينتهم السابقة هرمز اطلق «اياز» الملك السادس عشر ابن بهاء الدين وملك لهرمز الجديدة نفس الاسم القديم لمملكته وتمت هرمز واصبحت عاصمة لأكبر تنظيم سياسى وتجارى عربى شهدته المنطقة .

أدى تفسخ مملكة هرمز فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى إلى افساح المجال لظهور مجموعة من القوى السياسية خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر واستطاعت تلك القوى منازعة هرمز فى سيادتها وظهر ذلك واضحا على عهد الملك «سيف الدين مهار» الذى شهد حكمه اضطرابًا سياسيا وصراعا اسرى خطير مكن «الجبور» من الاطاحة بسيادته وأحرزوا نجاحا فى انتزاع الإحساء والقطيف من أيدى حكامها السابقين الذين كانوا خاضعين لملوك هرمز ؛ وساعد «الجبور» على تثبيت نفوذهم فى الإحساء ذلك الصراع اعطى الجبور فرصة التدخل فى مملكة هرمز ذاتها حين استعان بهم «فخر الدين » ضد أخيه وعندما انتهى الأمر بفوذه على أخيه ووصوله إلى الحكم فى عام ١٤٣٩ كانت المكافأة التى غنمها الجبور هى التوسع فى رقعة اراضيهم حين ضموا القطيف وما كاد ينتصف القرن الخامس عشر حتى كان «الجبور» قد نجحوا فى السيطرة على البحرين وتمكنوا من تسيير دفة أمورهم مستقلين تماما عن مملكة هرمز واصبح شيخ الجبور بلقب سلطان البحرين والقطيف والاحساء ولم يقتصر امتداد سيطرة الجبور على تلك المناطق المشار إليها وإنما امتد نفوذهم إلى كثير من المقاطعات والموانئ العمانية فكان هذا التعظام فى النفوذ الذى بلغه الجبور دافعا لاستئناف الصراع بينهم وبين ملوك هرمز وكان من سوء الطالع أن يواكب ذلك الصراع وصول البرتغاليين إلى سواحل عمان وشرق الجزيرة العربية فعملوا على تعميقه تحقيقا لمصالحهم فى حين كانت الأوضاع فى الاحساء والبحرين تتأرجح بين سيطرة الجبور وسيادة مملكة هرمز كانت الأوضاع السياسية فى عمان أكثر اضطرابا ففى الوقت الذى كانت فيه المناطق الساحلية من عمان فى

قبضة ملوك هرمز كانت المقاطعات الداخلية فى ايدى الملوك النبهانيين الذين كانوا يخوضون صراعا مريرا ضد الاباضيين المتحمسين لبعث الامامة الاباضية لخوض ذلك الصراع رغبتهم فى التخلص من نفوذ «هرمز» و «النباهنة» معًا وحول منتصف القرن الخامس عشر نجح الامام عمر بن محمد الخروصى فى انتزاع الحكم من «النباهنة» واعلن بعث الامامة الاباضية إلا أنه لم يلبث أن أن اطيح به من قبل النبهانيين بعد اعوام قليلة قضاها فى الحكم (١٠).

جعل ذلك الامام عمر الخروصى يستعين بالجبور فى الإحساء الذين نجحوا فى اعادة تنصيبه اماما على عمان فى عام ١٤٨٧ وطرد الملك النبهانى سليمان وكان من الطبيعى أن تصبح عمان الداخل فى دائرة نفوذ الجبور خاصة حينما تجدد القتال بين «الاباضيين» و «النبهانيين» على عهد الامام محمد بن اسماعيل الذى خلف الامام الخروصى الذى نجح فى قتل الملك سليمان النبهانى بفضل استعانته بالجبور أول مرة فى عام ١٥٠٠ ولعل ما يؤكد تفوق نفوذ الجبور فى عمان أن البرتغاليين حينما دخلوا الخليج أول مرة فى عام ١٥٠٧ تحدثوا عن قوتهم حتى أن «الفونسودى البوكيرى» ذكر أن عمان الداخل كانت خاضعة لشيخ من شيوخهم الذى وصفه بملك «الجبور» .

بدأ الجبور يشنون هجمات مستمرة على مملكة هرمز وأنهم كانوا يشكلون خطرا عليها وأن السلطان أجود بن زامل الجبرى الذى كان من أشهر سلاطينه الذى بلغت سلطة الجبور على عهده أقصى اتساع لها فى الإحساء والقطيف والبحرين وعمان بل أنه كان يفرض الجزية على بعض الملوك المجاورين له وان الصراع الذى كان قائما بين ملوك هرمز وشيوخ الجبور كان هو الوضع السائد فى شرق الجزيرة العربية حين وصل البرتغاليون إلى سواحله . وعلى الرغم من أن الجبور كانوا هم القوة الصاعدة إلا أن هرمز كانت هى القوة الرسمية المتصدية لزعامة المنطقة وكان عليها أن تتكفل بحماية عمان وشرق الجزيرة العربية من الاحتلال البرتغالى المفاجئ برغم التفكك السياسئ الذى كانت تعانى منه ، وأن «البوكيرك» وبرغم ما عرف عنه من تسلط فانه كان يبدى اعجابه بالزدهار الاقتصادى الذى كانت عليه المدن العمانية وفيما يبدو أن الزراعة تركت انطباعا قويا لدى «البوكيرك»فكتب عن قلهات وهى أول ميناء تصل إليه سفنه فى عمان أن كل مؤن سكانها من القمح والشعير والذرة والتمور تأتى من الداخل الذى يفيض بهذه المحاصيل كما ذكر عن قلهات بأنها ميناء عظيم للشحن البحرى إذ كانت تأتى إليها الكثير من السفن لنقل التمور والخيول إلى الهند . أما عن مسقط فقد ذكر عنها

أنها مدينة كبيرة كثيفة السكان محاطة من الداخل بسلسلة من الجبال الشاهقة وأما على الجانب الساحلى فهى تطل على البحر وميناؤها صغير محمى من جميع الجهات من العواصف وهى المنطقة الحرة الرئيسية فى مملكة هرمز ولابد أن تمر فيها جميع السفن التى تريد العبور الملاحى فى هذه المناطق وذلك للاحتماء من الساحل المواجهة الذى تكثر فيه المياه الضحلة وذكر البوكيرك أن مسقط تعد جزءا من مملكة هرمز وأن كانت مقاطعاتها الداخلية تخضع لحكام الجبور الذين تمتد سلطتهم إليها ، كما وجد «البوكيرك» فى صحار مدينة جميلة ذات منازل انيقة ولاحظ أن الاراضى الواسعة الممتدة وراءها مزروعه بالقمح والذرة والشعير كما أن تربية الماشية والخيول تكثر بتلك المزارع لوجود المراعى والاشجار بها [١١].

المراجع

١- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - الدولة السعودية الأولى ص١٢٨ .

٢- د. السيد رجب حراز - الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ص١٠٥ .

٣- د. فتوح عبد المحسن الخترش - تاريخ العلاقات السعودية - اليمنية ص٧ .

٤- الطبرى ٨ / ٢٧٢ والمعبر لابن حبيب ٤٨٣ والجرح والتعديل ٣ / ٥٦١ .

٥- اريك ماكرو - اليمن والغرب ١٥٧١ - ١٩٦٢ ص١٢ .

٦- سقاف على الكاف - حضرموت عبر أربعة عشر قرناً ص٩ .

٧- سعيد عوض باوزير - صفحات من التاريخ الحضرمى ص٦٠ .

٨- محمد بن أحمد بن عمر الشاطرى - أدوار التاريخ الحضرمى ص١٦٩ .

٩- سقاف على الكاف - المرجع السابق ص٥٥ .

١٠- د. جمال زكريا قاسم - الخليج العربى عصر التوسع الأوروبى الأول - دار الفكر العربى ص٥٩ .

١١- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع .

الفصل الأول

الجزيرة العربية فى العصر العثمانى الأول ١٥٠٧ - ١٦٣٥

أولاً : الاستعمار البرتغالى وجنوب وشرق الجزيرة العربية .

ثانيا : الحجاز تحت الحكم العثمانى فى العصر الأول ١٥١٧ - ١٦٣٥ .

ثالثًا : اليمن تحت الحكم العثمانى فى العصر الأول ١٥٣٨ - ١٦٣٥ .

رابعًا : حضرموت تحت حكم السلطنة الكثيرية .

خامسًا : عمان تحت حكم الأئمة الإباضية .

أولاً : الاستعمار البرتغالى وجنوب وشرق الجزيرة العربية

استمرت سواحل شرق وجنوب وغرب الجزيرة العربية محتفظة بسماتها ومقدماتها العربية طيلة العصر الاسلامى المزدهر وهو العصر الذى شهد تفوقا فى القوى الملاحية ، والتجارية العربية ليس فى ساحل الجزيرة العربية فحسب وإنما فى بحار الشرق بصفة عامة ، إلى أن أخذت هذه القوى تصاب بالتمزق الشديد الذى حدث نتيجة الزحف الاستعمارى على بحار الشرق الذى استهله البرتغاليون وما تبعها من احكام سيطرتهم على المنافذ البحرية العربية التى كانت تمر منها تجارة الشرق إلى أوربا ، عن طريق البحر الأحمر والخليج العربى . ويمكن أن نطلق تعبير العصر الذهبى للملاحة والتجارة فى السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للجزيرة العربية على الفترة التاريخية الممتدة من أواسط القرن الثامن حتى اوائل القرن السادس عشر الميلادى ؛ أو على وجه التحديد بين عامى ٧٥٠ هـ و ١٥٠٧ . كانت موانئ الجزيرة العربية تقوم بدور رئيس فى الوساطة التجارية بين الشرق والغرب وتحدد هذه الفترة من نشؤ الدولة العباسية فى بغداد حتى وصول البرتغاليون إلى سواحل الجزيرة العربية عام ١٥٠٧ وكان الخليج العربى والبحر الأحمر خلال هذه الفترة من اهم المعابر التجارية فى آسيا وشرق افريقيا ، وعن طريقهما كانت تمر منتجات الهند والصين وجنوب شرق آسيا إلى اسواق الشام ومصر عن طريق موانئ الجزيرة العربية . والعكس من ذلك كانت تعبر السلع الواردة من اوربا من هذا الطريق نفسه إلى الهند والشرق الأقصى .

ساعد هذا الانتعاش التجارى على ظهور كثير من المدن والموانئ التجارية على سواحل شرق وجنوب وغرب الجزيرة العربية ، ابتداء من البصرة - البحرين - هرمز - مسقط - شحر - مكلا - عدن - حديدة - مخا - جدة - وكان هذا النشاط والازدهار ينعكس على المناطق والمدن الداخلية مثل بغداد ونزوى وتريم وسينون وشبام وتعز وصنعاء وغيرها وقد حققت تلك الموانئ والمدن قدرا كبيرا من الثروة والازدهار ، ولكن هذه المدن برغم ازدهارها وثرائها كانت تتأثر بضغط الاحداث السياسية التى كانت كثيرا ما تتوالى على المنطقة ؛ مثل حركة القرامطة فى البحرين ، وسقوط الدولة العباسية فى بغداد وغزوات المغول المدمرة . إلى أن تدهورت بعد مجئ البرتغاليين عن طريق جنوب افريقيا وتحويلهم تجارة الشرق إلى الطريق الذى عرف باسم طريق رأس الرجاء الصالح . وذلك منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وخلال فترات الازدهار الاقتصادى لسواحل الجزيرة العربية فى المرحلة التى سبقت مجئ

البرتغاليين . كان لعرب «الحضارمة» ادوار رئيسية فى تجارة الشرق والذين سلكوا الطريق البحرى إلى الصين وقاموا بدور اساسى فى انشاء العديد من المدن والموانئ التجارية على طول سواحل جنوب شرق آسيا والهند والساحل الشرقى لافريقيا من «راس جرد فون» شمالا حتى «خليج دلنجادو» جنوبا وبينما كان عرب حضرموت سادة على التجارة فى بحار الهند والصين كان الإيطاليون من أهالى «جنوة» و«البندقية» و «فلورنسة» يحتكرون الوساطة التجارية فى البحر الأبيض المتوسط بين آسيا واوربا ومن المعروف أن التجارة بين الشرق والغرب كانت منذ القدم تسلك البحر الأحمر ومصر ، والخيج العربى والعراق والشام ولما كان كل من الطريقين يقع تحت السيطرة العربية المباشرة فان ذلك كان سببا فى ان يبحث تجار وسط وغرب اوربا عن طريق آخر يصلهم إلى الشرق مباشرة .

ظلت تلك الفكرة تراود الأوروبيين فترة من الزمن تغذيها حدة الاضطرابات والازمات السياسية التى كانت تتعرض لها تجارة الشرق بين حين وآخر ، ومؤثر فيها تأثيرا شديدا ويمكننا أن نسوق بصدد ذلك مقدار ما احدثه الغزو المغولى للعراق على يد «تيمورلنك» فى عام ١٢٥٨ من آثار سيئة على تجارة شرق الجزيرة العربية ، وعلى الوساطة التى كان العرب يقومون بها بين الشرق والغرب ؛ بالإضافة إلى تأثير ذلك الغزو فى الوقت نفسه على طريق التجارة البرى الوعر الذى كان يسلك أواسط آسيا إلى شبه جزيرة الاناضول . ومما تجدر الإشارة إليه أنه على الرغم من أن الظروف السياسية المضطربة كانت تجعل تجار أوربا يفضلون التعامل مع ذلك الطريق برغم قسوة مسالكه والخطورة التى كانت تتعرض لها قوافل التجارة العابرة فيه إلا أن فتح العثمانيين «للقسطنطينية» فى عام ١٤٥٣ جعل المسلمين يتحكمون فى تجارة هذا الطريق أيضا ولعل ذلك مما حفز الأوروبيين إلى التطع إلى طريق آخر يتخلصون به من الوساطة الإسلامية فى تجارة الشرق ، فضلا عن تعرض تجارتهم لخطر التوقف فى بعض الأحيان بسبب الاضطرابات السياسية التى كان يتعرض لها الشرق الاسلامى . ناهيك عن وصول تجارة الشرق إلى أوربا بأثمان باهظة بسبب ما كان يفرضه عليها المماليك فى مصر والشام من مكوس جمركية متعددة وبسبب ما كان يقوم به تجار «جنوة» و «البندقية» من مغالاة فى وساطتهم التجارية ؛ حين كانت تصل هذه التجارة إلى موانئ البحر المتوسط ويحملونها بسفنهم إلى الأسواق الأوروبية ، ومن ثم كان واضحا أن مجيئهم عن طريق بحرى مباشر غير مطروق بين أوربا والشرق سيعود عليهم بثروة ومكانة عظيمتين وخاصة مجئ فاسكو دى جاما عن طريق جنوب افريقيا والوصول إلى الهند عام ١٤٩٧.

أثر ذلك على زوال السيادة العربية - الإسلامية على التجارة بين آسيا وأوربا ، ولم يقتصر الأمر على تدهور الأوضاع الاقتصادية الإسلامية فحسب ؛ وإنما كان واضحًا أن «فاسكو دى جاما» بوصوله إلى الهند وضع أول ركيزة للاستعمار الأوربى للشرق الإسلامى فى العصر الحديث . ومن ناحية أخرى أثر هذا الطريق البحرى المباشر تأثيرا سيئا على تجارة سواحل الجزيرة العربية وخاصة «الحضارمة» الذين كانوا مسيطرين على أسواق الشرق وتحويلهم التجارة إلى الطريق المكتشف الجديد مما ترتب عليه تأثير اقتصادى سيئ على عرب سواحل الجزيرة العربية الذين كانوا يجنون أرباحا كبيرة من جراء عبور التجارة الآسيوية وخاصة تجارة التوابل التى كانت تجد رواجا كبيرا فى الأسواق الأوربية فى مياههم . ويشهد بذلك ازدهار مدنهم وموانئهم ذلك الازدهار الذى اعترف به البرتغاليون انفسهم وما لبث البرتغاليون بعد وصولهم إلى مصادر تجارة الشرق أن صارعوا المسلمين بعنف وقسوة واستطاعوا أن يقضوا على وساطتهم التجارية ويحتكرون التجارة لأنفسهم ويضعفوا ما كان للعرب والمسلمين فيها من نشاط ظاهر . ناهيك عما اتسم به الصراع الذى نشب بين البرتغاليين والمسلمين بنزعات غير انسانية وتعصب دينى صارخ أعاد إلى الأذهان ذكرى الحروب الصليبية فى العصور الوسطى [٢].

١- الصراع البرتغالى - المملوكى :

أصبحت دولة المماليك منهكة لدورها الذى بذلته لانقاذ العالم الاسلامى من الخطر المغولى والصليبى ثم زاد فى انهاكها فقدانها للرسوم التى كانت تحصل عليها بعد تحويل البرتغاليون الطريق التجارى إلى رأس الرجاء الصالح ، ومع ذلك لم تتقاعس فأرسلت اسطول إلى جدة عام ١٥٠٥ لحماية الاماكن المقدسة فى الحجاز من البرتغاليين والاحباش للاطاحة بالقوى الإسلامية . وكان البرتغاليون قد بعثوا بسفنهم للزحف نحو مكة المكرمة والمدينة المنورة وعندما علموا بوجود الاسطول المملوكى فى جدة لاذو بالفرار . وكان البنادقة قد تمكنوا من احتكار التجارة الشرقية ومن مقاومة لكل تحد لهم ومن المحافظة على تفوقهم التجارى ، ومن تكوين نفوذ قوى لهم لدى السلاطين المماليك فى القاهرة لما لهم من خصائص تجارية ومهارة دبلوماسية وحب للمغامرة ، وقد خشى البنادقة أن يفقدوا دور الوسيط الذى قاموا به فى التجارة الشرقية لذلك حثوا السلطان المملوكى على القيام بجهد مشترك ضد البرتغاليين الذين شكلوا خطراً محققا على مستقبلهم التجارى ، كما طلبوا منه أيضا تخفيض اسعار

التوابل فى الاسكندرية . كذلك ادرك «الزامورين» بعد حروبهم مع البرتغاليين أن سفنهم غير متكافئة مع السفن البرتغالية الثقيلة التسليح وأن حظهم فى تحقيق الانتصار على الاسطول البرتغالى فى العمليات الحربية البعيدة عن الساحل ضئيل ولذلك طلبوا مساعدة السلطان المملوكى «قانصوه الغورى» الذى تربطه بهم علاقات المودة والصداقة وكانت «قاليقوط» مركز التجارة العربية فى الهند يغادرها فى كل موسم إلى البحر الأحمر . حوالى خمس عشر سفينة محملة بالتوابل وبضائع الهند حيث تعيد الموانئ المصرية والسورية تصديرها إلى أوربا؛ وكان السلطان المملوكى يتقاضى رسوما على هذه التجارة تصل إلى ١٠٪ كذلك استنجد حاكم «كجرات» مظفر شاه بن محمود شاه بالسلطان المملوكى لمساعدته ضد البرتغاليين تضررت دولة المماليك اقتصاديا نتيجة لتحويل البرتغاليين الطريق رأس الرجاء الصالح ومنافستهم التجارة المملوكية فى مصر والشام ، مما أصاب موانئ السويس والاسكندرية والبصرة وطرابلس فى صميم تجارتها ، ونجم عن ذلك أزمات مالية واقتصادية جعلت من الصعوبة أن يتمكن المماليك من بناء أسطولهم البحرى بجمهودهم الخاصة لاسيما بعد استيلاء البرتغال على جزيرة «سوقطر» فى مدخل البحر الأحمر وجزيرة هرمز فى مدخل الخليج العربى عامى ١٥٠٧ - ١٥٠٨ فى حين كانت اسواق مصر والشام قبل مجئ البرتغاليين تتكدس فيها التوابل ، فبعد سيطرة البرتغاليين لم تجد سفن البندقية شيئا فى مصر والشام فعادت بدون حمولة فى الوقت الذى كانت فيه السفن البرتغالية تنقل آلاف الاطنان من البضائع الشرقية وتفرغها فى لشبونة لتوزيعها على المدن الأوربية ، وبذلك تمكن البرتغال من حرمان العرب من القسم الأكبر من تجارة التوابل وهكذا تدهورت الأوضاع الاقتصادية فى مصر والشام إلى حد كبير ، فقد فشل العرب فى تهريب كميات كبيرة من التوابل وخرب ميناء جدة بسبب عبث البرتغاليين فى المحيط الهندى ولم تدخل البضائع إليه منذ عام ١٥٠٨ وكذلك خلت مدينة الاسكندرية من أعيان التجار وأصبحت فى غاية الخراب وفقد تجار البندقية فيها كل أمل فى اعادة احياء الطريق التجارى عبر البحر الأحمر .

بادرت الدول الإسلامية التى كان يهمها استمرار التجارة عبر الطرق البرية والبحرية القديمة بمساعدة القوى المحلية الاسلامية فى صراعها ضد البرتغاليين ، فقامت دولة المماليك التى كانت تحكم مصر والشام والحجاز واليمن ، بالتعاون مع تلك القوى وكذلك مع البنادقة التى انهارت تجارتهم ووحدت المصالح الاقتصادية بينهم وبين القوى الاسلامية ، بزعامة

المماليك للتصدى للسيطرة البرتغالية ونشط السلطان «قانصوه الغورى» نشاطا سياسيا وعسكريا وطلب من القوى الأوروبية التدخل لوقف الغزو البرتغالى ومنعهم من المضى فى سياسة الاستفزاز الدينى للمسلمين وذهب فى تحذيره إلى حد التهديد بتدمير الاماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين ومنع الحج إلى الأراضى المقدسة المسيحية فيها ، ولم يكن فى وسع السلطان المملوكى تجاهل الخطر البرتغالى كما ولم يكن له بد من تلبية نداء أمراء الهند المسلمين بتقديم المساعدة العسكرية لهم ضد الخطر البرتغالى المشترك . فبدأ المماليك فى مصر فى بناء أسطول لحرب البرتغاليين واعادة السيطرة على التجارة الشرقية ولكنهم واجهوا صعوبات جمة فى بناء الاسطول ؛ فمصر وبلاد الشام والجزيرة العربية لاتنتج من الاخشاب ما يصلح لبناء سفن قوية ولذلك استنجد السلطان المملوكى «قانصوه الغورى» بالسلطان العثمانى الذى بادر بارسال الاخشاب والحبال وغيرها من المواد اللازمة لبناء ثلاثين سفينة كما أرسل إليه ٣٠٠ مدفع و٥٠ سارية و٣٠٠٠ مجداف وعددا من الخبراء ولكن «فرسان مالطة» الذين كانوا ينطلقون من جزيرة «رودس» للسطو والقرصنة على سفن المسلمين نهبوا لبعض هذه الشحنات فأرسل السلطان العثمانى شحنات غيرها ، ومهما يكن من أمر فقد وصلت كميات من المواد المطلوبة لبناء السفن إلى الموانئ المصرية على البحر المتوسط ثم انتقلت على ظهور الجمال إلى «السويس» وتمكن الصناع من بذل جهدهم لبناء سفن ملائمة للملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وأنجزوا بناء تسع عشرة سفينة مسلحة بالمدافع(٦).

أرسل السلطان «الغورى» أسطوله إلى الهند بعد أن فرغ من بنائه بقيادة الأمير حسين الكردى وفيه مالا يقل عن ١٥٠٠جندى وكان هدفه جزيرة «ديو» لاتخاذها قاعدة له لاقامة الاتصال بواسطتها مع اسطول «قاليقوط» وبعد ذلك يقوم الاسطولان المملوكى والهندى بمهاجمة الاسطول البرتغالى وكان الاسطول المملوكى قد استفاد من انشغال البرتغاليين فى «جزيرة هرمز» فلم يلق فى طريقه عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى صعوبات ؛ كذلك بادر المتحاربون فى اليمن إلى تناسى خلافاتهم وعقد الصلح بين عامر حاكم عدن ومحمد بن حسين البهال حاكم «صعدة» وتوجه «البهال» إلى الهند للاشتراك فى حرب البرتغاليين وقد فوجئ البرتغاليون وهم فى «هرمز» بأنباء خروج الاسطول المملوكى من البحر الأحمر ووصوله سالما إلى الهند وعندما وصل الأمير حسين الكردى إلى جزيرة «ديو» انضمت إليه سفن

«الزامورين» حاكم «قاليقوط» حيث اشتبك الاسطولان فى صيف ١٥٠٨ فى ميناء «تشاول» فى منتصف الطريق على الساحل حيث دارت معركة عنيفة بالمدفعية ، وفشل البرتغاليون فى النزول على ظهر السفن المملوكية وبعد يومين من الحرب بالمدافع عزم البرتغاليون على الفرار ومثل هذه الكارثة أثبت للبرتغاليين أن عدوا يكافئهم فى العتاد ويفوقهم فى المهارة البحرية قد برز لهم فى المياه الهندية ولكن نائب الملك البرتغالى «فرانسيسكو دالميدا» جمع ما لديه من سفن وجنود وبلغت ١٨ سفينة و ١٢٠٠ رجل واشتبك مع الأمير حسين الكردى فى ٣ فبراير ١٥٠٩ خارج ديو غير ان الاشتباك لم يكن حاسما ، ولم يستطيع أي من الطرفين إدعاء النصر لنفسه وانسحب الاسطول المملوكى من المياه الهندية بسبب خيانة حاكم «كجرات» (٧).

برحيل الامير حسين الكردي والاسطول المملوكى من المياه الهندية فى عام ١٥٠٩ ثبت البرتغاليون ادعاءهم بالسيادة فى البحار الشرقية وأصبحت لهم السيادة فى اعالى البحار التى لاينازعهم فيها أحد بذلك وضعوا تجارة الشرق تحت رحمتهم لأكثر من قرن ورغم النتيجة التى اسفرت عنها معركة «ديو» البحرية فى عام ١٥٠٩ فان السلطان الغورى عاد فأرسل وحدات بحرية جديدة من «السويس» وكلف الامير حسين الكردى مرة أخرى فى عام ١٥١٦ بمطاردة الاسطول البرتغالى وابعاد خطره عن البحر الأحمر فأبحر الاسطول المملوكى من السويس قاصداً جدة وبنى الامير حسين حولها سورا سخر أهل «جدة» فى العمل به ، مستعملا معهم وسائل العنف والشدة ثم قصد الاسطول موانئ اليمن وانشغل حسين الكردى فى حرب مع امرائها فهاجم عدن لرفض حاكمها تقديم المؤن والذخائر لاسطوله وشجعه الامام المتوكل يحيى شرف الدين فى جهوده للقضاء على دولة بنى عامر فى عدن ودخل الامير حسين الكردى «زبيد» فى يونيو ١٥١٦ ثم عاد إلى جدة حيث بلغته الاخبار باعلان الحكم العثمانى على مصر والشام والحجاز والقى شريف مكة القبض عليه وقتله بأمر من السلطان العثمانى سليم الأول . ولما كان هدف «البوكيرك» الاساسى تأسيس قاعدة برتغالية منيعة فى الهند يستطيع من خلالها أن يفرض بالقوة السيادة البرتغالية على المياه الشرقية وبما أن «كوتشين» القائمة على جزيرة صغيرة لاتتجاوز مساحتها نصف ميل مربع والوحيدة الخاضعة للسيطرة البرتغالية آنذاك غير صالحة لتحقيق اهدافه فانه قرر التوجه نحو «قاليقوط» ولكن محاولة البوكيرك الاستيلاء عليها منيت بالفشل ولحقت بالبرتغاليين خسائر جسيمة وجرح

«البوكيرك» ونقل إلى سفينته فاقدا وعيه وبذلك انتهت أول محاولة برتغالية تحدى حكام الهند براً بكارثة تركت اثرها على البرتغاليين وغيرهم من القوى الأوربية التى ستلحق بهم إلى البحار الشرقية حيث لم تحاول دولة أوربية لمدة مائتين وثلاثين عاما للقيام باحتلال عسكرى او اخضاع حاكم هندى لاستعمارها باستثناء الاحتلال البرتغالى «لغوا» عام ١٥١٠ التى تحولت إلى قاعدة برتغالية بسبب موقعها الاستراتيجى المهم فى منتصف الطريق بين مينائى «كوتشين» و «قاليقوط» فى الجنوب وميناء سورات فى الشمال وتم ذلك الاحتلال بمساعدة الحكام «الهندوس» نكاية بالحكام المسلمين آل عادل شاه فى نطاق الصراع الدائر بين الجانبين (٨).

لم يتمكن المماليك من القيام بمحاولات أخرى ضد السفن البرتغالية بسبب انشغالهم ضد العثمانيين حيث انهزموا فى عام ١٥١٦ وورثوا التبعات الملقاه على عاتقهم وفى مقدمتها مواجهة الخطر البرتغالى الذى وضع نهاية للتفوق الملاحى العربى لتبدأ منذ ذلك التاريخ حقبة جديدة من السيطرة الاستعمارية الاحتكارية على تجارة الشرق .

لم يكتف البرتغاليون بتحويل تجارة الشرق إلى الطريق البحرى المباشر إلى غرب اوربا عبر رأس الرجاء الصالح ، وإنما عملوا على احكام سيطرتهم على الطرق البحرية الأخرى حتى تصبح جميع منافذ التجارة فى ايديهم ؛ ومن ثم اتجهوا إلى السيطرة على «هرمز» وموانئ حضرموت وخاصة شحر وعدن للاستفادة من مرور هذه التجارة لمصلحتهم إمعانا فى تطبيق سياستهم الاحتكارية وقد سيطرت الروح الصليبية على ضباط البحرية البرتغالية الذين نشأوا فى وقت كان الصراع فيه يدور على اشده بين المسلمين والمسيحيين فى شبه جزيرة «ايبريا» فأشربوا فى قلوبهم الرغبة العنيفة فى الانتقام من المسلمين ، ويجسد هذه الحقيقة الضابط البحرى «الفرنسو دى البوكيرك» الذى استهل حياته العسكرية فى الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم انتقل إلى ميدان الصراع الصليبى فى بحار الشرق واتجه إلى تدمير الاساطيل العربية والتخلص منها باعمال شاذة غير انسانية ضد البحارة العرب (٩).

٢- الصراع البرتغالى - العدنى

عدن والبرتغال :

تعرضت عدن خلال النصف الأول من القرن السادس عشر لكثير من الضغوط الاستعمارية البرتغالية التى استهدفت احتلالها والسيطرة عليها وذلك لما كانت تتمتع به من أهمية

استراتيجية وتجارية وواجهت عدن وشعبها وحكامها هذه الضغوط بأساليب مختلفة فأحيانا اعتمدت عدن على حصانتها الطبيعية وثانية أظهرت المقاومة الباسلة وكانت عدن مركزا لتجارة الهند والشرق الاقصى فى العصور الوسطى ، وتجارة الخليج العربى وشرق افريقيا سواء كانت هذه التجارة والسلع للإستهلاك المحلى أم لاعادة التصدير بعد ذلك لأوربا وعلى هذا الأساس اصبحت عدن قاعدة هامة للتجارة العربية ؛ وبفضلها أحرز العرب سيطرة مهمة على التجارة العالمية فى العصور الوسطى إلى أن ظهرت قوى بحرية جديدة ونزلت إلى الميدان وعملت على انتزاع تجارة الشرق من أيدى العرب ؛ وكان وصول البرتغاليين إلى المياه العربية الجنوبية عند مطلع القرن السادس عشر قد جعل لعدن أهمية استراتيجية كبيرة خاصة وأنها كانت تعتبر بمثابة القاعدة الامامية للقوى الوطنية فى المنطقة ويمكن عن طريقها مواجهة قوات الاستعمار البرتغالى الذى كان يضع نصب عينيه الدخول إلى البحر الأحمر ومهاجمة الموانئ التجارية العربية هناك . ولما كان الهدف النهائى لسياسة البرتغاليين هو السيطرة التامة على التجارة الشرقية وانتزاع الموانئ العربية من أيدى العرب فقد أصاب «عدن» الكثير من تلك السياسة ذلك لأن البرتغاليين عمدوا إلى القضاء على أهمية عدن التجارية وزادوا من اظهار اهميتها الاستراتيجية الحربية . وكانت عدن حينذاك خاضعة للدولة الطاهرية اليمنية فى عهد الامير عامر بن عبد الوهاب الطاهرى الذى امتد حكمه حوالى تسعة وعشرين عاما ١٤٨٩- ١٥١٧ .

جذبت أهمية عدن التجارية انتباه الأسر الحاكمة ومن بينها أسرة الطاهرين فازداد اهتمامها بها فأصلحت مبانيها وأقامت الأسوار حولها وشيدت دار الجمرك لتحصيل الرسوم التى تفرض على البضائع الواردة أو الصادرة وأنشأت العديد من الدور والمخازن والأسواق فانتعشت عدن فى ايامها انتعاشا كبيرا وقد وصف عدن الرحالة البرتغاليون الذين رافقوا الحملات البرتغالية فى بداية القرن السادس عشر بأنها من أكثر بلدان العالم تجارة وبأن بها أكثر التجار ثراء إذ كانت تفد إليها السفن العديدة من مختلف البقاع ؛ فكانت هذه السفن تفد إليها من جدة محملة بالبضائع الأوربية والمصرية والسورية كما كانت السفن تفد إليها من موانئ ساحل افريقيا الشرقى مثل «زيلع» و «بربرة» و «ملندى» و «كلوة» و «ممباسا» محملة بالمواد الغذائية أو بسبائك الذهب والفضة ومن موانئ ساحل الهند الغربى مثل «ديو» «قاليقوط» أو موانئ جزر الهند الشرقية مثل «ملقا» «جاواه» وبعد أن أدرك البرتغاليون

هذه الأهمية التجارية «لعدن» راحوا يخططون لإنهاء دورها وأصبح الاعتقاد السائد لدى «البوكيرك» ١٥٠٩ - ١٥١٥ بأن الاستيلاء على عدن هو من أهم الوسائل للقضاء على وصول التجارة الشرقية إلى البحر الأحمر التى كانت لاتزال تصل بكميات كبيرة وعلى ذلك صارت عدن جزءا من المخططات الاستعمارية البرتغالية ، اصبح امر السيطرة على عدن جزءا من السياسية البرتغالية التى هدفت ايضا إلى السيطرة على كل من «هرمز» و «ملقا» باعتبارها أهم مركزين تجاريين وعسكريين يتحكمان فى التجارة الشرقية ؛ ولذلك ابتداو يعدون العدة لغزو عدن ووضعوا الأمر موضع التنفيذ لأول مرة(١٠) عام ١٥١٣ .

قدم البرتغاليون إلى عدن فى فبراير ١٥١٣ على رأس قوة بحرية مؤلفة من عشرين سفينة تحمل على ظهرها ألفا وسبعمائة جندى برتغالى وثمانمائة جندى من «مليبار» تحت قيادة «البوكيرك» فوصلوا إلى عدن فى مارس ١٥١٣ وهاجموا عدن ووضعوا السلالم على اسوارها فتسلقها حوالى ٢٠٠ مقاتل من البرتغاليين وبحوزتهم كميات كبيرة من المعدات ودخلوا المدينة ، وهناك دارت معركة بينهم وبين المدافعين من سكان المدينة ودارت الدائرة فيها على البرتغاليين الذين ولو الإدبار وكان سكان عدن قد اعدوا العدة لملاقاة البرتغاليين وكانت خطتهم فى ذلك تقوم على اظهار عدم التعرض للبرتغاليين والتخفى داخل المدينة ومباغتة العدو عنه الهجوم ، وقد اثبتت هذه الخطة نجاحها لا فى أثناء هذا الهجوم فحسب ؛ بل وفى أثناء معاودة البرتغاليين الهجوم عليها بعد رجوعهم من البحر الأحمر فى العام نفسه إذ وجدوا المدينة وقد أحيطت بسور جديد وأبراج عديدة ويظهر بأنها قد بنيت حديثا من قبل سكان عدن تحسبا لأى عدوان برتغالى آخر . ولم يمكن هذا الوضع البرتغاليين من تحقيق هدفهم فى عدن بل إنه كان بمثابة ضربة شديدة إلى هيبتهم البحرية والعسكرية فى المنطقة العربية لأنه جاء فى وقت كانوا فيه فى ذروة قوتهم أيام «البوكيرك» لم يكن الفشل الذى لاقاه البرتغاليون فى عدن عام ١٥١٣ ليقضى على فكرتهم فى محاولة السيطرة عليها مرة أخرى . وذلك لأن أهمية هذه المدينة استراتيجيا وتجاريا كانت لا تزال ضمن المخططات البرتغالية وقد عهدت مهمة تنفيذ هذا الهدف للقائد البرتغالى «لوبو سواريز» خليفة «البوكيرك» الذى وصل إلى ميناء عدن عام ١٥١٧ فى حوالى ثلاثين سفينة وابلغ سكانها أنه جاء لمساعدتهم ضد المصريين وقام مرجان الظاهرى حاكم عدن بمقابلة البرتغاليين عند الساحل وموافقته على مدهم بما يحتاجون إليه من مؤن ومرشدين وقد قبل ذلك خوفا من

مهاجمتهم عدن ويبدو أن «لوبوسواريز» لم يكن قد وضع فى خطته الاستيلاء على عدن أولا بل أجل مهاجمتها لحين عودته من البحر الأحمر ، عندما يكون قد تمكن من القضاء على الاسطول المصرى الذى كان يجرى اعداده فى السويس ولعلمه بأن المواقع والتحصينات الدفاعية فى عدن قد تخربت بسبب ما ألحقه بها المماليك من تخريب وتدمير بعد محاولتهم غزوها عام ١٥١٧ وهذا ما يجعلها فريسة سهلة بين يديه وقتما يشاء .

لم يكن سواريز» مصيبا فى تقديراته هذه ذلك لأن الامير مرجان على ما يبدو قد اغتنم فرصة انشغال البرتغاليين بالتوغل فى البحر الأحمر فعمل جاهدا علي تقوية تحصينات ميناء عدن واصلاح ما خربه المماليك وعندئذ اصبح واثقا من قوة مواقعه الدفاعية فلم يعد للأسطول البرتغالى أية أهمية بعد عودته إلى الميناء ، وفى الوقت نفسه لم يقم البرتغاليون أنفسهم بمهاجمة عدن بسبب ما لحق بقواتهم من خسائر ولعدم تأكدهم من نتائج ذلك الهجوم ولذلك تخلوا عن فكرة مهاجمتها والاستيلاء عليها فكان ذلك عين الفشل الذى منى به البرتغاليون مما تسبب فى عزل سواريز من منصبه ومنذ هذا الوقت فصاعدا أصبحت السياسة البرتغالية قائمة على اساس ارسال الحملات البحرية إلى البحر الأحمر لمراقبة النشاطات العثمانية البحرية ومحاولة عرقلتها لكى لا يدخلون معهم ميدان المنافسة فى المحيط الهندى ، وقد كانت الحملة البرتغالية إلى البحر الأحمر عام ١٥٢٠ بقيادة نائب الملك فى الهند جزءا من تلك السياسة ، وأصبح موقف الأمير مرجان المهادن للبرتغاليين سياسة تقليدية للحكام فى عدن حتى وقوعها فى أيدى العثمانيين عام ١٥٣٨ وطرأ تغير على السياسة البرتغالية بعد دخول العثمانيين مصر عام ١٥١٧ وبدأت عدن تحتل مكانة خاصة فى تلك السياسة إذ عاد البرتغاليون إلى تركيز اهتمامهم بها فعملوا على اخضاعها لسيطرتهم ، خوفا من وقوعها فى أيدى العثمانيين ففى عام ١٥٢٤ فرض البرتغاليون معاهدة غير متكافئة على عدن نصت على أن تدفع عدن خراجا سنويا للبرتغاليين وأن تفتح ميناءها امام السفن البرتغالية ، ولكن نائب الملك فى الهند رفض اعتماد تلك المعاهدة على اساس أنها لاتمثل إلا جزءا يسيرا من المطامع البرتغالية فى المنطقة ؛ ولذلك فقد تعرضت عدن فى عام ١٥٢٥ لضرب المدافع البرتغالية من قبل حملة برتغالية كانت فى طريقها إلى «مصوع» ثم جاءتها حملة برتغالية أخرى فى العام التالى ولكن الرياح ابعدتها عن عدن قبل أن تحقق أى هدف للبرتغاليين فى ذلك الحين وهكذا توالت الضغوط البرتغالية على عدن حتى اجبر حاكمها على قبول معاهدة

قاسية عام ١٥٢٩ وهى المعاهدة التى اعترف فيها بالسيادة البرتغالية على عدن واعترف البرتغاليون بحق العدنيين فى الملاحة فى المحيط الهندى بشرط عدم ذهاب سفنهم إلى جدة ؛ على إن موقف حاكم عدن إزاء البرتغاليين كان مثار غضب العدنيين ونقد ونقم الفقهاء والعلماء عليه . وكانت حجة هذا الحاكم تقوم على أن يحرص على ابعاد المدينة عن خطر الاحتلال البرتغالى الكامل لها ويؤدى إلى عدم قيام العثمانيين بمهاجمة عدن من داخل اليمن أو من جهة البحر ، ومع اخلاص هذا الحاكم لبلاده المتمثل بالقبض على البرتغاليين الموجودين فى عدن بعد وقت قليل من رحيل الحملة البرتغالية وسجنهم وتسخيرهم فى صناعة الأسلحة الحربية إلا أنه أظهر رغبته فى الطاعة والخضوع للسلطان العثمانى . وهكذا ظل حكام عدن يتعثرون فى سياستهم الخارجية ، ولم يتخذوا نهجا واضحا فى علاقاتهم مع البرتغاليين والعثمانيين ، وقد كان لهذا الموقف نتائج وخيمة على عدن وتمثلت أولا فى قبولها لشروط البرتغاليين التعسفية ثم وقوعها تحت السيطرة العثمانية المباشرة عام ١٥٣٨ .

مما زاد الأحوال اضطرابا فى هذه الفترة المحرجة من تاريخ عدن قيام على بن سليمان حاكم «خنفر» عام ١٥٤٦ - ١٥٤٧ بالاستيلاء على عدن بعد أن طرد العثمانيين منها وقام فى الوقت نفسه بالتصال بالبرتغاليين ووعدهم بالمساعدة والسماح لهم باستعمال الموانئ «العدنية» مقابل مساعدتهم له ضد الدولة العثمانية وقد ارسل البرتغاليون بالفعل بعض قطعهم الحربية إلى عدن غير أن السفن العثمانية القادمة من مصر ومن اليمن كانت قد سبقتهم ، وتمكنت من قتل على بن سليمان البدوى والحاق الهزيمة بالسفن البرتغالية التى وصلت لنصرته عام ١٥٤٨ وتكرر مثل هذا الحادث عام ١٥٦٨ وذلك عندما حاول قاسم بن شويع حاكم عدن الزيدى التحالف مع البرتغاليين ضد العثمانيين فاستدعى عشرين منهم إلى قلعة عدن ليروا قوة التحصينات فى مدينة عدن ، واتفق معهم على أن يواجهوا العثمانيين من ناحية البحر فى حين يقوم هو بمنازلتهم برا ، ووافق البرتغاليون على ذلك وتعهدوا بارسال قوة بحرية لهذا الغرض ، وبالفعل أرسل البرتغاليون سفنهم إلى عدن غير أن وصول السفن العثمانية كان اسرع منهم وقد مكن هذا الامر العثمانيين من السيطرة على الموقف بالقضاء على قاسم بن شويع من جهة ومطاردة سفن الأسطول البرتغالى من جهة أخرى وهكذا أدت هذه الاتصالات التى قام بها حكام عدن إلى زيادة المنافسة الاستعمارية حول هذه المنطقة بدلا من تقليلها،كما أدت إلى تعريض استقلال عدن للخطر سواء من جانب البرتغاليين أو العثمانيين [١٢].

٣- الصراع البرتغالى - الحضرمى

(أ) سلطنة الكثيرى

ينتمى ال كثير إلى كثير بن ظنة إلى قبيلة سبأ القحطانية لا إلى همدان القحطانية ، وفى معظم حكم السلطنة الكثيرية كان اقتسام جزء واحد أو أجزاء من حضرموت بين عدد من السلاطين كل منهم يرى نفسه ندا للآخرين وأن صادف أحيانا أن يكونوا أخوة يساعد الأصغر منهم الأكبر فى إدارة بعض البلاد ؛ ولكن ليس معنى هذا أن منزلته منزلة الامير من الملك بل أنه يرى نفسه ندا له وكفؤا لأن يجلس على كرس السلطنة لو أرادها كما جلس عليها ذلك الآخر بدون أن يفكر فى شرعية السلطنة وعدمها وبدون أن يفكر اتباعه من غوغائيين فى ذلك منذ عهد السلطان الثانى للسلاطين الكثيرين وهو عبد الله بن على بن عمر المتوفى عام ١٤٢١ أول سلطان كثيرى بحضرموت بعد التمهيد لحكمه من قبيلته نجد منذ عهد السلطان الثانى أحد اخوته وهو محمد يحكم مستقلا ويتسلط على «ظفار» وهو عبد الله سلطان حضرموت ونجد السلطان الكثيرى السادس وهو بدر بن عبدالله بن على بن عمر يناوئه ابن أخيه بدر بن محمد بن عبد الله ويتسلطن فى ناحية أخرى له حتى قتل العم ابن اخيه «بسيؤن» عام ١٤٥٤ هـ وفى زمنه يحكم «بدر» مستقلا سلطان آخر ، كما نجد السلطان بدر «ابوطويرق» له أنداد من أفراد يناوئونه فقد استقل دونه السلطان على بن عمر سلطان «شبام» كما حدث نزاع مرير بينه وبين أخيه محمد بن عبدالله سلطان ظفار ، ومن هنا نعرف أنه ينقص هذه السلطنة الوئام تحت راية سلطان واحد يطيعه الجميع ويخضعون لأوامره وينقصها نظام مقرر لولاية العهد كما ينقص أكثر سلاطين حضرموت وغيرها من ولايات الجنوب (١٣).

تعددت سيطرة عديد من القبائل على كثير من المناطق فى عام ١٣٣٤ ، وتوالت سيطرة القبائل على حضرموت وفى هذه الاثناء ظهر عنصر قبائل الكثيرى بعد أن سيطروا على ظفار فامتدت أنظارهم إلى حضرموت ، فاصطدما فى أول معركة لهم مع دولة «بنى ظنة» عام ١٤١٤ فى موقع «برمان» وكان النصر لآل كثير وتوالت هذه الصراعات إلى أن برز السلطان بدر «ابوطويرق» الكثيرى واخضع معظم حضرموت وضم ساحل «الشحر» التى كانت تحت سيطرة الطاهريين حكام عدن وبذلك نجح السلطان بدر بن عبد الله بن على الكثيرى المعروف بـ «ابوطويرق» فى توحيد حضرموت تحت سلطته (١٤).

(ب) السلطان بدر «ابوطويرق»

يمثل بدر «ابوطويرق» وهو تاسع سلطان كثيرى الطراز الأول للحاكم الحضرمى فى السياسة والجندية والتقاليد الحضرمية والتمسك بأدب الدين فتاريخه شهد له بالتفوق فى السياسة داخليا وخارجيا فهو يكاتب الدولة العثمانية والحكومة اليمنية فى عصره مكاتبة السياسى الكبير والدبلوماسى بالنسبة لذلك العهد وقد أعطته الدولة العثمانية مرسوما بتوليته على حضرموت من باب «عدن» إلى نهاية «ظفار» ولكن علاقته مع الدولة العثمانية لم تدم لصعوبة المواصلات بينها وبين حضرموت فلم تهتم به كما يجب ، وفى القيادة العسكرية يعد السلطان بدر ابوطويرق» اكبر قائد حضرمى وقد جلب له ضباط من الدولة العثمانية وجيشا صغيرا خاص منهم مجهزا بالبندقيات التى لاعهد للحضارمة بها ، وكان للجيش والسلاح الجديدين أكبر الأثر فى انتصاره ، واضعاف معنوية خصومه ولكنهما لم يلبثا أن أصبحا عاديين وانتشر السلاح الجديد بين القبائل ويظهر أن أفراد الجيش العثمانى لم تدم سيرته وسطوته التى أنشئ لها ثم انحل فيما بعد .

يعتبر السلطان بدر «ابوطويرق» من رواد الوحدة الحضرمية وكان يعلم أن التفكير فى وحدة سياسية كبرى تخضع لها جميع البلاد الحضرمية امر فى غاية الصعوبة ولكنه ليس مستحيلا فالأفراد من «آل كثير» لهم طموحهم إلى السيطرة وتطلعهم إلى النفوذ والاستغلال وهم فى سبيل ذلك مستعدون للثورة واراقة الدماء والتضحية بأمن البلاد ووحدتها الكبرى وكل قبيلة مسلحة تتحين كل فرصة لإعلان عصيانها فصم كل عروة تربطها بأية سلطة عليا فى البلاد غير الالتجاء إلى القوة التى تعتمد على عناصر من الخارج لذلك عمل «ابوطويرق» على أن يكون أكثر جيشه مؤلف من عناصر غير حضرمية فكونه من الاتراك العثمانيين ومن «يافع» والموالى الافريقيين وقبائل اليمن الأوسط من صنعاء ومأرب وغيرهم لكى يطمئن إلى ولائهم ويضمن عدم ثورتهم وانتقاضهم ، وقد وصلت إليه أول قوة عثمانية وهو «بالشحر» برئاسة قائد عثمانى يدعى رجب عام ١٥١٩ وكان لهذا التدبير اثره الفعال فى استتباب الأمن والقضاء على الفوضى وكان الحضارم يسمون الاتراك العثمانيين «الروم» ومن أجل ذلك سمو البنادق «بنادق الروم»[١٥] .

(جـ) البرتغاليون والسلطان بدر «ابوطويرق»

جرت معارك عديدة بين البرتغاليين والحضارمة فى عهد السلطان بدر«ابوطويرق» الذى حقق الانتصار فى جميع المعارك ، وفشل البرتغاليون فى احتلال أو سيطرة على أى جزء من

ساحل حضرموت ففى صباح الجمعة ٩ / ٤ / ٩٢٩هـ ١٥٢٣ م أرست ١٤ سفينة من الاسطول البرتغالى فى ميناء «الشحر» ونزلت منها القوات البرتغالية على سواحل حضرموت ودارت بينهم وبين قوات «ابوطويرق» معركة استبسل فيها سكان مدينة «الشحر» استبسالا منقطع النظير واندحر على أثرها البرتغاليون بعدها أعلن السلطان «ابوطويرق» الجهاد بتعبئة ابناء وطنه ما بين عامى ١٥٢٣ - ١٥٣٥ وكان البرتغاليون قد اجتاحوا مدينة «الشحر» وقتلوا عددا من اعيانها وعلمائها ووقع فى يد السلطان بدر «ابوطويرق» اسرى من البرتغاليين بعدما لازوا بالفرار على أثر فشلهم فى احتلال المدينة وارسل السلطان الحضرمى هؤلاء الأسرى البرتغاليين إلى السلطان العثمانى .

دحر البرتغال فى عدة مواقع من حضرموت اهمها موقعة ٥ رمضان عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م إذ هاجموا على الشحر عندما كان السلطان «ابوطويرق» فيها ونزلوا إلى البر ودارت معركتان برية وبحرية وفى كلتيهما انتصر السلطان وآسر منهم أكثر من سبعين رجلا من القوات البرتغالية واستولى على سفنهم وعددها أكثر من اربع عشرة سفينة أو أكثر وأرسل بعض الأسرى إلى الدولة العثمانية أما بقية الأسرى فقد قتل بعضهم واستبقى البعض الآخر وقتلهم أخيرا بعد أن رأى منهم ما لايسر[١٦] ويقول شكيب ارسلان فى كتاب حاضر العالم الاسلامى بانه نودى للنفير العام لجهادهم واستجاب إليه كثير من المجاهدين من السادة العلويين وغيرهم وقد منحهم الله النصر فهزموا البرتغال بعد أن احتلوا الشحر سنة وبضعة أشهر وقد استشهد بتلك المعارك عدة من السادة العلويين ومنهم الامام محمد السقاف ويقول إن الحضارمة تدربوا على قتال البحر لكثرة اسفارهم فى البحر الهندى ولمصادمات سفنهم السفن البرتغالية فيه وأن أهل الفقه والعلم يتسابقون للجهاد إذا وصل إليهم الصريخ من الساحل يتبعهم العامة فيرابطون فيه حتى تنصرف اساطيل العدو .

وكون «ابوطويرق» اسطولا حضرميا حربيا وتجاريا من سفنه القديمة ومن السفن التى غنمها من البرتغال للعمليات الحربية فيما بين سواحل حضرموت وعدن وغيرها وللعمليات التجارية فيما بينها وبين سواحل الهند وشرق افريقيا وقد سبقه إلى اتخاذ جملة من المراكب التى تجوب هذه السواحل بتنظيم الاسطول التجارى فيها بقيادة الامير محمد بن سعيد بادجانه الكندى بعد توليه على «الشحر» و «حيريج» وغيرهما من سواحل حضرموت .

٤- الصراع البرتغالى - العربى فى عمان وشرق الجزيرة العربية

عمد البوكيرك وهو فى طريقه إلى هرمز إحراق وتدمير كل السفن الوطنية التى التقى بها وذلك بعد فشله فى احتلال موانئ حضرموت مثل «شحر» كنوع من الانتقام ، وأولى المناطق التى شهدت فظاعة الاستعمار البرتغالى وقسوته هى «قلهات » و «قريات» و «مسقط» و «خورفكان» وكان الغزو البرتغالى للمنطقة سببا فى التدهور الاقتصادى الذى الم بها وعانت الموانئ العمانية من آثار ذلك التدهور ؛ حيث كانت أولى الموانئ فى المنطقة تعرضا لذلك الغزو بعدما كان لها من أهمية بالغة فى تجارة المحيط الهندى وكان بحارتها على درجة عالية من الكفاءة مثلما كانت موانئ الحضارمة ومما يذكر أن «البوكيرك» قد اعتمد كما اعتمد «فاسكودى جاما » من قبله على المرشدين العمانيين والحضرميين من سكان المدن الساحلية لجنوب الجزيرة العربية التى كانت على درجة كبيرة من الإزدهار ، وأكد أنه يدين باحتلاله للسواحل العربية وملاحقته فى البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندى إلى خارطة بحرية متقنة من صنع احد الربابنة من حضرموت وذكر فى تعليقاته بصدد ذلك أن ملاحا عربيا من حضرموت ويدعى عمر وقع فى أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرة وكان ربانا عظيما ذا معرفة جيدة بالسواحل العربية وقد صحبه البوكيرك معه واستحوذ منه على خارطه للطرق البحرية مبين عليه جميع موانئ مملكة هرمز وموانئ المنطقة وكانت تلك الخارطة من صنع ذلك الملاح الحضرمى .

لم تخل العمليات البرتغالية العسكرية الأولى برغم ضروتها من مقاومة عربية تصدت لها فبعد أن استولى البوكيرك على «قريات» توجه إلى مسقط فوجدها معززة بالرجال الذين لجأوا إليها من جميع الجهات بعد سماعهم بالتهديد الذى حل «بقريات» وكانت مسقط من أقوى المعاقل العمانية ومزودة بوسائل دفاع قوية وبقوة من الجنود الذين جاءوا إليها من داخل البلاد ، وعندما وصل الاسطول إلى ميناء مسقط حضر شيوخ القبائل على رأس وفد كبير من قبل شيخ «الجبور» وناشدوا البوكيرك عدم تعريض المدينة لأى تدمير وأبدوا رغبتهم فى التبعية للبرتغاليين ودفع ما يقرره القائد البرتغالى من ضريبة وفيما يبدو أن هذه المفاوضات لم تكن إلا مراوغة من شيوخ «الجبور» ولذلك بادر البوكيرك حين أحس بأن قبائل مسقط قد اخذوا يستعدون فى الخفاء لتنظيم صفوفهم للمقاومة والدفاع عن بلدهم بقصف المدينة وحين ناشده السكان بالا يدمر المدينة أو يحرقها وافقهم على ذلك بشرط أن

يدفعوا ۱۰,۰۰۰ زرافين يعادل الزرافيين ثلاثمائة ريال على أن يصل المبلغ فى اليوم التالى وعندما لم يصله المبلغ اصدر أوامره باشعال النار فى البلدة بما فى ذلك مساجدها والسفن الراسية فى مينائها ولم يطلق سراح سوى بعض الشيوخ والنساء بعد أن أمر بجدع أنوفهم وآذانهم ولم يلبث بعد ذلك أن اوقف عملياته العسكرية فى مسقط متوجها إلى «صحار» وبعد أن ارتكب جرائمه من قتل وحرق توجه إلى «خورفكان» وبما أن سكانها هبوا لمقاومة البرتغاليين ، فقد قام البوكيرك بتدميرها ونهبها وقطع آذان وأنوف الأسرى ومن خورفكان اتجه الاسطول البرتغالى إلى «راس مسندم» ومنها إلى هرمز ، وتعد معركة هرمز اقوى المعارك البحرية التى خاضها البرتغاليون مع العرب وعند وصول البوكيرك إلى هرمز كان يحكمها سيف الدين وهو فتى صغير وكان يرأس مجلس البلاد ويديره أمور الدولة «خوجة عطا» وكان رجالا حازقا شجاعا أبدى استعداده للقتال عندما سمع بما فعله البوكيرك فى البلدان التى مر بها ؛ ولذلك بادر بالاستيلاء على جميع السفن الموجودة فى الميناء واستأجر بعض الجنود من الاقاليم المجاورة وخاصة من البلوش وبالاضافة إلى ذلك عمل خوجة عطاء على استنفار ملوك المسلمين لنصرة هرمز ، ولجأ إلى الشاه اسماعيل الصفوى يلتمس العون والمساعدة ولكن الشاه رفض ذلك .

بدأت معركة هرمز بقصف البرتغاليين لجموع المقاتلين الذين احتشدوا على شواطئ الجزيرة وأحدث قصف المدفعية البرتغالية خسائر مروعة نظرا لتكدس المقاتلين ووقوفهم فى مواجهة البرتغاليين فى منطقة لايزيد طولها على ثلاثة أميال ، وقد شعر عرب هرمز من أول وهلة أنه لاطاقة لهم بمنازلة البرتغاليين فى الوقت الذى حاول «البوكيرك» أن يثنى ملك هرمز عن مواصلة القتال ويدخل فى طاعة ملك البرتغال ولكن الشيخ «عطا» رفض أى نوع من الاستسلام وكان من رأيه مراوغته وتفويت الفرصة عليه ، أملا فى أن تصل نجدات من شيوخ القبائل فى شرق الجزيرة العربية ولما انكشفت «لبوكيرك» مراوغة الشيخ عطا أصدر أوامره باقتحام الميناء وتدمير واحراق جميع السفن التى أبيدت عن آخرها ، وأجريت المفاوضات بين الطرفين فى حين كانت مدافع الاسطول البرتغالى موجهة إلى الميناء حيث اعلن ملك هرمز ولاءه للبرتغاليين وتضمنت نصوص المعاهدة أن يدفع ملك هرمز للبرتغاليين جزية سنوية قدرت بخمسة عشر ألف زرافين . وعمد البرتغاليون إلى تأكيد سيادتهم على هرمز بطريقة تعسفية حيث اصدروا اوامرهم بمنع أية سفينة من ممارسة الملاحة فى المنطقة قبل حصولها على تصريح

من السلطات البرتغالية وبذلك وضع البرتغاليون البنية الأولى لاستعمارهم واحتلالهم لمدخل الخليج العربى وعلى أثر استيلاء البوكيرك على قلعة المدينة بدأ يستعد لبناء حصن كبير عرف فيما بعد بحصن النصر فكان ذلك الحصن هو الأول فى سلسلة كبيرة من القلاع والحصون العسكرية الشهيرة التى شيدها البرتغاليون على سواحل المنطقة واصدر البوكيرك اوامره المشددة بان يتم بيع السلع البرتغالية باسعار رخيصة بهدف كسب الاسواق التجارية لصالح البرتغال ثم رجع «البوكيرك» بعد ذلك إلى قاعدة فى «غوا» لمواجهة الاسطول المملوكى(١٧) .

مما تجدر الاشارة إليه أن «فرانسيسكو دى الميدا» نائب الملك البرتغالى فى الهند كان يختلف فى الرأى مع البوكيرك ولايشاركه فى نزعاته المتشددة ، إذ كان يعتقد أنه ليس للبرتغال امكانات بشرية لإقامة مستعمرات بعيدة عن الهند ولذلك يجب الاقتصار على إنشاء وكالات ومراكز لمزاولة الأعمال التجارية والاعتماد على نفسها دون حاجة إلى احتلال عسكرى فعلى ولكن عام ١٥٠٩ لم يلبث أن شهد حدثين هامين كان لهما أثر كبير فى تاريخ المنطقة ، ويرتبط الحدث الأول بهزيمة الأسطول المملوكى فى «ديو» أو انسحابه وما ترتب من احكام السيطرة البرتغالية على بحار الشرق . أما الحدث الثانى فقد ارتبط بعزل «فرانسيسكو دى الميدا» وتولية البوكيرك فى منصب نائب الملك فى الهند خلفا له حتى وفاته ثم تعيين «سواريز» خلفا له فى المنصب الذى اتبع سياسة تختلف تماما عن سياسة سلفه ، وكان لتلك السياسة اثر كبير له فى تطور الاحداث السياسية والاقتصادية فى المنطقة وذلك أن «سواريز» كان يهدف إلى انعاش التجارة البرتغالية سلما دون اللجوء إلى الشدة أو البطش ومن ثم بادر إلى تعيين ضباط برتغاليين لتحصيل الضرائب من المراكز التى اقامها البرتغاليون فى هرمز وغيرها وفى عهد «سواريز» تغيرت معالم السياسة البرتغالية فى الشرق إذ كان البرتغاليون قبل ذلك الوقت يعتمدون على قوتهم العسكرية وليس على ثرواتهم . أما بعد ذلك فقد انغمسوا فى التجارة بل وتحول القادة العسكريون إلى تجار إذ هدفت السياسة البرتغالية الجديدة إلى اطلاق المجال للنشاطات التجارية التقليدية فى المنطقة ولكن بشرط أن يتم ذلك تحت اشراف البرتغاليين وفائدتهم وتمكن البرتغاليون بفضل ذلك التحول من تحقيق العديد من المكاسب والاستفادة من الأنماط التجارة التقليدية وقد بدأت بالفعل كميات كبيرة من البضائع تتدفق إلى البصرة والسويس فى الخليج العربى والبحر الأحمر ولكنها لم تخفف الاضرار التى كان يعانى منها التجار العرب .

تتمثل هذه الاضرار فى عبء الضرائب التى كانت تفرض عليهم وبذلك لم ينظر عرب المنطقة وخاصة العمانيون والحضارمة إلى السياسة الجديدة على أنها كانت تستهدف تخفيف السيطرة الاحتكارية ، وإنما نظروا إليها باعتبارها زيادة فى التحكم والسيطرة الاستعمارية البرتغالية ولم تلبث أن استعرت الكراهية فى نفوس عرب شرق الجزيرة العربية بسبب التعسف فى فرض الضرائب بالاضافة إلى التسلط العسكرى البرتغالى الذى لم يقتصر على هرمز وإنما امتد إلى غيرها من موانئ شرق الجزيرة العربية وخاصة حينما اتجه البرتغاليون بحكم حمايتهم لهرمز وتصرفهم شئونها إلى السيطرة من خلالها على البحرين والإحساء والقطيف وغيرها من المناطق . التى كانت تابعة لمملكة «هرمز» فباسمها خاض البرتغاليون صراعا ضد «الجبور» فى البحرين والإحساء وقد يرجع إلى أن ملوك هرمز اضطروا إلى هذا الصراع بعد أن ألزمهم البرتغاليون بدفع جزية سنوية كبيرة لم تكن فى طاقتهم دفعها إلا بالسيطرة على البحرين والمناطق الأخرى التى كانت تابعة لهم واستقل بها الجبور وأن ملك هرمز «طوران» الذى خلف سيف الدين اظهر للبرتغاليين عجزه الكامل عن دفع المبالغ التى ألزموه بها ، وعلل ذلك بأن حاكم البحرين مقرن بن زامل عن «الجبور» لم يكن يدفع له بانتظام المبالغ المالية التى كانت مقررة عليه سنويا من موارد البحرين وأكثر من ذلك أنه بدأ ينتهج سياسة هدف بها إلى الانفصال عن مملكة هرمز منتهزا فرصة خضوعها للسيطرة البرتغالية ومن ثم توحدت المصالح البرتغالية مع مصلحة «طوران» فى قيام تحالف بينهما وكان ذلك التحالف يستهدف استعادة ممتلكات هرمز .

تعرضت البحرين بالفعل لهجوم برتغالى - هرمزى مشترك فى عام ١٥٢٠ اثناء تغيب السلطان مقرن بن زامل الذى كان قد سافر فى ذلك العام إلى مكة لتأدية فريضة الحج وتولى المقاومة الشيخ حميد وهو قريب له كان قد انابه عنه فى الحكم قبل سفره ، وعندما عاد السلطان مقرن قام بتجميع قواته وتعزيز استحكاماته فى البحرين والإحساء فى الوقت الذى عاود فيه البرتغاليون والهرمزيون هجومهم فى يوليو ١٥٢١ وكانت القوات لتى اعدها ملك هرمز تتكون من ثلاثة آلاف مقاتل من المرتزقة تحملهم مائتى سفينة ويقودهم وزير ملك هرمز شرف الدين أما القوة البرتغالية فكانت مكون من اربعمائة مقاتل تحملهم بضع سفن كبيرة الحجم مزودة بالمدافع الكبيرة بقيادة «انطو نيودى كوريا» الذى يعرف فى المصادر البرتغالية ببطل البحرين واستطاعت القوات الهرمزية - البرتغالية المشتركة دخول البحرين حيث نزلوا

على مقربة من المنامة فى الجزيرة الرئيسية ورغم البسالة التى قام بها السلطان مقرن فى محاولته أو ذلك الهجوم الكاسح إلا أنه لم يلبث أن وقع أسيرا فى أيدى البرتغاليين الذين بادروا باعدامه ولا شك أن ذلك أدى إلى انهيار معنويات قواته التى انسحبت إلى القطيف. وكان مقرن بن زامل أول حاكم فى شرق العالم الإسلامى والعربى يلقى حتفه فى معركة ضد المستعمرين البرتغاليين وهكذا انتهى الأمر بنجاح البرتغاليين وملك هرمز فى انتزاع البحرين وتم تعيين حاكم من هرمز على البحرين يستند على حامية برتغالية ، وفضلا عن ذلك فقد بادر البرتغاليون ببناء قلعة ضخمة فى الجزيرة الكبرى التى لاتزال أطلالها قائمة حتى يومنا هذا وتعرف باسم قلعة الحجاج ؛ وعلى الرغم من النجاح الذى أحرزه البرتغاليون والهرمزيون فى السيطرة على البحرين فانهم لم يتمكنوا من التقدم إلى القطيف بسبب عنف المقاومة العربية وخوفا من أن تزج بهم القبائل العربية فى القطيف إلى داخل الجزيرة العربية ، ولم يكن مصرع السلطان مقرن أو خضوع البحرين حدثا عابرا وإنما أحدث صدى كبيرا فى أنحاء المنطقة ؛ وعلى الرغم من التحالف الذى حدث بين البرتغاليين ومملكة هرمز إلا أنه لم ينقضى وقت يذكر حتى تبين للملك «طوران» سطوة البرتغاليين واستغلالهم لهرمز وأنهم لم يهدفوا من ذلك التحالف إلا التمهيد لسيطرتهم العسكرية والتجارية على المنطقة ؛ وتأكد له ذلك حينما بادر البرتغاليون بتعزيز استحكاماتهم العسكرية وطلبوا منه اطلاق يدهم فى التجارة والملاحة فى جميع المناطق الخاضعة للسيادة فى المنطقة [١٨].

أخذ ملك «طوران» يترقب فرصة تسنح له ولعماله سواء من كان منهم فى عمان أو البحرين أو غيرها من المقاطعات الأخرى بهدف التحرير من السيطرة البرتغالية وسرعان ما جاءته تلك الفرصة حين وصلت إليه الأنباء بأن البرتغاليين يواجهون صعوبات في الهند ، وأصبحوا مضطرين إلى سحب جزء كبير من قواتهم فى هرمز وشرق الجزيرة العربية لمواجهة مشاكلهم هناك ؛ ولذلك بادر ملك «طوران» باصدار أوامره السرية إلى كل الرؤساء التابعين له فى عمان والبحرين والإحساء لاعلان الثورة ضد البرتغاليين ؛ وتمكن عرب المنطقة من أن يقضوا على عدد كبير من البحارة والجنود البرتغاليين وخاصة فى البحرين وانتقم سكانها شر انتقام من البرتغاليين لمقتل اميرهم مقرن بن زامل وقعت هذه الثورة فى ٣٠ نوفمبر ١٥٢١, ولذلك فان من الأمور التى تبعث على الاهتمام أكثر مما تثير الدهشة أن يتوصل عرب المنطقة فى ذلك الوقت المبكر إلى خطة محكمة لتوقيت الثورة ومهاجمة الحصون البرتغالية وقعة

واحدة وهو الأمر الذى أدى إلى ايقاع خسائر فادحة بالبرتغاليين بل كادت هذه الثورة تقضى على الوجود البرتغالى برمته حين ثار سكان البحرين وقتلوا قائد الحامية البرتغالية وعددا كبيرا من جنودها ومع ذلك فانه على الرغم من التقدم السريع الذى أحرزه الثوار فان هذه الثورة فشلت فى تحقيق هدفها .

يعزى ذلك فى الدرجة الأولى إلى الخلافات التى كانت لاتزال قائمة بين شيوخ الجبور ومملكة هرمز ومن ثم وجد البرتغاليون فى تلك الخلافات فرصة سانحة لاستغلالها ، وخاصة حينما تعهد الشيخ حسين بن سعيد من شيوخ الجبور وكان يسيطر على معظم المناطق العمانية للقائد البرتغالى «دون لويز» بمهاجمة صحار التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت لمملكة هرمز من البر فى الوقت الذى يقوم فيه البرتغاليون بمهاجمتها من البحر ؛ ووعد البرتغاليون الشيخ حسين بان يسندوا إليه الحكم فى صحار بشرط اعترافه بالسيادة البرتغالية ونتيجة للإمدادات التى وصلت للبرتغاليين من مسقط فقد «طوران» ملك هرمز الأمل فى نجاح الثورة وبالتالى بدأ يتخذ اجراءات انتقامية ضد البرتغاليين فى هرمز ، كما اشعل النيران فى المدينة حيث ظلت مشتعلة بها عدة أيام وكان من الطبيعى أن يؤدى فشل ثورة ملك هرمز إلى وضع نهاية لسيادته الوطنية وحكمه واخذ البرتغاليون يحولون حمايتهم إلى تسلط عسكرى كما اخذوا يخضعون المملكة والمناطق التابعة لها إلى شتى أساليب الضغط حتى أن سكانها اخذوا يفرون بأنفسهم إلى جزر وموانئ فى شرق الجزيرة العربية ومع ذلك فان البرتغاليين لم يتمكنوا باسلوبهم التعسفى أن يديروا الحركة التجارية فى المنطقة وبدأ الركود الاقتصادى يتضح فى مملكة هرمز وانتهت البقية الباقية من عمرانها الحضارى وازدهارها الذى عاشته من قبل ، واعتمد البرتغاليون فى سيطرتهم على هرمز التى استمرت حتى عام ١٦٢٢ على معاهدة ميناب ١٥٢٣ التى فرضها البرتغاليون على الملك محمد الذى خلف طوران فى الحكم فى يوليو ١٥٢٣ ويقتضى هذه المعاهدة تعهدا الملك محمد بتسليم هرمز للبرتغاليين متى طلب ذلك منه وبرغم اعترافهم بالحكم العربى فى هرمز فقد كان واضحا فقدان ملكها محمد لسلطاته تماما بخضوعه للإدارة البرتغالية مما كان يعنى سقوط الحكم العربى فى هرمز وفرضت ضرائب كبيرة كما أقرت معاهدة ميناب العديد من التنظيمات التى كان يهدف البرتغاليون من ورائها إلى تعزيز مكانتهم فى هرمز والسيطرة على الحركة التجارية فى المنطقة . وكان أهمها تبعية تجار هرمز للإدارة البرتغالية مقابل أن يضمن هؤلاء لهم حرية الملاحة والتجارة فى المحيط الهندى[١٩] .

عزز البرتغاليون حكمهم فى بعض المدن الساحلية فى عمان مثل مسقط وصحار وبعض المناطق الأخرى ؛ أما الموقف فى داخل عمان فقد كان غاية فى الضعف والارتباك ، وكان آخر ملوك عمان من بنى نبهان مظفر بن سليمان ضائعا وسط ملوك وامراء متعددين إذا اعلن كل حاكم مقاطعة استقلاله عن الحكومة المركزية النبهانية فعمت الحروب الأهلية والفوضى فى البلاد التى انقسمت إلى ممالك دولايات على النحو التالى : (١) مسقط وصحار وقريات ومطرح وخورفكان بيد البرتغاليين (٢) منطقة «بهلا» بيد سيف بن محمد الهنائى ، (٣) منطقة السمائل ، بيد مانع بين سنان العميرى (٤) منطقة «الرستاق» بيد مالك بن أبى العرب اليعربى (٥) منطقة حصن «مقنيات» وبعض مناطق الظاهرة بيد «الجبور» (٦) منطقة «النخل» بيد سلطان بن أبى العرب اليعربى (٧) منطقة «سمد الشأن» بيد على بن قطن (٨) منطقة «عبرى» و «ابرا» بيد محمد بن جفير بن جبر الجبرى من الجبور (٩) منطقة «ضنك» بيد قطن بن قطن (١٠) منطقة ينقل بيد ناصر بن قطن (١١) حصون وقلاع متفرقة هنا وهناك بقيادات مختلفة تلك كانت صورة عمان الممزقة سياسيًا .

٥- الصراع البرتغالى - العثمانى

يبدو أن النزاع العثمانى - البرتغالى قد مر بمراحل مختلفة منها الصراع الدينى والصراع السياسى والصراع الاقتصادى ، وامتازت المرحلة الأولى بمرحلة الصراع الدينى وذلك لأن القوتين دخلتا فى الصراع باسم الدين وحماية له خصوصا وأن أحداث القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر كانت تشجيع مثل هذا الاتجاه ، وكان دخول البرتغاليين فى هذا المضمار حدث فى وقت أسبق من دخول العثمانيين إليه إذ ترجع بدياتهم الأولى إلى ظهور النزعة الصليبية المعادية للإسلام والمسلمين التى حملها المستعمرون الاسبان والبرتغال ، تحت اسم أو ستار الكشوف الجغرافية والتى كانت فى حقيقة أمرها استعمار شعوب العالم خارج أوروباالتى ازدادت بعد سقوط الحكم العربى فى الأندلس عام ١٤٩٢ . وتعززت بمطاردة العرب المسلمين فى أقطار المغرب العربى التى اصبحت هدفا للاستعمار الاسبانى والبرتغالى يدفعهم وراءها الروح الصليبية وهم يبحثون عن طريق جديد إلى الشرق واصبحت جزء من سياستهم العامة فى المنطقة لمدة طويلة وخاصة ضد الوجود الاسلامى السياسى والاقتصادى فى المنطقة وكان رفع الشعار الدينى واستعمال القوة والبطش ضد القوى الإسلامية فى الشرق جعلت منها حرب صليبية جديدة فى العصر الحديث .

يلاحظ أن التعرض للاماكن الاسلامية المقدسة فى غرب الجزيرة العربية فى الحجاز كانت جزءا من النشاطات الاستعمار البرتغالى الصليبى ؛ فالقائد البرتغالى البوكيرك كان يحلم بقيادة الجيوش الضخمة للاستيلاء على مصر «ومكة المكرمة» و «المدينة المنورة» و «بيت المقدس» برغم أن هذا المخطط كان فوق طاقة البرتغال وإزاء المخطط الصليبى أجرى البرتغاليون اتصالات مع القوى المعادية للمماليك والعثمانيين من أجل اقامة جبهة متحدة ضدها وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للتقارب البرتغالى - الفارسى فى عام ١٥١٤ - ١٥١٥ ، والتقارب البرتغالى - الحبشى بعد عام ١٥١٣ ، وهكذا حشد البرتغاليون فى الربع الأول من القرن السادس عشر امكانيات اقطار عديدة لمناهضة التوسع العثمانى فى البحر الأحمر ، واشتملت على فارس والحبشة وجنوب الهند[٢٠] واهتم العثمانيون فى النصف الأول من القرن السادس عشر بوقف التوسع البرتغالى فى المحيط الهندى فى الوقت الذى ابدى الفرس استعدادهم لتموين السفن البرتغالية فى مقابل الحصول على المساعدة البرتغالية ضد العثمانية .

بذل السلطان سليم الأول جهوده لبناء اسطول قوى فى ميناء السويس وتم تجديد المرسى القديم فيها واقامة قيادة بحرية منفصلة للبحر الأحمر ولكن هذا الاسطول لم يستخدم إلا فى عهد السلطان سليمان القانونى الذي قام بجهود نشيطة خلال فترة حكمه لتحطيم قوة البرتغاليين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج العربى وذلك بعدما أدرك العثمانيون فداحة الأضرار الناجمة عن ابعاد العرب عن أسواق التجارة فى الشرق ولاهتمامهم بدفع ذلك الخطر بدأت المفاوضات مع «الزامورين» حكام «قاليوط» ومع حاكم «كامباى» المسلم وكانت مصالحهما قد تضررت بالعدوان البرتغالى . وتم الاتفاق على القيام بعمل مشترك ضد الاستعمار البرتغالى وبعد ذلك أصدر السلطان العثمانى أمره إلى والى مصر سليمان باشا الخادم لإعداد اسطول كبير فى السويس والتوجه به إلى الهند للجهاد ولازالة راية البرتغاليين من البحر وابعاد خطرهم عن الاماكن الاسلامية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ؛ وهكذا نهض العثمانيون لوقف العدوان البرتغالى على الجزيرة العربية منذ فرغوا من الاستيلاء على مصر فى عام ١٥١٧ ولكن جهودهم على قوتها واتساع نطاقها لم تؤد إلى نتائج حاسمة ؛ ولكنها نجحت فى منع الاعتداء البرتغالى من الامتداد إلى الداخل وحطمت امكانية قيام جبهة مسيحية برتغالية - حبشية - ايرانية - ضد القوى العربية والإسلامية فى البحر

الأحمر وشرق الجزيرة العربية بعد أن أصبح الاسطول العثمانى يسيطر على البحر الأحمر فى القرن السادس عشر مما مكن الدولة العثمانية من استعادة قسط من التجارة الدولية عبر مصر(٢١) .

تميز النصف الثانى من القرن السادس عشر بالصراع بين الدولة العثمانية - والاستعمار البرتغالى فى الخليج العربى غير أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يقوموا بعمل حاسم فى الخليج العربى ، كما فعلوا فى البحر الأحمر(٢٢) ، وتميزت هذه الفترة ببعض التطورات السياسية والعسكرية التى شهدتها منطقة الخليج العربى وشرق الجزيرة العربية وذلك منذ أن نزل العثمانيون إلى ساحة الصراع فى أعقاب الانتصارات التى أحرزها ضد الدولة الصفوية الفارسية ونجاح السلطان سليمان القانونى فى دخول بغداد ١٥٣٤ وفى نفس العام فقد البرتغاليون البحرين عندما ارسل حكامها وحكام الاحساء والبصرة مبعوثين عنهم إلى بغداد للترحيب بالسلطان العثمانى والدخول تحت سيادته .

دخل العثمانيون فى صراع مع البرتغاليين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى على أن مركز البرتغاليين لم يلبث أن تعرض لهزة عنيفة منذ أن فتح العثمانيون العراق حيث كان من أبرز نتائج هذا الفتح أن امتد النفوذ العثمانى إلى شرق الجزيرة العربية ، بعدما دخل امراء البصرة والبحرين والقطيف فى طاعة العثمانين ؛ كما حاول السلطان سليمان أن يسيطر على المناطق الجنوبية من الخليج وأعد من أجل ذلك حملة بحرية للاستيلاء على جزيرة هرمز والحاق ادارتها بالبصرة ؛ وكانت هناك بعض العوامل التى اثرت فى عدم تحقيق العثمانيين نتائج ايجابية فى صراعهم مع البرتغاليين اهمها تحالف الفرس مع البرتغال ضد العثمانيين اضافة إلى فشل العثمانيين بسبب بعض التصرفات الشاذة التى صدرت عن بعض قباطنتهم فى تجميع القوى الاسلامية المحلية فى المنطقة وبدلا من أن تتكتل تلك القوى تحت زعامة العثمانيين دبه الشك وعدم الثقة بين الفريقين وبالتالى لم يحدث تكتل تلك القوى تحت زعامة ارتباط مصالحها واتساع ساحة المواجهة العثمانية البرتغالية التى شملت بالإضافة إلى الخليج العربى والبحر الأحمر الجزء الغربى من المحيط الهندى وعلى الرغم من الضعف الواضح فى القوة البحرية العثمانية إذا ما قورنت بالقوة البحرية البرتغالية فان المواجهة العثمانية للبرتغاليين استمرت أكثر من ثلاثين عاما وعلى وجه التحديد بين عامى ١٥٥٠ - ١٥٨٣ وأن كانت متقطعة بسبب افتقار العثمانيين إلى القواعد العسكرية البحرية التى تمكنهم من الاستمرار فى ذلك الصراع (٢٣).

قام أول اسطول عثمانى كبير عام ١٥٣٨ من ميناء السويس بقيادة سليمان باشا الخادم بالتوجه نحو المحيط الهندى للرد على محاولات البرتغاليين الابحار فى البحر الأحمر ، وكان السلطان سليمان القانونى قد تلقى طلبا للمساعدة البحرية من حاكم كجرات المسلم فى غربى الهند ضد البرتغاليين وتلبية لذلك توجه اسطول عثمانى من السويس فى يونيو ١٥٣٨ وتمكن الاسطول العثمانى من الاستيلاء على المناطق الساحلية العربية على البحر الأحمر (٢٤).

ضم سلمان باشا الخادم عدن بعد أن فتك بحاكمها عامر بن داود بقية بنى طاهر غدرا بصلبه على صارى سفينة القيادة بعد اعتقاله بالحلية وبذلك قضى سليمان باشا على الأسرة الطاهرية فى اليمن ، وعين اياس باشا واليا عثمانيا على اليمن وكلفه باخضاع الامام الزيدى فى صنعاء واتخذ سليمان باشا من عدن وموانئ اليمن قواعد بحرية لمهاجمة المحطات والمراكز البرتغالية فى الخليج العربى والمحيط الهندى ولكن أخبار غدره وسوء فعله وتعدياته قسوته فى سواحل اليمن وعدن قد سبقته إلى موانئ الهند ، مما نفر منه حكامها فامتنعوا عن تقديم المساعدة له ضد البرتغاليين فى حصن «ديو» الذى بدأ الهنود المسلمون بحصاره قبل شهر وصول الاسطول العثمانى ، ولعل تبدل موقف حاكم «كجرات» بعد طلبه المساعدة من السلطان العثمانى يعود إلى خوفه من سوء فعل سليمان باشا وغدره وخوفه من السيطرة العثمانية على بلاده وبعد أن تخلى الهنود عن مساعدة سليمان باشا نجح البرتغاليون فى مقاومة الحصار الذى فرضه العثمانيون على «ديو» برغم أن قوتهم لم تتجاوز ٨٠٠ جندى و ٦ سفن حربية واضطر سليمان باشا إلى رفع الحصار والعودة إلى اليمن ، وابقى فى عدن قوة عثمانية من خمسمائة جندى وخمس سفن حربية ثم عاد إلى القاهرة ومنها إلى اسطنبول لتقديم تقريره إلى السلطان سليمان القانونى ، وعلى الرغم من فشل المحاولة العثمانية الأولى ضد البرتغاليين فى المحيط الهندى فقد كانت محاولة جزئية وطموحه لتحدى السيطرة البرتغالية وقام البرتغاليون بهجوم معاكس فاكتسحوا بأسطولهم البحر الأحمر واحرقوا مدينة «سواكن» فى السودان وحاولوا احراق جدة ولكن شريف مكة محمد ابانمى الثانى ١٥٢٤ - ١٥٨٤ صدهم عنها فمنحه السلطان سليمان القانونى نصف عائدات جمارك جدة مكافأة له كما اندحر الاسطول البرتغالى فى معركة «مصوع» فى عام ١٥٤٠ وكذلك تم بناء اسطول عثمانى آخر فى ميناء السويس عام ١٩٤١ ، رد البرتغاليون على هزيمة مصوع بحملة بحرية ضد ميناء السويس عام ١٥٤١ ولكنها فشلت (٢٥). واتصلوا بالحبشة وقدموا لها مساعدات عسكرية فى حربها ضد الامام «احمد قرين» الذى قدمت له الدولة العثمانية قوة عسكرية .

تمثلت السياسة العثمانية فى البحر الأحمر بعدم السماح للسفن الأوربية التجارية بالابحار فيه إلى الشمال من ميناء «جدة» وبذلك منعت الدولة العثمانية ولاة مصر من استقبال السفن الأوربية فى السويس أو السماح لركابها المرور عبر الأراضى المصرية فى طريقهم إلى الاسكندرية خوفًا منه على الاماكن المقدسة فى الحجاز لاسيما بعد المحاولات البرتغالية المتكررة فى النصف الأول من القرن السادس العاشر للوصول إلى السويس وموانئ الحبشة ولكنها لم تحقق نجاحا وظل العثمانيون سادة البحر الأحمر ولاسيما بعد ازدياد سيطرتهم على عدن لادراكهم اهميتها فى السيطرة على مداخل البحر الأحمر وفى ارسال الحملات البحرية العثمانية إلى موانئ الخليج العربى ، وبأمر من السلطان العثمانى سليمان القانونى انشأ «ازدمير باشا» فى يوليو ١٥٥٥ ولاية فى «اريتريا» شملت «مصوع» و «سواكن» لتوطيد النفوذ العثمانى فى البحر الأحمر ضد النشاط البحرى البرتغالى ونجحت الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر فى اغلاق البحر الأحمر إلى الشمال من ميناء «مخا» فى اليمن فى وجه السفن الأوربية ولكنها لم تنجح فى المحيط الهندى كما نجحت فى البحرالأحمر مما أضعف النفوذ العثمانى فى الخيج العربى عامة وشرق الجزيرة العربية خاصة وكذلك كان ضعف القوة البحرية العثمانية فى البحر الأحمر منذ اواخر القرن السادس عشر مسؤولا عن انهيار السيطرة العثمانية على اليمن فى عام ١٦٣٥ واستقلال الأئمة الزيدية بتصريف شئونها ولم يبق للحكم العثمانى سوى الحجاز وكان الحكم فيه للأشراف فى مكة المكرمة ، وفى أواخر القرن السابع عشر قدر شريف الحجاز أهمية الرسوم الجمركية كمورد مهم له إذا ما أصبحت «جدة» مركزاً للسفن الأوربية فحصل على موافقة السلطان العثمانى الذى حرم على السفن الأوربية التجارية تجاوز ميناء جدة نحو الشمال وسمع بنقل البضائع الأوربية بواسطة السفن العثمانية من جدة إلى السويس حرصا على سلامة الأراضى العثمانية من العدوان الأوربى[٢٦] . تحول الصراع العثمانى - البرتغالى من مرحلة الصراع الدينى إلى مرحلة الصراع السياسى بفعل الوجود السياسى والإدارى العثمانى فى المنطقة العربية ووصولهم إلى حالة المجابهة الفعلية مع البرتغاليين فى تلك المنطقة سواء السواحل الغربية للجزيرة العربية المطلة على البحر الأحمر والسواحل الجنوبية للجزيرة العربية المطلة على المحيط الهندى والسواحل الشرقية للجزيرة العربية المطلة على شرق الجزيرة العربية . إذ إن دخول العثمانيون مصر عام ١٥١٧ قد جعلهم فى حالة شبيهة بحالة البرتغاليين إذ ترتب عليهم أمر الدفاع عن

الأراضى التى اصبحت تحت سيطرتهم وتعزيز المواقع الاستراتيجية المطلة على البحر الأحمر وحمايتها [٢٧].

بأمتداد النفوذ العثمانى إلى العراق عام ١٥٣٤ وشموله بلاد الحجاز واليمن والسواحل الجنوبية للجزيرة العربية فى عام ١٥٣٨ فقد أصبحت المناطق الأخيرة موضع صراع بين القوتين العثمانية والبرتغالية وذلك لأن استيلاء العثمانيين لها قد ترك انطباعا قويا لدى البرتغاليين باحتمال استخدامها كقواعد بحرية ضدهم فى البحر الأحمر والمحيط الهندى وكان هذا هو الأساس فى الصراع الذى دار بين العثمانيين والبرتغاليين حول ميناء عدن والسواحل الجنوبية العربية الأخرى ومنذ انطلاق حملة سليمان باشا الخادم إلى تلك المناطق عام ١٥٣٨ وما بعدها ، اتجهت القوات العثمانية بقيادة اياس باشا ١٥٤٦ صوب البصرة لتضعها تحت النفوذ العثمانى المباشر ثم اتجهت جهود العثمانيين للسيطرة على المناطق المحيطة بالبصرة مثل الإحساء والقطيف والبحرين ومسقط فكان وصول العثمانيين إليها يمثل بداية لصراع عنيف مع البرتغاليين فى الخليج العربى فى منتصف القرن السادس عشر[٢٨] .

تمكن العثمانيون من فرض الحكم المباشر على البصرة عام ١٥٤٦ بعدما طردوا حاكمها من آل مغامس من شيوخ قبائل «المنتفق» وبعدها أقام العثمانيون فيها قاعدة بحرية للدفاع عن منطقة الخليج العربى ضد السيطرة البرتغالية التى سبقت الحكم العثمانى وتمكنت من توطيد مركزها والتى كانت المركز الرئيسى لحركة التجارة من الهند وإليها والمحور الرئيسى للتجارة البحرية فى المنطقة ، ورأى البرتغاليون فى استيلاء العثمانيين على البصرة وتأسس دار لصناعة السفن فيها تهديدا قويا لهم ولذلك كانوا على أهبة الاستعداد لمواجهة التحركات العثمانية البحرية والبرية فى شرق الجزيرة العربية وعلى الرغم من رغبة العثمانيين فى تحقيق فوائد عسكرية فى الخليج العربى بارسال مساعدات بحرية إلى البصرة ، كلما دعت الحاجة إليها من موانئ البحر الأحمر فانهم لم يتمكنوا من ذلك وفشلوا فى إنشاء قاعدة بحرية قوية لهم فى ميناء البصرة منها مقاومة الفرس لهم واستمرار الحروب بين العثمانية والصفويين ومقاومة القبائل العربية المحلية بالإضافة إلى مقاومة السلطات البرتغالية فى الخليج العربى للتوسع العثمانى الذى شمل القطيف وأجزاء أخرى من الإحساء التى اعلن شيوخها الولاء للسلطان العثمانى ورد البرتغاليون فى عام ١٥٥٠ على استيلاء العثمانيين على البصرة بحملة قام بها الأسطول البرتغالى وضمت سبع سفن كبيرة ١٣٠٠ برتغالى بقيادة

«انطونيودى نورنها» يساعدهم ٣٠٠٠ من اتباع ملك هرمز بقيادة الرئيس شرف الدين مستشار ملك هرمز بمساعدة شيخ الإحساء وطردوا الحاكم الهرمزى وطلبوا المساعدة من السلطات العثمانية فى البصرة فاستولى العثمانيون على ميناء القطيف فى عام ١٥٥٠ ووضعوا حامية فى حصنها وسيطروا على شرق الجزيرة العربية وجعلوها إيالة عثمانية مما اثار فزع السلطات البرتغالية فى هرمز .

أرسل العثمانيون أسطولاً ضم ثلاثين سفينة عام ١٥٥٢ بقيادة «بيرى رئيس» وكانت تعليمات السلطان سليمان القانونى تقضى بان يقوم «بيرى رئيس» بالطواف حول ساحل الجزيرة العربية لتنظيم إدارة موانئها واستعادة الاماكن التى استولى البرتغاليون عليها ، وفى اكتوبر ١٥٥٢ أرسل السلطان سليمان القانوى تعليمات أخرى إلى باشا البصرة لابلاغها إلى «بيرى رئيس» تقضى بتحرير هرمز والاستيلاء على البحرين وبعد أن وصل الاسطول العثمانى إلى ميناء جدة توجه إلى باب المندب ومر فى طريقه إلى البصرة بموانئ «عدن» و «شحر و «ظفار» وتمكن محمد بك ابن «بيرى رئيس» من الوصول إلى مسقط ومعه خمس سفن كبيرة ثم لحق به والده بيرى رئيس حيث تمكن من تحرير قلعة مسقط أسر حاميتها التى ضمت ستين برتغاليا بعد مقاومة استمرت ثمانية عشر يوما وبعد أن قام بيرى رئيس برفع العلم العثمانى على قلعتها شحن المدافع والغنائم البرتغالية التى استولى عليها على ظهر سفنه ، والبحر نحو جزيرة هرمز فوصلها فى ١٩ سبتمبر ١٥٥٢ . ولكن البرتغاليين كانوا على علم بنشاط الأسطول العثمانى فى البحر الأحمر وخططه للاستيلاء على قلعة هرمز التى تتحكم فى الملاحة من الهند وإليها وإذا ما خسر البرتغاليون هرمز فان مركزهم العسكرى فى الخيج العربى والمحيط الهندى يصبح فى خطر ولذلك اتخذوا الاحتياطات اللازمة لمقاومة الهجوم العثمانى المرتقب على هرمز وتمكنت حامية هرمز البرتغالية التى ضمت سبعمائة رجل من الدفاع عن القلعة ، ولكنها لم تغامر بالخروج منها ومهاجمة الاسطول العثمانى الذى فرض حصاره عليها عشرين يوما بعد أن استولى على مدينة هرمز واضطر بيرى رئيس إلى رفع الحصار والتوجه إلى جزيرة قشم بعد أن علم برفاهية وغنى تجار هرمز الذين هربوا بأموالهم بالإضافة إلى ثراء سكانها وتمكن من الحصول على أموال كثيرة منها وبعد أن جمع ثروة طائلة أبحر إلى البصرة فى نهاية اكتوبر ١٥٥٢ محملا بالغنائم الوفيرة من عملياته البحرية فى الخليج العربى خوفا من أن يقطع الاسطول البرتغالى الطريق عليه وكان نائب ملك البرتغال فى الهند قد قرر التوجه إلى هرمز على رأس اسطول كبير بعد أن علم بالخطر

العثمانى الذى يتهددها وبينما كان فى طريقه إلى «ديو» علم بمغادرة الأسطول العثمانى إلى البصرة فغير رايه وعادة [٢٩].

عندما وصل بيرى رئيس البصرة بعث واليها تقريرا إلى السلطان سليمان القانونى عن نشاط الاسطول العثمانى فى المنطقة وعندما علم بيرى رئيس أن التقرير فى غير صالحه ترك معظم اسطوله فى البصرة وابحر إلى السيوس ومعه الغنائم التى استولى عليها والأسرى البرتغاليون فى ثلاث سفن كبيرة وبعد وصوله إلى السويس استدعاه السلطان سليمان القانونى إلى الآستانة للرد على التهم المتعلقة بعدم كفايته وبخاصة فى عملياته الحربية البرتغالية فى الخليج العربى وصدر أمر السلطان باعدامه عام ١٥٥٣ ومصادرة امواله الطائلة بتهمة الخيانة وبعد فشل بيرى رئيس فى الاستيلاء على هرمز اهتمت الدولة العثمانية بتأكيد سيطرتها على سيطرتها على الساحل الشرقى للجزيرة العربية وبخاصة البحرين وتأمين مرور اسطولها فى مضيق هرمز ، ولكن تحقيق هذا الهدف يعتمد اساسا على القوات العثمانية فى البصرة والإحساء وعلى امكانيات دار الصناعة السفن العثمانية فى البصرة التى ظلت تخشى من قيام السلطات البرتغالية فى هرمز باجراءات انتقامية ضدها . ومهما يكن من امر فقد فشلت المحاولات العثمانية فى الربع الثالث من القرن السادس عشر لطرد البرتغاليين من الخليج العربى وظل الحكم العثمانى فى الإحساء فى القرن السادس كما أن السيادة العثمانية فى الخليج العربى وخاصة فى شرق الجزيرة العربية كانت اضعف من السيادة البرتغالية على الرغم من ولاء بعض شيوخ القبائل العربية للعثمانيين ومن الزيارات الدورية التى قامت بها الاساطيل العثمانية للساحل الجنوبى للجزيرة العربية خاصة السلطنة الكثيرية فى حضرموت التى اعلنت الدخول فى السيادة العثمانية فى عهد السلطان بدر «ابوطويرق» وفشل العثمانيون فى السيطرة على مضيق هرمز وفى المقابل فشل البرتغاليون فى توطيد نفوذهم على ساحل شرق الجزيرة العربية وظلت البحرين جزيرة حاجزة بين النفوذين العثمانى والبرتغالى [٣٠].

انتهى الصراع السياسى بين العثمانيين والبرتغاليين فى النصف الثانى من القرن السادس عشر لمصلحة البرتغاليين ، وأصبح واضحا أن يدخل ذلك الصراع مرحلة جديدة وهى مرحلة الصراع الاقتصادى وذلك بسبب تمركز الجانبين فى مناطق معينة من الخليج العربى والمحيط الهندى والبحر الأحمر ورغبتهما فى الاحتفاظ بتلك المناطق [٣١].

حاول العثمانيون التفاهم مع السلطات البرتغالية فى هرمز لانعاش التجارة فى البصرة واعادة تدفق السلع التجارية إلى حلب والخليج العربى فارسل والى البصرة محمد باشا فى عام ١٥٤٧ أحد التجار العرب ويدعى «الحاج فياض» إلى الحاكم البرتغالى فى هرمز ليعرض عليه رغبة السلطات العثمانية فى البصرة فى اقامة علاقات تجارية سلمية مع البرتغاليين ، وردت السلطات البرتغالية فى «غوا» بارسال احد موظفيها لرعاية مصالحها التجارية فى البصرة ، وتحكم العثمانيون بطرق التجارة البرية بين البصرة وحلب وشجعوا على تدفق البضائع الشرقية عبر الخليج العربى والبحر الأحمر ، مما أدى إلى انتعاش التجارة فى مصر وبلاد الشام فى أواخر القرن السادس عشر وعملوا بكل قوة لمنع عرقلة البرتغاليين لطرق الحج والتجارة الشرقية ، وسعوا إلى احياء الطريق التجارى البرى بين أواسط أسيا «واستراخان» و«القرم» ولكن السفن البرتغالية ظلت نشيطة فى ملاحقة السفن العثمانية التى تغامر بمغادرة البحر الأحمر بدون تصريح(٣٢) .

ثانيًا : الحجاز تحت الحكم العثمانى فى العصر الأول ١٥١٧ - ١٦٣٥

يعتبر فتح السلطان سليم لمصر عام ١٥١٧ مرحلة فاصلة من مراحل امتداد النفوذ العثمانى فى الوطن العربى فقد أصبح السلطان سليم سيد العراق وبلاد الشام بعد انتصاراته الحاسمة على شاه فارس عام ١٥١٥ ، ثم على سلطان المماليك فى مصر فى العام التالى ؛ وبذلك دخل القاهرة واستطاع فى بضعة اشهر أن يثبت حكمه فى مصر ومكث فيها السلطان سليم مدة قصيرة (٣٣).

تلا سقوط مصر فى ايدى العثمانيين عام ١٥١٧ امتداد سيادتهم إلى الحجاز امتدادا سلميا فالحجاز بسبب الحماية العسكرية التى توفرها له مصر والعون المالى الذى تمده به متمثلا فى ريع الاوقاف المرصودة على الحرمين الشريفين ، وعلى أهل مكة والمدينة كان يتبع مصر تبعية تلقائية بمعنى أنه لم يكن يرتبط بدولة معينة فى مصر بل كان يرتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها . وكان يتولى حكم مكة قلب الحجاز ومركز الأرض المقدسة الشريفيون أو الاشراف الحسنيون الذين ينتسبون إلى الامام الحسن ابن الامام على بن أبى طالب زوج ابنة رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء ، وابن عمه ؛ ولم يكن سلطان مصر فى عهد المماليك هو الذى يختار شريف مكة بل كبار الأشراف يختارونه من بينهم ويطلبون إلى سلطان مصر تثبيته فى منصبه ، وعلى اواخر ايام دولة المماليك فى مصر ساءت

العلاقات بين اشراف مكة والسلطان «قانصوه الغورى» فقد اغضب هؤلاء الاشراف فشل المماليك فى ايقاف التحول التجارى الذى نجم عن طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ وهو التحول الذى ادى إى حرمان جدة من مواردها الجمركية ، ولذلك وقعت بعض الاضطرابات فى الحجاز ضد الحكم المصرى رد عليها قانصوه الغورى باعتقال بعض القضاة ورجال الدين الحجازين فى القاهرة ولما دخل السلطان سليم القاهرة عام ١٥١٧ افرج عن هؤلاء المعتقلين فعرضوا عليه أن يكتب إلى امير مكة الشريف بركات الثانى ١٤٩٥ - ١٥٢٤ داعيا اياه للدخول فى طاعته كما تعهدوا هم انفسهم بأن يكتبوا إلى الشريف بركات بهذا الصدد [٣٤].

وجد الشريف بركات أن من الحكمة قبول السيادة العثمانية لحاجته أولا إلى مساندة دولة اسلامية كبيرة كالدولة العثمانية فى مواجهة الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر وللاستفادة من ريع الاوقاف المرصودة فى مصر على الحرمين الشريفين وعلى اهل مكة والمدينة ، وفضلا عن ذلك فان خضوع الحجاز للسيادة العثمانية لن يغير من نظام الشرافة المتبع فى حكم هذا الاقليم بل قد يؤدى إلى تقوية مركز الشريف بركات امام منافسيه وخصومه من أسرة الاشراف وعلى ذلك فقد اسرع الشريف بركات بارسال ابنه وشريكه فى الامارة وهو الشريف «ابونمى» إلى القاهرة لكى يقدم التهانى وفروض الولاء للسلطان سليم الأول المظفر إلى جانب مفاتيح الحرمين الشريفين اشارة إلى خضوع الحجاز للسيادة العثمانية ومنح هؤلاء الأشراف السلطان سليم لقب خادم الحرمين الشريفين وهو شرف يرفع من قدره فى العالم الإسلامى وبذلك اصبح السلطان العثمانى السيد الحقيقى للوطن العربى والحاكم الذى يدعو له المصلون المسلمون فى أنحاء دولته [٣٥].

فقابله السلطان العثمانى بالإجلال والاكرام وابقاه على شركة والده فى امارة الحجاز وأذن السلطان سليم للشريف «ابونمى» بقتل حسين الكردى صاحب جدة من قبل الغورى الذى كان قد ارتكب المظالم فى حق سكان الحجاز كما اصدر السلطان العثمانى فرمانا بتفويض الشريف بركات فى حكم مكة والمدينة والحجاز كله ، على شريطة أن يعترف بسيادة الباب العالى وقد قرئ هذا الفرمان/على سكان مكة وسط احتفال كبيرة ، وهكذا دخل الحجاز سلميا تحت السيادة العثمانية ، وأبقى العثمانيون على نظام الشرافة أو الإمارة الشريفية فى هذا الاقليم كما كان على عهد الدولة المملوكية وفضلا عن ذلك فقد أنشأ العثمانيون سنجقية فى جدة أقاموا عليها واليا أو باشا تركيا ليكون ممثلا للباب العالى فى الحجاز

وقرروا أن تقسم موارد جدة الجمركية بين باشا جدة وبين شريف مكة وكان بفضل نظام الشرافة ان تمتع الحجاز ابان العصر العثمانى الأول بقدر كبير من الاستقلال الذاتى وصار الاشراف يعتمدون فى عيشهم على القاهرة اكثر من الآستانة ، فعلى الرغم من ان جميع الولايات العثمانية كانت تدفع للدولة ضرائب سنوية فقد انفردت مكة بنظام خاص اذ كانت الدولة هى التى ترسل إليها كل سنة مقدارا محددا من المال قررته على مصر واعتبرته من ملتزمات مصر السنوية كالخزانة تماما ، وقد استمرت مصر العثمانية المملوكية ترسل بانتظام المبالغ المقررة ، والاموال والغلال الموقوفة على الحرمين الشريفين وعلى سكان مكة والمدينة ، وكان من اهم مهام شريف مكة تأمين قوافل الحج الاسلامى الوافدة إلى الحجاز وخصوصا قافلتى الحج الشامى والمصرى فكان عليه أن يجنب هاتين القافلتين أعمال السلب والنهب التى قد تتعرضان لها من جانب البدو والاعراب ، ولم يكن شريف مكة يعتمد فى ذلك على قوات عسكرية نظامية وإنما على نفوذه لدى القبائل العربية القاطنة على طول طرق القوافل وكذلك على محطات الحراسة التى انشأتها الدولة العثمانية بجوار الآبار على طول الطريق بين مصر والشام ومكة (٣٦).

لم يكتف الاشراف منذ أواخر العقد السابع من القرن السادس عشر بحكم الحجاز وحده بل صاروا يعتبزون انفسهم سادة المناطق الداخلية من شبه جزيرة العرب ؛ ولذا اكثروا من الاغارة على تلك المناطق بغية تأديب قبائلها عندما كانوا يتعرضون لقوافل الحجاج ، ورغم الوصاية الاسمية التى كانت للسلطان العثمانى على الاماكن المقدسة فى الحجاز منذ مطلع القرن السادس عشر فقد ظل هذا الاقليم بمنأى عن تطلعات الآستانة السياسية والعسكرية إليه وهذا فى الواقع مبعث تدعيم نظام الشرافة فى مكة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ومع ذلك فان هناك عوامل أخرى ساعدت دون شك على تدعيم شرافة مكة وتقويتها ومنها استقلال اليمن عن الحكم العثمانى عام ١٦٣٥ وانسحاب الاساطيل العثمانية من البحار الشرقية ثم ما لجأ إليه اشراف مكة منذ أواخر القرن السابع عشر من فتح ميناء جدة للتجارة الأوروبية ومع أن نفوذ العثمانيين قد تهدد فى جميع انحاء الجزيرة العربية تقريبا ؛ فقد ظل الاشراف فى مكة وسكان الحجاز عموما محتفظين بولائهم للباب العالى فكان شريف مكة يتسلم براءة منصبه فى كل عام ويعترف من جانبه بالقاضى الذى يعنيه السلطان . ويعطينا الرحالة الدانمركى «كارستن نيبور» تفسيرا لهذا الموقف فيقول : ما كان يتخاذل عرب الحجاز

عن طرد العثمانيين لولا المبلغ السنوى الذى يناله كل مقيم فى مكة من آل الرسول ص من الاشراف فى الحجاز بصفتهم سدنة الكعبة وقد يكون ذلك «الخمس» من «بيت مال المسلمين» ولولا ما كان يرسل من مراكب القمح والأرز وغيرها باسم السلطان من «السويس» و «القصير» إلى ينبع وجدة ثم مكة والمدينة فى موسم الحج ولولا كذلك ما كان يجلبه المحملان الشامى والمصرى إلى الارض المقدسة من خيرات وخصوصا هدايا تأمين الطرق للقبائل العربية[٣٧]. ومع تدعيم نظام الشرافة فى مكة ابان العصر العثمانى الأول عموما فقد عانت امارة الأشراف فى الحجاز صراعا مريرا حول منصب الشرافة .

يبدو أن منصب الشرافة كان يجلب كثيرا من المكاسب المادية على صاحبه مما أدى إلى صراع مرير ؛ إذ أن سلاطين آل عثمان احتفظوا بنظام الشرافة على وصفه الذى كان عليه ايام المماليك ، مع انشاء سنجقية عثمانية فى جدة يتولاها احد الحكام او الأمراء العثمانيون وكان كل فريق من الاشراف المتصارعين يشتمل على كرسى الامرة ويكتب اتباعه إلى دار السلطنة يطلبون تعينه ، فكان السلطان العثمانى يرسل فرمان التعين ويكتفى من الشريف باظهار الولاء واعتبار نفسه تابعا للسلطان واحيانا كان الشريف يختار تثبيته فى منصبه ، والحقيقة أن الصراع داخل الحجاز فى العهد العثمانى لم يكن مقصورا على الأشراف فيما بينهم وإنما كان له مظهر آخر بين الأشراف والولاة العثمانيون حول واردات جدة ونصيب الاشراف من هذه الواردات ولذا كان الولاة العثمانيون دائما يعملون كل جهد لاذكاء روح الصراع بين الأشراف ليتمكنوا عن طريق التفرقة بينهم من السيطرة عليهم جميعا مما يجعل السلطان العثمانى يثق فى قدرة هؤلاء الولاة وابقائهم فى منصب الولاية اكبر وقت ممكن ، على أنه لم يعد يهم السلاطين العثمانيين إلا دوام ارسال المحامل الثلاثة من العراق والشام ومصر وارسال الاموال السنوية إلى سكان الحرمين وتركوا امور الحكم فى ايدى الأمراء المحليين من الأشراف [٣٨].

قد يرجع موقف الدولة العثمانية من هذه المنازعات المحلية بين الشراف لظروفها التى لم تكن فى حال يسمح لها بالتدخل فى امورشرافة مكة بسبب انشغال الدولة بحروبها فى اوربا من جهة ، واستبداد العصبيات المحلية بالسلطة فى الولايات من جهة أخرى ، ومع ذلك فان السلاطين العثمانيين كانوا يتدخلون فى بعض الأحيان لعزل من يريدون عزله من الأشراف عن طريق باشا الشام فكان هذا ينتهز فرصة الفترة القصيرة التى يبقى فيها الحجاج بمكة فيقوم

بعزل الشريف المطلوب عزله ويولى غيره من نفس الأسرة كما كان يعين أحد الباشوات الاتراك لجدة ولكن هذا كان يضطر إلى الفرار احيانا ولايستطيع العودة إلى جدة إلا مع وفد الحج السنوى ومما يجدر ذكره أن المتنافسين على شرافة مكة كانوا يلقون تشجيعا من اصحاب السلطان فى الخارج إذ كانت امور مكة احيانا موضع تدخل حكام مصر واليمن والشام وفيها كان يتصادم نفوذ أولئك جميعا فكان لكل منهم منافس يناصره وفى انتصاره وتوليه الشرافة انتصار ضمنى لوليه (٣٩).

على أن تلك الصراعات بين الأشراف لم تكن ذات تأثير كبير ، لأمن الدولة العثمانية ولا تشكل أى خطر لتواجدها فى الحجاز ولهذا غالبا ما تترك امورهم وشأنهم دون تدخل لكن عندما حدث تهديد لمركزها من قبل امير «نجد» ولم تكن قادرة على مواجهته بسبب انشغالها فى حروب مع روسيا واوربا أرسلت واليها على مصر محمد على لارجاع الامن والاستقرار إلى الديار المقدسة فى الحجاز بوصف السلطان العثمانى خادم الحرمين الشريفين .

لم يكن للعثمانيين فى مكة حتى العهد العثمانى الثانى موظفون من الاتراك يتولون شيئا من امور الحكم سوى امر القاضى والمحتسب وبرغم أن سنجق جدة كان له حق الاشراف على شئون الحرمين إلا أنه ظل مقيما بحكم منصبه فى جدة ولم ينتقل إلى مكة إلا فى العهد العثمانى الثانى وكان سنجقة جدة يستطيع أن يسيطر على مقدرات الامارة الحجازية كلها عندما يتولى امر مكة شريف مسالم أو ضعيف ولكن الاشراف الاقوياء كانوا يتجاهلون سلطة هذا السنجق كما يتجاهلون فى بعض الاحيان اوامر السلطان العثمانى نفسه وأن مركز الشرافة ازداد قوة وازدهارا حينما تولى امارة مكة الشريف ابونمى ١٥٢٥ ومنذ ذلك الوقت وفى القرن العشرين تعاقبت على شرافة مكة ثلاث عائلات من نسل ابونمى الأولى «ذو بركات» والثانية عائلة «ذوى زيد» والثالثة « ذوى عون» واستقلت العائلة الأولى بالامر وحدها ما يقرب من قرن من الزمان ثم نافستها عائلة ذوى زيد فى عام ١٦٧٩ وظل منصب امارة مكة ينتقل من «زيدى» إلى «بركاتى» حتى استقل به «آل زيد » دون «آل بركات» وظل الامر بايديهم إلى دخول محمد على الحجاز (٤٠).

ثالثًا : اليمن تحت الحكم العثمانى فى العصر الأول ١٥٣٨ - ١٦٣٥

١- الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨

يرتبط اليمن بالحجاز والحجاز باليمن ليس فقط من الناحية الجغرافية حيث تنتهى حدود اليمن بنهاية «جبال عسير اليمنية» وتبدأ حدود الحجاز إلى الشمال من «بيشة» وإنما هى منطقة التقاء وامتداد القبائل العربية العدنانية والقحطانية والتبادل التجارى والاقتصادى فيما بينهما كما يعتبر اليمن البعد الاستراتيجى للحجاز لحماية المناطق المقدسة ، كما حدث للغزو الحبشى من اليمن إلى مكة قبل الإسلام وكذلك محاولات البرتغال للسيطرة على «عدن» للتوجه نحو الاماكن المقدسة وكل من يأتى لليمن يذهب للحجاز والعكس صحيح لما فى الحجاز من أهمية دينية ولما فى اليمن من أهمية اقتصادية واستراتيجية .

ولقرب الحجاز واليمن بالنسبة لمصر أثر فى دفع حكامها سواء المماليك أو العثمانيين إلى السيطرة عليهما وكان الاحتلال البرتغالى لجزيرة «سقطرة» ومحاولة احتلال عدن بغية التوجه إلى الحجاز من اسباب التعاون العثمانى - المملوكى لمواجهة الخطر البرتغالى الصليبى قبل فتح السلطان سليم لمصر .

ارسل «قانصوه الغورى» حملة بحرية عام ١٥١٥ عرفت باسم حملة الهند لمواجهة الخطر البرتغالى ولاعادة فتح طريق الهند ومساعدة حاكم «كجرات» المسلم فى الهند وعين الرئيس سلمان قائد الاسطول على أن يتولى قيادة الحملة الامير حسين الكردى ولكن لم يقدر لهذه الحملة الوصول إلى هدفها النهائى فى الهند إذا اجبرت الظروف التى واجهتها امام السواحل اليمنية على التوقف فى «عدن» ومن ثم عمل المماليك على اقامة القواعد البحرية على السواحل اليمنية وخاصة فى عدن وذلك لغلق البحر الأحمر أمام البرتغاليين ، ولاتخاذ هذا الميناء الهام قاعدة لنشاطهم البحرى فى المحيط الهندى وفى الهند وكان سلطان اليمن عامر بن عبد الوهاب قد وافق على أن يقيم الغورى قواعد بحرية على السواحل اليمنية وذلك عندما استنجد بالمماليك بعد هجوم البوكيرك على عدن عام ١٥١٣ ، عندما فشل الهجوم المذكور دون اية مساعدة خارجية وتأخر وصول الاسطول المملوكى إلى اليمن تراجع السلطان عامر عن الوفاء بوعده فأدى هذا إلى قيام الأمير حسين الكردى بمهاجمة السواحل اليمنية بقوة ولقد ساد اليمن الأوسط فى ذلك الوقت صراع بين اسرة بنى طاهر الشافعية التى عاشت فى الجزء الجنوبى من اليمن الأوسط فى عدن قرابة قرن الأئمة الزيدية فى الجزء الأوسط من

اليمن فى صنعاء ، واستنجد «الزيديون» بالمماليك عندما اشتدت وطأة عامر بن عبد الوهاب سلطان «بنى طاهر» ورحب سلطان مصر بهذه الفرصة لكى ينتقم من عامر بن عبد الوهاب الذى رفض السماح لهم بالنزول فى اليمن ، وقد أخذت القوات المملوكية «زبيد» و«تعز» و «صنعاء» ولكنها لم تتمكن من الاستيلاء على «عدن» التى استبسلت فى الدفاع عن نفسها واعتمدت على حصانتها الطبيعية فترك حسين الكردى قواته فى زبيد بقيادة برسباى واستمر المماليك فى زبيد تحت قيادة الامير «برسباى» وشغلوا فى حروب داخلية مع «الطاهريين» وبعد مقتل برسباى فى اليمن تولى أحد الامراء المماليك اليمن وهو الامير اسكندر الشركسى أمر الحملة فى اليمن .

شاع الاضطراب فى صفوف المماليك عندما علموا بسقوط دولتهم فى مصر ولكن الامير اسكندر رأى أنه لامفر من الاعتراف بالسيادة العثمانية حتى يقوى جانب الحملة فى اليمن وحتى يقضى على الخلافات التى ثارت بين صفوف جيشه واعترف السلطان سليم بدوره بالامر الواقع فى اليمن وارسل امره إلى حسين الشركسى بتثبيته فى الحكم واقامة الخطبة له وبضرب السكة باسمه وامتثل اسكندر لهذه الاوامر وظل نفوذ العثمانيين فى اليمن اسميا ضعيفا وفوجئ البرتغاليون بوصول النفوذ العثمانى إلى البحر الأحمر ، ولكنه لم يؤد ذلك إلى ايقاف نشاطهم أو إلى تغيير خططهم وتعتبر هذه المرحلة الأولى للعثمانيين لتحقيق هدفهم لاخضاع اليمن لسيادتهم وفى اوائل عام ١٥٢٠ وصلت حملة برتغالية إلى مدخل البحر الأحمر لمهاجمة «جدة» وانزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية إلى السواحل «الارترية» ومنه إلى الحبشة ولما فشلت هذه الحملة توقف البرتغاليون مؤقتا عن مهاجمة جدة وركزوا جهودهم على تنسيق التعاون بينهم وبين الاحباش ، وفى اوائل عام ١٥٢٠ بدأ العثمانيون في تنفيذ خطتهم فى البحر الأحمر بمد نفوذهم المباشر إلى اليمن فقد اصدر خايربك امره إلى «كمال الرومى» والى «جدة» بان يضم اليه ولاية السواحل اليمنية ولكن اسكندر رفض السماح له بدخول اليمن مما اضطر «الرومى» إى العودة إلى «جدة» وفى ذلك الوقت غادر سليمان الريس مصر إلى جدة وحرص الرومى على استئناف حملته إلى اليمن .

رفض اسكندر للمرة الثانية تسليم الحكم للعثمانيين وجمع القبائل اليمنية لمقاومة سليمان الريس الذى كان قد نزل إلى الساحل وبدأ فى الزحف إلى «زبيد» وتمكن «الرومى» من دخول «زبيد» فى عام ١٥٢٣ ولكن وقع الخلاف بين القائدين العثمانيين «الرومى» و «الريس»

الذى هرب إلى مصر وحرص واليها والصدر الاعظم ابراهيم باشا على ارسال حملة تحت قيادته لاستعادة النفوذ العثمانى فى اليمن ؛ ووصلت هذه الحملة البحرية إلى «جدة» فى يوليو ١٥٢٦ ثم واصلت سيرها إلى السواحل اليمنية واستطاع سليمان الريس دخول اليمن عام ١٥٢٧ لكنه قتل فى العام التالى وبذلك فشلت الحملة البحرية الأولى التى أرسلها العثمانيون إلى اليمن ولم تنجح فى فرض النفوذ العثمانى بل لم تؤدى إلا لزيادة المنازعات بين الامراء هناك .

تسارع الاحداث بهذا الشكل وعدم نجاح العثمانيين فى الوصول الفعلى إلى اليمن لفت نظر سلاطين العثمانيين إلى أهمية البحر الأحمر والمحيط الهندى بشكل عام ، واليمن بوجه خاص فأمر السلطان سليم باعداد حملة مركزية لمهاجمة البرتغاليين فى الهند ولكنه توفى قبل اتمام الحملة فأتمها سليمان القانونى . وبذلك رأت الدولة العثمانية أنه لاسبيل إلى ضمان سيادتها على اليمن إلا بضم الفعلى واقامة حكم عثمانى مباشر مدعم بالقوة العسكرية وكانت هذه هى المرحلة الثانية من مراحل العلاقات العثمانية - اليمنية استمرت بين عامى ١٥٣٨ - ١٦٣٥ أى قرابة قرن كامل من الزمان وقد بدأت تلك المرحلة فى عهد سليمان القانونى الذى امر بتجهيز قوة ضخمة ابحرت من السويس عام ١٥٣٨ وكان الهدف الواضح من توجيه تلك الحملة هو القضاء على البرتغاليين الذين كانوا يعبثون فسادا فى البحر الأحمر فى حين كان الغرض الكامن من ورائها فتح اليمن الذى كان يمكن عن طريقه تحقيق الأغراض الدفاعية والتوسعية للدولة العثمانية حينذاك [٤١] وخاصة «عدن» التى تتمتع بالأهمية الاستراتيجية والتجارية ولرغبة العثمانيين فى الاحتفاظ بالمناطق التى يصل إليها نفوذهم فى جنوب الجزيرة العربية لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية .

مما يؤثر فى الدولة العثمانية ويقلل هيبتها عدم النجاح فى تحقيق أهداف محدودة فى اليمن وهى التى ضربت اسوار «فينا» واجتاحت الصفويين فى فارس وضمت العراق ومصر فكيف لاتنجح فى اليمن فعالجت اخفاقها بتوسيع اهداف حملاتها إذ كانت تبغى ضم ولاية السواحل اليمنية ولما فشلت طلبت اليمن بأكملها ومما زاد فى اصرارها كيف يكون السلطان العثمانى «حامى الحرمين الشريفين وخادمهما» ويشينها أن يمتنع قطر فقير كاليمن مثلا من الانضواء السريع تحت لوائه ولهذا فان فشل الحملات العسكرية لم يثنى العثمانيون عن مواصلة العمل لتحقيق اهدافهم لضم اليمن؛ ولذا قاموا بارسال عدة حملات إليها ، ومما زاد

فى تصميمهم امتلاكهم لاسطول بحرى وبرى قوى ويمكن أن ترجع ذلك لعدة عوامل منها ما يلى :

أولا : ازدياد الخطر البرتغالى فى البحر الأحمر بعد أن أحكموا سيطرتهم عليه وعلى المحيط الهندى بحيث انهم شكلوا خطرا على الوجود العثمانى فى مصر ، وعلى الحرمين الشريفين الامر الذى يحتم على الدولة العثمانية المبادرة لدفع هذا الخطر (٤٢).

ثانيًا : امتد الخطر البرتغالى إلى الهند وكانت فيها دولة اسلامية فى كجرات طلب سلطانها الامدادات من العثمانيين غير أن البرتغاليين أسرعوا إلى الهند قبل وصول الامدادات فأثار هذا العمل الحمية الإسلامية لدى السلطان العثمانى وعمل على تجهيز القوات العثمانية إلى الهند .

ثالثًا : ازدياد الاحتكاك بين القوات العثمانية والبرتغالية بعد ضم الأولى للعراق واستعمالهم لشواطئ الخليج العربى الشمالية والغربية فأصبحوا وجها لوجه امام البرتغاليين ، ومما زاد فى تأزم العلاقات بين العثمانيين والبرتغاليين امدوا الفرس بالمعونات والمساعدات وارسلوا إليهم العمال والفنيين ليعلموهم صناعة السفن وادوات الحرب البحرية .

رابعًا : كان موقع اليمن من العوامل التى ابرزت اهميتها فى تحقيق الاهداف العثمانية ضد البرتغاليين فوجود اليمن فى الجنوب الغربى للجزيرة العربية وامتداد حدودها من جنوب الحجاز فى الشمال إلى خليج عدن فى الجنوب ومن حدود عمان والربع الخالى شرقا إلى البحر الأحمر ومضيق باب المندب غربا وكانت هذه الحدود لليمن الطبيعية فقد جعلها هذا الموقع الممتاز وتلك الحدود التى تطوق جنوب الجزيرة العربية منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من الجنوب وقد أدى هذا إلى اقتناع العثمانيين ؛ بأن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الاماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز والتحكم فى البحرين الأحمر والعربى وامتلاك موطئ صالح للوثوب على البحرية البرتغالية فى البحار الشرقية وتطويق اعدائهم الصفويين فى ايران من الجنوب وتحقيق احلامهم بمد سيطرتهم شرقًا إلى اقاصى العالم الاسلامى ، وهكذا اراد العثمانيون أن يسيطروا على اليمن ليحققوا اهدافهم الدفاعية والتوسعية وأن يحلوا محل المماليك الذين كان حكمهم قد استقر هناك منذ عام ١٥١٣ (٤٣).

غادرت الحملة العثمانية ميناء السويس فى يونيو ١٥٣٨ نتيجة للظروف السابقة ومرت بميناء جدة ثم وصلت إلى «عدن» فى اغسطس ١٥٣٨ وكان يحكمها فى ذلك الوقت عامر بن داود الطاهرى الذى سلم المدينة للعثمانيين معلنا ولاءه للسلطان العثمانى ولكن سليمان باشا غدر به وامر بشنق عامر بن داود الطاهرى على صارى السفينة بعد أن علم بأنه قد تم لجنوده الاستيلاء على المدينة ، ثم عين أحد ضباط الحملة بعد ذلك على عدن واتجه إلى الهند وبعد عودته منها عمل على اتمام فتح السواحل اليمنية لإكمال الخطة العثمانية فى هذه المناطق من ناحية ولتعويض فشله فى الهند من ناحية . وبدأ سليمان باشا فى اتخاذ ما يلزم لاخضاع السواحل اليمنية لإكمال الخطة العثمانية فى هذه المناطق ؛ وذلك بعد وصوله مباشرة إلى ميناء «الشحر» فأصدر امره بتولية السلطان الكثيرى بدر «ابوالطويرق» حكم «حضرموت» الممتدة من «ظفار» شرقًا حتى «عدن» غربًا تحت السيادة العثمانية على أن يدفع للباب العالى الجزية السنوية المقررة . ثم تقدم إلى عدن ومنها إلى ميناء «مخا» وانزل جنوده استعداد للزحف على «زبيد» بهدف القضاء نهائيًا على فلول المماليك الباقين فى اليمن . ولجأ سليمان إلى وسيلة الغدر الذى استخدمها من قبل مع حاكم عدن عامر بن داود فأرسل إلى أحمد «الناخوذا» والى زبيد المملوكى يؤمنه فى ولايته ويستدعيه لمقابلته فى «مخا» وبعد تردد قبل الوالى المملوكى الدعوة ولكنه حين وصل إلى «مخا» أمر سليمان باشا بقتله وأمر بتعيين أحد الضباط العثمانيين حاكما على زبيد وعلى المنطقة التى كان يحكمها المماليك فى تهامة .

لم يبق امام العثمانيين بعد القضاء على الطاهريين فى «عدن» وعلى المماليك فى «زبيد» إلا مواجهة اكبر قوة ضاربة فى اليمن فى ذلك الوقت وهى قوة الامامة الزيدية المتمثلة فى الامام شرف الدين الذى لم ينجح سليمان باشا فى استدراجه ، لأنه كان يعلم بمخططات الأخير وغدره ولذلك واصل سليمان باشا السير جنوبا لاستكمال الفتح وربط المنطقة الجنوبية التى كانت عدن قاعدة لها بالمنطقة الشمالية التى بدأت من زبيد، وأدى صمود الامام شرف الدين إلى عرقلة تحقيق الخطة العثمانية على يد سليمان باشا ولاقت الحملة فى جبال اليمن أحوال شديدة ، ولم تستطيع التقدم فى المناطق التى يحكمها الزيديون وكان لنجاحها مقصورا فى السيطرة على «زبيد» ومنطقة تهامة فى الشمال والقضاء على الحكم الطاهرى فى «عدن» ونقله إلى أيدى العثمانيين ، وأخيراً اخضاع السواحل اليمنية من

«الشحر» و «ظفار» حتى «عدن» جنوبا » إلى «جيزان» شمالا وبعد ذلك عادت حملة سليمان باشا إلى مصر ولم تحقق إلا جزءا من الاعمال التى عهدت اليها وبقى على الدولة العثمانية أن تعمل فى المستقبل على توحيد اليمن كله تحت سيطرتها بانتزاع المناطق التى يسيطر عليها الامام الزيدى مما يعنى المواجهة بين الزيديين والعثمانيين .

رحب العرب ومن بينهم اليمنيون فى بداية الامر بمساعدة العثمانيين المسلمين لهم فى الكفاح المرير ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية كما قبلوا أن ينزلوا لهم عن قيادة المعركة بل أيضا عن السيادة فى دارهم مما مهد السبيل أمام العثمانيين للسيطرة على الأقطار العربية ومن بينها بعض أجزاء اليمن فى فترة قصيرة وكان ذلك بمثابة الثمن الذى تقاضاه العثمانيون لقاء الحملات البحرية ، وإذا كان العثمانيون قد تمكنوا من وقف التوسع البرتغالى وتأمين الاقطار العربية ومن بينها اليمن من عدوان البرتغاليين ؛ فانهم قد عجزوا فى النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية ألا وهى تحطيم السيطرة البرتغالية فى بحار الشرق وشق طرق للتجار والملاحين العرب ويرجع سبب اخفاق العثمانيين فى تحقيق هذه الغاية إلى عجزهم عن تألف العرب المسلمين فى البحار الشرقية ليوحدوا قواهم جميعا لمكافحة السيطرة البرتغالية ومن النتائج التى أسفر عنها اخفاق العثمانيون فى هذا السبيل انهم اهملوا قواعدهم فى الخليج العربى وخاصة شرق الجزيرة العربية مما أتاح الفرصة للعرب هناك للاحتفاظ باستقلالهم وكانت بلاد اليمن اقرب للعثمانيين وأهم من شرق الجزيرة العربية مما شجعهم على التمسك بها برغبتهم فى انتزاع حريتهم والسيطرة على مقدراتهم وبخاصة عندما بالغ العثمانيون فى اتباع سياسة الغدر والتسلط والعنف ازاء العناصر العربية التى كانت تحرص على التمتع بحريتها واستقلالها فى اراضيها ولهذا فان تاريخ اليمن الحديث ملئ بالثورات العنيفة والمقاومة الضارية ضد العثمانيين الذين لم يتمكنوا من البقاء فى بلاد اليمن بعد أن فتحوا سواحلها وبعض اجزائها عام ١٥٣٨ أكثر من قرن واحد من الزمان فى بعض المدن الرئيسية فقط ثم تركوها ولم يعودوا إليها إلا فى منتصف القرن التاسع عشر ليقيموا حكمهم فيها قرابة نصف قرن آخر مشحون بالمعارك والثورات الدموية اليمنية وتحولت فيها اليمن إلى مقبرة لابناء الاناضول ، ولم يمضى وقت طويل منذ سيطرة العثمانيين على عدن فى اغسطس ١٥٣٨ حتى اعلنت القبائل اليمنية ثورتها على الحامية العثمانية المرابطة فى المدينة عندما رأت ما حدث بأميرهم عامر بن داود الطاهرية ، واضطر

العثمانيون أن يرسلوا اسطولا حربيا عبر البحر الأحمر تحت قيادة «بيرى» الذى تمكن من استعادة عدن بعد أن اخمد ثورة القبائل اليمنية .

٢- الفتح العثمانى الثانى لليمن ١٥٦٦

اهتمت الدولة العثمانية بعد عودة حملة سليمان باشا أو الفتح العثمانى الأول لليمن بتنظيم ممتلكاتها فى اليمن ودعم سيطرتها فى المناطق التى خضعت لها وقتئذ كما عملت على بسط نفوذها على اقاليم اليمن الداخلية ولم يمض وقت طويل حتى تحولت ممتلكات العثمانيين فى اليمن إلى ولاية عثمانية اخذت تنسحب عليها خصائص الحكم العثمانى فى عصره الأول بما يستتبعه هذا الحكم من وجود طائفة من الموظفين العثمانيين التقليديين مثل الوالى «الباشا» والكتخدا و«وكيل الباشا» والد فتردار «رئيس الشئون المالية» والسناجق والاغوات وغيرهم وكان «مصطفى باشا النشار» هو أول والى عثمانى يعينه السلطان سليمان القانونى على اليمن عام ١٥٤٠ على اساس التفاهم مع الامامة الزيدية واتخذ هذا الوالى مدينة «زبيد» مركزا لولايته وارسل نوابه إلى اقسام تهامة التى امتدت إلى جيزان ولم يلبث أن اصطدم الولاة العثمانيون بالائمة الزيدية عندما راح هؤلاء يمارسون سياسة التوسع فى انحاء اليمن المختلفة مما أدى إلى وقوع الصدام بينهم وبين الامام الزيدى فكان بينهم وبين ولاة الامام شرف الدين حروب فى جهات شتى والواقع أنه كان على العثمانيين أن يحاربوا فى جبهتين فى اليمن جبهة شمالية ضد الأئمة الزيدية وجبهة جنوبية ضد القبائل اليمنية الشافعية التى خرجت على طاعة العثمانيين فى جنوب اليمن الأوسط وطردتهم من عدن[٤٤]، ومع أن الجيوش العثمانية واصلت زحفها واستولت على تعز عام ١٥٤٥ كما سقطت بعدها صنعاء فى قبضتهم ولكن المحافظة على صنعاء أو أى من المدن الأخرى فى الجبال ما كانت تقوى عليه قواتهم أمام مقاومة اتباع الإمام الزيدى الذى كان يسيطر على المنطقة الجبلية الشمالية الممتدة من «صعدة» شمالا إلى «ذمار» و «رداع» جنوبا . وعلى الرغم من أن بقية اجزاء اليمن يدين معظم سكانها بالمذهب الشافعى السنى التقوا مع اخوانهم الزيديين الشيعة حول راية الامام شرف الدين لمقاومة العثمانيين الذين اختلفوا عنهم فى الجنس واللغة وأحسوا أنهم أعداء مغتصبون ، وإن كانوا يدينون مثلهم بالإسلام ويتبعون المذهب السنى .

ازاء تضامن الشعب اليمنى وتكاتفه فى مقاومة العثمانيين فإن هؤلاء لجئوا فى بعض الأحيان إلى استعمال اساليب المكر والدهاء والوقيعة بين اليمنيين ، على طريقة (فرق تسد)

وكانوا يحققون بها مالا تستطيع أن تحققه قواتهم المجهدة أو على الأقل يشغلون بها عناصر المقاومة اليمنية حتى تصل إليهم الامدادات الكافية لتحقيق أغراضهم الحربية وقد فعلوا ذلك مع الامام شرف الدين عندما ارسلوا إليه احدهم ويدعى «حسن البهلوان» فأحدث هذا العثمانى فتنة بين الامام وابنه المطهر اثارت قتالا مروعا بينهما شغلهما عن صد تيار التوسع العثمانى فى ارجاء اليمن ولم يخمد ذلك القتال سوى تدخل بعض العقلاء ، وتنازل الامام لابنه المطهر عن الامامة حقنا للدماء . فى حين استولى العثمانيون فى اثناء ذلك النزاع على المنطقة الممتدة من «تعز» جنوبا إلى «جيزان» شمالا ثم تقدم الوالى العثمانى ازدمر من زبيد تجاه صنعاء والتحم مع قوات المطهر الذى هزم بعد قتال عنيف انسحب بعده إلى «ثلا» بينما دخل «ازدمر» صنعاء بمعاونة بعض اتباع المطهر فى عام ١٥٤٧ بعد أن سفكت دماء كثيرة ونهبت المنازل والمتاجر فى اثناء سقوط المدينة فى قبضة العثمانيين وبعد سيطرة العثمانيين على صنعاء توطد مركزهم فى اليمن وتم لهم الاستيلاء على بعض المناطق اليمنية مثل مدينة «أبى عريش» فى اليمن الشمالى ولم تضعف مقاومة الامام المطهر للعثمانيين ؛ إذ استعاد هذا الامام قوته فى عهد الوالى العثمانى «رضوان باشا » وتمكن من قطع خطوط التموين عن صنعاء وغيرها من المدن الجبلية الخاضعة للعثمانيين بل أن «المطهر» تغلب على الوالى العثمانى مراد باشا الذى قتل فى احدى المعارك بينما تمكن المطهر من دخول صنعاء فى عام ١٥٦٨ وعقد صلحا مع العثمانيين انسحبوا بموجبه إلى «زبيد» وسهول تهامة فى اليمن الشمالى «بعسير» (٤٥).

يتضح مما سبق كيف استطاع العثمانيون أن يمدوا نفوذهم خلال هذه الفترة إلى قلب المنطقة الشمالية من اليمن الأوسط بعد دخول صنعاء على الرغم من عدم سيطرتهم على كل المناطق الشمالية لانه كان من العسير عليهم أن يبقوا فى صنعاء مكتفين بما حققوه من مكاسب ولاستحالة الدفاع عن صنعاء إذا ما تحركت كافة القوى اليمنية ضدهم خاصة وأن التذمر اليمنى من الوجود العثمانى قد عم مختلف المناطق بعد أن ضاق اليمنيون ذرعا باعمال الجنود العثمانيين الانتقامية وتصرفاتهم العدائية ؛ وقد اشتدت هذه النقمة بعد الاستيلاء على صنعاء وهذا ما جعل القبائل اليمنية تصعد مقاومتها ضد العثمانيين ، وتجد هذه المقاومة قبولا عاما لدى جميع اليمنيين وأن الاستيلاء على صنعاء وضع العثمانيين وجها لوجه امام مشاكل الشمال الطبيعية والبشرية لأن البئة الطبيعية الوعرة كانت تقف عائقا فى

طريق تقدم الجيوش العثمانية بينما أحسن اليمنيون استغلالها واوقعوا بالعثمانيين خسائر فادحة عند عبورهم مناطقهم الجبلية ؛ كما أن البيئة البشرية التى واجهها العثمانيون كانت غالبيتها بيئة بدوية محاربة لاتقبل الذل ولاتستكين اليه وقد حاربوا بكل عنف وشدة لأن هذه القبائل كانت تعتنق المذهب السنى فلم تحل وحدة المذهب مع العثمانيين دون محاربة المغتصب ولذا كانت حروب العثمانيين فى الشمال فى البداية لتفكك الزيديين أولا ولاستفادة العثمانيين من القوى المعادية للزيديين فى الشمال وخاصة من «الأشراف» كما أن الاخطاء التى وقع فيها الامام وأولاده ونزاعهم على السلطة وسوء تصرف ولاتهم مع أهل المناطق زاد من تفرق الناس عنهم بل والانضمام إلى العثمانيين فى بعض الأحيان ، أما القوة العثمانية المهاجمة فقد تميزت بحسن تجهيزها ووفرة معداتها الحربية وقوة شخصية قيادتها الحربية والسياسية (٤٦)، بالاضافة إلى سهولة امدادها لقوة المركز فى «الآستانة» وهذه الظروف كانت قد ساهمت مؤقتا فى اخضاع الشمال حتى صعدة . إلا أن سيطرة العثمانيين فى اليمن سرعان ما أخذت فى الاضمحلال والتدهور كما أخذت ممتلكاتهم فى الإنكماش تدريجيا حتى أنه لم يبقى فى أيديهم ابان ولاية حسن باشا ١٥٦٧ - ١٥٦٨ سوى «زبيد» والمناطق التهامية المحيطة بها التى تصل بينها وبين ساحل البحر الأحمر (٤٧).

يرجع انسحاب العثمانيين وقبول الصلح لظروف اضطرتهم لهول صعوباته الحربية ممثلة فى قدرة اليمنية على مواصلة القتال واستفادتهم من تضاريسهم الطبيعية الوعرة ، إذا أظهروا براعة فائقة فى حروبهم الجبلية وسرعة انقضاضهم على العدو ومفاجآته بينما لاقى العثمانيون صعوبات عديدة بسبب هذه التضاريس ، فقد فشلوا فى تركيز الاتهم ومعداتهم ومدافعهم فى ثنايا الجبال مما أضعف قدرتهم الهجومية وبالتالى تعطلت فعالية اسلحتهم ومدفعيتهم التى كانوا يعتمدون عليها . كما أن قوة شخصية المطهر وبراعته الحربية والسياسية جعلت مهمتهم صعبة ومحفوفة بالمخاطر ولم يؤد الصلح إلى الاستقرار فى اليمن إذ لم ينه الصراع بين العثمانيين واليمنيين بصورة نهائية وإنما كان اقرب إلى الهدنة منه إلى الصلح القائم على قواعد ثابتة ، إذا ما لبثت الحروب أن اشتعلت مرة أخرى وكانت أشد من سابقتها فى بعض الأحيان لأنه لم ينظم العلاقات نهائيا ولأنه وجد فى ظروف غير طبيعة بل وليد مواقف حربية استوجبت عقد مثل هذا الصلح ؛ ومن ناحية أخرى فقد كان اعترافا من السلطة العثمانية بشرعية الامام مطهر وملكه (٤٨).

عندما علمت الدولة العثمانية بالمقاومة الضارية التى تزعمها الامام المطهر ضد قواتها فى اليمن ارسلت حملة عثمانية مزودة باحدث الاسلحة فى عصرها يقودها سنان باشا الذى كان من ابرز قادة الدولة حينئذاك لأن فشل العثمانيين فى اليمن يعنى إهانة كبيرة للعثمانيين الذين انتشرت سمعتهم فى أوربا والعالم الإسلامى فكيف لايستطيعون أن يحققوا نجاحا فى هذا الجزء من الجزيرة العربية فى اليمن ، كما انضمت لهذه الحملة معظم القوات العثمانية التى كانت ترابط فى مصر وتسمى هذه الحملة بالفتح العثمانى الثانى لليمن خلال العصر الأول فى الجزيرة العربية وغادرت الحملة مصر فى يناير عام ١٥٦٩ قاصدة ينبع حيث انزل معظم افراد الحملة ومن الحجاز زحفت الحملة برا إلى اليمن واخضعت فى طريقها «جيزان» ثم استولت على «تعز» وقلعتها الحصينة وفرضت حصارا بريا وبحريا على «عدن» مما أدى إلى سقوطها فى أيدى العثمانيين ، ولم يلبث أن وجه سنان باشا انظاره صوب منطقة وسط الهضبة اليمنية ورغم وعورة هذه المنطقة ومناوشات اليمنية ومهاجمتهم مؤخرة الجيش العثمانى الزاحف[٤٩] فقد استطاع سنان باشا أن يصل إلى «زبيد» ثم واصلت الحملة العثمانية زحفها تجاه المواقع التى عسكرت فيها القوات المطهر وجرت بين الجانبين حروب كثيرة استطاع خلالها سنان باشا أن يدك مراكز المقاومة بمدافعه وقد استعاد العثمانيون مدينة صنعاء فى عام ١٥٧٠ بعد أن غادرها «المطهر» إلى حصن «تلا» لاشفاقه على سكان صنعاء من معاناة اهوال الحرب والحصار ولكن العثمانيين لم يتمكنوا من التقدم شمال صنعاء امام مقاومة اتباع الامام المطهر فى «كوكبان» .

رأى سنان باشا أنه لن يتمكن من السيطرة على اليمن إلا بالقضاء على مقاومة الامام المطهر واتباعه فأخذ يوالى حشد قواته ولكن دون جدوى وقد اعقبه فى تنفيذ تلك السياسة بهرام باشا الوالى العثمانى الجديد ، ودامت الحرب سجالا ما يقرب من عامين انتهت بموت المطهر فى مدينة «تلا» فى عام ١٥٧٣ مما أتاح للعثمانيين مزيدا من السيطرة وسط النفوذ حتى تمكن الوالى العثمانى حسن باشا الذى اعقب بهرام باشا من الاستيلاء على «تلا» و «عفار» و«ذى مرمر» و «الشريفين» الأعلى والأسفل و «صعدة» مركز الاقامة الزيدية فقضى بذلك على حركة المقاومة اليمنية فترة من الوقت واستطاع حسن باشا أن يأسر الامام الحسن بن داود الذى استحوذ على الامامة بعد وفاة المطهر وأمر بنفيه مع عدد من اعيان البلاد إى الآستانة عام ١٥٨٦ على أن القتال استؤنف من جديد بتولى الامامة المنصور

القاسم بن محمد الذى حارب الوالى العثمانى فى عدة مواقع ثم حدث الصلح ولكنه لم يدم أكثر من عام واحد نشبت فى اعقابه الحرب من جديد وانتصرت قوات القاسم بقيادة ولديه الحسن والحسين على العثمانيين وسيطرت على معظم الجهات الشمالية فى اليمن ومهما قيل عن اهداف محمد باشا من هذا الصلح كاخفاء الفشل العسكرى الذى منيت به القوات العثمانية امام مقاومة اليمنية ، فان هذا الوالى العثمانى قد أحل الطرق الدبلوماسية السلمية محل القتال والحرب واستطاع أن يقنع الباب العالى بضرورة ابرام الصلح مع الامام القاسم بل أن الدولة العثمانية بموجب هذا الصلح اقرت الامام على ما تحت يده من البلاد اليمنية لمدة عشر سنوات مقابل اعترافه بسيادتها فى بلاده . كما اتفق الجانبان على وقف القتال ومنع تدخل الجنود العثمانيين فى المنطقة الشمالية التى كان يحكمها الامام ، على أن العثمانيين من جانبهم حاولوا انتهاز فرصة عقد الصلح لدعم نفوذهم فى «زبيد» و «عدن» غير أن نيران الحرب كانت لاتلبث أن تشتعل من جديد بين العثمانيين واليمنيين الذين يحرضهم الامام المؤيد محمد بن القاسم بعد أن استحوذ على الامامة أثر وفاة والده وقد استولى المؤيد هذا على معظم البلاد اليمنية ولم تستطع القوات العثمانية التى وصلت من مصر إلى اليمن عن طريق الحجاز وقوامها عشرة الآف جندى أن تهيئ للحكم العثمانى أى دعم أو استقرار بل أن المؤيد تمكن من السيطرة على جميع مدن تهامة عدا «زبيد» و «مخا» و «موزع» حيث كانت ترابط فيها القوات العثمانية (٥٠).

وجد العثمانيون انفسهم فى اليمن يواجهون تيارا عنيفا من التذمر والعداء والثورات المستمرة والمقاومة العنيفة الضارية التى كان يشارك فيها الزيديون فى الجبال اخوانهم الشافعيين فى تهامة على الرغم من اتفاقهم المذهبى مع العثمانيين وكانت القوات العثمانية تتكبد بصفة دائمة خسائر فادحة فى الاموال والارواح مما جعل العثمانيين يفكرون فى الجلاء عن اليمن تخلصا من هذا الحلم المزعج الذى عاشوا فيه قرابة قرن من الزمان ، وأصبح الأمر منطقيا لديهم وبخاصة لكثرة الامدادات العسكرية والبشرية التى لم تكن تنقطع عنها خلال تلك الفترة الطويلة كما شكل استزافا للدولة العثمانية اضافة إلى التكاليف الباهظة التى كانت تحملها الدولة نتيجة لما كانت تنفقه على جنودها للإبقاء على ولائهم فى حين كانوا يعتبرون اليمن منفى لهم والبقاء فيه من اقسى التبعات . وكان كل ذلك يدعم فكرة الجلاء عن اليمن لدى العثمانيين فى ذلك الوقت فى عهد السلطان مراد الرابع استجابة طبيعية لما

فرضته المقاومة العنيفة التى قام بها الشعب اليمنى ضد العثمانيين وقد تمت احداث الانسحاب فى منتصف الاربعينات من القرن السابع عشر أثر المقاومة العنيفة التى قامت بها قوات الامام «المؤيد محمد» ضدهم مما هددهم بأسوا العواقب ، ولم تمضى فترة طويلة حتى وصلت قوات الامام فى عام ١٦٣٥ إلى أبواب «صنعاء» وأخذت فى محاصرة القوات العثمانية بقيادة أخيه الحسن وعند ذلك أمر القائد العثمانى بفتح ابواب صنعاء والتحم الجانيان فى معركة «الصافية» وهى من اشهر المعارك التى دارت بين اليمنيين والعثمانيين فى اثناء فترة الحكم العثمانى الأول وقد قتل فى تلك المعركة عدد كبير من الاتراك فى حين استسلم الباقون لقوات المؤيد التى سيطرت على جميع المدن اليمنية التى كانت فى قبضة العثمانيين بما فيها «زبيد» ثم جزيرة «كمران» وجزائر «فرسان» وقد تم ترحيل العثمانيين جميعا من اليمن إلى بلادهم فى نهاية عام ١٦٣٥ . وبذلك كانت اليمن أول ولاية عربية تستقل من الدولة العثمانية بعد حكم دام أكثر من قرن .

تمثلت اليمن اثناء خضوعها للحكم العثمانى الأول ١٥٣٨ - ١٦٣٥ احدى الايالات الأربع عشرة التى كانت تتألف منها البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية فى حين بلغ مجموع الايالات التى قسمت إليها الدولة اثنتين وثلاثين ايالة وكانت ايالة اليمن تضم تسعة الوية هى صنعاء - مخا - زبيد - تعز - سلة - كوكبان - طويلة - مأرب - عدن - وكانت اليمن فى تلك الفترة تتنازعها قوى العثمانيين والأئمة الزيديين فالعثمانيون لم يستطيعوا أن يضمنوا سيطرة حقيقية على البلاد نتيجة للاضطرابات المستمرة والثورات الدائمة وحركات المقاومة العنيفة التى كانت تواجههم وفى الوقت نفسه كانت البلاد يضبطها الأئمة غالبا وقد ترتب على استمرار الفوضى وعدم الاستقرار عدم تمكن العثمانيين من فرض النظام الاقطاعى على اليمن على الرغم من انهم فرضوه على كل مقاطعات الدولة العثمانية(٥٢) .

رابعًا : حضرموت تحت حكم السلطنة الكثيرية

ذكرنا سابقا عن السلطنة الكثيرية والدور الذى قام بها سلطانها بدر «ابو الطويرق» فى الدفاع عن سواحل حضرموت امام الهجمات البرتغالية وكيف أنه نجح فى اسر اعداد منهم وارسلهم إلى الاستانة لدى السلطان العثمانى ولم يستطع الاستعمار البرتغالى من احتلال أى جزء من سواحل حضرموت الكبيرة وكيف واجهة مقاومة شديد من الحضارمة فى مدينة «الشحر» الساحلية .

١- السلطنة الكثيرية وعلاقاتها مع الدولة العثمانية

اتخذ السلطان الكثيرى بدر «ابو الطويرق» عدة تدابير لحماية سلطنته الحضرمية من الداخل ومن الخارج منها أنه أخذ يكاتب السلطان سليمان القانوى ويعرض الدخول فى طاعته ويستنجده على البرتغال الذين يهددون سلامة بلاده فى الوقت الذى كان العثمانيون بدورهم ينطلعون إلى التوسع نحو المشرق العربى بخاصة سواحل الجزيرة العربية .

وصلت بعض السفن العثمانية فى شهر جمادى الأول عام ٩٤٤ هـ الموافق ١٥٣٧ إلى ميناء الشحر تحمل مؤنا للجيش العثمانى لتخزينها هناك اضافة إلى الوقود لوضعها تحت حماية السلطان بدر «ابو الطويرق» وفيها مقادير كبيرة من القمح والشعير والفول والبصل والزيت وعدد من المدافع والاسلحة وقد تكون ذلك بمثابة احتياط للحملة العثمانية التى كانت بقيادة سليمان باشا الخادم التى وصلت «عدن» ومنها كتب سليمان باشا إلى السلطان بدر ابو الطويرق يخبره بوصوله إلى «عدن» وأنه استولى عليها بدون قتال وقبض على الامير عامر بن داود آخر ملوك بنى طاهر فى الجزء الجنوبى من اليمن الأوسط فى «عدن» اضافة إلى الأمير عبد الرحمن والأمير الخلى وحكم عليهم بالشنق وتركوا مشنوقين «بالجسارة» قرب باب الساحل يومين كاملين ، ثم دفنوا فى اليوم الثالث وغادر سليمان باشا الخادم عدن بعد أن ترك بهرام عاملا عليها من قبله ومعه خمسمائة جندى عثمانى .

جاء إلى ميناء الشحر وفد عثمانى مكون من ثلاثمائة شخصا فى ربيع الأول عام ٩٤٤هـ الموافق ١٥٣٨ ليخبروا السلطان بدر بالحملة التى اعدها السلطان سليمان القانونى ضد البرتغاليين وقدموا «لابو الطويرق» مرسومين وخلعتين من السلطان العثمانى قدمها إليه الامير فرحات «شوماى» رسول من قبل سليمان الخادم وبهذه المناسبة عقد السلطان بدر إبو الطويرق اجتماعا كبيرا بمسجد الجامع فى الشحر قام فيها الامير فرحات خطيبا فقدم إلى السلطان بدر المرسومين ونوه بالحملة التى جردت لحرب الصليبيين البرتغاليين ثم وقف العلامة الشيخ عبدالله عمر بامخرمة وقرأ المرسوم السلطانى وبعد ذلك تكلم السلطان بدر فرحب بالمرسوم وبأول رسول عثمانى يصل إلى حضرموت فى مدينة الشحر واشار إلى أنه سيأمر بأن يخطب الخطباء فى سلطنته للسلطان العثمانى وجاء يوم ٢٤ من هذا الشهر ربيع الأول ٩٤٤هـ الموافق ١٥٣٨ فصادف أول جمعة بعد الاجتماع السابق فكانت أول جمعة خطب فيها للسلطان العثمانى بحضرموت [٥٣].

غادر الامير «فرحات» مدينة الشحر مزودا بهدية ثمينة من ابو الطويرق للسلطان سليمان القانونى هى قطعة من الالماس النادر الوجود وخمسمائة مثقال من العنبر الاصيل اضافة إلى العطور والبخور والبهارات الثمينة اما «فرحات» نفسه فقد اهداه السلطان ثلاثين بهاراً من الفلفل . وفى شهر رجب ٩٤٤ هـ الموافق ١٥٣٧٨ وصل الاسطول العثمانى إلى «شحر» بعد عودته من الهند ونزلت القوات العثمانية إلى المدينة يبيعون ويشترون . وطلب سليمان الخادم بعض الأسرى الذى كان الحضارم اسروهم بعد هزيمة البرتغاليين فى الشحر فأحضروا وسلموا له ولم يكن السلطان بدر «ابو الطويرق» موجودا فى الشحر فى هذه الفترة فأناب عنه الأمير أحمد مطران فى مقابلة سليمان باشا الخادم والترحيب به فقد قصد السفينة الكبيرة التى تحمل الباشا الذى قابله احسن مقابلة وخلع عليه وقال له : «إن الدولة العلية سترسل للسلطان بدر ابو الطويرق «فرمانا» بعقد الولاية له من باب «عدن» إلى نهاية «ظفار» فى الشرق وقدم له الامير الحضرمى احمد هدايا فاخرة وما يحتجون اليه من البر ثم غادر سليمان باشا فى طريقه إلى عدن بعدما وضع على الشحر رسوما سنوية قدرها عشرة آلاف «اشرفى» تسلم كل عام إلى مندوب الدولة العثمانية الذى يصل سنويا لأخذ هذه الرسوم [٥٤].

٢- عصر السلطان بدر ابو الطويرق

يعتبر عصر بدر ابو الطويرق من ازهى عصور السلطنات الحضرمية ويعد العصر الذهبى لها فقد أخصب باكابر العلماء والفقهاء والأدباء والمؤرخين ولسلطان بدر مدرسة كبيرة ومسجدا عامرا «بالشحر» حبس عليها اموالا كثيرة وعين لها مدرسين اكفاء وكان تأسيسها عام ١٥٥١ ولم تزل باقية إلى اليوم أما العملة فقد ضربها فى شكل ريالات من الفضة فئة ريال وفئة نصف الريال وفئة ربع الريال ولريال اجزاؤه النحاسية وحدتها بقشة يتألف من ثمانيين «منها» وذلك عام ١٥٢٧ وعام ١٥٣٥ .

أمضى السلطان بدر ابو الطويرق حياة حافلة بجلائل الاعمال ولم تمكنه مشاغله السياسية والحربية من القيام بمجهودات كبيرة فى النواحى الثقافية والعمرانية بمقتضى ما عرف عنه من د اقوى وابرز سلطان عرفته حضرموت التى امتدت

حدثت اضطرابات فى نهاية عهد السلطان بدر «ابو الطويرق» عندما اعلن عثمان بن احمد العمودى زعيم اسرة آل العمودى التمرد واستولى على عدة مناطق وكانت عاصمته «بضة» بوادى «دوعن» كما اعلن على بن عمر بن جعفر الكثيرى (٥٥) وهو ابن عم بدر ابو الطويرق تمرده أيضا واستقل بسلطانة «شبام» وعزلها عن السلطنة الكثيرية «الام» مدة من الزمن وحارب وسجنه . ومن ابو الطويرق وصالحه ثم تعكر الصفو بينهما واخيرا آلقى عليه القبض ابو الطويرق وسجنه . ومن المؤسف أن يكون للتصادم الموجود بين هؤلاء الثلاثة اثره الكبير فى اضطراب حبل الأمن فى جميع انحاء حضرموت من اعلاه إلى اسفله وفشل المساعى فى ايجاد نوع من انواع السلم الدائم بين هؤلاء وأن استطاع بدر أن يتغلب على ابن عمه على بن عمر الكثيرى فى عام ١٥٥١ بعد حروب طالت بينهما فى المنطقة الوسطى بين «هينين» و «سيؤن» فانه لم يستطع أن يتغلب على عثمان العمودى الذى دامت الحروب بينهما سجالا متخذين من «دوعن» و «حضرموت» «الوسطى» والساحل ميادين لهما نحو عقد من السنين يصطلحان فيهما مؤقتا ثم يستأنفان القتال واستعان السلطان بدر ابو الطويرق فى تثبيت ملكه بقوة من الدولة العثمانية . أما العمودى فقد استعان بقوة من الامامة الزيدية فى اليمن لتقوية مركزه فكونا جبهتين جعلتهما يتحققان أن الصلح النهائى فى مصلحة فعقداه عام ١٥٤٧ وبقى كل منهما بعده فى موضعه لايتعرض للآخر .

اقام السلطان على بن عمر جعفر الكثيرى سلطنة فى شبام على ماليته الخاصة بعد أن هجم عليها باتباعه وادخلها فى حوزته ، ويعتبر شخصيته اقتصادية عملية حتى أنه كان احيانا يباشر الاعمال اليدوية بنفسه وأنه كون له ثروة ضخمة من النخيل والمزارع ينفق منها على خزينة دولته المتواضعة فى «شبام» فرارا من فرض الضرائب على سكانها وأنه تغلب عليه الروح الصوفية والعلمية وكان لديه مستشارون من علماء الدين الذين كانوا يحاولون تطبيق نظام دولة عادلة تشتمل على شعب متصوف قنوع على رأسه هذا السلطان الخير المحبوب وقد انتصر عليه السلطان بدر ابو الطويرق واسترجعه إلى سلطنته فى النهاية . واستمر السلطان ابو الطويرق فى الحكم قرابة نصف قرن وتوفى فى عمر يناهز الخامسة وسبعون فى عام ١٥٦٩ وتولى الحكم من بعده ٥ ابناءه واحفاده .

٣- السلطان عبد الله عمر ابو الطويرق ١٦١٢

تولى السلطان عبد الله بن عمر ابو الطويرق الحكم بعد أبيه عام ١٦١٢ وبدافع من تقواه واستقامته اهتم كثيرا بالاصلاحات ومعاقبة الخارجين على القانون ، ولكنه كان دائم التفكير

فى التخلص من هذه السلطة وقد تأثر بالصوفية والزهد وعلماء عصره فقرر فى النهاية أن يلتجئ إلى الامام الحسين بن الشيخ ابى بكر تائبا نادما على ما مضى منه من بعض المظالم التى قل أن يخلو منها حاكم ويخلع نفسه عن الحكم ويولى الامام الحسين الذى رفضها واشار عليه بان يولى اخاه «بدرا» وهكذا يزهد السلطان الكثيرى فى حكم حضرموت وفى الملك والعظمة كما زهد الكثير من قبله امثال ابراهيم ابن ادهم» فكان من المشتغلين بالزهد والعبادة الخاصة وإذ كان فى زهد هذا السلطان الكثرى وانخلاعه عن الملك راحة ونجاة له وفى صالحه الشخصى فانه لم يكن فى صالح شعبه وبلده حضرموت لأن النتيجة كانت بعده فتنة وحربا اهلية بين ابنه وأخيه «بدر» الذى ما لبث أن ضيق على ابناء أخيه المستقيل واستعان أخوه فيها بالإمامة الزيدية بالامامة الزيدية واستعان ابنه بالجيش اليافعى الحضرمى وكانت النهاية ضعف السلطنة الكثيرية وتنصيب سلاطينها رموزا والسلطة الحقيقية بين كبار ضباط الجيش المجلوبين من منطقة «يافع» والمتوطنين بحضرموت فيما بعد حتى تلاشى فى النهاية ، فمثلوا دور الاتراك مع الدولة العباسية كما يمثل الصغير دور الكبير (٥٦).

٤- الحياة الاقتصادية فى عهد السلطنة الكثيرية

اعتمد الحضارمة فى زراعتهم على الآبار والعيون والأمطار ولهم طريقة خاصة فى الرى وتوزيع المياه ويعتنون بزراعة القطن ويغزلونه بواسطة مغازل خشبية معروفة من صنع البلد منتشرة فى البيوت ، وتستعملها النساء لغزل خيوط معدة للنسيج يسلم إلى الحاكة حيث ينسجون منه جميع انواع الثياب ، والمنسوجات التى تكفى احتياجات وتصدر الباقى إلى الخارج وخاصة إلى «اليمن الأوسط» فى صنعاء ومنها المصبوغ ومنها الصافى وبلغ النسيج الحضرمى فى بعض مراحل هذا العصر درجة قصوى من الاحكام ، وقد تضاف إليه الخيوط الحريرية ويرسل إلى البلاد المجاورة كاليمن والحجاز وعمان بأثمان باهظة ، وكانت توجد آلاف المحاويك بمدن وقرى حضرموت حتى بلغت فى الشحر الفا وثلاثمائة محواك «منسجه» وفى حى واحد من احياء مدينة «تريم» اربعمائة محواك ، وبقية المزروعات والمغروسات لأجل صبغ الثياب بعد النسج والغزل وقبله تزرع الحشائش التى يستخرج منها الاصباغ «النيلة» ، وتختلف كثرة الانتاج وقلته إلى درجة الجدب تبعا للأمن والامطار والجفاف ففى بعض المواسم تدلنا المراجع التاريخية على جودة المحاصيل وكثرتها وانتاج الدواجن والماشية وزيادتها . وأما التمور فكانت تنتج وتصدر بكميات كبيرة كما أن النقود الذهبية والفضية فى تلك

الحقبة كانت فائضة فى حضرموت ، واستعان الحضارمة فى هذا العهد ببعض المهندسين الهنود فى بناء بعض السدود وجلب الامام عبدالله بن الشيخ العيدروس المتوفى عام ١٦١٢ اعانة من بعض امراء الهند تقدر بمبلغ ثلاثمائة الف ريال نقدية جعل ثلثا منها لإصلاح وبناء السدود وقام بتوزيع المياه مهندس هندى اشترك معه بعض الخبراء والعمال الحضارمة .

يبنى الحضارمة مساكنهم باللبن المخلوط بالتبن غالبا ويصنعون نوافذهم وابوابهم من خشب السدر وهم يضيقون النوافذ من الخوف على انفسهم من هجوم اعدائهم عليهم ليلا منها وبعضهم يجعل مشرف النوافذ على قمره داخل الدار مبالغة فى ستر نسائه وبعض المدن والقرى نجد فيها عدة ديار متصل بعضها ببعض وعليها سور واحد بسبب الحروب المستمرة بينهم كما شوهد هذا فى «دوعن» وفى «جفل» ومن الفن عندهم زخرفة ونقش الأبواب وأعمدة الغرف فيعملون لها أشكالا من الثقوب فى شكل دوائر وخطوط منتظمة منسقة ، وقد يكتبون على الأبواب آية من القرآن الكريم وما زال بعضها باقيا إلى يومنا هذا منها دار الامام عبد الله بن ابى بكر العيدروس الذى بناه له تلميذه عمر بن عبدالرحمن صاحب «الحمراء» فى القرن الخامس عشر فى مدينة «تريم» . ويطلى الحضارمة السقوف بألوان حمراء ويشكلون اعوادها الصغيرة احيانا من أحمر وابيض واسود اما فى «دوعن» فمن الفن عندهم اقامة كتلة خشبية مرصعة بقرص المسامير حوالى باب المنزل الداخل بحيث تملاء الجوار ويسمونها الواجهة .

ويعتبر المجتمع الحضرمى من المجتمعات المكتفية ذاتيا وعندهم ما يكفيهم فى عماد حياتهم ومعيشتهم من ناحية المطعم والملبس ، والمسكن وغيرها من الضروريات وحتى الكماليات ونجد الأوانى والأدوات المستعملة بينهم من الفخار ، والأخشاب والخوص أشكالا وانواعا فى مختلف الشؤون المنزلية والزراعية والمعمارية وبين الأوساط ذات البساطة المعيشية وقل أن يجلبوا غيرها من الخارج فهم يعتمدون على ما تنتجه أرضهم من تمور متنوعة وأطعمة مختلفة وثمار وخضار ويعتمدون فى ملابسهم على ما تنتجه المحاويك «آلات النسيج» التى تحول القطن الذى تنتجه ارضهم إلى نسيج ثم إلى أقمشة وقد يصبغون البعض منها بواسطة «النيلة» التى تنبت فى بلادهم بل يصدرونها كما يصدرون أنواعا من نسيجهم إلى الخارج ، وبقية صناعاتهم مما تنتجه بلادهم فأونيهم من الخشب ومن الفخار ويعلمون منه باتقان الجرار الكبيرة والصغيرة لخزن الحبوب والتمور وللماء ويصنعون منه الفناجيين بانواعها

والأباريق إلى جانب ما يصنعون من آلات وأوانى من المعادن الأخرى كالحديد والنحاس والمجلوبين من الخارج ويقومون بصب الرصاص فى قوالبه خاصة ووضعه فى الخراطيش ويصنع أقمامها ويجلب الرصاص من اليمن والخوص المحلى يقوم بدور فى تموينهم وبالأخص الطبقة الفقيرة منهم «بلحصر» و«القضف» و «الزنابيل» و «الاطباق» كل هذه بانواعها واشكالها الجميلة وأنهم بهذا الاكتفاء الذاتى مستقلون الاستقلال الاقتصادى الحقيقى (٥٨).

٥- الحياة الاجتماعية فى عهد السلطنة الكثيرية

يتكون هذا المجتمع بجميع فئاته ويعمل الفلاح والعامل بنشاط وصبر ومعظم الفلاحين يملكون بساتين ونخيلا الذى يعدونه عماد ثروتهم ويعتنون بغرسه ، والنساء تختلف اعمالهن باختلاف الطوائف المهنية التى ينتمين إليها ولكنهن دواما يجتمعن اجتماعات عمومية اضافة إلى الخاصة فى المناسبات العديدة من افراح واتراح كاعراس والمآدب ، والمآتم بدون اختلاط وهناك اختلاط موجود بين نساء البادية ورجالها ، وفى الأوساط العاملة الزراعية وغيرها وبعض القبائل المتسلحة المتحضرة أما نساء القطاع المعروف اغلبيته بالحضر فى المدن فمن محتجبات فى بيوتهن ويزاولن بعض المهن السهلة كالغزل والخياطة والعلم والوعظ والعبادة .

تأسست فى هذه الفترة أنظمة «الحوف» وهى جمع «حافة» بمعنى حارة وجمعها حارات وتقسم المدينة إلى احياء فيقوم شيوخ وفتيان كل حى باسعافات وخدمات اجتماعية من أنتشال الغريق واطفاء الحريق وطبخ الطعام وتقديمه وإدارة المشروبات فى المجتمعات العامة من مآتم وولائم واحتفالات وكل ما يحتاج إلى جمهور كبير فى حمله أو جره ، كالبوابات العظيمة وأخشاب وسحب جيف الجمال والخيول وامثالها إلى خارج المدن وحمل الجنائز ، وتجهيز الاموات ويقومون به مجانا وما على من حدثت عنده أى حادثة تستدعى الاستعانة بأبناء الحارة التى يسكنها إلا الاتصال برئيسهم «مقدمهم» فيسارعون إلى اجابته وتوجد منافسة بين أبناء كل حارة وأخرى وحماس فيما بينهم لأداء واجباتهم الاجتماعية التى يشعرون أنهم مسئولون عنها وأنه من العيب الفاضح التقصير ، فيها أو أن يتدخل أحد من ابناء الحارات الأخرى فى شئون الثانية ، ومن مهامهم القيام بالرقصات الشعبية والوطنية «كالشبوانى» و «المرزيح» و«الخابة» ولهم فرقا خاصة ينشدون الأغانى الشعبية ، وتوجد بحضرموت نقابة أو رئاسة للجماعات الكبيرة التى تلتقى حول عمل واحد ارباب «القنص» لهم نقابة وتتركز النقابة أو الرئاسة فى إدارة الحياة العملية العامة التى تعيشها كما تأسست

فى القرن الخامس عشر نقابة منظمة للسادة العلويين بحضرموت وهى من نوع نقابات اخوانهم الأشراف بالعراق ومصر والحجاز وغيرها وكان لها أثر كبير فى استمرار العلم والثقافة والتقوى والتربية الإسلامية اضافة إلى ذلك توجد فى حضرموت «المناصب» جمع «منصب» وهو المرجع فى الأمور الهامة والمشاكل الاجتماعية كما يطلق فى اللغة العربية على هذا وعلى المقام والوجاهة والشرف والحسب وكذلك توجد مجموعة هذه الصفات فى المناصب عند سكان حضرموت وشخص المنصب الذى هو المرجع متلازمة معه تلك الصفات التى أشرنا إليها والمناصب منتشرون فى معظم مدن قرى واودية حضرموت وشغلهم غالبا التفرغ لثلاثة اعمال اجتماعية هامة وهى (٥٩):

أولاً : اصلاح ذات البين ومن أهم أنواعه عقد الصلح والهدنة بين القبائل المسلحة وكثيرا ما يخاطرون بأنفسهم ويزجون بها فى المعارك لايقاف القتال بينها واسترجاع الأموال المنهوبة فى غاراتها والقبائل المسلحة قل أن تعصى لهم أمرا فى هذا السبيل .

ثانيًا : الإرشاد والقيام بنشر المبادئ الإسلامية فى مناطقهم وفى البوادى والاريفاف والأماكن البعيدة عن الدعاة ويتولون ذلك بأنفسهم وبمريديهم وتلاميذهم وقد يفتحون بعض المعاهد العلمية التابعة لهم فتكون ملحقة به وقد يتوسعون فى نشر الدعوة الإسلامية إلى المهاجر الحضرمية كأندونيسيا و «مليزيا» و «شرق افريقيا» كغيرهم من الدعاة الحضارم.

ثالثا: قرى الضيف فتكون ديارهم مفتوحة دائما وكل وقت للضيوف والنزال والغرباء من الحضر والبدو وهم يستقبلونهم بكل حفاوة واكرام ، وكثيرا ما يستدين «المنصب» ديونا تثقل كاهله من أجل القيام بهذه الخدمات العامة التى يرونها من أوجب الواجبات الاجتماعية التى يتوارثونها أبا عن جد ، وهم يرون فى أموال هذه «المنصبة» مالا مشاعا وحقا مشتركا للمساكين المحتاجين وللغرباء الذين تنقطع بهم السبل فلايردون من ورد إليهم أو نزل بساحتهم منهم أبدا ، وأول من عرف بتأسيس المنصبة الامام أحمد بن حسين العيدروس فى بداية القرن السادس عشر ثم ابنه عبدالله بن أحمد المتوفيان «بتريم» اضافة إلى الشيخ أبوبكر بن سالم «بعينات» والشيخ أحمد بن محمد العمودى فى وادى «دوعن» . وطبيعة حضرموت وظروفها هى التى أوجدت فيها هذه المؤسسات الاجتماعية كبيرة النفع ولهذا توجد روابط وثيقة بين هؤلاء المناصب الذين يتمتعون بالواجاهة وحسن العقيدة وبين القبائل المسلحة ولهم نفوذ عليهم فى حدود معينة .

أبرز العائلات التى تحددت منها المناصب آل الشيخ ابى بكر بن سالم ولهم وجاهة عظيمة لدى القبائل «اليافعية» و «المهرة» و «المناهيل» وغيرهم و «آل العطاس» ووجاهتهم أكثر لدى قبائل «الجعدة» و «نهد» ، و «آل العيدروس» ولهم وجاهة عظيمة لدى القبائل «الشنفرية» و«الكثيرية» و«التميمية» «العامرية» أو «العوامر» وهذه أسر «علوية شريفية»، أما للمشايخ «العموديين» وجاهة عظيمة لدى قبائل «دوعن» ، و «آل باوزير» وحاجة لدى قبائل الساحل ، وآل «باعباد» وجاهة لدى بعض القبائل البدوية وهذه أسر شهيرة تحدرت فيها مناصب معروفة اضافة إلى أسر أخرى علوية وغير علوية لها «مناصبها» .

وتوجد عادات وتقاليد وآداب لكل طائفة من طوائف الشعب الحضرمى تزاولها فيها بينها مما يتعلق بلباسها واشغالها وأفراحها واتراحها ونجد الكثير منها مذكورا فى كتب عديدة . وهناك التقاليد والعادات والآداب العامة التى يزاولها كل ابناء حضرموت ويشترك فى القيام بها وكثير منها موروث ومأخوذ من الآداب العربية والإسلامية .

٦-الحياة الثقافية فى عهد السلطنة الكثيرية

يغلب فى هذا العهد روح العلم والشرع والتفسير والحديث وعلومه فى فقه الشافعى وفى العلوم العربية بأنواعها والعلوم العقلية والكونية إلى درجة عاليه جدا لايقلون فيها عن مستوى اخوانهم من نوابغ الاقطار العربية والإسلامية الأخرى ، وفى التصوف تفوقوا على غيرهم من المتصوفه وتذوقوا هذا العلم الشريف النظيف وفهموه على حقيقته بدون أن يغالوا فيه كما غالى آخرون ، فلا طريقة خارجة عن دائرة الكتاب والسنة وطبقوا هذه الحكمة الشهيرة وهى «من تصوف قبل أن يتفقه تزندق» وتسربت طريقة الصوفية إلى حضرموت بعدما انتشرت فى الشرق وعلى رأسها الشيخ عبد القادر الجيلانى الحسنى «وشعيب ابومدين» فى المغرب العربى «بتلمسان» عندما ارسل ابومدين تلميذه الشيخ عبد الرحمن بن محمد المقعد إلى حضرموت لنشر طريقة الصوفية بها لأن علماء حضرموت السابقين تمثلوا بالتصوف العام الذى يشتمل على نظافة القلوب وملازمة الطاعات والأعراض عن حطام الدنيا قبل أن تسن له الطرائق بما اشتملت عليه من تسليك ورقائق ذروتها فى هذا العصر .

زاد رجال العلم والثقافة فى هذا العصر حيث صاروا يعدون بالآلاف ويتخصصون فى مختلف العلوم ونجد كتب التواريخ مشحونة بتراجم العديد منهم ، كتاريخ «ابى مخرمة»

و«برد النعيم» و «العزر» و «الشرع» و «النور السافر» و «السناء الباهر » و «صلة الأهل والغرر المعلم» و «مرآة الشموس» ومن ابرزهم الامام عبد الرحمن بن مصطفى بن زين العابدين العيدروس المتوفى عام ١١٩٢ هـ الموافق ١٧٧٨ فى القاهرة . نتيجة للمؤثرات التربوية والوراثية التى قررها العلماء المختصون وكنتيجة للاخصاب بالمعارف والثقافة والاستزادة منها ، خصصت مكاتب كبيرة للمراجعة والمطالعة منها مكتبة السادة آل عبدالله بن شيخ «بتريم» ، مكتبة آل العمودى «بالشعبة» ومكتبة آل العيدروس وآل الهندوان. وقد اشتملت كل من هذه المكاتب على مجلدات كثيرة نادرة ولديهم نساخ معروفون لكتب ذكرت المراجع أفراداً منهم ومع الأسف أن المكتبتين «العيدروسية» و «الهندوانية» اتلفهما فيما بعد النجديون الذين غزوا حضرموت فى بداية القرن التاسع عشر ويعرفون بآل بن «قملة» وضاع ذلك التراث العلمى الثمين وجاءت مكتبات اخرى فيما بعد ، أما التعليم والتدريس فأكثرها فى المساجد والزوايا كامتداد لحالة من قبلهم وعندهم مدارس وكتاتيب وقد استمر بعضها من القرنين الثامن والتاسع الهجرى ككتابى «باغريب» و «باحرمى» «بتريم» وغيرهما فى المدن الأخرى ، لجد لهم اوقافا متنوعة متعددة ومن اهم ما يعتنون به الأوقاف على طلبة العلم وعلى الأربطة والمعاهد وعلى الضيوف والمساجد وعلى الايتام والمنقطعين وعلى الفقراء والمحتاجين وعلى السقايات المبنية على الطرق للشرب وعلى خزانات المياه للترب (المقابر) للغسل وعلى اكفان الموتى ولافطار الصيام فى رمضان ولتعبيد الطرق والمساجد كثيرة فى المدن الحضرمية «وتريم» التى بلغت مساجدها فى تلك الفترة اربعمائة مسجد . واهتموا بتعليم البنات ونشأت بناتهم نشأة علمية وتجلت فيهن معانى المدرسة الأولى ومما يذكر فى التاريخ أن الإمام العيدروس الأكبر فتح مدرسة خاصة بتعليم البنت بتريم فى القرن الخامس عشر وفى خلال كتبهم نجد مشاركة بناتهم وزوجاتهم لهم فى المعروفة[٥٧].

برز من الحضارمة أدباء وشعراء منهم ابن «عقبة» وعبد الصمد باكثير المتوفى عام ١٦١٨ وهو صاحب القصائد العمريات نسبة إلى ممدوحة عمر بن عبدالله الكثيرى والامام عبدالله بن علوى الحداد والمستوى العام الأدبى فى هذا العصر يتقارب مع المستوى العام إذ

ذاك فى الاقطار العربية وقد صنفوا انتاجهم العلمى فى كل العلوم الشرعية والعقلية والكونية واللغوية وغيرها منها المطبوع ومنها ما لايزال مخطوطا ونجد ظاهرة فى القرن السادس عشر هى كثرة المؤلفات التاريخية ومنها «تلاوة النحر» «تاريخ بامخرمة» - تاريخ «شنبل» - «ترياق القلوب الوافى» - أنس السالكين» «غرر البهاء الضوى» - تاريخ «حوادث السنين»- «العقد النبوى» تاريخ «باقشير» - تاريخ «باسخلة» .

خامسًا : عمان تحت حكم الأئمة الاباضية

١- الأمامة فى عمان

تعرف فترة ما قبل اليعاربة بملوك بنى «نبهان» فى عمان التى كثرت فيها الحروب الأهلية والصراعات القبلية ، مما سهل على الأجنبى التغلغل إلى عمان وخاصة الاستعمار البرتغالى واحتلاله لأجزاء من عمان ؛ واستمرت تلك المشاحنات الداخلية التى أقلقت الشعب وسئم منها السكان ؛ لهذا تشاوروا فى أن يغيروا فى السلطة طبقا للحرية التى أطلقها المذهب الاباضى فى اختيار الأئمة وبناء عليه وقع اختيارهم على ناصر بن مرشد على نحو ما سنذكره فيما بعد ، امتد حكم «بنى نبهان» نحو خمسمائة عام وينقسم ملوكهم إلى مجموعتين : أولاهما ملوك «بنى نبهان» الأولون وثانيهما : ملوك بنى نبهان المتأخرون وهم الذين يهمنا الحديث عنهم على أساس أن الظروف التى شهدتها عمان فى عهدهم إنما كانت تمثل التمهيد الحقيقى لقيام دولة اليعاربة وقد اتضحت هذه الظروف أكثر ما اتضحت فى عهد سليمان ابن سليمان بن مظفر بن نبهان وتمثلت فى الأحداث الآتية [٦٠]: -

أولاً : غزو الفرس «لصحار» التى كان يحكمها مهنا بن محمد الهديفى ممثلا للدولة النبهانية وبرغم أن قوات سليمان بن سليمان بن مظفر تمكنت من صد هذا الغزو وطرد الفرس؛ إلا أن هذا الحادث يبين عجز الدولة عن حماية عمان ذلك لأن محاولات الغزو لم تتوقف بعد هذا وظهرت عناصر أخرى تطمع فى عمان .

ثانيًا : تزايد الحروب بين القبائل وفشل سليمان فى منع هذه الحروب أو كبح جماح القبائل فقد قامت فى عهده عدة حروب ولعل أشهرها تلك التى تزعمها عمير بن حمير مؤيدا من قبل عدد من القبائل التى كانت تعانى من حكم النبهانيين وقد حاول سليمان مواجهة خصومه إلا أنه لقى مصرعه .

ثالثًا: بموت سليمان صارت السلطة الفعلية فى يد ابن حمير الذى خضعت له أغلب المناطق ودانت لسلطته ، كان من المتصور أن يؤدى سقوط سليمان بن مظفر وتولية عمير بن حمير إلى مرحلة من الاستقرار إلا أن ما حدث كان على عكس هذه التوقعات بل أدى فى النهاية إلى نهاية اندثار العصر النبهانى وبداية عصر جديد . وذلك أن الصراعات المحلية التى تميزت بها سنوات سيطرة عمير بن حمير اكتسبت ابعادا جديدة لم تكن لها خلال المرحلة السابقة أول هذه الأبعاد ما بدأ من فشل عمير فى السيطرة على القبائل الثائرة مما دعا إلى استعانته بقوى خارجية وصلت إلى حد تحالفه مع البرتغاليين ضد ابناء وطنه ، وبدلا من أن يؤدى دخول اطراف أخرى فى هذه الصراعات إلى حسمها لاحد الجوانب المتصارعة إذا به يؤدى إلى زيادة حدتها وتشعب أطرافها ، استتبع ذلك بعد آخر تمثل فى اتساع حجم هذه الصراعات بحيث لم تأت السنوات الأخيرة من عهد الدولة النبهانية إلا وكانت اغلب القبائل العمانية مشتبكة على نحو أو آخر فى الصراعات المحلية فلم يمضى سوى وقت قليل لعمير بن حمير على اسقاطه لسليمان بن مظفر حتى عادت القبائل ترفع لواء العصيان وبدأت احداث الشغب بتمرد والى «صحار» محمد بن مهنا «الهديفى» يؤيده سلطان بن حمير حيث هاجما منطقة ««السيب» أثناء غياب ابن حمير فى «بهلس» وقتلوا عددا من أبنائه وأبناء عمومته ونهبوا المدينة .

أثارت تلك الأعمال غضب ابن حمير الذى أخذ يستعد لمواجهة العصاة قطلب مساعدة ملك هرمز الذى ارسل إليه عددا من السفن المحملة بالرجال والسلاح وفى سبيل الحصول على هذه المساعدة عرض ابن حمير وضع ميناء صحار تحت سلطة البرتغاليين ؛ حيث أن هذا الميناء كان واقعا تحت سيطرة خصومه ولاشك أن هذا العرض يدل على قصر نظر وعدم شعور بالمسؤلية كما أنه كان بمثابة اغراء قوى للبرتغاليين . ذلك أنه يترتب على استيلائهم على صحار تدعيم مركزهم التجارى فى مسقط حيث تختفى كل منافسة تجارية لهذا الميناء الذى كان يمثلها اساسا صحار وبذلك تكون لهم السيطرة على أهم المراكز التجارية فى عمان وقد داعبت حاكم هرمز أيضا نفس الآمال كما حدثته نفسه بمطامع فسارع بدوره إلى تجهيز القوات اللازمة لمساعدة ابن حمير وقد جهز البرتغاليون خمس سفن حربية بقيادة «دوم فاسكو داجاما » وخمس سفن أخرى بقيادة «دوم فرانسكور وليم» لتأييد ابن حمير وكان لحسن حظ ابن حمير أن جرفت الرياح سفينة حربية هندية إلى مسقط محملة بالكثير من العتاد ،

فاستولى عليها مما كان له أثر فى زيادة قوته الحربية ضد خصومه واتخذا ابن حمير من مسقط مركزا لتجميع قواته فى اتجاه ساحل صحار وقاد ابن حمير هذه القوة الهائلة متجها إلى «السيب» . ودارت الحرب التى انتصرت فيها قواته على قوات ابن مهنا ومؤيديه ثم سار بعد ذلك بقواته بحذاء ساحل الباطنة حتى دخل «صحار» فحدثت اشتباكات بينه وبين بعض الأهالى المناصرين لابن مهنا إلا أنه لم يحل بينه وبين التقدم وفى ذات الوقت كان الأسطول البرتغالى قد وصل إلى الشواطئ فى «صحار» وبدأ فى انزال جنوده الذين أخذوا فى قصف حصن وقلعة المدينة ، وكانت القوات البرتغالية تستعمل فى قصفها قذائف نارية عبارة عن لفافات من القطن الذى يحتوى على مواد سريعة الاشتعال ، كما كانت لديها قذائف من البارود يصوبها على المدينة والقلعة ولم تكتف القوات البرتغالية بذلك بل أخذت فى انزال مدافع تحملها عربات خشبية فاستطاعت بذلك تدمير الحصن وضرب بطاريات المدفعية الموجودة (٦١).

لم تستطع قوات ابن مهنا أن تصد هذا الهجوم المزدوج الذى كان قويا ، فالقوة البرتغالية تهاجم من البر والأسطول البرتغالى من البحر كما أن القوة البرية التى كان يقودها ابن حمير كانت من الكثرة بحيث هاجمت من كل صوب ، وكانت نتيجة تلك المعركة مقتل ابن مهنا وقتل أيضا سلطان بن حمير الذى تولى القيادة بعد موت ابن مهنا وبعد أن دافع دفاعا مستميتا وبمقتل ابن مهنا وسلطان بن حمير سلمت قوات صحار القلعة والمدينة فاستولى البرتغاليون على صحار كما كان الاتفاق سابقا بينهم وبين ابن حمير وتحقق بذلك هدف طالما سعت إليه من قبل بالتخلص من منافسة هذا الميناء لمينائهم فى مسقط ، أما عمير بن حمير فانه عاد إلى سمائل سعيد بعد أن قضى على خصمه ومعه الكثير من الأغنام والأسلاب وكان ذلك عام ١٦١٦ لم تنه هذه الأحداث الحرب ولم تضع حدا للفوضى فى عمان بل تجدد الصراع بين مالك بن ابى العرب وبين بنى ملك حيث سارع ابن حمير لمساعدة مالك بن ابى العرب وقد استطاعت القوة المتحالفة القضاء على قوات بنى ملك فاستقر مالك بن ابى العرب منذ ذلك الوقت فى «الرستاق» ، وكان من المنتظر والامر على هذا الحال أن يشهد عمان وشرق الجزيرة العربية أحداثًا جديرة بالتسجيل وذلك بظهور نظام الامامة اليعربة التى تمكنت من انهاء هذا الوضع المضطرب لتقيم دولة جديدة على انقاضه عام ١٦٢٤ وهى دولة اليعاربة التى تمثل نقطة تحول هامة فى تاريخ عمان وفى تاريخ الامامة الاباضية يدعو ذلك

إلى محاولة التعرف على الامامة ثم على ناصر بن رشد والظروف التى تولى فيها وما مدى النجاح الذى أصابه الرجل فى الاستفادة بالمنصب فى البدء فى توحيد عمان كلها تحت سلطته وهى الجهود التى تابعها خلفاؤه حتى امكن فى النهاية اقامة اقوى الدول البحرية التى عرفها تاريخ العرب الحديث فى الجزيرة العربية وشرق افريقيا تلك هى دولة اليعاربة [٦٢].

٢- تاريخ الامامة فى عمان

ترك المذهب الاباضى بصمات عميقة فى التاريخ السياسى والاجتماعى لعمان ، يحدث دائما بعض الحدة حين تنشق مجموعة صغيرة من مجموعة أكبر وخصوصا عندما يكون الانشقاق فيما يختص بالعقيدة - أى انشقاق ايديولوجى وأن أول ما تعمل به هذه المجموعة المنشقة هو البحث عن وجود مسوغات لها لتمييزها عن المجموعة الام وتحفر طريقا جديدا لوجودها ، وغالبا ما تكون عنيفة فى معالجة الانشقاق فمن خلال التجربة الانسانية نجد كيف تم الانشقاق بين صفوف المسيحية ، وتحولهم إلى فرقتين وثلاث كاثوليكية وأرثوزكسية وبروتستانية ، كذلك نجد شيئا مماثلا فى الاسلام بين السنة والشيعة وحتى الحوادث السياسية الحالية ليست بعيدة عن هذه الامثلة «الانشقاق بين الأحزاب السياسية» ، فعندما تتاح الفرصة لأحد الأشخاص داخل تجمع عقائدى أن ينشق فلابد له من البحث مسوغات وجوده وعن اعوان جدد وهو عادة ترجع الاباضية بأصولها الأولى إلى العراق فى الزمن الذى كان يعيش فيه عبد الله بن اباضى الذى عاش فى عهد معاوية بن ابى سفيان الحاكم الاموى الأول وتوفى فى عهد عبد الملك بن مروان الحاكم الاموى الخامس عام ٧٠٥ م [٦٣].

يعد عمان اهم المعاقل الاباضية إذ يعتنق المذهب الاباضى معظم سكان هذا الاقليم وخاصة فى عمان الداخل أن المبادئ الدينية الاباضية لاتختلف اختلافا كثيرا عن المذاهب الأخرى ، ومع أن الاباضيين يعدون انفسهم المسلمين الحقيقيين ، فان نظرتهم للمذاهب الأخرى لم تكن متعصبة وغير متزمتة مثل بعض الفرق الأخرى المتزمتة فهم يرون امكان التزاوج والتوارث بين الطرفين كما أنه بالامكان التعايش مع المذاهب الأخرى دون السعى لإخضاعها ؛ والحق أن الاباضيين لم يناصبوا مذاهب السنة العداء كما فعلوا ازاء الشيعة وهم لايختلفون عن السنة فى بقية العبادات إلا فى بعض التفاصيل الثانوية وهناك اختلاف بين الاباضية والمذاهب الأخرى فى كيفية ادارة الحكم أى الامامة وهو مفهوم دينى اسلامى مشتقة من كلمة «امام» أي الذى يؤم المسلمين فى الصلاة ؛ حيث أن الدين الإسلامى لم يفرق بين الدولة

والدين فالرسول ﷺ كان امام المسلمين وحاكم دولتهم فى الوقت نفسه ثم جاء الخلفاء الراشدون ابوبكر وعمر وعثمان وعلى وبعد مقتل الأخير انقسم المسلمون إلى قسمين سنة وشيعة السنة يؤيدون معاوية والشيعة تؤيد على بن ابى طالب ثم إلى ثلاثة اقسام بالخوارج . والصفات العامة للإمامة عند علماء عمان ومفكريها تفيد التوارث وتميل إلى الشورى ويتساوى فيها الغنى والفقير والقوى والضعيف واشتراط الوفاء ولايبايعون إلا على الجهاد فى سبيل الله والنهى عن المنكر والأمر بالمعروف والتبرؤ من أئمة الظلم فالامامة بمفهوم سكان عمان نظام غايته حماية المجتمع وتوفير بيئة صالحة يتربى فيها الافراد وفق ما امرهم به الله ، ومن واجب الامام وفق هذا المفهوم هو الدفاع عن حقوق المسلمين وحمايتهم من الأفكار الدخلية : إن مهمة الامام بصورة اوضح تتلخص فى تنظيم وقيادة الجيوش وتعيين الولاة وقادة الجيش وتنظيم الضرائب وتطبيق نصوص الشريعة الإسلامية ، ومد يد العون إلى الفقراء والمحتاجين وائتمام الصلاة وخطبة الجمعة والعيدين ويمكن القول إن الامامة أصبحت تخص سكان عمان وذلك لطول المدة التى قام فيها نظام الامامة فقد بدأت فى مطلع القرن الثامن الميلادى حتى الستينات من القرن العشرين وأنها مرادفة للشخصية العمانية بل وجد العمانيون فى الامامة ابراز لشخصيتهم واستقلالهم عن الدولة الأموية والعباسية والعثمانية(٦٤).

يعتبر الجلندى بن مسعود الحضرمى أول امام لعمان ، وقد كان فى جيش الامام طالب الحق فى حضرموت ولما قتل الامام هناك جاء إلى عمان عام ٧٥١ م فبايعه سكان عمان حيث كانت الدولة الإسلامية تنتقل من الحكم الأموى إلى العباسى ساعد هذا الجو العام لإنشاء الامامة الأولى فى عمان فوجد سكان هذا القطر فى نظام الامامة مخرجا من سيطرة الدولة الأموية ، وما كادت الأمور تستتب للنظام العباسى حتى توجه إلى عمان ليكون الضحية الأولى لهذه المواجهة الامام الجلندى بن سعود الحضرمى وقد استشهد فى معركة اسطورية مختصرها أن شيبان وهو احد اعضاء الخوارج البارزين هرب من مطاردة الحاكم العباسى «السفاح» إلى عمان وقد تبعه عامل السفاح .

يكون الامام هو رأس الدولة ولكنه يخضع لمجلس العلماء فهم الذين يجتمعون ويختارون اماما يعيشون ويعزلون متى ما رأوا منه خروجا على المهمة المولكة إليه ؛ بل أن نفوذ رجال الدين وسلطتهم أكثر من ذلك ، فيصل الأمر فى بعض الأحيان إلى تولية الولاة الذين يكون

من اختصاص الامام وحده ، الامامة يخلفها رجال الدين ويعينون الامام حسب الظروف السياسية التى تمر بها البلد وفى امامة الجلندى بن مسعود الحضرمى كان رجال الدين يشكلون حزبا سياسيا له تنظيماته وقواعده وكذلك «الميليشيا الحزبية» التى عرفت بالتاريخ العمانى باسم «الشراة» وهم عبارة عن تلاميذ خاضعين لرجال العلم اشتروا الحياة بالآخرة ، وهم عماد المذهب ونشره والدفاع عنه وفى الوقت نفسه يعدون ركيزة الامامة وموظفيها ويتقاضون مبلغا زهيدا لايتعدى سبعة دراهم منضبطين ضمن مفهوم حزبى معين فكل مجموعة تتكون من مائتين إلى أربعمائة يقودهم أحد رجال العلم أو بمعنى آخر يكون مسئولهم الحزبى أحد رجال العلم ، وهذه المجموعة تنقسم إلى مجموعات اصغر تصل إلى عشرة اشخاص يكون على رأسهم مؤدب أي معلم يعلمهم الفقه وأصول الدين يعيشون ضمن حياة تقشفية والامامية كمفهوم دينى يحكمها المذهب الاباضى فى عمان تخضع مثلها مثل أية فكرة ايديولوجية لنظرية التطور الفكرى ولمراحل هرمية تبدأ من الصفر وتنتهى إلى الصفر تنشأ وتشيب تبدأ قوية تدافع عن الفكرة الأساسية ثم تترحل متى ابتعدت عن الاصول ولهذا مرت الامامة فى عمان فى ثلاث مراحل ، الأولى التى بدأت بالامام الجلندى بن مسعود الحضرمى وانتهت بمقتل الامام عزان ودامت مائة وثلاثا وستين عاما . وبعد ذلك عاشت عمان فى فترة مضطربة وعرفت هذه الفترة باسم الأئمة المنصوبيين ثم المرحلة الثانية التى بدأت مع الامام سعيد بن محبوب فى القرن العاشر الميلادى وانتهت فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى وهنا اعتلى «بنى نبهان» مدة الحكم فى عمان المرحلة الثالثة تبدأ بالامام الحوارى بن مالك فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، وتنتهى بعصر اليعاربة وكانت عمان قبل اليعاربة ممزقة كل أمير على ناحية والبرتغاليون مستعمرون ساحل عمان الفوضى وانتشر الفساد وكثر ظلم الأمراء ، تنادى علماء المسلمين واقطابهم بضرورة انتخاب امام قوى يعيد للامامة هيبتها وللأمة عزها وأمنها ووقع الاختيار على ناصر بن مرشد ووجه همه إلى ناحيتين (٦٥):

١- بناء الجبهة الداخلية حيث استطاع أن يعيد الوحدة الوطنية وأن يقضى على امراء الاقطاع المتسلطين وفتح الحصون التى بأيديهم .

٢- الرد على العدوان الخارجى وتحرير عمان من الاستعمار البرتغالى .

اتخذت الامامة فى عصر اليعاربة صفة أخرى امتزج الدين بالوطنية واتخذ شكلا سياسيا جديدا لم تعرفه الامامة من قبل ، فقد كان من بين الاسباب التى حثت شعب عمان لالتفات حول الامامة هذه المرة محاربة «الكفرين المسيحيين» أو المستعمرين المتمثلين بالبرتغال فى المدن الساحلية العمانية هنا نجد حنكة سياسية يظهرها الامام ناصر بن مرشد مع المجموعة التى اختارته كامام فهو لم يبدأ بمحاربة البرتغاليين فى بداية الأمر ؛ بل اتجه إلى بناء الجبهة الداخلية أو بالأحرى توحيد البلاد كجبهة داخلية وبعد ذلك اتجه لمحاربة الجبهة الخارجية وقد استطاعت عمان تحت قيادة هذه الأسرة أن تعيد مركزها البحرى لقد لعب الدين هنا دوراً بارزاً لقد امتزج الدين بالمفهوم الوطنى ليطرح شعارين بناء الجبهة الوطنية ثم تحرير الأرض من المستعمر وقد استطاع الامام ناصر بن مرشد بالفعل أن يكون الجبهة الوطنية ويبدأ بتحرير الأرض من المستعمر . وإذا كانت الامامة القديمة قد استطاعت أن تحافظ على وجودها عن طريق التعصب فى تطبيق المذهب الاباضى التى كانت تسير عليه فانها من ناحية أخرى كانت تقف ضد كل محاولة للتغيير داخل المجتمع الإسلامى الذى تحكمه غير أن هذه الفلسفة لم تكن تصلح اساسا عمليا لدولة تهدف إلى اقامة مصالح تجارية واسعة ومجتمعا من تجار ينتمون إلى تراث بحرى عريق ولهذا تغير بالفعل طابع الامامة بعد سيطرة اليعاربة على الأجزاء الساحلية من عمان وذلك راجع إلى الاضطرار للتعامل مع مجموعة من البشر لاتشارك الامامة فى نظرتها الاباضية بل لاتشاركها في نظرتها الإسلامية ككل هذا مما جعل المرونة تحكم التعامل ما بين الامامة اليعربية ، والمجموعات التجارية فى المنطقة من بحر العرب والمحيط الهندى . من هنا نفهم إنشاء اليعاربة لأسرة حاكمة تسمح للحكام باختيار خلفائهم قبل وفاتهم ولاشك بأن مثل هذا التقليد الوراثى كان يتعارض مع المبادئ الأساسية للاباضية ، لقد بنيت الامامة على الجهاد سواء الجهاد الداخلى وتوحيد البلاد أو الجهاد الخارجى وهو المستعمر من هنا كانت الظروف السياسية التى أدت إلى قيام الامامة تستطيع أن نعطيها صفة الوطنية ، أن البرتغاليين دخلوا عمان بمساعدة أهلها حيث اتصل بهم أحد الأمراء ويدعى ابن حمير وهو آخر سلالة «النبهانية» ومن غرائب الصدف أن اليعاربة انهوا ايضا عندما اتصل أحد أئمتهم بالفرس وهو الامام سيف بن سلطان الثانى هذه العملية مهدت إلى انتهاء اسرة اليعاربة وقيام اسرة أخرى هى أسرة البوسعيد التى تحكم عمان حتى يومنا هذا[٦٦].

٣- الامام ناصر وتوحيد الجبهة الداخلية

ينتمى ناصر بن مرشد إلى قبيلة يعرب التى هاجرت أصلا من اليمن ، وهى أيضا بطن من بطون بنى «بنهان» فهو يمت بصلة إلى الأسرة السابقة وكانوا مثل غيرهم من القبائل يتمتعون باستقلال فى إدارة شئونهم الذاتية وأن وجودهم «بالرستاق» المدينة الروحية يدل على أن اليعاربة كانت من بين القبائل البارزة فى عمان لأنها كثيرا ما كانت مقرا للأئمة والحكومات التى يرتفع مستواها ، على المستوى القبلى ويرجع اختياره إلى صفات شخصية عديدة اشتهر بها ؛ مثل الاستقامة والنزاهة والتدين ولاشك أن صلته بالقاضى خميس بن سعيد الشقصى قد كسبت له نفوذا ومهدت له السبيل إلى السلطة ذلك أنه كان متمتعا بالعلم واحترام الشعب والأعيان كما أن اعيان وعلماء عمان الذين قرروا تعيينه كانوا يشعرون بحاجة البلاد إلى مثل هذه الشخصية لتنقذها من الفوضى والضياع . ويعتبر الامام ناصر من أعدل الائمة الذين ظهروا فى عمان وقبله كان أهل الرستاق منقسمين على أنفسهم ؛ كما كانت هناك خلافات كثيرة بينهم على الرغم من وجود حاكم عليهم هو مالك بن ابى اليعربى فلقد عجز هذا الحاكم من أن يفض المنازعات والمشاحنات السائدة فى عمان ككل وفى منطقة «الرستاق» بوجه خاص لذلك تشاور علماء عمان أهل الحل والعقد فى امر الامامة ؛ كما تشاوروا وتناقشوا فى امورهم التى تزداد سوءا . وأخيرا اتفق المجتمعون فى منطقة «الرستاق» على أن الحاجة ماسة إلى امام عادل يستطيع أن يفرض ما هو حق كما يستطيع أن يزيل ما هو باطل وبدأ المجتمعون يبحثون عن اصلح شخص تتوافر فيه هذه الشروط ليعتلى منصب الامامة وكان من بين المجتمعين شخصية هامة وبارزة هى شخصية رجل العلم والتقوى الشيخ خميس بن سعيد الشقصى «الرستاق» وقيل أن الاجتماع ضم اربعين عالما أو يزيد لعلهم لم يحضروا البيعة كلهم بل حضر بعضهم ورضى الباقون[٦٧] وكانت بينهم المراسلات والتشاور فوقع اختيارهم على ناصر بن مرشد اليعربى عام ١٦٢٤ .

ظلت عمان فى حروب أهلية طاحنة لم تنته إلا بتولية ناصر بن مرشد وقد أثبت هذا الامام أنه كان من أقوى الشخصيات العربية التى حكمت هذه المنطقة واهتم اهتماما كبيرا بالأمور العسكرية لتحرير بلاده واستطاع أن يستوعب كل ابعاد القضية العمانية ، وأن يدرك المتغيرات الجارية من حوله سواء على المستوى العمانى أو على المستوى الاقليمى بشكل عام ولذا فقد أدرك ثقل المهمة وقدر كل ابعادها واعتقد أن مواجهة البرتغال لايمكن تحقيقه إلا إذا

استند إلى جبهة وطنية متراصة ومتماسكة ، وهو أمر لايمكن تحقيقه إلا إذا خاض حروبا ضارية فى سبيل توحيد كل القبائل العمانية وبما أن منطقة «الرستاق» هى التى شهدت بعث امامة ناصر بن مرشد فقد كان عليه أن يبدأ بها ؛ ولهذا مضى ومعه جمع من أنصاره نحو قلعة «الرستاق» وكانت تحت حكم ابن عمه مالك بن أبى العرب اليعربى وبعد حصار لم يدم طويلا فتحها الامام الذى أدرك بأن الاستعمار البرتغالى القابع على السواحل العمانية يضاعف من امكاناته يوما بعد يوم ، وان أية محاولة لطرده مشكوك فى نتائجها إذا لم يصل بالبلاد إلى حد معقول من الوحدة التى اصبحت هدفا سياسيا فلم يكن من المعقول أن يبادر باعلان الحرب على البرتغاليين ، والبلاد مقسمة ومن الصعب اغفال زعامات قبلية ودينية آمنت بقضية الوحدة . لقد وضعت القيادة العسكرية المصالح العليا للبلاد فوق كل اعتبار لدرجة أن قرية «نخل» كان مالكها سلطان بن ابى العرب عم الامام ناصر بن مرشد وعلى الرغم من ذلك فقد كانت فى مقدمة المناطق التى حاصرتها قوات الامام إلى أن تم فتحها بعد عدة أيام وعين عبد الله بن سعيد الشقصى واليا عليها لقد تميزت الحروب فى بدايتها بقدر من الحسم والاقدام الشديدين ، مما ضاعف من ايمان الناس بقضية الوحدة حيث التفوا حول الامام مؤمنين بدعوته ، وأصبحت المنافسة والسبق فى معاضدة الامام مظهرين جديرين بالتسجيل والملاحظة وكلما تحقق قدر من الوحدة تضاعف ايمان السكان بقضيتهم وتطلعوا إلى غد حتما سيتحقق فيه النصر على عدوهم ، ونظرا لعدالة القضية التى تبناها الامام ناصر بن مرشد وانتصاراته التى لفتت الانظار ، فقد بادر سكان «نزوى» بدعوته إلى ملكها ولأهمية «نزوى» فى مخططات الامام فقد عجل بالسير إليها بنفسه إلا أنه على ما يبدو لم تكن الدعوة تمثل رغبة بعض أهلها الذين تصدوا لمقدم الامام وبادروه بالحرب مما دفعه إلى العودة إلى الرستاق حيث جاءه وفد من «سمائل» برئاسة ملكها مانع بن سنان العميرى معلنا ولاءه ومبايعته وبما أن نزوى كانت موضع تفكير اساسى فى ذهن الامام فقد توجه من «سمائل» إليها حيث كان لعامل المباغتة أكبر الأثر فى اجماع أهلها على المبايعة ، وحرص الامام على عدم اراقة دماء المسلمين ؛ ولذا فقد كان يستخدم كل الامكانات المتاحة من الاقناع والحجة وما كان يلجأ إلى الحرب إلا إذا حتمتها الظروف ، وفرضتها المصلحة العامة لكافة المسلمين. وما كان من الممكن أن تتحقق كل تلك الانتصارات الكبيرة إلا بمعاضدة كثير من القبائل التى ناصرت الامام ، وهو يتأهب لفتح «نزوى» التى كان بعض سكانها يضمرون له الشر ؛ وعلى الرغم من الوقوف على نواياهم فان الامام نهى عن قتلهم مقابل اخراجهم من وطنهم فى «العقر» إلا أنهم لجئوا إلى مانع بن سنان العميرى الذى سبق واعطى عهدا للامام حيث ثبت أنه لم يكن صادقا فى عهده بل كان يتحين الفرصة للنيل من الدعوة وقائدها[٦٨].

نظرا لثقل المهمة التى كان يقوم بها الامام ناصر بن مرشد واستعدادا لحروبه قد تطول أكثر مما يتوقع فقد كان يقيم فى كل المناطق التى يدخلها حصنا أو قلعة ، بعد أن يترك أحدا من أتباعه لكى يواصل مهمته فى ترسيخ مبادئه ، ومواصلة دعوته التى أخذت تنساب فى كل أرجاء عمان لقد حققت هذه السياسة تعاظم نفوذ الامام بالاضافة إلى عدالته التى كانت مضرب المثل ؛ مما دفع المترددين إلى القدوم طالبين بسط سلطته العادلة ومما يؤكد صعوبة المهمة التى مضى الامام فى سبيل تحقيقها كثرة الممالك التى أقيمت على مقومات قبلية بحيث يصعب التميز بين القبيلة والحكومة . لقد كان الحكم لشيخ القبيلة الذى يطلق عليه تجاوزا ملكا أو أميرا ؛ أما فكرة الدولة القومية الواحدة والإدارة المركزية فهى من المفاهيم التى لم تتعود عليها القبائل فى تلك الفترة ؛ كان الامام ناصر يعول أهمية كبيرة على «نزوى» ولذا فبمجرد أن فتحها فضل أن يتريث لبعض الوقت ويبدو أنه كان يتوقع توافد القبائل عليه تجنبا لإراقة الدماء وقد تحقق ما توقعه الامام حيث استجاب لدعوته أهل «منح» و«سمد الشأن» و«ابرا» وكل المنطقة الشرقية ماعدا «صور» و «قريات» حيث كانتا تحت السيطرة البرتغالية ومن الظواهر اللافتة فى سياسة الامام أنه كلما حقق قدرا لابأس به من الوحدة راح يتريث ترقبا لرد فعلها . وقد يحول دون الحرب وقد تكون فرصة لإعادة ترتيب جنده ومحاولته العودة لتفقد المناطق التى دخلت فى حوزته وهى سياسة حكيمة تتعدد فوائدها على كل المستويات لقد أدرك الامام أن منطقة «الظاهرة» تشهد تمردا على اجماع الامة ووصل بعضها إلى حد التفكير فى اغتياله . لذا فقد استنفر همم القبائل التى لبت دعوته ، واختار الشيخ خميس بن رويشد لكى يكون قائدا للجند وحدثت مواجهة ضارية قتل خلالها جاعد بن مرشد شقيق الامام وأن تمرد منطقة «الظاهرة» كان من أصعب المواقف التى واجهها الامام حيث قتلت اعداد كبيرة من قواته بسبب المباغتة ، وتراجع بعض القبائل عن تأييدها مما دفع الامام أن يتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية وربما كان ذلك سبب اساسيا فى السيطرة على زمام الموقف وارتفعت معنويات الجند الذين قاتلوا بشجاعة منقطعة النظير فى مناطق «عبرى» و «حصن الغبى» وكافة مناطق الظاهرة لقد تأكد للإمام أن تمرد أهل الظاهرة مرده إلى مؤامرات ناصر بن قطن الذى حوصر فى قلعته إلى أن استنجد بالامام طالبا عفوه وليس صحيحا أن القبائل العمانية قد قبلت سلطة الامام بسهولة بل تباينت المواقف بين التأييد والتردد والرفض (٦٩).

أدرك الجبور أن تنامى دولة الامام يتعارض بشكل أو بآخر مع نفوذهم الذى كان يمارس على كثير من القبائل التى نجحوا فى اثارتها ؛ بل والتحالف مع بعضها للقضاء على الامام ودولته لقد نما إلى علم الامام أن الجبور يخططون لقتله شخصيا ولعلها كانت مؤامرة اشتركت فيها بعض القبائل التى كانت أعلنت الحرب على الامام ودارت معركة كانت من أشد المعارك ضراوة انهزم فيها الجبور واتباعهم بعد أن قتلت اعداد كبيرة منهم ، وكان الإمام ناصر بن مرشد يغتنم أية فرصة لتوحيد البلاد وتقوية الجبهة الداخلية ولم يقبل مبدأ أنصاف الحلول وصولا إلى عودة الوحدة الوطنية وترسيخ دعائم الدولة لقد بدأ الامام يأخذ بسياسة النفس الطويل . ولذا فقد أخذ يبعث بالسرايا لمناقشة خصمه فى مكان ما فى حين كان يبيت النية لخوض حرب كبيرة فى منطقة أخرى وخصوصا حينما أوشك أن يستكمل سيطرته على معظم أنحاء عمان وبعث بعدة سرايا يقودها محمد بن غسان النزوى الذى صدرت إليه الأوامر لكى يتوجه إلى «الجو» ناحية «البريمى» لكى يفتحها تمهيدا لدخول قرية «لوى» التى كان يقطنها الجبور الذى بدءوا يغيرون على جيش الامام كلما سنحت لهم الفرصة لقد كانت السيطرة على منطقة «الجو» عملية سهلة أما «لوى» فقد استعصى فتحها على قوات الامام بسبب تحصيناتها وكثرة المدافعين عنها ؛ مما اضطر محمد بن غسان النزوى إلى طلب العون من القبائل القريبة من «صحار» والتى كانت تتطلع إلى قوات الامام وتترقب انتصاراتها بهدف التعجيل للقاء الحاسم بين العمانيين والبرتغاليين فى «صحار» وبعد حصار دام اسبوع تمت السيطرة على «لوى» وبدأ التفكير عمليا فى «صحار» وهكذا استطاع الامام ناصر بن مرشد خلال سنوات حكمه أن يحقق لعمان تماسكها ويؤمنها إلى حد كبير من الاخطار الخارجية التى كانت تتعرض لها ، وكانت محاولاته نحو الوحدة باعثة على تحقيق الامل الكبير الذى افتقرت إليه عمان منذ زمن طويل وينفرد الامام ناصر بن مرشد بين أئمة اليعاربة بتصدية لهذا الحكم الهائل من المشكلات وحارب فى جبهتين الساحل الداخل وأن فترة الامام ناصر بن مرشد تعد من أغنى وأخصب الفترات فى تاريخ اليعاربة وأن دوره فى سبيل الوحدة الوطنية يعد اساسا لكل الانتصارات اللاحقة ضد البرتغاليين وقد واجهت عمان فى هذه الفترة حروب طاحنة ولكنها أنهت مرحلة التمزق والتشتت وبدأت مرحلة جديدة من الوحدة فى ظل حكومة مركزية وانتهى العهد الذى كانت فيه عمان مقسمة إلى دويلات صغيرة وامارات ضعيفة بدلا من أن تقوى بلادهم وتتحد ؛ وهذا ما أدى إلى الدخول فى صراع من أجل تحرير التراب العمانى من الاستعمار البرتغالى .

الهوامش

١- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٨ .

٢- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٥٠ .

٣- د. بدر الدين عباس الخصوصي - دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ص٢٢ .

٤- د. عبد العزيز عوض - تاريخ الخليج العربى الحديث ص٢٧ .

٥- د. عبد العزيز عوض - نفس المرجع ص ٢٨ .

٦- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٥٠ .

٧- د. عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٢٩ .

٨- د. عبد العزيز عوض - نفس المرجع ص٣٠ .

٩- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٥٣ .

١٠- د. طارق نافع الحمدانى - عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ص١٧١ .

١١- د. طارق نافع الحمدانى - نفس المرجع ص١٧٣ .

١٢- د. طارق نافع الحمدانى - نفس المرجع ص١٧٤ .

١٣- محمد بن أحمد بن عمر الشاطرى - ادوار التاريخ الحضرمى ص٢٣٥ .

١٤- سقاف على الكاف - المرجع السابق ص٥٣ .

١٥- سعيد عوض باوزير - صفحات من التاريخ الحضرمى ص١٣٩ .

١٦- محمد بن أحمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٣٩ .

١٧- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٦٨ .

١٨- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص ٧٧ .

١٩- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٨١ .

٢٠- د. طارق نافع الحمدانى - المرجع السابق ص١٨٨ .

٢١- د. عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٤١ .

٢٢- د. صلاح العقاد - التيارات السياسية فى الخليج العربى ص٢٠ .

٢٣- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٨٤ .

٢٤- د. عبد العزيز عوض - المرجع السابق ص٤٢ .

٢٥- د. عبد العزيز عوض - نفس المرجع ص١٢ .

٢٦- د. عبد العزيز عوض - نفس المرجع ص١٣ .

٢٧- د. طارق نافع الحمدانى - المرجع السابق ص١٩٠ .

٢٨- د. طارق نافع الحمدانى - نفس المرجع ص١٩١ .

٢٩- د. عبد العزيز عوض - المرجع السابق جـ٢ ص١٨ .

٣٠- د. عبد العزيز عوض - نفس المرجع جـ٢ ص٢٤ .

٣١- د. طارق نافع الحمدانى - المرجع السابق ص١٩٥ .

٣٢- د. عبد العزيز عوض - المرجع السابق جـ٢ ص٢٦ .

٣٣- جورج انطونيوس - يقظة العرب ص٧٨ .

٣٤- د. سيد رجب حراز - المرجع السابق ص١٠٠ .

٣٥- جورج انطونيوس - المرجع السابق ص٧٨ .

٣٦- د. سيد رجب حراز - المرجع السابق ص١٠١ .

٣٧- د. سيد رجب حراز - نفس المرجع ص١٠٣ .

٣٨- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٣١ .

٣٩- د. سيد رجب - المرجع السابق ص١٠٥ .

٤٠- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٣٣ .

٤١- د. فاروق عثمان اباظة - الحكم العثمانى فى اليمن ص١٨ .

٤٢- د. محمد عيسى صالحية - التدخل العثمانى فى اليمن ص٩٦ .

٤٣- د. سيد رجب - المرجع السابق ص٧٥ .

٤٤- د. فاروق عثمان أباظة - المرجع السابق ص٢٢ .

٤٥- د. فاروق عثمان أباظة - المرجع السابق ص٢٢ .

٤٦- د. محمد عيسى صالحية - المرجع السابق ص١١٢ .

٤٧- د. سيد رجب حراز - المرجع السابق ص٧٦ .

٤٨- د. محمد عيسى صالحية - المرجع السابق ص١١٩ .

٤٩- د. سيد رجب حراز - المرجع السابق ص٧٦ .

٥٠- د. فاروق عثمان أباظة - المرجع السابق ص٢٥ .

٥١- د. فاروق عثمان أباظة - نفس المرجع ص٢٦ .

٥٢- د. فاروق عثمان أباظة - نفس المرجع ص٢٦ .

٥٣- سعيد عوض باوزير - المرجع السابق ص١٢٨ .

٥٤- سعيد عوض باوزير - نفس المرجع ص١٢٨ .

٥٥- سقاف على الكاف - المرجع السابق ص٥٧ .

٥٦- محمد بن أحمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٢٤٥ .

٥٧- محمد بن أحمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٢٥٩ .

٥٨- محمد بن أحمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٢٦٩ .

٥٩- محمد بن أحمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٢٨٧ .

٦٠- عائشة السيار - دولة اليعاربة ص٤١ .

٦١- عائشة السيار - نفس المرجع ص٤١ .

٦٢- عائشة السيار - نفس المرجع ص٤٤ .

٦٣- د. خالد السومى - عمان بين الاستقلال والاحتلال ص٦٠ .

٦٤- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص٦٩ .

٦٥- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص٧٦ .

٦٦- د . خالد الوسمى - نفس المرجع ص٧٩ .

٦٧- عائشة السيار - المرجع السابق ص٤٧ .

٦٨- محمد صابر ابراهيم عرب - دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية ص١٩٣ .

٦٩- د. محمد صابر ابراهيم عرب - نفس المرجع ص١٩٤

٧٠- د. محمد صابر ابراهيم عرب - نفس المرجع ص١٩٦ .

الفصل الثانى

الجزيرة العربية

من نهاية العصر العثمانى الأول حتى مجئ الحكم المصرى

١٦٣٥ - ١٨١١

أولاً: عمان من حكم الإمامة اليعربية إلى السلطنة البوسعيدية ١٦٣٥ - ١٨١١

ثانيًا: حضرموت وعدم الاستقرار السياسى ١٦٣٥- ١٨١١

ثالثًا: اليمن تحت حكم الأئمة الزيدية ١٦٣٥ - ١٨١١

رابعًا: إمارة الدرعية ١٧٧٣ - ١٨١١

أولاً : عمان من حكم الامامة اليعربية إلى السطلنة البوسعيدية ١٦٣٥ - ١٨١١

١- تعزيز المواقع البرتغالية فى عمان

ظل الوضع متوترا فى مدخل الخليج العربى بعد الغزو الإيرانى - البريطانى المشترك على هرمز عام ١٦٢٢ وكان من المتوقع أن يبعث البرتغاليون بقوة هائلة لاستعادة سيطرتهم ، وكان بامكانهم فى تلك الأثناء أن يبدوا باستعادة جزء من خسائرهم ، ويبدو أن هرمز ، كانت قد بدأت تقل فى أهميتها التجارية بعد ظهور مدن أخرى فى المنطقة ؛ ولهذا لم يهتم البرتغاليون باستعادته ، وإنما ركزوا فى تعزيز سيطرتهم على المدن العمانية فى الوقت الذى بعث فيه الإيرانيون بالجنود إلى منطقة «مسندم» و «صحار» وقد اتصل هؤلاء الجنود بشيوخ القبائل العربية الذين كانوا معادين للبرتغاليين ؛ ولكنهم رفضوا التعاون مع الايرانيين خوفا من احتلالهم بعد طرد البرتغاليون ؛ فى حين كان رفض سكان «دبا» لأنهم كانوا فى الأصل رعايا ملك «هرمز» العربى كما التجأ بعض أبناء هرمز إلى «دبا» بعد الاضطهاد والتعسف الايرانى ويبدو أن البرتغاليين فى عمان لم يتمكنوا فى البداية من الوقوف فى وجه نمو النفوذ الإيرانى .

جاء القائد البرتغالى «فريبرى» فى ابريل عام ١٦٢٣ على رأس بضع سفن نحو مسقط ، وعندما علم الايرانيون المتواجدون على الساحل العمانى بوصول التعزيزات البرتغالية تراجعوا إلى حصون «صحار» و «خورفكان» و «دبا» و «ليما» و «خصب» و «رمس» و «رأس الخيمة» . أما القائد البرتغالى فقد أنزل قواته فى صحار واحتل موقع السوق ووجد مكانا مناسبا لينصب فيه مدافعه وبدأ يقصف الحصن مما اضطر الايرانيون إلى الاستسلام ومن «صحار» . توجه القائد البرتغالى إلى «خورفكان» حيث استقبل البرتغاليين كأصدقاء قدماء؛ ثم طلب القائد البرتغالى من سكان «خورفكان» بأن يتراجعوا عن عدم ولائهم لملك هرمز وأن يدافعوا عن أنفسهم فى المستقبل ضد الايرانيين ، وفى «خورفكان» افتتح مكتبا للرسوم الجمركية ، وحث السكان على الاعتراف بملك هرمز الجديد كسبق لهم فاستجابوا لطلبه ، كذلك أقسموا بالاخلاص والولاء للبرتغال ، ونظرا لوجود حامية ايرانية قوية فى «دبا»

أراد القائد البرتغالى أن يواصل سيره من هناك . ولقد بلغه أن عرب المنطقة عندما تلقوا نبأ وصوله إلى «خورفكان» انتقموا من الايرانيين لتصرفاتهم الاستبدادية وقتلوهم بالسيف وقد ووضع «فريبيرى» فى «دبا» حامية برتغالية صغيرة يبلغ عددها خمسين رجلا وأوكل إلى الشيخ المحلى مهمة جمع الرسوم المطلوبة لملك هرمز وبما أن وضع البرتغاليين فى «دبا» لم يكن مستمرا كان من الضرورى أن ترسل قوة برتغالية عام ١٦٢٧ لتعزيز وجودها فى عمان[1].

واصل «فريبيرى» فى عام ١٦٢٤ اعادة تنظيم ممتلكات هرمز على الساحل العمانى حيث شيدت مكاتب للرسوم الجمركية فى «بركا» و «سوادى» و «صحار» و «علاية» و «دام» و «عمق» و «حسيفين» وعندما وصل إلى «ليما» كان لايزال هناك حصن فى أيدى الايرانيين وكان من الصعب مهاجمته بالمدفعية ولذا تم قصفه بوابل من القذائف ، وقتل جميع من كان بداخله ومن «ليما» توجه «فريبيرى» إلى اقصى شبه جزيرة «مسندم» إلى كمزار» حيث استقبل مرة أخرى استقبالا حسنا لأن سكانها من قبيلة «الشحوح» اليمنية محالفة للبرتغاليين الذين تمكنوا دون صعوبة من السيطرة على هذه المنطقة حتى نهاية وجودهم فى عمان ، وبعد ذلك واصلت السفن البرتغالية سيرها ودخلت فى خليج «خصيب» الجبلى العميق وقد وجدوا مدينة خصب وحصنها مهجورين وكان «فريبيرى» يرغب فى تحصين هذا المكان لأنه يقع مقابلها هرمز تماما ، ومن الممكن استخدامه للسيطرة على الملاحة فى مضيق «هرمز» والاغارة على الساحل المقابل وقد وجه الدعوة إلى المواطنين للعودة بعد أن وعدهم بالأمان . وبعد ذلك بنى هناك حصنا وضع فيه حامية من عشرين جنديا برتغاليا ومائة جندى افريقى وأقيم مكتب للرسوم وعندما كان «فريبيرى» مستعدا لمغادرة خصب وصلت من «رمس» سفن حربية وكان على متنها الشيوخ أنفسهم الذين كانوا أسرى لدى البرتغاليين وهم الآن يقدمون لهم طاعتهم ثانية ، وقد قبلت طاعتهم وخفضت قيمة الضرائب التى كان من المتوجب أن تدفعها «رمس» إلى «هرمز» سابقا ثم توجه «فريبير» إلى «رأس الخيمة» . وكان قد طلب حاكمها قلم الدين وهو ابن اخ ملك هرمز بوجود حامية برتغالية وقد ترك «فريبيرى» خمسين جنديا برتغاليا فى «رأس الخيمة» كما بنى مكتبا للجمرك فيها ؛ وبهذا أصبح الجزء الجنوبى لمملكة هرمز بأكمله واقعا تحت السيطرة البرتغاليين ثانية وبذلك كان للبرتغاليين قاعدة يمكنهم منها شن هجماتهم نحو الشمال ضد ايران بعدما استعادوا سيطرتهم على المدن الساحلية العمانية .

بدأت أوضاع البرتغاليين تتحسن بعد سيطرتهم على المدن العمانية ؛ اضافة إلى جزيرة «لارك» كانت لاتزال فى أيديهم وعادت تجارتهم بين «البصرة» ومسقط» بدلا من «هرمز» فى حين استاء البريطانيون من التفسيرات التى قدمها الايرانيون فى غزو «هرمز» وكان أن رفض البريطانيون مساعدة الايرانيين فى غزوهم «لمسقط» .

اليعاربة وتصفية الوجود البرتغالى فى عمان

انجز الامام ناصر بن مرشد تحقيق الوحدة فى حين كان الوجود البرتغالى على السواحل العمانية فى حاجة إلى امكانات جديدة تفوق تلك الامكانات التقليدية التى استخدمها اليعاربة فى سبيل القضاء على الحروب الأهلية ، والانصياع لسلطة الدولة الموحدة ؛ لقد وقعت كل المعارك التى خاضها الامام ناصر بن مرشد من اجل الوحدة على اليابسة . أما البرتغاليون فقد كانوا أهل بحار وطريقهم فى الحرب اعتمدت على السفن التى شهدت طفرة كبيرة منذ حركة الاستعمار الحديث ؛ ولذا فان السياسة البرتغالية اعتمدت على احتلالها لكثير من المدن والقلاع والحصون التى تقع فى طريق البحار والمحيطات دون اللجوء إلى التعميق فى اليابسة الامر الذى لايتناسب وامكاناتهم البشرية . لقد ادرك اليعاربة مقدرة عدوهم والقادم من اقصى الطرف الأوربى كدولة بحرية خاضت معارك طاحنة فى سبيل الحفاظ على مكانتها ولذا فقد كانت العناية بالأسطول وتنمية الموارد الاقتصادية من الركائز الاساسية التى اعتمدت عليها اليعاربة الذين طوروا اسطولهم التجارى والعسكرى وبمجرد أن انتهى الامام ناصر بن مرشد من القضاء على جميع القوى المحلية التى بكل ثقله لمحاربة البرتغاليين وانتزع منهم «صور «وقريات» إذ اسند أمر تحريرها إلى ابن عمه سلطان بن سيف اليعربى ويبدو أن انتزاع «صور» و «قريات» لم تكن مهمة سهلة فقد كان التباين واضحا بين حجم وكفاءة القوتين المتنافستين بالإضافة إلى أن الوحدة لم تكن قد تحققت بمايتناسب وأعباء المواجهة التى كانت تقدر فى قدرا كبيرا من الانسجام والتفاهم . خصوصا أن البرتغاليين كانوا قد استردوا أنفاسهم منذ أن طردوا من هرمز عام ١٦٢٢ بسبب انشغال القبائل فى الحروب الأهلية .

وحدث وفاق جديد بين البرتغال وبريطانيا وانعكس ذلك مع شركة الهند الشرقية البريطانية من عام ١٦٣٤ وتحولت إلى صداقة متينة وتعاون بين الطرفين ، وخصوصا بعد أن استرد البرتغاليون استقلالهم من اسبانيا عام ١٦٤٠ لقد كانت المتغيرات السياسية سواء

المحلية أو الدولية فى مقدمة عوامل كثيرة ، جعلت سكان عمان يناضلون فى ظروف أشد قسوة ؛ غير أن نجاحهم فى تحقيق الوحدة بالإضافة إلى المشاعر الدينية الجياشة التى فاقت أية مشاعر وطنية أو عرقية كل ذلك من أهم العوامل التى جعلت عرب عمان يقبلون على التضحية بنفس راضية وبحماس ورغبة فى الاستشهاد وجهاد فى سبيل الله وهى عوامل كان يفتقدها البرتغاليون المتخصصون فى الثغور العمانية [٣].

يدرك المتتبع لحركة كفاح اليعاربة ضد البرتغال أهمية الوحدة القومية كقضية دينية وسياسية وهو ما يؤكد أن الامام ناصر بن مرشد قد ادرك تلك الحقيقة للوهلة الأولى ففى ظل التجزئة تنمو الخلافات وتتنامى الأحقاد ، إلى حد يهون فيه الوطن وتتبدد القيم الكبرى فى سبيل تحقيق مصالح شخصية رخيصة . لقد أدرك الامام هذه الحقيقة بوعى شديد وهى أن الوحدة القومية بمثابة الدرس الأول لتحقيق أى عمل كبير وبدونها تتبدد القوى وتتاح كل فرصة الوقيعة والشتات لأبناء الوطن الواحد والعقيدة والوحدة وقد شهدت الجبهة الداخلية تفوقا ملحوظا لقوات الامام [٤]، ساعده فى توسيع نطاق نضاله ضد البرتغاليين التابعين فى المدن الساحلية العمانية . ما أن استطاع الامام ناصر بن مرشد أن يوحد عمان تحت زعامته فى عام ١٦٣٠ بعد سلسلة من الحروب الأهلية والثورات المضادة حتى قرر أن يخلص بلاده من الوجود الاجنبى الذى كان يتمثل فى فئتين وهما :

الأولى : هى الوحدات البرتغالية الموجودة فى «مسقط » و«مطرح» و «صور» و «صحار» وغيرها من المدن فى عمان الساحل .

الثانية : هى الوحدات العسكرية البرتغالية المتمركزة فى حصون «رأس الخيمة» و «خورفكان» و «دبا » وكانت خطة الامام مهاجمة البرتغاليين أولا فكانت أهدافه مدينة «مسقط» و «مطرح» .

أعاد الامام ناصر بن مرشد تنظيم جيشه الذى أصبح أكثر تمرسا على القتال لكثرة الحروب الأهلية التى خاضها واستلم قيادة الجيش الشيخ مسعودة بن رمضان الذى وضع خطة الهجوم على مسقط ثم أمر وحداته بالتحرك نحوها ، وكان قائد حامية مسقط البرتغالى قد وصلت إليه أنباء حركة الجيش العمانى نحوه فأصدر أوامره إلى قطعاته بترك مسقط والتوجه نحو منطقة اسمها «طوى الرولة» تقع قرب مطرح وهى منطقة افلاج مياه تكثر فيها اشجار «الرولة» وبساتين النخيل واتخذ مواضعه الدفاعية هناك وعندما وصل الجيش العمانى دارت

معركة عنيفة بين الطرفين انتهت بتراجع القوات البرتغالية وتركها لمواقعها الدفاعية وانسحابها نحو «مسقط» واستبسل الشيخ مسعود بن رمضان ومعه الوحدات العمانية فى مطاردة العدو المتقهقر ولما رجع الجيش البرتغالى إلى مسقط احتمى بأسوارها فأمر الشيخ مسعود بفتح نيرانها على المدينة فدمر حصونا ومبانى كثيرة علاوة على سقوط عشرات القتلى والجرحى مما دفع بالقائد البرتغالى إلى طلب وقف اطلاق النار والقتال والمباشرة بالمفاوضات السلمية فوافق الامام على ذلك وفوض الشيخ مسعود بالتفاوض وتمت الموافقة على عقد صلح شروطه ما يلى (٥):

١- يتنازل البرتغاليون عن الأراضى والمبانى العائدة لهم فى بلدة صحار .

٢- يحتفظ البرتغاليون بوجودهم فى مسقط ومطرح .

٣- يقوم البرتغاليون بدفع الجزية للامام ناصر بن مرشد .

وافق الامام على تلك الشروط وأمر الشيخ مسعود بسحب قواته التى تحاصر «مسقط» والالتحاق به فى العاصمة «الرستاق» بعد أن جمع منهم الضريبة قبل مغادرته «مسقط» وبالرغم من تلك المعركة لم تنه الوجود البرتغالى فى مسقط إلا أنه قد ترتب عليها نتائج عديدة وأهمها ما يلى (٦):

١- أنها كانت بمثابة التمهيد الحقيقى للقضاء على هذا الوجود .

٢- أن الوضع قد انقلب عما كان عليه من قبل فقد أصبح البرتغاليون فى موقف الدفاع بعد أن كانوا دائما فى موقف الهجوم ، ويعتبر قبولهم لدفع الجزية للإمام تسليما ضمنيا بتبعيتهم للحكومة العمانية بعد أن كانوا لايقبلون من قبل سوى أن يكونوا متبوعين .

٣- كان لهذا النصر الكبير أثره فى نفس العمانيين إذ شجعهم على مواصلة تحرير أراضيهم وتخليصها من الأعداء .

أمر الامام ناصر بن مرشد جيشه الثانى فى «الرستاق» بالاستعداد للهجوم على «رأس الخيمة» واختار قائدا هو على بن أحمد وكان هدف الجيش هو مهاجمة قلعة «ناصر الدين» وعدم التعرض للقيادة البرتغالية ظنا من الامام بأن البرتغاليين بعد عقدهم صلح مسقط فانهم لن يتعرضوا للعمانيين ؛ تقدمت طلائع الجيش الثانى العمانى ووقفت امام قلعة «رأس الخيمة» التى يعتصم فيها «ناصر الدين» ومن المرجح أن هذا الرجل كان من سكان «هرمز»

وأنه من غير المعقول أن ينشأ آنذاك تعاون بين ايران والبرتغال فى رأس الخيمة بعدما تم طرد البرتغاليين من هرمز من قبل ايران وبريطانيا وكان القائد البرتغالى «فريبيرى» قد ذكر أنه كان فى «رأس الخيمة» حكام تابعون «لهرمز» ويذكر المصادر العمانية بأن «الهرمزيين» قد دافعوا عن أنفسهم بكل ما أوتوا من قوة فى «رأس الخيمة» (٧).

استمرت المعركة لمدة يومين أوشك فيها «ناصر الدين» على الاستسلام بعد أن أطبقت عليه القوات العمانية وحاصرته من جميع الجهات تقريبا ، وفجأة بوغت العرب بنيران مدفعية كثيفة تنطلق نحوهم من الحصن البرتغالى المجاور لحصن «ناصر الدين» علاوة على اطلاق نيران من مدفعية بعض السفن الحربية البرتغالية ، التى كانت راسية فى الميناء إلا أن هذا الهجوم المباغت والغادر من قبل البرتغاليين لم يؤثر على عزيمة الجنود العمانيين ، بل قام القائد على بن أحمد بمشاغلة الحصن البرتغالى بينما أصدر أوامره بتشديد الهجوم على حصن «ناصر الدين» الذى ما لبث أن انهارت مقاومته فاستسلم ودخل القائد العمانى الحصن ، ومن هناك أعاد تنظيم قواته وقرر مهاجمة الحصن البرتغالى ولما فعل ذلك لم يستطع الحصن البرتغالى المقاومة طويلا إذ سرعان ما سقط بيد العرب ولما وصلت أنباء ذلك النصر الكبير للامام ناصر بن مرشد كافأ القائد على بن أحمد بان عينه واليا على «رأس الخيمة» ثم أمر الامام جيشا ثالثا قبيلة «الدهامشة» بقيادة خميس بن مخزوم بالتوجه نحو «رأس الخيمة» لتبديل الجيش الثانى هناك(٨)وعندما وصل الشيخ خميس وجهه على بن أحمد لمهاجمة بقية الحصون البرتغالية المنتشرة فيما بين رأس الخيمة و«دبا» و«خصب» و«خورفكان» وانتهت هذه المعارك باستسلام البرتغاليين .

ضرب الجيش العمانى حصارا شديدا حول «صحار» التى كانت محورا استراتيجيا هاما فى سياسة اليعاربة فى حين تحصن البرتغاليون داخل القلاع والحصون وراحوا يمطرون قوات الامام بوابل من نيران مدفعيتهم الامر الذى اطال امد الحصار مما دفع الامام إلى بناء قلعة فى مواجهة القلعة البرتغالية وبمجرد أن علمت القبائل العربية بحصار صحار أخذت تستنفر همم شبابها الذين شاركوا فى بناء القلعة وخصوصا مناطق «لوى» و «بات» وكافة المناطق المتاخمة «لصحار» وفى حين ضرب العمانيون حصارا منيعا حول «صحار» إذ بالامام ناصر بن مرشد وقد بعث بسرية أخرى إلى مسقط بقيادة خميس بن سعيد الشقصى ، وعلى الرغم من أن تلك السرية لم تحقق نتائج هامة فأنها أربكت القوات البرتغالية سواء فى «صحار» أو

فى «مسقط» مما مهد لسلسلة من الهجمات العمانية الخطيرة ضد المعاقل البرتغالية كافة وفى عام ١٦٤٣ استولى الامام ناصر بن مرشد على مدينة صحار وبنى بها حصنا جديدا وهذا ما يكشف مقدرة الامام السياسية ومعرفته الدقيقة بامكانات عدوه مما أهله لكى يكون سياسيا بارعا بالإضافة إلى مكانته الدينية وقيادته العسكرية ومقدرته البارعة على جمع شمل المسلمين لخوض معارك ضارية ضد عدوه اتسمت بالطابع الدينى والجهاد بالدرجة الأولى[٩].

حاول اليعاربة بقيادة الامام أن يولوا عناية كبيرة لفتح المنافذ البحرية لتجارتهم ويبدو أن استيلاء البرتغاليين على الساحل العمانى قد اصاب التجارة العمانية باضرار بالغة ؛ ولهذا السبب كان الامام يعد العدة لهجوم كاسح على المدن الرئيسية فى عمان وهى «مسقط» و «مطرح» لكن قوة التحصينات البرتغالية علاوة على وجود عدد من السفن الحربية المرابطة جعلت الامام يعيد النظر فى الهجوم على هذه المدن فاكتفى بمراقبتها وقرر أن يهاجم البرتغاليين فى مدينتى «صور» و«قريات» وهما من موانئ المنطقة الشرقية المهمة وأجرى الامام تعديلات على قيادة جيوشه وسلم لقيادة العامة إلى قائد شاب قدر له فيما بعد أن يحطم النفوذ البرتغالى بصورة نهائية ليس فى عمان وحدها فحسب وإنما فى الخليج العربى وشرق افريقيا ذلك القائد هو سلطان بن سيف بن مالك اليعربى ابن عم الامام ، واستعد القائد الجديد وحرك قطعاته نحو بلدة «صور» الساحلية وشن هجوما عنيفا على الحامية البرتغالية المعتصمة بقلعة المدينة وبعد معركة عنيفة تمكنت القوات العمانية من اقتحام القلعة واعملت السيف برقاب الجنود البرتغاليين فسقطت البلدة بيد القائد الشاب سلطان بن سيف وبسرعة استثمر القائد العربى الفوز فابقى وحده عسكرية صغيرة فى المدينة لفرض الحماية وحفظ الأمن واعاد حشد قواته وانقض بسرعة خاطفة على بلدة «قريات» التى كان البرتغاليون قد حولوا حصن المدينة إلى منطقة دفاعية قوية محاط بعدد من الخنادق والمواقع الدفاعية الأخرى وعندما وصلت طلائع القوة العمانية إلى المدينة أمر القائد بفتح نيران مدافعه على الحصن وباشرت قوات الفرسان والمشاه بمهاجمة اسوار المدينة ثم لم يلبث الحصن البرتغالى أن انهار تحت قذائف المدفعية العمانية وتمكنت قوات الفرسان من فتح ثغرات فى سور المدينة اندفع منها المقاتلون العرب وهم يقتلون الجنود البرتغال فسقطت المدينة بيد القوة العمانية وتشتت شمل القوات البرتغالية التى انسحبت بحرا بما تيسر لها من وسائل لتلتجئ إلى مسقط أو مطرح التى لم يبق للبرتغاليين من اماكن سواها [١٠].

بذل الامام ناصر بن مرشد جهدا كبيرا فى سبيل الجهاد وتحرير التراب العمانى وكان يقاتل فى سبيل ذلك مما كبدته قدرا هائلا من الجهد والوقت غير أن الامام وبكل المقاييس قد استخدم كل الامكانات المتاحة بمهارة شديدة بما فى ذلك المفاوضات السياسية التى لجأ إليها مع البرتغاليين ولم يبق تحت السيطرة البرتغالية سوى مدينتى «مسقط» و «مطرح» و حصن واحد فى «صحار» لعل الامام كان يود قبل وفاته لو أجهز على البرتغاليين نهائيا فى عمان وخصوصا بعد أن بقيت «مسقط» و «مطرح» فى يد البرتغاليين ؛ ولهذا بعث بمسعود بن رمضان على رأس جيش يهدف تحريرها لقد كانت قوات الامام فى أشد الحاجة إلى التقاط الأنفاس بعد حرب أهلية طويلة . وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن مسعود بن رمضان من الوصول إلى «مطرح» بل ضرب عليهاحصارا وكانت فرصة مناسبة لكى يجهز العمانيون على عددهم الذى كان يقاتل فى ظروف غاية فى القسوة وبدت وكأنها فرصة مناسبة لكى يفرض الامام شروطه استكمالا لمفاوضات كانت قد جرت منذ فترة وتراجع البرتغاليون عن قبولها غير أن القصف المستمر لقوات مسعود بن رمضان التى سيطرت على كافة التلال المحيطة بمسقط ومطرح كان عنيفا لدرجة أربكت الحاميات البرتغالية ولم يؤد هذا الحصار إلى تحرير «مسقط» و «مطرح» وإنما نجم عنه ابرام هدنة جاءت معظم بنودها فى مصلحة العمانيين لقد كان ابرام هذه الهدنة بمثابة اختبار عملى لقوة كل من الطرفين حيث أدرك العمانيون حالة الوهن التى وصل إليها البرتغاليون فى الوقت نفسه كان الامام فى أشد الحاجة لالتقاط الانفاس واعادة تقيم الوقت ومن جانب آخر فقد شعر البرتغاليون بنوع من الارتياح وخصوصا قد سبق لهم أن أبرموا صلحا مع بريطانيا وأرادوا تعزيز مواقعهم فى «مسقط» استعداد لمواجهة القادمة مع قوات الامام ، لقد تضاعفت طموحات العمانيين وأدركوا بأنه قد قاب قوسين أو أدنى من تحرير بلادهم من احتلال البرتغالى الذى دام أكثر من مائة وأربعين عاما (١١).

فاضت فى يوم الجمعة ٢٤ ابريل ١٦٤٩ إلى بارئها روح الامام ناصر بن مرشد اليعربى مؤسس الدولة العربية فى عمان وهو الذى صرع الاستعمار البرتغالى وكسر حاجز الرهبة والخوف عند العرب من أولئك البرتغاليين إلا أنه مات رحمه الله ولم تسعد عيناه برؤية آخر جندى يرحل عن بلاده ومات وله من العمر ستة وأربعون عاما وقد أمضى على سدة الحكم والامامة خمسة وعشرين عاما ولم يعقب إلا ابنة واحدة اسمها «فاطمة الزهراء» فاجتمع علماء الاسلام فى عمان واعلنوا البيعة إلى ابن عمه سلطان بن سيف وأجمعته آراء الأمة

كلها على هذا الاختيار وباركته وأيدته بدون معارضة وكانت الحاميات العسكرية البرتغالية الموجودة فى المدينة مكونة من وحدات عسكرية برتغالية ووحدات هندية واتخذت بعض الوحدات مواضع دفاعية خارج المدينة فى التلال والجبال المحيطة بها . أما قلعتا مسقط الشهيرتان فقد كانتا بمثابة مقر للقيادة العامة والتموين ومدفعية الساحل والثكنة العسكرية الرئيسية فى المنطقة وقد اتموا تحصينها بشكل دقيق وتام خوفا من الامام الجديد الذى كان معروفا جيدا بشجاعته لدى البرتغاليين بعدما حررا امنع الحصون البرتغالية فى «صور» وقريات . وتوزع مشاة الوحدات البرتغالية والهندية على جبال «السعالى « و «المكلا» وكان من أمنع حصونهم برج يسمى بالمربع حيث كان يسيطر على طريق الرئيسى من المدينة وقد سده البرتغاليون بسلسلة جديدة (١٢).

استطاع الامام سلطان بن سيف بعد المبايعة أن يواصل الجهاد مباشرة حيث سبق له أن تمرس على الأعمال الحربية سواء حينما قاد بنفسه العديد من العمليات الحربية بتوجيه من الامام الراحل أو حينما ارسل عدة مرات إلى مسقط لتسليم الجزية المستحقة على البرتغاليين، ولذا فقد كان الامام الجديد اهلا لتولى القيادة فى وقت كانت البلاد فى أشد الحاجة إلى مواصلة المسيرة التى بدأها الامام ناصر بن مرشد لقد أدرك الامام الجديد أهمية الوقت كعامل هام فى الاجهاز على البرتغاليين ولم يمكث الامام سلطان بن سيف اليعربى إلا أياما قليلة ، وأسرع متخذا من «طوى الرولة» قاعدة للهجوم الشامل ، وتحصن البرتغاليون بقلاع واسوار عالية ورابط جنودهم بعد أن ثبتوا مدافعهم الثقيلة فى كل اتجاه وزيادة فى الحيطة
واسوار عالية ورابط جنودهم بعد أن ثبتوا مدافعهم الثقيلة فى كل اتجاه وزيادة فى الحيطة
حفروا خندقا عميقا حول الأسوار وعلى رؤس الجبال المحيطة بمسقط ومطرح بنوا مجموعة ابراج ثبتوا فى داخلها جنودا اشداء اخذوا يمطرون القوات العمانية بوابل من نيران مدافعهم لقد كانت الحرب سجالا لاقدرة للبرتغاليين على مواجهة العمانيين ولاقدرة للعمانيين على دخول «مسقط» أو «مطرح» واعتمد الجيشان على القناص كلما اتجهت الفرصة لذلك طالت الحرب حتى كاد سلطان بن سيف أن يتراجع عن حصاره وخصوصا بعد أن نمى إلى علمه أن بعض القبائل بدأت فى التراجع عن مساندته (١٣).

حشد الامام سلطان بن سيف جيشه فى منطقة اسمها «طوى الرولة» وهى منطقة تمتد من بلدة «مطرح» إلى منطقة «سد روى» فلما أتم تحشده هناك اتخذ من «طوى الرولة» قاعدة

متأخر له وتقدم بوحداته المحاربة إلى منطقة التجمع والوثوب فى منطقة «سيح الحرمل» ومن هناك اصدر أوامره بالهجوم ، فتقدمت وحدات العشائر واحتلت أول اهدافها وهى مجموعة تلال تسمى «بير الرامية» لكنهم جوبهوا بنيران شديدة من بنادق البرتغاليين المحتلين للمنطقة بحيث حصدتهم حصدا واضطرتهم إلى التبعثر والانتشار ،وقد حدث نفس الشئ للموجة الثانية من الهجوم واضطرت للتوقف والانسحاب نظرا لشدة كثافة نيران المحتلين مما اضطر الامام إلى اصدار أوامره إلى وحداته بالتوقف عن الهجوم والاكتفاء بحصار المواضع البرتغالية ، أما البرتغاليون فقد انسحبوا إلى داخل حصونهم وبدءوا باطلاق نيران مدافعهم على كل من يقترب منهم إلا أن ذلك لم يكن يمنع فرسان العرب من الاقتراب من الاسوار وتحدى الموجودين فيه للنزول إلى خارج الحصون للمبارزة لكن البرتغاليين لم يكونوا يجرؤن على ذلك ، وفى الساعات المبكرة من صباح يوم الأحد المصادف لليوم العاشر من شهر رجب عام ١٠٥٩ لأواخر شهر ديسمبر عام ١٦٤٩ قام الامام سلطان بن سيف بتأدية صلاة الفجر مع قادة جيشه وعندما أتمها أصدر أوامره بالهجوم فاندفعت حشود المقاتلين العمانيين تكتسح كالموج الهادر الحصون والمنعات والجدران المسلحة التى تساقطت تحت ضرباتهم الساحقة وسرعان ما وصلوا إلى قلعتى «مسقط» التين بوغتتا بالهجوم وتسلق العرب العمانيون جدران القلعتين وسيوفهم مشرعة بأيديهم وأعملوا السيف برقاب البرتغاليين والهنود وكان من أصلب جيوب المقاومة ، الوحدة البرتغالية التى كانت معتصمة فى القلعة الشرقية بقيادة الضابط البرتغالى المسمى «كبرتيه» ولكنه اضطر أخيرا للانسحاب إلى داخل اسواق مدينة «مسقط» حيث اطبق عليه المقاتلون العمانيون وقتلوه وجميع من معه وكانت نتيجة المعركة كلها أن القوات العمانيةأبادت المعسكر البرتغالى فى مسقط على بكرة أبيه إذ لم يتمكن من الافلات منها إلا نفر قليل التجأ إلى مركبين حربين فرا من ميناء «مسقط» واتجها نحو «مطرح» فدخل الامام المدينة فاتحا وطهر القلعتين الشهيرتين واسماها «الميرانى» و «الجيلالى» وعين واليا على المدينة هو سيف بن بلعرب اليعربى (١٤).

أسرع الامام سلطان بن سيف بقواته إلى «مطرح» لمنازلة البرتغاليين وتحرير هذه المدينة ويبدو أن قائد منطقة مطرح العسكرى قد وصلت إليه أنباء الكارثة الرهيبة التى حلت بالجيش البرتغالى فى مسقط فخرج على رأس معاونيه ورجاله رافعا راية الاستسلام وهكذا تم تحرير عمان تحريرا نهائيا من الاستعمار البرتغالى الدخيل بداية عام ١٦٥٠ بعدما استمر مائة وخمسة وسبعين عاما وأن مصير كافة الجنود البرتغاليين كان الابادة التامة ولم ينجح منهم سوى ستين أو سبعين رجلا اعتنقوا الاسلام وزابوا فى المجتمع العمانى الجديد .

اصيب البرتغاليون بخسائر جسيمة بعد ما قتل جنودهم وكل المحاولات التى قاموا بها فى الهند لإمداد مسقط باءت بالفشل ولكنهم لم يفقدوا الامل فى استعادة عمان وراحوا يدعمون مركزهم فى منطقة «كينج» بجنوب ايران عام ١٦٥٢ فى حين لم يتوقف العمانيون عن مطاردة البرتغاليين حتى بعد أن لجئوا إلى وكالتهم التجارية فى «كينج» التى لم تنج من هجمات العمانيين الذين اخذوا يتعقبون عدوهم فى الهند وشرق افريقيا مما جعل خطوط الملاحة بين الوكالة التجارية للبرتغاليين فى «كينج» وبين شرق افريقيا والهند تبدو مستحيلة فى ظل سيطرة الاسطول اليعربى العمانى فى مياه الخليج والمحيط الهندى إلى أن سقطت «كينج» تحت هجمات العمانيين ولاشك أن طرد البرتغاليين نهائيا من الخليج العربى يعد عملا بطوليا وصفحة مشرقة فى التاريخ العمانى أن هذه الانتصارات ما كان لها أن تتحقق إلا بوحدة وجبهة داخلية متماسكة عادت على عمان فى ظل امامة سلطان بن سيف بالقوة والمنعة واصبحت أكبر قوة سياسية وعسكرية ضاربة فى الجزيرة العربية وفى المحيط الهندى وراحت العديد من الدول الأوربية الاستعمارية تخطب ودها فى حين كان الأسطول العمانى يجوب كل البحار الشرقية دون منافس ولاشك أن كفاح اليعاربة ضد البرتغاليين لم يكن منعزلا عن التيارات السياسية التى كانت تمر بها المنطقة التى استوعبها أئمة اليعاربة بموضوعية شديدة . ولذا فقد حقق اليعاربة نجاحا فى مجال العلاقات الدولية لقد بدأت قضية التوازن أكثر أهمية فيما يتعلق بالصراع الدائر بين القوى المتنافسة فى المنطقة وخصوصا مع اقتراب القرن السابع عشر من الانتهاء. ففى ظل العلاقات الودية بين اليعاربة من جانب وبريطانيا وهولندا من جانب آخر كان يشتد الصراع العمانى - البرتغالى ويكثف العمانيون من هجماتهم بل وينتقلون بالصراع إلى المحيط الهندى وشرق افريقيا وعلى الرغم من العلاقات العمانية - البريطانية التى تميزت فى تلك الفترة بقدر كبير من التعاون ، غير أن ذلك لم يكن على حساب المصالح العمانية لاشك أن أئمة اليعاربة اعتمدوا على قوتهم الذاتية مع قدر من المرونة ومحاولات الاستفادة من تضارب المصالح بين القوى الأوربية المختلفة مما عاد على الدولة بقدر كبير من القوة والمنعة وخصوصا فيما يتعلق بقوة البحرية العمانية التى كانت تتعاظم يوما بعد يوم ، فى حين كانت البحرية البرتغالية فى طريقها إلى الزوال بسبب الهجمات العمانية ووصلت عمان إلى درجة من القوة تفوق أى دولة من دول المحيط الهندى حيث أصبحت تخشاها الأساطيل البريطانية والهولندية [١٥].

أدرك الامام سلطان بن سيف أهمية العلاقات مع دول المشرق الاسلامى فى المحيط الهندى ومحاولة التنسيق مع كثير منها ، وخصوصا فى مجال النشاط البحرى ولعل ذلك ما اقلق بعض الدول الأوربية التى حرصت على قطع العلاقات بين عمان وشرق افريقيا من جانب ومحاولة الوقيعة بين عمان وامراء الهند من جانب آخر ولعل ما حققه اليعاربة فى مجال النشاط البحرى من تفوق ملحوظ جاء نتيجة الطفرة الاقتصادية الهائلة التى تحققت مع نهاية القرن السابع عشر نتيجة دخول العمانيين فى حلبة التجارة العالمية بعد أن قضوا على البرتغاليين وسياستهم الاحتكارية وبحلول عام ١٦٩٥ كان لدى العمانيين سفن بحرية ضخمة يجوبون فيها كافة البحار الشرقية وخصوصا موانئ الخليج العربى لدرجة أن موظفى الجمارك الإيرانى فى «بندر عباس» طالب شركة الهند الشرقية بابقاء بعض قطع سفنها لتحمى الميناء واجيب إلى طلبهم والحقيقة أن العمليات البحرية العمانية كانت تخيف الأوربيين الطامعين فى بحار الشرق الاسلامى ولعل ذلك ما دفع الدول إلى التكتل فيما بينها برغم ما بينهم من منافسات لإضعاف القوة البحرية العمانية وبالفعل تم التوقيع على عدة اتفاقيات لعل أهمها اتفاقية عام ١٧٠٠ بين كل من بريطانيا وفرنسا وهولندا ، لم يكترث العمانيون للموقف الأوربى وراحوا يتعقبون البرتغاليين وتصفية جيوبهم على السواحل الفارسية وشرق افريقيا والاستيلاء على سفنهم ومعداتهم العسكرية قد يصعب تفسير هذا التغير الواضح الذى نقل عمان فى ظل دولة اليعاربة من دويلات وامارات صغيرة كانت مطمعا للغزاة بعد أن بددتها الحرب الأهلية الطاحنة إلى دولة لها مكانتها الدولية ولها شكلها السياسى والقانونى ولعل هذا التحول يرجع إلى تلك السياسة التى التزم بها أئمة اليعاربة والتى كانت كفيلة بهذا التغيير الهائل وخصوصا فى المجالات الآتية [١٦]:

أولا : وحدة عمان الكبرى باعتبار وحدة التراب الوطنى الدرس الأول الذى التزم به الامام ناصر بن مرشد وبغير الوحدة لن تتحقق المصالح للبلاد وفى سبيل الالتزام بهذا المبدأ خاض الامام حروبا ضارية ضد انصار التجزئة والانفصال .

ثانيا : نجاح أئمة اليعاربة فى تكوين قوة بحرية تتناسب وطبيعة الصراع فى تلك الفترة ولعل ما تحقق فى هذا المجال كان مقدمة لإحراز انتصارات عظيمة تركت آثارها على مسرح الأحداث السياسية والاقتصادية باعتبار أن توجهات عمان البحرية هى قضية استراتيجية ثابتة وبدون السيطرة على زمام البحار والمحيطات لن يتحقق التوازن المطلوب .

ثالثا : لقد عنى اليعاربة باستثمار كل مقومات النجاح وكانت الزراعة فى مقدمة اهتماماتهم حيث شقت الافلاج وتم جلب كثير من المحاصيل الزراعية من شرق افريقيا إذ نجحت تجربة زراعتها بشكل ملحوظ مما اوجد رواجا اقتصاديا .

رابعا : عنى اليعاربة بتوفير كل مقومات النجاح لحركة التجارة بعد أن تم القضاء على سياسة الاحتكار التى ابتدعها البرتغاليون وباتت تجارة الخليج العربى وبحر العرب جزءا من حركة التجارة العاليم وهو ما عاد على عمان بطفرة اقتصادية هائلة .

خامسًا : العودة إلى الجذور العمانية الأصلية بابراز الهوية العربية الاسلامية وفى هذا المجال نجح اليعاربة بشكل ضاعف من ترابط واتحاد دولتهم .

أدى تحقيق الانسجام والتجانس بين المناطق الساحلية والداخلية فى عمان إلى تحسين مشاعر الوحدة العربية القومية والدينية وعمق من مقومات الترابط وهكذا بات المجتمع العمانى وقد استنفذ كل مقومات نجاحه بشكل عاد على مجالات الحياة بالخير الوفير لعل الازدهار الاقتصادى الذى شهدته دولة اليعاربة كان من أهم مقومات نجاحها ولايمكن اغفال المتغيرات الاقتصادية مع مطلع القرن الثامن عشر ، بعدما انتهت سياسة الاحتكار البرتغالية وحل مكانها العديد من الشركات التجارية الأوربية التى مارست نشاطها بقدر لابأس به من التنافس الحر قبل أن تتحول إلى استعمار تسلطى على دول المنطقة ، مما افسح المجال للقوى المحلية التى لها خبرتها السابقة فى هذا المجال إلى أن تنبهت القوى الأوربية إلى ما يمكن لهذه العناصر المحلية أن تشكله من خطورة عليها وراحت تتضامن مع بعضها بهدف تصفية القوى المحلية وتأمين مواصلاتها الاستعمارية إلى الهند ، ومن الملفت للنظر أن الانتصارات التى حققها اليعاربة قد اثارت ايران التى كانت تتطلع إلى وراثة النفوذ البرتغالى ولذا فقد تعددت المواجهات العمانية الفارسية التى جاءت فى صالح اليعاربة لدرجة أن التجارة الايرانية قد اصيب بضرر بالغ وهو مادفع بايران إلى الاستعانة بالقوى الاستعمارية الأوربية بهدف القضاء على منافسة عمان لها . وإذا كان البريطانيون والهولنديون لم يتحمسوا للعرض الايرانى خوفا على مصالحهم الاقتصادية من الأسطول العمانى فقد توجهت ايران إلى فرنسا وتمخضت الاتصالات عن توقيع معاهدة بينهما عام ١٧٠٧ كان من بين نصوصها السرية أن يقوم الفرنسيون بارسال اسطول لمساعدة ايران فى غزو مسقط غير أن فرنسا ترددت قبل الاقدام على تلك الخطوة لنفس السبب الذى منع

البريطانيين والهولنديين من تضامنهم مع ايران على الرغم من الدبلوماسية النشطة والتنازلات والامتيازات والاغراءات التجارية التى مارسها الايرانيون فى محاولة للضغط على لويس الرابع عشر وعموما فلم تسفر الاتصالات عن قيام تحالف ايرانى - فرنسى على الرغم من ابرام اتفاقية جديدة عام ١٧١٥ . وادركت البرتغال أن زمن الضعف العربى قد ذهب وأن مواجهة اليعاربة فى كل مراحل الصراع قد باءت بالفشل وأن استمرار الوضع يعنى ضياع كل الممتلكات البرتغالية على سواحل الهند وشرق افريقيا ولذا راحوا ينسقون مع ايران فى محاولة لقيام تحالف عسكرى يكون قادرا على ضرب اليعاربة مما جعل الامام سلطان بن سيف يدرك خطورة التحالف الايرانى - البرتغالى الجديد ولذا فقد عجل بضرب البرتغاليين وتصفية نفوذهم وقسم اسطوله إلى قسمين احدهما توجه إلى شرق افريقيا ونجح فى انتزاع «ممباسا» عام ١٦٩٨ تمهيدا لانتزاع «الجزيرة الخضراء» و«كلوة» أما القسم الآخر من الأسطول فقد توجه إلى الهند ونجح فى تدمير الوكالة البرتغالية فى «مانجلور» على الساحل الهندى وبذلك وصلت قوة اليعاربة إلى درجة فاقت أية قوة بحرية أخرى وكانت الاساطيل البريطانية والهولندية تخشاها ويكفى أن هذا الاسطول العمانى استطاع أن يقوم بكل العمليات الناجحة فى هذه المنطقة الشاسعة وأن يجعل الرعب يملأ قلوب الجميع سواء سكان البلاد الواقعة على الخليج العربى أو المحيط الهندى والتجار الأوربيين وبكل المقاييس نجح العمانيون فى ايجاد قدر كبير من التوازن الدولى انعكست نتائجه على كل المستويات وترك انطباعا هائلا لدى الأوربيين عن هيبة الدولة وعملت العديد من القوى الأوروبية على كسب ودها ولعل الازدهار الاقتصادى الذى وصلت إليه اليعاربة ومكانة اسطولها البحرى كان نتاجا طبيعيا لقوة وحجم ثقلها البحرى على البحار الشرقية وانعكس على جميع مشروعات التنمية الاقتصادية فى شتى مناحيها وبات الناس فى أمن على حياتهم وارزاقهم فى ظل سياج من الهيبة والعدل مما قد تخلص إلى عدة نتائج اسياسية وهى [١٧]:

أولا : ظلت عمان فى عهد اليعاربة دولة قوية متماسكة أخذت بكل اسباب القوة من الاهتمام الشديد بقضية «وحدة عمان الكبرى» باعتبارها صمام الامان وفى سبيلها خاض ناصر بن مرشد حروبا ضارية واريقت دماء كثيرة على اعتبار أن قضية الوحدة هى مبدأ استراتيجى ثابتة وهى اساس لكل الأعمال الكبيرة التى حققها الامام سلطان بن سيف ثم بعده خلفاءه من أئمة اليعاربة وبينما القوات العمانية تخوض حروبا ضارية بهدف اقتلاع كل

الحصون والقلاع البرتغالية ليس فى الخليج العربى فقط وإنما فى شرق افريقيا وسواحل الهند كافة كانت العيون يقظة على الأرض العمانية لأن الدرس الذى وعاه هؤلاء الأئمة العظام كان حافزا لمزيد من الاهتمام بتلك القضية الاستراتيجية التى لاتقبل انصاف الحلول .

ثانيا : إذا كانت الوحدة العمانية هى صمام الأمان فان التنمية الاقتصادية كانت ضرورة قومية ودينية وبغيرها يصعب ملاحقة المتغيرات السياسية التى فجرت قدرا من التناقض بين العديد من القوى سواء المحلية منها أو الدولية ولذا فقد انصرف الناس إلى شق الافلاج وغرس النخيل والاشجار وتحت حماية البحرية العمانية عاد الخليج العربى والمحيط الهندى يباشران دورها الحضارى بهدف الوصول بحركة التجارة إلى أكبر معدل يتناسب وكمية المنتجات المتبادلة .

ثالثا : أدرك أئمة اليعاربة أن كل الآمال الطموحة يصعب تحقيقها بدون هيبة الدولة من خلال قوة عسكرية بحرية ضارية وفى سبيل ذلك نجح الأئمة اليعاربة فى تجسيد هذه الطموحات لدرجة أن البحرية العمانية باتت لها السيادة الأولى على المياه الشرقية وهو أمر أثار ضيق العديد من القوى الدولية التى احدثها اليعاربة والتى كان من أهم نتائجها ايجاد قدر كبير من التوازن الدولى وهو أمر لايحقق كل طموحات القوى الدولية الأوربية الاستعمارية المتنافسة فى المياه الشرقية.

٣- نظام دولة اليعاربة

تعتبر الحكومة هى المؤسسة التى تمثل «الادارة السياسية» بما تحمل هذه العبارة من حق اتخاذ القرار السياسى والاجتماعى والاقتصادى وأن نظام الدولة فى عهد اليعاربة لايختلف اختلافا كثيرا عن نظام الدويلات الاسلامية حيث أن الدين الاسلامى هو الرافد الثقافى وأن الثقافة هى التى دائما تنتج المفهوم السياسى أن الفكر هو الأساس والسياسة ما هى إلا انعكاس لهذا الفكر ، وناصر بن مرشد الامام المؤسس من أسرة النباهنة لم يكن رجل دين فقط وإنما كان اميرا منحدرا من أسرة حاكمة تنتمى إلى اسرة «النباهنة» التى يصفها بعض مؤرخى عمان بأنهم حكام ظلمة ومع هذا فقد استطاع هذا الرجل الذى ينتمى لنفس الأسرة أن يؤسس دولة قوية اساسها العدل والأمن وأن يوحد عمان الكبرى ويطرد الاستعمار البرتغالى وشكلا اسرة حاكمة تتوارث الحكم خلافا لما يذهب المذهب الاباضى فأسرة اليعاربة ملوك غير متوجين واكتفى علماء الدين بلقب الامام والمشاورة بينهم وبين الامام واكتفى الامام بمشورة

العلماء واحترام المذهب الاباضى وتعاليمه وتشكل الادارة السياسية فى دولة اليعاربة من (١) المجلس الاعلى ويضم الامام ورجال الدين ووجهاء البلد (٢) الولاة (٣) القضاة . والنظام الادارى تابع له سواء كان الامر سياسيا أو ماليا كجباة الخراج والجندية والشرطة والعمل والقضاة . اهتم أئمة اليعاربة بالنظام العسكرى فكان لهم ما يشبه الجيش الثابت يتقاضى رواتب منتظمة مهمته الاساسية الدفاع عن البلاد إلا أنه فى حالة الحرب فان القبائل كانت تنخرط فى سلك الجيش لتكون قوة كبيرة هى سند الدولة الاساسى فى حروبها مع اعدائها [١٨].

تعد القلاع والحصون فى عمان من أعظم آثارها المعمارية وتتراوح القلاع الرئيسية بين مبانى ضخمة مثل قلعة «بهلا» و «الرستاق» وبين قصور محصنة مثل «الحزم» و «جبرين» التى شيدت اصلا لتكون مقراً للحاكم كما تنتشر القلاع الاصغر حجما فى كل قرية ومدينة تقريبا ، وقلعة «نزوى» هى بغير شك اكثر القلاع مناعة وضخامة وقد اقيمت على أرض منبسطة دون أى مزايا طبيعية وشيدها الامام سلطان بن سيف واستغرق بناؤها اثنى عشر عاما ، أما قلعة «جبرين» فلم تشيد اصلا كقلعة وإنما كقصر للامام وبناها الامام بلعرب بن سلطان ويتجلى روعة وجمال «جبرين» فى الجزء الأول من القصر الذى يضارع القصور المبنية فى الفترة نفسها فى «الهند » و «إيران» اما قلعة «الحزم» التى تقع قرب «الرستاق» فقد بناها الامام سلطان بن سيف الثانى ١٧٠٦ - ١٧١٩ وعلى خلاف «جبرين» فان «الحزم» بنيت اصلا لتكون حصناقويا ومقرا للحاكم فى الوقت نفسه وترتفع جدرانها الضخمة إلى علو شاهق كما أن تصميمها الخارجى الذى يشبه «جبرين» قد روعى فيها اطلاق النيران من برجى المدفعية وتتميز سقوف غرف الاستقبال الرئيسية بالزخارف والنقوش البديعة . أما قلعة «الجلالى» و «الميرانى» فقد بناها البرتغال فى مسقط وقلما يوجد ركن فى مسقط لايمكن رؤية احدى أو كلتا حافتى القلعتين وهذا أمر يشهد بمهارة البرتغاليين العسكرية .

بدأ الاسطول اليعربى ينمو بعد سقوط مسقط ١٦٥٠ على يد الامام سلطان سيف الذى كان يمتلك شخصيا ٢٤ سفينة حربية كبيرة و٢٨ سفينة صغيرة يحمل اكبرها ثمانون مدفعا هذا بالإضافة إلى السفن التجارية الأخرى التى لن تكون بعيدة كل البعد عن الاستراتيجية الحربية وتتحول إلى سفن حربية مهاجمة متى دعت الضرورة .

اهتم العمانيون بالثقافة الدينية الاسلامية وقد كان لهم مؤلفات ترجع إلى القرن الثانى الاسلامى كما أن الشيخ خلف بن سنان الغافرى قاضى الامام سيف بن سلطان اليعربى كانت له مكتبة تحتوى على ثلاثمائة وسبعين مخطوطة ، كما أن العمانيين اهتموا بالأدب فنظموا شعرا ونثرا وأخذ التعليم فى عمان اصوله من المفهوم الدينى وكان الامام بلعرب يخدم الطلاب ومعلميهم بنفسه وقد تخرج فى المدرسة التى الحقت فى حصن «جبرين» ما يقارب الخمسين عاما كلهم أهل اجتهاد واهل افتاء بالرأى بالاضافة إلى الشعراء والأدباء .

٤- سقوط دولة اليعاربة

عادت عمان بعد وفاة الامام سلطان بن سيف الثانى عام ١٧١٨ إلى عصر الخلافات والعصبيات ودخلت مرحلة اتسمت بتباين الآراء ، وانقسم السكان إلى فرقتين إحداهما تقول بأحقية سيف بن سلطان الثانى ابن الامام سلطان بن سيف الثانى وكان صبيا لم يبلغ الحلم ونادى بذلك اليعاربة وعامة الناس أما أهل العلم فقالوا بامامة مهنا بن سلطان بن ماجد اليعربى الذى كان موضع ثقة الامام المتوفى وكان زوجا لابنته لقد وقع عامة الناس تحت تأثير المشاعر التى كان يحظى بها الامام سلطان بن سيف الثانى وعلى الرغم من أن ولده سيف كان مفتقدا لمقومات الامامة وخصوصا إن امامته لاتجوز فى الصلاة على اعتبار أنه لم يبلغ الحلم فكيف يكون اماما على المسلمين فان كثيرا من الناس رفضوا نصيحة العلماء ، واجتمعوا بسلاحهم مهددين من يقول بعكس رأيهم فخاف العلماء وقوع الفتنة ، ولما كان موقف العلماء يتعارض مع موقف العامة فانهم لم يتمكنوا من مبايعة مهنا بن سلطان علنا فجاءوا به وأدخلوه قلعة «الرستاق» بحضور جميع أهل الحل والعقد ونادوا به اماما حقيقيا عام ١٧١٩ وعلى الرغم من الكفاءة التى تميز بها مهنا بن سلطان فان عامة الناس قد رفضوا مبايعته واتسعت دائرة المعارضين بعد أن تزعمهم يعرب بن بلعرب الذى تعاظم نفوذه وأجبر مهنا على التنازل عن الامامة بعد أن حصل على أمان بسلامته ومن ومعه إلا أن يعرب بن بلعرب أمر بقتله ومن معه من عمومته واصحابه وشيعته [١٩]. إلا أن سكان «الرستاق» ظلوا يفضلون سيف بن سلطان مما اضطر الامام يعرب بن بلعرب إلى التنازل لم تمض فترة طويلة على اختيار سيف بن سلطان الثانى امام حتى بدأت عمان تواجه فترة من أصعب فتراتها شهدت خلالها من الانقسام ما يمكن أن تعده حقيقة بداية النهاية لدولة اليعاربة وفى أثناء هذا الصراع على الحكم وقع انقسام أنتج تكتلات قبيلة فظهر تكتل القبائل «الغافرية»

وتكتل القبائل «الهناوية» أدى هذا الانقسام إلى حروب أهلية عنيفة وقتل عدد كبير من زعماء الطائفتين ففضل سكان الالتفاف من جديد حول سيف بن سلطان الثانى ولكن ظهر له منافس جديد هو بلعرب بن حمير الذى بايعه علماء عمان وخلعوا سيف بن سلطان الثانى الذى انحرف عن النهج الاسلامى واتجه إلى ايران يطلب المعونة وكان خطأ فاحش لأن شاه إيران بذلك الوقت كان طموحا للتوسع والسيطرة على الشعوب المجاورة وتمكن نادر شاه من نقل قوات كبيرة إلى عمان ١٧٣٩ واحتلت «رأس الخيمة» و «خورفكان» واتجهت إلى مدينة «العين - البريمى» ثم وصلت إلى مدينة «نزوى» وقد ندم سيف بن سلطان الثانى على ذلك واكتشف أن الايرانيين لايعملون لمصلحته وتفاهم مع الامام بلعرب بن حمير وتم الاتفاق على أن يتنازل الأخير ولكن سيف بن سلطان الثانى عاد إلى سلوكه المخالف لنهج الاسلام مما تم خلعه من قبل علماء المسلمين فى عمان وتولية الامام سلطان بن مرشد وهنا طلب للمرة الثانية سيف بن سلطان الثانى مساعدة شاه ايران وللمرة الثانية احتلت ايران بعض مدن عمان ولم يوفى شاه ايران وعده لسيف بن سلطان الذى لم يعمر طويلا كما قتل منافسه الامام سلطان بن مرشد فى الحرب ضد الجيش الايرانى وخلا الميدان لأحمد بن سعيد حاكم «صحار» الذى سيؤسس اسرة حاكمة جديدة استمرت إلى يومنا هذا [٢٠].

٥- عمان فى عهد البوسعيد

ورثت هذه الأسرة دولة اليعاربة بامتدادها الخليجى الآسيوى والأفريقى وكان عليها أن تفهم التطور التاريخى ولعبة الأمم حتى تستطيع على الأقل الحفاظ على قواها الذاتية ، ولكن الاستعمار كان أقوى وافهم وأن أفراد من هذه الأسرة حاولوا أن يخلقوا من عمان دولة قوية تنافس الدول الاوربية فى المنطقة وهذا عكس مصالح هذه الدول كما أن بعضا من أفراد هذه الأسرة خضعوا للسيطرة الأجنبية وبالأخص بريطانيا ؛ لقد حاول بعضهم التصدى للسيطرة الأجنبية فى بادئ الأمر ولكنه لم ينجح ، أقوى الشخصيات فى هذه الأسرة ثلاثة أحمد بن سعيد المؤسس وسعيد بن سلطان الذى حاول أن يتفهم لعبة الأمم وفيصل بن تركى الذى حاول أن يجير التنافس الدولى لمصلحته ، ولكن ذهب ضحية هذا التنافس وفى عهد هذه الأسرة انقسمت عمان إلى ساحل وداخل ولو أن الانقسام الأول بدأ فى نهاية الدولة اليعاربة وبرز فى المجتمع العمانى تياران سياسيان لكل منهما نمط تفكيره وحتى نمط انتاجه المختلفان، فقد استقرت البرجوازية العمانية بالساحل بينما الاقطاع قبع بالداخل بل أكثر من

ذلك انفصل عمان السياسى عن عمان الطبيعى لقد كان عمان يشمل المنطقة التى تبدأ مو «ظفار» إلى «قطر» ولكن فى عهد هذه الأسرة حددت عمان من «ظفار» إلى «رؤوس الجبال» فى حين انفصل «ساحل عمان» عن عمان . وقد يرجع ذلك إلى طبيعة البلاد الجغرافية حيث سلسلة الجبال التى تحجز الداخل عن الساحل ووعورة الطرق اضافة إلى تناقض فى نمو الانتاج الاقتصادي فى حين أن الداخل يعتمد على الزراعة ويحكمه فكر شبيه بالفكر الاقطاعى المحافظ نجد أن الساحل يعتمد على التجارة ويحكمه فكر قريب إلى الفكر البرجوازى المعتدل ولعب المذهب الاباضى دورا ايجابيا فى وحدة عمان كما أنه لعب دورا سلبيا فى انفصال الساحل عن الداخل أى أن المذهب الواحد الاباضى الذى يعتنقه الشعب العمانى لم يكن مبررا حقيقيا لتشكيل الوحدة الوطنية فالعامل الاقتصادى له دورا مهما وحتى الوقت المعاصر كانت الغلبة للداخل ولم يكن الساحل إلا امتدادا بشريا واقتصاديا للداخل .

إن تاريخ عمان الحديث لايفهم إلا من خلال فهم الأمور الداخلية أنه صراع بين التطور والتخلف بين المعتدلين والمحافظين إذا جاز هذا التعبير بما يحمل هذا المفهوم من تداخلات اجتماعية وايديولوجية هى بمجموعاتها تعبير عن نمط معين من الاقتصاد الذى تمثل فى الاقطاع فى الداخل وبين بورجوازية المدن فى الساحل بين المجتمع البحرى فى الساحل وبين المجتمع القبلى فى الداخل (٢١). تغلف الاقطاع بمظهر الدين وكان يستمد قوته من كونه قيادة دينية اقطاعية قبلية . أما بورجوازية المدن كذلك كانت تستمد قوتها من الدين ولكنها بحكم تعاملها التجارى وانفتاحها البحرى تخضع الدين للعلاقات التجارية أو أنها تضفى مفهوما دينيا غير متعارض مع الأصل للعلاقات التجارية وكان النمط الاقتصادى للاثنين يخدم علاقات الجذاب وليس علاقات اشتقاق وخصوصا فى الوقت الذى كان به الساحل فى تشكيله البدائى عندما كان يمثل امتداد اقتصاديا وبشريا للداخل . أما بعد أن تطورت الأمور وأصبح بمقدور الساحل اقتصاديا أن ينفصل عن الداخل عندما قرر الانشقاق الاقتصادى وهذا ينطبق على ساحل الباطنة على خليج عمان وكذلك على ساحل عمان فى الخليج العربى وما يعرف «بدولة الامارات العربية المتحدة حاليا » أن الانشقاق هنا مفهوم اقتصادى ولم يكن انشقاقا سياسيا حيث كانت الوحدة السياسية دائما تظهر فى بعض الأحيان وتختفى لظروف التطور ؛ وتبعا لقوة الحاكم وضعفه بينما نجد الداخل الذى كان يقود عمان حتى الفترة المعاصرة المتأخرة فى الخمسينات بشكل قيادته السياسية ويساهم فى

اقتصادياته ويستثمر الساحل كممر للتبادل الاقتصادى وكامتداد للداخل الذى يعتمد على الاقطاع ضمن اقتصاد بدائى يمكن اعطاؤه صفة «الاكتفاء الذاتى» نجد الداخل يناضل دائما من أجل وحدة «عمان الطبيعة الكبرى» وقد رأينا فى العصر الاسلامى والحديث أن القيادة السياسية تشكل فى الداخل ولكنها لاتهمل الساحل وكم كانت حروب التحرير تنطلق من الداخل لتحرير الساحل سواء ضد البرتغاليين أو الايرانيين أو البريطانيين فيما بعد وكم من هجوم من الداخل على المدن الساحلية نراه فى فترات من أجل الانفتاح الاقتصادى ، التبادل بين الساحل والداخل هو عاملا اقتصاديا هو الذى جعل الاقطاع الدينى يحاول المرة تلو الأخرى السيطرة على الساحل أو على الأقل التفاهم مع بورجوازية المدن الساحلية من هنا كان مفهوم الانشقاق الذى تم فى عهد الامام سعيد بن أحمد كان انشقاق اقتصاديا أكثر منه سياسيا وأن الامام سعيد احتفظ بلقب الامامة وأن بعض العمانيين بمساعدة أبنه حمد حاولوا عزله ولكن بقاءه يحمل لقب «امام» متخذا من الرستاق عاصمة مع وجود ابنه حمد الذى لم يتخذ لقب امام ؛ بل اكتفى بلقب سيد يعطينا مدلولا اقتصاديا وليس سياسيا وأن حركة حمد هى بداية اخضاع اقتصاد عمان الداخل لاقتصاد عمان الساحل بالاضافة إلى ذلك بروز شخصية الحاكم التاجر وهذا ما نجده فى عهد سعيد بن سلطان .

ظل حمد بن سعيد يحكم الساحل متخذا من مسقط عاصمة له وظل والده الامام فى «الرستاق» مكتفيا بلقب امام وعندما توفى حمد عام ١٧٩٣ حاول الامام سعيد ارجاع سيطرته على الساحل ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بها طويلا أن عدم إدراك الامام سعيد لأهمية المجال الخارجى وانطوائه فى «الرستاق» اتاح الفرصة لأخيه سلطان أن يسيطر على مسقط والبلدان المجاورة لها وأصبح بذلك الحاكم الفعلى ، ومع هذا فلم يحول سلطان أن ينتزع الامامة من أخيه ولم يشأ أن يعقدها لنفسه وسار خلفاؤه من بعد ذلك النهج نفسه إذ لم يحاول أحد من الحكام «البوسعيد» أن يظفر بتأييد دينى لسلطتهم يصل إلى درجة الامامة وإنما قنعوا إلى الارتكاز على مالهم من هيبة وسمعة وإلى القوة العسكرية التى تدين لهم والاعتماد فيما بعد على التأييد الذى ظفروا به من جانب حلفائهم البريطانيين ، وبعدما استقروا فى مسقط وشغلوا أنفسهم بالشؤون التجارية ، فقدوا صلاتهم إلى حد كبير فى الداخل أى بالأرض التى تعد منشأ الامامة وقاعدتها واستمر سلطان بن أحمد يقوم بالحكم فى مسقط إلى جانب الامامة التى ظلت فى «الرستاق» حتى وفاة الامام سعيد ١٨٢١

وبمقتل سلطان بن أحمد تولى حكم عمان سعيد بن سلطان وذلك الشاب الذى خلف اباه وعمره سبعة عشرة عاما وحكم عمان نصف قرن وكان حمد بن سعيد ١٧٨٤ - ١٧٩٣ المؤسس الأول لدولة الساحل قد اتخذ من مسقط عاصمة له .

انتقال الحكم الفعلى من «الرستاق» فى الداخل على الساحل كانت خطوة مهمة لتحطيم الأمراء والعزلة التى حاول الامام سعيد بن أحمد أن يفرضها على عمان وأصبح لدولة الساحل منذ ذلك الوقت مجالا كبيرا فى علاقاتها مع الدول الأجنبية التى خرجت إلى بحار الشرق كما كان لهذا الانتقال تأثير كبير فى مجريات الأمور الداخلية ، وإن الحضارة الأوربية قد ساعدت فى نقل المجتمع العمانى كما فعلت كذلك فى مجتمعات الساحل المختلفة هذا النقل قد هز العادات والتقاليد الموروثة واصبح مجتمع الساحل مجتمعا جديدا فيه كثير من صفات المجتمع المنحل وأن قيام مسقط بشؤون الحكم ترك هوة فاصلة بينها وبين «الرستاق» أو بين الساحل والداخل أذ بقيت عمان الداخلية بعد تحول العاصمة إلى مسقط لاتكاد تشارك بأى نصيب فى الحكم ولكنها استمرت على عدم اعترافها بسيطرة حكام بوسعيد فى الساحل الذين كانوا فى عرف الاباضيين المتمسكين بمبادئ مذاهبهم خارجين عن تقاليد الامامة الاباضية الصحيحة ويبدو أن الفرصة لم تسنح لهؤلاء الاباضيين لعقد الامامة لرجل قوى فقد كان للفترات الحرجة التى مرت بها البلاد من غزوات وغارات «نجدية» أو محاولات حكام مسقط المتكررة السيطرة على قطاعات الداخل اثرها فى خلو مقعد الامامة عقب وفاة الامام سعيد عام ١٨٢١ وبقائه خاليا حتى مبايعته عزان بن قيس فى عام ١٨٦٨ [٢٢].

عمل سلطان بن أحمد على دعم سلطته مستفيدا من كل تجاربه الشخصية وأنه كان أحد الابناء الذين ثاروا على أبيهم الامام أحمد عام ١٧٨١ فأول ما فكر به سلطان القضاء على التناحر الأسرى داخل الأسرة البوسعيدية وجمعهم فى مدينة «بركة» عام ١٧٩٣ وعقد معهم اتفاقا بموجبه تم توزيع السلطات مما ساعد على تفتيت عمان فبقى الامام سعيد فى «الرستاق» وحصل قيس الابن الثالث لامام أحمد على «صحار» واحتفظ سلطان بمسقط كانت اتفاقية «بركا» العائلية دليلا على التغيرات التى ادخلها جيلان من حكم آل بوسعيد فقد بدأت السلطة تقسم وبدأ مركز الامام يدخل فى حيز العدم وأخذ سلطان بن أحمد يكرس حياته للشؤون التجارية فلا غرابة أن دبت الفرقة بين آل بوسعيد والقبائل التى تعيش داخل البلاد بعيدا عن الساحل وهكذا كان أكثر اعتماد حكام البوسعيد على الجنود المرتزقة وعلى

الخصوص «البلوشى» من ساحل «الجوادر» فى باكستان فى إيران ، وعلى الرغم من الاضطرابات السياسية التى عكرت صفو الأوضاع فقد انتعشت الحالة الاقتصادية فى عمان خاصة فى القسم الساحلى .

يعود الانتعاش إلى عدة عوامل منها نشاط الملاحين العمانيين الذين كانت أساطيلهم تجوب المحيط الهندى حتى شرق افريقيا والمساهمة الفعالة للطبقة التجارية العمانية حتى أصبحت مسقط المركز الأول للحركة التجارية فى الخليج العربى واحدة من أهم الموانئ على ساحل المحيط الهندى ونجاح حكام البوسعيد فى استغلال موارد الدولة لتنشيط الملاحة والتجارة فى الخليج العربى ودعمها كما كان عليهم أن يبحثوا عن موارد جديدة بعد أن اصبح من العسير عليهم الاعتماد على الموارد التقليدية الموجودة فى الداخل لعدم ثباتها من ناحية وعدم ضمان السيطرة عليها أو تحصيلها من ناحية أخرى فكان لسيطرة حكام مسقط على الموانئ البحرية وخصوصا منافذ الخليج العربى مثل «هرمز» و «البحرين» و «بندر عباس» أثر فى وجود موارد جديدة نتجت عن تحكمهم فى التجارة واستغل حكام مسقط الموقع الجغرافى لبلادهم فكانوا يفرضون رسوما جمركية على البضائع الأجنبية الواردة إلى عمان حين اعفيت الصادرات من الجمارك ففى عهد الامام أحمد بن سعيد كان دخل الجمارك حوالى مائة الف روبية . أما الضريبة فهى تختلف حسب الجنسية بينما كان الأوربى يدفع ٥٪ كان المسلمون يدفعون ٦,٥٪ ونجد اليهود « والبنيان» طائفة من الهنود يدفعون ٧٪ وحتى الامام نفسه كان يدفع ٦٪ وكانت القوة البحرية العمانية عام ١٧٦٥ تتكون من اربعة سفن كبيرة وثمانية سفن صغيرة وكانت السفن الكبيرة تخصص فى أوقات السلم للتجارة مع شرق افريقيا فى حين كانت السفن الصغيرة لحماية شواطئ عمان من الهجمات الخارجية وحراسة سواحلها [٢٣].

ازدهرت التجارة مع البصرة ازدهارا كبيرا فى عهد الامام أحمد بن سعيد حتى بلغ الاسطول التجارى فى عام ١٧٦٥ إلى خمسين سفينة تقوم برحلات سنوية إلى «البصرة» وكان بحارة مدينة «صور» مشهورين أساس بدورهم فى هذه الرحلة السنوية لنقل «البن» من اليمن إلى العراق عن طريق «مسقط» وكانت الصادرات التى تأتى إلى مسقط من داخل جزيرة العرب هى الصمغ وريش النعام والجلود وعسل النحل والماشية والاغنام أما الواردات فكانت التوابل الهندية والبهار والأرز والتبغ والبن والسكر إلى جانب الثياب البريطانية

والماشية والآلات وازدهرت أيضا التجارة العابرة «الترانزيت» فى مسقط حتى اغرقت اسواق الخليج العربى بالون السلع والبضائع .

يرجع اتساع الرقعة العمانية والاطلال إلى خارج حدود عمان السياسية والطبيعية فى عهد اليعاربة إلى الفكر الدينى أولا ثم المفهوم الاقتصادى ثانيا فى حين كان البوسعيد فى محاولة الاحتفاظ بشرق افريقيا هو أولا يحددهم الفكر الاقتصادى ثم الدينى وتقسم الفترة الزمنية إلى قسمين الأول من الامام أحمد بن سعيد ١٧٤٤ إلى سلطان بن سعيد ١٨٠٧ والقسم الثانى يبدأ بسعيد بن سلطان وينتهى بإنتهائه ١٨٥٦ فنصف قرن من حكمه يصلح وحده موضوعا متكاملا وأنه عندما تولى الامام أحمد بن سعيد الحكم فى عمان كان الذين يمثلون سلطة اليعاربة فى شرق افريقيا وخاصة فى «ممباسا» عائلة المزروعى التى ترجع اصولها إلى «حضرموت» وكان على رأسهم محمد بن عثمان المزروعى الحضرمى وكان من الطبيعى أن ترفض هذه الأسرة الاعتراف بسلطة الامام احمد بن سعيد على شرق افريقيا ولكنه كانسان طموح لم ينس شرق افريقيا الغنية بمواردها الاقتصادية وخصوصا تجارة «العاج» والرقيق والذهب ، وأدرك الامام أحمد ما يرمى إليه آل مزروع الحضرمى فى افريقيا من سياسة انفصالية تكون لها أثر سئ فى العلاقات التجارية بين مسقط والشرق الافريقى من هنا كان تفكيره الجدى فى اخضاع «ممباسا» وتأكيد سيطرته على تلك الممتلكات التى ورثها عن اسلافه اليعاربة وفعلا نجح فى ذلك ، وإذا ما واجهت سلطة آل بوسعيد الحركات الانفصالية فى الشرق الافريقى وعلى رأسها «ممباسا» فانه فى المقابل كانت المقاطعات الأخرى وعلى رأسها «زنجبار» قد استمرت على ولائها لسلطة البوسعيد واعترفت للدولة الجديدة إلا أن محاولة الانفصال من قبل المقاطعات لم تتوقف وكذلك محاولة البوسعيد السيطرة وارجاع هذه المقاطعات كذلك لم تتوقف إلى جاء سعيد بن سلطان الذى حسم هذه المشكلة بل أكثر من ذلك نقل عاصمته من «مسقط» إلى زنجبار عام ١٨٣٢ وتفرغ لتكوين دولة عمانية تضم عمان وشرق افريقيا(٢٤).

ثانيا : حضرموت وعدم الاستقرار السياسى ١٦٣٥-١٨١١

١- العمودى والسلطنة الكثيرية

توفى الشيخ عثمان بن احمد العمودى بعد حياة زاخرة بالكفاح والنضال فى حوالى عام ١٦١٤ تاركا لخلفائه من بعده مهمة المحافظة على الامارة التى اسسها والذى اراق من أجله الدماء وبذل الجهود الكبيرة فى سبيل الحفاظ عليها وكان الشيخ عثمان العمودى قد انحاز إلى امام الزيدية فى اليمن وكون بذلك جبهة سياسية تعارض سياسة «أبو الطويرق» الذى اعلن تبعية «حضرموت» للدولة العثمانية ، وأن خلفاء من العمودى ظلوا موالين لائمة اليمن مدة حكمهم السياسى فى «دوعن» حتى أن شيخهم عبد االله بن عبد الرحمن العمودى طالب فى عام ١٦٥٩ من الامام فى «صنعاء أن يعقد له ولاية رسمية على «دوعن» فاجابه الامام وكتب له بما طلب ، وعندما غزا امام الزيدية حضرموت عام ١٦٥٩ الامام المتوكل اسماعيل كان الشيخ العمودى هو الوحيد الذى ساعد هذه الحملة من «الحضارم» وانضم اليها بكل من اطاعه من القبائل .

استمر الخلاف على اشده بين العمودى وسلاطين آل كثير بحكم التنافس والسيطرة على القبائل الحضرمية وفى عام ١٧٠٣ اغار الشيخ محمد بن مطهر العمودى على بلدة «القزة» وكان كثير التعرض للمناطق الكثيرية فجمع السلطان عيسى بن بدر بن على الكثيرى جيشا لقتاله تحت قيادة ابنه الامير جعفر ولما رأى العمودى جيش السلطان تقهقر بعد أن نصب له كمينا ولكن الشيخ سعيد بن عبد الله باوزير تدخل فى الامر وقام صلحا بين الطرفين لمدة اربعة اشهر ، وفى عام ١٧١١ أغار الشيخ حسن بن مطهر على «الهجرين»فأقبل السلطان عمر بن جعفر الكثيرى على رأس جيشه ومعه مائتا مقاتل من اليافع فلقيهم العمودى ودار بينهم قتال كبير فانهزم العمودى وقتل من عسكره الكثير وقرر السلطان أن يتعقبه إلى «دوعن» لولا توسط الشيخ على بن سعيد باوزير وعقده صلحا بينهما [٢٥].

٢-السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى

تولى بدر بن عمر الكثيرى السلطنة عام ١٦١٤ بعد أخيه عبد الله بن عمر الذى خلع نفسه واعتزل السياسة وكان السلطان بدر بن عمر كثير الجود والسخاء يحب الخير وأهله ويكره الشر وأقام الشريعة الاسلامية فى حضرموت كما اقام محاكم عديدة وبنى عدة مساجد منها مسجد «الحصن» فى «سيؤن» ومسجد السلطان فى «تريم» ووقف عليها اموالا كثيرة كافية .

لم تكن تستقر الامور لسلطان بدر بن عمر فى السلطنة حتى تصدى له ابن أخيه بدر بن عبد الله بن عمر ولجأ إلى أئمة الزيود في اليمن وأخذ يكاتبهم ويستنجد بهم ، ومهما كانت اسباب الخلاف بينهما فان بدر بن عبد الله كان يرى فى نفسه القدرة والكفاءة لتصريف سياسة السلطنة وقد استغل علاقة عمه بدر بن عمر بامام اليمن فى تنفير آل كثير عنه وكذلك فى اثارة الرأى العام فى حضرموت الذى لايميل إلى الزيدية لاختلافهم معهم فى المذهب والعقيدة حيث سكان حضرموت «شوافع» وهكذا كانت سياسة بدر بن عبد الله ابعاد الزيدية عن التدخل فى شؤون السلطنة الكثيرية واستقلاله بحكم حضرموت وقد طفق منذ تولى عن السلطنة يجمع آل كثير و «الشنافر» ضد عمه ويهول لهم الأمر فى موالاته للزيدية سيسهل لهم الاستيلاء على حضرموت وساعده فى هذه السياسة جماعة من الاشراف العلويين من العلماء ورجال الدين ، وأن نحو اربعين من آل كثير وعشرة من مواليهم توجهوا إلى حصن «سيؤن» من بين المدعوين فى وليمة اقامها السلطان بمناسبة زواج بعض اقاربه ولما فتح لهم الباب دخلوا بعنف وفتكوا بمن قاومهم حتى دخلوا على بدر بن عمر فاستسلم بدون مقاومة وحاول ابنه محمد المردوف المقاومة فانتهزه ابوه وأمره بالاستسلام فقيدوهما معا تم ارسالهم مكبلين بالاغلال إلى حصن مريمة حيث سجنا هناك وذلك عام ١٦٤٨ ، علم الامام المتوكل اسماعيل بالقبض على بدر فأعتبر ذلك تحديا له وأهانة موجهة اليه وكتب إلى السلطان بدر بن عبدالله الكثيرى بأمره باطلاق سراح عمه فأجابه هذا برسالة عام ١٦٥٤ تضمن إجابة الامام إلى ما طلب من إطلاق سراح عمه والتنازل له عن ولاية «ظفار» وملحقاتها إلى آخر رسالته التى ملأها بعبارات التودد والإخلاص وإظهار الولاء والطاعة كما اعتذر بدر بن عبد الله للامام عن اعتقال عمه ولم يتردد فى اعلان الولاء والطاعة فى كل رسائله التي يبعثها للامام إذ لم تكن عنده القوة الكافية للجهر بآرائه السياسية فى ابعاد التدخل الزيدى عن شؤون حضرموت وقد كانت حكومة اليمن من جانبها تسعى جاهدة لربط حضرموت باليمن سياسيا واداريا وفيما يلى رسالة صريحة فى تمسك الامام بحقه فى الإشراف المباشر على شؤون السلطنة الكثيرية وحتى فى فرض الرجوع إلى مذاهب أهل البيت فى الأحكام والعقائد كأنه يريد العمل بالمذهب الزيدى بين سكان حضرموت «الشوافع» فقد جاء فى رسالته إلى السلطان بدر بن عبدالله بن عمر عام ١٦٥٦ ما يلى [٢٦].

«قد ارسلنا اليكم القاضى شرف الدين الحيمى لأخذ البيعة والعهد منكم وليساعدكم فى امور الاصلاح ونشر احكام الشرع ونصب النواب والحكام واحياء السنة ومحو آثار البدع والتذكير بحق الله ورسوله وحق أهل بيته المطهرين والالتجاء إلى أهل البيت فى الاحكام الشرعية والعقائد وأخذ ما امر الله بأخذه من نحو الصدقات والمظالم وصرف القدر الذى امرنا بعرفه فى مواضعه وايصال ما بقى الينا لنضعه حيث أمر الله » .

وصل القاضى الحيمى إلى «هين» فى نفس العام فلقى السلطان بدر بن عبد الله هناك وكان قد جاء إليها لقضاء مهام السلطنة فسلم إليه الرسالة والعهد ثم انتقل إلى «سيؤن» عاصمة السلطنة الكثيرية حيث قرأ القاضى الحيمى على الخاصة والأعيان عهد الامام المتوكل للسلطان بدر بن عبد الله وتحسنت العلاقات فى الظاهر بين الامام والسلطان بدر بن عبدالله بعد اطلاق سراح عمه وتوليته حكم «ظفار» وملحقاتها وتبودلت الهدايا والرسائل بينهما ، ولكن بعد أن تولى بدر بن عمر حكم «ظفار» حدث أن احتجز السلطان بدر بن عبدالله لنفسه مزرعة فى «ظفار» بحجة أنها كانت لأبيه فعد عمه ذلك تملكا به وتدخلا فيما فوض اليه من قبل الامام وعاد المتوكل اسماعيل يتدخل فى النزاع ويأمر بأن تكون «ظفار» خالصة لبدر بن عمر فينفذ امره ويكف السلطان بدر بن عبد الله عن التعرض للمزرعة ويكتب للامام رسالة جاء فيها :

«امرنا الخادم أن يتركها له وان كانت لنا لأن قصدنا جبره فى كل حال ولأن الحال واحد ولد ووالد وربما تتوهمون اننا نشاركه فى شئ من منافع ظفار حيث تعلمون أنا نسفر شيئا من المراكب اليها لأجل النوال ونشترى «اللبان» مثل الاجانب والآن إن رضى الوالد حفظه الله اننا نترك تعهد البندر بمراكبنا مثل الاجانب تركناه ابتغاء لما فيه رضاكم ورضاه» .

المعروف أن السلطان بدر بن عبدالله كان من أغنياء سلاطين آل كثير وكان يملك فى «ظفار» غابات من اللبان ومعامل واسعة لتصفيته وشحنه فى سفنه الخاصة لبيعه فى الثغور المجاورة وكان يملك فى حضرموت «نخيل تاربة» الذى يساوى عشرات الآلاف من الريالات والذى يدر عليه اموالا وافرة فكان من الطبيعى أن يترك استقلال عمه بشؤون ظفار اثرا سيئا فى نفسه يحمله على التخلص منه واستعادة هذه المنطقة الغنية وضمها إلى سلطنته التى تخضع له مباشرة لذلك اتفق السلطان بدر بن عبد الله مع اخيه جعفر على استرجاع «ظفار» بالقوة وطرد عمهما منها واحتالوا فى تنفيذ هذه الخطة بطريقة فيها كثير من الغش والخداع

فقد اوعز السلطان بدر بن عمر إلى أخيه جعفر ان يكتب إلى عمه بدر مظهرا له أنه سيسافر إلى الهند بطريق «ظفار» وانه سيقدم عليه مارا بطريق سماها له فخرج بدر بن عمر للقائه وكان قد ارتاب فى ما كتب إليه جعفر وصدق ظنه فان جعفرا قد سلك معه من جنود طريقا غير التى سماها لعمه وأسرع بهم إلى «ظفار» واستولى على الحصن وقتل ابن عمه وهكذا تم تنفيذ الخطة التى دبرت فى سيؤن عاصمة السلطنة الكثيرية ، ولم يكن بد للأمير المخدوع من الهرب بطريق البحر فقد سافر إلى منطقة «المهرة» ثم منها إلى «عدن» وواصل سفره إلي اليمن لمقابلة الامام والتحدث اليه بكل ما حصل من السلطان بدر بن عبدالله وأخيه جعفر فأحسن الامام استقباله وتلقاه الجند ونزل طيفا على الامام ومن ثم استطاع أن يوغر صدر الامام المتوكل اسماعيل بما افضى إليه من أحاديث تتعلق بابن أخيه بدر بن عبد الله واياديه الخفية فى محاولة التخلص من سيطرة الامام على السلطنة الكثيرية والحد من سلطته مهما كانت اسمية ورمزية ولم يتردد الامام المتوكل اسماعيل فى صحة الانباء التى افضى بها اليه الامير المطرود فكتب إلى السلطان بدر بن عبد الله يستفسر عن الاسباب التى حملته على الاقدام علي تدبير الحيلة المكشوفة للاستيلاء على «ظفار» والاستهانة بأوامر البيت الهاشمى فى اليمن فرد عليه السلطان بدر بن عبدالله كعادته فى المراوغة يتنصل من تبعة حادثة «ظفار» ويلقى مسؤليتها على أخيه جعفر وقال إنه لم يكن على علم بما حدث وتبودلت بينه وبين الامام عدة رسائل لم تؤثر فى جلاء الموقف واقناع الامام . وفى عام ١٦٥٨ ارسل السلطان بدر بن عبدالله رسالة إلى «الصفى احمد» احد كبار رجال الدولة من الزيود الهاشميين لاتخرج فى معناها واسلوبها عن الرسائل التى كان يبعثها إلى الامام المتوكل اسماعيل وكان «الصفى احمد» قبل ذلك طامعًا فى انقياد السلطان بدر ولكنه يئس منه اخيرا وقال بعد قراءته الرسالة : قد غشنا بانتظارنا لهذه المكاتبة التى هى خديعة لامحاولة ثم التفت «الصفى احمد» إلى رسول السلطان بدر وقد سلمه ردا على الرسالة قائلا : قل للسلطان هذا كتابى وبعده ركابى وسيفى هذا واراه السيف وبهذا الانذار النهائى انتهت المفاوضات الكتابية وتحرجت الحالة واصبح الطرفان فى حالة حرب ، ولم يكن بد من استعمال القوة لحل ما عجزت المفاوضات والمكاتبات عن حله فأصدر الامام المتوكل امره بالتعبئة العامة ودعوة السكان إلى الحرب فى اليمن واسند القيادة العامة للجيش إلى «الصفى احمد بن حسن» احد كبار رجال الدولة الزيدية [٢٧].

تحرك «الصفى احمد» بمن حضر معه من الجند فى عام ١٦٥٨ ولم يكن يصل إلى موضع «المربك» من اعمال «جبل اللوز» حتى اجتمع اليه من الجنود الفان ومن الخيل مائة وامده الامام بادلاء خبراء يهدونه الطريق إلى حضرموت ثم واصل سيره إلى المناطق التى يوجد بها كثير من القبائل الراغبة فى الالتحاق بالجيش فكان كلما مر بقبيلة انضم إليه عدد من رجالها من القبائل فانضم إليه رجال «خولان» واشراف «الجوف» ومشايخها وقبائل «المعظمة» و «عبيدة» وغيرهم وكان الامام المتوكل اسماعيل يواصل امداد الصفى احمد بالمال والرجال فيلحقون به اثناء الطريق فقد جهزا ابنه محمد فى نحو ثلاثة آلاف يتسلح أكثرهم بالبنادق وبينهم ما يقرب من مائة وخمسين فارسا ، وارسل إليه من «رداع» نحوا من خمسين فارسا واربعمائة راجل ومن اصحاب الامير على بن المؤيد ومن «كوكبان» عسكرا وخيلا كثيرا وكذلك من اصحاب محمد بن الحسين زهاء الف جندى ومن «الحيمة» اكثر من الف جندى أيضا وضم إلى الحملة العلامة احمد بن الهادى وشرف الدين بن مطهر وغيرهم من السادة اضافة إلى السلطان بدر بن عمر الكثيرى وأولاده وكانت الامدادات تصل إلى القائد «الصفى احمد» متقاطرة وهو يواصل سيره فى طريقه إلى «حضرموت» وكانت آخر هذه الامدادات قد وصلت إليه وهو فى منطقة «العوالق» ومن هناك استأنف سيره بعدما رضى عن كثرة ووفرة عدده وكامل عدته بعد ما قطع الجيش المسافة إلى حضرموت فى نحو عشرة اشهر بدأ يواجه المصاعب والمشقات واصبح يمر بمناطق لايوجد فيها ما يلزم لتموين الجيش ودوابه من ماء وغذاء واضطر هذا الجيش أن يحفر فى بعض الطرق التى يمر بها آبار بلغ خمسمائة قدم لسد حاجة الجيش إلى الماء وكان الخطر الأكبر الذى تعرض له الجيش عندما كان يمر بجبل «السوط» بعد ما ارتحل من «ميفعة» قادما إليها من بلاد «العوالق» وبلاد «الواحدى» فقد نفذ ما كان مع الجيش من زاد وهلكت الجمال ووقع الجيش فى مجاعة ولكن الشيخ العمودى حاكم «دوعن» وصديق «الزيدية» قدم مساعدته عندما رأى ما فيه الجيش من شدة وأمر القبائل التابعة له بجلب كل ما يستطيعون لتموين الجند فأتوهم بالطعام من الحبوب والسمن واللبن والمواشى واضافهم الشيخ العمودى بثمانمائة جمل وعدد كبير من البقر والغنم وكما تعرض الجيش لأخطار الجوع وقلة الماء وصعوبة الطريق كانت بعض القبائل الموالية للسلطنة الكثيرية فى الحدود الغربية لحضرموت تشاغب الجيش اليمنى وتفتك برجاله كلما وجدت إلى ذلك سبيلا ، فى الوقت الذى كان الجيش يزحف إلى حضرموت كانت رسل الامام تفاوض السلطان بدر بن عبد الله وتطالب بأن ينفذ ما تعهد به من ارسال حملة إلى

«ظفار» لتأديب أخيه جعفر واسترداد «ظفار» منه والقبض عليه أو طرده فيعتذر السلطان بدر بأنه لايقبل أحد من آل كثير الاشتراك فى هذه الحملة بحجة أنهم لايستطيعون أن يغادروا بلادهم لذلك فهو يقترح أولا ايقاف الزحف وأن يعود الجنود إلى اليمن على أن يتكفل هو بدفع جميع النفقات التى استهلكها الجيش ولكن امام اليمن يصر على استرداد «ظفار» والقبض على الامير جعفر فتفشل المفاوضات وتعود رسل الامام بهذه النتيجة .

أيقن السلطان بدر بن عبدالله بأن جيوش الزيود ستكتسح بلاده فاستشار خاصته وذوى الرأى من «الاشراف العلويين» فأشار عليه البعض بالتسليم وعدم المقاومة وحثه الكثيرون على قتال الزيدية ففضل الرأى الأخير وعسكر جيش امام اليمن فى «وادى حضرموت» بالقرب من «الهجرين» وجرت المعركة الفاصلة في عام ١٦٥٩ وزحف الجيشان حتى كادت خيل السلطان بدر بن عبد الله تلتقى بمقدمة جيش الصفى احمد واحتدم الصراع وكان جيش الامام من القوة والكثرة بحيث لايمكن المقارنة بينه وبين جيش السلطان بدر بن عبدالله ومرت بالجيشين أوقات رهيبة كان الصراع فيها على أشده وشعر جنود السلطان الكثيرين بضعفهم امام الجيش المهاجم الكثيف فاضطروا إلى التقهقر وتبعهم جيش امام اليمن يتحشن فى القتل ويأسر من قدر عليه ولجا السلطان فى جماعة من اصحابه إلى «هيف» فتقدم الصفى احمد اليها وجاء رسول من السلطان الكثيرى يطلب فيه الامان ولكنه رفض وحاصر قلعة «هيني» ولكن السلطان بدر فر منها إلى وادى «جعيمة» بالقرب من «شبام» قد خلتها جنود الامام بعد أن غادرها السلطان الكثيرى فاستولت على جميع ما فيها من المؤن والذخائر والخزائن ثم سار الصفى احمد إلى «شبام» وطلب سكانها الامام فأمنهم وأقام فيها فقدمت عليه وفود من «تريم» و «سيؤن» و«عينات» و «مريمة» وتريبس» و «الغرفة» وسائر آل كثير فارسل إلى حصون هذه المدن وغيرها من يتسلمها ويحكمها باسم امام اليمن ثم غادر الصفى أحمد «شبام» متجها إلى «سيؤن» عاصمة السلطنة الكثيرية وهناك جاءته رسل السلطان مرة أخرى بطلب الأمان فأمنه على نفسه وولده وأهل بيته وقدم عليه السلطان بدر نفسه فأمن استقباله وبالغ فى إكرامه وجهزه إلى اليمن لمقابلة الامام بناء على طلب السلطان بدر بن عبد الله واصطحبه بسبعين من الجنود وعشرين فارسا فلما وصل إلى اليمن انزله الامام فى دارخاصة به هيأها له وأجرى عليه وعلى اصحابه النفقات الواسعة وأهداه خيلا وخلعا ونقودا كثيرة وقد اقام هناك حتي اشتاق إلى حضرموت فأستاذنه فى العودة إلى «سيؤن» فاذن له

فأقام بها إلى أن مات عام ١٦٦٤ . وبعد أن تم للصفى احمد الاستيلاء على داخل حضرموت ارسل حملة للاستيلاء على «الشحر» أهم مدن الساحل وارسل معه الأمير على بن بدر بن عمر ليكون حاكما عليها من قبل أبيه السلطان بدر بن عمر الذى أمر الامام المتوكل باعادة السلطنة اليه، ويصف الصفى أحمد فى غزوة حضرموت بقوله : إن وادى حضرموت واد عجيب واسع طويل كله عمارات ونخيل ومزارع تتصل من شبام إلى «المسقلة» وهى حد «المهرة» ثم ذكر «شبام» فقال عنها أنها مدينة كبيرة وفيها جامع وحولها نخيل واسع وانهار ومزارع أكثرها لآل كثير أما عن سيؤن «فقال أنها مدينة عظيمة وفيها جامع ومساجد وعليهن أوقاف .

٣- بدر بن عمر الكثيرى يستعيد سلطنته

انتهت مهمة الصفى احمد فى حضرموت باستيلاء جيوشه لجميع المناطق التى كانت تخضع للسلطان بدر بن عبد الله وتسليمه شؤون السلطنة إلى السلطان بدر بن عمر الكثيرى تنفيذا لأمر الامام واعتقال كل من اشتبه فيه أو يعارض أوامر الامام ثم أعد عدته للعودة إلى اليمن بعد أن وزع العمال فى المدن الحضرمية ونصب القضاة وجمع الزكاة وحرم كل مالا يقره مذهب الزيدية أما «ظفار» فلم يتمكن الصفى أحمد من المسير إليها وأن صاحب النعمان ارسل حملة بقيادة عامر بن أحمد الذى طرد جعفر واستولى على «ظفار» وكتب إلى الصفى احمد وأظهر له الطاعة فاكتفى بذلك واقرهم على ظفاروتحرك الجيش اليمنى عائدا إلى بلاده وتسلم السلطان بدر بن عمر شئون سلطنته فمضى فيها كعادته فى حب الخير وبسط العمل والولاء لأئمة الزيود ثم بعد سنتين لأداء فريضة الحج وزيارة المدينة المنورة فتوفى فيها عام ١٦٦٢ فأمر الامام بأن يخلفه فى السلطنة ابنه محمد المردوف فتولاها إلى أن مات عام ١٦٦٩ وكان محمد هذا حازما صارما شديد الوطأة على العشائر المتسلحة وقد عمل بطشه وتنكيله «بالشنافر» من آل كثيرأقل حد وأدنى سبيل لقيامهم مع السلطان بدر بن عبد الله ضد ابيه واضعف ما لديهم من شوكة حتى الحقهم بمستوى العزل من السلاح ، فى أوائل القرن الثامن عشر كان الناس فى حضرموت منقسمين إلى قسمين فريق يجنح إلى الزيدية ويفضل سلطة الأئمة وهم اتباع آل على بن عبدالله بن عمر وفريق يؤيد سلطة «الشوافع» من «يافع» التي تعضد السلطان بدر بن محمد المردوف ويعقدها وكان بدر هذا شاعرا يضعف مركزه امام التيارات المتعاكسة فى سلطنته ولم تبق لديه غير قوة الجنود من

«يافع» التى اصبح هو نفسه تحت سيطرتها وانتفضت البلاد كلها عليه وعارضه كثير من بنى عمه فرأى أن يستزيد الجنود اليافعين ليستعين بهم فى حفظ مركزه المتزعزع فذهب إلى يافع وقدم بستة آلاف مقاتل منهم واستولى بهم على جميع حضرموت عام ١٧٠٥ ولكن هؤلاء الجنود الذين استقدموا لتعزيز الدولة الكثيرية وتعضيدها وجدوا الفرصة سانحة والظروف مهيأة للتغلب على الحكم فى البلاد وزحزحة الدولة الكثيرية عن مراكزها فى داخل حضرموت وساحلها واشتدت الخصومة عام ١٧٠٧ بين آل بدر بن عمر برأسهم السلطان بدر بن محمد المردوف وبين آل عبد الله بن عمر برئاسة السلطان عمر بن جعفر وكان هذا حاقدا على يافع لتدخلهم فى شؤون الكثيرية فحاول عدة محاولات لإيقاف التدخل اليافعى عند حد فلم يستطع واضطر أخيرا إلى السفر من حضرموت يائسا حيث عاش وتوفى بمسقط فى عمان(٢٨).

ولم تطل حياة بالسلطنة الكثيرية بعده قد قضى عليها تماما واختفت من الوجود فى عهد ابنه جعفر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر واصبحت حضرموت فى يد عشائر يافع الذين كونوا لهم سلطات متعددة فى كثير من مدن وقرى الساحل والداخل وفى الوقت نفسه كان لغير يافع من القبائل «والإشراف العلويين» والمشايخ نفوذ داخل مناطقهم التى يسكنونها.

٤- الدور القبلى فى حضرموت

(أ) قبائل حضرموت

دخلت حضرموت بعد ذلك فى الدور الظاهرة القبلية الفوضية فلا دولة راسخة ولاسلطنة مستقرة فيه وكان للقبائل فى الامارة الماضية سلطة قوية ويصدر عنها الظلم والقشم ولكن السلاطين الأقوياء إذ ذاك يقومون باخضاعها وتأديبها وكبح جماحها فى أكثر الحالات والمواقف عكس ما يجرى فى هذا الدور من استفحال السلطة القبلية واملاء إرادتها كما تشاء على من تشاء مما لم يسبق له نظير فقد استرسلت فيه القبائل المسلحة فى الحروب والفوضى «كالشنافر» ومنهم «آل كثير» والقبائل «اليافعية» و «النهدية » و «التميمية» و «العمودية» وغيرها من القبائل الحضرمية وكذلك القبائل البدوية ومنهم قبائل «الحموم» و «الصيعر» و «العوامر» و «المناهيل» و «المهرة» و «سيبان» وغيرها وفيما يلى بعض هذه القبائل :

١- قبيلة «بنى ظنة»

تعتبر عصبة «بنى ظنة» من العصب القديمة ما قبل الاسلام الموجودة بحضرموت وأن اقدم قبيلة نشأت من هذه العصبة «آل تميم» وهذه سكنت فى وادى «المسيلة» أسفل حضرموت بين «ياعلال» و «دمون» و «سناء» ورئاسة القبيلة بالوراثة لابن يمانى الذى يقطن فى «قسم» وله الزعاة على «بنى ظنة» وفيما يلى بعض فروعها (١) «آ تميم» : وتفرع منهم «المعامة»- «روح» وبعض افرادها تحولت من البداوة إلى الاستقرار والحضر وأخذ افرادها يهاجرون بكثرة إلى شرق افريقيا وخاصة «ممباسا» وكذلك إلى الشمال واستقروا فى اعداد كبيرة فى «نجد» وخاصة بعد الحرب التى استمرت بينهم وبين «المناهيل» وتتألف قبيلة «آل تميم» من الاقسام التالية : «آل بن يمانى» «آل بن قفلة» «آل عثمان» «آل عبد الشيخ» «آل سعيد» «آل جعفر» «آل سلمة» «آل شملان» «آل سعد» «آل مرسان «آل القرامضة» «آل هند» «آل شيبان» «آل محمد» «آل قعيد» «آل عودة» «المعارة» وكان «المعاريون» فى الأصل يعيشون بين القبيلة التى انحدروا منها وهى نفس قبيلة «آل تميم» بوادى «المسيلة» ولكن معظم «المعاريون» رحل إلى «نجد» .

٢- «السينان»

وتفرع منهم «المناهيل» «السماحين» «البواقى» «نعين» ، «المناهيل» هى إحدى القبائل الأكثر انتشارا وتقطن منطقة تمتد ما بين الصحراء الشمالية فى الربع الخالى فى منطقة «ثمود» حتى الساحل فى المنطقة الشرقية بين «المصنعة» و «ريدة بن عبد الودو» ومنهم الشبه المرحل وهؤلاء فى الجبال والساحل وهم بالصحراء الربع الخالى ولم تتخذ لها مقرا أو نخلا أو أراضى وهى فى الغالب مشهورة بتربية الجمال الجيدة ورحل بعضهم إلى «عمان» و «أبوظبى» والمنطقة الجنوبية من «نجد» أما «السماحين» فهم أقرب إلى المناهيل من حيث العلاقة وذلك بحكم معيشتهم فى «وادى» شرخاوى» فى وسط «المناهيل» من الناحية الجنوبية و «الحموم» وهذا الوادى ينتهى طرفه «بحر العرب» بالقرب من المضيعة» .

٣- قبيلة الصيحر

تنحدر هذه القبيلة من «كندة» ويتكون مجموعها من قبائل مستقرة وقبائل رحل تسكن فى المنطقة المسماة «بريدة الصيحر» و «وادى سر» والمرتفعات الشمالية والصحارى فى الربع

الخالى وما بين «الريان» غربى العبر و «وادي حزره» يعتمد افرادها فى معيشتهم على الزراعة المطرية وتربية الجمال والماشية يهاجر البعض منهم إلى الخارج وسوقهم التقليدية فى «شبام» ، تنقسم القبيلة إلى قسمين رئيسين هما آل محمد بليث وآل على بليث مع الاقسام القاطنة فى أسفل «وادى دوعن» وهم آل قصير وآل محفوظ ومن فرع آل محمد هم «الكسالين» ومنهم «بن لفخ» «بن الصالب» «المزاريع» ومنهم من هاجر إلى شرق افريقيا وعمان .

٤- قبيلة نهد

تعتبر القبيلة من أقدم القبائل التى نزحت إلى حضرموت بعد غزوات «آل كثير» وأنها نزحت من اليمن بمفازة المحمية الغربية وبلاد الواحدى وتتألف من قبائل مستقرة وقليل منهم بادية رحل تعيش فى الصحراء وتقطن المستقرة المنطقة التى تبدأ من غربى القطن وتنتهى بأسفل وادى «دوعن» و «هنين» ويسكن افراد منهم منطقة عياد فى «الواحدى» (المرادعة». يعتمد الأفراد فى معيشتهم على التجارة والزراعة والهجرة إلى الخارج .

٥- قبيلة الدين

تتألف هذه العصبة من ثلاثة أصول «كندة» و «حمير» و «اجاردة» ومن وقت ما كانت تربطهم اواصر قربى بالمصاهرة ، يقطنون فى المنطقة المسماة «ريدة الدين» من المرتفعات بين «وادى عمد » و «وادى دوعن» يعتمدون فى معيشتهم على النخيل الذين يمتلكونه فى «وادى حجر» والزراعة المطرية وقبل سقوط السلطنة الاسلامية فى الهند «حيدر آباد» كان يوجد منهم عدد فى جندية نظام «حيدر آباد» .

٦- قبيلة آل ذييب

يتألف القسم الخاص «بذييب» سعد من قسم من «النعمان» و «بلعبيد» وتسكن هذه الأقسام فى مرتفعات «وادى رخية» و «عرما» و «دهر» و «العبر» و «شبوة» وتتألف من قبائل مستقرة وبادية تعيش فى رملة السبعتين «بين عاكر» و «شبوة» ويعتمدون على الزراعة المطرية والبقول وتربية الجمال والأغنام مع قلة تتاجر بالملح ومن فروعها «آل باجيان» «الكرب» «العسمان» .

٧- قبيلة العوابثة

يوجد فى هذه القبيلة افراد البادية والمستقرون وهم يعيشون فى «وادى العين» و «شحير» وهاجر قسم مستقل بنفسه بالقرب من «الغيضة» فى «المهرة» «آل عويثان» والعرابثة قبيلة قديمة ورد ذكرها فى تاريخ حضرموت منذ مئات السنين مستقرة فى وادى العين«وذلك» حينما احاطت بهم قبائل «نهد» و «سيبان» ويتألف من قسمين « آل بازار» و «آل باعنس» وهاجر بعضهم إلى شرق افريقيا ، وهم يملكون نخيلا فى «ساه» و «غيل عمر» فى «وادى عدم» ويعمل البعض منهم جمالة وقد تفرع «آل بازار» فخيذة «آل مجشر» ومن «آل باعنس» «فخيذة «آل ذياب» .

٨- قبيلة بنى مرة

وتنقسم إلى آل «باجبيع» و «آل حريز» قطنت الأولى فى «وادى عمد» والثانية فى «وادى سر» بالقرب من شبام وهاجرت اعداد كبيرة منهم إلى سلطنة «حيدر آباد » الاسلامية كما هاجر قبائل «المرة» إلى «حرض» إلى الجنوب الشرقى من «نجد» وفى الاحساء ويتفرع «آل باجبيع» إلى فرعين وهما الأول : «الجعدة» ومنهم «آل عبد الله بن احمد » ، «آل سليمان بن احمد » «آل بنى عامر» «آل سالمة» «آل هلابى» «آل حميد» . الثانى : «آل محمد بن احمد» ومنهم : « آل شملان» «آل لحدر» «آل الشعبة» «آل صقرة» «آل عبد الله بن عمر «آل ابن أحمد» «آل كشميم» «آل عمر بن محمد» .

٩- قبيلة بنى هلال

ينقسم «بنو هلال» الموجودين فى حضرموت إلى اربعة اقسام رئيسية وتوزعت هذه الأقسام بين المنطقة الشرقية والغربية فالقسمان الموجودان بالغربية هما «آل خليفة» ويسكنون فى حاضنة «آل خليفة» و «النسيبون» يسكنون» وادى «مرخا» أما القسمان» اللذان يقطنان فى المنطقة الشرقية من حضرموت هما «النمارة» ويسكنون فى «وادى جردان» و «آل ماضى» بوادى عمد وهم أصلا من «جردان» و «آل ماضى» ينقسمون إلى فروع هى «آل بن سويدان» «آل لمين» «آل مرعى» «آل يسلم» .

١٠- قبيلة الشنافرة

يسود الاعتقاد أن هذه العصبة انحدرت اصلا من «بنى ظنة» وأنها تمتد فى المنطقة الواسعة من «حضرموت» إلى «ظفار» ومن أهم فروعهم «آل على بن كثير» و «الرواشد» و «العوامر» يقطنون فى الشمال الشرقى من حضرموت ويتجولون فى انحاء الربع الخالى والمناطق الواقعة على مقربة منها مثل «عمان» و «أبو ظبى» و «نجد» ، ويقطن هؤلاء الشنافرة «المستقرون» فى المنطقة» الواقعة بين «شبام» و «سيؤون» و «وادى بن على» «بور» «تاربة» رسب» «وادى عدم» «نجد العوامر» ومنهم جزء كقبائل مستقرة وجزء بادية رحل فى المرتفاعت الشمالية من حضرموت التى تمتد إلى الطرف الجنوبى من «ريدة الصيعر» وما بين «بئر تيس» «وادى حريضة» وقد رحل بعض «العوامر» إلى غمان فى منطقة «النزوى» كما استقر بعضهم فى منطقة «ليوا» و «كدن» و «ختم» و «الوجن» و «العين» فى أبوظبى اضافة إلى البعض الآخر هاجر إلى «نجد» وفيما يلى اقسام «الشنافر» أولا : آل كثير : ويتفرعون إلى «آل عمر» - «آل عامر» - «آل عون» - «آل فلهوم» - «آل جعفر بن طالب» - «آل مرعى بن طالب» - «آل عون» «آل الصقير» «آل متيبارى» «آل جعفر بن بدر» «آل شملان «آل سعيد» ثانيا : - آل جابر : «آل يمانى» - «آل عامر» - «بيت الهوطلى» - «بيت حميدان» - «بيت جريدم» - «بيت بن قطيان» وهؤلاء جميعا يسكنون فى منطقة «رسب» . ثالثا : - العوامر : آل كليلة «آل تبيع» - «الكسابيب» - «آل عبد الباقى » - «الحطاطبة» هؤلاء جميعا يسكنون فى منطقة «تاربة» و «نجد العوامر» ، أما «آل هادى» «آل ابراهيم» يسكنون «بوادى الذهب» غرب «تريم» وأما «آل دعيل » و «آل جعفر» يسكنون ما بين «تحيس» و «حرضة» (٢٩).

١١- قبيلة المهرة

ينقسم «المهرة» إلى قسمين رئيسين وهما «الشراوج» و «صار» وتفرع من الآخر بيت «شحشحى» ويعتمد قبائل المهرة فى معيشتهم على البحر وهم سكان الساحل أما سكان البادية فيعتمدون على الزراعة المطرية كما توجد بينهم قبائل رحل فى الصحراء وهم غير مستقرين .

(ب) المشايخ فى حضرموت

ليس المقصود هنا المشايخ الذين يعيشون بصورة عامة فى المدن ، وإنما الذين استوطنوا فى المواطن العشائرية والقبلية ومناطق حملة السلاح وهم (١) **آل باعباد** : هم من اعرق القبائل ويعيشون فى الغالب بين «الحموم» ويعرفون بمشايخ «الحموم» إنما اصلهم من مدينة «الغرقة» بالقرب من «سيؤن» (٢) **آل شعيب** : قسم صغير يعيش بالقرب من «ريدة الجوهبين» (٣)**آل العمودى** : وهم قسمان «آل باطوق» و «آل عبد العزيز» افراد هذه القبيلة فى بضعة» و «الخريبة» و «ريدة الدين» و «ووادى حجر» والصحراء الغربية ويقال أن نسب القبيلة يرجع إلى سيبان» قبيلة «المحمدين» (٤) **آل بريك** : تعتبر اقدم قبيلة كانوا يعيشون فى «الكسر» ثم انتقلوا إلى «حريضة» مع «السادة آل العطاس» سكان البلاد ثم رحلوا إلى الناحية الغربية وتفرعوا إلى «غيمسان» فى «شبوة» «آل احمد» بحنكة بادخن» «آل سنديان» فى حصن سنديان «بعرما» «آل عبد القادر» فى المطارح بوادى «دهر» «آل سيبان» «بالعبر» (٥) **آل ربيع** : بادية رحل تعيش بين اليمن و «بيحان» و «العوالق» العليا وحضرموت (٦) **آل باراس** :يسكنون فى «وادى حجر» كما يوجد منهم فى «الخريبة» «دوعن» وحيرة باراس» (٧) **آل باوزير** : من القبائل القديمة بحضرموت عاشت فى «وادى العين» - وفى «وادى عمد» و «ساه» و «عدم» و «غيل باوزير» وغالبا ما تسند مسؤلية تصريف المياه فى «غيل عمر» و «غيل باوزير» و «الخربة» إليهم ويعرف عنهم أنهم ذووا مقدرة فى تصريف المياه ومن اقسامهم المشهورة أيضًا «بامخرمة» (٨) **آل اسحاق** : من القبائل القديمة بحضرموت تقطن فى « هنين» و «الحجر» و «ريدة الصيعر» و «وادى عمد» ويعتبرون المستشارون دائما لقبائل «الصيعر» (٩) **آل بامعبد**: هم فرع من «آل بفلح» من القبائل القديمة يسكن افرادها فى «رضوم» - «الجويرى» - «عين بامعبد» و «يبعث» كما أنهم مشايخ على جزء من «آل ذيبب» الحميرين [٣٠].

(جـ) الأشراف العلويون

ليس المقصود هنا السادة من الأشراف العلويين الذين يعيشون حياة الاستقرار بصورة عامة فى المدن ، وإنما الذين استوطنوا فى المواطن العشائرية والقبلية ومناطق حملة السلاح وهم يرجعون فى نسبهم إلى جدهم الامام احمد بن عيسى النقيب حفيد الامام جعفر الصادق حيث كان الامام احمد بن عيسى قد هاجر من يالبصرة» واستقر فى حضرموت وهم : (١) آل

مولى الدويلة : وهم «بيت زين» - «وبيت قطبان» و «بيت حسين» - هذه القبيلة مرجعها إلى «آل الحبشى» وهم يسكنون مناطق «آل تميم» بوادى المسيلة «وغيل بن يمين» كما أنهم أزالوا العداء الذى استحكم بينهم وبين «بنى ظنة» و «الحموم» (٢) آل الشيخ أبى بكر : هؤلاء يتوارثون سلطاتهم كمناصب على يافع العليا فى المنطقة الغربية ، واستوطنوا «عينات» فى «وادى المسيلة» كما أنه يوجد منهم قسم بادية فيى «الخون» ومنطقة «وادى عمد» و «يبعث» و «الغيضة» ومنهم مستقرون فى وادى بن «على» و «ساه» ، وآل الشيخ أبى بكر منتشرون فى اماكن أخرى كحملة سلاح وخاصة آل حامد وفى «المهرة» منهم عدد غير قليل حملة سلاح ، كما يسكنون «آل المحضار» و «آل الحامد» مقاطعة «الواحدى» إلى جانب الجنيدى و «آل البغدادى» و «آل فدعق» وهناك أيضا من السادة حملة السلاح كسادة حجر من «آل الشاطرى» و «آل البيتى» (٣) بيت حمودة : استوطنوا غيل بن يمين «ونواحيها وهم يعرفون بسادة «الحموم» وقديما كانوا يدخلون فى أى حرب أو مهادنة تقع بين «الحموم» وغيرهم وهم السادة الأشراف من حملة السلاح (٤) آل العطاس : بينما استقر هؤلاء فى «حريضة» يوجد منهم قسم بادية فى «وادى حجر» يحملون السلاح كما يوجد قسم فى رضوم «الواحدى» (٥) آل بن حيدر : انحدروا من «آل الحامد» يسكنون وادى جردان (٦) آل السقاف : يسكنون فى «غيل بن يمين» يشتركون فى حل القضايا المحلية مع مقادمة «الحموم» يتولون الاشراف على الأوقاف . (٧) آل العيدروس : يسكنون فى «البور» و«الريضة» و «الحزم» و «التاربة» يشتركون فى حل القضايا المحلية مع «العوامر» ويتولون الإشراف على الأوقاف (٨) آل مديحج : يسكنون فى «غيل بن يمين» و «ريدة المعارة» يتولون القضاة الشرعى واثبات الأهلة والتعليم وكتابة الوثائق الشرعية بين البوادى وامامة المساجد(٣١).

٥- المجتمع الحضرمى

يشبه المجتمع الحضرمى سائر المجتمع فى الجزيرة العربية ويتكون من مختلف الطبقات الاجتماعية من قطاع القبائل المسلحة وقطاع السادة الاشراف العلويين والمشايخ وقطاع العمال والفلاحين والصيادين ولعبة أرض حضرموت الجبلية ، والصحراوية دورا فى تركيب طبقات هذا المجتمع فحمل طبقة المسلحين اسم القبائل والقبيلة فى حضرموت معروفة منذ القدم وهى معتزة بقبيلتها متحملة لمسئوليتها فى حماية افراد قبيلتها وحرم بلدها من الاعتداء الخارجى

وتنحدر قبائل حضرموت من أصول القبائل الآتية وهى (١) قبيلة حضرموت (٢) قبيلة كندة (٣) قبيلة قضاعة (٥) قبيلة بنى عوف (٦) قبيلة خيثمة (٧) قبيلة العدنانيين ومنهم الاشراف السادة من العلويين وقد ورد على حضرموت بعض القبائل الساكنة فى البلاد المجاورة مثل «نهد» و «حارثة» واصلهما من «همدان» فى اليمن كما هاجر من حضرموت اعداد كبيرة من القبائل إلى مختلف مناطق الجزيرة العربية وخارجها والقبلى فى حضرموت يعتنى بتربية ابنائه تربية عسكرية ويدربهم على السلاح وتسلق الجبال ولكل قبيلة شيخ يعرف بالمقدم يرجع إليه فى كل أمر من أمور القبيلة وقوله الفصل للقبيلة أو عليها وعلى المقدم استضافة القادم على القبيلة ومساعدة المحتاج من افرادها وللقبائل اعراف تنظم العلاقات بينها .

وتوجد طبقة الأشراف السادة من العلويين غير مسلحين إلا بعضهم ، ويشتغل معظمهم بالعلم والدعوة إلى الله والاصلاح بين الناس ، كما يشتغل البعض منهم بالتجارة والزراعة ووظائف الدولة من الادارة والتعليم وفى هؤلاء نظام «المناصب» الذى يشبه إلى حد كبير نظام «المقدم» فى القبائل ودوره الاصلاح بين افراد المجتمع وضيافة الغريب والضيف ومساعدة المحتاج والقيام بالواجبات الدينية من امامة فى المسجد والاجابة عن أسئلة المصلين فى امور دينهم والاصلاح بين القبائل المتحاربة ومن اشهر هذه المنصبات منصبة «آل الشيخ أبى بكر» و «آل العيدروس» و «آل الحداد» و «آل العطاس» وكذلك توجد المنصبة لدى «المشايخ» ومنهم «العمودى» و «آل باعباد» و «آل باوزير» ينقسم طبقة «الفلاحين» و «العمال» و «الصيادين» تقسيما حسب مساكنهم ويسمى هذا التقسيم حافة إلى أهل الحارة ولكل حارة شيخ «أبو الحافة» ، ولكل حافة حدود معلومة يلتزمون بالعمل فيها من انقاذ غريق واطفاء حريق والعمل فى المناسبات الاجتماعية العامة والخاصة كالزواج والمآتم والحفلات وهذا التنظيم أنشى فى القرن الخامس عشر والذى أنشأه نقيب الاشراف العلويين الامام عمر بن عبدالرحمن السقاف الملقب «بالمحضار» كان اماما وداعيا وتوفى عام ١٤٣٩ فى مدينة «تريم» . ومعظم الاعمال التى تقوم بها «الحافة» فى المناسبات العامة مجانية وفى المناسبات الخاصة تأخذ أجوراً رمزية من القادرين ومهمة «أبى الحافة» أن ترفع له الطلبات وهو الذى يعلم أبناء الحافة بها و «أبو الحافة» يختار من أبناء الحافة إذا توافرت فيه روح الخدمة والرأى والحصانة ومحبة أبناء «الحافة» له ، وكان هذا النظام قائما إلى

الاستقلال حتى جاء الحكم الشيوعى وتعرضت هذه الطبقات القبلية والأشراف العلويون والمشايخ والعمال والفلاحون والصيادون إلى الضرب من قبل النظام الشيوعى عن طريق التصفية الجسدية والارهاب فى شخصية «المقدم» و «المنصب» و «أبو الحافة» ومن كانت له وجاهة وعمل النظام الشيوعى على منع انتساب أى شخصية لقبيلته أو أسرته واوجد اشكالا جديدة مثل «نظام الميلشيات العسكرية» وتنظيم الحزب الشيوعى ومنظمة الشبية[٣٢] ولكن بعد سقوط النظام الشيوعى والوحدة اليمنية انتهى ذلك وبدأ كل شئ يعود إلى مكانه الطبيعى .

٦- عقائد ومذاهب الحضارمة

تأثرت حضرموت كغيرها من أقطار العالم الاسلامى تأثرا بالغا بالخلافات السياسية والمذهبية والعقدية التى اجتاحت فى عصر الدولتين الاموية والعباسية وكانت بذرة هذه المذاهب يوم أن بعث معاوية بن أبى سفيان قوة إلى اليمن ، وحضرموت لضرب دعاة العلويين فى اليمن فعكست هذه الغزو أثرها على سائر اليمن وحضرموت فتفرق الحضارمة على أثر ذلك إلى «شيعة» و «سنة» و «خوارج» حتى تغلب عليهم المذهب الاباضى الخارجى بعد دولة عبدالله بن يحيى الكندى عام ٧٤٦م وفرض على أهل حضرموت مذهبه الذى استمر حتى مجئ الامام احمد بن عيسى النقيب من البصرة الذى استطاع هو وأحفاده فيما بعد من العلويين القضاء على المذهب الاباضى بنشر المذهب السنى «الشافعى» فى فروع الفقهية ومذهب «الاشعرى» السنى فى العقيدة والمنهج الاشعرى الذى يتبعه الحضارم منهج أبى حامد الغزالى .

دخلت حضرموت فى مطلع القرن الثانى الميلادى الطريقة الصوفية التى اضفت صبغتها على الحضارم وتجلت هذه الصبغة فى أفكارهم وآدابهم وسلوكهم وتربيتهم وعمم حضرموت واسفل اليمن ومهاجر الحضارم فى جنوب شرق آسيا مثل «ماليزيا» واندونيسيا اضافة إلى سواحل الهند فى «مليبار» و «كجرات» و «حيدر آباد» و «مدراس» وشرق افريقيا ارتريا والحبشة والصومال وكينيا وأوغندا وجزر القمر هذا المذهب المؤلف من فقه «الشافعية» وعقيدة الاشعرية والطريقة الصوفية القائمة بالفعل على فهم السنة والعكوف عليها بالقلب والاعتصام بالله من شر النفس لاالتصوف الفلسفى ، احترام العلماء والأولياء الصالحين وحفظ مكانتهم فى حياتهم وبعد مماتهم واعطاء أهل بيت النبى ﷺ مكانتهم ، التى

حددها لهم مذهب أهل السنة والجماعة وقررها الامام الشافعى فى مذهبه من وجوب المحبة لهم وتقديمهم فى الامامة فهذا المذهب ساد فى حضرموت منذ مطلع القرن الثالث عشر الميلادى إلى يومنا هذا ، وليس فى حضرموت مذهب آخر لا فى العقيدة ولا فى الفروع غير مذهب أهل السنة والجماعة ، والمذهب الشافعى هو المذهب السائد وهو مصدر التشريع والقضاء(٣٣).

٧- هجرة الحضارم

عرف الحضارم الهجرة منذ فجر الاسلام فى حضرموت وهم الذين شملتهم الآية فى قوله تعالى (**ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا**) فأول هجرة للحضارم إلى مدينة الرسول ﷺ كانوا أفواجا وعندما نادى المنادى فى صدر الاسلام للجهاد والفتوحات ، كان لقبائل حضرموت السبق في ذلك وقد توالت على أثر هذه الهجرة الأولى الهجرات فى شتى الاقطار الاسلامية فقد هاجر عديد من الحضارم إلى «الاندلس» ولمعوا فى عديد من المجالات العلمية والأدبية والقيادية ومنهم العلامة «عبد الرحمن بن خلدون» صاحب المؤلفات فى التاريخ وعلم الاجتماع ولم تقتصر هجرتهم على الاندلس فحسب بل حل الحضارم بأرض مصر والشام والعراق وتركوا فى هجرتهم هذه بصمات على مجرى الحياة الاجتماعية فى هذه الاقطار فنجد بصماتهم فى القضاء وذكر المؤرخون دور القضاء الحضارم التسعة ومن المعهم القاضى توبة بن نمر الحضرمى الذى يكنى بأبى محجن الذى وضع أول نواة لوزارة الأوقاف فى مصر فقد انتزع جميع الاحباس من تحت يد المتولين عليها بالوصية أو الوراثة وشكل لها ديوانا مستقلا قائلا: مؤدى مرجع هذه الصدقات الفقراء والمساكين إذا اضع يدبه عليها حفظا لها من الالتواء والتوارث وذلك باعتباره قاضيا ومولى فى زمن هشام وتوفى توبه بن نمر الحضرمى وهو قاض على مصر عام ٧٣٧م .

استمرت الهجرات من حضرموت فقد هاجرت قبيلة «بنى هلال» بكاملها تقريبا من حضرموت إلى شمال افريقيا واستقرت فى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب ولعبوا فى هذه المناطق دورا كبيرا ومن زعمائهم «أبو زيد الهلال» ، وسعى الحضارم للهجرة إلى اليمن فى عهد الدولة الأيوبية ولكن قائدهم فى حضرموت عثمان الزنجيلى» الذى اصلى الحضارم انواعا من العذاب فمنعهم من مواصلة هجرتهم إلى اليمن فى تلك الحقبة فاتجهوا إلى الحرمين فى الحجاز ثم انطلقوا نحو سواحل افريقيا الشرقية والزائر لتلك المناطق يشاهد طرق ومعتقد الحضارم الصوفى ومذهبهم الفقهى الشافعى والعادات الحضرمية بارزة للأعين ابتداء من الحبشة

والصومال وكينيا وتنجانيقا وأوغندا وجزيرة زنجبار وجزر القمر ولهم الفضل فى نشر الاسلام فى هذه المنطقة وكادوا يجعلونها بلادا عربية ناطقة بلغة الضاد مسلمة تماما أو غالبا، لولا أن اقترن وجودهم بوجود الاستعمار الأوروبى لهذه المنطقة ومعالهم وآثارهم ما زالت قائمة بالرغم مما بذله الأوروبيون من تشويه لهم فى أذهان الافارقة ولم يقتصروا على الهجرة إلى شرق افريقيا فحسب بل غزوا بهجرتهم القارة الهندية وقد وجدوا اطيب المقام فى هذه القارة عند نظام «حيدر آبار» الذى فتح لهم عديدا من المجالات فى الوظائف الحكومية والوظائف العسكرية فلمع فى هذه الولاية كثير من الحضارم منهم مؤسسا السلطنتين الكثيرية والقعطية فيما بعد ومن الأدباء والعلماء الامام ابو بكر بن شهاب العلوى والأديب الاحمدى ، وقد أسسوا بهذه المنطقة مدارس واعتمدوا مفتيا شافعيا لهم حيث إن المذهب السائد الحنفى ولكنهم لم يستطيعوا مزاحمة التجار الهنود فى التجارة ولهذا لم يبرزوا فى مجال المال ومن خلال الهند اتجهوا إلى جزر الهند الشرقية اندونيسيا وماليزيا والفلبين التى وجدوا فيها امنيتهم واقاموا فيها مجدهم واضفوا عليها صبغتهم التامة بعدما جعلوا الهند محطة الانطلاق إلى جنوب شرق اسيا وقد ذكرت كتب التاريخ الصينية والغربية عنهم .وذلك فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى وحمل هؤلاء الدعوة الاسلامية مع تجارتهم ووجد هؤلاء التجار الحضارم شعوب هذه الجزر يدينون بعبادة الأوثان والهندوكية والبوذية فاستطاعوا اقناعهم وتحويلهم إلى الاسلام بأسلوب حسن المعاملة والأخلاق القويمة (٣٤).

عمل الحضارم فى هجرتهم إلى اندونيسا وسائر جنوب شرق آسيا كل معتقداتهم وعاداتهم فصبغوا هذه البلاد بصبغتهم العامة إذ نشروا فيها العقيدة السنية وفقههم الشافعى وطرقهم الصوفية وكل عاداتهم وتقاليدهم فتأثر بهم سكان تلك الجزر واستمر الحضارم فى التألق حتى صار كثير من حكام تلك الجزر وسلاطينها من الحضارم الذين وجدو فيها مرتعهم فى تلك الجزر فى المجالات كافة واثروا فيها ثراء عظيما وعكس هذا الثراء أثره على حضرموت كلها وتوافد الحضارم إلى تلك الجزر وشكلوا فيها جاليات كبيرة واطلقوا على جزيرتى جاوة وسنغافورة «جنة الدنيا» من فرط اعجابهم بها وقد أثرت طبيعة هذه المناطق فى الحضارم فنبع منهم العديد من الأدباء والعلماء والمثقفين ، فأدخلوا على أنفسهم وعلى مواطنهم حضرموت عددا من أساليب الحضارة كالجمعيات والصحافة والمدارس الحديثة . ونتيجة لذلك أسس مجموعة من العلماء والأدباء والمثقفين والتجار أول جمعية يعرفها الحضارم فى

مهاجرهم والوطن وذلك فى عام ١٩٠٣ تحمل اسم جمعية خير وأول نشاط قامت به هذه الجمعية هو إنشاء المدارس ففتحت أول مدرسة عام ١٩٠٥ فى مدينة «سورابايا» وتحرص هذه المدارس على تعليم الدين الاسلامى واللغة العربية وجلبت لهذه المدارس المدرسين من الأقطار العربية واستمرت هذه النهضة العربية فى أندونيسيا وحصد الحضارم خيرها ولكن أعداء الاسلام فى تلك المناطق كانوا يرصدون هذا النشاط ومن أبرز هؤلاء الأعداء من الكنسية الأوربية التى أذهلها انتشار الاسلام فى أندونيسيا وجنوب شرق آسيا ومتانة عقيدة المسلمين الذين لم يتقبلوا التبشير النصرانى بل رفضوه ولكن الكنيسة لم تيأس ، وبدأت بالبحث عن اسباب رفض سكان تلك الجزر للنصرانية ومن وراء نشر الاسلام فى تلك الجزر فتوصلت إلى أن سبب متانة العقيدة الاسلامية تلقى هؤلاء السكان هذا الدين بصفائه ونقائه ولكون الدين الاسلامى يتجاوب مع فطرة الانسان ويوثق عراه بالمحبة والتماسك بين المسلمين؛ وأما من نشروا الاسلام فقد ذكروا أنهم من الأشراف العلويين الحضارم القادمين من جنوب الجزيرة العربية وبعد أن وصلت هذه الاجابة للكنيسة وضعت الكنيسة خطتها الخبيثة التى تتلخص فى إيجاد فتنة بين الاشراف العلويين وغيرهم من الحضارم واظهارهم امام الاندونيسيين بمظهر الانحطاط والتمزق حيث أن العرب فى نظر الاندنيسيين مثلهم الاعلى ومن خلال تركيز بحثهم حددوا نقاط الضعف التى نفذوا عن طريقها إلى صفوف الحضارم ومن أهمها (٣٥) :

(١) إستغلالهم للصراعات القبلية التى حملها الحضارم معهم من بلادهم إلى جنوب شرق آسيا ومن ابرزها صراع بين نشاز من الحضارم والاشراف العلويين .

(٢) كون معظم العلماء والدعاة من العلويين وانصارهم من مشايخ حضرموت واعزازهم للسادة من الاشراف العلويين بنسبتهم إلى بيت النبى ﷺ عن طريق الامام الحسين بن على أبى طالب .

(٣) لكون المذهب الفقهى الذى ينشرونه ويعتنقونه فى اندونيسيا هو المذهب الشافعى فاستغلوا نقطة شرط الكفاءة فى النكاح التى تجعل الذين لاتعرف انسابهم اكفاء لبنات المنسوبين ومن يعرف نسبهم وأخذوا يشككون اهالى اندونيسيا فى الاسلام .

٤- لكون الحضارم ينتهجون فى سلوكهم منهج الصوفية الذى يدعو للزهد والتقوى والورع.

٨- اسباب هجرة الحضارم من حضرموت

نلخص اسباب هجرة الحضارم من حضرموت فى النقاط الآتية على سبيل المثل لا الحصر(٣٦) :

(١) هجرة الحضارم فى الصدر الاول الاسلامى وكان سببها مساهمتهم فى الفتوحات الاسلامية ضمن جيش جند الله وطاب لهم المقام فى البلاد المفتوحة .

(٢) فترات الجفاف التى مرت بحضرموت فى عديد من الأزمنة التى دفعت الكثير من الحضارم إلى الهجرة كما دفعت بنى هلال إلى الهجرة إلى شمال افريقيا من حضرموت بسبب الجفاف على سبيل المثال .

(٣) هجرة كثير من الحضارم طلبا للعلم والمجد فطاب لهم المقام فى الجهات التى قصدها فمنها العرق والشام ومصر والهند والحرمان الشريفان فى الحجاز .

(٤) اضطراب الأمن والنكبات التى حلت بحضرموت عبر الازمان وخاصة فى عهد «القبائل» أو الدور القبلى حيث القتال فيما بين القبائل ؛ مما أدى إلى هجرة الحضارم إلى شتى البقاع طلبا للأمان وكما حدث فى العهد الشيوعى بعد استقلال اليمن الجنوبية .

(٥) لكون الحضرمى شخصا يمتاز بحب المغامرة والنشاط التجارى ولكون حضرموت قطرا فقيرا فى مجمله فلم يجدوا فيها متسعا لطموحاتهم ؛ فهاجروا إلى مختلف اقطار العالم طلبا للمعيشة واشباع رغباتهم فى التملك والثراء والمغامرة فى أرض جديدة ونشر الاسلام والدعوة الاسلامية كما حدث فى شرق افريقيا والسواحل الهندية وحيدراياد وجنوب شرق آسيا .

ثالثا : اليمن تحت حكم الأئمة الزيدية ١٦٣٥-١٨١١

تمتعت اليمن باستقلالها بعد زوال الحكم العثمانى عام ١٦٣٥ لمدة قرنين من الزمان تحت حكم الأئمة الزيدين ، دعا القاسم بن محمد من أولاد الامام الهادى يحيى بن الحسين ومؤسس دولة بيت القاسم فى عام ١٥٩٧ وتلقب بالمنصور ، وكانت له مع العثمانيين حروب سبق ذكرها وقد استطاع خلفه بفضل مؤازرة اليمنيين لهم طرد العثمانيين من اليمن عام ١٦٣٥ وبذلك انتهى عصر الحكم العثمانى الأول فى الجزيرة العربية .

بويع محمد اماما خلفا لوالده الذى توفى عام ١٦١٩ ولقب «بالمؤيد» وخرج عليه ابن أخيه احمد الحسن بن القاسم وجعفر الامام المؤيد جيشا قويا استطاع اعادته إلى طاعة عمه الامام .

١- الامام المتوكل اسماعيل بن القاسم ١٦٤٣-١٦٧٦

توفى المتوكل المؤيد محمد بن القاسم فى عام ١٦٤٣ فدعا أخوه احمد وعارضه أخوه اسماعيل أمير «ضوران» وقامت بين الأخوين مناوشة انتهت بتنازل الأمير احمد لأخيه اسماعيل واستتب الأمر لهذا وتلقب بالمتوكل وفى عهده توحدت اليمن الطبيعية أو الكبرى فشمل من «لحج» و «عدن» إلى «رضوان» و«حضرموت» و «ظفار» شرقا و «تهامة» و «العسير» أو «المخلاف السليمانى» شمالا وكان عهد الامام المتوكل اسماعيل ازهر عهد للامامة الزيدية فى اليمن فقد كثرت فى ايامه الخيرات وتنافس الناس فى العلم والعمل وكثر علماء الدين اثناء حكمه [٣٧].

خالف على الامام المتوكل نائب عدن الحسين بن عبد القادر اليافعى فجهز الامام المتوكل لاخضاعه الامير المتوكل احمد بن الحسن بن القاسم واستولى هذا على «عدن» و «ابين» باسم الامام المتوكل عام ١٦٤٥ وكانت بعض المناطق الشرقية من جنوب اليمن قد انفصلت عن اليمن عام ١٦٢٥ ولكن الامام المتوكل اسماعيل بدأ يبسط نفوذه عليها فى عام ١٦٥٤ بأن جهز جيشا كبيرا بقيادة الأمير أحمد بن الحسن الذى تقدم إلى منطقة «البيضاء» وقام قتال بينه وبين الشيخ حسن الرصاص اسفر عن قتل الأخير واخضاع «البيضاء» لحكومة الامام المتوكل ثم اعلان «العوالق» و «الواحدى» و «العمودى» ولاءها لإمام أيضا بعد ذلك ولكنه سرعان ما خالفت منطقة «يافع» على الامام الذى ارسل ابنه الأمير محمد على رأس جيش تمكن من اخضاعهم الكثيرى الذى يربطه بعلاقات مع الامام ولاءه فأقره الامام ، ولكن خرج

عليه أخوه السلطان بدر بن عبد الله فارسل حملة كبيرة واعاد السلطان بدر بن عمر الذى كان قد تولى ولاية «ظفار» الحضرمية كما سبق وذكرنا عن السلطنة الكثيرية فى حضرموت .

٢- يوم الغدير

احتفل بهذا اليوم وهو يوم الثامن عشر من شهر الحجة لأول مرة فى تاريخ حكم الأئمة فى اليمن فى عهد الامام المتوكل اسماعيل بن القاسم فى عام ١٦٦٢ بطلب من الامير احمد بن الحسن بن القاسم وذلك للتنويه بمكانة امير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وزوجته فاطمة بنت رسول الله وولديهما الحسن والحسين لما يرى أن رسول الله ﷺ جمع عليا وفاطمة والحسن والحسين تحت كساء فى هذا اليوم عند موضع يعرف «بغدير خم» وقال «اللهم ان هذا كسائى وكساء آل بيتى اللهم من كنت مولاه فعلى مولاه» إلى آخر الحديث .

اعلن الامير على بن احمد بن القاسم خروجه على الامام المتوكل اسماعيل ودعوته لنفسه، وذلك بسبب عزل الامام له عن ولاية «صعدة» واسنادها إلى ولده الامير الحسن وجهز الامام لحربة عام ١٦٧٦ الامير احمد بن الحسن بن القاسم ولكن وفاة الامام المتوكل وقيام احمد بن الحسن بالدعوة انهى الخلاف . وجمع الامير احمد بن الحسن فى مكان اقامته فى صنعاء العلماء والأعيان بمن فيهم ابناء الامام المتوكل وذلك للتشاور فيمن يصلح للامامة واستقر رأى المؤتمرين على مبايعته وبايعوه ولقبوه بالمهدى وكان يعرف بسيل الليل ، واجلى الامام المهدى اليهود من مدينة صنعاء إلى القاع وهدم كنيستهم فى صنعاء وبنى مكانها جامعا سمى بجامع الجلاء لايزال قائما إلى اليوم وتوفى الامام المهدى احمد بن الحسن القاسم عام ١٦٨١ ثم تولى محمد بن المتوكل اسماعيل بن القاسم الامامة وتلقب بالمؤيد الصغير وكانت له معارك مع منطقة «يافع» وغيرها فى المنطقة الشرقية الجنوبية وتوفى عام ١٦٨٥ ثم جاء بعده الامام المهدى محمد بن الحسن بن القاسم وكان له حروب أيضا مع سكان «يافع» واصحاب «الرصاص» و «الحواشب» و «ديثنة» و «المصعبين» و «بيحان» وغيرها فى المنطقة الجنوبية من اليمن الأوسط ومع مختلف قبائل فى «سفيان» و «عمران» وفى عام ١٧١٠ هاجمة قوة من البحرية اليعربية العمانية مدينة عدن ولكن صمود حاميتها ردته على أعتابها .

عارض الامام مهدى فى عام ١٧١٢ الحسين بن القاسم بن المؤيد ودعا لنفسه وتلقب بالمنصور واستجاب له كثير من القبائل ، وقامت معارك بين الامامين ؛ وكان التفوق فيها

للمنصور وفى اثناء ذلك قام المهدى بتجهيز جيش كبير فى كثير من المماليك الذين كان قد استكثرهم للقضاء على عز الدين القطبى امير « أبى عريش» فى اليمن الشمالى فى «المخلاف السليمانى» و «العسير» والذى كان يساند الحسين بن القاسم ، وقد قال المهدى لجمهرة جيشه عند توديعه له «هذه المفاسد منشأها القطبى «بابى عريش» واحسانى اليكم إنما هو لمثل هذه الساعة فبادروا إلى كفها وقد جعلت لكم أجلا وما ظنى فيكم خائبا فان فعلتم المراد شملكم اليسار فقالوا له «نحن لك سامعون مطيعون» . أما القطبى فانه استنجد بامير «صعدة» على بن احمد ابو طالب ولكن الحرب التى قامت بينه وبين جيش المهدى اسفرت عن انهزام القطبى ووقوعه فى الأسر وقد امر المهدى بضرب عنقه وذكر أنه ندم على ذلك ، ومع ذلك فلم يحسم قتله الشرور التى تتابعة على المهدى من جراء معارضة المنصور له وظلت الحرب قائمة بينهما حتى حاصرت قوات المنصور الامام المهدى فى عاصمته «مدينة المواهل» عام ١٧١٥ واضطرته إلى التنازل للمنصور من نفس العام وقد اقطع المنصور المهدى بعد تنازله بلاد «خيان» و «رميمه» و «بيت الفقيه» و «تهامة» وجعل اليه تعين ولاتها (٣٩) .

واعترى حكم أئمة صنعاء الضعف والانهيار نتيجة التنافس على الامامة وعدم الاستقرار الكامن فى نظام الحكم ذاته مما كان يشجع الحكام المحليين فى ارجاء اليمن على الانفصال والاستقلال فانفصلت حضرموت وكذلك المخلاف السليمانى «العسير» .اليمن الشمالى) واعلن شيخ قبيلة العبادل نفسه مستقلا فى لحج عام ١٧٢٨ كما سيطر على عدن بعد أن تحالف مع جاره سلطان يافع عام ١٧٣٥ واتفقا على أن يتبادلا معا خراج «عدن» بالمناوبة اما القسم الشمالى من اليمن فى المخلاف السليمانى «العسير» فكان الأئمة الزيديون قد اسندوا حكمهم لآل «بركات» الذين قسموه فيما بينهم إلى اقطاعات منفصلة ثم استقلوا عن الأئمة وانصرفوا إلى مصالحهم الشخصية عن مصالح رعاياهم فقاس اليمنيون من «عسير» إلى «ظفار» من جراء ذلك أشد المتاعب والأهوال ، ولم تنعم بلادهم بالوحدة السياسية ، على أن اليمن فى ذلك الوقت شاهدت نشاطا تجارياً كبيرا بعد انسحاب الاسطول العثمانى من المنطقة فلم يعد فى امكان العثمانيين أن يطبقوا سياسة اغلاق البحر الأحمر فى وجه التجارة الأوربية فأخذت هذه تتدفق إلى ميناء «مخا » اليمن» حتى اطلق اسمها على البن اليمنى الذى كان يصدر منها إلى اسواق العالم حينذاك وقد أشار الرحالة الدانمركى» «نيبور»

الذى زار اليمن فى عام ١٧٦٣ إلى سياسة التسامح التى كانت تتبعها اليمن مع العناصر غير الاسلامية حينذاك مما أدى إلى تنشيط حركة التجارة بين اليمنيين والأجانب (٤٠).

لم تكن اليمن وهى جزء من الوطن العربى بأحسن حالا عن بقية الاقطار العربية الأخرى فى هذه الفترة التاريخية الهامة ، كما أنها أيضا لم تكن اسوأ منها فى بعض الوجوه فلقد كانت دولة مستقلة عن السيطرة العثمانية لأكثر من قرنين منذ عام ١٦٣٥ ، بالرغم من الاضطرابات والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن الحروب والحوادث التى كانت تغلى بها مراحل الفتن والصراعات السياسية والقبلية فى اليمن وآثارها المدمرة فى الحياة اليمنية فلقد استمر نشاط المسجد بصفته المدرسة الأولى للقضاة والعلماء والأدباء مجالا حيويا ومؤثرا فى المناظرات الفقهية والاجتهادية بل الأدبية واللغوية ، وسائر شعب المعارف الانسانية ومن ثم فقد نبغ علماء وأدباء كبار فى اليمن حقبة تدنى فيها الفكر العربى الاسلامى ولم يكن الامام الكبير الشوكانى إلا أحد هؤلاء العلماء النابغين من المتأخرين فى هذه الفترة .

تميز المذهب الزيدى من المذاهب الأخرى بالحرية الفكرية والحرص على ضرورة حض العلماء على الاجتهاد والبحث عن حلول لما يواجههم من المشكلات الشرعية والاجتماعية ورفض المقولة التى تذهب إلى أن باب الاجتهاد قد أوصد منذ زمن بعيد ، فى نظر بقية علماء المسلمين ومقلديهم وقد زاد شرط الاجتهاد أو العلم عند بعضهم ضمن الشروط الأربعة عشر لمن يؤهل نفسه لمنصب الامامة الزيدية ، أن من بين علماء اليمن الكبار نحو واحد وثلاثين امام من بين اثنين وسبعين ممن حكموا اليمن بين اعوام ٨٩٨ - ١٦٢ تركوا اثرا وآثارا فى الفكر اليمنى والاسلامى والكثير من هذه الآثار جدير بالدرس والبحث والتحقيق والنشر ، وعامل آخر كان له سببه وأثره فى دفع الاجتهاد الفكرى الزيدى وتوسيع دائرة الاستنباط الفقهى والأثرى واستظهار مؤلفات السلفيين من الزيديين وكتبهم ودواوينهم فى شتى فروع المعارف الاسلامية وعلومها ذلك هو انتشار المذهب الشافعى السنى فى بعض مناطق اليمن واستقراره فى المناطق الساحلية والجنوبية منها وخاصة حضرموت وظفار بعد هجرة الامام احمد النقيب من البصرة والذى ينتهى نسبه إلى الامام جعفر الصادق حفيد الامام الحسين واستطاع احفاده من الاشراف السادة العلويين نشره فى مختلف مناطق اليمن بشكل كبير بعد نجاحهم فى تقويض ومحو المذهب «الاباضى» للخوارج وحل المذهب الشافعى السنى مما أدى

إلى تبادل وتتلمذ ومناظرات بل وتنافس بين علماء المذهبين «الزيدى والشيعى» و «الشافعى السنى» بيد أن انفتاح المذهب «الزيدى الشيعى»على المذاهب الأخرى وبخاصة الشافعى ومذهب أبى حنيفة والحرية فى الأخذ أو الاتفاق مع أيهما قد جعل علماءه أكثر تحررا وأكثر استفادة وبالتالى أغزر انتاجا واعمق نظرا ناهيك عن أمرين آخرين هما(٤١) :

الأول : أن مركز ثقل المذهب الشافعى وكبار علمائه وفقهائه خارج اليمن فى مصر والشام ومنهم علماء كبار بلغ بعضهم شأوا عظيما فى مختلف العصور الاسلامية فانهم فى كل الأحوال لم يجتهدوا فيتجاوزوا فى اجتهادهم ما جاء الامام محمد بن ادريس الشافعى أو تلامذته الأولون المشهورون وكان علماء الشافعية فى اليمن وخاصة علماء السادة العلويين شأنهم شأن غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى يقيدهم التقليد وتبعدهم مشقة اللقاء بغيرهم فى مصر والشام باستثناء ما كان متاحا لهم فى مواسم الحج ، أو زيارات نادرة لبعض العلماء من خارج اليمن لكن هذا لايعنى أنه لم يظهر من بينهم علماء كبار ومؤرخون وأدباء كثيرون منهم الامام عبد الله العيدروس والامام السقاف والامام الحدد والامام المحضار وغيرهم كثيرون .

الثانى : الأمر الثانى فقد اصبح حكام اليمن من أئمة الزيدية وجاءت فترات ساد حكمهم فيها كل أنحاء اليمن الطبيعية من أقصى اشمال فى المخلاف السليمانى «عسير» إلى أقصى الشرق فى «حضرموت» و «ظفار» وحين يتم ذلك كانت سيادة المذهب الزيدى هى الغالبة من الناحية الرسمية وليس العامة أو الشعبية ولكن انحسار الدولة الزيدية أو توسعها لم يكن هو الأساس فى ازدهار الفكر نفسه ، فقد كان احد اكابر علماء المذهب الامام احمد بن يحيى المرتضى ١٤٣٦ يؤلف أهم كتبه وهو سجين فى قلعة قصر صنعاء كما نبغ علماء كبار كالعلامة صالح بن مهدى المقبلى ١٧٢٨ وهو مشرد عن وطنه يعيش فى جبل «ابى قبيس» بمكة قرابة ثلاثين عاما بل وأكثر من هذا فعالم جليل كبير كالحسن الجلال ١٦٧٣ يقارع برسالته «براءة الذمة فى نصيحة الأمة» امام عصره المتوكل اسماعيل بن القاسم ١٦٦٨ حين بلغه أن جنده تعبث فسادا فى بعض مناطق الجنوب وكيفما كان الأمر فى ازدهار الفكر الزيدى والدور الذى حمله فى الحياة اليمنية وأثره الباقى فى تراث الامة العربية والاسلامية وثقافتها فقد رأى الباحثون المحدثون أن السبب فى ذلك يتلخص من أن الزيدية هم أعظم الشيعة اعتدالا وأكثرهم التصاقا بالسنة .

٣- الامام المهدى عباس ١٧٤٨-١٧٧٥

خلف المهدى عباس والده المنصور حسين بن المتوكل قاسم اماما جديدا فى حكم اليمن عام ١٧٤٨ وأصبح بذلك الامام العاشر من أئمة «بيت القاسم» الذى وصل إليه الحكم محل «شرف الدين» منذ عام ١٥٩٨ كان المهدى عباس آخر الأئمة ذوى الشأن فى تاريخ حكم الامامة فى اليمن وخلفه بعد موته ابنه المنصور على ١٧٧٥-١٨٠٩ . وخلف المنصور على هذا ابنه المتوكل احمد عام ١٨٠٩-١٨١٦ ثم ابنه المهدى عبدالله الذى حكم اليمن حتى توفى عام ١٨٣٥ .

خرج على الامام المنصور حسين بن المتوكل قاسم الأمير محمد بن اسحاق بن المهدى عام ١٧٥٤ وتلقب بالناصر ونصرته قبائل من «حاشد» و «بكيل» بقيادة على بن قاسم وناصر جزيلان لكن المنصور تغلب عليهم بعد أن فتك بابن الأحمر فى «عصر» غربى صنعاء ودخل صنعاء حاملا رأسه على حربة وخرج أخوه الامير احمد حاكم «تعز» و «الحجرية» عن طاعته وجرت بينهما حروب طويلة اختلت بسببها حياة المناطق السفلى والجنوبية واضطرب حبل أمنها واستغل سلطان لحج الفرصة فاستقل بمنطقته وحين وفاة المنصور كان الأمر كما هو بدون حسم أو سيطرة فخلف عباس اباه المنصور واجمع العلماء والناس على مبايعته كان عباس فى مقتبل عمره لم يبلغ الثلاثين بعد فقد ولد عام ١٧١٩ وكان قويا ذكيا بالغ الطموح لقب نفسه بالمهدى وهو لقب الامامين السابقين من أسرته «بيت القاسم» ولأكثر من واحد ممن سبقهم من الأئمة ويتفق المؤرخون على أن حكم المهدى عباس كان افضل بكثير من حكم والده ومن جده كما أنه كان كذلك فى حكم ابنه المنصور على من بعده وحفيده المتوكل احمد وابن هذا المهدى عبد الله . وعرف عن الامام المهدى عباس أنه نال حظا وافرا من العلم وأنه تتلمذ على جماعة من علماء عصره وكان أول تهديد واجهه المهدى عباس هو اعلان امير «كوكبان» احمد محمد شرف الدين الدعوة لنفسه وكان عرف عنه العلم والفضل كما اشتهرت «كوكبان» فى ايامه وازدهرت مدرستها وكثر علماؤها وكانت قبل ذلك مركز علم وموطن آل شرف الدين الذين خطف منهم آل القاسم الحكم عام ١٥٩٨ ، فارسل الامام المهدى عباس شيخه العلامة عبدالله الكبسى إلى أمير كوكبان يدعوه إلى الدخول فى الطاعة وعقد البيعة غير أنه رفض الوساطة فدارت الحروب بينهما حتى وافق «امير كوكبان» على مبايعته وتم الاتفاق ولكن الصلح لم يدم طويلا ويبدو أن الامام المهدى عباس لم تطمئن نفسه إلى خضوع امير كوكبان

فاستخدم الحيلة فى بث الخلاف بينه وبين بعض اخوته ونجح فى ذلك وتم تعين أخاه ابراهيم بن محمد على «كوكبان» .

فرغ الامام المهدى عباس من مزاحمة السياسيين الطامحين فى الامامة بالرهبة والارضاء فقد كان له شأن ومشاغل مع ما كان يثيره المتعصبون منهم أو من غيرهم ضد علماء متحررين امثال العلامة «ابن الامير» الذى زعموا مرة أنه واهل صنعاء اصبحوا يخالفون مذهب اهل البيت ويغيرون فيه بما ادخلوه من البدع وطالب القضاة من بنى العنسى الساكنين بجبال «برط» فى رسائل بعثوها إلى العلماء بمناطق مختلفة من اليمن اخراجه من صنعاء وقدر عليهم علماء المناطق بتسفيههم كما رد «ابن الامير» نفسه وكان الامر شاغلا للناس عام ١٧٦٨ لكنه لم يكن الأول ولا الأخير لما لاقاه ابن الامير وأمثاله من العلماء لقد كان قضاة آل العنس يقودون قبائل « من ذى محمد » و «ذى حسين» وغيرها من قبائل «حاشد» و «بكيل» ويشنون غاراتهم على صنعاء وضواحيها وكثيرا ما كانوا يتوجهون إلى المناطق الوسطى والسفلى من اليمن فيبعثون فى الأرض فسادا وبخاصة عندما يكون حاكم صنعاء ضعيفا وقد قاموا مع قبائلهم بدور تخريبى اقلق أمن البلاد واخاف الناس ويبدو أن قوة الامام المهدى عباس ومهابته جعلتاهم لبعض الوقت يتوقفون عن اعمال النهب والسلب فحاولوا الدخول من باب اظهار الغيرة على مذهب اهل البيت ومع ذلك فقد سبق أن جربت قبائل من «برط» الهجوم على المناطق السفلى عام ١٧٥٨ ولما وصلت إلى منطقة «جهران» جنوب صنعاء لحقت بهم قوات جهزها الامام المهدى عباس فأدركتها فنكلت بأفرادها وقد هنأ العلامة «ابن الامير» الامام المهدى عباس على هذا الانتصار بقصيدة[٤٢] . ومن هذه الاحداث وغيرها مما واجهه المهدى بصرامة لجد الامام «الشوكانى» يقول فى ترجمته أنه «من افراد الدهر ومن محاسن اليمن بل الزمن ولم يزل قامعا لحساده وانداده حافظا لأطراف مملكته بقوة صولة وشدة شكيمة لايطمع فيه طامع ولاينجح فيه خدع خادع بل يتصرف بالأمور حسب اختياره ويتفرد بتدبير المهمات» .

٤- الامام المنصور على بن المهدى عباس ١٧٧٥-١٨٠٩

حينما توفى الامام المهدى عباس عام ١٧٧٥ خلف بعده عددا كبيرا من الأبناء والأخوة والاعمام وأبنائهم ومن أشهر الآخرين «بيت المنصور» و «بيت المتوكل» و «بيت اسحاق» وغيرهم ممن كان الأمل والطموح للإمامة هاجسا وشاغلا لبعضهم فكان يتحين الفرصة المواتية

لبلوغ هذا الهدف والرغبة فى الحكم لكن «المهدى» من قبل وابنه «المنصور» من بعده لم يتيح لأى طامح فرصة فى النجاح والمنافسة ، مهما كانت الدعاوى أو الاحقية فى هذا الامر وكان القتال والحرب أو المساومة والصلح ، الحكم الفيصل لإمام صنعاء من «آل القاسم» وكان ابناء الامام المهدى عباس منهم من قام بدور سياسى هام كما كان بعضهم من العلماء والأدباء البارزين فى حين كان منهم من تزهد أو عاش على هامش الحياة . كان المؤرخ الكبسى مصيبا كل الاصابة حين لخص امامة المنصور على وفترة حكمه فى النص التالى :

«ولما توفى المهدى عباس قام بالخلافة ولده على بن العباس (١٧٧٥) واستمرت امارته سعادة واقبال فى أولها وأوسطها وبقى على تلك الحالة باذلا للأمور شيد الدور وعمر القصور وكان فى زى عظيم وملك عقيم ا من عام (١٧٧٥) إلى عام (١٧٩٥) وفى هذا القرن تلاشت عليه الأمور بخروج التهائم وبنادرها (منطقة «تهامة» و «عسير» أى المخلاف السليمانى) إلى الخوارج من نجد (أى غزوات وغارات النجديين) .

وتقسم فترة حكم الامام المنصور على إلى مرحلتين أو ثلاث مراحل الأولى وهى الأطول استمرت قريب عشرين عاما والثالثه ولم تدم إلا أشهرا لم تبلغ العام سيطر خلالها ابن المنصور احمد على كل امور الدولة والبلاد وتتوسط المرحلتين الأولى والثالثة مرحلة كانت على درجة من تداخل الحوادث بالأولى التى تسبقها بحيث يصعب تمييزها كما انها شهدت أهلك الفترات والاضطرابات داخليا وخارجيا وبقدر مسئولية الامام المنصور حاكما لليمن عما حدث من فوضى واضطرابات اقتصادية واجتماعية وسياسية سببها القلاقل وعدم الاستقرار فى آخر حكمه فان تسارع الأحداث والظروف المحلية المضطربة والخارجية المستمدة كانت من عوامل تلك الفوضى والاضطرابات وعدم الاستقرار ، وكان أول قرار اتخذه المنصور فى اليوم الأول تسنحه سدة الحكم هو اعادة تعيين العلامة الكبير القاضى يحيى بن صالح السحولى ١٧٢٢-١٧٩٥ قاضيا لقضاة اليمن وهو المنصب الذى كان قد شغله بكفاية بالغة اكثر من عشر سنوات فى الحكم الامام المهدى عباس بالغ فى تعظيمه وضم إليه الوزارة إلى القضاء وصار غالب اموار الخلافة تدور عليه وعظمت هيبته فى القلوب واشتهر صيته فاستمر إلى عام ١٧٥٨ فنكبه الامام المهدى واستأهل معظم امواله وسجنه فاستمر مسجونا ثلاثة اعوام ثم افرج عنه ولزم بيته والناس يترددون إليه لأخذ العلم عنه ويستفتونه فى المعضلات ؛ فاستمر كذلك حتى مات الامام المهدى حتى جاءت اعادة تعين الامام المنصور للقاضى

السحولى رد اعتبار للرجل وقوبل ذلك التعيين بارتياح من الكثيرين وأستمر السحولى فى منصبه نحو عشرين عاما من حكم المنصور حتى مات عام ١٧٩٤ فخلفه فى منصب القضاء الأكبر العلامة محمد بن على الشوكانى الذى استمر منصبه ونهض بدور علمى وسياسى ذى أثر بقية حكم المنصور على ومن بعده ابنه احمد فحفيده المهدى عبدالله حتى توفى عام ١٨٣٤ .

«تعتبر ادارة الامام لشؤن مملكته إدارة مطلقة وأن صلاحيات الوزراء كانت تخلف من واحد إلى آخر وكان الوزراء الهامون يشرف كل واحد منهم على منطقة محددة أو أكثر من منطقة فيتبعه عمالها وشئونها المحلية فقد كان الوزير «فايع» علي سبيل المثال مسئولا أيام «المنصور على» عن مناطق «الحديدة» «الحيمة» وأحيانا أضيف إليه اليمن الأسفل وكان بعض العمال أو الولاة المنفذين يتجاوزون توجيهات وزرائهم ويتصلون مباشرة بالامام فقد ذكر أن سبب نزع ميناء «الحديدة» من وزيره فايع عام ١٧٨٢ أنه كان المقرر وصوله من الميناء فى كل شهر ثلاثة الاف ريال فقط وما زاد عن ذلك من الحاصلات والضرائب يبقى مدخرا فى الميناء للضرائب لأنها قد تحدث مشكلة فيوجد لها الاموال المدخرة فى الميناء وربما حدثت الحادثة للامام فى غير منطقة «تهامة» فيطلب من تلك الاموال المدخرة بالميناء «الأربعة اللاف» إلى اثنى عشر الفا وهذه هى عادة الدولة القاسمية فى الموانئ «كبيت الفقيه» و «اللحية» و «المخا» و «الحديدة» فما زال «فايع» يلطب من عامل الحديدة زيادة على المعتاد فكتب ذلك العامل إلى المنصور بما يطلبه الوزير فمنعه الامام عن التسليم وبالغ فى حفظ العادة والقاعدة بادخار الزيادة على الثلاثة الاف بالغة ما بلغت ، وبالاضافة إلى الوزراء المشرفين على مختلف المناطق كان هناك ناظرا أو «عامل الوقت» وهو فى مرتبة الوزراء أو فى الدرجة التى تليهم وذلك كان يعتمد على شخص المعين وفى الغالب ما كان من كبار الفقهاء والعلماء لما للاوقاف من اهمية خاصة ، وكان هناك مسؤل عن العمارة والانشاءات وهو منصب يشبه وزير الاشغال فى ايامنا وقد عرف بعض الوزراء بالاستقامة والاخلاص والكفاية والامانة كما اشتهر عن الآخرين المحسوبية والفساد . وكان بعض الوزراء يعينون ولاة لأهم المناطق وكانت «المخا» أكبر ولاية فى اليمن لأنها كانت أكبر مصدر لدخل الدولة لهذا فقد شغل ولايتها رجال أكفاء [٤٣].

٥- الاضطرابات الداخلية والأحداث الخارجية

تعرض الامام المنصور لعدة مشاكل أهمها كانت مشكلة القبائل اليمنية الشمالية إحدى المشاكل العويصة وأقدمها التى كانت تواجهها أية حكومة مركزية فى صنعاء وذلك بما تثيره من عصيان ضدها أو هجوم على بعض المدن والمناطق القريبة أو البعيدة عن العاصمة التى لم تسلم هى نفسها من الحصار أو النهب والقتل كما كان الاقتتال فيما بينها أو حمايتها أو مؤازرتها لخارج على الحاكم أو طامح فى الحكم مجال صراع وقتال تسيل فيه الدماء وتخرب الحواجز والقرى وتضطرب الحياة الاقتصادية والاجتماعية فتتأثر حياة الناس ويعانون من حول ذلك الامرين وكانت قبائل «بكيل» أكثر القبائل انخراطا فى هذا المجال ربما لبعد بعضها عن العاصمة ولتشكل تحالفها من أشد القبائل وأشهرها وقوة وشدة فى القتال فمن قبائلها «سفيان» «بلحارث» أو بنى حارث «بنى حنيش» «عيال سريح» «خولان» «ارحب» «نهم» «جبل عيال» «ذو محمد» «ذوحسين» وآخرون ، وفى حين نجد أن الأئمة فى صنعاء قد درجوا فى هذه الفترة على مواجهة هجمات القبائل وعصيانها بالقوة حينما يكون الحاكم منهم قادرا واحيانا بالايقاع بين قبيلة وأخرى أو بالإثنين معا وفى بعض الاحيان كانوا يصلحون الامر ويصالحون المهاجمين على مبلغ من المال يتم بموجبه تجنب القتال أو فك الحصار وتعود القبائل إلى ديارهم من حيث جاءوا غير أن هذه المصالحة سرعان ما تنتهى بعودة الاسباب الدافعة للهجوم أو العصيان سواء كانت تلك الاسباب جفافا وجدبا وهو غالبا ما يكون الدافع الرئيسى أم اثارة واستشعار بحيف أو ظلم أو ثأرا وانتقاما لهزيمة سابقة أو بحثا عن رزق سهل من سلب ونهب معتاد لارادع له إلا القوة فان عدمت مثل هذه الاسباب فالمال الذى اصبح احيانا اتاوة سنوية فان تأخر الدفع أو نقص فلا مناص من تكرار فصول المأساة ولقد كانت قبائل «يام» و «خولان» مع غيرها التى ذكرناها من أكثر مشاركة فى سلسلة الهجمات والاضطرابات وعدم الاستقرار والمعارضة أو العصيان .

خرجت قبائل «بكيل» من «ذى محمد» يقودها كبار «آل جزيلان» وتجهو غربا نحو «ملحان» التى كان عاملها قد بلغه الخبر فجمع من لديه من قبائل «حاشد» وآخرين وخرج بهم ليصد الهجوم غير أنه تبين له أن عساكره القليلة لاتستطيع مواجهة الحشود القادمة فتشاور مع أصحابه وتم الاتفاق على مصالحة هذه القبائل بدلا من قتالها ومخافة الفشل فى مواجهتها وما تبع ذلك من سلب ونهب وقتل فقبلت «ذو محمد» الرجوع من حيث جاءوا

مقابل مبلغ ثلاثة آلاف قرش فرنسى وثلاث كسوات وثلاثة خيل وقد وافق الامام المنصور على فى صنعاء على ذلك إلا أنه قرر أن يقطع مقرراتهم ألا يسلم لهم فى ذلك العام شيئا مما يعتادونه فلم يطل مكوث «ذى محمد» فى بلادهم فسرعان ما توجهوا بعد أشهر قليلة إلى صنعاء لكنهم لم ينالوا شيئا كما إن الامام لم يتعرض لهم ربما استشعروا خطرا فقرروا التوجه غربا صوب «تهامة» وهناك بدأوا يتخطفون المسافرين وسلبون القرى القريبة حتى وصلوا القرى المجاورة «لبيت الفقيه» و «الزيدية» وقد قاد عامل «حجة» جماعة من رجاله بهجوم مفاجئ وتمكن من تشتيتهم . وفى العام التالى ١٧٧٩ وصلت الاخبار إلى صنعاء بأن السيد حسين بن على بن قاسم الصعدى قام بجمع قبائل ذى محمد وغادر بهم فى طريقه إلى صنعاء فأمر الامام المنصور قبائل همدان بمنع القادمين من عبور اراضيهم فقام القتل بينهم وحزمت قبائل «ذو محمد» . كما خرج «ابن اسحاق» وبايعه الناس فأعد الامام المنصور جيشا لقتاله كما خرجت جماعات من قبائل «خولان» فى صنعاء فهاجموا قوافل التجارة وقاموا بالسلب والنهب فأرسل الامام جيش لمحاربتهم وتمكن منهم وعلقت رؤس قتلاهم بباب اليمن ولم يكن الامام المنصور يخمد القبائل هنا إلا وتظهر اضطرابات هناك وكان معظم أئمة اليمن كانوا يقضون معظم فترات حكمهم فى اخماد ثورات واضطرابات القبائل أو بعض الأمراء الذين كانوا يأخذون البيعة لأنفسهم .

لم تكن حملات جيش الامام وحملاته العسكرية والتأديبية تمر دائما بسلام أو بمجرد وصوله والخوف من ذلك ، فقد واجه بعض المقاومة وحدث فشل واقتتال لكن الكفة الراجحة بالطبع كانت للجيش ولم يحدث افراط فى القتل أو الهدم والتخريب باستثناء ما كان من امر الحصون والمعاقل ، ومن بعض القرى كان فيها من يقاوم فقد كان يصيبها الدمار وكان تقديم الولاء والطاعة يجنب المنطقة الكثير من المتاعب والخسائر وبعد مضى سلسلة من المعارك قفل الجيش بقيادة الامام عائدا مظفراً فوصل صنعاء عام ١٧٩٠ وبات مركز الامام المنصور على قويا وهدأت الحوادث والاضطرابات وعلم الناس أن لاجهد للعصاة ولامطمع للبغاة فى نيل شئ من المملكة بيد أن خطرا جديدا قد أخذ يظهر فى شمال اليمن فى المخلاف السليمانى «عسير» وهو لايشبه عصيان القبائل أو ما كان المنصور يواجهه من قبل بها هو تهديد السلطان الامام والدولة فى «عسير» فى شمال اليمن ذلك هو خطر الشريف حمود أبى مسمار الطامح إلى الاستقلال فى منطقة «عسير» أو «المخلاف السليمانى» (٤٤).

٦- الحياة الأدبية والفكرية فى اليمن

لعبت المدن اليمنية دورا كبيرا فى الحياة الفكرية والأدبية وكانت مركزا لاعلامها أهمها «صنعاء» و «زبيد» و «صعدة» و «عدن» ونلاحظ أن أكثر اعيان اليمن وعلمائه من مدينة «تريم» أشهر مدن حضرموت وأكبر المراكز العلمية فيها ، وكتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر لمحمد الامين المحبى من الشام المتوفى عام ١١١١هـ الموافق ١٦٩٩ فى دمشق واحد من أهم كتب التراجم حيث حفظ لنا اعلام هذا القرن وحفظ لنا تراثهم وسجل لنا الكثير من جوانب الحياة الأدبية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتاريخية وقد قام الدكتور عبد الله محمد عيسى الغزالى فى قسم اللغة العربية بجامعة الكويت بتحقيق ودراسة هذا المخطوط القيم تحت عنوان « اسر الفكروالأدب فى اليمن فى القرن الحادى عشر الهجرى (أى القرن السابع عشر الميلادى) دراسة فى خلاصة الأثر لمحبى[٤٥] وقد وجدنا هذه الدراسة خير معين لتاريخ الحياة الأدبية والفكرية فى اليمن فى هذه الفترة . وعلى الرغم من ذكر المحبى لأعلام كثيرين من بلاد الشام ومصر وفارس والاكراد وبلاد ما وراء النهر وخوارزم والهند والجزيرة العربية وبلاد المغرب العربى ودار السلطنة العثمانية وغيرها إلا أن أكثر تراجم خلاصة الأثر كانت عن اعيان اليمن ولاشك أن اليمن كان مركزا علميا فى القرن السابع عشر الميلادى للبلاد العربية وإن القاء الضوء على أعلام اليمن الذين ذكرهم المحبى وتلمس مختلف جوانب الانشطة العلمية التى قاموا بها يبلور صورة الحياة الأدبية والفكرية على وجه الخصوص لليمن وقد احتفظ اليمن بأصالته وبكونه مركزا حضاريا شأنه فى ذلك شأن بقية المراكز فى هذا العصر .

ظهر فى اليمن قرابة ٤٢٠ علما منهم الأدباء والشعراء ومنهم القضاة والفقهاء ومنهم المحدثون والمفسرون والقراء ومنهم المؤرخون ومنهم الصوفية واصحاب الفرق والطرق ومنهم المدرسون والمجيزون فى شتى علوم المعرفة ولاسيما الأدبية والدينية ومنهم الامراء والتجار وكبار اصحاب الاراضى الزراعية ومنهم المؤلفون فى شتى فنون المعرفة ومن خلال دراسة تراجم اعيان اليمن فى «خلاصة الأثر» يمكننا وصف الحياة الأدبية والفكرية بشكل واضح مع التركيز على أهم الاسر اليمنية التى ظهرت فى القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ودورها البارز فى شتى مجالات الفكر والأدب كحفظ القرآن الكريم وتحفيظه ودورها فى القضاء والفقه والتدريس والشعر والنثر وحركة التصوف واعمال البر والخير وعند

القاء الضوء على تلك النقاط الهامة من خلال دراسة سير تراجم اسر اليمن واعيانها يمكننا تحديد صورة الحياة الأدبية والفكرية فى اليمن فى هذه الفترة اعتمادا على ما ورد «المحبى» فى كتابه . ولاشك أن الاسر العربية فى مختلف المراكز الفكرية والأدبية لعبت دورا كبيرا لاستمرار الحياة الأدبية والفكرية وعند تتبعنا للتراجم التى فيه نلاحظ بشكل واضح انتقال العلوم بين أسر معينة فى أكثر الأحوال بالاضافة إلى ظهور الكثير من الأفراد بطبيعة الحال غير أن تلك الأسر اخذت على عاتقها ودراسة وتدريس العلوم وتوارثها أبا عن جد وربما تظهر اليمن والأسر اليمنية فى «خلاصة الأثر» بشكل أكثر وضوحا لتصور لنا توارث ابناء هذه الأسر لمختلف العلوم ودورها البارز فى تحمل مسؤلية نقله واستمراره وتنشيط الحياة الأدبية والفكرية .

امتازت اليمن كبقية الحواضر الاسلامية بظهور نوع من الحياة الأدبية والفكرية فيها هنا وهناك وكما كانت المراكز الحضارية فى الدول الاسلامية كانت اليمن كذلك مركزا فكريا وادبيا لايقل أهمية عن تلك المراكز ولاسيما فى القرن السابع عشر الميلادى حيث ظلت المدارس والمساجد والرحلات العلمية مصادر للزاد العلمى والثقافى بشكل عام وظل الشعراء والكتاب ينظمون شعرا ويؤلفون ويكتبون بما تفرضه عليهم طبيعة العصر من نظم وتأليف وكتابة .

٧- أسر الفكر والأدب

ظهر كثير من الأسر على مر التاريخ التى توارثت العلم والأدب فى كثير من المراكز فى شتى بلاد العالم الاسلامية فى مكة والمدينة وبغداد ودمشق وحلب والقاهرة ونيسابور وغيرها مثل اسر «البترونى» و «العرصى» والكواكبى فى حلب و «الكيلانى» و «المحبى» و «المرادى» فى دمشق فى هذه الفترة وفى اليمن ظهر أكثر من أسرة توارثت انواعا مختلفة من العلوم الدينية والدنيوية فى هذه الفترة أيضا ويرجع الفضل الكبير للاهتمامات الشخصية للأسر وابناء هذه الاسر فى توارث العلم فى بيوتهم وأسرهم وحيث الوضع الاقتصادى والمادى المحدد لتلك الاسر فكان واجبا اسريا اهتمامها بالعلم ونقله إلى الابناء بالاضافة إلى من يريد الالتحاق بالدروس امانة ذاتية يتناقله الابناء عن الأباء اكثر منه وظيفة للتكسب أو صنعة للمعيش ولعل اهم اسباب تناقل العلم عن تلك الأسر يتمثل فى :

١- الاحساس بان التعلم ونقل العلم إلى الأبناء واجب دينى وامانة امام الله يجب على العالم أن يؤديها إلى المتعلم وحتى يتم تحقيق ذلك الواجب لابد من نقله إلى الأبناء ولذلك شاع أيضا التدريس وسيلة لنقل ذلك العلم إلى الأبناء فارتبط العلم بالتدريس ارتباطا وثيقا أكثر من التأليف أو الانتفاع الشخصى فى أكثر الأحيان .

٢- وقد يكون الاحساس بالمسئولية والالتزام امام الأسرة عاملا آخر يوجب على المتعلم نقل ما تعلمه إلى الأبناء ففى مجتمعات اليمن كانت العلاقات الأسرية تحترم بشكل كبير وهى مظهر للأمان والطمأنينة ومفخرة فى الانتساب إلى بيت كبير واسر عريقة .

٣- كما أن الحفاظ على المكانة الاجتماعية والعلمية التى وصلت إليها الأسرة واحترام سيرة الأباء والأجداد يحتم على الأبناء اكمال المسيرة فى حب العلم ونقله إلى الابناء لتبقى المكانة الاجتماعية والعلمية فى الأسرة التى ينتمى إليها فهى مفخرة له وشرف عظيم ولاسيما أن المجتمع وابناءه يكنون الكثير من الاحترام والتقدير لأسر وبيوت العلم والفكر والأدب .

٤- أن نشوء الابناء فى محيط علمى فكرى والتنقل بين البيت والمسجد مكان تلقى العلم والمدرسة وملازمة الآباء فى جلساتهم واصطحابهم للأبناء يقود الابن إلى التأثر بالمحيط الذى حوله كما أن ارتباط المسجد مكان العبادة بالتحصيل العلمى حيث تعقد حلقات الدروس جعل الامرين الصلاة والدراسة متلازمين .

٥- أن التكوين الفطرى والميل الشخصى لدى أبناء الأسرة الواحدة قد يشجع بعض هؤلاء الابناء على توارث العلم ولاسيما الافتاء الذى يتطلب تكوينا فطريا عقليا معينا يساعد المفتى أو القاضى على أن يكون بارعا فى علمه وفتاويه كما يكون حافظا وذا عقلية تقبل المنطق والقياس وبديهة ثاقبة وغيرها من الأحداث التى يجب أن تتوفر فى المفتى والقاضى وكالشعر أيضا فهو ملكة قد تكون متوارثة يتناقلها الابناء عن الآباء وكالطرق الصوفية التى هى مران وتعود على العبادة بشكل تقليدى بين الأسرة الواحدة «كالعيدروسية» وهذا لايعنى بطبيعة الحال أن يكون ابن المفتى مفتيا وابن الشاعر شاعرا وابن المتصوف صوفيا فى كل الأحوال .

ظهر فى اليمن أكثر من بيت وأكثر من اسرة توارثت العلوم المختلفة من الاجداد أو الطريقة وكان لهذه الاسر ولغيرها الفضل الأكبر فى ابقاء اليمن مركزا فكريا وحضاريا كما

كان قديما ولايزيد حصر كل بيوت واسر العلم فى اليمن فى القرن السابع عشر الميلادى فى كثيرة ولكننا نركز على بعضها الذى اظهر لنا عددا أكبر واعمالا فكرية وادبية أكثر وكان لها الفضل فى استمرار التيار الفكرى والأدبى فى اليمن واليك أهم تلك الأسر :

أولا : آل العيدروس :

تعد اسرة العيدروس واحدة من ابرز واكبر الاسر فى اليمن ومن خلال قراءة تراجم ابناء اسرة العيدروس نلاحظ أن مدينة «تريم» فى حضرموت هى موطنهم حيث ولد واستقر ودرس فيها أكثر ابناء هذه الأسرة كما نلاحظ أن المذهب الشافعى مذهبهم الفقهى مع ميل أكثرهم إلى التصوف والاهتمام بقراءة كتب الصوفية ولاسيما كتاب الغزالى «إحياء علوم الدين» ولم يكتفوا بذلك بل نظموا الكثير من القصائد والفوا الكتب فى الطريقة الصوفية ولاسيما الطريقة «العيدروسية» المتسوبة لعفيف الدين الامام عبدالله العيدروس ، ولاشك أن ظهور ما يقارب من العشرين شخصية من اسرة واحدة فى قرن واحد يشكل ظاهرة هامة فى دور الاسرفى اليمن فى حمل لواء العلم والفكر والأدب ، وتعددت الاهتمامات الفكرية والأدبية لهذه الأسرة فى «تريم» خاصة وحضرموت و «عدن» عامة وربما تجاوزت إلى «الهند» و «جنوب شرق آسيا» و «شرق افريقيا» وغيرها لتترك بصمات هذه الأسرة فى المجال العلمى والأدبى والفكرى وأكثر اهتماماتهم كانت فى :

١- حفظ القرآن الكريم

اهتمت الأسرة اهتماما واضحا وكبيرا بتحفيظ أبنائها القرآن الكريم منذ الصغر فالقرآن الكريم هو الركيزة الاساسية التى ينطلق منها كل مهتم بالعلوم الشرعية أو الأدبية ونلاحظ عبارة «ولد بتريم وحفظ القرآن الكريم» عند اكثر تراجم هذه الأسرة وابناء الاسر الأخرى الذين ولدوا «بتريم» وعند قراءة تراجم ابناء اسرة العيدروس فى «خلاصة الأثر» نلاحظ اهتمام اكثرهم بحفظ القرآن وتحفيظه مثل ابى بكر بن حسين بن محمد بن حسين بن الشيخ عبدالله العيدروس المشهور بالعزيز المتوفى عام ١٦٥٧ واحمد بن عمر بن عبدالله بن علوى بن عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦١٧ وجعفر الصادق بن على بن زين العابدين بن عبدالله بن الشيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦٥٣ وشيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦٣١ والذى كان مهتما بعلم القراءات العشر القرآنية أيضا وعبد الله بن شيخ بن عبدالله بن الشيخ عبدالله

العيدروس المتوفى عام ١٦١٠وعلوى بن عبدالله بن احمد بن حسين بن الشيخ عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦٤٥ وعلى بن عبدالله بن احمد بن حسين بن الشيخ عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦٦٧ ومحمد العيدروس بن عبد الله بن شيخ بن عبدالله بن الشيخ عبد الله العيدروس المتوفى عام ١٦٢٠ .

٢- الشعر

من افراد اسرة العيدروس ممن ينظمون الشعر الجيد ومنهم عبدالله بن احمد بن حسين بن عبد الله بن شيخ بن عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦٤٣ وفيه يقول المحبى : « وكان ممن جمع له الحفظ والفهم وكان حسن الشعر والنثر اماما فى العلوم الشرعية وفنون الأدب ... » ومنهم على زين العابدين بن عبد الله بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن الشيخ عبد الله العيدروس المتوفى عام ١٦٣٠ ويذكر المحبى بالاضافة إلى شاعريته أن له مجلسا أدبيا يجتمع فيه جماعة من الفضلاء ... » واتفق فى عصره جماعة من الفضلاء والأدباء فكانوا يجتمعون فى مجلسه ويقع له معهم رشيقة وكان فى استحضار مباحث التفسير والحديث والتصوف أية لاتدرك وكان حافظا لشوارد اللغة وشواهد النحو مستحضرا لها وله نظم ونثر وأكثر شعره يوجد مقاطيع وله رسائل كثيرة ... » .

٣- التصوف

كما مال أكثر اعيان اليمن إلى التصوف فقد مال بعض أفراد أسرة العيدروس إلى التصوف علما وممارسة وكان من أشهرهم أبوبكر بن حسين بن محمد بن أحمد بن حسين بن الشيخ عبدالله العيدروس وأحمد بن حسين بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٥٩٩ وشيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن شيخ عبدالله العيدروس وعبدالقادر بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦٢٨ ومحمد بن احمد بن الحسين بن الشيخ عبدالله العيدروس المتوفى عام ١٦٢٨ وعلى بن زين العابدين بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن الشيخ عبدالله العيدروس .

٤- التدريس

تقف اسرة العيدروس واحدة من أكبر الأسر فى اليمن ممن افادوا كثيرا من التدريس سواء تدريس الفقه والحديث والتفسير أو تدريس اللغة العربية والأدب العربى أو تحفيظ القرآن

وكان من ابرز من تولى التدريس من اسرة العيدروس ابوبكر بن حسين بن محمد العيدروس وجعفر الصادق بن على بن زين العابدين العيدروس وشيخ بن عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن عبدالله العيدروس وعبد الرحمن بن محمد بن عبدالله بن شيخ العيدروس وعبدالقادر بن شيخ بن عبدالله بن شيخ العيدروس وعبدالله بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن الشيخ عبدالله العيدروس .

٥- اعمال البر والخير

اهتمت اسرة العيدروس بالانفاق والاهتمام بالمساجد والمدارس وكان من ابرزهم عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن شيخ بن الشيخ عبدالله العيدروس الذى يقول عنه المحبى : «وله مآثر كثيرة بتريم منها المسجدان المشهوران أحدهما فى طريق «تريم» الشمالى ويسمى مسجد «الابرار» والآخر فى طرفها الجنوبى ويسمى مسجد «النور» وبنى بقرب مسجد النور سبيلا يملا دائما وغير ذلك وغرس نخيلا كثيرا ينتفع به كثيرون من الفقراء وأبناء السبيل » .

ثانيا : الأهدل

اسرة الأهدل من الأسر اليمنية الكبيرة وأكثرها مساهمة فى مجالات الفكر والأدب ويشير المحبى إلى أنهم سكنوا قرى منها «الحيلة» و «الحديدة» كما سكن بعضه «المنيرة» وقرية «الدريهمى» وغيرها ويرجع نسبهم إلى الحسين بن على بن أبى طالب كما يشير المحبى عند ترجمة ابى بكر بن ابى القاسم بن احمد الأهدل بقوله : «الشيخ ابوبكر بن ابى القاسم بن احمد بن محمد بن ابى بكر بن محمد بن سليمان بن ابى بكر بن القاسم خزانة الأسرار بن ابى بكر بن المعمر بن ابى القاسم بن عمر بن على الأهدل بن الحسين مصغرا بن على بن زين العابدين بن الحسين بن على بن ابى طالب رضوان الله عليهم اجمعين كذا ذكر نسب بنى الأهدل جماعة » . وبرز أكثر من واحد من ابناء هذه الأسرة واسهموا فى مجالات فكرية وأدبية كثيرة منها :

١- حفظ القرآن الكريم

وكما حفظ أكثر أبناء أهل اليمن القرآن عند التحاقهم بحلقات القراءة فى المساجد أو المدارس فقد حفظ القرآن أيضا الكثير من أبناء الأهدل كما قاموا بتحفيظه للأبناء عامة .

٢- التصوف

اعتنى بالتصوف وقراءة كتب الصوفية والاقتداء بسنتهم غير واحد من بنى الأهدل وان اشهرهم ابوبكر بن ابى القاسم بن احمد الأهدل وحاتم بن احمد بن مرسى بن ابى القاسم بن محمد بن ابى بكر بن احمد بن عمر بن احمد بن عمر المتوفى عام ١٦٠٤ ومحمد بن عمر بن عمر بن عبدالقادر بن احمد بن حسن بن عمر بن محمد بن احمد بن عمر بن احمد بن عمر بن الشيخ على بن عمر الأهدل المتوفى عام ١٦٢٢ .

٣- التدريس

كرس أكثر من واحد من بنى الأهل جهدهم للتدريس فى مناطق مختلفة فى اليمن وكان من اشهرهم فى التدريس ابوبكر بن ابى القاسم بن احمد الأهدل المتقدم ذكره فلقد علم اخوته القرآن ومحمد بن ابى بكر بن محمد بن عفيف بن الهادى بن ابى جحرية بن ابى القاسم بن احمد بن عبدالرحمن الشريعى بن ابى بكر بن عبدا الرحمن بن ابى بكر بن على الأهدل المتوفى عام ١٦١٤ وكان مدرسا للفقه وغيره .

٤- الشعر

برز بنى الأهدل من نظم الشعر الجيد كأبى بكر بن ابى القاسم بن احمد الأهدل وحاتم ن احمد بن موسى الأهدل المتقدم ذكرهما .

ثالثا : آل العلوى أو باعلوى

وهى واحدة من أكبر اسر العلم باليمن وبرز منهم كثيرون فى اكثر من مجال كالفقه والقضاء والتدريس والتصوف وقرض الشعر وغيرها وكانت مدينة «تريم» بحضرموت مركزهم الأول كما هو واضح فى ترجماتهم عند المحبى فى «خلاصة الأثر» وعرف رجال هذه الأسرة بأكثر من تسمية وكنية مثل «الشلى» «الجفرى» «الحبشى» «العطاس» «الحامد» وغيرها ويرجع نسبهم كما يشير المحبى فى «خلاصة الأثر» إلى الامام الحسين بن على بن ابى طالب فيقول: «وآل باعلوى منسوبين إلى علوى وهذه النسبة وإن لم تكن من وضع العربية لكنها معروفة لأهل الديار الحضرمية فانهم يلزمون الكنية الألف كل حال على لغة القصر فيقول لبنى علوى باعلوى ولبنى حسن باحسن ولبنى حسين باحسين وعلوى هو ابن عبدالله بن الامام

احمد بن عيسى النقيب بن على العريضى بن جعفر الصادق حفيد الامام حسين بن على ابى طالب رضى الله عنهم وأنه جدهم الأكبر الجامع لنسبهم ونسبهم مجمع عليه عند أهل التحقيق وقد اعتنى ببيانه جمع من العلماء . وذكر بعضهم أن الاشراف السادة بنى علوى لما استقروا بحضرموت فسافر الامام الحافظ المجتهد ابو الحسن على بن محمد بن حديد إلى العراق واثبت نسبهم واشهد على ذلك نحو مائة عدل ممن يريد الحج ثم اثبت ذلك بمكة واشهد على ذلك جميع من حج من أهل حضرموت .

الاستاذ الأعظم والفقيه المقدم نسبة إلى محمد بن على بن محمد بن على بن علوى الحسينى الحضرمى الفقيه المتصوف المتوفى عام ١٢٥٥ وقد شارك ابناء هذه الأسرة فى القرن السابع عشر فى أكثر من مجال دينى وأدبى أهمها .

١- حفظ القرآن الكريم

اعتنت هذه الأسرة عناية خاصة بحفظالقرآن وتحفيظه بحيث أصبح من الملاحظ بشكل واضح عند قراءة تراجم ابناء هذه الأسرة عبارة «ولد بتريم وحفظ القرآن وبالاضافة إلى حفظ القرآن الكريم قام ابناء هذه الأسرة بتحفيظ القرآن الكريم للابناء بشكل خاص وابناء «تريم» وطلاب العلم الأخرين بشكل عام .

٢- التدريس

لعبت هذه الأسرة دورا بارزا وقدمت جهودا ملحوظة فى التدريس فظهر أكثر من مدرس من ابناء هذه الأسرة الذين قاربوا العشرين وشاركوا فى تدريس الفقه والتفسير والحديث الشيخ ابى بكر بن سعيد بن ابى بكر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن باعلوى ال الجفرى المتوفى عام ١٦٧٧ وابى بكر بن احمد بن ابى بكر بن عبد الله باعلوى الشلى المتوفى عام ١٦٤٣ وابى طالب بن احمد بن محمد بن علوى بن ابى بكر الحبشى المتوفى عام ١٦٤٥ الذى درس علمى الفرائض والحساب وغيرهم كثيرون كالشيخ احمد بن حسين بن عبدالرحمن بن عبدالله فقد كان عالما ومفتى زمانه وكذلك شيخ بن على بن محمد بن علوى الذى درس بالمدرسة السلطانية بميناء الشحر العلوم الشرعية ومحمد بن ابى بكر احمد بن ابى بكر بن عبدالله بن ابى بكر بن علوى وغيرهم .

٣- التصوف

وكما شاعت الصوفية عند العيدروس وبن الأهدل فقد شاعت بين ابناء آل العلوى وانتشرت وظهر غير واحد منهم وتفننوا بالطرق الصوفية سماعا وقراءة وتدريسا فقد ظهر ابوبكر بن احمد بن ابى بكر بن عبدالله باعلوى «العلوى» الشلى الصوفى الكبير المتوفى عام ١٦٤٣ ومما يذكره المحبى أن ابابكر الشلى قرأ الإحياء فى عشرة أيام أى إحياء علوم الدين للغزالى ومما يذكره أيضا عن صوفية تريم «أن الامام العيدروس قرأ البخارى بلفظة أيام الاستشفاء فى يوم واحد وكان الوالد يجمع جماعة يسبحون الف تسبيحة يهديها لبعض الاموات ويهللون سبعين الف تهليلة يهديها لبعضهم وكان أهل تريم يعتنون بهذا ويوصى بعضهم بمال لذلك وكان هو المتصدى لذلك والقائم به وهذا المذكور تداوله الصوفية قديما وحديثا وأوصى بعضهم بالمحافظة عليه » ومنهم أيضا الشيخ ابو بكر بن سعيد بن ابى بكر بن عبدالرحمن بن عبدالله بن علوى الجفرى المتوفى عام ١٦٧٧ والشيخ محمد بن ابى بكر بن احمد ابى بكر بن عبدالله المتوفى عام ١٦٨٨ وكذلك ابى طالب بن ابى بكربن عبدالله بن ابى بكر بن علوى بن عبدالله بن علوى المتوفى عام ١٥٩٥ واحمد بن ابى بكر بن احمد بن ابى بكر بن عبدالله بن ابى بكر بن علوى المتوفى عام ١٦١٠ وكالشيخ احمد بن حسين بن عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد بن علوى بن محمد المتوفى عام ١٦٣٨ واحمد بن محمد بن علوى المتوفى عام ١٦٢٨ وعقيل بن عمر بن عبدالله بن على الشهير بعمران المتوفى عام ١٦٥١ وعلى بن عمر بن على بن عبدالله بن عمر بن سالم المتوفى عام ١٦٨٤ وعمر بن على بن عبدالله بن على بن عمر بن سالم بن محمد بن عمر باعلوى المتوفى عام ١٦٥٢ واشهر امام الصوفية بحضرموت الشيخ محمد بن عقيل بن شيخ بن على بن عبدالله المتوفى عام ١٥٩٦ الذى قال عنه المحبى وكان له اعتناء تام بكتاب إحياء علوم الدين فكان يقرأ منه جزء فى كل يوم ... »

٤- القضاء والفقه والحديث :

ويرز أكثر من عالم من اسرة آل علوى فى تولى القضاء وتدريس الفقه والحديث والتأليف وكان اشهرهم شيخ بن على بن محمد بن علوى بن ابى بكر بن جعفر الجفرى المتوفى عام ١٦٥٢ ويقول عنه المحبى بعد رحيله إلى ميناء «الشحر» فاشتهر بها وعلا صيته وأقبل عليه أهلها وعظموه وأجلوه وولى بها مشيخة التدريس بالمدرسة السلطانية فدرس فى العلوم

الشرعية وافاد وانتفع به خلق كثير وولى خطابة الجامع ثم ولى القضاء كما ظهر الشيخ احمد بن حسين بن عبد الرحمن بن عبدالله بن احمد بن على بن محمد المتوفى عام ١٦٣٨ وكان قاضيا عادلا قال عنه المحبى «ويقال أنه فى مذهب الشافعى احفظ اهل جهته وله فتاوى منتشرة مفيدة ثم عين لقضاء تريم والزم بعد امتناع فحمدت طريقته ونفع الله تعالى بفراسته ونفوذ احكامه اهل تلك مع خفض الجناح ولين الجانب والحلم والصبر » . وكان من اشهر من برع فى الفقه والحديث احمد بن ابى بكر بن احمد بن ابى بكر بن عبدالله بن ابى بكر بن علوى المتوفى عام ١٦٤٨ والشيخ محمد بن ابى بكر بن احمد بن ابى بكر بن عبدالله المتوفى عام ١٦٨٨ وغيرهم .

٥- النظم والنثر

شارك آل العلوى فى الحياة الأدبية أيضا فظهر أكثر من واحد من ابناء هذه الأسرة ممن له نظم حسن ونثر لطيف وكان من ابرزهم ابو طالب بن احمد بن محمد بن علوى بن ابى بكر الحبشى المتوفى عام ١٦٤٥ وعبد الرحمن بن احمد البيض بن عبد الرحمن المتوفى عام ١٥٩٢ وفيه يقول المحبى «وله نظم حسن ومدح شيخه الشيخ ابا بكر المذكور وغيره بقصائد كثيرة ونظمه متداول» وكذلك على بن عمر بن على بن عبدالله بن عمر بن سالم بن محمد بن عمر المتوفى عام ١٦٨٤ فقد كان له نظم ونثر كما يشير المحبى أيضا .

رابعا : السقاف

وأسرة السقاف واحدة من أكبر الاسر التى عرفتها اليمن وخاصة «سيؤن» و «تريم» فى حضروت وشارك ابناء هذه الأسرة فى شتى الميادين الفكرية والأدبية وأهمها :

١- حفظ القرآن الكريم

اهتمت أسرة السقاف بحفظ القرآن الكريم وكثيرا ما تقابلنا عند قراءة تراجم ابناء هذه الأسرة عبارة «ولد بتريم وحفظ القرآن» وفى الوقت الذى يتلقى فيه الابناء درس حفظ القرآن كرس الأباء جهدهم لتحفيظ القرآن الكريم فى المساجد والمدارس .

٢- التدريس

برز أكثر من واحد من أبناء هذه الأسرة ليشارك مشاركة فعالة فى تدريس مختلف العلوم ولعل اشهرهم الشيخ ابوبكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين احمد عبدالرحمن السقاف

المعروف بابن شهاب المتوفى عام ١٦٥٠ الذى درس محمد الشلى صاحب «السنا الباهر بتكميل النور السافر» وصاحب «عقد الجواهر» يقول المحبى «قال الشلى وامرنى الوالد بالاشتغال عليه فقرأت عليه الكثير وأخذت عنه العربية والحديث والتفسير» . وكذلك الشيخ احمد بن عمر بن عبدالرحمن بن احمد بن ابى بكر بن ابراهيم بن عبدالرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٤٠ وهو الاستاذ الأول للشلى وفى ذلك ينقل المحبى ما قاله الشلى عنه «قال الشلى: وهو أول شيخ أخذت عنه فى عنفوان عمرى أخذت عنه الحديث والفقه والتصوف والنحو...». وكذلك عبد الرحمن بن شهاب الدين احمد بن عبد الرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٠٥ الذى يقول عنه المحبى «وجلس للدروس وأقبل عليه الطلاب وانتفع به خلف كثير وتخرج به جماعة منهم أولاده والشلى الكبير والد المؤرخ » وكذلك عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن على بن عبد الرحمن بن عبدالله بن محمد بن عبد الرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٣٨ ويقول فيه المحبى نقلا عن الشلى : «وهو من اعظم مشايخى الذين اخذت عنهم وانتفعت بهم ولازمت حضرته واقتنمت بركته واقتبست من فوائده واستمتعت بفوائده فقرأت عليه البداية والتبيان قراءة تحقيق وبيان وسمعت الإحياء بقراءة غيرى وانتفع به جمع من الخلائق وصاروا من أهل الحقائق ...» فكان بذلك ابناء هذه الأسرة مهتمين بتدريس الحديث والتفسير والنحو والعربية والقرآن الكريم .

٣- التصوف

شارك أبناء هذه الأسرة مشاركة واضحة فى حركة التصوف التى شاعت وانتشرت بشكل ملحوظ فى اليمن دراسة وممارسة . وكان من ابرز صوفية هذه الأسرة ابوبكر بن عبدالرحمن الشهير بابن شهاب ١٦٥٠ واحمد بن عمر بن عبد الرحمن بن احمد بن ابى بكر بن ابراهيم بن عبد الرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٤٠ وعبد الرحمن بن محمد بن على بن عقيل بن احمد بن الشيخ على السقاف المتوفى عام ١٦٠٢ الذى اهتم بكتاب احياء علوم الدين والشيخ محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن على السقاف المتوفى عام ١٦٣٨ وشيخ بن عبدالله بن عبد الرحمن بن شيخ بن عبدالله بن عبد الرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٠٧ وحسين بن ابى بكر بن سالم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن الشيخ بن عبد الرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٣٤ حيث كان مولعا بمطالعة كتب ابى حامد الغزالى .

٤- القضاء والفقه

شارك ابناء هذه الأسرة فى الفقه والقضاء وبرز منهم أكثر من واحد فى هذين المجالين الأول عبد الرحمن بن شهاب الدين احمد بن عبد الرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٠٥ فقد كان مفتى الشافعية بديار حضرموت وقاضى القضاء ويقول عنه المحبى نقلا عن الشلى : « ... ثم ولى القضاء بتريم فسلك احسن السلوك ولم يشغله القضاء عن التدريس والافتاء وكان حسن العبارة وله فتاوى مفيدة » . والثانى الحسن بن ابى بكر بن سالم بن عبدالله بن الشيخ عبدالرحمن السقاف المتوفى عام ١٦٤٨ فقد ولد بعينات ونشأ بها وحفظ القرآن فقد كان قاضيا لحضرموت وعنه يقول المحبى «وأخذ اخوانه الكبار وأدرك اباه وهو صغير السن واشتغل بالعلوم والمعارف وعنى بالفقه والتصوف وولى قضاء بلده وحمدت سيرته وانتفع به جماعة كثيرون .

خامسا : الزيلعى

أسرة الزيلعى واحد من الأسر الكبيرة فى اليمن فى القرن السابع عشر وظهر قرابة الأحد عشر رجلا من الزيلعى فى تلك الفترة باليمن وكانت مدينة «اللحية» على ساحل البحر الأحمر مركزهم ويعتبر احمد بن عمر الزيلعى المتوفى عام ١٣٠٤ من أوائل الأسرة المشهورين حيث ينتسب إليه رجال الزيلعى فى القرن السابع عشر واحمد بن عمر الزيلعى العقيلى اليمنى الهاشمى من ذرية عقيل بن ابى طالب ولقد كان لأبناء هذه الأسرة أنشطة فى اليمن فى تلك الفترة أهمها :

حفظ القرآن

اعتنى ابناء هذه الأسرة بحفظ القرآن وتحفيظه للآخرين مثل الشيخ ابى بكر بن محمد بن سريق بن المقبول بن عثمان الزيلعى المتوفى عام ١٦٨٢ فقد كان يحفظ القرآن الكريم وكذلك الشيخ ابى بكر بن المقبول بن عبد الغفار بن كبر الزيلعى المتوفى عام ١٦٣٢ فقد كان يحفظ القرآن الكرين أيضا وكذلك عثمان بن ابراهيم بن سفين بن عمر بن احمد الزيلعى فقد كان يحفظ القرآن وكذلك الشيخ محمد ابى سريق بن المقبول بن عثمان بن احمد الزيلعى المتوفى عام ١٦٣٨ فقد كان حافظا للقرآن الكريم أيضا .

بالإضافة إلى الأسر الكبيرة فى اليمن فى القرن السابع عشر سالفة الذكر فقد ظهرت مجموعة أسر أخرى وعند فحص عدد الأعيان من العلماء والأدباء والبارزين الذين ظهروا فى اليمن نرى أن أبناء الأسر الأخرى أقل عددا وإن بقيت قضية غزارة العلم ونوعه قضية نسبية بينهم وأهم تلك الأسر التى يعتبر رجالها أقل عدد هى :

سادسا : الشرفى

ظهر غير واحد من أبناء هذه الأسرة فى ميادين الشعر والفقه والنحو والمعانى والبيان منه:

١- على بن عبدالله بن المهلا بن سعيد على الشرفى المتوفى عام ١٦٣٩ .

٢- يحيى بن احمد بن محمد الشرفى المتوفى عام ١٦٧٨ .

٣- الناصر بن عبد الحفيظ المهلا الشرفى المتوفى عام ١٦٧٠

٤- عبد الله بن عبدالله بن المهلا بن سعيد الشرفى المتوفى عام ١٦٥١ .

٥- عبد الحفيظ بن عبدالله بن المهلا الشرفى المتوفى عام ١٦٦٦ .

٦- حسن بن الناصر بن عبد الحفيظ الشرفى المتوفى عام ١٦٧٨ .

سابعا : آل مولى عيديد

اشتهر غير واحد من أبناء هذه الأسرة فى القضاء والفقه والتدريس والتصوف وحفظ القرآن الكريم مثل (١) الشيخ بكر بن محمد بن على بن احمد بن عبدالله بن الامام محمد مولى عيديد المتوفى عام ١٥٩٦ (٢) حسين بن محمد بن على بن احمد بن عبدالله بن محمد مولى غيديد المتوفى عام ١٦٣٠ (٣) عبد الرحمن بن علوى بن احمد بن علوى بن محمد مولى عيديد المتوفى عام ١٦٣٧ (٤) عبدالله بن حسين بن محمد بن على بن احمد بن عبدالله بن محمد مولى عيديد (٥) عبدالله بن زين بن محمد بن عبدالرحمن بن زين بن محمد مولى عيديد .

ثامنا : آل باجمال

وهى أسرة عربية عريقة كانوا ملوك حضرموت ويرجع نسبهم إلى «كندة» وشاركوا أبناء اليمن فى القرن السابع عشر فى مختلف المجالات العلمية والفكرية والأدبية كالافتاء

والتدريس والتصوف والشعر وظهر منهم (١) احمد بن الفقيه عبد الرحمن بن سراج باجمال المتوفى عام ١٦٠٩ (٢) عبد الله بن الفقيه عبد الله بن سراج باجمال المتوفى عام ١٦٢٣ (٣) عبد الله بن عمر بن عبد الله بن احمد باجمال المتوفى عام ١٦٠٩ .

تاسعا : بنو مطير الحكمى

وظهر غير واحد من ابناء هذه الأسرة المنتسبة «لمطير» تصغير مطر بن على بن عثمان الحكمى من حكماء «الحرض» وكان مطير من أعيانهم وغالبهم فى المكان المعروف «بالحضن» من المخلاف السليمانى وهم بيت علم وصلاح مشهورون باليمن » . وظهر منهم فى اليمن كثيرون برعوا فى الشعر والافتاء والتدريس منهم (١) احمد أبو العباس بن على بن محمد بن ابراهيم مطير الحكمى المتوفى عام ١٦٦٤ (٢) على بن محمد ابى بكر بن ابرهيم بن ابى القاسم بن عمر بن احمد بن ابراهيم بن محمد بن عيسى مطير الحكمى المتوفى عام ١٦٣١ (٣) على بن محمد محمد بن ابى بكر بن مطير المتوفى عام ١٦٧٣ (٤) عمر بن محمد بن ابى بكر المتوفى عام ١٦٢٩ (٥) محمد بن ابى ابى بكر مطير المتوفى عام ١٦٧٥ .

عاشرا : آل جمل الليل

شارك أبناء هذه الأسرة فى الحياة العلمية والأدبية فى اليمن ولاسيما فى القضاء والفقه والدريس والتصوف وكان اشهرهم (١) سهل بن احمد بن سهيل بن احمد بن عبدالله بن محمد المعروف بجمل الليل المتوفى عام ١٦٦٥ (٢) عبد الرحمن بن عبدالله بن احمد بن على جمل الليل المتوفى عام ١٦٥٩ (٣) علوى بن عمر بن عقيل بن محمد بن احمد بن عبدالله الشيخ محمد جمل الليل المتوفى عام ١٦٤٤ (٤) محمد الباقر بن عمر بن عقيل بن محمد بن احمد بن عبدالله بن جمل الليل المتوفى عام ١٦٦٨ .

حادى عشر : النعمى الحسنى

ظهر غير واحد من أبناء هذه الأسرة الذين يرجع نسبهم إلى «جد لهم اسمه نعمة وهؤلاء سادة أشراف بيت علم وفضل وأدب وهم من ذرية الحسن المثنى ومقامهم بجهة صبيا » والحسن المثنى هو ابن الحسن السبط بن على بن ابى طالب وشاركوا فى العلوم الشرعية والشعر والنثر وحفظ القرآن وكان اشهرهم : (١) حسن بن على بن حسن بن محمد بن الحسن النعمى الحسن المتوفى عام ١٦٥٢ (٢) حسن بن على بن حفظ الله بن عبدالرحمن النعمى

الحسنى المتوفى عام ١٦٦٨ (٣) على بن الحسن بن محمد بن الحسن بن عبدالرحمن النعمى الحسنى المتوفى عام ١٦٥٢ (٤) محمد بن على بن حفظ الله بن عبدالرحمن النعمى الحسنى المتوفى عام ١٦٦٨ .

ثانى عشر : ابن جمعان

وهو بيت كريم فى زبيد ويرجع نسبهم إلى علاء بن عدنان العكى العدنانى وشارك ابناء هذه الأسرة فى اليمن فى القرن السابع عشر فى مختلف المجالات كالفقه والحديث والتدريس والقضاء والنظم والنثر وحفظ القرآن الكريم واشهر ابناء هذه الأسرة هم : (١) الشيخ ابراهيم بن عبدالله بن ابراهيم بن ابى القاسم بن اسحاق بن جمعان المتوفى عام ١٦٧٢ (٢) الشيخ ابراهيم بن محمد بن ابى القاسم جمعان المتوفى عام ١٦٢٤ (٣) اسحاق بن محمد بن ابراهيم بن ابى القاسم بن جمعان المتوفى عام ١٦٠٥ .

ثالث عشر الحديلى

وتشارك أسرة الحديلى ابناء اليمن فى القرن السابع عشر أيضا فى حفظ القرآن الكريم والتصوف والأدب واشهرهم فى تلك الفترة (١) زين بن عمر بن عبدالرحمن بن على بن عبدالله بن محمد بن عبدالله الحديل بن محمد بن حسن الطويل بن محمد بن عبدالله بن الفقية احمد بن عبدالرحمن بن علوى بن محمد صاحب «المرباط» فى «ظفار» المتوفى عام ١٦٧٨ (٢) زين بن محمد احمد الوترية بن عبدالله بن عبد الرحمن الحديلى المتوفى عام ١٦٦١ (٣) عبد الرحمن بن على بن عبد الله الحديلى المتوفى عام ١٦٢٧ .

رابع عشر : الدوعنى

شارك بعض ابناء منطقة «وادى دوعن» فى حضرموت الأسر اليمنية فى القرن السابع عشر فى عدة مجالات كالتصوف وحفظ القرآن الكريم والنثر وأشهرهم : (١) احمد بن عبدالقادر بن عمر الدوعنى المتوفى عام ١٦٤٢ (٢) سعيد بن عبدالرحمن الحضرمى القيدونى الدوعنى الشيبانى المتوفى عام ١٦٠٨ (٣) على بن عبدالله باراس الدوعنى الحضرمى المتوفى عام ١٦٤٤ .

خامس عشر : العجل

شارك أيضا أبناء أسرة العجل أبناء اليمن فى القرن السابع عشر فى مختلف المجالات كحفظ القرآن الكريم والتدريس والتصوف ونظم الشعر ، ويرجع نسبهم إلى علاء بن عدنان وكان اشهرهم (١) احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن محمد بن احمد العجل المتوفى عام ١٦٦٣ (٢) محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن احمد العجل المتوفى عام ١٦٠٣ (٣) موسى بن احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن احمد بن احمد العجل المتوفى عام ١٦٨٥ .

سادس عشر : ابن ابى الرجال

شارك ابناء هذه الأسرة فى الحياة الأدبية والعلوم الشرعية ومنهم (١) احمد صفى الدين بن صالح ابن ابى الرجال عام ١٦٨١ وكان أدبيا مؤرخا عالما بالمعانى والبيان والقرآن وهو مؤلف مطالع البدور ومجمع البحور الذى نقل عن المحبى بعض تراجم أهل اليمن (٢) على بن أحمد بن ابراهيم بن ابى الرجال المتوفى عام ١٦٤١ فقد كان قاضيا وعالما بالفقه والصوفية وغيرها .

بالإضافة إلى هذه الأسر السبعة هناك اسر كثيرة ظهرت فى أنحاء أخرى متفرقة من اليمن ولكنها قليلة ومن خلال قراءة تراجم المحبى فى «خلاصة الأثر» السابقة يتضح مشاركة عدد من الأسر اليمنية فى مختلف المجالات والعلوم وأنها عملت على استمرار اليمن كمركز حضارى فكرى طيلة العصر الحديث حتى العصر المعاصر ويمكننا أن نحدد اهم الميادين التى شارك فيها ابناء تلك الأسر والافراد وهى [٤٦] :

أولا : حفظ القرآن الكريم

فقد اتضح أن دور قراءة القرآن وتحفيظه للأبناء كانت تتحمله الأسر اليمنية نفسها وأفراد كثيرون من أبناء اليمن وفى الغالب يكون تحفيظ القرآن فى المساجد المختلفة كما كانت عملية التحفيظ تطوعية احتسابا لوجه الله تعالى واحساسا بالمسؤلية تجاه الدين وتجاه الابناء بل اعتبرها الكثيرون واجبا دينيا فلم يتقاضوا الأجور على ذلك بخلاف التدريس فى المدارس الذى خصص له مرتب تصرفه الدولة سواء كان تدريس الفقه أو الحديث أو التفسير أو غيرها من العلوم وبذلك تكون ثقافة العصر مرتبطة ارتباطا وثيقا بالدين الاسلامى نفسه ، ويعتبر

حفظ القرآن الكريم بداية الطريق ، طريق العلم ، ولعل مدينة «تريم» بحضرموت تعتبر فى اليمن فى العصر الحديث من اهم المراكز التى حافظت على سنة تحفيظ القرآن الكريم ليس فى الجزيرة العربية فقط وإنما فى العالم الاسلامى فلا تكاد تخلو ترجمة لعلم من اعلام «تريم» من قول الكاتب «ولد بتريم وحفظ القرآن » .

ثانيا : تولى القضاء

تعتبر مهنة القضاء من المهن الهامة والحساسة فبصلاح القضاء تصلح المجتمعات ، وعلى الرغم من أهمية وحساسية وخطورة القضاء إلا أن أمره أنيط بأهل اليمن أنفسهم فقد ولى القضاء الكثيرون من أبناء أسرة آل العلوى ومنهم العيدروس والسقاف وآل جمل الليل وآل مولى عيديد وغيرهم .

ثالثا : الفقه

كما تسلم ابناء اليمن القضاء فقد انيط بهم حمل امانة الفقه وظهر فى اليمن فى العصر الحديث الكثيرين من الفقهاء اليمنيين سواء أفراد أسرة آل العلوى ومنهم العيدروس أو السقاف أو غيرهم من الحكمى أو الشرفى ولاشك أن تولى أمر القضاء والفقه لأبناء البلد فيه نوع من الشعور بالذاتية والاستقلالية ولقد حرصت السلطة العثمانية على تولى امور القضاء والفقه فى أكثر الأحيان لأبناء البلد احتراما لكيانهم وإشعارهم بالأهمية والاستقلال بالشخصية وهم أيضا أدرى بأمور بلدهم وشعبهم من أى أجنبى من بلد آخر .

رابعا : التصوف

على الرغم من أن الصوفية فى اليمن كانت محاكاة للطرق الصوفية التى نشأت فى مصر والعراق والشام وعلى الرغم من أن الصوفية فى اليمن اتبعوا الطرق الصوفية العراقية كطريقة الشيخ عبدالقادر الجيلانى إلا أنها شاعت وانتشرت بشكل كبير جد وملفت للنظر فانتشر الصوفيون بشكل ملحوظ وكثرت الزوايا والحلقات للذكر والسماع وخصصت الجلسات والأدوات اللازمة للحلقات الصوفية وبرز الكثيرون من كبار الشخصيات والأدباء والشعراء والمفتشين والمدرسين والبارزين فى المجتمع اليمنى فى العصر الحديث كمتصوفة والفت من الكتب والحواشى والشروح والاراجيز والفتاوى فى الصوفية والتصوف حتى بدت الحركة

الصوفية مظهرا بارزا من مظاهر الحياة الفكرية فى المجتمع اليمنى فى تلك الفترة ولم تكن تخلو عائلة من عوائل اليمن أو شخصيتبارزة من ميل إلى الصوفية والتصوف .

خامسًا : التدريس

لعبت تلك الأسر وأفراد آخرون دورا فاعلا وبارزا جداً فى عملية التدريس فأكثر الشخصيات المذكورة كانت من المدرسين وانتشر التدريس بين مكانين الأول المساجد المختلفة وثانيا : المدارس المنتشرة فى انحاء مختلفة من مدن اليمن وكانت تدرس علوم الحديث والتفسير والفقه والادب والنحو واللغة والبلاغة والبيان والمعانى والشعر والنثر وعلم الحساب والميقات والطب والنجم وعلم الفلك وعلم البحار والملاحة والزراعة وغيرها من العلوم الأخرى وكانت الطريقة أن يجمتع الطلاب عند استاذهم فى الجامع أو المسجد أو المدرسة ويقرأوا العلم من أكثر من كتاب أو أن يقوموا بقراءة كتاب واحد فى علم واحد ثم يمنح الاستاذ فى النهاية الاجازة للطالب الذى اجتاز بنجاح المادة أو الكتاب فيجيزه لتدريس ليس هنا المكان للحديث عنها باسهاب ، فتدريس ابناء البلد فى اليمن فى العصر الحديث كان يتحمله اساتذة المدن والارياف أنفسهم بالإضافة إلى ما يقوم به الاساتذة الزائرون أو ما يطلبه طالب العلم اليمنى فى رحلته إلى مركز أخر خارج اليمن كمكة المكرمة أو المدينة المنورة أو الهند أو غيرها .

سادسا : الشعر والنثر والتأليف

لم يكن عدد الشعراء كعدد الصوفية بمختلف اتجاهتم ولكن ظهر بعض الشعراء من بنى الاهدل والعيدروس وآل العلوى والشرفى وغيرهم ولم يكن الشعر عندهم الا استمرار ثابتا لشكل ومضمون القصيدة التقليدية وإن كنا نلاحظ غلبة القصائد ذات الاتجاه الصوفى كما شاعت المجلات الشعرية بشكل ملحوظ وشاعت المكاتبات والمراسلات الاخوانية مثلما نراه عند الشيخ احمد بن سعيد بن الحسين بن محمد المسورى اليمى والحسين بن على الوادى اليمنى . أما التأليف فقد ترك أهل اليمن المئات من الأعمال سواء كانت تأليفا وتلخيصا أو تعليقات أو شروحا أو دواوين شعرية أو مكاتبات الفقه والحديث والأدب والشعر والتصوف والحساب والتاريخ وغيرها كثير، وما زالت أكثر هذه الأعمال مخطوطة ومنتشرة فى مختلف المكاتبات ودور المخطوطات والجامعات وغيرها داخل اليمن وخارجها .

سابعا : المراكز الفكرية

تتعدد المراكز الفكرية فى اليمن وقد زاولت مسؤلياتها كامتداد مستمر ، كما كانت تقوم به فى مختلف العصور وترددت اسماء مدن يمنية كثيرة كمراكز فكرية مثل " «تريم» و «قسم» و«زبيد» و «الشحر» و «اللحية» و «عينات» و «المخا» و «الغرفة» و «صنعاء» و «صبيا» و «ظفار» و «سرد» و «كوكبان» و «تريس» و «سيؤن» و «لحج» وغيرها ، غير أنه من الملاحظ أن مدينة «تريم» بحضرموت كانت أكبر مركز حضارى وفكرى فى اليمن فى العصر الحديث فقد خرج منها أكثر من ستين عالما فى القرن السابع عشر فقط فى فروع العلم المختلفة وهى نسبة كبيرة وعدد كبير إذا ما قيس بمن خرج من المدن الأخرى باليمن ونلاحظ أيضا أن مجموعة أسر تمركزت فى مدينة «تريم» الحضرمية مثل « العيدروس» و «السقاف» و«آل العلوى» و «الحديلى» و«مولى الدويلة» وآل مولى عيديد» و «آل جمل الليل» بينما انتشر آخرون من أهل العلم والفضل وبعض ابناء هذه الأسر فى مراكز فكرية أخرى فى اليمن ولاشك أن الرحلات العلمية وضرورات الحياة الأخرى قد دفعت إلى الترحال من مدينة إلى أخرى .

ومن هذا الذى تقدم نلاحظ أن اليمن فى العصر الحديث قد شهدت حياة فكرية وثقافية متنوعة وأن الأسر اليمنية لعبت دورا أساسيا فى مجالات مختلفة كالقضاء والافتاء والتدريس وانتشار المد الصوفى واستمرار الشعر والنثر والكتابة ، والتأليف متخذة المدارس والمساجد والجوامع والحلقات مراكز تعليمية ، وقد تمركزوا فى مدن يمنية كثيرة أهمها «تريم» وهذا يدل دلالة واضحة على استقلالية المدني العربية ولاسيما اليمن .

رابعا : امارة الدرعية ١٧٧٣-١٨١١

١- الأوضاع فى نجد قبل قيام امارة الدرعية

لم يمتد الحكم العثمانى إلى قلب شبه جزيرة العرب بعد سقوط الحجاز واليمن والعراق والاحساء فى أيدى العثمانيين ، بل تركز على أطرافها الغربية على سواحل البحر الأحمر وعلى أطرافها الشرقية على سواحل الخليج العربى فى الإحساء ، وفى خلال العقد الخامس من القرن السادس عشر حاولت الدولة العثمانية غزو وسط شبه الجزيرة العربية فأرسل السلطان سليمان القانونى حملة كبيرة حوالى عام ١٥٥٠ بقيادة باشا دمشق لاخضاع امارة «الشمر» فى «حائل» إلا أن هذه الحملة فشلت نتيجة مقاومة قبائل «الشمر» القوية شأنها شأن الجيوش الأجنبية التى تغزو الصحراء تلاشت دون أن تترك وراءها أثرا مثل الاخوار التى تبتلعها الرمال (٤٧). وبالتالى لم يخضع اقليم نجد للدولة العثمانية ولم يظهر ضمن قائمة التقسيمات الادارية التى وضعت فى أوائل القرن السابع عشر وظل معمولا بها حتى القرن التاسع عشر .

لم يشهد اقليم نجد ولاة عثمانيين يأتون إليه ولاحامية عثمانية تجوب خلالها وربما كان تعليل ذلك ، أن الدولة العثمانية لم يكن يعنيها كثيرا أن تسيطر على هذه المنطقة الداخلية؛ حيث أن السيطرة عليها لافائدة ترجى منها ؛ برغم وجود النفوذ العثمانى على أطراف اقليم «نجد» فى «الحجاز» و «الاحساء» وكان اقليم نجد فى منتصف القرن الثامن عشر مقسما إلى عدة مشايخ كل شيخ قبيلة مستقل بشئون قبيلته ويعمل على حمايتها وإدارتها وله الكلمة المسموعة فيها ولم يكن هناك رابطة سياسية تربط بينهم وأن العلاقة بينهم كان يسودها الفتور والجفاء والمعارك فى معظم الأوقات .

أشهر الأسر النجدية الحاكمة فى ذلك الوقت «آل معمر» فى «العينية» و «وهام بن دواس» فى «الرياض» و «آل زامل» فى «الخرج» ومحمد بن سعود فى «الدرعية» وكان هناك صراع بين حاكم «الرياض» وهام بن دواس وعبد العزيز بن محمد بن سعود حاكم «الدرعية» ، وكان الأول يخشى انهيار نفوذه وسلطانه امام نفوذ الثانى وكان صراع حاكمى «الرياض» و «الدرعية» من أجل السلطة فى جوهره والتوسع على حساب الآخر ؛ وبالرغم من شدة غزوات وغارات «الدرعية» للرياض فانها لم تستسلم وتحالف ابن دواس مع زيد بن

زامل حاكم «الدام» و «الخرج» وشنا هجوما على «الصبيخات» فى منفوحة وسارع عبد العزيز بن محمد حاكم «الدرعية» بمهاجمة الرياض وغزا أخوه عبدالله قبيلة «السبيع» حليفة دهام الذى وصلت جيوشه عام ١٧٧١ إلى بلدة «عرقة» اسفل «الدرعية» وهدد «الدرعية» نفسها لولا أن جيوش عبدالعزيز استطاعت مطاردة دهام فى الصحراء والاشتباك معها فى قتال شديد قتل فيها أبناء دهام بن دواس وهما «سعدون» و «دواس» وبعد هذه الحادثة بدأت قوة أمير «الرياض» تضعف واستغل عبد العزيز بن محمد هذا الضعف الذى حل بجانب خصمه واستمر فى مواصلة غاراته للرياض حتى كان دهام قد مل القتال وفضل الهرب إلى «الخرج» ومعه اتباعه فدخل عبد العزيز بن محمد إلى الرياض فوجد سكانها قد هجروها وأرسل جيوشه فى أثر الهاربين ليقتلوا المبطئين منهم ويستولوا على أموالهم وبهذه الهروب الذى فرض دهام على نفسه وعلى أتباعه انتهى القتال الذى استمر زهاء السبعة والعشرين عاما ؛ وبذلك تخلص عبدالعزيز بن محمد من أكبر مناهض كان يقف فى وجه توسعها فى نجد (٤٨). ونجحت بذلك الدرعية فى اخضاع اقليم نجد وباتمام هذا العمل اصبح عليها أن توجه جهودها الحربية إلى ميادين أخرى جديدة خارج حدود نجد داخل الجزيرة العربية ومن العوامل التى ساعدت الدرعية فى السيطرة على نجد ما يلى (٤٩):

أولا : عدم توحيد وتنسيق جهود الامارات النجدية إزاء توسع الدرعية مما جعها تستغل هذا الموقف غير الموحد وتلجأ إلى حرب الامارات النجدية واحدة تلوة الأخرى ؛ فهى تبدأ بامارات «العارض» ثم «الخرج» «فالقصيم» وغيرها من المناطق النجدية حتى فى الأوقات التى جمع بعض الامارات تحالف ضد الدرعية فاننا نجد أنه سرعان ما ينفرط عقد هذا التحالف فميوعة الموقف فى امارات نجد إزاء توسع الدرعية كانت من أهم العوامل التى ساعدت على نجاحها فى السيطرة على نجد .

ثانيا : الانقسامات الاسرية ، فقد اصبحت الأسر الحاكمة فى معظم امارات نجد منقسمة على نفسها .

ثالثا : هجرة كثير من القبائل النجدية إلى العراق أما هروبا من العمليات العسكرية والغارات والغزوات أو بسبب القحط والجفاف والامراض الذى كثيرا ما كان يلم منطقة نجد ترك الميدان مفتوحا امام قوات الدرعية مما ساعدها على النجاح .

٢- توسع الدرعية تجاه الاحساء

يقع اقليم الاحساء فى المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية وهو فى جملته عبارة عن واحة كبيرة أو عدة واحات توجد بها الآبار التى تتميز بغزارة مياهها فى المناطق الساحلية حيث تحيط بها المراعى الوفيرة وتوجد باقليم الاحساء فى الداخل واحتان كبيرتان هما واحتا الاحساء والقطيف ولكثرة الآبار ، التى توجد بالاحساء ؛ فان البدو الرحل كانوا يقصدونها وخاصة فى فصل الصيف وغالب هؤلاء العرب من بدو العجمان الأقوياء . أما القبائل التى كانت تقطن الاحساء فى هذه الفترة فهى قبائل بنى خالد وقبائل العجمان وآل مرة وبنى هاجر وكان بنو خالد يحكمون الساحل الشرقى من الجزيرة العربية تحت السيادة العثمانية وإن كانت السلطة الحقيقية اصبحت فى ايديهم منذ عام ١٦٧٠ .

ترجع علاقة العثمانيين بالاحساء إلى عهد السلطان سليمان القانونى الذى كان قد ارسل الخليج العربى حملة بحرية بمساعدة قبائل «المنتفك» وبقيادة «محمد باشا فروخ» الذى استطاع انتزاع اقليم الاحساء من أيدى البرتغاليين فاستولت قواته «القطيف» عام ١٥٥٠ ثم زحفت بعد ذلك إلى «الهفوف» عاصمة الاحساء فأستولت عليه وعين ذلك القائد حاكما على الاحساء [٥٠] وذلك بعد اخضاع قبيلة «الجبور» بقيادة شيخها اجود بن زامل الجبرى .

قوى مركز العثمانيين فى الجزء الشرقى من الجزيرة العربية عندما سيطروا على بغداد عام ١٦٣٨ فى عهد السلطان مراد الرابع وتحسن وضعهم كثيرا فى شرق الجزيرة العربية ابان عهد السلطان محمد الرابع عندما اخضع مصطفى باشا مدينة البصرة عام ١٦٦٧ للحكم العثمانى المباشر إلا أن الحكم العثمانى فى شرق الجزيرة العربية لم يلبث أن انتهى عام ١٦٧٠ بفضل قبيلة آل حميد من بنى خالد التى ظلت تناضل العثمانيين نضالا مريرا طوال ثمانين عاما تقريبا وفى خلال هذه الفترة تداول حكم الاحساء من العثمانيين اربعة باشوات هم فاتح باشا ثم على باشا محمد باشا وأخيرا عمر باشا الذى استسلم «ليراك بن غرير» زعيم بنى خالد الذى أسس اسرة حكمت شرق الجزيرة العربية .

ينقسم سكان الاحساء إلى البدو والحضر وأهم مدن الاحساء آنذاك الهفوف والمبرز ولعب سكان شرق الجزيرة العربية عامة والاحساء بخاصة دورا كبيرا فى مناهضة امارة «نجد» واستمر الصراع بينهما قرابة نصف ألقرن ، وكان وراء هذا الصراع عوامل كثيرة ازكت من ناره ، كما كان لأى حاكم فى نجد لابد أن يمد بحكمه إلى الاحساء وضمه لعدة اسباب منها

اقتصادية وسياسية واستراتيجية كما أنها تعتبر البوابة الرئيسية «لنجد» إلى العالم الخارجى لوجود ساحل كبير على مياه الخليج العربى ومركز للاتصال العالمى وخاصة التجارة الخارجية سواء عن طريق «البحرين» أو «الكويت» كما أنها خط الدفاع الأول لأى غزو أو اعتداء خارجى على نجد قد يأتى من الاحساء ، ومن جهة أخرى فان التواجد العسكرى «النجدى» فى الاحساء يعتبر مفتاح للتوسع إلى مناطق أخرى ، فأنه يساعد على التوجه شمالا نحو الكويت وجنوب العراق أو جنوب الاحساء تجاه قطر وساحل عمان وعمان اضافة إلى الموارد الاقتصادية التى يتمتع بها الاحساء كل هذه الاسباب كانت وراء التوسع النجدى تجاه الاحساء وكما سوف يحدث للوجود المصرى فى «نجد» حيث يتجه إلى الاحساء ومنها ينطلق إلى الشمال وإلى الجنوب أى إلى اتجاه العراق وساحل عمان وعمان وكذلك العكس عندما جاء الشيخ راشد بن مغامس زعيم قبيلة «المنتفق» واستولى على الاحساء وكذلك العثمانيون الذين جاءو إلى الاحساء ومنها شكلوا خطورة على نجد فى حملة مدحت باشا فيما بعد أو استيلاء العمانيين على البحرين وإغلاق المنطقة على الانفتاح النجدى على الساحل البحرى ، ولهذا يمكن القول بأن هناك عدة عوامل دفعت بحكام نجد إلى العمل لضم الاحساء إلى املاكهم وأهم هذه العوامل :

أولا : الخلاف المذهبى : ففى الاحساء كان يسود المذهب الشيعى وتنتشر فى معظم قرى ومدن الاقليم المبادئ الشيعية التى تتعارض مع مبادئ حكام نجد وكان أمراء الاحساء يجدون فى ظل هذه المبادئ السائدة فى مجتمعهم حماية لسلطانهم وبدأت اسباب العداء بين أمراء الاحساء ونجد ، تظهر وتتضح معلمها وزاد من حدتها وقوتها حث علماء الاحساء وغيرهم المعادين لامراء نجد ، لحكامهم من بنى خالد وتشجيعهم فى القضاء على حكام نجد التى تحمل فى ثناياها هدم نفوذهم وتقويض سلطانهم وظل هذا العامل الدينى الشيعى فى الاحساء والسنى فى نجد من الاسباب الرئيسية للصراع بين امراء «نجد» و «الاحساء» .

ثانيا : هروب بعض القبائل النجدية إلى الاحساء ووقوفها بجانب خالد ضد آل سعود جعل امراء الدرعية يفكرون جديا فى تأديب هؤلاء الفارين ومطاردتهم مثل آل فدعان الذين لجأوا إلى الاحساء بالاضافة إلى أن امراء الاحساء قاموا بدورهم بتقديم المساعدة لكل من طلبها منهم من امراء المدن النجدية بل أنهم انفسهم عملوا على التحالف مع بعض هذه البلدان مثل «الوشم» و «سدير» و «المنيخ» و «الخرج» و «الرياض» و «المحمل» ضد

«آل سعود» لأنهم رأوا فى اتساع «الدرعية» خطرا يهددهم إذا ما قدر لهم أن يجاورهم مباشرة فكان لهذه الاعمال التى قام بها امراء بنى خالد أكبر الاثر فى إذكاء روح العداء بين الطرفين وانتظرت الدرعية حتى تهيأت لها الظروف لغزو الاحساء .

ثالثا : العامل الاقتصادى كان من بين العوامل التى دفعت «الدرعية» لضم الاحساء فلا شك بعد ان اصبح عبدالعزيز فى السيطرة على «نجد» رأى من الخير أن يزيد من مواردها بأن يضم إليها إقليم الاحساء الذي تكثر فيه الواحات الخصبة التى تتوفر فيها المياه والتى طالما جذبت انظار عدد كبير من القبائل النجدية بالاضافة إلي أن اقليم الاحساء يشرف على الخليج العربى حيث الحركة التجارية والمصايد التى كانت تشكل مورد رزق كبيراً فى ذلك الوقت لاشك أن هذه الموارد الضخمة بالنسبة لاقتصاد العصر ستزيد من دخل امراء «نجد» وتساعدهم فى مصروفاتهم بالاضافة إلى أنها ستجعل منهم دولة ساحلية وتوسع من دائرة اتصالالتها وتمهد لها السبيل ضم بقية مناطق شرق الجزيرة العربية إلى ممتلكاتها . وعلى أى حال فان ظروف الاحساء الداخلية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر هيأت الفرصة لأمراء نجد التدخل فى زمور الاحساء والنجاح فى اخضاعه لسلطاتهم .

بدأ الصدام المباشر بين «أمراء الدرعية» والاحساء منذ عام ١٧٥٨ عندما تحالف عريعر بن دجين وعشائر بنى خالد مع عدد كبير من مناطق نجد وعلى الأخص مع الوشم «وسدير» و «منيخ» و «الخرج» و «الرياض» بقصد محاربة «امراء الدرعية» والقضاء عليهم ولكن اخبار هذا التحالف وصلت إلى «الدرعية» فأخذت تستعد لصد هجمات أعدائها عليها وبرغم وصول قوات عريعر واحلافه إلى «الجبيلة» فى وادى حنيفة فان تصدعا حدث فى صفوفها ولم يقدر لجهود عريعر ضد «امراء الدرعية» أن تلقى نجاحا فى هذه المرحلة ، والواقع أن قوة «امراء الدرعية» فى ذلك الوقت لم تكن قادرة على شن غاراتها على الاحساء نفسها لأن الامر لم يصفو لها فى كل «نجد» وطرقها إلى الاحساء غير ميسرة لذلك اكتفت بالاستعداد لصد هجمات آل خالد عليها وكانت قوة الاحساء آنذاك قادرة على توجيه ضرباتها إلى «الدرعية» داخل نجد نفسها يؤازرها فى ذلك بعض الامارات النجدية التى كانت لاتزال تعادى «آل سعود» ورغم فشل عريعر فى المرحلة السابقة من القتال إلا أنه قام عام ١٧٦٥ بمحاولة ثانية لمحاربة «الدرعية» لعله فى هذه الجولة يستطيع اسكات صوتها فاستنفر بنى خالد وقبائل الاحساء وارسل كلا من حسن بن هبة الله المكرمى حاكم «نجران» فى اليمن

الذى كان بدوره يتحرك صوب «الدرعية» يجمعه مع عريعر نفس الهدف ودهام بن دواس الذى قام باخبارهما بان الدرعية فى حالة سيئة والفرصة مؤاتية لإسقاطها وانضمت إلى جيش عريعر أثناء تحركه صوب الدرعية قبائل نجدية كثيرة كانت ساخطة على الدرعية واستطاع امير نجران اليمنى أن يواجه قوات الدرعية اقصى ضربة شهدتها منذ بدء حربها مع اعدائها بل أنها هددت «امارة الدرعية» بالسقوط ولكن الامير محمد بن سعود استطاع عن طريق الدبلوماسية عقد صلح مع حاكم نجران اليمنى ولم يمكناه من مواصلة هجماته على الدرعية وأن هزيمة قوات نجران لقوات آل سعود جعلت محمد بن سعود يخشى على امارته الناشئة من الاخطار التى تحيق بها وتوفى فى هذا العام وهو لايعلم ما المصير الذى ستئول إليه بعده (٥١).

عندما وصلت قوات عريعر بن دجين بالقرب من الدرعية كان الصلح قد تم بينها وبين الامير حسن بن هبة الله الذى كتب إلى عريعر يقول له : «لو كان هذا الاتفاق قبل أن يجرى الصلح بيننا وبينه لانتظم الامر على وفق خاطرك لكن الآن نحن حصل مرادنا من الانتقام وقد طلب منا العفو ونحن أهل له عند القدرة وأعطيناه فلا يمكننا ابدال القول اما أنت فمختار بحريك معه نحن لانتعرض بشئ» . استاء عريعر من مسلك حليفه أمير «نجران» اليمنى ولكنه استطاع بقواته وقوات احلافه من امراء النجديين محاصرة «امارة الدرعية» لمدة شهر ورميها بالمدافع ولكن قوات «الدرعية» تمكنت من الخروج خارج الدرعية ومقاتلة قوات عريعر واحلافه لعدة ايام فاشتد الضيق «بعريعر» ومن معه وقرر الانسحاب وفك حصار الدرعية ورغم اغراء أهل الحريق له بالاستمرار فى العمليات الحربية حتى سقوط الدرعية فانه رحل ومعه اتباعه بعد أن خلفوا وراءهم اربعين قتيلا والواقع أن غارات وهجمات امراء بنى خالد خلال الفترة الأولى من تاريخ امارة «الدرعية» كانت متتابعة وكان هدفهم من وراء هذه العمليات القضاء على «امارة الدرعية» قبل أن تستولى على اقليم نجد وتصبح خطرا جسيما يهدد اقليمهم فى الاحساء الذى بدأ بعد اسقاط «الرياض» عام ١٧٧٣ وبذلك وضع حد لتردد المدن والامارات النجدية الأخرى بين الولاء لامارة الدرعية والولاء لأعدائها ، وادرك عريعر بن دجين الخطر الذى اصبح يحيط بالاحساء نفسه أن عاجلا أو آجلا فقرر القيام ببعض الأعمال الحربية فى منطقة «القصيم» النجدية فى ربيع عام ١٧٧٤ قام بشن هجوم عاصف على «بريدة» عاصمة القصيم ونجح فى اقصاء أميرها وأولى أمرها لراشد الدربى الذى كان

مناهضا لآل سعود ووجدت اعمال عريعر فى منطقة القصيم قبولا من لدن القبائل النجدية التى لم تكن راضية عن النظام فى الدرعية وإنما قبلته خشية تهديد السلاح وأغرى عريعر النجاح الذى لقيه فى منطقة «القصيم» بمهاجمة الدرعية نفسها وشجعه على ذلك العناصر النجدية التى انضمت إلى جيشه ولكن الموت كان اسبق إليه من تنفيذ خطته فقد توفى فى «الخابية» بعد شهرين من خروجه من «بريدة» ويعتبر موت هذا الزعيم الاحسائى الحد الفاصل بين فترتى القوة والضعف فى تاريخ بنى خالد فقد اصاب كفتهم بعد موته الخلل والاضطراب لتنازع امرائهم وضعف هؤلاء الامراء وعدم سيطرتهم على امور الجند والحكم فى بلادهم بالدرجة التى كانت لاسلافهم فقد تولى رياسة بنى خالد والاحساء بعد وفاة عريعر ابنه الأكبر «بطين» فاتفق عليه اخواه «دجين» و «سعدون» وخنقاه فى بيته وآل الأمر بعده لدجين ولكن مدة امارته لم تطل فقد دس له سعدون السم ليخلص له الامر هذه الاحداث تبين لنا إلى أى مدى وصل الضعف والتنازع بامراء بنى خالد نتيجة للصراع على الرياسة . وفى هذه الفترة التى حلت فيها الضعف فى الاحساء كانت امارة الدرعية قد نجحت فى بسط سلطانها على كل اقليم «نجد» واصبح نظر آل سعود ممتدا إلى الحساء نفسها للاسباب التى سبق ذكرها مستغلين حالة الاقليم فى الاحساء الداخلية من ضعف حكام بنى خالد ولكن سعدون بن عريعر حاول عام ١٧٧٨ أن يقوم بالتحالف مع زيد بن زامل ببعض الأعمال العسكرية ضد امارة الدرعية لعله يستطيع استرجاع مكانة اسرته فى نظر سكان الاحساء وفى الوقت نفسه قام ببعض التصرفات التى تدل على ضعفه وارتباك سياسته فهو لسبب غير واضح قرر التفاهم مع عبدالعزيز بن محمد امير الدرعية حول عقد صلح بين الطرفين قد يرجع هذا التصرف من جانب سعدون امير الاحساء إلى احد العاملين الآتيين أو كلاهما معا (٥٢):

أولا : أن سعدون اصبح لايأنس فى نفسه القدرة على الوقوف امام امارة «الدرعية» خاصة وأن شوكة حلفائه من الامراء النجديين قد ضعفت واصبح لامارة الدرعية السلطة على كل مناطق نجد وربما أدرك سعدون ذلك فطلب عقد صلح مع الدرعية لعله يستطيع عن طريق السبل الدبلوماسية أن يضمن استمرار نفوذه على بلاده الاحساء وأبعاد خطر «الدرعية».

ثانيا : لعل سعدون كان يهدف من وراء هذا الصلح الذى لم يتم أن يضمن مساندة امارة الدرعية له ضد المؤامرات التى بدأ امراء بنى خالد يدبرونها ضد بعضهم عندما دب الانقسام بينهم وأن سعدون نفسه لجأ إلى الدرعية فيما بعد عندما هزم امام قوات اخيه دويحس الذى

تولى امر الاحساء بعده بالاتفاق مع عبد المحسن بن سرداح وثوينى بن عبدالله شيخ قبيلة «المنتفق» وفعلا قبلته الدرعية لاجئا حتى وفاته عام ١٧٩٠ .

وبدأ حكام الدرعية منذ عام ١٧٨٣ يتخذون موقف الهجوم على الاحساء فقد اصبحت سيطرتهم تامة على كل اقليم نجد فبدأت قواتهم تقوم ببعض الأعمال الحربية ضد الاحساء وكانت الظروف الداخلية فى الاحساء فى ذلك الوقت من العوامل المشجعة لجيش الدرعية فى توجيه ضرباتها ضد الاحساء فقد وصلت الخلافات والانقسامات بين زعماء بنى خالد إلى درجة اعلان الحرب على سعدون بن عريعر والاستعانة ضده بثوينى بن عبدالله شيخ المنتفق فلجأ سعدون إلى الدرعية بعد هزيمته كما ذكرنا سابقا على أثر هذه الأحداث قام جيش الدرعية بالاغارة على الاحساء واشعل فى بعض مدنها النيران وسلبت ونهبت كثيرا من اموال وامتعة هذه المدن ومما تجدر الاشارة إليه أن قوات الدرعية منذ عام ١٧٨٩ اصبحت تضم بعض زعماء بنى خالد منهم زيد بن عريعر وبعد انتصار قوات الدرعية على قوات الاحساء لجأ بعض شيوخ بنى خالد إلى قطر والكويت ولاذ بعضهم الآخر بالفرار إلى جنوب العراق وأراد أمير الدرعية أن يعين زيد بن عريعر الذى كان موجودا بين قواته اميرا على الاحساء ولكن زيدا خشى عاقبة قبوله لمنصب الرياسة فى الاحساء وفى عام ١٧٩٣ عبء أمير الدرعية قوات ضخمة لشن غزوة انتقامية على الاحساء ووصلت قواتهم إلى قرية «الشقيق» من قرى الشمال فى الاحساء واطلق قائد الدرعية فرق البدو على جميع قرى ومدن الشمال تدمرها وتنهبها فاضطر أهالى هذه المنطقة تحت ضغط هذه العمليات التخريبية إلى الاستسلام والخضوع لحكم الدرعية وبرغم وصول النفوذ السعودى إلى الحساء فان سكانها لم يقبلوا الخضوع للحكم السعودى لأنهم شيعة ولم يقف الامر بهم عند هذا الحد بل أنهم شجعوا القبائل النجدية الساخطة على نفوذ آل سعود كما أن شيعة الاحساء لم يذعنوا لنظام الدرعية وأرسلوا إلى سليمان باشا والى العراق يطلبون منه النجدة ويرجونه أن يفك أسر ثوينى بن عبدالله شيخ قبائل «المنتفق» ليقود جيش النجدة ولما كثرت رسائل سكان الاحساء إلى الوالى العراقى سليمان باشا افرج عن ثوينى شيخ المنتفق وعقد له امارة الجيش وندبه إلى قتال جيش امارة «الدرعية» وامره ان يعمل على تدميرها [٥٣].

٣- غارات الدرعية على جنوب العراق

بدأ تطلع حاكم الدرعية إلى جنوب العراق منذ أواخر القرن الثامن عشر لأن كثيرا من القبائل النجدية والاحسائية هربت من وجه قوات الدرعية أثناء عملياتها الحربية فى نجد

والاحساء ولجأت إلى أطراف العراق وخاصة إلى المناطق الواقعة غربى الفرات ووجدت هذه القبائل العون من قبائل «المنتفق» و «الظفير» وغيرها من القبائل العراقية ومما ازكى تطلع حاكم الدرعية إلى جنوب العراق الخلاف المذهبى ففى جنوب العراق يكثر أهل الشيعة وتوجد به المزارات والعتبات المقدسة لأمير المؤمنين على بن ابى طالب كرم الله وجه وابنائه وابناء واحفاد الامام الحسين سبط الرسول ﷺ وكان سكان الدرعية يعارضون ذلك وتعرض جنوب العراق فيما بين ١٧٩٥-١٧٩٨ إلى حملات عسكرية عديدة من قبل الدرعية ضد العشائر العراقية ووصلت عملياتها إلى ضواحى البصرة .

أرسل السلطان العثمانى إلى سليمان باشا والى العراق يأمره بالزحف على الدرعية والقضاء عليها ولكن الوالى العراقى كان يمر بظروف صعبة من ثورات الكردية فى الشمال وفى تلك الاثناء وصلت إلى بغداد رسائل كثيرة من سكان الاحساء تطالب باطلاق سراح ثوينى بن عبدالله شيخ «المنتفق» واسناد امر قتال «جيش الدرعية» إليه ورأى سليمان باشا الخير أن يرمى بعرب العراق خير من قواته المملوكية وافرج سليمان باشا عن الشيخ ثوينى واسند إليه امارة المنتفق وجمع الشيخ ثوينى جيشا كبيرا من المنتفق والسعدون والظفير وقبائل «الزبير» والبصرة والعناصر الساخطة من بنى خالد وكانت هذه الحملة أول صدام مباشر بين «امارة الدرعية» وبين قوة مكلفة من قبل والى العراق ، واتجه الشيخ ثوينى إلى الاحساء وكانت عوامل فشلها تسير معها بين عناصرها وخاصة بين رجال بنى خالد فقد تأكد براك بن عبد المحسن من رسول الشيخ ثوينى إلى محمد بن عريعر ولاسناد حكم الاحساء إليه لذا أضمر الغدر بثوينى واتصل سرا بقائد جيش الدرعية ولقى ثوينى مصرعه على يد أحد من بنى خالد قبل أن يتمكن من القيام بأى عمل ضد قوات الدرعية وكان ذلك بترتيب من براك بن عبد المحسن وأن القاتل كان من عربه ، وما كاد نبأ مصرع ثوينى ينتشر بين الجنود حتى وقع الاضطراب فى صفوف القوات العراقية واضطره إلى التراجع والعودة إلى بلادها دون أن تحقق أى هدف من أهدافها مما أدى إلى هجوم من قبل الدرعية على جنوب العراق فهاجم اميرهم «سعود» بجيوشه سوق «الشيوخ» و «السماوة» ووصل إلى قرية «ام العباس» وقتل كثيرا من أهلها ونهب اموالها وحرق كثير من دورها وشن هجوما على قبائل «شمر» و «الظفير» و «آل بجع» و «الزقاريط» وقتل شيخ «شمر» (٥٤).

لم يكن فى مقدور والى العراق سليمان باشا الذى كان يعانى من المرض أن يعمل شيئا لوقف غارات الدرعية على جنوب العراق حتى خريف ١٧٩٨ عندما اضطر بأمر من الباب العالى وضغط أعيان البلاد إلى تجهيز حملة عسكرية إلى الاحساء وكان على رأس الحملة رئيس ديوانه على باشا الذى زود بالأوامر للتوغل إلى الدرعية وتدمير مناطقها وفى شهر سبتمبر ١٧٩٨ غادرت قوة من الجنود العثمانيين بغداد وفى البصرة انضمت إليها بعض وحدات من القبائل يقدر عددها بعشرة آلاف مقاتل من مناطق «المنتفق» و «الشمر» و «الظفير» وقد تحركت هذه القوة إلى الاحساء مع مطلع العام الجديد وقد قامت أولا بفرض الحصار على قلعة «الهفوف» فى الاحساء ولكن الحامية صمدت ضد المحاصرين وبعد مضى شهرين اضطر على باشا إلى رفع الحصار عن الحامية والعودة إلى البصرة وخلال تراجعه من شمال الحساء التقى عند منطقة «آبار التاج» شمال الاحساء بقوات من الدرعية يقودها سعود بن عبدالعزيز وبعد مواجهة استمرت بضعة أيام تخللها تبادل الحوار بين الطرفين تم الاتفاق بين الامير سعود وعلى باشا على هدنة مدتها ست سنوات (٥٥) وقد اصطحب على باشا فى عودته إلى بغداد مندوبا عن الدرعية كلف بالتصديق على المعاهدة التى جاء فيها جلاء حاكم الدرعية من الاحساء ورحيلهم منها وارجاع الاسلاب التى اخذتها قوات الدرعية بعد انسحاب قوات ثوينى. ودفع جميع ما تكلفته حملة على باشا وعدم التعرض للحجاج الذين يأتون من العراق ويمرون بالأراضى التابعة «لامارة الدرعية» مع تعهده بالمحافظة على سلامة الطرق وأمنها (٥٦).

استأنف حاكم الدرعية غاراته على جنوب العراق بعد عام واحد من ابرام تلك المعاهدة وبنهاية عام ١٨٠٠ نقضوا تلك المعاهدة نقضا تاما وقد تضاعفت غاراتهم خلال شتاء عام ١٨٠٠ وانتهت بمجزرة رهيبة واعمال السلب والنهب فى «كربلاء» وقامت قوات ابن سعود حاكم الدرعية بشن هجوم على الاماكن الشيعية والعتبات المقدسة للامام الحسين والعباس وهدم مزاراتهم فقد قاد الأمير سعود بنفسه جيشا كبيرا ودخل جنوب العراق وبعد مناوشات بينه وبين قبائل «الظفير» و «المنتفق» وظهر امام «كربلاء» مدينة الشيعة المقدسة فى صباح يوم ٢٠ ابريل ١٨٠١ مع قوة تقدر باثنى عشر ألف رجل امام المدينة وقد صادف أن كان معظم السكان خارج «كربلاء» فى مدينة النجف (٥٧) وقد انقض رجال ابن سعود على المدينة من المدخل الغربى واندفعوا إلى ضريح الامام الحسين «رضى اله عنه» وهدم ما بها من قباب

ومشاهد[٥٨] ثم انتقل الغزاة إلى الاحياء الأخرى من مدينة «كربلاء» المقدسة وعملوا فيها سلبا ونهبا وقتلا وكانوا يقتلون كل من يصادفونه ويدمرون كل شئ أمامهم ، وفى الساعة التاسعة من ذلك اليوم انسحب رجال سعود حاملين معهم الكثير من الغنائم التى استولوا عليها إلى جانب الأسرى تاركين المدينة وراءهم حكاما وانقاضا تضم تحتها ما لايقل عن خمسة آلاف قتيل [٥٩].

ويقول د . عبد الرحمن عبد الرحيم [٦٠]: أن قوات آل سعود قتلت غالب أهل مدينة «كربلاء» فى الأسواق والبيوت دون تميز بين كبير أوصغير واستولت على ما فى مشهد حضرة الامام الحسين من مجوهرات ومصاحف ثمينة كانت مهداة من الملوك وشيعة الهند وإيران إلى ذلك المشهد المقدس عندهم وخرجت قوات آل سعود بعد ذلك من المدينة بسرعة عائدة إلى الدرعية مباشرة وتدل قسوة الاعمال التى قام بها الامير سعود فى «كربلاء» والتى لم يستطع المؤرخ النجدى ابن بشر أن ينكرها أو يدافع عنها كعادته إزاء العمليات لقوات آل سعود على أن المقصود بها أولا وقبل كل شئ الانتقام من الشيعة ولكن قسوة هذه الأعمال كان لها أثرها السئ على سمعة آل سعود فقد زادت من كراهية الشعور الاسلامى العام والعالم الشيعى خاصة الذى اجتاحته موجة من الذعر بعد وصول انباء تلك المجزرة ضد تصرفات آل سعود وجعلت الكثيرين يتخذون من اعمالهم التى وصفت بالبربرية وكان دويها مريعا لدى سلطات إيران فقد طالب شاه إيران الذى كان مواطنوه أكثر الضحايا بانزال العقاب الشديد بآل سعود واستعادة الغنائم والاسلحة التى استولوا عليها ، اما سليمان باشا فقد أصيب بالذهول لدرجة أنه عجز عن اتخاذ أى إجراء وعرض الموضوع على «هارفورد جونز» المقيم البريطانى فى بغداد ليتوسط لدى الدرعية للافراج عن الأسرى والتفاهم على طريقة دفع الفدية[٦١] واستعادة المسروقات التى نهبت من ضريح الامام الحسين سبط الرسول «رضى الله عنه» .

ترتب على ذلك نتائج خطيرة منها انتشار الفزع والرعب فى معظم قرى ومدن العراق وخاصة الشيعية منها ، مما جعل سلطات المحلية تنشط فى تسوير مدينة «كربلاء» خوفا من غزو سعودى آخر وأرسل سليمان باشا بعض رجاله لنقل خزينة النجف الاشرف إلى خزينة موسى الكاظم وهدد شاه إيران بغزو العراق بقصد حماية الاماكن الشيعية المقدسة لدى الايرانيين وطلب السماح لقواته بالمرور عبر الأراضى العراقية لقتال آل سعود ولكن سليمان

باشا رفض ذلك ولاريب أن مذبحة «كربلاء» كانت صدمة مميتة لسليمان باشا الذى مات فى نفس العام الذى حدثت فيه هذه المذبحة المرعبة عام ١٨٠١ فى يوم الأول من أغسطس ويقال إن قد صرح قبل موته «بأنه لايجوز أن ابقى حيا بعد مذبحة كربلاء» واستمرت هجمات وغزوات آل سعود على الأراضى العراقية وجاء توقيت هذه الغزوات والغارات أثناء انشغال الدولة العثمانية والعالم العربى بالحملة الاستعمارية الفرنسية على مصر «١٧٩٨-١٨٠١» وكانت الجهود العربية والاسلامية موجه إلى مصر ضد الاستعمار الفرنسى فلم تستطع الدولة العثمانية مواجهة غزوات آل سعود على ممتلكاتها سواء فى العراق أو الحجاز .

هددت قوات آل سعود جنوب العراق كل المناطق الواقعة غربى الفرات وكانت اقسى هذه الهجمات بعد مذبحة كربلاء «للزبير» و «البصرة» وصار العراق خلال حكم على باشا بين شقى رحى فآل سعود يجوثون بقواتهم خلال دياره وبخاصة فى المناطق الغربية من الفرات واقتربت عملياتهم من بغداد فى بعض الأحيان مما أزعج السلطات العراقية هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان الخطر الايرانى يهدد العراق من الشرق بالتحالف مع «البابانيين» فى الشمال فاذا اضفنا إلى ذلك اضطرابات القبائل العديدة لأدركنا أنه لم يعد فى مقدور العراق أن تقوم بأى عمل حربى جدى ضد آل سعود حتى نهاية حكم على باشا ١٨٠٧ وداهمت قوات آل سعود كربلاء للمرة الثانية عام ١٨٠٨ وتعاظم هذا الخطر حتى أن الرعب والهلع استوليا على سكان بغداد نفسها وتسلح كل صاحب دكان أو متجر استعداد المجابهة لهذا الخطر واستمر الرعب يستولى على سكان العراق من الخطر الذى أصبح يهددهم فى داخل بلادهم حتى عام ١٨١١ عندما نزلت القوات المصرية على ينبع ساحل البحر الاحمر وانشغلت قوات الدرعية بالخطر الذى بدأ يهددها ومنذ ذلك الحين انقطعت الغزوات والغارات رجال آل سعود عن الأراضى العراقية [٦٢].

٤- توسع الدرعية تجاه اليمن

اتجه آل سعود بسياستهم التوسعية تجاه اليمن فى «عسير» و «المخلاقالسليمانى» مثلما توجهوا نحو الاحساء وجنوب العراق ، وكان «المخلاف السليمانى» عرف من أواخر القرن الثامن عشر حكاما محليين هم الاشراف من «آل خيرات» وكان أشهرهم وأكثرهم خطر الشريف محمود محمد ابو مسمار ١٧٥٦-١٨١٨ الذى كان مركزه فى «ابى عريش» ويحكم

المخلاف السليمانى باسم الامام المنصور كما كان اسلافه يفعلون باستمداد ولايتهم من أئمة صنعاء وقد عرف الشريف حمود بالشجاعة والكرم وكان طموحا ساعدته الظروف المستجدة وضعف سلطة أئمة اليمن أن يستغل فى «ابى عريش» ويعمل للاستيلاء على بقية تهامة ومن ناحية أخرى كانت الزعامة القبلية قد تبلورت فى الجانب الآخر على جبال «السراة» فى شخصية عبدالوهاب بن عامر الرفيدى المعروف بأبى نقطة الذى قام مع أخيه محمد بن عامر بزيارة لأمير عبد العزيز بن سعود ١٨٠٣ فى عاصمته الدرعية وأعلن خضوعه لحكم الدرعية وانفصاله عن اليمن نتيجة لضعف أئمة صنعاء ومما شجعه فى ذلك منافسه الشريف حمود فعين سعود ابا نقطة حاكما على مرتفعات «عسير» وفى طريق عودته توفى أخوه محمد وبدأت الصراعات بين الشريف حمود وممثل ابن سعود ابى نقطة وكانت تتطور احيانا إلى قتال ومصادمات مسلحة وبلغ الصدام والقتال بين الشريف حمود وابى نقطة الممثل المؤيد من الدرعية ذروته فى معركة غير مكتافئة فى ١٧ يناير ١٨٠٣ على مقربة من «ابى عريش» هز فيها الشريف حمود واستسلم بعد أن اظهر من البطولة والأقدام ما اقر به الجميع حتى اعداؤه وفى الظروف الجديدة تظاهر الشريف حمود بالولاء لأمير الدرعية وتوجه من بيته بعد يومين من هزيمته فى المعركة إلى معسكر الدرعية والتقى بابى نقطة ومد يده للمعاهدة والسمع والطاعة لابن سعود ومزيد من المناورة والدبلوماسية قام الشريف حمود فى الوقت نفسه بارسل لمبعوثه الخاص السيد حسن بن خالد الحازمى فى بعثة إلى الامام المنصور فى صنعاء حاملا رسالة يشرح فيها حقيقة الموقف وأنه لم يخضع إلا فى الظاهر وليس فى الحقيقة ، كما أنه يعتبر نفسه مع الامام ضد آل سعود وينتظر بفارغ الصبر مساعدة عاجلة قبل انتشار نفوذ آل سعود فى كل المخلاف السليمانى إذ لو تم فسوف يكون من الصعوبة بمكان انقاذ ما قد وقع بالفعل فى ايديهم ويميط «البهكلى» مؤرخ حمود وابن بلدته اللثام عن سوء حالة حمود وقنوطه فى هذا الوقت العصيب وما قام به مبعوثه الحازمى فى صنعاء الذى قابل وزير الامام المنصور ، الحسن بن حسن العلفى وألقى إليه جميع الواقع وحذره وأنذره فى المرتقب وأن امام صنعاء لم يبادر بالجنود اليمنيين فلا عذر له من التجرد مع امير الدرعية وفاء بما عاهدوه عليه وشرطوه عليه ثم طلب مقابلة المنصور فأخذ عليه أن لايكلم الامام إلا بما يطابق المقام وقد قابل الحازمى الامام المنصور وانتظر فى صنعاء نحو ستة أشهر ينتظر خروج جيش اليمن إلى «تهامة» ونزول العساكر ووافى بعده إلى صنعاء الشريف يحيى بن

على فارس الحسنى وواضح أن كلامه لم يجد إلا إذا صماء فى صنعاء لكن من ناحية أخرى يبدو أن شك الامام فى صدق نوايا حمود وفى تحميله تبعة ما حدث بالاضافة إلى ضعف مركزه وعدم رغبته فى مواجهة عسكرية فى «تهامة» هو الذى املى عليه موقفه السلبى هذا فقد ذكر القاضى الامام الشوكانى (٦٣):

«إن الشريف محمد بن الحسن قد وصل إلى صنعاء فى أغسطس ١٨٠٣ أى بعد نحو سبعة أشهر من هزيمة الشريف حمود من جهة «ابى عريش» ومعه كتب من الاشراف هنا لك يذكرون أن النجدى قد دخلت جيوشه بلادهم وأنهم قد استولوا على بعضها وأنه لاطاقة لهم بهم وأنهم سيتركون له البلاد فأجبت (أى الشوكانى) على لسان مولانا الامام خفظه الله بما لفظه ... » وبعد البسملة وديباجة المقدمة والاشارة إلى استلام الكتاب نجد الشوكانى باسم الامام يحمل الاشراف تبعة ما حدث ببيان بالغ وتحليل صارم يقول :

« هذه النتائج مأخوذة من مقدمات هى لديكم معلومات ، منها تشتت آرائكم ، وتباين أهوائكم وتخالف قلوبكم وانتشار سلك أسلوبكم حتى طمع فيكم الاعداء ، وكف عن نصركم النصراء ومنها اضطراب الأحوال وعدم استقرار الامور على منوال والاستبداد فى الأقوال والافعال وتولية معزول وعزل والى ومنها بطل شئ تام عن الوفاء بما هو لهم من قديم الايام حتى تركوكم احوج ما كنتم إليهم وخذلوكم عن تسلط العدو عليكم وساروا يفسدون فى الأرض ويروعون الرعايا وينتهكون الحرم ، ويسفكون الدماء ، ولو ترك القطا ليلا لنام ولو شبع السنور لم يتسور الحيطان على الجيران ! » .

وبعد أن يستشهد بشئ من الشعر والامثال يحثهم على الثبات فى وجه الأعداء بأن ذلك : «حيثما ينحدر إليكم السيل وترون جيوشنا نواحى الخيل فان البلاد بلادنا والرعايا رعايانا» . ولكن المنصور ينتهز الفرصة فيؤكد بعد «أن البلاد بلاده» وأن الاشراف ليسوا إلا نوابا عنه وهو فى كتابه متشكك من مسلكهم حذر من الاخبار التى أرسلوا بها إليه ولهذا فقد ختم جوابه بقوله : «... وعليكم الوفاء بحق النيابة والقيام مقام الفاعل حتى يلبس النص نصابه ولقد كنا نظن أنكم تصادمون الجبال وتقارعون على حماية ذلك الثغر الاهوال ولو علمنا أنكم تنكصون بأول قادم وتستلمون لكل طارق وتفزعون من كل صارخ وتخلون بين رعايانا وبين هؤلاء الزعانف لكان لنا من التدبير مالايخفى على الخبير وبالجملة فقد أذكينا العيون وبعثنا من يأتى إلينا باليقين لايرجم الظنون ! فان صح لنا ما يوجب الامداد

بجواب وصول الاجناد إلى تلك البلاد ، لاتفشى وجوه الطروش أى الرسائل بسواد المداد، وما ذكر من اجتماع الكلمة على الشريف ذى الحسب المنيف حمود بن محمد فقد احسنتم الخبرة فانه لنا ولكم أنفس ذخيرة » .

ويتضح من ذلك موقف الامام منصور على امام اليمن من الشريف حمود المهزوم امام جيش الدرعية فماذا صنع الاخير بعد هزيمته . لقد التقى بعد يومين بالامير «أبو نقطة» الذى عاهده بالولاء لحاكم الدرعية وفى جمع من الاشراف ورجال الحل والعقد ولاه على المنطقة اميرا وهذا ما كان يطمع اليه حمود وهو ما يريده امير الدرعية الذى لن يستطيع حكمها والسيطرة عليها إذا المطلوب اثبات التبعية فقط فى البداية قبل أن يتمكن حاكم الدرعية من السيطرة الفعلية على أمور المنطقة ، ومما اشترط عليه الامير «ابو نقطة» على الشريف حمود فى صلب العهد قتال من وراه من أهل اليمن ومباينة الامام منصور امام اليمن ومحاربته ان وصلت منه جنود للحرب وما وسع الشريف إلا الموافقة والالتزام بذلك وكان يظن أن الامام اليمن لايترك بعث الجنود والذب عن ممالكه فى السهول والنجود ولاسيما وقد نفذ إلى حضرته العلامة الحسن بن خالد وقبل عقد الامارة طلب الامير اعيان الناس من الاشراف والعلماء والاكياس وامرهم بطاعة الشريف » (٦٤).

قادت براغماتيه الشريف النفعية إلى أن يكون مع «الدرعية» ونائبا لهم فى منطقته غير أن ذلك لم يكن فيه إلا لبعض الوقت فسرعان ما قلب لهم ظهر المجن ولم تمضى سنوات ثلاث حتى قوى مركزه وأصبح الحاكم الفعلى لتهامة بعد أن تم له الاستيلاء على «اللحية» و «زبيد» و «حيس» ولم يكتف حمود بذلك بل مد نظره إلى أعلى الساحل التهامى فصعد بقواته نحو المرتفعات وحاول الاستيلاء على منطقة «حجة» فى الجانب الشمالى الغربى من «صنعاء» وذلك بعد عزل الامام المنصور على لعاملها وبقيت بعض الوقت بلا عامل فضعفت سيطرة صنعاء عليها وذلك عام ١٨٠٤ حين تراسل حمود مع بعض قبائل المنطقة فدبر الاتصال ببعض «حاشد» وفتحت الطريق لرجال حمود واستولوا على مناطق «حجة» فأرسل الامام المنصور على ، عبدالله بن احمد الشايف مع قبائل من «بكيل» فلما بلغ قبائل «حاشد» ذلك ادركوا الخطأ فيما حدث من بعضهم فى فتح الطريق لرجال الشريف حمود واستمرت المناوشات حتى وصلت قوات إخرى من الامام المنصور على وتم تراجع رجال الشريف حمود وهربها إلى تهامة عام ١٨٠٥ واعيد تعيين الشاعر «الآنس» عاملا وحاكما

على المنطقة حافظا لها ومانعا من تكرار ما قد حدث وكان مركز الشريف حمود ما زال قويا فى «المخلاف السليمانى» بمقدور امام اليمن ارسال قوات جديدة لمحاربته أو لعزله وبخاصة بعد أن حدث شغب واضطراب فى منطقة «حراز» الواقعة فى منتصف الطريق بين الشريف حمود فى تهامة غربا والامام المنصور فى صنعاء شرقا وقد ارسل امام اليمن حملة على «حراز» لكنها فشلت فى السيطرة على افراد قوات الشريف حمود فعززه الامام المنصور على بعساكر من «بكيل» ولم يتمكن من حسم الموقف وعاد أدراجه إلى صنعاء وبات واضحا فى أواخر عام ١٨٠٥ أن يد الشريف حمود فى «المخلاف» السليمانى» هى العليا فالامام المنصور على يواجه فى عاصمته مشاكل سياسية واقتصادية حادة فتكاليف الحرب فى منطقة «حجة» وارسال حملات فاشلة إلى «حراز» وكابوس الشريف حمود فى «المخلاف السليمانى» جعل الامام يكثر من اصدارات العملة ذات الفضة القليلة والنحاس الاكثر وبهذا اضطربت احوال التجار فى اليمن كله وزاد الاوضاع سوءا ازدياد سيطرة الوزير حسن بن حسن العلفى واقربائه على السلطة وقوة نفوذه على الامام المنصور على وكان لذلك اثاره السلبية علي الادارة والقيادات السياسية والعسكرية التى كانت تكره تصرفات العلفى البغيضة ومع ذلك فقد امر الامام المنصور باعداد يحيى بن محسن المتوكل ليقود حملة على «المخلاف السليمانى» فغادر صنعاء فى ٧ / ١٠ / ١٨٠٦ متوجه إلى «متنة» حيث توقف فى طريقه إلى هدفه «المخلاف السليمانى» ينتظر ما وعد به الوزير العلفى من مدد ومؤن فلم يصل شئ وبعد مرور ثلاثة اسابيع من المعاناة والانتظار ظهر التململ والاستياء من انقطاع التموين فقرر عدد كبير من العساكر التوجه عائدين إلى صنعاء بعد أن كتبوا للامام المنصور شكواهم وانتظارهم وفارقوا القائد ووصلوا صنعاء منذرين بعودتهم شرا مستطيراوأن هذه المظاهرة الصاخبة كادت تتحول إلى قتال واحداث شغب خطير[٦٥] يشبه ما يحدث ويتكرر فى عالمنا اليوم .

لم ييئس المتوكل القائد المحنك المخلص والذى كان يعرف بصاحب «حجة» رغم أن الامام المنصور كان قد أهمله دهرا طويلا حتى كلفه هذه المهمة الصعبة والتى زادها صعوبة ما لقيته القوة من ذلك الاهمال المذكور ومع ذلك فقد اسرع بالتوجه لقتال الشريف حمود بمن معه وربما بمن عاد إليه من صنعاء ، ولما وصل «زبيد» تلقاه إلى خارجها «بولاد حسن» الذى تلكأ فى

تزويد عساكر المتوكل فأغلظ الاخير له فى القول فأضمر «بولاد» الشر وانتهت حياة القائد المتوكل وابنه بوضع «بولاد» السم لهما فى لبن بارد فمات المتوكل وبقى بعده ابنه اياما ثم لحق به وبذلك فشلت هذه الحملة ، كما كان الامام المنصور قد ارسل حملة أخرى قبل ذلك إلى «الحديدة» إلا أنها تلكأت فى الطريق عندما جاءت إليها اخبار عن الشريف حمود ثبطت من مسيرها اماالامام المنصور على فبعد أن توجه المتوكل فى حملته تلك وجد فى نفسه حماسا وربما كان ذلك رد فعل لما حدث من عودة القوات وتظاهرتهم فى صنعاء إلا أن حماس الامام المنصور سرعان ما فتر وكان الامر فى الواقع بداية النهاية لحكم هذا الامام الهرم . وهكذا وجد الشريف حمود نفسه فى مركز قوة مقابل ضعف أمر المنصور وبدأ الشريف حمود يرفض من ناحية ثانية تدخل منافسة «ابى نقطة» فى شؤون منطقته وتطور الخلاف فى مناسبات كثيرة كان فيها كلا الرجلين يرفع شكاواه إلى امير الدرعية الذى دب فى نفسه الشك من نوايا الشريف حمود واهدافه خاصة وقد توقف أى امتداد لنشر نفوذ الدرعية وكان بعض الاشراف من المخالفين لشريف حمود يؤكدون لحاكم الدرعية أن الشريف حمود هو السبب وليس اعراض الناس عنه ولما اشتد الخلاف وكثر اللغط حول الشريف حمود ومسلكه استدعاه امير الدرعية فتعلل معتذرا طلبه ليلقاه فى موسم الحج عام ١٨٠٨ وإذا لم يحضر فهو العصيان ! ولكن الشريف حمود بالطبع لم يذهب فقد كان يرى فى نفسه الاحقية فى الامارة والجدارة بالاستقلال لمنطقة «المخلاف السليمانى» كما أنه لم يكن يأمن على نفسه فى الذهاب فأمر ابن سعود «ابا نقطة» فى الاستعداد لمحاربة الشريف حمود والخلاص منه [٦٧].

وصلت الاخبار الصحيحة إلى الشريف حمود فى يونيو ١٨٠٩ بأن عبد الوهاب بن عامر ابى نقطة قد برز الخيام ونادى بالنفير فى كل من هو تحت امارته من «جبل هاد» إلى «وادى ريم» واظهر امر الغزوة ولم يوار بغيرها وما زالت العيون تصل إلى الشريف حمود ارسالا» [٦٨]. تطورت الأدوار وأصبحت الحرب هى الفيصل من جديد ولم يكن هناك سبيل للموازنة بين قوى الجانبين فقد كان جيش «الدرعية» يزيد عن جيش الشريف حمود بثلاثة اضعاف على الاقل فى حين لم تزد قوات الشريف حمود عن سبعة عشر ألفا معظمهم قبائل يمنية من «حاشد» و «بكيل» و «يام» لايدينون كثيرا بولاء حقيقى للشريف حمود وجرت المعركة بينهما وكان القتل فى الجانبين كثيرا وبالقرب من حملة الشريف حمود عند الخيام قتل

الامير عبد الوهاب بن عامر «ابي نقطة» والذى تولى قتله جماعة من قبائل «بكيل» ومن «ذى حسين» ورغم مقتل القائد «ابى نقطة» فان الشريف حمود تراجع وانسحب مع من بقى من رجاله إلى «ابى عريش» وطاردته قبائل «حشر» ووقعت بين الطرفين معركة فى موضع يسمى «الوحلة» غربى «ابى عريش» وقد تمكن الشريف حمود بعساكره من هزيمة «حشر» وقد هون عليه هذا وقعة «بيش» وعين حاكم الدرعية على «عسير» طامى بن شعيب الرفيدى» خلفا لعبد الوهاب ابى نقطة الذى قتل وهذا قريب له فاستقر ببلدة «طبب» وارسل بأمير على «صبيا» ومنطقتها مع رجال من عسير وقد عهد إليه حاكم الدرعية ببذل الوسع فى معاداة الشريف حمود الذى استقر «بابى عريش» يتتبع الغوائل لاستنقاذ صبيا ومخلافها «عسير» وصرف الشريف نظره عن التهيج إلى افتتاح الامصار وطلب الزيادة من شئ غير هذه الديار بل قنع بما فى يده من البلاد » [٦٩]، وكانت هذه هى حال الشريف حمود فى هذه الأوقات العصيبة وكان الامام المنصور على فى صنعاء يعانى كذلك من ازمات حادة ولن تعود تهامة إلى سلطان صنعاء إلا فى مرحلة ثانية وفى ظروف مغايرة [٧٠].

تعرضت حضرموت أيضا لغزوات وهجمات عديدة من قبل قوات الدرعية مثلما تعرضت شمال اليمن فى عسير ، وهاجمت قوات آل بن «قملة» حضرموت عام ١٨٠٩ وهو اسم لقائد قوات القادمة من الدرعية «ناجى بن قملة» وهزمت هذه القوات فى منطقة «حريضة» وكان قائد جيش الحضارم فى هذه الموقعة الشريف على بن جعفر بن محمد العطاس [٧١].

امارة الحجاز

بسط اشراف مكة سلطانهم على كل ما كانوا يستطيعون الوصول إليه من الأراضى فى وسط وشمال الجزيرة العربية وخاصة نجد وكان سلطانهم يتمثل فى جباية الاموال وأخذ الهدايا من امراء المناطق التى يخضعونها وأن هذا النفوذ بلغ فى عهد الشريف «ابى نمى» الذى يعد من اعظم الاشراف الذين تولوا منصب امارة مكة ١٥٢٥-١٥٨٠ وكانت هناك غزوات كثيرة قام بها اشراف مكة على المدن النجدية وتدخلهم فى شؤنها منذ القرن السادس عشر . وأن الشريف حسن بن ابى نمى تمكن عام ١٥٧٨ من الوصول إلى نجد وحاصر «معكال» المكان المعروف فى الرياض وتمكن هذا الشريف عام ١٥٨١ من الوصول إلى ناحية الشرق من نجد فى جيش كثيف واستولى على مدن وحصون تعرف «بالبديع» و «الخرج» و «السلمية»

و«اليمامة» ومواضع أخرى واستمر هذا العمل الهجومى من جانب الاشراف على المدن النجدية طوال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر . ولم تكن الدولة العثمانية تتدخل فى الشؤن الداخلية للحجاز إلا عندما يتولى شريف ضعيف أو مسالم ولكن الاشراف الأقوياء كانوا يتجاهلون سلطة «السنجق» كما يتجاهلون فى بعض الاحيان أوامر السلطان العثمانى نفسه واصبح دخل الحجاز من موسم الحج والمكوس منذ عام ١٦٣٠ قسمة بين الاشراف والحكومة العثمانية نظير قيام الباب العالى بشؤن الحجاج وعمارة الحرمين ومنذ أن انتقل منصب الشرافة إلى اسرة «آل زيد» بدأ اشراف هذه الاسرة العمل من أجل استقلال الشرافة التى بدت عليها مظاهر الغنى عن طريق موارد الثروة الخارجية والهدايا التى اصبحت تصل من الهند مباشرة إلى الحجاز منذ انسحاب الاسطول العثمانى من المياه الشرقية وان اشراف عائلة «آل زيد» كانوا قادرين على تكوين سياسة شعبية لهم بمناصرة الفقراء ضد الاغنياء والواقع أن سلطة الاشراف على الحجاز ظلت قوية رغم الخلاف والصراع فيما بينهم[٧٢].

حدث صراع مرير بين الاشراف انفسهم غير أن الصراع على السلطة والحكم بين افراد تلك الاسرة وعلى الأخص على الخلافة حولت الحياة السياسية فى الحجاز إلى مجتمع يسوده الفوضى والعنف وكان يحدث أن ينجح أحد هؤلاء الاشراف احيانا فى فرض النظام غير أن هذا النوع من الحكام كان نادرا [٧٣]. ففى عام ١٧٧٠ لم يكن احمد سعيد يتولى منصب الشرافة حتى شد احد الاشراف من آل بركات وهو عبدالله بن الحسن رحاله إلى مصر وطلب العون من على بك الكبير ضد الشريف احمد بن سعيد من آل زيد فقام على بك بتجريد حملة عسكرية بقيادة محمد ابى الذهب لتعضيد عبدالله بن الحسن البركانى وتسليمه منصب الشرافة وتمكنت بقيادة الحملة المصرية من اقصاء احمد من امارة الحجاز وتولية عبدالله بن الحسن البركانى مكانه ولكن احمد بن سعيد اتصل ببعض شيوخ القبائل الحجازية واستطاع أن يسترد مكة على أثر انسحاب ابى الذهب عائدا إلى مصر واستقر به المقام فى امارة مكة للمرة الثانية فى اكتوبر ١٧٧٠ وعقب انتهاء فترة حكم الشريف احمد بن سعيد جاء الشريف سرور بن مساعد الذى آل إليه الامر فى حكم الحجاز عام ١٧٧٢ ثم جاء بعده الشريف غالب بن مساعد عام ١٧٨٧ [٧٤].

ويعتمد شريف الحجاز فى دخله من الرسوم التى تفرض على الحجاز فى موسم الحج ومن المنح والمعاشات المتخصصة للامراء من السلاطين العثمانيين ومن اموال الحرمين أو الاماكن المقدسة كما كان يأتى من الرسوم الجمركية فى «جدة» وبهذه الاموال كان شريف الحجاز ينفق على افراد الاسرة وعلى غيرهم من سكان مكة والمدينة كما كان يدفع اعانات إلى شيوخ القبائل ذوى النفوذ .

توسع الدرعية تجاه الحجاز

جاء توسع امارة الدرعية تجاه الغرب نحو الحجاز نتيجة طبيعية لسياستها بعد نجاحها فى الاستيلاء على الاحساء فى الشرق ذات الموارد الاقتصادية ونجاحها فى الشمال بعد هجماتها على جنوب العراق فى البصرة و «كربلاء» ثم التوسع نحو الجنوب تجاه اليمن حيث الموارد البشرية فى اقليم «عسير اليمنى» فكان لابد ان يتوج تلك الاعمال بالحجاز وان يكون الهدف النهائى وليس الاخير نظرا لوجود الاماكن المقدسة حتى يعطى طابع القدسية على تلك التوسعات ومن يسيطر على الاماكن المقدسة يحظى باحترام العالم الاسلامى ولهذا كان لابد من اخضاع الحجاز ، ولكنها مثلما كانت الهدف النهائى للتوسع فكانت أيضا ليس نهاية التوسع فقط وإنما نهاية امارة الدرعية حيث كان لابد أن يصطدم بالخلافة الاسلامية المتمثلة فى الدولة العثمانية ومن هنا كانت بداية النهاية لامارة الدرعية على أيدى الجيش المصرى .

ترجع لنجاح الدرعية فى الاستيلاء على الحجاز إلى عدة عوامل منها العوامل التى اضعفت الاشراف فى تلك المرحلة موقف الدولة العثمانية فقد طلب الشريف غالب من الباب العالى الدفاع عن الحجاز والمناطق المقدسة . ولكن دون جدوى ولاشك أنه كان لهذا الموقف أثر كبير فى اضعاف جانب الاشراف حيث لم تكن هناك قوة عسكرية عثمانية مرابطة فى الحجاز أو حاميات من الجيش العثمانى باعتباره منطقة مقدسة لايجوز لأى قوة أن تدخلها أو تتقاتل فيها لأنها منطقة آمنة فلا يحق لأحد استخدام السلاح أو القوة فى المنطقة المقدسة ، لذا كان الاشراف يعتمدون على قوة القبائل العربية التى تساندهم وخاصة فى الصراع حول مركز الشرافة وليس فى الهجمات العسكرية الخارجية على الحجاز ، وكان الاشراف يعتمدون على

الأمن الداخلى فى منطقة الحجاز على القبائل القاطنة فى ديارها وعلى الطرق التى يمر بها الحجاج للحفاظ على أمن الحجاج مقابل ما كان الاشراف يعطونهم للقبائل من الاموال والهدايا مما يعنى عدم وجود قوة عسكرية تحت تصرف الإشراف وبالتالى لم يكن بمقدور حكام الحجاز مقاومة أى غزو أو هجمات أو قوى خارجية تريد التدخل أو السيطرة عليها وإنما كان ذلك منوطا بالدولة العثمانية التى كانت تتولى حماية الحجاز والدفاع عنها وكان مجيئها لهذا السبب كما تلقب السلاطين العثمانيين بلقب «خادم الحرمين» ، ولهذا لم تكن الدولة العثمانية تسمح للاشراف بتكوين جيش نظامى للحفاظ على المنطقة المقدسة كماأن الاشراف انفسهم لم يفكروا حتى قبل خضوعهم للحكم العثمانى بتكوين جيش منظم وإنما كانوا يستنجدون بالدول الاسلامية للدفاع عن المقدسات الاسلامية وخاصة مصر والشام قبل الحكم العثمانى (٧٥).

لم يكن الباب العالى يهتم كثيرا بحركة امارة الدرعية أو تهتم بقوتهم العسكرية وإنما كانت تعتبر تصرفاتهم مجرد غارات بدوية للقبائل العربية وتنتهى بالغنائم والاسلاب أو أنها صراع داخلى فى الجزيرة العربية وسوف ينتهى والمهم أنها تحت السيادة العثمانية وفى النطاق الداخلى .

انشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الخارجية والداخلية ، فالأوضاع فى تلك الفترة لايحسد عليها فالموقف العثمانى السلبى من هجمات الدرعية فى العراق والحجاز راجع إلى ظروف الدولة نفسها التى لاتسمع لها فى ذلك الوقت بتجريد جيوشها لمحاربة «الدرعية» فقد كانت مشغولة بعصيان الانكشارية فى «بلغراد» وثورات «الصرب» و «الكروت» و «الجبل الأسود» و «البلغار» واعتداءات روسيا القيصرية على البلاد المتاخمة لها والاحتلال الفرنسى لمصر وهجمات البريطانيين على «الدردنيل» كل هذه المشاكل التى كانت تعيشها الدولة العثمانية جعلتها تصم آذانها عن نداءات الشريف غالب مما اتاح الفرصة امام هجمات الدرعية أن تنجح فى النهاية فى الاستيلاء على الحجاز وفى نفس الوقت كان الشريف غالب يخشى أن يصدر السلطان العثمانى فرمانا بعزله حيث لم يكن مرغوب فيه من قبل الباب العالى اضافة إلى الخلافات التى وجدت بين الاشراف والصراع على «الشرافة» كانت من بين العوامل القوية التى ساعدت حكام الدرعية ومهدت لهم الطريق لاخضاع الحجاز لسيطرتهم .

بدأ حكام الدرعية يتطلعون إلى البحر الاحمر بعدما سيطروا على الاحساء على ساحل الخليج العربى وأرادوا ادخال الحرمين الشريفين فى حوزة املاكهم ومما زاد من حرج موقف الشريف غالب أن القبائل التى كانت تسانده فى القتال مثل «المطران» و «العجمان» و «العتبان» و «القبلة» و «الحرب» و «سبيع» وغيرهم من القبائل الحجازية أدركوا أنه لاجدوى من القتال مع الاشراف فغيروا من مواقفهم بعدما استطاع حاكم الدرعية استمالتهم إلى جانبه ولم يكن امام الشريف غالب من سبيل إلا محاولة اقناع القبائل الحجازية التى انضمت إلى حاكم الدرعية ولكنه لم ينجح فى الوقت الذى قلت الميرة والمتاع لدى الشريف غالب وازداد الوضع الاقتصادى فى الحجاز سوء وفقدان كثير من القبائل العربية وخاصة التى تقطن حول مكة لموارد معاشهم مما اضطر هؤلاء وخاصة قبائل «العتبان» و «جهينة» و «حرب» والمطران الانضمام إلى قوات الدرعية التى استمرت تواصل تقدمها تجاه مكة فى الوقت الذى كان الاستعمار الفرنسى وحملة نابليون جاثمة على مصر ، واستغل حاكم الدرعية انشغال المسلمين والعرب من العثمانيين والمصريين بمقاومة ومواجهة الاستعمار الفرنسى على مصر وفلسطين فشدد الضغط على الاشراف فى الوقت الذى ارسلت الدولة العثمانية فرمانا إلى الشريف غالب يطلب منه عدم مواجهة قوات «الدرعية» وإنما توجيه كافة الامكانات والموارد المادية والبشرية استعداد لمواجهة الاستعمار الفرنسى الذى قد يتجه إلى الحرمين الشريفين بعدما سيطر على مصر وبدأ يتجه إلى فلسطين ومنها قد يتجه إلى الحجاز وطلبت منه وجوب تحصين الحرمين خوفا من زحف الفرنسيين على بلاد الحجاز فاضطر الشريف غالب إلى القيام بعمل التحصينات اللازمة واصلاح سور جدة . ولكن القوات التابعة لدرعية زحفت على مكة مع أيام الحج واخضعته لحكمها عام ١٨٠٣ وحول ذلك يقول الجبرتى(٧٧) :

«فى ١٨ ابريل ١٨٠٣ حضرت مكاتبات الديار الحجازية ينجدون فيها عن «قوات الدرعية» أنهم حضروا إلى جهة الطائف فخرج إليهم شريف مكة الشريف غالب فحاربهم فهزموه فرجع إلى الطائف وأحرق داره التى بها وخرج هاربا إلى مكة فحضر «جيش الدرعية» إلى البلدة وكبيرهم «المضايفى» نسيب الشريف وكان قد حصل بينه وبين الشريف وحشة فذهب مع «قوات الدرعية» وطلب من الامير سعود أن يؤمره على العسكر المواجهة لمحاربة الشريف .. ففعل فحاربوا الطائف وحاربهم أهلها ثلاثة أيام حتى غلبوا فأخذ البلدة (الامير سعود وقواته) واستولوا عليها عنوة وقتلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال وهذا

دأبهم مع من يحاربهم » . وفى ٤ مايو ١٨٠٤ عمل الباشا الديوان وحضر المشايخ و«الوجاقلية» وقرأوا المرسوم ومضمونه : « اننا كنا صفحنا ورضينا على موجب الشروط التى شرطناها عليهم فخانوا العهود ونقضوا الشروط وطغوا وظلموا وقتلوا الحجاج ، الخ ... وفى ٢٣ يونية ١٨٠٤ ورد الخبر بوصول مراكب وأدوات من القلزم إلى السويس وفيها حجاج والمحمل واخبروا بمحاصرة «قوات الدرعية» لمكة والمدينة وجدة وأن اكثر أهل المدينة ماتوا جوعا لعزة الاقوات، والاردب القمح بخمسين فرنسا إن وجد والاردب والارز بمائة فرنسا وقس على ذلك. وفى العاشر من يوليه وصلت مراكب من الديار الحجازية إلى السويس وفيها حجاج ومغاربة ولم يصل منهم إلا القليل وأكثرهم قتله العسكر الذى بقى بمكة بعد موت شريف باشا ومن انضم إليهم من اجناسهم وقد حصل منهم غاية الضرر والفساد والقتل حتى فى داخل الحرم لان الشريف غالبا ضمهم إليه ورتب لهم جامكية واستمروا معه على هذا الحال الفظيع [٧٨].

ويقول د سيد رجب [٧٩]: «عين سعود الشريف عبد المعين بن مساعد شقيق غالب شريفا على مكة وكان بعد عامين أن استولى «جيش الدرعية » على المدينة المنورة وأخذوا كل ما فى الهجرة النبوية من الجواهر وتغالوا فى مطاردة المخالفين من أهل الحجاز وهدم قباب المساجد ومحاربة كل ما لايتفق مع ما آمنوا به من الاسلام » أما الجبرتى فيقول فى ١٤ يونيه ١٨٠٧ : « وصلت القافلة والحجاج من ناحية القلزم على مرسى السويس وحضر فيها اغوات الحرم والقاضى الذى توجه لقضاء المدينة وهو المعروف بسعد بك وكذلك خدام الحرم المكى وقد طردهم (قوات الدرعية) جميعا وأما القاضى المنفصل فنزل فى مركب ولم يظهر خبره وقاضى مكة توجه بصحبة الشاميين وأخبر الواصلون انهم منعوا من زيارة المدينة وان (قائد الدرعية) أخذ كل ما كان فى الهجرة النبوية من الذخائر والجواهر ... » وفى ٢٤ ديسمبر ١٨٠٧ وصل قابجى ومعه مرسومات يتضمن احدها بالتأكيد فى التشهيل والسفر لمحاربة الخوارج (قوات الدرعية) بالحجاز واستخلاص الحرمين والوصية بالرعية والتجار»[٨٠].

نتج عن استيلاء «قوات الدرعية» على الحجاز انقطاع وصول قوافل الحج من مصر والشام والعراق واستانبول مما كلف الحجاز كثيرا من الخسائر المادية وعلاوة عن انقطاع المساعدات التى كانت تصل إليهم من الاوقاف فى الولايات العثمانية كما أن ترتب على

استيلاء الدرعية على الحجاز وخضوع الحرمين الشريفين لحكمهم أن شعرت الدولة العثمانية بخطورة الوضع ورأت فى خروج الحرمين الشريفين عن دائرة نفوذها صفعة قوية موجهة لها حيث أن ذلك يفقدها الزعامة التى تتمتع بها على العالم الاسلامى بحكم إشرافها على هذين الحرمين الشريفين اللذين حرص خلفاؤها على تلقيب انفسهم بلقب «خادم الحرمين الشريفين» ولذا تهتم اهتما جديا بأمر القضاء على نفوذ «حكام الدرعية» وارجاع الاماكن المقدسة إلى حوزتها وإن لم تجرد جيوشها لهذا العمل وإنما اعتمدت فى ذلك على ولاتها فى مصر وترتب أيضا على خضوع الحجاز لحكم الدرعية أن اصبحت أملاكها تمتد من الخليج العربى إلى البحر الاحمر وزادت بالتالى مواردها الاقتصادية مما جعلها تطلع إلى ما وراء حدود الجزيرة العربية إلى الشام وخاصة بعد ضم الحجاز لدرعية كان له أثر اقتصادى كبير بالاضافة إلى آثاره الدينية والسياسية ولكن يجب أن نذكر أن الحجاز فى النهاية كانت الصخرة التى تحطمت عليها قوة الدرعية وقادها إلى انهيارها فقد نبه إلى خطورتها العثمانيون واوحى إليهم بأهمية القضاء عليها سريعا [٨١]. ولما تقلص نفوذ العثمانيين فى الجزيرة العربية وعجزت جيوش الدولة عن كسر شوكة «الدرعية» واخضاعها لجأ الباب العالى عام ١٨٠٧ إلى محمد على وكلفه بتصفية الحرمين الشريفين واستخلاصهما من أيدى حكام الدرعية واسترداد سلطة الدولة العثمانية المشرفة على الزوال فى الجزيرة العربية .

المراجع

١- ب . ج . سلوت - عرب الخليج ص١٣٧ .

٢- ب . ج . سلوت - نفس المرجع ص١٣٨ .

٣- د. محمد صابر ابراهيم عرب - المرجع السابق ص١٩٧ .

٤- د. محمد صابر ابراهيم عرب - نفس المرجع ص١٩٨ .

٥- فالح حنظل - المفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة ص٦٨ .

٦- عائشة السيار - المرجع السابق ص٥٤ .

٧- ب . ج . سلوت - المرجع السابق ص١٤٧ .

٨- فالح حنظل - المرجع السابق ص٧٠ .

٩- د. محمد صابر ابراهيم عرب- المرجع السابق ص١٩٩ .

١٠- فالح حنظل - المرجع السابق ص٧٦ .

١١- د. محمد صابر ابراهيم عرب - المرجع السابق ص٢٠٣ .

١٢- فالح حنظل - المرجع السابق ص٨٢ .

١٣- محمد صابر ابراهيم عرب - المرجع السابق ص٢٠٣ .

١٤- فالح حنظل - المرجع السابق ص٨٣ .

١٥- د. محمد صابرابراهيم عرب - المرجع السابق ص٢٠٦ .

١٦- د. محمد صابر ابراهيم عرب - نفس المرجع ص٢٠٨ .

١٧- د. محمد صابر ابراهيم عرب - نفس المرجع ص٢١٢ .

١٨- د. خالد الوسمى المرجع السابق ص١١٢ .

١٩- د. محمد صابر ابراهيم عرب - المرجع السابق ص٢١٤ .

٢٠- د. خالد الوسمى - المرجع السابق ص١٢٠ .

٢١- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص١٢٨ .

٢٢- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص١٣٠ .

٢٣- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص١٣٦ .

٢٤- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص١٣٩ .

٢٥- سعيد عوض باوزير - المرجع السابق ص١٥٧ .

٢٦- سعيد عوض باوزير - نفس المرجع ص١٦٣ .

٢٧- سعيد عوض باوزير - نفس المرجع ص١٦٦ .

٢٨- سعيد عوض باوزير - نفس المرجع ص١٧٢ .

٢٩- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٣٧٨ .

٣٠- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٣٨٣ .

٣١- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٣٨٤ .

٣٢- سقاف على الكاف - المرجع السابق ص٦٣ .

٣٣- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص٦٣ .

٣٤- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص١١٩ .

٣٥- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص١٢٢ .

٣٦- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص١١٨ .

٣٧- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٢٨ .

٣٨- محمد يحيى الحداد - تاريخ اليمن السياسى ص ٢٢٤ .

٣٩- د. محمد يحيى الحداد - نفس المرجع ص٢٢٤ .

٤٠- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٢٩ .

٤١- د. حسين عبدالله العمرى سنة عام من تاريخ اليمن الحديث ص١٨ .

٤٢- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٢٧ .

٤٣- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٨٦ .

٤٤- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص١٢٧ .

٤٥- د.عبد الله محمد عيسى الغزالى-أسر الفكر والأدب فى اليمن فى القرن الحادى عشر الهجرى ص٩٩

٤٦- د. عبدالله محمد عيسى الغزالى - نفس المرجع ص١٢٧ .

٤٧- د. سيد رجب - المرجع السابق ص١٢٨ .

٤٨- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٦٩ .

٤٩- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٨٦

٥٠- د. محمد عرابى نخلة - تاريخ االحساء السياسى ص١٤٧ .

٥١- د. سيد رجب - المرجع السابق ص١٢٩ .

٥٢- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٨٠ .

٥٣- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٨٢

٥٤- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٨٦ .

٥٥- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٩١ .

٥٦- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٢١٥ .

٥٧- جون . بى . كيلى - بريطانيا والخليج جـ١ ص١٥٧ .

٥٨- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٢١٥ .

٥٩- جون . بى . كيلى - بريطانيا - نفس المرجع ص١٥٨ .

٦٠- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٢١٥ .

٦١- جون . بى . كيلى - بريطانيا - نفس المرجع ص١٥٨ .

٦٢- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٢٢ .

٦٣- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص١٣١ .

٦٤- عبدالله عبد الرحمن احمد البهكلى - نفح العودة فى سيرة دولة الشريف حمود ص١٤٢ .

٦٥- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٣٦ .

٦٦- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص١٤٠ .

٦٧- عبد الله الرحمن احمد البهكلى - المرجع السابق ص٢٤٩ .

٦٨- عبد الله عبد الرحمن احمد البهكلى - نفس المرجع ص٢٥٨ .

٦٩- د. حسين عبد الله العمرى - المرجع السابق ص١٤١ .

٧٠- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٣٢٣ .

٧١- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٣٣ .

٧٢- جون . بى . كيلى - المرجع السابق ص١٥٩ .

٧٣- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٣٣ .

٧٤- جون . بى . كيلى - المرجع السابق ص١٥٩ .

٧٥- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٤٧ .

٧٦- د. سعيد بدر الحلوانى - العلاقات بين مصر والحجاز ونجد فى القرن ١٩ ص٩٠ .

٧٧- د. سعيد بدر الحلوانى - نفس المرجع ص١٠١ .

٧٨- د. سيد رجب - المرجع السابق ص١٣٣ .

٧٩- د. سعيد بدر الحلوانى - المرجع السابق ص١٦٢ .

٨٠- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٦٢ .

٨١- د. سيد رجب - المرجع السابق ص١٣٣ .

الفصل الثالث

الجزيرة العربية تحت الحكم المصرى ١٨٨١-١٨٤٠ .

أولا : نظام الحكم والإدارة المصرية فى الجزيرة العربية .

ثانيا : الحكم المصرى واليمن .

ثالثا : الوضع فى حضرموت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .

رابعا : الحكم المصرى وشرق الجزيرة العربية .

خامسا : الإنسحاب المصرى من الجزيرة العربية .



الجزيرة العربية تحت الحكم المصرى ١٨١١-١٨٤٠

١- محمد على والجزيرة العربية

رأى السلطان العثمانى أن حركة «الدرعية» حركة انفصالية خطيرة ينبغى القضاء عليها وأخذوا يصارحون الدولة العثمانية بالعداء والتحدى واستطاع حاكم الدرعية أن يستولى على مكة عام ١٨٠٣ وأن يدخل المدينة بعدها بعامين ثم كتب إلى السلطان العثمانى ينبئه بهذا الفتح ويطالب إليه منع مجئ المحمل من دمشق أو القاهرة كما أعد حملات لم تلبث أن اغارت على العراق وعلى حدود الشام وتقدمت تجاه اليمن فاستولت على المنطقة الشمالية وهى «عسير» ، واستنجد امام اليمن بالسلطان العثمانى من جهة ، وبوالى مصر القوى محمد على من جهة أخرى وأرسل إلى كل منهما هدايا قيمة ووعداه بالمساعدة ، ولاشك أن الدولة العثمانية فزعت من هذا التوسع وأحست بحاجتها الماسة إلى تغيير سياستها إزاء الولايات التابعة لها ورأى السلطان العثمانى أن يعيد الأمن والاستقرار فى الحجاز والجزيرة العربية التى لم تكن من المناطق الغنية التى تحرص الدولة العثمانية على المحافظة عليها إلا أن بقاءها فى يد الخليفة العثمانى كان امرا لابد منه حتى تتم المظاهر الشكلية لخلافته وحتى لايقع الشك فى مقدرته على حماية «الحرمين الشريفين» الامر الذى كان يجعل لدولته المقام الممتاز بين الدول الاسلامية غير أن الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كانت تقاسى الامرين من اختلال نظام الانكشارية الذى كان مصدر قوة الدولة ودعامتها فى اعقاب توسعها ولكن هذا النظام فقد تدريجيا كل مزاياه وتحول فى نهاية الأمر إلى معول هدم فى شؤن الحرب والادارة على السواء وصارت الحروب التى تخوض غمارها الدولة كثيرا ما تنتهى بهزائم شنيعة وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى اختلال نظام الحكم من جميع الوجوه وبخاصة فى الاقاليم العثمانية البعيدة عن عاصمة الدولة[١] . ويقول جى . ب كيلى « دخل أفراد قوات الدرعية» المدينة المنورة فقاموا بنبش قبر الرسول ﷺ ونهب الحرم النبوى غير أن هذه الجريمة أثارت السلطان العثمانى محمد الثانى وقرر القيام بعمل ضد الدرعية ولما كان وضع السلطان لايسمح له بتنفيذ تلك المهمة فقد كلف واليه فى مصر محمد على باشا بالتحرك إلى الحجاز » [٢].

لم يجد السلطان العثمانى تحت يده القوة اللازمة للقضاء على الدرعية مما اضطره أن يلجأ إلى والى مصر وكلفه بالقيام بهذه المهمة فى عام ١٨٠٧ ثم جدد طلبه فى السنتين التاليتين وكان محمد على يتعلل بانشغاله بمحاربة المماليك حتى انتهى من حملته عليهم بالوجه القبلى وعاد إلى القاهرة فى سبتمبر عام ١٨١٠ حيث لقى رسولا من الآستانة يحمل أوامر السلطان بتجريد حملة لمحاربة الدرعية فلم يجد محمد على لديه من الاعتذار ما يبرر به التأجيل فبادر إلى الاستجابة ، وعلى الرغم من أن شن هجوم على الدرعية لم يكن سهلا بالنسبة لمحمد على إلا أنه رأى فى ذلك فرصة للتخلص من المتاعب التى كان يعانى منها فى مصر إذ أن المماليك كانوا لايزالون يهددون مركزه فى مصر كما كانت الاوضاع المالية فى منتهى السوء بينما كان الجيش الذى يتكون معظمه من الباشوات تسوده روح التذمر والثورة على الأوضاع، وقد اعتقد محمد على باشا بأنه لواستطاع اخضاع الدرعية فان ذلك قد يؤدى إلى دعم وضعه المالى عن طريق حصوله على قرض من الباب العالى والى إعفائه من دفع الزكاة السنوية فضلا عن الغنائم التى سوف يحصل عليها من الحجاز كما أن الحرب فى الصحراء كانت فى نظره فرصة لتدريب جنوده على تلك الحرب كذلك قد يفيده فى دعم مركزه فى سوريا على الرغم من أنه ظل يذكر الباب العالى بأن السلطان لم يفعل شيئا حتى ذلك الوقت الدرعية عند حدها ولاسيما وأن امكانات سوريا كانت أكبر من امكانات مصر ولعل محمد على باشا رأى بأن الحملة تتيح الفرصة له للقضاء على نفوذ المماليك فى مصر وقد حققه بطريقة شرسة فقد دعا إلى القلعة فى يوم ١ / ٣ / ١٨٨١ اربعمائة وستين من زعماء وذبحهم عن آخرهم كما ذبح نحو خمسمائة مملوك آخر فى مختلف أنحاء مصر عن طريق ولاته وفى نفس الوقت ابلغ السلطان بأنه لم يكن فى وسعه أن يجازف ببقاء المماليك فى مصر لأنهم قد يغتصبون السلطة منه بينما سيكون جيشه يحارب خارج البلاد [٢].

رأى محمد على باشا أنه إذا نجح حيث أخفقت الدولة فى القضاء على «الدرعية» واستخلاص الأراضى المقدسة منهم والاسراع إلى نجدة امام اليمن ومحاربة فلول قوات الدرعية فى بلاده فان ذلك سيؤدى حتما إلى توطيد مركزه امام السلطان ويسمو بمكانته لدى الشعوب الاسلامية وكانت فكرة استقلاله عن الدولة قد بدأت تملك عليه مشاعره منذ ذلك العهد ، فلا شك لو قدر له أن ينتصر على الدرعية فى تلك المهمة سيكسبه عطف المسلمين كما يعزز مركزه فى العالم الاسلامى كمحرر للأماكن المقدسة ويمهد له السبيل لتحقيق طموحه

وآماله، مما شجعه على تلبية مطالب الباب العالى، وكانت جزيرة العرب هى أول ميدان لحروب مصر الخارجية فى عهد محمد على وقد وصل إليها جنوده وهم يحملون الراية العثمانية وبدءوا يحاربون قوات الدرعية فى الحجاز ويتتبعون فلولهم فى اليمن بين مرتفعات عسير بصفتهم عثمانيين يدافعون عن دولة الخلافة الاسلامية وكانت تلك الحروب من أشد الحروب التى خاضها جنود مصر فى عهد محمد على وأطولها مدى وأكثرها ضحايا فى الأرواح والأموال ومن الصعاب التى واجهوها قطع المراحل البعيدة المترامية بين الضيافى والقفار إلى جانب وعورة الطريق وشدة القيظ وقلة المؤنة وندرة المياه وفقدانها فى معظم الجهات (٤).

صدر فرمان من الباب العالى عام ١٨١١ إلى مصر بتوجيه حملة عسكرية لتحطيم «الدرعية» بقيادة محمد على الذى كان يطمع باقامة وحدة عربية أساسها الاسلام وذلك عن طريق الحجاز باعتبارها نقطة انطلاق نحو فكرة اقامة الدولة العربية الموحدة وكان محمد على من الولاة الذين حاولوا تعزيز استقلالهم على حساب الحكومة المركزية فلم يكن محمد على حاكما ناجحا وقديرا فحسب بل أنه أدرك الحاجة إلى التجديد والنتائج التى يجلبها الاصلاح وعلى الرغم من حذره فقد أوشك على السقوط عام ١٨١٥ أثناء تواجد قواته فى الجزيرة العربية أثر العصيان الذى الذى قام به جنوده من بقايا المماليك الذى كانوا معاضدين من قبل العناصر التقليدية الأخرى التى كانت محرضة كما يبدو من قبل العثمانيين(٥) عندما حاول تنظيم جيش حديث على الأسلوب الأوربى بالنظام الجديد وكانت الدولة العثمانية فى الوقت الذى كانت تريد التخلص من «الدرعية» وارجاع سيادتها على الحرمين الشريفين كانت أيضا تهدف من ارسال القوات المصرية إلى الجزيرة العربية اضعاف محمد على وبالتالى التخلص منه ولكن الذى حدث خرج من عملياته العسكرية أقوى مما دخلها وبدأ يهدد الآستانة نفسها مما أدى فيما بعد إلى التحالف الدولى لاضعافه وإخراجه من الجزيرة العربية .

صمم محمد على على التخلص من الجيوش التقليدية فى اطار خططه بتحديث وتنظيم الجيش وفى غضون ذلك يبقى هؤلاء الجنود بعيدين بقدر الامكان عن الأجزاء الحيوية من حكومة فقرر ارسالهم إلى الجزيرة العربية للتخلص من العناصر التقليدية التى لاتريد التطور من جهة ، ومن جهة أخرى فان انتصاره سوف يعزز من مكانته فى بناء جيش حديث اضافة إلى كسب الخبرة والتدريب العنيف فى الصحراء العربية . واصبح محمد على أكثر تصميما على حماية استقلاله الذاتى وعمل على تحديد التأثير والاشراف العثمانيين بقدر الامكان فى

المناطق التى تحت سيطرته وقد توضحت سياسته هذه فى الجزيرة العربية ، وكان الحجاز مرتبطا تاريخيا بمصر ويعتمد اقتصاديا عليها ومع ذلك وعلى الرغم من المكانة العالية التى يتمتع بها من يحمى الحرمين الشريفين فقد كانت الحجاز عبئا أكثر منها منفعة غير أن السيطرة على الحجاز كانت نقطة الوثوب لتوسع محمد على باشا فى الجزيرة العربية وعلى طول سواحل البحر الأحمر والخليج العربى لأنه كان مدفوعا بالطموح لبناء «الدولة العربية الموحدة» لتوحيد المشرق العربى وراغبا فى أن تحصل مصر والعرب على جزء من تجارة المحيط النهدى التى فقدت مع السيطرة الاستعمارية الأوربية على بحار الشرق وتزامنت الفعاليات المصرية فى هذا الاتجاه مع يقظة الاستعمار البريطانى المتزايدة حول أهمية البحر الأحمر والخليج العربى من أجل المواصلات إلى جميع مستعمراتها فى اسيا وخاصة الهند وسبق للبريطانيين أن رفضوا عام ١٨١١ أن يبيعوا إلى مصر سفينة حربية لتخدم فى البحر الاحمر لأنهم خافوا من النتائج العكسية لتوسيع النفوذ المصرى فى ذلك الجزء من العالم وراقب البريطانيون بخوف تقدم المصريين فى اليمن والساحل والشمالى للخليج العربى عند نهاية العقد الثانى من القرن التاسع عشر وأثارت الفعاليات البريطانية فى الخليج العربى وفى اليمن فى هذه الفترة ، الاحتجاجات المصرية باسم الباب العالى ، وكانت هذه المواقف البريطانية السبب بصورة جزئية لمحاولة محمد على ليوسع حكومته على جانبى البحر الأحمر امتداد إلى عدن وجعله بحيرة مصرية وكذلك الامتداد فى الجزيرة العربية والى «بربرة» فى الصومال ومع ذلك فقد حاول محمد على تجنب مجابهة مع البريطانيين واوضح للممثلين البريطانيين أنه إنما يخضع للتعليمات التى يصدرها الباب العالى بهذا الشأن ، وعلى الرغم من إدعاء محمد على بالبراءة فقد وضعت بريطانيا الخطط لموقف معاد لمطامعه ولسياسته فى العقود التالية (٦).

ولهذا فان امتداد الحكم المصرى إلى الخليج العربى فى شرق الجزيرة العربية مر بمرحلتين الأولى من عام ١٨١١ إلى ١٨١٩ والثانية من ١٨٣٣ إلى ١٨٤٠ وتميزت المرحلة الأولى بعدم معرضة بريطانيا لوصول القوات المصرية إلى سواحل شرق الجزيرة العربية فى الخليج العربى بل حدثت محاولات لتعاون من قبل بريطانيا ولعل ذلك يرجع إلى أن النفوذ البريطانى لم يكن قد تدعم بعد ، كما أن وصول القوات المصرية إلى سواحل شرق الجزيرة العربية فى هذه المرحلة كان يقتصر على تأمين العمليات العسكرية فى «نجد» أما المرحلة

الثانية فقد اختلفت عن المرحلة الأولى وفيها كان النفوذ البريطانى قد وضح فى منطقة الخليج العربى كما وضحت الأهداف المصرية فى التوسع فى المنطقة ولذلك كان من الطبيعى أن يحدث الصدام فيما بينهما (٧).

بدأ محمد على باشا فى الاستعدادات لهذه الحملة وما يترتب عليها من احتياجات مادية وبشرية وقد عمل على حل المشكلات الأولى عن طريق فرض الرسوم والاعانات من حكومة الاستانة لأنها حملة باهظة التكاليف من حيث وسائل النقل وبناء السفن ، وتولى «طوسون» قيادة الحملة بعد الانتهاء من مذبحة المماليك وكانت الحملة تشمل على حسب تقديرات الباب العالى سبعة آلاف وخمسمائة من المشاه والفرسان بالاضافة إلى فرسان القبائل العربية الذين انضموا إلى الحملة ، واتبع قسم من الحملة الطريق البرى المحاذى للضفة الشرقية من البحر الاحمر أما القسم الثانى وهو الأكبر فقد فضل بحرا وتقرر نزوله فى «ينبع» فى شهر أغسطس عام ١٨١١ .

أرسل محمد على باشا الشريف غالب عن طريق تجار «جدة» و «ينبع» القاطنين بمصر بقصد استمالته إلى جانبه رغم أن الصدر الأعظم كان قد ارسل سابقا للشريف غالب يبلغه أن الدولة العلية ما زالت عند حسن ظنها بسيادته وأنها تعطف عليه وأنه ما زال موضع ثقتها فيه فينبغى له أن ينتبه للعدو المشترك وأن يكون حريصا على بقاء إدارة الحكم «بجدة» و «ينبع» فى يده مخافة أن تفلت إلى يد العدو وأكد رسل محمد على وقوف الشريف إلى جانب قواته فور وصولها إلى الأراضى الحجازية فارسل إلى الباب العالى يخبره بانحياز الشريف إلى جانبه ولهذا فان قواته لم تجد صعوبة عند نزولها إلى ينبع وتمكنت القوات المصرية بمساعدة القبائل الحجازية التى انضمت إليها من انزال هزيمة قاسية بقوات «الدرعية» وزحفت تجاه «المدنية» واعقاب فتحها ظهرت حاجة الجيش المصرى إلى مرفأ على البحر ليكون مركز تزويد لهذا الجيش أثناء زحفه إلى مكة فاتجهت انظار القادة إلى «جدة» فارسل «طوسون» باشا الشريف غالب سرا على أن يرخص لبعض القوات البحرية بدخول هذا المرفأ وبعد مفاوضات وافق الشريف غالب على ذلك فأسرعت القوات المصرية بدخول مرفأ جدة بحرا وبرا فى ١٥ يناير ١٨١٣ دون حدوث أى قتال وبهذا العمل تيسر الزحف إلى فتح مكة ولما استتب الأمر «لطوسون» باشا فى مكة أعلن الاشراف انضمامهم إلى جانب سير قوة من جيشه تحت قيادة مصطفى بك ومعه الشريف راجح وابن الشريف غالب ودخلت الطائف (٨).

تعاون سكان المدينة ومكة مع المصريين بعد دخولهم لأن أهل الحجاز بعامة وسكان مكة والمدينة بخاصة قد تضرروا من انقطاع قوافل الحج واموال الأوقاف المخصصة للحرمين التى كانت تشكل الموارد الرئيسية لمعاشهم وحقق محمد على نتائج مباشرة بانتصاراته وهى استرجاع الحرمين الشريفين من جديد إلى مكة والمدينة وفتح ابنه «طوسون» باشوية جدة .

بنزول محمد على إلى الحجاز يبدأ دور جديد فى تاريخ الجزيرة العربية لأحداث تغيرات جذرية فى خططه وما كاد محمد على باشا يصل إلى جدة فى الأول من رمضان الموافق ٢٨ أغسطس ١٨١٣ ويقف على حقيقة موقف قوات ابنه «طوسون» والظروف التى احاطت بها حتى أخذ يركز كل جهده على القضاء على حكام الدرعية من «آل سعود» الذين سماهم بالخوارج وقوله : «لاستكمال اسباب استحصال التدابير المؤدية إلى انقطاع عروق «الخوارج» من تلك الحوالى بالمرة» . وكانت خطة محمد على الرئيسية التى رسمها للقضاء على عدوه الخوارج تقوم على عدة مبادئ هامة لضمان نجاحها : تخفيف الضرائب عن القبائل فى الجزيرة العربية واظهار مناصرتهم حتى يقضى على أى تذمر بينهم ، جعل ثغر جدة المستودع الرئسى لعتاد الحملة ترتيب الوسائل الكفيلة بنقل هذا العتاد إلى الداخل فى صورة جيدة والاتصال بسلطان عمان عدو آل سعود واستئجار عشرين سفينة منه لمدة عام للمشاركة فى أعمال الحملة ، وصرف رواتب شهرية للقبائل الموكول إليهم حفظ الأمن فى الطرقات ، اقامة حاميات عسكرية فى النقط الهامة وعلى أثر انتهاء محمد على باشا من تخطيطه للقتال اتجه صوب مكة لأداء فريضة الحج [٩].

صمم محمد على على اقامة حكومة أكثر مركزية فى الحجاز اضافة إلى إزالته لما قد بقى من السلطة العثمانية هناك فقد قوض مواقع الموظفين المعينين من قبل العثمانيين واستبدلهم حيثما كان ذلك ممكنا واستغل الحاكم المصرى تعليمات الباب العالى حيثما لا ءمته هذه التعليمات ، غير أنه أهملها تماما إذا ما بدت متعارضة مع مصالحه وإذا ما كان محمد على قد سار بحذر وحكمة فى علاقته مع الباب العالى فانه كان مصمما بشكل عنيد على أن يحطم قوة الاشراف الذين اعتبرهم العائق الرئسى امام اقامة حكومة مركزية فى الحجاز وأدرك محمد على أن المال هو مصدر قوة الاشراف لأن تأييد البدو والقبائل العربية الذى يحفظ كيانهم كان يتجه إلى الواجب الأكبر وحافظ كل شريف متقدم (أمير) على جيش خاص يتألف بصورة رئيسية من العبيد المحررين أو من الاقرباء الفقراء وحاولت فروع مختلفة

من الأسرة الشريفية أن تقيم استقلالها الذاتى ما دامت لم تستطيع اقامة الاستقلال التام عن الباب العالى واستغلت لذلك كل الفرص المناسبة وعند نهاية القرن الثامن عشر نجح الشريف غالب فى طرد الممثلين العثمانيين الى خارج الحجاز ولكنه سرعان ما هزم على أيدى قوات الدرعية وعلى الرغم من أنه قد سهل دخول القوات المصرية للحجاز فان محمد على أثناء تأديته للحج قام بالقبض على الشريف غالب لأنه ارتاب منه ورأى أن بقاءه فى مركزه قد يحول دون فوز الحملة وسرعة وصولها إلى غايتها فأمر بالقبض عليه وصادر امواله وبعث به إلى جدة ومنها إلى اقاهرة والى استانبول حيث ارسلا إلى «سالونيك» وظل الشريف غالب بها حتى توفى عام ١٨١٦ .

عين محمد على باشا الشريف يحيى اضعف ابنى الشريف سرور على شرافة الحجاز وسحبت منه كافة الصلاحيات كما سحب منه الدخل الوارد من الضرائب وزيادة على ذلك فقد عين بعض أقربائه المؤيدين لمصر أمراء فى المدن المختلفة من الحجاز وأصبحوا مسؤلين بصورة مباشرة إزاء الحكم المصرى وكانت أوضاعهم مثل اوضاع الشريف الجديد فهم لايمتلكون القوة الحقيقية واعتمدوا على المساعدات المالية التى كان يقدمها المصريون لهم وهكذا فان العائلة الشريفية التى كانت تقتصر بصورة تقليدية إلى السلطة الروحية خسرت الآن مصدر قوتها العسكرية والسياسية أيضا ولكن ذلك أدى إلى انشقاق الاشراف عن جانب محمد على باشا وانضمامهم إلى جانب آل سعود وان الشريف الذى عينه محمد على باشا على شرافة الحجاز خلفا لشريف غالب خشى أن يكون مصيره كمصير سلفه ولذا فانه فى غفلة من محمد على هرب ومعه اتباعه وانضم إلى جانب قوات الدرعية واشترك معها فى القتال ضد قوات محمد على وتأثر بهذا الموقف الكثير من القبائل العربية الموالية للاشراف مما احرج موقف القوات المصرية وترتب على هذا الموقف محاولة محمد على على توطيد الموقف الداخلى فى الحجاز فاتخذ عدة اجراءات منها اطلاق سراح الأسرى وعقد تحالفا مع القبائل الحجازية مثل : «العتبان» والمطران و «حرب» و «هذيل» و «ثقيف» وبنى سعد «والقاطنين بين مكة والطائف وذهب بنفسه إلى الطائف لتوكيد الروابط مع أهلها .

استعمل محمد على مع البدو أسلوب الترغيب والترهيب فقد استلم المستحقون المساعدة السنوية التقليدية وكميات من مواد الطعام فى حين وجدت القبائل التى لم تتعاون أو التى

وقفت فى طريق محمد على وجدت أنها تجابه الهجوم من جيرانها ومن المصريين ولكنه بالنظر لانشغال محمد على فى مناطق أخرى معظم الأوقات فان محاولات السيطرة على القبائل لم تكن ناجحة تماما ، كان سكان المدن الحجازية بتألفون من عناصر مختلفة فبالاضافة للأسرة الشريفية واتباعهم من القبائل القاطنين فى مكة والمدينة وإلى حد أقل فى الطائف فقد كانت هذه مقطوعة من عدد من العلماء ويعود هؤلاء فى أصولهم بصورة رئيسية إلى المهاجرين الذين وفدوا إلى الحجاز من جميع أنحاء العالم الاسلامى وكان هذا أمرا لم يستطع محمد على أن يغفله فقد عومل العلماء بالاحترام والكرم والحزم فى آن واحد ولم يكن هناك حب مفقود على أية حال بينهم وبين حكومة محمد على وكانت المدن تحوى عنصرا آخر هاما هم مجموعة المنتمين إلى الموظفين والجنود والحجاج والاتراك والالبانيين واليونانيين والقوفاز ومن شمال افريقيا من المغرب العربى وكان بعض هؤلاء يعمل فى الادارة كما يزاول بعضهم اعمالا ذات اختصاص ويعمل بعض هؤلاء إلى مرتبة العلماء وكانت هذه العناصر على العموم محافظة ورجعية ولم تكن لتحب محمد على أو اصلاحاته وتجديده وكانت «جدة» وإلى درجة أقل«ينبع» أكثر تنوعا من بقية المدن الحجازية فقد كانت هذه مراكز لمجموعة تجارية كبيرة تتألف اضافة إلى العناصر العربية والتركية والالبانية من مسلمين متنوعين من الهند والشرق الاقصى . ويدأ تنظيم الادارة الحجازية أكثر وضوحا فى المدن الساحلية بصورة رئيسية فيما يتعلق بالأمن والضرائب والجمارك [١٠].

أدخل محمد على نظام الاحتكار المصرى برغم سخط التجار الحجازيين واعتبر هذا النظام كمنافس يستعمل وسائل غير عادلة لاسيما وأن هذا النظام قد نافس التجار بشكل فعال وانتقدوه لهذا السبب بمرارة وزيادة على ذلك فان الحروب المستمرة وعدم الاستقرار فى المنطقة وانحطاط تجارة البن اليمنية بسبب دخول البن البرازيلى الرخيص إلى الأسواق قد تسبب فى انخفاض حجم التجارة وازدادت معاداة التجارة المحليين والعناصر المرتبطة بهم وغيرهم ممن نسب معاناته إلى الحكومة المصرية غير أنه فى الحقيقة لم يحدث تغيير كبير فى الادارة وفى الحكومة الحجازية فقد ظلت معظم ادارتها تدار من قبل اشخاص محليين أو من الأسرة الشريفية [١١].

٢- الجيش المصرى وفتح اليمن

وصلت إلى محمد على باشا أثناء وجوده فى مكة أوامر من الباب العال تحثه على قتال القبائل اليمنية فى «عسير» ليسهل عليه بعد ذلك مهاجمة الدرعية وهو مأمون الظهر وكان محمد على نفسه يدرك خطورة هذه القبائل اليمنية فى عسير على قواته ولذا فانه زحف نحو الجنوب على رأس قوة كبيرة من الجنود للقضاء على قوة هذه القبائل واخضاع منطقة عسير اليمنية لحكمه ، ووجه حملة إلى شمال اليمن تمكنت من الاستيلاء على ميناء «قنفذة» وأمر محمد على بتحصين هذا الميناء ومنها الزحف إلى داخل اليمن كما ابقى حامية هناك تتألف من ألف ومائتى جندى غير أن قائد الحامية فاته أن يستولى على عين الماء التى تحصل منها المدينة على المياه اللازمة فاستولى عليها أفراد من القبائل اليمنية بقيادة طامى بن شعيب أمير عسير فلم تنجح محاولات جنود محمد على لاستعادتها ولم يجد قائدهم وسيلة لانقاذ جنوده من الظمأ سوى إخلاء «قنفذة» والعودة إلى «جدة» فنجاة من الحامية من استطاع ركوب السفن بينما قتل اليمنيون من قبائل عسير عدد كبير ممن أدركوهم من القوات المصرية، على أن عزيمة محمد على باشا لم تنثن امام مقاومة القبائل اليمنية فى عسير فأرسل امدادات جديدة إلى قواته قوامها سبعة آلاف من الجنود ومبالغ طائلة من الأموال وتحمل المصريون فى سبيل ذلك تضحيات جسيمة وقد تقدمت من الحجاز إحدى قوات محمد على بقيادة عابدين بك للاستيلاء على «وادى زهران» الذى يفصل اليمن عن الحجاز غير أن اليمنيين هاجموها واضطروها إلى الانسحاب كما تعقبوها إلى داخل الحجاز وحاصروها فى الطائف ولكن محمد على باشا نجح فى أن يخدعهم بذكائه فأوهمهم بقدومه إلى الطائف على رأس قوة كبيرة مما اضطرهم إلى الانسحاب ورفع الحصار عن المدينة خوفا من مواجهته (١٢).

تمكن محمد على باشا من الاستيلاء على «بيشة» التى تعد مفتاح اليمن من جهة الشمال الشرقى وواصل زحفه فى «وادى عسير» برغم المتاعب والصعوبات المضنية التى واجهته هو وقواته من المقاومة اليمنية فى عسير وزاد من شدة هذه المتاعب نفاذ الغذاء مما اخطر افراد القوات إلى الاعتماد على التمر وشارك محمد على باشا جيشه شظف العيش ليرفع من معنوياتهم ويشجعهم وفى «وادى زهران» تمكن محمد على بقواته من هزيمة القبائل اليمنية وواصل محمد على عملياته الحربية فى مناطق عسير وتهامة واتجه نحو الشاطئ وتمكن من الاستيلاء على ثغر «قنفذة» الذى فشلت قواته فى الاستيلاء من قبل ذلك، اطمان على

تطهير الميدان الجنوبى من القبائل اليمنية المعادية له فى عسير وتهامة وعاد راجعا إلى مكة وأنه اضطر تحت ضغط ظروف داخلية وخارجية إلى العودة إلى مصر [١٣].

قدم إلى حسن باشا نائب محمد على باشا فى الحجاز أميران يمنيان هما : على بن حيدر ومنصور بن ناصر يشكوان عمهما الشريف حمود وريث «آل خيرات» فى المخلاف السليمانى الواقع فى شمال اليمن الذين كانوا يدينون بالولاء لأئمة صنعاء (والمخلاف عبارة عن ولاية أو منطقة يشتمل على مدن وقرى يوجد فيه أودية وسهول وجبال وأن اليمن كان ينقسم إلى ٤٨ مخلاف) وكان الشريف حمود قد سجن ابن أخيه يحيى بن حيدر ظلما كما كان يماطئ حكام الدرعية الذين يسيطرون على شمال اليمن وقد طلب الأميران (الشريفان) اليمنيان من حسن باشا أن يمدهما بقوة تمكنهما من الاستيلاء على اليمن باسم الدولة العثمانية والتخلص من استبداد الشريف حمود وهكذا صاحب الشريفان احدى قوات محمد على التى توجهت إلى عسير بقيادة سنان باشا كما رافق أحدهما وهو الشريف على بن حيدر القوة الأخرى التى توجهت إلى تهامة بقيادة خليل باشا وكانت هاتان الحملتان تمثلان البداية الفعلية لوصول قوات محمد على باشا إلى اليمن لدعم السيادة العثمانية ، وعندما انتصر جنود محمد على اليمنيين فى موقعة «بسل» بين «الطائف» و «تربة» فى عام ١٨١٥ انسحب اليمنيون إلى مرتفعات عسير فى شمال اليمن وحاول قائدهم طامى بن شعيب أن يلجأ إلى الشريف حمود حاكم المخلاف السليمانى غير أن أنباء الهزيمة شجعت الشريف حمود على التنكر للدرعية فطردوهم من قلعة «صبيا» وأسر قائدهم طامى بن شعيب كما رأى الشريف حمود من مصلحته أن يقيم علاقات ودية مع محمد على خاصة بعد أن علم بانتصاراته على قوات الدرعية ؛ ولهذا سلم القائد طامى الاسير لديه إلى رجال محمد على دون أدنى مساومة فارسل طامى إلى مصر ورحل منها إلى الآستانة حيث طوف به فى شوارعها ثم أمر السلطان العثمانى باعدامه كماأهدى الشريف حمود إلى محمد على أربعة رؤس من كرائم الخيل مصحوبة برسالة تظهر له المودة والصداقة وقد استحس محمد على الهدية وبعث برسالة إلى الشريف حمود حثه فيها على رعاية شعبه فى المخلاف السليمانى حتى يعزز مطالبه لدى الباب العالى بابقاء الشريف حمود على امارته على أن يعاد إليه كل ما انتزعه حكام الدرعية من املاكه غير أن الشريف حمود تنكر لمحمد على كما فعل من قبل أئمة صنعاء واستجاب لنداء اشراف عسير الذين اتخذوا موقفا معاديا من قوات المعسكرة هناك ولهذا قام

الشريف حمود بمهاجمتهم فى عسير وألحق الهزيمة بقائدهم جمعة باشا غير أن قوات المصرية عاودت هجومها على عسير بقيادة سنان باشا ولكن النصر كان حليف القبائل اليمنية بقيادة الشريف حمود فى تلك المرة أيضا فتراجع الجيش المصرى عن عسير نتيجة للمقاومة اليمنية وقتل قائدهم سنان باشا فى أثناء الانسحاب(١٤).

٣- الجيش المصرى وفتح الدرعية

تمكن طوسون«باشا بمساعدة قوة من القبائل الحجازية من «حرب» و«عتبة» و «مطير» من الاستيلاء على كثير من قرى مثل «الخبراء» و«الشبية» وغيرها واصبح الطريق إلى الدرعية مفتوحا امامه وفى هذا الوقت طلب «طوسون» من والده يستعطفه فى السماح له بالعودة إلى مصر لسوء حالته الصحية فأستأذن له والده الباب العالى الذى وافق على عودة طوسون بعد أن تعهد محمد على بالقضاء على آل سعود وتحطيم الدرعية فى الوقت المناسب وعاد «طوسون» إلى القاهرة فى ٨ / ١١ / ١٨١٥ وأرسل محمد على ابنه ابراهيم باشا ليحل محل أخيه «طوسون» ووصل ابراهيم باشا إلى ميناء «ينبع» فى ٢٣ / ٩ / ١٨١٦ واتجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ وأنه أقسم أمامه بعد أن وضع عليه العقد الذى أهدته له امه أنه لن يغمد سيفه فى جوابه حتى يفرق شمل الأعداء ، ولما فرغ ابراهيم باشا من زيارة قبر الرسول ﷺ أخذ يضع تكتيكا عسكريا لخططه الحربية يقوم على عدة أسس وهى استعمال الشدة مع الجند وعقاب كل من يعتدى على القبائل العربية أو يسلب منهم شيئا ؛ ولهذا كان يدفع ثمن كل ما يأخذه جنوده من البدو وكان لهذا العمل تأثير كبيرا فى نفوس أفراد القبائل العربية والذين أعلن معظمهم الطاعة للحكم المصرى ثم الاغداق الواسع على أفراد القبائل العربية ودفع رواتب منتظمة لبعضهم وتقديم الهدايا لشيوخهم واستمر ستة أشهر كاملة يعمل على توطيد نفوذه بين القبائل العربية وكسب ودهم حتى تمكن بهذا الاسلوب من تطعيم جيشه برجال القبائل المحلية تطعيما قويا وجذب إليه أكبر عدد من هذه القبائل العربية وبعد أن أمن ظهره بهذا الاسلوب بدأ زحفه صوب المدن النجدية متغلبا على كل مصاعب الطرق الصحراوية واستولى على «عنيزة» و «الرى» وترتب على ذلك إذعان القبائل النجدية فى بلاد «القصيم» إلى التسليم خوفا من بطش ابراهيم باشا وقسوة العمليات الحربية خاصة وإنها رأت تدهور نفوذ آل سعود واندحارهم اندحار سريعا إلى الزوال(١٥) .

استأنف ابراهيم باشا رحفه إلى «الشقراء» فى ديسمبر ١٨١٧ وهاجمها فور الوصول إليها بعنف فأدرك أهلها أنه لا أمل فى الانتصار على القوات المصرية وبعث ابراهيم باشا برساله لوالده يقول فيها : أن الأهالى ضجوا بالعويل والاستغاثة وارتفعت اصواتهم منادية «الأمان يا ابراهيم ارحم عيالنا واعف عما بدا من تقصيرنا » ، ونستنتج من ذلك عنف وقسوة ابراهيم باشا والجيش المصرى على سكان «الشقراء» التى كانت تمثل الحصن الاخير امامهم فى طريق الزحف إلى عاصمة آل سعود فى الدرعية ويقول ابراهيم باشا أن نفرا من شيوخ المدينة جاء يلتمسون منه الأمان فأجابهم ثم جاء شيوخ قرى «وادى الدواسر» الاحد عشر وطلبوا منه الامان نظير إعلانهم الخضوع للحكم المصرى فأجابهم إلى طلبهم ثم دخل ابراهيم باشا الدرعية واستسلم الامير عبدالله بن سعود ثم دمر ابراهيم باشا الدرعية واشعل فيها النيران فأصبحت أثر عين وبعد أن أدى مهمته وأعلنت المدن النجدية ولاءها واستكمل بعدها فتح الاحساء ثم توجه إلى المدينة المنورة لزيارة قبر الرسول ﷺ ومنها عاد إلى القاهرة فى ٩ / ١٢ / ١٨١٩ (١٦).

يعتبر تغلغل ابراهيم باشا فى قلب نجد بعد زحف طويل فى بلاد تضمر له بالعداوة نجاحا عسكريا يدل على مهارة فائقة فأظهره ذلك بمظهر القائد العظيم الذى تفوق فى عظمته حتى على ابيه وقد سحق الدرعية واستطاع بانتصاراته أن ينقذ السلطان العثمانى من خطر كبير وأن يعيد سيطرته على الأماكن الاسلامية فزادت بذلك شهرة محمد على باشا وانتشر ذكره فى العالم العربى قاطبة وأهم من ذلك كله جعلت صلة محمد على باشا وابنه بالوطن العربى صلة وثيقة واصبحت تتراى لهما رؤى قيام دولة عربية يعملان إلى تأسيسها واقامة اركانها (١٧).

٤- عودة الجيش المصرى إلى اليمن

ارسل الامير عبدالله بن سعود إلى مصر أسيرا ثم رحل منها إلى الآستانة حيث أمر السلطان العثمانى باعدامه وتحركت القوات المصرية بقيادة خليل باشا لتقضى على مقاومة القبائل فى شمال اليمن فى عسير وكان الشريف احمد بن حمود قد خلف أباه فى حكم عسير والمخلاف السليمانى وتهامة فاستعد وزيره لملاقاة القوات المصرية فى عسير غير أنهم عدلوا عن طريق عسير وتقدموا فى معركة خاطفة تجاه مدينة «ابى عريش» عاصمة المخلاف السليمانى مما اضطر الشريف أحمد بن حمود أن يسرع فى التحرك إلى هناك وكان يدور فى

خلد الشريف احمد بن حمود أن مقصد خليل باشا هو فرض السيادة العثمانية على اليمن مع الابقاء عليه أميرا فى بلاده ولهذا تهاون فى أمر المقاومة والدفاع واطمأن إلى أن قواته من رجال القبائل اليمنية من «همدان» و «حاشد» و «يام» وغيرهم سوف يستطيع أن يقاوم بهم جنود الجيش المصرى للحصول على صلح يحقق اغراضه ولكن الجيش المصرى بعد أن سيطر على «صبيا» واستولى على قلعتها طلب قائده من الشريف احمد بن حمود أن يحضر إلى معسكره للتفاهم معه وقد قدم الرشيف احمد بن حمود إلى خليل باشا معلنا طاعته وولاءه فأمره خليل باشا بالعودة إلى «ابى عريش» برفقة مأمور يتولى إدارتها من قبله كما طلب من الشريف احمد بن حمود أن يكتب إلى جميع عماله وحامياته فى أرجاء البلاد بالتسليم فصارت البلاد الواقعة من «ابى عريش» شمالا إلى «زبيد» في الجنوب تحت امرة خليل باشا الذى استقرت الأمور في يده فى المناطق الشمالية من اليمن فى «عسير» و «المخلاف السليمانى» ولهذا فانه قد بعث برسول من قبله إلى امام صنعاء الزيدى ومعه رسالة من محمد على باشا تشير إلى أن قواته جاءت إلى اليمن لانتزاع تلك المناطق من ورثة الشريف حمود باعتبارهم من أتباع «الدرعية» واعادتها إلى امام اليمن وطلب خليل باشا من امام صنعاء أن يوفد مندوبين من قبله لتفاوض معهم فى امر اعادة «عسير» و «المخلاف السليمانى» إليه وتمت المفاوضات بالاتفاق على أن يدفع امام اليمن مبلغا من الخراج سنويا إلى الباب العالى وبذلك اعادت القوات المصرية تبعية امام اليمن للسيادة العثمانية إذ كان الأئمة الزيديون قد خرجوا عن طاعة الدولة العثمانية منذ نهاية الفتح العثمانى لبلادهم عام ١٦٣٥ ولم يكن للباب العالى سلطان عليهما فكان تعهد الامام لقائد القوات المصرية فى اليمن أن يدفع للباب العالى سنويا جزءا من الخراج اعترافا من أئمة صنعاء بعودتهم إلى حظيرة الدولة العثمانية منذ ذلك الحين . وقد قام امام صنعاء بارسال عماله لتسليم المناطق اليمنية فى عسير والمخلاف السليمانى التى سيطر عليها الجيش المصرى وذلك باستثناء «ابى عريش» التى اتفق امام اليمن مع قائد هذا الجيش على أن يكون تسليمها لشريف على بن حيدر المنافس الأول للشريف حمود ولإبنه احمد من بعده وكان الشريف احمد هذا قد وقع أسيرا فى قبضة القائد المصرى الذى أرسله إلى القاهرة حيث توفى فيها بينما عاد خليل باشا إلى الحجاز بعد أن سلم ما فتحه من البلاد اليمنية فى عسير والمخلاف السليمانى للامام الزيدى فى صنعاء وانتهت بذلك مهمته فى اليمن [١٨].

٥- الحكم المصرى والأوضاع فى الحجاز

بقيت القوات المصرية فى الحجاز بعد عودتها من اليمن ونشبت عدة ثورات وفتن تحملت مصر فى سبيل اخمادها متاعب هائلة ونفقات طائلة ؛ وعلى الرغم من أهمية الحجاز ومكانته العالية فلم يكن عاليا فى مقياس الأقدميات عند محمد على باشا فقد أحزنه الانفاق المستمر لموارده المالية ولقواته المسلحة التى سببتها الهجمات المستمرة والهيجات فى الحجاز واليمن ولم ينجح الجيش المصرى فى معالجة عدم الاستقرار الدائم فى الحجاز واعتمادا على كل الحسابات ، فان محمد على باشا استغل الحملة على الحجاز للخلاص من جنوده الاتراك والمماليك الدائمي الثورة وتجنب هؤلاء كما كان متوقعا المعارك حيثما كان ذلك ممكنا وفضلوا الراحة فى المدن وكنتيجة لذلك فقد أصبح محمد على مجبرا عام ١٨٢٣ وقبيل انشغاله فى قمع الثورة اليونانية على أن يرسل إلى الحجاز فرقة المشاة الثانية من الجيش الذى تم اعداده وفق النظام الجديد وتألف الفرقة المنظمة من خمسة بطاريات واصبح عدد الجنود غير النظاميين فى الحجاز خيالة كانوا أم مشاه بين اربعة إلى ستة آلاف رجل اعتماد على الظروف وأدى وصول الفرقة المدربة على أساس النظام الجديد إلى تغيير توازن القوى بشكل كامل عما كان قائما عليه بين مختلف العناصر المكونة للحامية الحجازية فاعداد الوحدات غير النظامية كان اصغر بكثير من وحدات الفرقة النظامية المدربة على النظام الجديد ولكن تضامن الوحدات غير النظامية كان يجعل عددها أكبر رغم أنها لم تكن مسلحة بصورة جيدة أو مدربة تدريبا حسنا وكان قائد الفرقة النظامية من بين الأقدمين فى المراتب العسكرية على أن بعض الضباط غير النظاميين قد حقق مناصب هامة فى الماضى فيما يتعلق بدورهم فى القيادة وقد أدى مجئ الفرقة النظامية زيادة على ذلك إلى خسران غير النظاميين لسيطرتهم على الحكومة المصرية لأنه قد اصبح ولأول مرة تحت سيطرة الحاكم فى مكة وحدة عسكرية مدربة وموالية ومستعدة لأن تطيع أوامره وعزز هذا الامر مكانة الحاكم إزاء قواد المرتزقة الذين كانوا فى خدمته ؛ وكذلك إزاء الاشراف والعناصر المحلية أما الشئ الهام الآخر هو أن الخيالة غير النظاميين كانت تتألف بصورة رئيسية من عناصر من الاتراك والجورجيين واليونانيين اما المشاه فكانوا من المغاربة والبانيين بينما كان النظاميون من المصريين والسودانيين الذين كان ينظر إليهم بازدراء لخضوعهم ولملابسهم الغربية وتدريبهم الأوربى الذى كان غير مألوف فى المجتمع الاسلامى وكان من المتوقع على هذا الأساس أن يقوم

الاضطراب بين غير النظاميين والنظاميين ويظهر عدم رضاء الأولين الذين كان عطاؤهم يتأخر دائما وسيؤدى ذلك إلى ازدياد نسبة انحطاط قوتهم مقارنة بالمعاملة المفضلة نسبيا الممنوحة لوحدات الجيش النظامى الجديد والذى يحمى فى العادة المدن الهامة وقوادها (١٩).

صدم العلماء والرجال المتدينون فى الحجاز كما صدم بعض الحجاج لتصرف الاداريين المصريين وخصوصا تصرف الجنود الغير نظاميين ومع ذلك فان سكان المدن قد الفوا سلوك مثل هذه الجيوش لمدة طويلة جدا حينما كانت الجنود غير النظامية تصاحب قوافل الحجاج وكانت تعتبر كشر لامناص عنه ، واغضب وصول فرقة النظام الجديدة هذه والتى ترتدى الملابس نصف الأوربية الشكل والمجهزة بالبنداق التى تشبه الصليب عوضا عن السيوف المعقوفة والتى تزحف على نفحات الموسيقى الغربية والمصاحبة بالمستشارين الأوربين والاطباء والفنيين اضافة إلى اصلاحات محمد على فى حقل الحكومة اغضب أهل المدن المتدينين فى المناطق المحيطة هذا اضافة إلى أن العلاقة بين الجيوش النظامية وغير النظامية قداحدثت أثرا واضح المعالم فى الحجاز ، وأهمل محمد على قضايا السودان والجزيرة العربية لانشغاله منذ عام ١٨٢٤ فى حملة «المورة» التى استنفذت كل طاقاته وموارده فى الاعوام التالية فقد ارسلت معظم وحدات القوات الحسنة التدريب إلى اليونان وتم سحب الفرقة الثانية من الحجاز عام ١٨٢٦ واستبدلت بقوة حديثة التنظيم ودون الفرقة الثانية فى التسليح وفى القيادة من فرق المشاة هى الفرقة التاسعة وقد تم القيام بهذا الاجراء على الرغم من انتشار السخط بين السكان الحجازيين الذى تولد بسبب عامين متتالين من الجفاف وعدم وصول مستحقات القمح من مصر وبسبب فرض احتكار جديد على تجارة البن وأدت سنوات الاهمال وسوء الادارة إلى قيام شعور عام بعدم الاستقرار كما هاجم البدو الذين لم يسلموا المنح الاعتيادية القوافل الحجازية . وقتل الشريف يحيى عام ١٨٢٧ والمتألم لوضعه الضعيف منافسة وهرب إلى قبائل «بنى حرب» حيث رفع هناك لواء الثورة وعلى ضوء تنامى الخيبة لدى السكان والضعف النسبى للحامية المصرية فى هذه الفترة انتشر العصيان وهزم قائد القوات المصرية فى مكة «قائد الفرقة التاسعة» بشكل تام حينما حاول الزحف ضد الثوار واقيم حوله الحصار الذى فرضه سكان مكة وشاركت فيه قوات بعض الاشراف فى الحصن المبنى من قبل الامير غالب بالقرب من المدينة وافنيت حاميتها وكذلك حامية الطائف فى حين بقيت حامية «جدة» تعانى الهجمات المتكررة ولم تتمكن من االحتفاظ بمواقعها إلا بصعوبة وساهم أحمد يكن

باشا وهو نسيب محمد على بادارته السيئة كحاكم عام وقائد أعلى فى تدهور الوضع ولم يكن راغبا فى خوض المعارك ضد الثوار وأخذ يفاوض بدلا من ذلك الفروع الرئيسية للاشراف كما فاوض العناصر القوية الأخرى واستنادا إلى نصيحة هولاء فقد عين عبدالمطلب ابن الشريف المخلوع غالب كشريف على الحجاز [٢٠]، وهو من فرع «ذوى زيد» .

عرض احمد يكن باشا الامر على محمد على ولكن الأخير لم يوافق على ذلك وكان يوجد بمصر وقتئذ الشريف محمد بن عبدالمعين بن عون فولاه محمد على باشا امارة الحجاز وطلب له الأمر من الدولة العثمانية فأجيب إلى ذلك وكان الشريف محمد بن عون قد ساعد القوات المصرية من قبل فى استخلاص اقليم عسير من اليمنيين وقبل أن يغادر مصر متوجها إلى مكة نفحه محمد على باشا بمبلغ كبير من المال لتوزيعه على قبائل الحجاز ؛ وخصوصا تلك التى تسكن البادية حيث كان الاشراف فى العادة يبحثون عن حلفاء لهم من بينهم ومن ثم فقد ذهبت سدى محاولات الشريف عبد المطلب لاثارة القبائل والاشراف واتباعهم ضد الشريف الجديد واضطر اخيرا ان يرحل من الحجاز عام ١٨٣١ فى صحبة قافلة متجهة إلى دمشق ومنها توجه إلى الآستانة ليعيش فى المنفى ومن الجدير بالذكر أن بنى عون أو ذوى عون وهم فرع من الأسره الهاشمية كانوا قد نزلوا منذ مطلع القرن التاسع عشر إلى الميدان كمنافسين لذوى زيد على الشرافة وذلك فى وقت كانت الجزيرة العربية مسرحا لصراعين آخرين صراع مع حكام الدرعية الذين اخذوا على عاتقهم التوسع تجاه الحجاز وضم المناطق المقدسة إليهم وصراع مع محمد على باشا الذى ارسل جيوشه إلى الجزيرة العربية لاسترداد السيادة العثمانية المشرفة على الزوال هناك [٢١].

ينتسب شريف مكة الجديد إلى فخذ عبدالله من العائلة الشريفية التى ظلت مبعدة عن النفوذ لمدة تقارب القرن من الزمن وكان هذا الشريف قد قاتل ببسالة إلى جانب المصريين فى عسير وعاش لبعض الوقت فى القاهرة وكان يحمل ولاء تاما لمحمد على وينتمى للأسرة الهاشمية الملكية حاليا فى الأردن إلى «ذوو عون» وهو عون بن محسن بن عبدالله تفرعت منه ثلاثة فروع محمد وهم أهل الامارة وفرع هزاع وفرع ناصر فأما محمد وهزاع فهما أبناء عبد المعين بن عون بن محسن بن عبدالله وأما ناصر فهو ابن فواز بن عون وهذا الفرع كانت تكون فيه ادارة الطائف عندما تكون الشرافة فى ذوى عون والشرافة فى عون هى لبنى محمد بن عبدالمعين . وكان لشريف محمد بن عون الجديد من الشخصيات التى لها مكانتها واحترامها فى مكة [٢٢] ونظرا لخدماته الجليله للمصريين كافأه محمد على بهذا المنصب .

يبدو أن محمد على قد اعتبر أن الحالة خطيرة فى الحجاز لأنه جمع فرقتى مشاة وأربعة فرق خيالة نظامية وعدة وحدات من القوات الخيالة غير النظامية ولم يبق لنفسه غير فرقة واحدة متعبة وعند وصول التعزيزات إلى الحجاز أمر احمد يكن باشا بخلع عبد المطلب كما كلف ببذل اقصى جهوده لتهدئة الثورة وعند سماع الشريف عبدالمطلب واخوته ومعظم افراد اسرة «زيد» وهم الفرع الشريفى فى السلطة بقرار محمد على باشا فقد انضموا إلى الثورة وبات الحكم المصرى فى الحجاز لفترة وجيزة مكانه قد قارب نهايته لأن معظم سكان المدن ورجال القبائل قد التحقوا بالثوار الذين تشجعوا بدون شك للانباء القادمة من مكة والمغلقة بوضعية القوات العثمانية والمصرية المشتركة وتدخل الدول الأوروبية وحاول الثوار الاستيلاء على آخر معقل يتمركز فيه المصريون ولكن هذه المرحلة شهدت وصول التعزيزات المصرية للحجاز وأخذت القبائل تتفرق بعد قليل وبحصول بعضها على المبالغ المالية الكبيرة من مصر فقد خمدت الثورة وتم القاء القبض على الشريف يحيى وعلى بعض معاونيه وارسلوا إلى مصر غير أن الشريف عبد المطلب هرب إلى عسير حيث بقى فيها حتى عام ١٨٢٩ ويبدو أن السلطات العثمانية قد اعترفت بالحكم المصرى فى الحجاز فى العشرينات وفى الحقيقة فانه عندما اندلعت الثورة فى الحجاز عام ١٨٢٧ اعطى السلطان محمد الثانى إلى محمد على فرمانا موقعا بالتعين بدون أن يذكر فيه اسما . وترك تسمية شريف مكة إليه وعند نهاية الثورة وحينما رجا عبد المطلب رؤوف باشا امير الحج السورى لكى يتدخل فى صالحه مع السلطان لكى يسمح لع بالعودة إلى مكة فقد اعتذر الأخير وأخبر الشريف عبد المطلب بأن كل القضايا العربية هى فى أيدى محمد على وفضل عبدالمطلب أثر استلامه لهذا الجواب اللجؤ لدى باشا بغداد الذى ساعده فى الوصول إلى الآستانة وخلال أزمة ١٨٣٢ عين الشريف عبدالمطلب من قبل الباب العالى اميرا على مكة غير أن تعيينه كان عديم المعنى ، وعلى الرغم من أن الثورة قد قمعت بحلول عام ١٨٢٩ وانسحبت معظم قوة الحملة المصرية من الحجاز استعداد للحملة إلى الشام فقد استمر عدم الاستقرار والغليان السرى وتضاعفت هجمات بعض القبائل الحجازية واضطرت الحكومة المصرية إلى إرسال قوات غير نظامية اضافية إلى الحجاز (٢٣)، وهى حقيقة ستؤدى إلى التأثير على التطورات فى الحجاز فى اعوام ١٨٣١-١٨٣٣ .

اعطى الشريف محمد بن عون سلطة واسعة تزيد كثيرا على سلطة سلفه ومنح أيضا حصة من دخل جدة . وعلى الرغم من غيرة بعض اقربائه فقد نجح فى الحصول على اتباع فى المناطق الحضرية واتباع أكثر بين القبائل البدوية الحجازية أيضا وقويت سطوته أيضا لعلاقته الممتازة مع عبدين باشا الحاكم الذى تعاون معه عن قرب واستشاره فى كل قضية هامة وازداد عدد الحجاج فى هذا الوقت وبدأت تجارة البحر الأحمر تستعيد نشاطها وزادت الدخول من ميناء جدة ومن مصادر أخرى بشكل واضح واستفاد الشريف محمد بن عون من ذلك وبات قادرا أكثر من السابق على تثبيت سلطة غير أن هذه الأمور كلها لم تحبب الحكومة المصرية إلى القبائل الحجازية وإلى الجماعات التجارية التى كانت غاضبة لفرض الحكومة المصرية الاحتكار على البن ولمعاناتها من الضرائب الكبيرة وقبل السكان فى الحجاز الحالة الجديدة غير أن سخطهم على المصريين لم يكن خافيا وكانت اكثرية الاشراف فى الحقيقة وخصوصا منهم فتخذ «ذوى زيد» قد راقبت بغيرة تنامى قوة بنى عون الذين ساعدوا المصريين على تثبيت حكومتهم فى الحج ، كانت المصالح البريطانية فى الخليج العربى والبحر الأحمر فى هذه الفترة تشهد نموا سريعا وزادت الاستعدادات لإقامة خط سفن تجارية بين الهند والسويس ونشط زورق مسح فى البحر الاحمر وتطورت العلاقات مع حكام بعض الاقطار الواقعة على حوض البحر الأحمر وسببت هذه التصرفات البريطانية القلق فى القاهرة واعادت وكشفت من الجهود المصرية الهادفة إلى الاستيلاء على اليمن وعدن وغيرأن الباشا لم يكن يرغب فى إغاظة البريطانيين وانتظر الفرصة المواتية وتوفرت هذه الفرصة بشكل غير مباشر عن طريق حملته إلى الشام (٢٤).

حدثت تغيرات فى حكومة الحجاز وعلى الرغم من أنها بقيت غير هامة فى مقياس أسبقيات محمد على وهجمات بعض القبائل الحجازية التى لم تتم السيطرة عليها قد احدثت فى الحجاز شعورا بضعف الدولة وقد كان تنامى عدم الرضا الذى ابدته الجنود غير النظامية وقوادها عاملا أصبح كثير الأهمية فيما يتعلق بالتطورات المحلية فقد تغيرت النسبة بين الجنود النظامين وغير النظامين المعسكرين فى الحجاز إلى حد كبير فى غير صالح الجنود غير النظامين فى منتصف عام ١٨٣١ م كان عدد الجنود الخيالة والمشاة غير النظامين أكثر من خمسة آلاف مقارنة بالفين من النظامين اضافة إلى ذلك فان «عبدين بك» الحاكم القدير والقائد العام مات بمرض الكوليرا فى منتصف عام ١٨٣١ وحل محله القائد العسكرى

الشهير فى الجزيرة العربية وخاصة فى شرقها خورشيد باشا . كانت نيات محمد على فى الاستيلاء على الشام معروفة فى الحجاز كما كانت معروفة فى أى مكان آخر نهاية ١٨٣٠ وحينما دخل الجيش المصرى بلاد الشام وصلت انباء متعارضة إلى الحجاز سببت تساؤلات وتوقعات فقد وفر الاتصال الوثيق بين المناطق المقدسة والعالم الاسلامى وسيلة ممتازة لنشر اخبار تحركات محمد على وخاصة الرجعيين الذين يعارضون الاصلاحات التى جاء بها محمد على ووقفوا ضده عندما علموا بمعارضة الباب العالى للوجود المصرى فى الشام والولى يعمل على توحيد العرب تحت راية واحدة دولة واحدة وهم غالبا من القوميات الغير عربية وخاصة التركية أنبت محمد على لتحديه السلطان وحافظ قواد القوات غير النظامية الذين كانوا من قوميات غير عربية من «الاتراك» و «البانيين» و «حورجيين» أو «شراكسة» على اتصالاتهم مع ابناء جلدتهم الذين خدموا فى المعسكر المعارض واصبحوا على ضوء عدم رضائهم وسيلة سهلة بأيدى الدعاية التى كان اعوان الباب العالى ينشرونها ومنذ بداية عام ١٨٣٢ كانوا يراسلون الباب العالى عن طريق والى بغداد ويظهر أن العثمانيون كانوا سريعين فى إدراك الفرص التى كانت متاحة لهم فى الحجاز وتحقيقا لأهدافها فى الاستفادة السريعة من الوضيعة فقد حركوا المرتزقة للنهوض ضد محمد على واقنعوهم بأن محمد على سيخلع قريبا لكونه ثائرا على الدولة العثمانية وأنه يريد قيام «دولة عربية موحدة» مما يعنى عدم وجود مكان لهم فيها بالامتيازات التى كانوا يتمتعون فيها . وبسبب بعض المصاعب التى رافقت اعداد حملة الشام فقد اعطى محمد على انتباها أقل من المعتاد إلى الحجاز وكان من الواضح أن حاكمه الجديد خورشيد باشا جاء فى ظروف صعبة فى اقليم ملئ بالمشاكل والفتن وزيادة على ذلك انتشر التضخم وقلت موارد التموين وتأخر دفع مرتبات الجنود النظاميين لمدة تقرب من العامين [٢٥].

يجب أن تفحص احداث الحجاز على ضوء طموح وأخلاق قواد جيش محمد على غير النظامى وعلى ضوء القلق والمنافسة التى تنامت بينهم وبين قواد الجيش النظامية أن الشخص الهام والمسؤل عما وقع فى الحجاز فى أعوام ١٨٣٢ «محمد آغا» وهو مملوك سابق من أصل جورجى يعود لزوج أخت محمد على المعروف «بتركى بيلمز» أى «الرجل الذى لايحسن التحدث بالتركية» وقد اتضح أنه رجل مثير للمشاكل فى عام ١٨٢٣ وسمح له بالبقاء فى الحجاز بسبب توسط الحاكم احمد يكن باشا له بعد أن نال تأنيبا قاسيا من محمد على، أن

عدم استقرار الوضعية فى الحجاز واقدميته بين قواد غير النظامية قد مكنته أن ينال من الشريف تعيينا كحاكم «لجدة» وأن يشارك فى حكومة مكة ولما كان بعيدا عن القناعة بما حصل عليه فقد اعتبر هذه التعيينات كأساس لانجازات أكبر وتوقع نيل ماهو أكثر بمرور الزمن ، حين تأكدت الاشاعات حول فشل ابراهيم باشا فى الاستيلاء على «عكا» فى يناير ١٨٣٢ وبعد أن تم تثبيت الاتصال ببغداد اصبح «تركى بيلمز» أكثر جرأة وتهورا وأخذ يعد العدة لأن يكون قادرا على الاستفادة من الانتصار النهائى للباب العالى، ان الفشل الظاهرى لجيش ابراهيم باشا وضعف جيش النظام الجديد الذى مده محمد على فى الحجاز والتأييد غير المحدود الذى حصل عليه «تركى بيلمز» من أتباعه من القوميات غير العربية قد أغنت مطامحه وعلى ضوء تطلعات البريطانيين فى البحر الأحمر فمن المحتمل أن يكون بعض الممثلين البريطانيين قد اتصل به أو على الأقل فقد اعتقد «تركى بيلمز» أنه ربما يحصل على المساعدة البريطانية أو الاعتراف ويوضح لنا هذا الموقف سبب الحماية التى حصل عليها البريطانيون فى جدة والأحداث الأخيرة حينما هرب «تركى بيلمز» إلى الساحل اليمنى ، كانت القوات غير النظامية وعلى الأخص ما كان منها فى «جدة» عمليا فى حالة ثورة منذ ابتداء عام ١٨٣٢ ، ولم تكن الحالة فى مكة والاجزاء الأخرى من الحجاز بأفضل من ذلك ولم يحفظ الوضعية من التدهور وخروجها عن السيطرة إلا تواجد وحدات القوات النظامية والشريف محمد بن عون ومؤيدوه ، وكانت حامية مكة تشمل على نحو الفى خيال البانى يقودهم زينار أوزينم» آغا كما تحوى القوة أقل من الف خيال من الجند الجدد للفرقة التاسعة الخيالة التى يقودها اسماعيل بك ولأسباب اعتيادية كانت العلاقات بين القائدين متأزمة وكان اسماعيل اضافة إلى ذلك يحظى بتأييد خورشيد باشا الذى صادر املاك الأول بسبب ارتكاب بعض المخالفات المالية وفى هذه الفترة كانت الوضعية فى الحجاز تسير نحو الأسوا بسرعة وحينما تقدم زينار طالبا التأييد من رفاقه قواد القوات غير النظامية زحف «تركى بيلمز» إلى مكة طالبا اعادة ممتلكات زينار ودفع كامل المرتبات المتأخرة التى يستحقها هو ورجاله ولجأ الشريف محمد بن عون الذى كان أكثر واقعية وأدق إدراكا للوضعية المتفجرة ولانشغال محمد على فى الشام إلى وسائل التهدئة والدبلوماسية ووعد باعادة املاك «زبانار» وتعهد أن يأتى خورشيد باشا إلى جدة لكى يكمل المحادثات وعند ذلك وافق «تركى بيلمز» على العودة إلى جدة [٢٦].

وصل خورشيد باشا إلى جدة فأسرع «تركى بيلمز» فسجنه واعلن أن ابراهيم باشا وأبوه محمد على هما خائنان للسلطان وأن سلطتهم قد ألغيت ، وأن السلطان قد عزل محمد على وأن شيخ الاسلام قد اعتبر الباشا العجوز وابنه ابراهيم خارجين عن الاسلام ، حاول محمد على بيأس بعد إدراكه للحالة فى الشام أن يتجنب قيام الثورة فى الحجاز ، ومن أجل أن يعجل الباب العالى فى سوء الوضعية نقله وعين «تركى بيلمز» حاكم جدة حاكما على الحجاز وأرسل فرمانا بهذا الخطوه إليه عن طريق بغداد . وطرح «تركى بيلمز» كل جانبا وزحف بسرعة إلى مكة ونهب خزينة الحاكم ومخازنه وهاجم جيش النظامى وأخطأت الجنود غير النظامية على أية حال تقدر قابلية الجنود النظاميين وتدريبهم فقد سببت نيران بنادقهم ومدافعهم المهاجمين خسائر كبيرة واجبرتهم على التراجع إلى جدة من أجل اعادة تنظيم انفسهم واصدر «تركى بيلمز» فى جدة بيانا دعا فيه القبائل وبقية السكان إلى المشاركة معه فى تأييد قضية سيدهم الحقيقى السلطان العثمانى وكان من الطبيعى أن لايلقى تجاوبا من القبائل العربية التى كانت تقف مع محمد على وقيام الدولة العربية الموحدة فى المشرق وأن هذه العناصر الغير عربية من القوميات التركية والالبانية والشركسية تعارض محمد على وفكرة الدولة العربية وتريد الحفاظ على الدولة العثمانية التى تحفظ لهم امتيازاتهم على عرب المنطقة .

تمت السيطرة على ممتلكات المصرية فى جدة وعلى الموارد المتعلقة بتجارة البن اليمنية والأسطول المصرى فى جدة من قبل «تركى بيلمز» الذى منع جنوده من نهب المخازن العائدة للتجار البريطانيين مما يدل على تواطئه معهم ، اصابت الحالة فى الحجاز محمد على بالذعر الشديد أن ثورة بضعة آلاف من الجنود غير النظاميين لم تكن مسألة هامة ولكن القضية يمكن أن تتعاظم فى الوقت الذى كان ابراهيم باشا فى حاجة إلى جميع الجيوش التى يستطيع أبوه أن يبعث بها إليه أن الأهمية التى بات محمد على يعطيها لهذه المسألة تتجلى فى حقيقة أن عدة فرق نظامية كانت تنتظر فى الاسكندرية لكى ترحل إلى الشام قد امرت أن تزحف نحو القاهرة لكى ترسل من هناك إلى الحجاز واستأجر محمد على بعض البدو المساعدين لكى يصاحبوا هذه القوة الضاربة وفى هذا الوقت بالذات وصلت الانباء إلى القاهرة معلنة انتصار ابراهيم باشا فى «عكا» وكتب محمد على إلى امير مكة مباشرة لكى يعلن نبأ هذا الانتصار وخضوع دمشق وكان الهدف من ذلك بوضوح هو اضعاف شأن إلى

«تركى بيلمز» الذى فقد شجاعته وعوضا عن الزحف شمالا نحو مكة فقد وضع بعض قواته كما وضع الأموال والخزينة المصرية والتجهيزات على ظهر اسطول محمد على الذى استولى عليه فى جدة وأرسل بقية قواته جنوبا نحو اليمن وكان هذا التطور محرجا للبريطانيين ومقدما فرصة كان محمد على ينتظرها طويلا لكى يقوم بضم اليمن إلى الدولة العربية الموحدة فى المشرق العربى وأن يحول البحر الأحمر إلى بحيرة عربية خالصة على الرغم من اعتراضات البريطانيين وخاصة حكومة الهند (٢٧).

أراد محمد على يوطد نفوذ حكومته فى الحجاز واليمن ولما للحرميين الشريفين من الأهمية الدنية والسياسية ولأن ثغور الحجاز واليمن كانت بمثابة العقد الوثيق في خيط الاتصال بين مصر ومتاجر الهند لهذا ارسل محمد على حملة مصرية بقيادة أحمد باشا يكن إلى «ينبع» ومنها إلى جدة فاستولت عليها بعد أن انسحب «تركى بيلمز» إلى «قنفذة» التى كانت تعسكر فيه حامية مصرية فلما استعصى على «تركي بيلمز» «فتح قنفذة» استمر فى انسحابه إلى «الحديدة» ثم استقر فى «مخا» ولم يقوى امام اليمن فى صنعاء على مقاومته . وأخيرا عهد محمد على إلى احمد يكن باشا والى الحجاز بمطاردة «تركى بيلمز» عام ١٨٣٣ وقد اشترك حاكم عسير مع الجيش المصرى فى محاصرة «مخا» التى سقطت فى ايديهم وهرب(٢٨) «تركى بيلمز» مع بعض اتباعه فى اللحظة الأخيرة إلى سفينة حربية بريطانية كانت تراقب المعركة فيما إذا فشل فأنها تأخذه وهذا ما حدث وبذلك كان الموقف البريطانى المتعاطف مع «تركى بيلمز» أن لم تكن هى المحرضة أو بالأحرى المعادى لمطامع محمد على وقيام الوحدة العربية واضحا وتمت مساعدة «تركى بيلمز» بالمأوى والمساعدات اضافة إلى ضمان سفره إلى البصرة ومن هناك التحق بحامية باشا بغداد .

أولا : نظم الحكم والادارة المصرية فى الجزيرة العربية

عهد محمد على منذ بداية الحكم المصرى فى الجزيرة العربية أن يحكم باسلوب يضمن له استمرار سيطرته عليها فربط إدارات حكمه فى الجزيرة العربية بادارة الحجاز وربط الأخير بادارته فى القاهرة بل أنه كان يضع الخطط التى يريد أن يطبقها ويرسل بها إلى حاكم عام الحجاز ليقوم بتنفيذها حسبما تقتضيه ظروف الوضع الذى يراه وفيما يلى الأسلوب الإدارى الذى اتبعه محمد على فى إدارة مناطق واقاليم الجزيرة العربية (٢٩):

أولا : تركيز السلطة العليا فى يد محافظ مكة الذى يشغل إلى جانب منصبه هذا منصب حاكم عام الحجاز وقائد عام القوات المصرية المتواجدة فى الحجاز «سر عسكر» وكان يشغل هذا المنصب فى الغالب أحد أقرباء محمد على أو أحد الأشخاص الذين يثق فيهم ثقة كاملة ولذا فانه خوله حق الاشراف على المحافظين الآخرين وحكام المناطق والاشراف على قادة القوات وكذلك الاشراف المعينين على المناطق الأخرى حكام عليها إلى جانب الاشراف على موظف الشؤون المالية مثل معاونى الخزانة ومأمورى الجمارك وأمناء الشئون والمخازن أى أنه يعتبر رئيس الجهازين الادارى والمالى فى الحجاز والمناطق الأخرى فى الجزيرة العربية .

ثانيا : اشراك القوى المحلية فى ادارة المناطق المختلفةلتحقيق هدفين : الاستفادة من خبرتها بشئون هذه المناطق من ناحية واستعمالهاكعامل مساعد لبسط سيطرته لما لها من نفوذ على اتباعها فى تلك المناطق فقد ابقى على حكم الاشراف فى الحجاز وحكام المناطق اليمنية مثل «عسير» والمخلاف السليمانى برغم تبعيتهم للأئمة صنعاء كشريف على بن حيدر ، تقديرا لمكانته الاشراف وأئمة الزيدية الدينية بين سكان الحجاز واليمن ، كذلك أبقى على زعامة ومكانة شيوخ القبائل الكبيرة واعطاهم سلطة فى مناطقهم وبخاصة شيوخ القبائل المقيمة على طريق الحج مثل قبائل «حرب» وجهينة» وغيرهم حيث أقام علاقات ودية مع شيوخ هذه القبائل ليكونوا عونا لحكومته فى حفظ الأمن والاستقرار فى الجزيرة العربية .

ثالثا : اتباع اسلوب اللين والمهادنة فى المواضع التى يصلح فيها اتباع هذا الاسلوب واستعمال اسلوب العنف والقوة حيث يكون هذا الاسلوب أكثر نفعا وتفيض رسائلة إلى حاكم عام الحجاز بالعبارات التى تحثه على اتباع هذا النمط من الحكم وأن يطبق ما يراه الصواب وما يحفظ للحكم سطوته فى الجزيرة العربية .

رابعا : الاهتمام بمتابعة ادارة الشؤن المالية بدقة والحرص على جمع الزكاة والجمارك المقررة دون تهاون وعدم ايقاع الضرر بأصحاب الحق لأنه كان يري فى التمسك بها رمزا لقوة الحكم .

خامسا : تكوين مجالس للشورى فى المحافظات ضمانا لعدم انحراف المحافظين واتخاذهم قرارات فردية ربما تؤدى إلى الاضرار بالمصلحة العامة لذا فانه جعل مهمة هذه المجالس مناقشة جميع القضايا المتعلقة بادارة المنطقة واحوالهاالمالية ومشاكلها الداخلية واقتراح الحلول التى يرى المجلس فيها علاجا لهذه المشاكل وتسجيل قراراته فى مضبطة ترسل إلى حاكم عام

الحجاز وتخطر بها القاهرة لاتخاذ الوسائل الكيفية بتنفيذ هذه المقترحات وكان محمد على يولى اهتماما بالغا بما يرد فى مضابط هذه المجالس ويصدر أوامره المشددة لتنفيذ مقترحات المجالس بل أنه فى بعض الحالات ارسل من يقوم بالاشراف على تنفيذها وبخاصة ما يتعلق منها بالشؤون المالية والامدادات .

عناصر الجهاز الإدارى والمالى واختصاصات كل جهاز فيما يلى [٣٠]:

أولا : الجهاز الإدارى :

يتكون الجهاز الادارى من عناصر متعددة يأتى على رأسها حاكم عام الحجاز والشريف أمير مكة والمحافظون ومجالس المدن وحكام المناطق من الاشراف وشيوخ القبائل والقضاء وشيوخ الحرمين وكان لكل جهاز اختصاصاته التى تنظمها الأوامر التى تصدر له من القاهرة وتصله عن طريق حاكم عام الحجاز أو عن طريق رسل مباشرين فى بعض الأحوال أما تنظيم العلاقة بين اختصاصات هذه الأجهزة فقد كان يتم عن طريق حاكم عام الحجاز وفيما يلى تلك العناصر :

١- حاكم عام الحجاز

وصل الى القاهرة رسول يحمل تقرير لابراهيم باشا على ولاية جدة وبذلك أصبح الحجاز والجزيرة العربية تحت إدارة محمد على وولده ابراهيم الذى عاد من الحجاز وترك قيادتها العامة إلى خليل باشا محافظ مكة وبعد وفاته عام ١٨٢٠ قام محمد على بتعيين احمد يكن قائد عاما للجيوش فى الجزيرة العربية ومحافظا لمكة ، وحاكما عاما على الحجاز وأن كان السلطان يصدر فرمان باشوية جدة باسم ابراهيم باشا إلا أن النفوذ الفعلى كان بيد محمد على الذى كان يصدر التعليمات والأوامر للقادة والمحافظين وحاكم الحجاز الذى كانت اختصاصاته واسعة ومتعددة وتشمل جميع مناطق الحجاز ونجد والاحساء وبعض المناطق اليمن مثل «عسير» و «المخلاف السليمانى» ويمكن اجمال اختصاصات حاكم عام الحجاز فيما يلى :

١- تسيير القوات إلى المناطق الخارجة عن الطاعة لاخضاعها وتأديب قبائلها وتوقيع الجزاء برجالها وقيادة القوات فى الحرب ضد المناطق الثائرة للقضاء على ثورة تلك المناطق وإرجاعها إلى حوزة نفوذه وتوطيد الأمن فيها .

٢- الاشراف على تصرفات المحافظين الآخرين وحكام المناطق من الاشراف وغيرهم من شيوخ القبائل والتعاون معهم فى تسيير الأمور وتنفيذ الأوامر التى يصدرها له محمد على .

٣- الاشراف على إدارة الشؤون المالية ومراقبة موارد الدخل وأوجه الصرف والاشراف على حسابات جمارك «جدة» و «القنفذة» وشؤون الغلال «بمكة» و «المدينة» و «جدة» و «ينبع» وغيرهم وله سلطة التحقيق فى أى عجز يحدث فى أى منها .

٤- الاشراف على مشيخة الحرمين المكى والمدنى ومراقبة تصرفات شيخى الحرمين ووكلاتهما وقيامهم بمهام مناصبهم .

٥- التعاون مع الشريف امير مكة المكرمة فى الاشراف على جميع الشؤون الادارية اشرافا دقيقا يضمن بقاء سيطرة محمد على على هذه الجهات .

وكان لحاكم عام الحجاز وكيل يقوم بممارسة اختصاصات هذا الحاكم فى حالة تغيبه عن مكة فى قيادة بعض الحروب أو الطواف ببعض المناطق .

٢- شريف الحجاز :

يعتبر هذه الشخصية الثانية البارزة فى حكومة الحجاز بعد حاكم عام الحجاز وقد كان حكم امارة الحجاز فى العهد العثمانى بين الاشراف الذين كانوا يختارون أحدهم طبقا لقانونهم ليكونوا «شريفا على الحجاز» وحاكما عليهم وكان الشريف الذى يقع عليه الاختيار سواء عن طريق الوراثة أو الغلبة يصدر السلطان العثمانى الفرمان بتوليته الامارة وكانت مهام شريف الحجاز تنحصر فى تأمين قوافل الحج وحماية هذه القوافل من اعتداءات القبائل وكان يعتمد فى ذلك على نفوذه لدى القبائل الحجازية التى تقطن على طرق هذه القوافل وكان يقوم كذلك بفض المنازعات التى تحدث بين القبائل العربية القاطنة فى البوادى والحضر والمدن فى الحجاز فيما بينها أو بينها وبين الأشراف والمنازعات التى تحدث بين الاشراف بعضهم بعضا ؛ وكثيرا ما كانت فيما بينها أو بينها وبين الأشراف والمنازعات التى تتأثر بها احوال الحجاز عامة كما كان من مهامه أن يصحب الجيش فى قتاله ضد القبائل والمناطق الثائرة ويشارك حاكم الحجاز فى اعداد القوات اللازمة لذلك وكانت موارد الشريف المادية تعتمد على ما تدره عليه محامل الحج وعائدات الأوقاف وبخاصة اوقاف مصر .

٣- المحافظون :

استهدف محمد على فى المقام الأول أحكام سيطرته على الجزيرة العربية ولذا فانه أوجد إلى جانب محافظ مكة وحاكم عام الحجاز عددا من المحافظين على المدن والموانى الحجازية وبعض المناطق اليمنية والاحساء ولجد فى : «المدينة» و«جدة» و «ينبع» و «القنفذة» و «المخا» وكان هؤلاء المحافظون يمارسون نفس اختصاصات حاكم عام الحجاز تحت اشرافه وكان محافظ المدينة يلى محافظ مكة فى الأهمية ؛ وكان لكل محافظ وكيل ينوب عنه فى ممارسة اختصاصاته الممنوحة له وقت غيابه عن مركز بمحافظته وكان هؤلاء المحافظون يقومون فى معظم الأحوال بمخاطبة القاهرة عن طريق حاكم عام الحجاز وقائد عام القوات «سرعسكر» ومع ذلك فانه كان يحق لهم مخاطبة «المعية السنية» مباشرة فى كثير من الأحوال التى تستدعى مخاطبتهم القاهرة مباشرة وقد حدث ذلك فى كثير من الأمور وخاصة ما يتعلق منها بالشئون المالية وطلب الامدادات بعد أخذ رأى مجالس الشورى فى محافظاتهم ومناقشاتهم لتلك الامور مما يعنى استقلاليتهم فى كثير من الامور ولعل ذلك جزء من أسلوب محمد على فى إدارة تلك المناطق التى يربطها بادارته فى القاهرة فى معظم الاحوال ليحكم رقابته المباشرة عليها وقد لعب هؤلاء المحافظون دورهم فى احكام الرقابة الادارية والعسكرية والمالية على المناطق التى كانوا معينين عليها .

٤- مجالس الشورى :

أوجد محمد على عدة مجالس للشورى فى المحافظات وكان مقر هذه المجالس دواوين المحافظات وكان تشكيل المجلس يشمل المحافظ وكبار الموظفين مثل امين شؤن المدينة ومعاون الخزينة وقاضى المدينة ومفتش الحسابات وبعض الموظفين الآخرين الذين تستدعى المسائل المطروحة على المجلس فى كل جلسة حضورهم هذه الجلسة وكانت مهام هذه امجالس كبيرة ومتعددة فهى تناقش كل الأمور الادارية والمالية وأن مناقشاتها للمسائل المطروحة عليها كانت تمتاز بالافاضة والتعمق وتخلص فى نهاية مناقشة كل مسألة إلى قرار تتخذه وبعد الفراغ من مناقشة كل المسائل يخطر كل من حاكم عام الحجاز و «المعية السنية» بصورة المضبطة التى سجلت فيها المناقشات والقرارات التى اتخذت فيها كما أنها كانت تشكل لجانا للتحقيق فى بعض المسائل المطروحة لاعادة مناقشاتها على ضوء النتائج التى تصل إليها لجان التحقيق هذه ثم قرارها ، وتخطربه جهات الاختصاص لتنفيذ هذا القرار وكانت

سلطات القاهرة تولى عناية كبيرة لقرارات هذه المجالس ومضابط هذه المجالس تحتوى على كثير من المعلومات المفيدة لدراسة أوضاع المناطق الحجازية والنجدية والاحساء واليمن سواء ما يتعلق منها بالنواحى الاقتصادية والإدارية والعسكرية والثقافية والعمرانية .

٥- النظام القضائي :

شكل النظام القضائى عنصرا جوهريا من عناصر الحكم التى اعتمد عليها محمد على فى ادارته فى الجزيرة العربية ، وكان هذا النظام فى الفترة السابقة قد اصيب فى بعض مناطق الجزيرة العربية بالضعف والتدهور واهتزت صورته شأنه فى ذلك شأن كل الأنظمة التى سادت البلدان العربية وكان السلطان العثمانى يرسل إلى مكة كل عام مثل بقية الولايات العربية قاضيا عثمانيا الهدف من ارساله تنفيذ الاحكام ومنع الولاة أو الحكام المحليين من التدخل فى شئون العدالة . وقد امتاز هذا النظام فى الفترات الأولى من العصر العثمانى بالقوة ولكنه بمرور الزمن بدأ يفقد فاعليته واصيب بالضعف حيث خربت ذمم القضاة وصاروا ألعوبة فى يد مناطق الجزيرة العربية وأصبحت الأحكام تصدر لمصلحة من يستطيع أن يدفع رشوة أكبر وقد شجع أسلوب الباب العالى فى بيع المناصب القضائية على انتشار هذا الفساد فقد أصبحت مناصب القضاة تسند لمن يدفع أكثر دون النظر إلى مكانته العلمية أو الفقهية . أما فى عهد محمد على فقد اعيدت للقضاء أهميته لأن محمد على كان يريد احكام رقابته الادارية على مناطق الجزيرة العربية عن طريق ابراز سطوة الحاكم والحكومة التى اراد أن يجعل لأجهزتها هيبة فى نظر الرعية لذا فان القضاة استردوا هيبتهم وأصبحت جميع الدعاوى والقضايا منه فيها أن يتصرف فى حذر وحرص دون انحراف عن العدالة دون أن يفرض سلطته على القاضى أو يتدخل فى احكامه لأنه كان يرى أن اقرار العدالة ركن من اركان الادارة الناجحة التى تجعل الناس يتقبلون النظام والنظم الجديدة دون نفور .

يعين قاضى مكة نوابا من القضاة المحليين فى كل من «جدة» و «الطائف» كما كان للمدينة قاضيها وكان هؤلاء القضاء أعضاء فى مجالس الشورى فى تلك المدن وقد استتبع هذا النظام وجود نظام الافتاء على المذاهب السنية الاربعة لكل مذاهب مفتى لابداء آرائهم فى بعض المسائل التى يطلب منهم ابداء الرأى فيها وكان لأرائهم تأثير كبير فى اتخاذ القرار واصبح القاضى يتصرف طبقا لقواعد الشريعة الاسلامية ورأى المفتين دون تدخل من الاجهزة الادارية الأخرى واصبح القضاء عنصرا فعالا من عناصر الجهاز الادارى الذى أوجده محمد على فى الجزيرة العربية لابراز هيبة الحكم .

٦- مشيخة الحرمين

اعتمد محمد على فى ادارة الحجاز على مشيخة الحرمين واعتبارها من العناصر الهامة وكان لكل حرم من الحرمين المكى والمدنى شيخ بدرجة رئيس «آغا» فكان يلقب «بالآغا شيخ الحرم المكى» وكذلك «الآغا شيخ الحرم النبوى» وكان لكل من الشيخين وكيل وجهاز فنى وإدارى يساعده فى مباشرة اعماله التى كانت تنحصر فى الاشراف على شئون العمران والاصلاحات العمرانية الخاصة بالحرمين والمؤسسات الدينية من مساجد وتكايا وزوايا وغيرها وكذلك الاشراف على المؤسسات التعليمية المرتبطة بهذه المؤسسات الدينية كما كان من اختصاصات كل منهما مراعاة أهل الحرم الذى يتولى مشيخته وارسال تقرير عن احوالهم واقتراح الحلول التى يراها تكافل العلاج لمشاكلهم وكان كل منهما يرسل سنويا قائمة بمتطلبات حرمه من مؤن ونفقات واجهزة ومعدات والترميمات والمنشآت المطلوبة فى العام القادم كما كان يطلب زيادة رواتب بعض أعضاء الجهاز التابع له أو زيادة مرتبه ومتعلقاته الشخصية ، وكانت امور الحرمين تلقى عناية كبيرة سواء المتعلقة منها بالعمران أو بالعلوفات والمرتبات وتعين المدرسين والخطباء حيث كان من اختصاص شيخ الحرم الاشرف على هذه الأمور وكانت الأوامر تصدر إلى جهات الاختصاص باجابة مطالب شيخى الحرمين ويخطران باجابة مطالبهما حسب طلب كل منها وأصبح كل منهما يمثل عنصرا فعالا من عناصر الادارة والاشراف على شؤن الحرمين الشريفين .

ثانيا : الجهاز المالى :

ترتبط عناصر هذا الجهاز واختصاصاته بموارد الدخل واوجه الصرف التى كانت تعتمدها حكومة الحجاز فرغم اهتمام محمد على بالموارد المحلية ؛ فانها لم تكن تفى باغراض أوجه الصرف ولذا فان هذا الجهاز المتعدد العناصر كان يقوم بالاشراف الدقيق على موارد الدخل المحلية وأوجه الصرف ويرسل إلى القاهرة عن العجز الذى يحدث نتيجة لزيادة الانفاق عن الدخل ويطلب المعية السنية ارسال المبالغ النقدية والمعوقات العينية المطلوبة لعملية الموازنة بين الدخل واوجه الصرف وفيما يلى [٣١]:

أ- موارد الدخل

١- الزكاة :

قام الأشراف بتحصيل الزكاة بأنواعها المختلفة من سكان الحجاز ، وعندما آلت تلك المناطق إلى حكم محمد على على تحصيل الزكاة ولكن بنظرة مختلفة عما كان عليه الوضع قبل مجيئه حيث نظر إليها على أنها ضريبة يجب على الرعية تقديمها للحاكم ، واتبع مندوبوه بناء على تعليماته أساليب مختلفة فى فرضها وطرق جمعها مما كان سببا فى نفوز القبائل من هذه الأساليب وثورتهم ضده ولكنه مع ذلك استمر فى اصدار التعليمات المشددة إلى رئيس معاونى الخزينة ، وأمناء الشؤون على الاهتمام بضبط هذه الأمور حيث رأى فيها دلالة على قوة هيبة الحكومة وسطوتها كما أنه أكد على أحمد يكن باشا حينماتمردت قبائل «عتيبة» ورفضت دفع الزكاة بأنه لابد «من أخذ بعض الشئ من «عتيبة» باسم سطوة الحكومة» ومما دل على عدم تقيده بمقدار الزكاة الشرعية ، وفرض الضرائب حسب ما تقضيه الاحوال أنه ذكر لأحمد يكن باشا فى معرض مناقشته لموضوع الضرائب المفروضة على القبائل العربية «أن هذه المطلوبات وإن كانت تسمى عند القبائل العربية «زكاة» إلا ان الحاكم يعتبرها إحدى انواع الضرائب وهذه الضريبة لم تقرر وسينظر فى مقدورها على حسب ما تقتضيه الحالة فاعلموا ذلك واعلنوا بتحصيلها على هذا الاعتبار» . وكان يهمه فى المحل الأول أن تتعهد القبائل العاصية عند اعلان طاعتها بدفع الزكاةأو الضريبة وقد أدى أسلوبه المتشدد هذا فى جمع الضرائب إلى كثرة تمرد القبائل وتهربها من دفع الأموال المفروضة عليها ومما ترتب عليه خلل هذا المورد واختلاف مقداره من سنة إلى أخرى اضافة إلى العوامل الطبيعية التى كانت تضر بالحاصلات والحيوانات فى بعض السنوات مما يجعل خزينة الحجاز عاجزة عن الوفاء باداء التزاماتها إزاء أوجه الصرف وطلب الامدادات من خزينة القاهرة للوفاء بهذه الالتزامات .

٢- رسوم الجمارك

شكل دخل الجمارك الحجازية وبعض المناطق اليمنية فى «عسير» و «المخلاف السليمانى» دخلا لا بأس به لخزينة محمد على فى الجزيرة العربية ؛ حيث كانت الرسوم الجمركية التى تفرض على السلع المختلفة الواردة من الهند وغيرها من بلدان الشرق تتراوح

ما بين ٢,٢٥٪ ، ٣,٥٪ ومع اهتمام الادارة بهذا المورد إلا أن حيل التجار وتلاعبهم باسعار السلع المختلفة وقيمة العملة ومحاولاتهم المستمرة للتهرب من الرسوم الجمركية ، أضر بدخل هذا المورد فى بعض السنوات ولكن محمد على عمل على ضرب حيل التجار ومحاولاتهم ليحافظ على دخل هذا المورد دون حدوث عجز فيه فأرسل إلى كل من احمد يكن باشا محافظ مكة وحاكم عام الحجاز ومحافظ المدينة وامين جمرك جدة وامين جمرك «ينبع» بأمرهم باستعمال الشدة مع العابثين والمتلاعبين باسعار العملة التى أمر أن تتداول على أساس سعر «المحمودية بأربعين قرشا» و«الريال الفرنسى باثنى عشر قرشا» واعلن فعلا فى هذه الاماكن «بواسطة المنادين أن كل من يتداولهما «بزيادة» أكثر من ذلك فسيعاقب» وضمانا لتنفيذ هذه الأوامر اخرج الجواسيس للبحث عن العابثين فى مكة وجدة وينبع المدينة وحواليها .

وشدد على احمد يكن باشا بوجوب تأديب كل من يقبض عليه متلبسا بالتعامل باكثر من السعر المقرر والاهتمام بهذه المسألة التى إذا لم تضبط سوف يكون خروجا بالغا على دخل الجمارك من ناحية وعلى الرعية من ناحية أخرى وبرغم اشتداد الحكومة فى ضبط حسابات الجمارك واحكام الرقابة عليها فان هذا المورد كثيرا ما تأثر بالأساليب الملتوية التى اتبعها التجار للتهرب من دفع الرسوم الجمركية وقد كان لهؤلاء التجار نفوذهم الكبير فى ذلك الوقت .

٣- امدادات خزانة القاهرة

شكلت هذه الامدادات أكبر مورد لخزانة الحجاز بل أنها كانت تفوق أضعاف المتحصل من موارد الدخل المحلية فقد أرسلت خزانة القاهرة فى عام ١٨٣١ امدادات مالية بلغت «١٦٥٢١ كيسة ، ٤٤٦ قرشا» وفى عام ١٨٣٥ ارسلت امدادات عينية لتملة تموين الجند بلغت «٩٣,٤٥ اردبا من الغلال «١٢٧,٥٣٥» قنطارا من السمن والزيت والصابون والبقسماط كما أن خزانة القاهرة تحملت ثمن مشتريات غلال للقوات التى كانت بنجد عام ١٨٣٩ بلغ «١٣,٥٠٤» اردبا بينما بلغ مقدار غلال الزكاة التى جمعت من نجد فى نفس العام «١,٢٠١» اردبا . كذلك كانت خزانة القاهرة تقوم بدفع رواتب بعض موظفى الحرمين والمدرسين والجند ورؤسائهم وبعض الاشراف ودفع راتب سنوى لشريف الحجاز بلغ

« ١٠٠,٠٠٠ » قرش سنويا مما كان سببا فى ارهاق ميزانية مصر وقد أدى سيطرة محمد على للجزيرة العربية إلى فداحة النفقات وحدوث الارتباكات كان من الصعب الحصول على ايراد من الجزيرة العربية فى ظل أية حكومة فى تلك الفترة وأن امدادات خزانة القاهرة كانت تمثل المصدر الأول لدخل خزينة الحجاز .

تلك هى أهم موارد دخل حكومة الحجاز التى كانت تقوم بالانفاق منها على أوجه الصرف على النحو الآتى :

ب- أوجه الصرف

١- مرتبات الجهاز الادارى والجند :

يعتبر الصرف على هذا الجهاز اكبر المصروفات حيث أن مرتبات المحافظين ووكلائهم والجهاز الوظيفى التابع لهم ومرتبات الجند ورؤسائهم النقدية ورواتبهم العينية بالإضافة إلى المعدات كل ذلك كان يكلف خزانة الحجاز قدرا كبيرا من دخلها مما يدل على العبء الضخم الذى كانت تتحمله حكومة محمد على فى سبيل الابقاء على المناطق التى خضعت لها فى الجزيرة العربية مما أرهق الخزانة ارهاقا شديدا .

٢- مرتبات علماء الحرمين وموظفيها :

يشمل هذا الجهاز مرتبات علماء الحرمين النقدية والعينية ومرتبات الموظفين الذين يقومون بشئون الخدمة فى الحرمين والمدارس الملحقة بهما والصرف على متطلباتهما ومتطلبات هذه المدارس من فرش واضاءة وغير ذلك . وكانت نفقات هذا الجهاز تصل إلى مبالغ ضخمة كما أنها يشمل تعمير كثير من المساجد والمدارس التى تلقى فيها الدروس سواء فى مكة أو المدينة أو المدن والقرى الأخرى أو إنشاء مساجد ومدارس جديدة فى كثيرة من المناطق .

٣- مرتبات الأشراف :

ترسل للاشراف مراتبهم سنويا من ربع الاوقاف الموقوفة عليهم فى مصر وقد حافظ محمد على باشا على ارسال هذه الأجرة ولكنه أمر بصرف مرتبات أخرى للاشراف نقدية وعينية تصرف لهم من خزينة الحجاز كما أنه أمر بصرف راتب سنوى لشريف الحجاز كمصروف له منذ عام ١٨٢٢ هذا إلى جانب التعيينات العينية التى كانت مخصصة لشريف الحجاز والأشراف الآخرين من غلال وغيرها وقد كان محمد على يستجيب لمطالب الأشراف الخاصة

بزيادة مرتباتهم ومخصصاتهم واصلاح أو تعمير دورهم ارضاء لهم من ناحية ولأنه كان يستعملهم كعنصر من عناصر الحكم من ناحية أخرى ولذا فانه كان يأمر ناظر الخزينة بسرعة اجابة هذه المطالب .

٤- تعينات شيوخ القبائل

اعتمد محمد على عدة اساليب فى حكمه للجزيرة العربية منها احتواء بعض العناصر وجذبها إليه ، وهذا ما فعله مع شيوخ بعض القبائل العربية حيث خصص لهم ولأخوتهم رواتب عينية شهرية ومرتبات نقدية سنوية وكساوى وهدايا كما فعل مع شيوخ قبائل «حرب» «جهينة» «عتيبة» وغيرهم وكان يأمر المحافظ بأن يصرف لهم تعيناتهم ويقيد اسماءهم فى دفتر الشونة كما يأمر ناظر الخزينة بأن يصرف لهم مرتباتهم النقدية والعينية لهم .

٥- اصلاح القلاع والحصون وتعميرها

كلفت عملية اصلاح القلاع والحصون وتعميرها حكومة الحجاز مبالغ ضخمة وكانت هذه العمليات مستمرة ودائمة لأهمية هذه القلاع والحصون والدفاع عنها واتخاذها مواقع للجنود .

ثالثا : الجهاز المنفذ للنظام المالى :

يقوم على تطبيق وتنفيذ هذا النظام المالى وجهاز وظيفى ضخم يتكون من مجموعة من الوظائف الرئيسية يتبعها عدة وظائف صغرى فهناك ناظر الخزينة واحيانا يطلق عليه رئيس معاونى الخزينة حيث يتبعه عدد من الموظفين باسم معاون الخزينة وكذلك صراف الخزينة الذى كان يقوم بتحرير الايصالات بالمنصرف والوارد من النقود للخزينة وكان لكل محافظة خزينتها التى يوجد بها هذا الجهاز الوظيفى الخاص بها . وهناك وظيفة ناظر الشونة وكذلك امين الشونة ومجموعة من الكتبة الذين يشرفون على صرف وايراد الغلال طبقا للتعينات المقررة والمسجلة بالدفاتر ؛ أما وظيفة امين الجمرك فكان لكل جمرك امين يتبعه مجموعة من الكتبة والصرافين للاشراف على حصيلة الجمارك وتسديدهالخزينة المحافظة التى يتبعها الجمرك ، وهناك مجلس التفتيش يوجد به عدد من مفتشى الحسابات ومجموعة من الكتبة وكان لمفتش الحسابات حق مراجعة حسابات المنطقة التابعة له أو المكلف بالتفتيش عليها من واقع سجلات الوارد والمنصرف وكتابة تقرير عن نتائج عمله ورفعها للمحافظ ومجلس المدينة ،

ووجد إلى جانب هذه الوظائف الرئيسية عدد من الوظائف الأخرى مثل باشكاتب التوقيع وباشكاتب التمييز والمحتسب وناظر السفن الذين كانوا يقومون ببعض الأعمال المتعلقة بالشؤون المالية . وكان هؤلاء الموظفون يمارسون اختصاصاتهم تحت اشراف المحافظين الذين يقومون برفع تقارير سنوية أو كل ثلاثة اشهر عن اعمال هؤلاء الموظفين والحالة المالية بمحافظاتهم مرفقة بالكشوف المعتمدة منهم إلى حاكم عام الحجاز لاطلاعه عليها وابداء الرأى فيها واخطار المعية السنية بالقاهرة [٣٢].

أدت تطبيق هذه النظم الادارية نتائج ايجابية كان لها آثارها فى بعث روح جديدة فى تلك المناطق كمحاولة السير فى حكمها على نهج الحكومات الحديثة ذات الأنظمة المقننة وايجاد أنظمة ادارية ومالية لم تكن هذه المناطق قد شهدت مثلها من قبل كل ذلك أوجد روحا حضارية جديدة ، واعادت هذه النظم هيبة القضاء وسطوته فى تطبيق الاحكام بعد أن كان الجهاز القضائى فقد هيبته فاستمرت هذه النظم محافظة له على هذه الهيبة التى اوجدتها الدولة المصرية ولكن محمد على أضعف من سلطان القوى المحلية حيث استعملها كأدوات لتنفيذ حكمه واهتم بفرض سطوة الحكومة المركزية وهيبتها بالقوة .

ثانيا الحكم المصرى واليمن

توفى الامام المنصور على فى ٢٥ / ١٠ / ١٨٠٩ وأصبح ابنه الامير أحمد اماما شرعيا وحاكما لليمن تلقب احمد بالمتوكل على الله وواصل جهوده المضنية لإصلاح ماقد أفسد والده وذلك عبر سنوات سبع من النضال والقتال أثبت فيها جلدا وحزما وبعد نظر ، كانت حقبة المتوكل على قصرها مليئة بالصراع والمحاولات الجادة لإيجاد الاستقرار والأمن فما يكاد المتوكل يخمد فتنة أو عصيانان فى مكان حتى يبدأ عصيان آخر فى مكان آخر وكانت شخصية الامام «الديناميكية» ونشاطه الفعال يتلقى باستحسان وتقبل من الناس خلال السنوات السبع التى قضاها المتوكل فى محاولاته تثبيت مركزية الدولة وديمومتها ، واعد المتوكل حملة لمهاجمة الشريف حمود الذى اعلن انفصال «المخلاف السليمانى» عن اليمن وجرت المعركة فى أواخر عام ١٨١٤ حيث هزم الشريف حمود وأصيب هو نفسه بجراحات وقتل عدد كبير من أصحابه كما أصيب كبار رجال الاشراف بجراحات مختلفة .

اسفتاد الامام المتوكل من حرب محمد على فى الجزيرة العربية فتبادل معه الرسائل والهدايا التى كان من بينها فيل ارسله محمد على فكان سايس يطوف به فى الأسواق ليفرج عليه الناس وتلقى الامام المتوكل رساله من محمد على فى يناير ١٨١٣ يطلب فيها مساعدته بارسال السفن لحمل الجنود والمؤن واستجاب الامام المتوكل احمد لطلب محمد على بارساله السفن المتوفرة إلى «السويس» و «القصير» ، واستمر الامام المتوكل فى جهوده الدبلوماسية والحربية لاستعادة تهامة من يدى الشريف حمود واثمرت هذه الجهود وعادت تهامه أو «المخلاف السليمانى» و «عسير» لحكم الامام فى صنعاء ولكن ذلك لم يتم إلا بعد ثلاث سنوات من وفاة الامام المتوكل وفى عهد ابنه المهدى عبدالله حيث توفى الامام المتوكل عام ١٨١٥ وخلفه ابنه الشاب الامير عبدالله وتلقب بالمهدى (١٨١٥-١٨٣٦) وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين ولم يكن له دراية كأبيه فى الادارة والحرب والسياسة باستثناء السنوات القليلة الأخيرة ، وقام الامام المهدى عبدالله بتغيير معظم المسؤلين فى إدارة والده ونقل بعضهم إلى مناصب أخرى واستمر الامام المهدى عبدالله فى سياسة أبيه نفسها مع محمد على باشا مستخدما سفير والده العالم محمد عابد السندى فى الوقت الذى كانت قوات الشريف حمود تحارب القوات المصرية فقد توفى الشريف حمود فى ٢٣ / ٢ / ١٨١٨ وبوفاته انتهى دور أسرة الاشراف من آل ابى مسمار فى منطقة عسير والمخلاف السليمانى فقد خلفه ابنه احمد بن حمود وسرعان ما توجهت القوات المصرية بقيادة خليل باشا واستسلم الشريف احمد بن حمود فى مطلع عام ١٨١٩ وحاول الشريف حسن بن خالد الحازمى الساعد الايمن لحمود وابنه من بعده أن يدافع عن بلاده عسير لكن خليل هاجم عسير وقتل الحازمى وهكذا باتت المنطقة كلها من عسير شمالا إلى «زبيد» جنوبا تحت امرة خليل باشا الذى لم يتأخر كثير فى القبض على الشريف احمد بن حمود المستسلم ومن ثم ارساله إلى مصر حيث مات هناك وارسل محمد على بكتاب فى يناير ١٨١٩ إلى الامام المهدى عبدالله ليزف له بشرى هزيمة الشريف احمد بن حمود ويعترف له بأن مراسلاته مع والده الامام المتوكل تؤيد حق صنعاء فى عسير و «المخلاف السليمانى» مقابل تصدير كمية من البن اليمنى إلى السلطان العثمانى ولم يكن فى الواقع هدف الحملة المصرية فى هذه الفترة السيطرة على اليمن بل القضاء على «الدرعية» والحركة الانفصالية فى عسير وتتبع فلولها فى تهامة اليمن واعادة هيبة السلطنة العثمانية فى مختلف ولاياتها وبشكل خاص الهيمنة والاشراف

على الحرمين الشريفين . ولما تحقق ذلك فعودة تهامة فى عسير إلى حكم صنعاء يخفف العبء على الباب العالى وعلى محمد على باشا ويجعل الامام ممتنا وداعيا للسلطان وفوق ذلك تم ضمان تصدير كمية ثلاثة آلاف قنطار من البن اليمنى ذات الشهرة إلى مطبخ السلطان سنويا مجانا وذلك أفضل أو ربما الشئ الأساسى الوحيد الذى تملكه اليمن آنذاك وله قيمته العالية بالاضافة إلى ما طلبه خليل باشا وأكده مبعوثه من النقد(٣٣).

وافق الامام المهدى عبدالله من حيث المبدأ على ذلك ولكن ظهر تبرمه من مقدار كمية البن واعتذاره من عدم مقدرته على دفع المبلغ المطلوب لأن مصدر الدخل هو الموانئ ، التى لم يكن لصنعاء سيطرة تامة عليها وطلب تقسيط المبلغ حسب الظروف واستمرت المراسلة بين مطالبة خليل باشا ثم بعده احمد يكن باشا حاكم عام الحجاز واعتذارات الامام المهدى والقاضى الشوكانى حتى نهاية العام التالى متعللين بأن التأخير بسبب الجراد أحيانا والجفاف أحيانا أخرى لكن بعض الدفعات قد تم ارسالها بالفعل أما امر عسير و «المخلاف السليمانى» فقد حسم لصالح الامام حيث نزل من صنعاء مع يوسف اغا إلى «الحديدة» القاضى محمد الحرازى ومعه مسؤولون تم تعينهم عمالا على مختلف المناطق وكذلك بعض الجنود وتم استلام المنطقة كلها من خليل باشا قائد العساكر المصرية باستثناء «ابى عريش» التى وافق الامام المهدى ان يحكمها باسمه الشريف على بن حيدر الذى كان على خلاف مع قريبه الشريف حمود ومنافسا له وليظهر الامام المهدى أن تعيين هذا الشريف كان عن رغبته وثقته فقدأرسل إليه «عهد الولاية» والكسوة وبذلك انسحبت القوات المصرية وعاد قائدها خليل باشا إلى الحجاز، وهكذا عادت سيطرة امام صنعاء على أراضى عسير واستمر بها الحال قريب اربع عشرة سنة حتى كان عام ١٨٣٢ عندما انعكست مشاكل القوات والادارة المصرية فى الحجاز على «عسير» عندما ثار بعض ضباط الجيش المصرى من قوميات غير عربية بقيادة «تركى بيلمز» وتطور الأمر إلى عزلهم والى الحجاز خورشيد باشا وحبسه ونصبوا تركى بيلمزو واليا بدله فى الوقت الذى كانت جيوش المصرية تقاتل الدولة العثمانية فى الشام ، ولهذا فقد اصدر الباب العالى فرمانا يقر فيه ولاية «تركى بيلمز» بيد أن حاكم مصر الطامح فى اقامة دولته العربية الكبرى لم يعترف بذلك الفرمان السلطانى وبخاصة أنه يتعلق . بمنطقة الحرمين الشريفين ومركزها الدينى والسياسى الهام بالاضافة إلى الأهمية الاستراتيجية لموانئ البحر الأحمر وصلة التجارة بين مصر والهند . فعجل محمد على بارسال قوة مقاتلة بقيادة واليه

احمد يكن باشا فاستولى على جدة بعد أن انسحب منها «تركى بيلمز» ومعه الف رجل من عساكره وحاول أن يحتل «قنفذة» لكن حاميتها المصرية صدته فاستمر فى هروب صوب ساحل تهامة اليمن فاستولى على مدن «الحديدة» و «المخا» و «زبيد» وكان عنيفا فى مواجهة عساكر إمام اليمن القليلة الذين لم يستطيعوا مواجهته ، فقد كان مستميتا مع رجاله وأصاب الناس الدهشة بقبضه على عمال امام اليمن السيد عبدالله دريب والفقية احمد لطيف طامش واسراعه فى اعدامهما (٣٤).

١- توجه محمد على باشا نحو اليمن

قدر محمد على أهمية اليمن الاقتصادية فوضعها ضمن برنامج توحيد الجزيرة العربية ضمن الدولة العربية الموحدة وازداد تصميمه فى اليمن بعد أن نجحت قواته بقيادة خليل باشا ضمن مناطق اليمن الشمالية مثل «عسير» والمخلاف السليمانى التى كانت تحت حكم الشريف حمود وقرر محمد على عدم الافصاح عن مخططه التوحيدى فى تلك الفترة التى كان يعمل فيها باسم السلطان العثمانى ولذا فانه اعاد «عسير» و «المخلاف السليمانى» إلى امام اليمن نظير جزية سنوية بسيطة يدفعها له الامام قدرها مائة ألف ريال تستبدل بثلاثة آلاف قنطار من البن ترسل إليه سنويا باسم السلطان العثمانى وقد قبل الامام الزيدى ذلك لظروف اليمن الداخلية المضطربة والامامة فى حالة ضعف شديد لا تمكن الامام من التصدى لقوات محمد على . لذا قبل الشروط التى فرضت عليه وعندما استأنس نفسه القوة حاول التخلص من دفع هذه الجزية وحاول المماطلة فى تسديدها ولذا فاننا لانعتبر دفع هذا المقدار من البن دليل تبعية أو اعتراف بالسيادة حيث أن الامام برغم ضعفه ظل يمارس سلطاته الاستقلالية دون التقيد بالأنظمة العثمانية . ويعود عدم افصاح محمد على عن نياته فى ضم اليمن فى تلك الفترة إلى الاعتبارات التالية (٣٥):

أولا : تبعيته للسلطان العثمانى الذى كان لايزال تابعا له وأن كل الحروب التى خاضها كانت باسم الباب العالى ولذا فان أى عملية توسع سوف تؤول إلى السيادة العثمانية ومن هنا رأى تأجيل ضمه للأراضى اليمنية إلى مرحلة تالية حتى يحقق استقلاله عن الدولة العثمانية ثانيا : التخوف من موقف بريطانيا إزاء تحركاته على السواحل اليمنية فقد أكدت له الشواهد أنها سوف تتصدى له إذا تجاوز حدودا معينة وأنها كانت تراقب تحركات قواته فى اليمن بحذر شديد .

ثالثا : اتجه نحو ضم السودان وأعطاها الأهمية الأولى اعتقادا منه أن ذلك يحقق له مكاسب مادية وسياسية سوف تساعده على تحقيق خطوات سياسته الوحدوية لقيام الدولة العربية الموحدة هذا إلى أن اتجاهه إلى السودان فى تلك الفترة لايجر عليه الاصطدام بقوى خارجية ليس له القدرة على مواجهتها فى تلك المرحلة من مراحل بناء قوته لهذه الاعتبارات أوقف سياسته تجاه ضم اليمن وترك سيادة عسير والمخلاف السليمانى لامام اليمن حتى تتهيأ له الظروف المناسبة لتحقيق سياسته التوسعية فى الأراضى اليمنية .

قرر محمد على عدم التوسع فى الأراضى اليمنية لتلك الاسباب إلا أن احداثا وقعت جعلته يتخذ منها موقفا حازما ومن بين هذه الأحداث قيام قبائل «يام» اليمنية باعمال مضادة ضد الشريف على بن حيدر فى «المخلاف السليمانى» فقد تحركت هذه القبائل من «زبيد» وهاجمت الموانئ اليمنية وشنت هجوما قاسيا على جهات «لحية» وقامت بعمليات سلب ونهب واسعة النطاق واغار افرادها على كل ما وجدوه من حيوانات وأموال وغيرها وطلبوا من الشريف على بن حيدر ان يدفع لهم مبلغا من المال قدره خمسة وعشرون ألف ريال فرنسى فارسل الشريف على بن حيدر إلى احمد يكن باشا حاكم عام الحجاز يشرح له الموقف الذى يحيط به وطلب منه ان ينجده ضد قبائل «يام» ولكن احمد يكن باشا لم ينجده فرفع الامر إلى محمد على بأعتبار مناطق «عسير» والمخلاف السليمانى تحت سيادة امام صنعاء، ولم يرد محمد على أن يهمل شئون المناطق اليمنية أو يتغافل عما يحدث فيها وأنه كان حريصا ان يستمر نفوذه قويا حتى تحين له الفرصة التى يستطيع فيها أن يحقق هدفه ومن هذا المنطلق كان موقفه العنيف من احمد يكن باشا وامره بالاسراع فى العمل على انجاد الشريف على بن حيدر ضد قبائل «يام» قبل فوات الأوان وعدم تمكين هذه القبائل من السيطرة على المخلاف السليمانى والموانئ اليمنية وطردها من هذه الجهات ووضع حد لاعمالها التخريبية ، ومنذ احداث قبائل «يام» بدأ محمد على يراقب الموقف فى اليمن باهتمام بالغ وكلما رأى بادرة خطر تهدد نفوذه عمل على معالجتها بالرفق واللين تحسبا للظروف وتحينا للفرص ؛ وكما تدل الاحداث فانه لم يصرف النظر عن اهتمامه باليمن مطلقا فقد كان له موقفه من الاعتداد البريطانى على «المخا» ومن احداث قبائل «يام» ثم بدأ يظهر اهتمامه الشديد أثناء الدور اليمنى من ثورة «تركى بيلمز» ولكنه ظل يخشى التدخل المباشر فى اليمن خوفا من التدخل البريطانى التى كانت ترصد تحركات القوات المصرية فى

الجزيرة العربية ولاترغب منه أو تريد له أن يصل نفوذه إلى سواحل جنوب الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر أو سواحل الخليج العربى فى شرق الجزيرة العربية لأن امتداد نفوذه إلى هذه المناطق يشكل خطرا على طرق مواصلاتها للهند هذا من ناحية ومن ناحية فان انشغاله فى أكثر من ميدان باسم السلطان العثمانى جعله يؤجل مشروعاته فى اليمن إلى حين أوضح محمد على فى ١٥ / ١٢ / ١٨٢٦ ردا على رسالة احمد يكن باشا التى اشتكى فيها اختلال الأحوال فى اليمن واحوال القبائل والعشائر والقاطنة فيها وبخاصة قبائل «يام» واضطراب احوال الحاج يوسف مأمور الحديدة «التابع لامام اليمن مما ترتب عليه عدم وصول البن إلى «جدة» أوضح العوامل الكافة وراء تأجيل ضم اليمن فأكد أن الظروف المحيطة به ليست مواتية له للانشغال بمسألة اليمن لانشغاله بالحرب مع «اروام» البحر المتوسط الذين يصرون على العصيان منذ عدة سنين وما أوجبه ذلك العصيان من امتداد الاسفار البحرية ألجأنا إلى تأخير تنظيم تلك الجهات إلى وقتها المرهون وحيث أنه لم تسفر تلك الغوائل بعد عن نتيجة حسنة والاقاليم اليمنية بعيدة المسافة وارسال مقدار كلى من العساكر يوجب الكلفة الزائدة» . واوضح ان محمد على يرجع الاسباب التى تدعوه إلى أن يغض الطرف عن غزو اليمن فى عشرينات القرن التاسع عشر إلى [٣٦]:

أولا : انشغاله باخماد الثورات التى هبت ضد الدولة العثمانية فى بلاد اليونان وجزر البحر المتوسط .

ثانيا : بعد اليمن والتكاليف الضخمة التى تتطلبها عملية الضم وليس له مقدرة على تحملها فى مثل هذه الظروف التى كان يمر بها ولكننا ندرك أن هناك أمورا لم يرد محمد على أن يفصح عنها كان لها دورها فى تأجيل عملية الاستيلاء على اليمن فى تلك الفترة :

(أ) إدراكه للموقف البريطانى الواضح من أى تحرك من جانب قواته صوب الجنوب على الأراضى اليمنية فسوف يقابل هذا التحرك بالتصدى من جانب بريطانيا التى أفصحت له أكثر من مرة عن موقفها وفى نفس الوقت فان قواته آنذاك لم تكن بقادرة على الدخول فى صراع مباشر مع بريطانيا .

(ب) استمرار الثورة «العسيرية» وازدياد حدتها وفشل قواته حتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر فى التغلب النهائى عليها فقد كان يخشى أن تقع قواته إذا قامت بعملية غزو اليمن بين ثأر الثوار العسيريين من جانب والقبائل اليمنية وبخاصة قبائل «يام» شديدة

البأس من جانب آخر مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه القبائل سوف تجد الدعم والعون من جانب بريطانيا كأسلوب للقضاء على قوته التى كان يعمل على بنائها وتنميتها لتحقق له أهدافه المستقبلية . من هنا أراد أن يكون تحسسه للموقف فى اليمن قائم على التروى والاستطلاع وجس النبض وبحذر شديد دون أن يستثير موقفه أى جبهة من الجبهات فارسل إلى احمد يكن باشا يستشيره فى الموقف المتدهور فى «الحديدة» قائلا «فقد عن لنا أن نرسل بكباشيا جهاديا للمحافظة على «الحديدة» وما حولها فكتبنا لكم هذا الكتاب لتتبادلوا الرأى مع الحاج يوسف بهذا الخصوص فان جزتم بعد المذاكرة بأنه يمكن إدارة تلك الجهات ومحافظتها بارسال بكباشي فاعلمونا وارسلوا لنا صورة من الترتيبات التى ترونها موفقة وإذا لم تروا امكان ذلك فاعلمونا أيضا والمأمول من حسن همتكم أن تبادروا إلى ذلك «سلبا او ايجابا» حين اطلاعكم على كتابنا هذا باذن الله تعالى » . وهكذا اراد محمد على أن يكون موقفه إزاء اليمن فى تلك الفترة موقف استطلاع وجس نبض قبل أن يقرر الامر النهائى مع الحرص على الا تسير الامور ضد هدفه إلى مالا نهاية ويقول د. عبدالرحيم عبد الرحمن[٣٧] إزداد الموقف فى اليمن اضطرابا فأغرى هذا الاضطراب «على بن مجثل» الزعيم العسيرى فى الاستيلاء على للمناطق اليمنية التى يحكمها الاشراف تحت سيادة امام صنعاء والعمل على اجبار هؤلاء الاشراف على اعلان خضوعهم لنفوذه وأخذ يعد العدة للقبض على الشريف على بن حيدر الذى عندما علم بهذا المخطط ارسل إلى احمد يكن باشا يطلب منه قوة لمعاونته فى صد حركة «على بن مجثل» ضده فارسلت له قوة من عساكر المدفعية من ميناء «ابى عريش» إلى منطقة «جيزان» ولما علم محمد على باشا بحركة «على بن مجثل» ضد الشريف على بن حيدر أراد أن يستغلها كبداية للتدخل الحذر فى اليمن فأرسل إلى احمد يكن يحثه على التدخل بحجة طرد «على بن مجثل» من الأراضى اليمنية «منعا لشروره ومفسدته» مذكر اياه أنه بمجرد الانتهاء من «مصلحة البحر الابيض» سوف تساق له الجنود الكافية والقادرة على تحقيق الفوز والانتصار لأنه لم يكن يريد حتى هذه اللحظة أن يورط نفسه فى أكثر من جبهة بل أنه كان يؤثر اتباع اسلوب الحكمة السياسية حتى تحين له الفرصة المناسبة ونبه احمد يكن باشا إلى اهمية استعمال هذاالاسلوب فى مثل تلك الظروف «مع العلم بأن هذا الوقت هو وقت السياسة فيجب العمل على عدم اخراج مسائل أخرى إلا عند الضرورة القصوى » كذلك فعل ذلك أثناء تمرد «تركى بيلمز» فى دورها اليمنى حيث كان هدفه الأول

هو منع الالتحام بين«تركى بيلمز» و «على بن مجثل» ومنع الأخير من الاستيلاء على قلعة «ابى عريش» مقر الشريف على بن حيدر «التابع لامام صنعاء الذى يخضع لسيادة الاسمية للباب العالى عن طريق محمد على .

يوجد هناك رأى آخر يختلف عما قاله د. عبد الرحمن عبد الرحيم عن الأمير على بن مجثل وهو المؤرخ اليمنى د. حسن العمرى يقول بأن الأمير على بن مجثل تعاون مع محمد على وليس ضده بقوله :

«وجاءت لنجدة الساحل اليمنى قوات عسير بقيادة اميرها على بن مجثل فحقق نصرا على تركى «بيلمز» فانحصر هذا مع قواته فى «المخا» واستمر ذلك حتى وصلت قوات احمد يكن باشا من الحجاز فى مطلع العام التالى ١٨٣٣ بعد أن امره محمد على بالتحرك للقضاء على المتمردين فتعاون مع الأمير العسيرى فى محاصرة «المخا» حتى سقطت فى أيديهم وتمكن «تركى بيلمز» من الهروب على احدى السفن البريطانية وبذلك انتهى أمره . وقد أجبر القائد المصرى القوات العسيرية فى تسليم المخا لقواته وتوفى الأمير على بن مجثل فى طريق عودته إلى وطنه عسير وكان لتطور الأحداث فى هذا الاتجاه استمرار الوجود العسكرى المصرى فى المنطقة ثم تعزيزه بقوات كبيرة وبخاصة بعد تعيين ابراهيم يكن باشا عام ١٨٣٥ قائدا اتخذ من الحديدة مركزا لادارته وانطلاق عملياته الحربية » .

وقد يكون الأمير على مجثل قام بثورته ضد اشراف عسير وخاصة الشريف على بن حيدر وليس ضد محمد على وقد يكون هناك التباس بين علاقة الشريف على بن حيدر القوية مع محمد على وبين ثورة الأمير على بن مجثل ضد الشريف على بن حيدر مما فسر أنه ضد محمد على ، فى الوقت الذى نجد الزعيم العسير تعاون مع القوات المصرية كما تعاون مع الامام المهدى عبدالله وبذلك يكون الرأى الثانى اقرب إلى الصواب من الرأى الأول .

٢- وفاة الامام المهدى عبدالله

تميزت السنوات القليلة التى اعقبت استعادة الإمام المهدى عبدالله حكم موانئ «عسير» و «المخلاف السليمانى» و «الحديدة» و «المخا» بنوع من الاستقرار العام وقد وجد الامام المهدى فى ذلك متسعا من الوقت ليشيد بعض المبانى الخاصة والعامة كما اقتفى أثر والده المتوكل فى قيادة بعض الحملات التأديبية بعيدا عن العاصمة وحقق فى ذلك نجاحا ، وقام ببناء قصر كبير فى «بستان السلطان» وفى حديقته الجميلة بنى مفرجا بديعا امامه بركة

واسعة تتدفق منها مياه الشاذروان بأشكال بديعة متعددة غير مألوفة وعمر القصر والمفرج بشكل رائع يبرز الفن المعماري اليمني المتميز الجميل وحشد له الامام المهدي معظم المهندسين في صنعاء وعددا كبيرا من العمال الذين لم يفرغوا من بنائه إلا في عام ١٨٣٤ وبعد أن فرغ من قصره بدأ في ذلك العام ببناء مسجده المشهور في صنعاء «قبة طلحة» وهي تشبه قبة جد والده المهدي عباس التي عمرها عام ١٧٥١ من جوانب كثيرة إلاأنها اصغر منها ووقف الامام المهدي لقبته أوقافا كثيرة ما زالت باقية حتى الآن ، وله أيضا مباني الطلبة الوافدين لدراسة العلم من خارج العاصمة بجوار الجامع الكبير بصنعاء وبنى عددا من الحمامات العامة التي ما زالت فوائدها ومنافعها للناس حتى اليوم وفي بداية عام ١٨١٩ أمر الامام المهدي عامل صنعاء بأن يعيد النظر فيما سمي «بقانون» صنعاء» نفعل واضاف إليه زيادات ثم أصبح بعد ذلك قانونا يعمل به وهذا القانون عبارة عن مجموعة من التنظيمات والقواعد والتعاريف والموازين والاسعار المنظمة للحياة التجارية والتموينية والضرائبية ومختلف أجور العمال والفنيين من بنائين وحدادين ولجارين ونحوهم وهو أيضا يحدد مسئوليات سكان المدينة والمنظمات الشعبية والمهنية فيما يتعلق بالخلافات وتقسيم الأحياء وواجب الحراسة الليلية أو الدفاع عن المدينة في حالة حدوث شغب أو اعتداء خارجي عليها . والقانون بشكل عام بديع محكم متناسب مع ظروف زمانه كتب بلغة سهلة معظم مصطلحاتها باللهجة الصنعانية الدارجة وتناولت ادق التفاصيل وغرائب المسميات التي قد لانجد لبعضها ما يقابله في الفصيح وهو ما عمد إليه المشرع بغرض تيسير فهمه على عامة الناس وكانت فائدة ذلك القانون بالغة في تيسير امور الناس وحل مشاكلهم ليس في أيام المهدي عبدالله فحسب بل فيما تلا عصره خلال فترة الاضطرابات والفوضى(٣٩).

مات قاضي القضاة شيخ الاسلام محمد بن علي الشوكاني آخر عظماء علماء اليمن المجتهدين عام ١٨٣٤ وكان لوفاته وقع وأثر كبيران لدى مختلف طبقات الناس وعاش الامام المهدي عبدالله نحو عام بعد ذلك لكن نشاطه قل بسبب مرضه واستمرت صحته في التدهور حتى مات في ديسمبر ١٨٣٥ وعمره حينئذ ثلاث واربعون عاما وهو عمر قصير إذا عد بالسنوات لكنه كان مليئا بالحيوية والاحداث والمتناقضات وبوفاته خلفه ابنه علي الذي لم يدم حكمه أكثر من عام وبضعة أشهر فقد خلع واعيد عدة مرات وكان ذلك بداية حقبة مضطربة دخلتها اليمن وسادتها الفتن والفوضى .

٣- الامام المنصور على بن المهدى عبدالله ١٨٣٥

تلقب بالمنصور وكان أمره عجبا فى تاريخ الأئمة إذ أنه حكم وعزل أربع مرات وهذا ما يوضح لنا شخص المنصور على وكذلك حال الاوضاع وأى مدى قد وصلت إليه الأمور وكان الامام المنصور على رغم عاطفيته ومزاجه الملقب آخر الملوك أهل الصولة والاقدام والحل والابرام فى الوقت الذى دخلت فيه اليمن فى حقبة تاريخية جديدة لحمتها الصراع والفوضى الداخلية وسادها التسابق العثمانى والأوربى للسيطرة على الوطن العربى واليمن جزء منه ويبدو أن عليا هذا كان معجبا بجد والده المنصور على بن المهدى عباس ولهذا تلقب بلقبه كما أنه كان متلافا للمال مثله فقد كان كريما ولكنه يضع الحقوق فى غير مواضعها لعدم خبرته بأحوال الناس وجاء فى وقت قد تضعضعت فيه المملكة لم يبق إلا المدخر فى خزائن بيوت المال من آلة الحرب والذخائر فكان ينفق منها ويعول عليها ومورد البلاد انقطع وكان الجند يهجمون عليه ويتسلطون فى المطالب ومن أين يكون للدولة موارد وتهامة وقعت بمختلف موانيها تحت سيطرة الادارة المصرية التى عززت مراكزها بقوات جديدة من الحجاز ومصر عام ١٨٣٥ وقد زاد من سوء الأحوال قحط وجفاف عام لم يشهد الناس لهما مثيلا منذ زمن بعيد فى مختلف المناطق ؛ فان مصيبة صنعاء وما حولها كانت أكبر فقد انتشر فيها بعد اشهر قليلة من حكم المنصور على «وباء» لعله «التيفوس» وهلك بذلك خلق كثير وكانت الجنائز لاتنفك ساعة من كل باب وفى هذه الظروف الصعبة بدأ حكم الامام المنصور على الذى استوزر بعض الوزراء الجدد قليلى التجربة والبعض الآخر ممن يشتكى من ظلمه أو جشعه ولم يكن قد حال الحول على تنصيبه اماما حتى خرج عليه خارجان وهما السيد قاسم بن منصور الذى غادر صنعاء مغاضبا واتجه إلى «تعز» التى اتخذها مقرا لدعوته بعد أن تلقب «بالهادى» والآخر هو عالم من بيت المؤيد كان من تلاميذ العلامة الامام السراجى ومن مدرستها ذات التوجه الشيعى المتشدد [٤٠].

٤- استيلاء القوات المصرية للسواحل اليمنية

ازداد تعرض المناطق اليمنية فى منتصف الثلاثينات من القرن التاسع عشر للاعمال المقاومة من قبل مرعى بن عائض ، وأتباعه مما جعل محمد على يعد العدة لاخضاع اليمن للحكم المصرى المباشر بدلا من الدولة العثمانية التى قد ساءت علاقاته معها وكشف محمد على الغطاء عن تطلعاته السياسية وسياسته التوحيدية لقيام الدولة العربية الموحدة فى

المشرق العربى هذا إلى جانب وقوفه على الدور الذى لعبته الدولة العثمانية ، عن طريق والى «بغداد» فى خلق جو مضاد له فى الجزيرة العربية وخاصة تحريك «تركى بيلمز» ولذا افصح عن مشروع ضم اليمن لحكم محمد على المباشر فى يناير ١٨٣٥ .

تبلورت فى هذه الفترة فى ذهن محمد على فكرة اقامة الدولة العربية الموحدة فى المشرق العربى وبدأ يتخذ الاجراءات الكفيلة بتحقيقها فرأى أن يجتث جذور المتمردين ويستولى فى الوقت نفسه على ما يمكنه من بلاد اليمن وكانت بعض الامراض قد اجتاحت صفوف الجيش المصرى فى الجزيرة العربية فأضعفتها كما كانت الحاميات العسكرية موزعة بين «قنفذة» و «الحديدة» وبعض المدن اليمنية الأخرى مما أضعف قوة الوحدات المتحركة من الجيش لهذا أرسل محمد على قوة جديدة إلى اليمن كانت تضم ثلاثة الايات من المشاة وألفين من الفرسان يقودهم ابراهيم يكن باشا أخو احمد يكن باشا الذى عينه محمد على « سر عسكر اليمن» بمهمة القيادة العامة لعملية ضم اليمن للحكم المباشر بعد دراسة مستفيضة فى يناير ١٨٣٥ وكان قد وصل إلى اليمن فى عام ١٨٣٦ وكان يسانده فى تحركه الشريف محمد عون شريف الحجاز [٤١].

احتمل المصريون فى أثناء زحفهم إلى عسير والمنطقة الممتدة على طول الساحل اليمنى حتى الحديدة مشقات هائلة نتيجة لوعورة الطرق وسد المناخ وقلة الماء وفداحة المتاعب وقد وقعت بينهم وبين رجال القبائل اليمنية كثير من المصادمات والمناوشات التى ألحقت بالمصريين خسائر فادحة اضطرتهم إلى التقهقر إلى الحجاز بعض الوقت غير أن المصريين استجمعوا قواهم واستأنفوا زحفهم من جديد فاستولوا على معظم الثغور اليمنية وبعض المواقع الداخلية فى تهامة وقد اتخذ القائد المصرى ابراهيم يكن باشا ميناء «الحديدة» مركزا لادارته وأصبح واليا لليمن من قبل محمد على ، وقد أشار عبد الرحمن الرافعى إلى أنه من الاحصاء الذى اورده «كلوت بك» فى كتابه «لمحة عامة إلى مصر» فى عام ١٨٣٩ عن الجيش المصرى فى عهد محمد على ، وهذا الاحصاء اقرب إلى الحقيقة لما كان «لكلوت بك» من مكانة فى الحكومة المصرية حينذاك يمكننا أن نتبين أن «الالاى» الثالث من المشاه المصريين وعدده ١٥٢٦ جنديا و «والالاى» العشرين من «المشاه» أيضا وعدده ٢٦٧٧ جنديا ثم «الآلاى» السابع والعشرين من المشاه كذلك وعدده ٢١٢٩ جنديا كانت جميعها تمثل جنود مصر النظامية فى اليمن وكان «الآلاى» الأخير بالذات يعسكر فى ميناء «الحديدة» مركز الادارة

المصرية هناك . اما عن القوات غير النظامية فى الجيش المصرى فى اليمن فى عهد محمد على فقد كان بيانها كما يلى : الفرسان ٥ ضباط و ١٩٧٠ عسكريا ، المشاه : ٩ ضباط و ٧٦٠ عسكريا ، المدفعية : ٢٠٠ عسكرى المجموع : ١٤ ضابط و ٢٩٣٠ عسكريا هذا مع العلم بان الاحصاء المتقدم قد اوضح أن مجموع جنود الجيش البرى المصرى فى عام ١٨٣٩ كان يبلغ ٢٣٥,٨٠٠ جندى وهذا يساعدنا على معرفة ما بلغته القوة المصرية فى اليمن بالنسبة للقوة العامة للجيش المصرى وكانت وحدات الجيش المصرى موزعة فى شتى ارجاء الدولة التى أقامها محمد على وبخاصة فى ذلك الوقت العصيب الذى اصطدمت فيه القوات المصرية مع قوات الدولة العثمانية فى أثناء النزاع الذى نشب بين محمد على والباب العالى[٤٢].

اتخذ ابراهيم يكن باشا من «القنفذة» قاعدة حربية للتخطيط لعملياته العسكرية داخل الأراضى اليمنية من ناحية والقضاء على الثورة العسيرية التى قامت بها القبائل اليمنية من ناحية أخرى وقام ابراهيم يكن باجراء تنسيق بينه وبين الشريف محمد بن عون وبعد اتمام التنسيق تمكنت قواتهما المشتركة برغم الصعوبات التى واجهتها فى بعض المواقع من احراز بعض الانتصارات وتمكنت من الوصول إلى قريتى «حالة» و «فتا» وقد لقيت مقاومة ضارية من جانب رجال القبائل اليمنية فى «عسير» بل إن القوات المصرية اصيبت بخسائر فادحة اثناء محاولتها الارتداد صوب «القنفذة» حيث احاط بها أهالى القرى التى على جانبى الطريق كما عانت قوات الشريف محمد بن عون الحجازية كثيرا من المتاعب وبلغ عدد الضباط وضابط الصف الذين قتلوا أثناء الطريق من قبل المقاومة اليمنية فى عسير تسعمائة وثلاثة وعشرين ضابطا وضابط صف هذا فضلا عن ضياع كميات ضخمة من الاسلحة والمدافع والذخيرة مما جعل محمد على يراجع حساباته بعد اطلاعه على التقارير الرسمية الخاصة بالتحركات الأولى لحملة ابراهيم يكن ويولى اهتماما بالغا بعمليات المقاومة لقبائل اليمنية فى «عسير» واستاء محمد على كثيرا من الأخبار التى وصلته عما أصاب قواته ابراهيم يكن والشريف محمد بن عون وكان محمد على يؤلمه كثيرا سماع أية أنباء تشكك فى مقدرة قواته فى التغلب على الصعوبات التى تواجهها وكان يضع ثقة كبيرة فى القادة الذين يختارهم لتنفيذ عملياته الكبرى وعلى أثر الصعوبات التى واجهت قوات ابراهيم يكن والشريف محمد عون ارسل له احمد يكن باشا حاكم عام الحجاز والجزيرة العربية يشرح له رؤيته الخاصة بالمجاح عمليات اليمن التى تقوم على أساس الزحف والتحرك على محورين رئيسين :

(أ) المحور الأول يعتمد على تحركه هو «احمد يكن» بقوة رئيسية ويتجه إلى تهامة «عسير» من جهة «ابى عريش» .

(ب) المحور الثانى يعتمد على تحرك قوات ابراهيم يكن من جهة ميناء «المخا» و «الحديدة» .

رغم اعجاب محمد على بهذه الرؤية التخطيطية لانجاح عمليات اليمن فانه ذكر لأحمد يكن بأن العبرة ليست بالتخطيط وإنما العبرة بالقيادة المنفذة وأكد له مدى الثقة التى يضعها فى جنوده الذين انتصروا فى كثير من الميادين وفى جهات أكثرها جبال وتفوق بلاد اليمن فى وعورها وصخورها ولذا فانه يرى أن المصلحة «إنما هى بحسن التدابير وسلامة الادارة وكل ذلك ثابت التجارب ومن الانصاف أن تقدروا جنود الجهادية حق قدرهم وإلا تغمطوهم حقهم باسناد ماليس بواقع إليهم » . ولكن يبدوا أن محمد على فاته قوة قوة قبائل اليمن وشجاعتها النادرة وكيف أن الدولة العثمانية فى أوج قوتها حققت انتصارات ساحقة على جميع الجبهات وأخضعت المشرق العربى بما فيها العراق والشام ومصر وكذلك أوربا الوسطى وأوربا الشرقية لكنها فشلت فى السيطرة على اليمن مما اضطرهم إلى الانسحاب منها وكذلك محمد على تمكن من الاستيلاء على الشام والسودان والحجاز ونجد وانتصر على القوات العثمانية وفى حرب اليونان وغيرها من جبهات القتال إلا أنه لم يحقق أى نجاح فى السيطرة على اليمن ولهذا فان العبرة ليست بالقوة العسكرية الحديثة أو الطبيعة الوعورة التى انتصر فيها الجيش المصرى وإنما فى قوة القبائل اليمنية وشجاعتها برغم من أنها بدائية التجهيز وليس لديها الامكانات المادية أو العسكرية من حيث الاسلحة الحديثة المتطورة التى كان يملكها الجيش المصرى ولكن لديها الارادة الثابتة والقوية فى مقاومة الغزاة مما الحق خسائر جسيمة فى الجيش المصرى .

اتخذت قوات ابراهيم يكن «الحديدة» مقرا لادارة عملياتها وقامت باجراء عدة تحركات نجحت خلالها فى الاستيلاء على «بيت الفقيه» «زبيد» «المخا» و «اللحية» وعين ابراهيم يكن لكل مدينة منها محافظا وموظفيه لادارة شئونها وجماركها وقد كان سرور محمد على بالغا عندما علم بان ساحل البحر الاحمر من السويس إلى باب المندب قد اصبح تابعا له وأنه لم يعد امامه للسيطرة على كل المؤانى سوى الاستيلاء على بعض المواقع الداخلية الهامة فى تهامة وقد كانت اوضاع اليمن الداخلية آنذاك مواتية ومساعدة لانجاح عمليات ابراهيم يكن

فى اليمن فالامامة فى صنعاء تعانى من ضعف شديد وأحوال القبائل مضطربة وغير متناسقة ولها موقفها المعادى من الامام المنصور على فى غالبها فوضع ابراهيم يكن هذا الوضع الداخلى المتفسخ فى حسباته أثناء تقديره للموقف الذى بناء عليه أجرى تحركات قواته فى داخل الأراضى اليمنية وقد أصاب تقديره كثيرا من النجاح وفى تلك الأثناء حدث اتحاد بين قبائل «يام» وقواد عسير كان هدفه غزو تهامة عن طريق «بيش» واتخذ «اليامیون» قرية «العدايا» قاعدة لهم فقام الشريف حسين بن على بن حيدر مع قوة من الجنود «الالبان» بمهاجمة «اليامیين» وأحرز الانتصار عليهم ثم عاد الشريف حسين بعد أن اضعف هذا التحالف العسيرى - اليامى بالاتجاه إلى الحديدة حيث أستأذن ابراهيم يكن فى الذهاب إلى «الكاملية» فسمح له بالذهاب إليها وهناك بنى فيها قلعة استقر إلى ١٨٣٨ حيث خلف والده فى «المخلاف السليمانى» فى عاصمتها «ابى عريش» وبدأ يوطد مركزه ويقوى من نفوذه فارتاب ابراهيم يكن فى تصرفاته وبدأت العلاقات تتوتر فيما بينهما حتى آلت فى النهاية إلى عداء سافر فى الوقت الذى كان محمد على يقدر خطورة الموقف فى اليمن وبخاصة الافعال العنيفة التى تقوم بها قبائل «يام» فأرسل إلى ابراهيم يكن يحثه على عدم التهاون فى معالجة الموقف بالحسم الشديد لأنه لاينبغى للحاكم أن يتهاون فى مقابلة العدو فعليكم أن تتخذوا كل تدابير وتكونوا على حذر ولايخفى عليكم درجة قوة الاعداد وكيفية حركاتهم وفى نفس الوقت ابدى له كامل استعداده لارسال كل ما يحتاجه من امدادات للتغلب على العقبات التى تواجهه بخلاف القوة التى ارسلت من قبل واتخذت من جدة قاعدة لها فى انتظار الاوامر التى تصدر إليها للتحرك إلى الجهات التى تحدد لها(٤٣).

قام احمد يكن فى تلك الاثناء بعد التشاور مع القادة بتحريك قواته لمواجهة تحرك قوة عائض بن مرعى الذى كان ينوى الزحف على «القنفذة» بقوة قوامها عشرون الف مقاتل طبقا للتقديرات التى وصلت إليه فاستدعى الأمر تسير القوات نحو «المقصص» و «الروقة» فى جهات «القنفذة» فى الوقت الذى ارسل فيه كل من جمعة آغا أمير «القنفذة» وحسين آغا محافظها إلى أحمد يكن باشا يخبرانه بتحرك عائض بن مرعى وقواته على المحورين التالين :

١- المحور الأول نحو «بالقرن» وقد تولى قيادة التحرك فيه عائض بن مرعى نفسه وقد اوشك أن يصل فعلا إلى «بالقرن» .

٢- المحور الثانى يسير عليه الفريق الآخر من قوات عائض متجها من «حالى» إلى «قوزة» وفى مواجهة هذا التحرك الذى وضعه عائض فان احمد يكن باشا سارع بارسال «اورطتين» بقيادة سليمان بك امير «الالاى» الرابع والعشرين مراعاة للحزم والاحتياط وبعث إلى هاتين الأورطتين الغذاء وفناطيس الماء وابدى استعداده لارسال قوات أخرى إذا استدعى الامر ذلك لصد تحرك عائض وقواته ، وقد هوجمت قوات احمد يكن فى منطقة البجيلة من جانب القبائل اليمنية من «بنى مالك» وتكبدت خسائر فادحة فى المعدات والأرواح وزسرع قائد القوات المصرية بطلب ارسال قدر كاف إليه من «جبخانة» البنادق والمدافع كما طلب ارسال قوة من العساكر قائلا : «إذ أنه كلما طال امد هذه الحالة تزايدت جموع الاشقياء» (٤٤).

تضامن الشريف حسين بن على بن حيدر مع عائض بن مرعى حاكم عسير الذى كان يطمع فى السيطرة على ساحل تهامة ثم تقدمت قوات الحليفين لمحاربة المصريين فى الحديدة وقد شجعها على ذلك علمهما بانشغال محمد على فى محاربة قوات الدولة العثمانية فى الشام كما انتهزوا فرصة نزاع نشب فى الوقت نفسه بين والى الحجاز المصرى وشريف الحجاز محمد بن عون الذى ساند والده المصريين فى أثناء زحفهم إلى اليمن على أنه قبل أن تصل قوات الشريف حسين بن على بن حيدر وعائض بن مرعى إلى «الحديدة» كانت أوامر محمد على قد وصلت من مصر إلى ابراهيم يكن باشا بتسليم ما تحت يده من البلاد اليمنية إلى الشريف الحسين بن على بن حيدر ليتولى الحكم فيها باسم الدولة العثمانية فدخل الشريف حسين بن على بن حيدر «الحديدة» بعد جلاء المصريين عنها فى عام ١٨٤٠ وأعلن اعترافه وتبعيته للسيادة العثمانية (٤٥).

٥- استيلاء القوات المصرية على تعز

بين ،فاة الامام المهدى عبدالله وخلع ابنه المنصور على بعد خمسة عشر شهرا من حكمه كانت القوات المصرية بقيادة ابراهيم يكن قد استكملت سيطرتها على الموانى اليمنية الرئيسية «كاللحية» و «الحديدة» و «المخا» وتقدمت برا بقيادة ابراهيم يكن فأستولت على «بيت الفقيه» و «زبيد» وتم وضع حاميات قوية فى كل منها كما عين محافظا وموظفين لإدارة شؤونها وجماركها ولم يبق امام ابراهيم يكن إلا اتمام مهمة حملته فى الداخل فى

الوقت الذى كانت فيه قوات اخيه احمد يكن تواجه ثوار عسير وتعمل على منعهم من التوجه نحو الموانئ اليمنية التى كانت تحت سيطرة ابراهيم يكن الذى أرسل إلى اخيه احمد يكن يخبره بأنه عقد العزم على الاستيلاء على «تعز» وبعض توابعها الواقعة حولها وطلب منه أن يرسل له بعض الجند فأسدى له احمد يكن النصح بتأجيل خطته هذه وبأن عليه ألا يفرق شمل الجند الذى فى امرته بتوزيعه هنا وهناك ولكن ابراهيم باشا كان قد اعد العدة لعملية الاستيلاء على «تعز» والمناطق المجاورة لها ولذا فانه لم ينصح لنصح أخيه بل واستنكر منه هذا الامر وقرر القيام بهذا العمل على مسؤليته قائلا قد انفقت فى هذه الديار من الزمن وكسبت من الاطلاع والعرفان مالا يدع حاجة إلى الاستشارة .

وضع ابراهيم يكن فى حسبانه احوال اليمن الداخلية عند تخطيطه لعملية توسعه داخل الأراضى اليمنية من ضعف الامام المنصور على ونفور الناس منه وخروج عمه القاسم عليه والمساعدات التى قدمها حسن بن يحيى إلى قواته كل هذه العوامل شجعته على الاستيلاء «لتعز» وتمكن من ضمها فى يونيه ١٨٣٧ وعين مصطفى بك احد قادة الحملة التى زحفت إليها حاكما عليها .

ويرجع نجاح الامام قاسم بن المنصور عليه فى «تعز» وعصيان الشيخ حسن بن يحيى على سعد فى المنطقة ولولا ذلك لما تمكنت الحملة من تحقيق اى نجاح لها فى اليمن وتم الاتفاق بين ابراهيم يكن وقاسم بن المنصور على أن يتخذ الأخير «مخا» مقرا لسكنه فى نظير منحه مبلغ عشرة الاف ريال ومرتبا شهريا قدره أربعة آلاف قرش وهذا المبلغ الذى كان مقابل الخيانة قد اقترضه ابراهيم يكن من تجار «المخا» بسبب العجز المالى عنده كما أنه أخذ سبعة رهائن من رئيس الجماعة التى كان عددها مئتين والتى كانت مع قاسم بن المنصور ورافقت القوات المصرية إلى «تعز» وذلك خوفا من الغدر وكان لها نصيب من المبلغ المذكور وبذلك تم بيع «تعز» بأثنى عشر ألف ريال ، وقد كان ابراهيم يكن يعتبر «تعز» مفتاح صنعاء التى كان يتطلع فى الاستيلاء عليها ولذا فانه اعتبر نجاحه فى ضم «تعز» نصرا كبيرا ، وبذلك وصل حكم محمد على إلى المناطق القريبة من صنعاء عاصمة الامامة الزيدية التى اصبح الطريق إليها بعد الاستيلاء على تعز مفتوحًا ، تطلع ابراهيم يكن باشا إلى فتح صنعاء .

ازداد نفور الجند والأهالى من الامام المنصور على بن المهدى فثار الجند ضده وتمكنوا من القاء القبض عليه وتولى الامامة بدلا منه الامام عبدالله بن حسن المهدى باسم الامام الناصر وثار الخلاف بين الامام الناصر وقاسم واستغل ابراهيم يكن هذا الخلاف لصالحه وعمل على توسيع هوة هذا الخلاف حتى يتمكن من تحقيق أهدافه . ولم يكن امام الامام الناصر عبدالله بن حسن وقد تسلم الحكم من خيار حتى يعد نفسه لحرب يواجه فيها القوات المصرية التى أصبحت متمركزة فى «تعز» لتتخذ منها قاعدة انطلاق صوب اليمن الاسفل فى طريقها شمالا لتصل إلى صنعاء وكان على الامام الناصر أن ينهى فى أول أمره مشكلة قبائل «برط» المرابطة مع رئيسها القاضى حسين بن يحيى البرطى ومعهم بعض «ارحب» على مرمى البصر من صنعاء فى حصن «عطان» فصالح القوم بمال وادخلهم العاصمة واستخدمهم مع قائدهم فى حملته الفاشلة لصد الزحف المصرى بعد نحو شهرين من بداية حكمه ولعله بذلك أراد إيجاد نوع من التوازن مع قوة الاجناد الرسمية التى لها الفضل فى احضاره إلى الحكم ولعله بذلك أراد ايجاد شأنها شأن أى فرق أو قوات عسكرية فى التاريخ تصبح فى مثل هذا الموقف هى صاحبة السلطة الحقيقية والمتحكمة فى الأمور .

لمس الناس ذلك بأن الجنود يحسبون أنفسهم أن لهم الحل والعقد بعد أن اخذوا ما فى بيوت الأموال لنفوسهم ولم يكن الامام الناصر استثناء فى الأمر لكنه استفاد من الحل مع قبائل «العنسى» واسرع فى معالجة اطماع العسكر وانصاره المحتاجين للمال والمؤهلين فى جنى نجاح امامهم بأن جمع ما بقى فى بيت المال وما صادره من الحلى والحلل واضاف إلى ذلك الكثير من النحاس وامر بحمل كل ذلك إلى «دار الضرب» فى قصر صنعاء حيث امر القائمين على سك العملة باخراج أول ضربة باسمه وكان من حسن حظه أن سلفه المخلوع الامام المنصور على كان قد جمع ما استطاع خلال حكمه القصير وأعد ضربة جديدة كانت جاهزة ولم يبق ناقصا إلا طبع اسمه عليها فتخرجت العمله كلها باسم الامام الناصر وبذلك قوى مركزه المادى والمعنوى . تمكن الامام الناصر من القضاء على «ذى محمد» ومن قبلهم التسوية مع أبناء عمومتهم ودخولهم فى خدمة الدولة لكن اضطرابات المناطق الوسطى واليمن الاسفل كانت شاغل الامام فى صنعاء كما كان سببا فى تمكن العساكر المصرية من الوصول إلى «تعز» وبالتالى تقلص سلطة العاصمة ولم يكن للامام الناصر بد من أن يقوم بحملة كبيرة يطهر فيها تلك المناطق ويعيد إليها استقرارها ومن ثم يواجه القوات المصرية ويبعدها

إلى تهامة وأن استطاع أن يخرجها منها فذلك أمله وواجبه وهكذا قرر الامام الناصر الخروج من صنعاء ووصل إلى «آب» وهناك كان امتحانه الكبير فى مواجهته للقوات المصرية وفى أغسطس وجه الامام الناصر جيشا إلى تعز لمحاربة المصريين ويبدو أن معظم قياداته أو كلها كانت من رؤساء القبائل وكانت الخديعة قد وقعت فى «تعز» بتمالؤ القبائل هناك برئاسة الشيخ حسن بن على سعد مع المصريين وعندما وصلت قوات الامام الناصر إلى قرب المدينة خرجت إليهم القوات المصرية فدارت معركة عظيمة قتل فيها اكثر من الجانبين وآزرت المصريين فيها القبائل المتعاونة معهم برئاسة الشيخ حسن بن على سعد وأن المعركة كانت فى محل «القصيبة» وأن المصريين ومن معهم انهزموا وتراجعوا إلى المدينة وأرسلت الرؤوس إلى الامام الناصر حيث علقت فى باب «إب» وقد عجب الناس من كثرتها وشناعة خلقها لعدم معرفتهم من قبل بمثل تلك الرؤوس ثم يعزوا إلى إدارة الامام الناصر ووزرائه فى عدم موافاة القوات فيما بعد بالمدد والتموين مما كان سببا فى التراجع والهزيمة بحيث لو وقعت معركة أخرى لأنتهى أمر المصريين ، ولكنه وقع المكر من عدم الارسال للتعزيزات والامدادات إلى المعركة(٤٦) . وتمكنت قوات ابراهيم يكن على أثر هذه المعارك من الاستيلاء على اقليم «تعز» باكمله .

أصبح الطريق امام القوات المصرية إلى صنعاء مفتوحا وبدأ ابراهيم يكن يعد لهذه الخطوة فعلا وأدرك أن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى قوة أخرى من الجند فارسل إلى أخوه احمد يكن حاكم عام الحجاز يطلب منه أن يزوده بقوة من الجند ولكن احمد يكن باشا كان منشغلا باخماد الثورة العسيرية فلم يجبه إلى طلبه فارسل محمد على يشرح له الموقف ويغريه بسهولة فتح صنعاء واسقاط الامامة خاصة وأن كل الظروف مساعدة له على تحقيق هذا الهدف الذى لايحتاج تحقيقه إلا قلة من الجند فقال :

«وها هى صنعاء على وشك أن تسقط فى أيدينا والدليل على اقتراب فتحها أن الامام لم يظهر علينا فى حرب من الحروب بل انهزم فيها جميعا وكانت عاقبته أن وهن ولم يستطع الثبات فهرب لاجئا إلى صنعاء وعصاه الجميع ولم يفز بشئ من حاصلات البلاد ومال الناس إلى الحكم المصرى ودعونا إلى فتح بلادهم ولم يقف بنا عن فتح صنعاء سوى قلة «الجند» وأراد ابراهيم يكن أن تكون صورة الموقف الداخلى فى اليمن واضحة امام محمد على ليزوده بالقوات اللازمة لاكمال عملياته فى داخل الأراضى اليمنية والاستيلاء على صنعاء فارسل

معاونه اسماعيل حقى لشرح هذا الموقف وزوده برسالة قال فيها «ولى النعم إذا تفضل فى الظرف الذى يعانى فيه الامام الضيق والشدة وتحبو القبائل ولى النعم بحبها وودها وأذن بارسال «الاى» أو «الايين» إلى اليمن لأدى ذلك إلى فتح صنعاء». «.... فأما أن فتحنا صنعاء كما هو غاية أملنا ورفعت أيدى المفسدين وشملنا أصحاب اشجار البن بعين المراحم الخديوية وغرست أشجار البن بكل اعتناء زاد المحصول سنة بعد أخرى وبلغ مركزه الأول» ، كما جاء فى رسالة إلى محمد على يغريه فيها قائده ابراهيم يكن بفوائد الاستيلاء على صنعاء لمعرفته باهتمامه باحتكار تجارة البن حتى أنه انشأ له فى اليمن ديوانا خاصا سمى بديوان البن لتنظيم هذا الاحتكار » . واغراء محمد على بالفوائد التى تعود على نفوذه من وراء فتح صنعاء ذكر :

أن اقليم تعز يعطى دخلا سنويا بحوالى ٧٠٠,٠٠٠ ريال وأن الأوان قد آن لفتح صنعاء لأن ذلك سوف يؤدى إلى ازدياد محصول البن الذى يمكن احتكار تجارته وقد أكد ابراهيم يكن لمحمد على أن زيادة محصول البن لاتتم إلا بالاستيلاء على صنعاء والاهتمام باصحاب اشجار البن والعناية بغرس هذه الاشجار وبذلك يصل المحصول إلى مركزه الأول بعد الاهمال الذى لقيه فى ظل حالة الاضطراب والفوضى الداخلية ، وكان هدف ابراهيم يكن من وراء كل هذه الاغراءات أن يرسل له محمد على الامدادات اللازمة لفتح صنعاء ولما رأى أن القاهرة وكذلك حكومة الحجاز لم تسعفاه بارسال هذه الامدادات قرر عدم اضاعة الوقت فقرر التحرك بالامكانيات المتوفرة لديه إلى بعض المناطق الأخرى مؤجلا فتح صنعاء واسقاط الامامة الزيدية إلى حين آخر فعمل على تحريك قواته نحو «العدين» لأهميتها الاقتصادية والعسكرية بالنسبة لموقفه . وكانت «العدين» حاضرة المنطقة الراقعة بين «زبيد» و «آب» واهتم ابراهيم يكن اهتمام كبيرا بالاستيلاء على هذه المنطقة ووضع الخطة الكاملة لعملية فتحها فأرسل إليها البكباش محمد صادق وعند وصوله إلى المنطقة رحب مشايخ البلاد وأهاليها بوصوله إلى بلادهم حيث استدعاهم الشيخ سعيد بن احمد على سعد إلى بلاد «العدين» وخان امانته وباع المدينة مقابل بعض الأموال وهو عامل من جهة الامام الناصر عبدالله . وتمكن البكباشى محمد صادق من دخول مدينة «العدين» التى فتحت أبوابها بأوامر من عاملها المتعاون مع الجيش المصرى فى أغسطس ١٨٣٧ وكتب ابراهيم يكن إلى محمد عل يخبره بنجاحه فى تحقيق هذا الهدف بسهولة نظرا أن أهالى «العدين» متضررين

من امام صنعاء فقد استولى عليهم السرور عند دخولهم بندرهم وقد كانت معاملة الجنود الطيبة للأهالى وسلوكهم معهم مسلكا حسنا وعدم الاعتداء عليهم أو على ممتلكاتهم أثر طيب على الأهالى وكان من الطبيعى أن يدخلوا المدينة بدون استعمال السلاح بعد خيانة عاملها وتسليمها للقوات المصرية مما أقبل الناس عن طيب خاطر إلى اعلان طاعتهم للنظام الجديد وأرسل القائد محمد صادق إلى محمد على بدوره يشرح له حالة اليأس التى كانت قد استولت على النفوس من حكم الامامة ساعة وصوله للمنطقة والتطلع الذى كان يملؤها إلى نظام جديد يخلصها من الامامة إذ أن جميع الناس فى هذه الايام نظرا لضعف الامام وما ينالونه من الجور والأذى منه قد اشاحوا بوجوهم عنه وتحولوا نحو دولتكم [٤٧].

لم يمض إلا أيام انتقل الامام الناصر عبدالله إلى «ذى جبلة» على بعد بضعة اميال من «آب» ومن «العدين» وارسل بنحو خمسمائة من قواته الرماة وبعض القبائل ووقعت مناوشات قتل فيها عدد من المصريين لكن النتيجة النهائية كانت فى صالحهم فتراجع اصحاب الامام الناصر خائبين وكذلك الامام نفسه إلى «اب» مرتبكا وإذا به يواجه من عاد من القبائل المنهزمة فى «تعز» وعلى رأسهم أقرباء من قتل هناك وهم ناقمون ساخطون كما استعادت بعض قبائل «ذى محمد» مواقعها فى الحصون القريبة ومنها القبائل التى فى «بعدان» حيث طردت حامية الامام الناصر عبدالله وقتل عدد من رجاله وجاءت قبائل أخرى فمن أخذ الامام الناصر عبدالله منها رهائن حبسها بعد أن خضعت له قبل ذلك باسابيع مطالبة بالافراج عن أصحابها وبات الامام الناصر فى محنة حقيقية وحصار ضارب فلم يعد معه إلا الفان من القبائل لم يكن تحتهم طائل وأصبح أمل الخروج والهروب من الصعاب وعندما قرر الهروب ناكصا إلى صنعاء كان يوم خروجه يوما عبوسا فكل فرد من اصحابه ايقن بالهلاك بسبب انقطاع جميع المسالك وكل واحد يريد أن ينهب الآخر وما وصل الامام إلى المخادر إلا بشق النفس وكثرة الاثقال بقيت فى مدينة «آب» ورجع يخفى حنين [٤٨]. وقد وردت الرواية المصرية بصيغة تقريرية متفاخرة فى الرسالة التى بعث قائد الحملة المصرية ابراهيم إلى محمد على يبشره باتمام فتح اقليم تعز باكمله «بعد ست معارك قاتل الجيش المصرى فيها قتال الابطال والآن تحتل جنودنا المنصورة كل الاماكن التى استولت عليها حيث يرابطون معتزين بما أحرزوا من مجد وشهرة بعد ما ولى الناصر الفرار إلى صنعاء» .

يتضح من خلال مقارنة الجيشين المصريين الفرق واضح بينهما الأول بقيادة احمد يكن حاكم عام الحجاز الذى دخل بقواته فى اليمن الشمالى ضد ثوار عسير ولم يحقق أى نصر وإنما هزيمة وانسحب إلى الحديدة ومن ثم سلمها إلى الشريف حسين بن على بن حيدر بعد المقاومة الضارية لثوار عسير فى ساحل تهامة اليمنى أما القوات المصرية الأخرى بقيادة أخيه ابراهيم يكن فقد حققت نتائج جيدة بفضل خيانة بعض الزعماء اليمنيين مثل قاسم بن منصور عامل «تعز» الذى باع مدينة تعز مقابل عشرة آلاف ريال وكذلك عامل «العدين» الشيخ سعيد بن احمد الذى باع تلك المدينة للقوات المصرية مما كان لهذه الاحداث الأثر الكبير فى أوضاع اليمن الأوسط وخاصة قبائلها ويعلق أحد المؤرخين اليمنيين على ذلك بقوله:

«ولما علموا قلة ما فى يد هذا تركوه ووهن أمره واستدعى الترك (أى عساكر محمد على الموجودة فى «المخا» وتهامة) إلى تعز ودخلوا المدينة وملكوا البلاد وصالحوا من فى الادراك من ذى غيلان والتوابع بالمال فلما فتحوا باب الدراهم تهافتوا كذا عليهم العرب وأصلحوا فى المدينة الخارب واطمانوا إليهم كذا مشايخ بلاد الحجرية وشرعب » .

٦- التنافس المصرى البريطانى فى اليمن والاحتلال البريطانى لعدن .

عندما كان ابراهيم يوطد الحكم فى «نجد» بعد سقوط «الدرعية» ويتجه صوب الاحساء ضبط البلدان والبنادر فى تهامة اليمن واقتربت عملياته إلى «المخا» وبدأت بريطانيا تخشى من ازدياد النفوز المصرى سواء على ساحل البحر الأحمر أو ساحل الخليج العربى . ولذا عملت على التصدى له فى تلك الجهات فالبنسبة لليمن نشطت فى توطيد نفوذها فى مدخل البحر الأحمر وحتى ميناء «المخا» لأهميته التجارية وموقعه الهام لتقطع على محمد على سبيل السيطرة على هذا الميناء الذى جعلته هدفا لها وحاولت السياسة البريطانية أن توجد الظروف المناسبة لتدخلها وفرض سيطرتها على هذا الميناء وقد واتتها الظروف فى عام ١٨٢٠ مستغلة الحادث الذى وقع لوكالتها فى هذا الميناء فى يوليو ١٨١٧ وكان لبريطانيا وكالة تجارية بميناء «مخا» وككل الوكالات البريطانية فى الشرق كانت هذه الوكالات الى جانب عملها التجارى تقوم باعمال التجسس على الأحوال الداخلية للمناطق التى توجد فيها وكانت تمارس إلى جانب ذلك اعمالا سياسية على جانب كبير من الخطورة وقد نشطت الوكالة البريطانية فى «المخا» بصورة ملحوظة فى الفترة التى بدأ زحف قوات محمد على يصل فيها

إلى السواحل اليمنية وللوقوف فى وجه هذا الزحف استغلت الحادث الذى وقع لهذه الوكالة لتحقيق هدفها وتحقيق امتيازات خاصة لها فى المنطقة فأزعج موقفها هذا كل من محمد على والدولة العثمانية على حد سواء وبدأ محمد على يضع الخطط المقبلة لمواجهة التدخل البريطانى فى اليمن وأرسل إلى امام اليمن ينبهه إلى خطورة هذا التدخل وبلغ الصراع حول «المخا» ذروته بين بريطانيا من جانب ومحمد على والدولة العثمانية من جانب آخر ولكن بريطانيا حسمت الموقف وقصفت «المخا» واضطر امام اليمن بعد فترة من المماطلة أن يوقع على الشروط التى وضعتها بريطانيا فى ١٥ / ١ / ١٨٢١ وحثت الدولة العثمانية محمد على التصدى للمحاولات البريطانية على السواحل اليمنية وأنه يجب عليه حماية هذه السواحل وصيانة حقوق أهلها ولكن بريطانيا تمسكت بموقفها فى «المخا» لأنها فوق خشيتها من ازدياد نفوذ محمد على فان خشيتها من ازدياد النفوذ التجارى الأمريكى فى هذا الميناء وصلت إلى ذروتها ولذا فانها تمسكت باصرار شديد على موقفها للقضاء على أية منافسة لنفوذها فى «المخا» وظل موقفها على حاله هذا رغم انسحاب محمد على من الدخول فى صراع مباشر حول «المخا» حتى عاود محمد على نشاطه فى الجزيرة العربية بعد أن تأزم الموقف بينه وبين الباب العالى وبدأت قواته تعمل على التوسع فى اليمن وهنا بدأ الصراع بينه وبين بريطانيا حول السواحل اليمنية [٤٩].

تمكنت القوات المصرية بعد فترة من الاستيلاء على كثير من الاقاليم اليمنية وامتد نفوذ محمد على إلى اقليم «تعز» وبدأت قوات ابراهيم يكن تهدد صنعاء ذاتها وأصبح امام اليمن فى موضع الضعف وأصبح النفوذ المصرى قاب قوسين أو أدنى من باب المندب فأخذت بريطانيا تنظر إلى تحرك قوات محمد على بعين الشك وأخذ عملاؤها ووكلائها وأعضاء بعثاتها يعملون باستمرار على الاتصال بشيوخ القبائل فى جنوب اليمن كما كانت تراقب عبر جواسيسها باهتمام بالغ تحركات محمد على الطموحة لإنجاز مشروعه فى اقامة الدولة العربية الموحدة فى المشرق العربى قلبها مصر وجناحاها بلاد الشام وما يليها إلى الأناضول شمالا والجزيرة العربية بما فيها اليمن جنوبا وها هى قواته تسيطر على كل موانئ البحر الأحمر فى اليمن بعد الحجاز وبات يسيطر على تجارة البن اليمنى العالمية بعد أن كان للأمريكيين والأوربيين المجال الأوسع لتحكم فيها منذ القرن الثامن عشر وتدر عليهم ارباحا كبيرة كما كان ذلك مجال صراع وتنافس خطير بين البريطانيين والأمريكيين وكان للأمريكيين فيه

نصيب الأسد ففى عام ١٨٠٨ حملت احدى السفن الأمريكية من ميناء المخا اكثر من ٥٣٢ ألف رطل من البن .

حملت السفن الامريكية والأوربية فى عام ١٨٠٩ مليونى رطل من بن «المخا» كان معظمه من نصيب أمريكا وقد تعرقلت بعد ذلك التجارة منذ عام ١٨١٢ بسبب اعلان امريكا الحرب على بريطانيا لكنها عادت إلى الانتعاش مرة ثانية بعد سبع سنوات بيد أن الامريكان بعد ذلك لم يتركوا مجالا كبيرا للبريطانيين ليشاركوا مشاركة ذات بال فى تجارة «المخا» وتعقدت خلال ذلك وبعده المصالح العالمية وكانت بريطانيا الاستعمارية وهى احدى القوى الكبرى تسعى جاهدة لحماية مصالحها فى الهند والشرق بالسيطرة على موانئ البحر الأحمر والخليج العربى وبخاصة بعد أن احتلت منافستها الأخرى فرنسا الجزائر عام ١٨٣٠ وإذا كان طموح محمد على فى هذه الفترة قد شكل عقبة فى طريق تنفيذ بريطانيا مشاريعها البعيدة بما فى ذلك احتلال مصر فقد كان ذلك مرحليا ولم تكن بريطانيا حتى بداية عام ١٨٣٧ ترغب أن تقدم على خطوة عدائية عنيفة ضده ولاسيما أن محمد على كان يبذل اقصى ما فى وسعه لاقناع السلطات البريطانية فى الهند وفى بريطانيا أنه راغب فى المحافظة على المصالح البريطانية فى الخليج العربى والبحرالأحمر وكان يعتقد أنه نجح فى ذلك بدليل أن الممثل البريطانى فى القاهرة سلم إليه فى فبراير ١٨٣٧ خطابا من الحاكم البريطانى فى بومباى» يؤكد فيه المشاعر الطيبة ودعم الصداقة والتبادل التجارى بين البلدين وطلب السماح لبريطانيا أن تقيم محطة فحم فى جزيرة «كمران» مقابل ميناء «الصليف» والواقعة تحت حكمه لتزويد بواخراهم بالوقود استجاب محمد على لهذا المطلب بل وعرض تسهيلات أخرى كثيرة منها نقل البريد البريطانى عبر الأراضى المصرية وأرسل إلى ابراهيم يكن يطلب منه أن يبذل ما فى وسعه لتسهيل مهمة السفن البريطانية فى المياه اليمنية وقام الممثل البريطانى بتقديم شكر وزير خارجيته على ذلك فزاد من اطمئنان محمد على وتوثيق علاقاته ببريطانيا واعتبر ذلك بمثابة اعتراف من الحكومة البريطانية بسيادته على هذه الجزيرة وبالتالى على اليمن وان هذا الاعتراف الضمنى بسيادته فيه انكار لحق السلطان العثمانى فى تلك الجهات وهذا أمر له أهميته الدولية آنذاك نظرا للصراع الذى كان قائما بين محمد على والسلطان والعثمانى ، وما هى إلا بضعة أشهر حتى توغلت القوات المصرية فى داخل اليمن بعد استيلائها على «تعز» وتراجع الامام الناصر عبدالله امامها فى «العدين» و «بعدان» فى منطقة «آب» التى لاتبعد كثيرا عن عدن (٥٠).

بدأ الشك يراود بريطانيا حول نيات محمد على ورغبته فى السيطرة على موانئ اليمنية فى الجنوب والسيطرة على مداخل البحر الأحمر وخاصة «عدن» . ولذا بدأت تغير من اسلوب تعاملها مع محمد على وطلب وزير خارجية بريطانيا من الممثل البريطانى فى القاهرة أن يلفت نظر محمد على إلى خطورة اتجاهه نحو عدن واعرب محمد على لبريطانيا عن عدم رغبته فى الاستيلاء على «عدن» أو المناطق الواقعة شرقها ولكن بريطانيا رأت فى اعراب محمد على هذا شيئا والواقع أكد لها شيئا آخر كما أكد تقرير الكاتبين «ماكنزى» عن حالة جنوب غرب الجزيرة العربية بأن اليمن كله باستثناء صنعاء قد اصبح تحت سيطرة قوات محمد على والذى ينوى بسط سيطرته على كامل الجزيرة العربية وأنه يخطط للاستيلاء على «عدن» وأن قواته قد اقتربت منها ومن هنا بدأ تفكير بريطانيا الجدى فى الاستيلاء على عدن وابعاد محمد على عنها وبدأ أسلوب تعاملها مع محمد على يتخذ اتجاها جديدا وكانت بريطانيا قد بدأت تضيق ذرعا بازدياد النفوذ المصرى منذ الاستيلاء على «مخا» عام ١٨٣٣ وتطبيق محمد على لسياسة الاحتكار التجارى على محصول البن الذى أصبح معظمه يصدر إلى مصر وشراء الجزء المتبقى من المحصول بواسطة التجار الامريكيين . مما أضر بالتجارة البريطانية هذا إلى جانب ازدياد نسبة الجمارك على التجار البريطانيين الذين اصبحوا يدفعون ٧,٢٥ ٪ بينما اصبح التجار الامريكيون يدفعون ٣٪ ولذا فان السياسة البريطانية ركزت مخططها على التصدى وبشدة لسياسة محمد على التوسعية ووضع حد لتطلعاته وكان سبيلها الأول إلى ذلك الاستيلاء على «عدن» . وكانت بريطانيا قد ادركت اهمية عدن واتخاذ مينائها كمحطة تموين لتزويد سفنها بالوقود خاصة وأنها مرت بمشاكل كثيرة مع سلطات «المخا» فضلا عن المزايا التى تتمتع بها «عدن» كميناء ومحطة تجارية ولكونها تحكم من قبل سلطان لحج حكما مستقلا بعد انفصاله عن صنعاء منذ عام ١٧٢٨ ولذا فانها قامت فى عام ١٨٢٦ بعقد اتفاقية صداقة وتجارة مع السلطان احمد العبدلى سلطان «لحج وعدن» على أساس إنشاء وكالة بريطانية فى عدن ثم توالت جهود حكومة الهند البريطانية بعد ذلك فى دراسة الوضع فى المنطقة المجاورة لعدن والقيام بعمليات المسح لساحل حضرموت وجزيرة «سوقطرة» ومحاولة شراء هذه الجزيرة من السلطان ولكن هذه المحاولة فشلت كذلك وكانت هذه العمليات بمثابة التمهيد للاستيلاء على عدن فى الوقت المناسب[٥١] خاصة وان قوات ابراهيم يكن كانت قد بدأت عمليات توسعها داخل الأراضى اليمنية وأصبح مركز الامام الناصر عبدالله ضعيفا فى العاصمة صنعاء بعد عودته مهزوما

والبريطانيون يتابعون باهتمام وضعه وكيف ستكون علاقاته بمحمد على فاذا لم يصل إلى اتفاق يناسب محمد على فليس هنالك ما يمنعه من الاستيلاء على صنعاء ثم الهيمنة على اليمن كله .

قام الامام ناصر عبدالله بارسال السيد عبدالرب بن اسماعيل إلى احمد يكن حاكم عام الحجاز وكان وقتئذ فى عسير وحمله رسالة إليه فى أغسطس ١٨٣٨ بتوقيع الامام الناصر وخاتمه وطلب منه فيها تسهيل سفر مندوبه إلى القاهرة ليقابل سيف الاسلام محمد على باشا وقد عمل احمد يكن على ذلك وبعث من جانبه ما استخلصه من حديث المندوب وكان أهمه ان الامام الناصر يقر بأن تظل جميع المناطق التى تسيطر عليها القوات المصرية كما هى تحت الحكم الجديد على شرط أن تظل صنعاء تحت حكم الامام لكن هذا فى الواقع لم يكن مايريده محمد على أو قائده الذى أضاف أنه أبلغ المندوب «... بأن من الحكمة الآن أن يسمح باقامة حاكم مصرى إدارى فى صنعاء ويقبل اتفاقا بموجبه يتناول الامام من مصر مرتبا محترما يوازى المرتب المعين لشريف مكة وأن مثل هذا الاتفاق يمكن أن يوافق عليه محمد على » والامام الناصر عبدالله من جانبه كما لو كان يدرك رأى القيادة المصرية هذا فهو فى رسالته يذكر مبطنا «... ففى اليمن من الغوغاء والقبائل ما لا يطفئ نارها إلا تدبيرنا بقدر الله سبحانه وتعالى ومن الريش والتخليط مالا يصلحه إلا سعينا بمشيئة الله ليلهم إلينا لأمرنا فقبائل اليمن قد الفت الفساد وسلكت سبيل العناد لأول وهلة وكتبهم إلينا فى كل حين والواصلون منهم إلى مقامنا ما زالوا يحثوننا على المنازعة وكأنهم لنا ناصحون ونحن بحمد الله على بقاء الود لحامى حمى الحرمين وبها أن شاء الله واثقون فائزون ....» ولم يكن ثمة من نتائج لبعثة السيد عبدالرب اسماعيل فقد اصبح الصراع المصرى - البريطانى على اشده وسيطرة السياسة الاستعمارية البريطانية على الموقف ليس فقط فى احتلال عدن والتحكم فى الملاحة فى الخليج العربى والبحر الأحمر لحماية مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية بل وفى التآمر والعمل السريع على قصر محمد على باشا على حكم مصر وحدها والقضاء نهائيا على أحلامه فى «إقامة الدولة العربية الموحدة فى المشرق العربى» ولم تكن بريطانيا فى حاجة إلى ذريعة تحتل بها عدن فقد كانت تدبر لذلك منذ زمن ومع ذلك فقد استغلت حادثة السفينة الهندية التى كانت تحمل علمها التى جنحت فى عدن ونهبت فى يناير ١٨٣٧ تمهيد لمجئ الكابتن «هنيز» فى مطلع العام التالى لتفاوض والاتفاق مع سلطان لحج على التنازل عن عدن [٥٢].

جاء الكابتن هنز فى عام ١٨٣٨ إلى سواحل عدن وكانت اتصالات سابقة قد تمت بين هنيز ومشايخ القبائل المجاورة «لعدن» الذين قدمت لهم الهدايا واستنتج محمد على من اخبار اتصالات بريطانيا بشيوخ القبائل العربية نيات بريطانيا الخفية ومخططها المضاد لسياسته فارسل إلى ابراهيم يكن يطلب منه منع هذه الاتصالات وعدم السماح لأحد من ارباب الحرف بالتنقل ما بين «المخا» و «عدن» ولكن بريطانيا افصحت فى ذات الوقت عن نياتها إزاء تقدم جيوش محمد على فى اليمن خاصة وأن تقارير قناصلها أكدت لها أن محمد على يعمل «لاحتلال مدخل البحر الأحمر وسواحل حضرموت» ورغم أن رد محمد على أكد بأنه ليس له مأرب فى التوسع خارج البحر الأحمر وأنه لايريد أن يمد املاكه شرقى صنعاء فان بريطانيا كانت قد أعدت العدة لاحتلال عدن وقطع خط الرجعة عليه بعد أن اتضحت لها أهمية هذا الميناء الاستراتيجية ذات الأهمية فى مواجهة التحديات المعادية لبريطانيا سواء من جانب روسيا أو فرنسا فضلا عن الأهمية التجارية وبخاصة تجارة البن والقضاء على المنافسة الامريكية بعد أن بدت خطورتها وقد قامت بريطانيا بعمليات ضغط سياسى وحربى فى عدن قبل عملية الهجوم ولكن هذه العمليات لم تؤت الثمرة المرجوة منها فلم تجد أمامها من سبيل سوى القيام بعملية الهجوم العسكرى على عدن وذلك بعد فشل جهود الكابتن «هنيز» الذى كان قد عاد إلى عدن للمرة الثانية فى ٢٤ اكتوبر ١٨٣٨ لجس النبض فى تسليم المدينة دون مقاومة فقد تراجع لينتظر وصول قطع الاسطول البريطانى التى تحمل جنود الاحتلال لتنفيذ قرار الوزارة البريطانية فى لندن فى أن تتخذ حكومة الهند الاجراءات العسكرية كافة للاستيلاء عنوة على عدن وبالفعل وصلت قطع الاسطول فى ١٦ يناير ١٨٣٩ وطلب منها هنيز قصف عدن بالمدافع صباح ١٩ يناير وبعد ساعتين تهدم الحصن وفر المدافعون وخلت المدينة من معظم سكانها ثم نزل جنود الاحتلال إلى الميناء ورفع العلم البريطانى على قصر السلطان وقد واجه الاحتلال ردود فعل عنيفة وغارات متعددة من القبائل اليمنية المجاورة . واصبح «هنيز» أول معتمد سياسى بريطانى فى عدن واستمر حتى عام ١٨٥٤ .

قام الكابتن «هنيز» بعد أن استقر به المقام فى عدن بابلاغ ابراهيم يكن باستيلائه عليها حتى لايضعها ضمن مخططه التوسعى قائلا له «لى الشرف أن أفيدكم بأن عدن أصبحت ملكا للحكومة البريطانية منذ ١٩ يناير ١٨٣٩ وقد حالت مشاغل كثيرة دون افادتكم بهذا النبأ السعيد واتمنى أن تكونوا متمتعين بكامل الصحة » وبدأت بريطانيا تتبع سياسة

واضحة إزاء سياسة محمد على التوسعية هدفها الحد من هذه السياسة والوقوف فى وجهها سواء فى اليمن أو غيرها من المناطق ولكنها كانت أكثر وضوحا فى اليمن والخليج العربى لاصطدام هذه السياسة بمصالحها الحيوية ، وقامت السياسة البريطانية بعد أن نجحت فى اتخاذ عدن قاعدة لها على اتباع اسلوب الضغوط الاقتصادية والسياسية للاضعاف من نفوذ محمد على فى اليمن واضطراره إلى الانسحاب منها واقصائه عن البحر الاحمر والطريق الحيوى لمصالحها التجارية والسياسية فى الشرق ولذا فان الكابتن «هينز» المعتمد السياسى البريطانى فى «عدن» قام بعدة ضغوط اقتصادية وسياسية فى هذا المجال وهى فيما يلى (٥٣):

أولا : الضغوط الاقتصادية

تمثلت الضغوط فى عدة تصرفات قام بها «هنيز» للاضرار بالمصالح الاقتصادية التى كانت تستفيد بها حكومة ابراهيم يكن فى اليمن وأهم هذه التصرفات :

١- السعى الجاد فى تحويل التجارة اليمنية إلى «عدن» بدلا من الموانئ الأخرى ومنها «المخا» التى كانت خاضعة لنفوذ حكومة ابراهيم يكن بهدف حرمان هذه الحكومة من الارباح المادية التى تعود عليها من وراء هذه التجارة مما يؤثر على وضعيتها الاقتصادية ويضعف من نفوذها ويجعلها عاجزة عن القيام بمهامها .

٢- مراسلة امام صنعاء ومحاولة اقناعه باصدار «أمر إلى التجار بأن يسوقوا بضائعهم نحو عدن بدلا من سوقها لبنادر اليمن فانه فى ذلك نفع عظيم من جهتين كما لايخفى ذلك بادنى ملاحظة» وواضح أن الهدف من وراء هذه المحاولة الاضرار بدخل موانئ التابعة لنفوذ محمد على بتحويل التجارة عنها إلى عدن .

٣- نجح «هينز» نتيجة للمحاولات المستمرة فى تحويل تجارة البن من «المخا» إلى «عدن» حتى اضطر ابراهيم يكن إلى الشكوى من النقص الشديد الذى اصاب دخل جمارك المخا مما ترتب عليه عدم الوفاء بصرف مرتبات الموظفين فى مينائى «المخ» و «الحديدة» لمدة عشرين شهرا وومما ساعد هينز فى هذا المضمار أن التجار الذين كانوا يتاجرون فى البن فى موانئ اليمن من الهنود وغيرهم أى من الفئات التى يهمها الكسب فى المقام الأول دون النظر إلى من يتعاملون معه فضلا عن أنهم كانوا يعتبرون رعايا بريطانيا نتيجة لتبعية الهند لبريطانيا .

٤- عمل «هينز» على إذكاء روح العداء والصراع بين قبائل جنوب اليمن وتمزيق الجبهة الداخلية المجاورة لعدن حتى تسهل عليه مهمة السيطرة عليها وانصياعها لتوجيهاته ضد سياسية حكومة ابراهيم يكن الاقتصادية .

٥- محاولاته المستمرة لعقد معاهدات صداقة مع زعماء القبائل بحجة حمايتهم وحماية مصالحهم التجارية من تهديدات القوات المصرية التى اقتربت من مناطق نفوذهم وقد كان لمحاولاته هذه تأثيرها حتى أن شيخ قبائل «الحجرية» القوية طلب هذه الحماية فى أغسطس ١٨٣٩ تلك هى اهم الضغوط الاقتصادية التى مارسها «هينز» المعتمد السياسى البريطانى فى «عدن» ليعمل عن طريقها على تصفية الوجود المصرى فى اليمن اقتصاديا وعسكريا وسياسيا ومن أجل تحقيق هذا الهدف فانه إلى جانب هذه الضغوط الاقتصادية المحلية لجأت إلى ضغوط أخرى هى الضغوط السياسة .

ثانيا : الضغوط السياسية

فى الوقت الذى كان فيه هينز يمارس ضغوطه الاقتصادية المحلية فى اليمن ضد حكومة ابراهيم يكن فان الحكومة البريطانية عملت على ممارسة ضغوط سياسية أكثر حسما ضد محمد على لاقناعه بسحب قواته من اليمن والابتعاد عن عدن وجنوب اليمن التى أصبحت منطقة خاضعة لنفوذها المباشر وقد تمثلت هذه الضغوط فى :

١- طلب عن طريق ممثلها فى القاهرة «كامبل» من محمد على سحب قواته من اليمن ولكن «بوغوص» الذى كلفبالرد على هذا الطلب أبلغ «كامبل» فى أواخر أكتوبر ١٨٣٩ «أن الباشا مشغول بشؤون على جانب كبير من الأهمية فى الوقت الراهن وسوف ينظر فى المسألة اليمنية فى الوقت المناسب » . ضاق «بلمرستون» وزير خارجية بريطانيا من ردود محمد على على المجاملة وقرر اتباع اسلوب خال من المجاملات فى تلك المسائل الحساسة فاستدعى «كامبل» من القاهرة وعين بدلا منه كولونيل «هودجز» وطلب منه أن يبتعد عن اسلوب المجاملة فى التعامل مع محمد على «واستخدم لغة الحزم والعنف مع محمد على لاقناعه بالجلاء عن اليمن «ولكن على ما يبدو فان هذه اللغة لم تجد قبولا لدى باشا مصر ولم تؤت ثمارها معه فلجأت إلى أسلوب أكثر تأثيرا على مصير دولته بأكملها وهو التحالف الدولى ضده .

٢- التحالف الدولى : استغلت بريطانيا تجدد الصراع بين محمد على والسلطان العثمانى عام ١٨٣٩ وأثارها انتصاره على الدولة العثمانية فى معركة «نزيب» فى ٢٤ / ٦ / ١٨٣٩ فتحالفت عليه مع القوى الدولية الأخرى روسيا والنمسا وبروسيا وألبت الموقف الدولى ضده فشغل بالموقف المضاد له تماما « وتضاءلت مسألة الوجود المصرى فى اليمن إزاء هذا الموقف وهذا ما كانت تتطلع إليه بريطانيا وزداد ضغطها الدولى ضده حتى شعر بعد معاهدة لندن ١٥ / ٧ / ١٨٤٠ بأنه فى حاجة إلى تجميع قواته المتفرقة فى الحجاز ونجد واليمن واضطر إلى اصدار أوامره إلى قادة هذه القوات بالانسحاب وكان ابراهيم يكن أحد هؤلاء القادة الذين صدرت لهم الأوامر باجراء الترتيبات اللازمة لسحب قواته من اليمن وتسليم امور الحكم فى المناطق التى كانت خاضعة لنفوذه إلى الشريف حسين بن على بن حيدر شريف «المخلاف السليمانى» الذى اعتبر حاكما شرعيا للمنطقة الساحلية المطلة على البحر الأحمر ليحكمها من قبل السلطان العثمانى وبذلك أنهت بريطانيا منافسة محمد على الخطيرة لها فى اليمن عن طريق التحالف الدولى المضاد له .

ثالثا : الوضع فى حضرموت فى النصف الأول من القرن التاسع

قامت النهضة الاصلاحية السلفية العلوية نسبة إلى السلف الصالح من ذرية آل بيت أحفاد الامام الحسين بن على رضى الله عنهما لإقامة دولة اسلامية تحت ظل الشريعة المحمدية فى وطنهم حضرموت والتى على رأسها امام السلفيين العلويين من آل بيت الامام طاهر بن حسين العلوى وأنصاره الذين كانوا يعيشون معها وقبلها وبعدها هم فى شغل شاغل وجهد متواصل مرير لاقامة هذه الدولة الاسلامية وقدموا تضحيات مادية وأدبية وأدوا بها واجبهم وأرحوا ضمائرهم .

انتخب الامام طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى وهو شخصية شهيرة مثالية فى التقوى والعلم والزعامة الدينية ونصرة المظلوم وبايعه اماما أعيان الشعب بداخل حضرموت عام ١٨٠٥ واتخذ «المسيلة» مقرا له بعد أبيه وهى مصيف يبعد عن مدينة «تريم» ستة أميال إلى الجنوب وقد قبل البيعة ولقب بناصر الدين ودعى بأمير المؤمنين ونهض بأعباء السلطة الملقاة على عاتقه حين لم يجد لا هو ولا قومه ولا علماء الدين وأعيان حضرموت أى طريقة لإقامة دولة يتصدى لرئاستها من أبناء السلالات المسلحة ذات العصبية القبلية وبعدما مرت بهم التجارب المريرة فى هذا السبيل وقد علقت عليه وعلى مكانته الروحية وشخصيته القوية

الآمال وتقلد كثير من العلويين السلاح تحت رئاسته على خلاف تقاليدهم وقالوا أن الواجب الدينى والوطنى يستلزمان حمل السلاح وانضم إليه معهم كثير من القبائل وجعلوا هدفهم نصرة الحق وتنفيذ أوامر الشريعة الاسلامية وحماية الضعيف وكان يشبه إلى حد كبير الكثير من أبائه السلفيين من آل البيت الذين قاموا وثاروا ضد ظلم واقطاع الامويين والعباسيين بدافع تقاهم وديانتهم لاقامة دولة على أساس العدالة الاجتماعية وفى دائرة الشريعة الاسلامية وهم يقدمون مبادئهم الدينية المثالية على الوسائل السياسية والمخادعات الدبلوماسية ولايدينون بالمثل القائل «الغاية تبرر الوسيلة» ولايهمهم أن لا تنجح جهودهم السياسية ما دام فيها هدم للقيم الخلقية وللمبادئ الاسلامية الشريفة ومغالطة للضمير مثله مثل اجدادهم السلفيين كالامام على بن ابى طالب وابنه الامام الحسين والامام زيد بن على ومحمد النفس الزكية وفى سيرتهم يجد الأمثلة الكثيرة على ذلك حرصا على المبادئ والقيم الخلقية حتى لاتضيع ، ففى امكان الامام على رضى الله عنه أن يبقى معاوية على الشام ويداريه وفى امكان الامام الحسين أن يتوقف عن المضى إلى «الكوفة» حين بلغه مقتل مسلم بن عقيل وفى امكان الامام زيد بن على أن يلاطف غلاة الشيعة ليبقيهم فى صفه وفى امكان محمد النفس الزكية أن يؤخر القتال ضد جيش المنصور إلى الليل ليفر إليه بعض القواد ولكنهم لم يفعلوا شيئا من هذا مع المشبوهين بينما يعد لوفعلوه نوعا من الدهاء الذى يفرضه العرف السياسى فى نظر الكثير فماذا ؟ وهذا راجع إلى الحفاظ على القيم الانسانية المطلوبة للحياة السعيدة الفاضلة التى يحاولون ايجادها بالعمل بين بنى البشر ولايريدون بيع الدين بالدنيا كما يقولون والعاقبة للمتقين . فالامام طاهر اشبه بهذا النوع من الأئمة وان تنشئته تنشئة صوفية فيها التخلى من الرذائل والتحلى بالفضائل وفيها الهواية للتبحر والتفرغ للعلوم والعبادة أكثر من السياسة [٥٤].

تحمل الامام طاهر تبعات ومسؤليات الحكم فى قطر كحضرموت فى كل شبر منه قبيلة تعادى الأخرى وتجزأت مناطقه إلى أجزاء صغيرة مهلهلة مبعثرة ولهذا فان الامام طاهر كان لايريد سوى القيام بدور انتقالى يمهد السبيل لاقامة دولة قوية عامة تشمل جميع حضرموت وتنقله من حياة الفوضى والاضطراب إلى حياة الامن والاستقرار ويفضلون أن يكون على رأسها فيه الاستعداد من القطاع القبلى لها . وقد ولد الامام طاهر عام ١٧٧٠ وتوى عام ١٨٢٥ ونشأ فى بيئة علم وفضل وتقى واصلاح ودرس هو وشقيقه عبدالله العلوم الشرعية

والعربية والعقلية على أئمة كبار حضارمة وعمانيين وحجازيين واشتهرا بالتفوق فيها وامتاز الامام طاهر بالهيبة مع التفوق العلمى والخلقى على أقرانه واسرته كلها أسرة علم واستقامة وكتب وألف فى الشريعة والتصوف والأدب والأذكار وكان شاعرا وخطيبا وتعطينا معاهداته وخطاباته مع القبائل صورة حسنة للغة التخاطب التى تكتب بها المعاهدات العسكرية مع بلاغة الأسلوب وقوة العبادة بالنسبة لعصره وانتصب للتدريس والتثقيف والتربية فى نفس الوقت الذى يزاول فيه تجميع وتنظيم جنود ويشرف على تدريباته العسكرية وقد انضمت إليه قبائل آل كثير وآل تميم وآل جابر وكتبت بينه وبين هؤلاء معاهدات ومواثيق على تنفيذ أحكام الشريعة الغراء والانضواء تحت لوائه كاخوانه العلويين امضى عليها زعمائهم كما وجه إلى كل من الكسادى وابن بريك اميرى المكلا والشحر مندوبه وكتبه لاصلاح الحالة ومنع التوتر بينهما فتم له ما أراد ونفذ حكمه فى مناطق اتباعه كلها فأمن من القتل ورفع من الظلم ووسع من نشر العلم وانعاش الزراعة . ومما يؤسف له أن هذه النهضة المباركة لم تدم طويلا فكان عمرها أقل من عقد واحد وخمدت جذوتها ثم انتهت إلا أن مبادئها بقيت فى صدور رجالها وهى العمل لتأسيس دولة رشيدة لحضرموت ومن أسباب خمودها ما يلى (٥٥):

١- عدم تمكن زعيم هذه الحركة واخوانه من التفرغ التام لها بحيث لايشغلهم أى شئ سواها فانهم يرون أنفسهم مضطرين للقيام بأعمال أخرى لاتقل فى نظرهم عنها كنشر العلم والثقافة وتدبير أمر المعاش والتعبد هذه الاعمال التى أخذت من اشغالهم السياسية الشئ الكثير .

٢- مثالية زعيم هذه الحركة ومثالية كبار أعوانه وكثيرا ما يصاحب الحركات السياسية والعسكرية التى يقوم بها المثاليون قصر العمر لأنهم لايؤمنون بالمثل القائل الغاية تبرر الوسيلة فلا يستخدمون إلا الوسائل الشريفة النظيفة .

٣- تقصى التمويل المطلوب لها من الداخل والخارج وكل حركة لاتدعم بالمال الكافى تكون نهايتها الاخفاق فقد كانت فى حضرموت دويلات تموت من الفقر وأخرى تحيا بالثروة والغنى فقد جاء فيما بعد سلطنة كل من الكثيرى والقعيطى وهما تمولان وتمدان من الخارج من «حيدر اباددكن» بالهند باموال مؤسيسها ووانصارها فكان هذا سببا لما حصلتا عليه من استقرار .

٤- تغلغل الظلم والجهل والفوضى القبلية بحيث أصبح ذلك جزءا من طباع افرادها

وجماعاتها تعيش وتحيا وتموت عليه فلايمكن تغييره بوسائل الحسنى والمعاهدات والعظات بل ولا بالقوة وحدها إلا أذا عضدتها وسائل تشغيل أوليك الظلمة العاطلين بما يضمن لهم حياة افضل .

لم تخف هذه العوامل وغيرها على هذا الزعيم الدينى الذى لم يكن غرضه أن يتربع على منصة الحكم أو أن يؤسس له شخصيا سلطنة أو دولة ولم تستهوه المظاهر وإنما كل غرض نصرة الشرع ومحو الظلم والفساد من حضرموت وقد اتخذت حركته هذه وسيلة لهذا الهدف فرأى أن الظروف غير مناسبة وأن هذه التجربة غير مجدية فانسحب من الميدان بنظام فألف لجنة من زعماء العلويين وزعماء القبائل التى تناصره للسير فى الطريق التى اختطها وكتب لهم تعليمات وتوصيات بذلك ولكنهم لم يستطيعوا فى النهاية تحمل هذا العبء الثقيل فحطوه عن كواهلهم امام الامام طاهر فبعد أن استعفى من مهمته السياسية كرس ما بقى من وقته فى التربية والتعليم والعبادة وغير من المنافع العامة حتى توفى .

١- الحياة الاجتماعية فى حضرموت

سارت الاحوال الاجتماعية من سيئ إلى الأسوأ وكان من الطبيعى أن لايحدث تطور أو تقدم فى الحياة العامة بهذا الدور وقد نشطت فيه حركة الهجرة من حضرموت إلى مهاجرها فى الهند واندونيسا وشرق افريقيا بصورة واسعة ومن بقى فيها فانه يضطر إلى مفارقة القرى التى تتعرض للهجمات والارهاب إلى المدن التى هى اقرب إلى السلامة من ذلك كما هاجر كثير من تجار «شبام» إلى «حوطة احمد بن زيد» وقد يحدث العكس فيهاجر سكان المدن إلى القرى الآمنة نوعا ما فرارا من الظلم والفتن كما هاجر كثير من أعيان «تريم» إلى القرى المجاورة وفشلت حركة التجارة لأن كبار التجار خافوا على أنفسهم وعلى أموالهم فكانوا من ضمن المهاجرين أو الفارين وفيهم جماعة من الهنود «البانيان» الذين كانوا قد انتقلوا من الهند لغرض التجارة أو الصياغة بحضرموت وتأثرت الزراعة وخاصة غراسة النخيل بعض التأثير ولولا اضطرار الزراع والعمال الذين قل أن يعرفوا الهجرة إلى الخارج لمزاولة هذه المهمة الحيوية ومخاطرتهم فى سبيلها وتشجيع أرباب الأموال لهم عليها لتوقفت كما تقلص العلم والتعليم لتعطل المحافل العلمية وتعثر سير كثير من الدروس الثقافية التى كانت تعقد فى المساجد والزوايا والمعاهد إلا أن معظم كتاتيب الاطفال استمرت فى بعض أحياء المدن والقرى

وبلغ الحال فى بعض الاحيان إلى تعطيل صلاة الجمعة لمدة أشهر أو تعددها ومن ذلك ما حدث فى مدينة تريم فى أوائل القرن التاسع عشر حيث صلى أهلها ثلاث جمع فى ثلاث حارات من شدة الخوف فقد صلى فريق فى الجامع العام وهم سكان قلب المدينة التى يسيطر عليها أسرة «آل غرامة» واتباعها وصلى سكان « «النويدرة» المسيطر عليه ابن عبدالقادر واتباعه فى مسجد «الزاهر» وصلى حى «الخليف» (بالتصغير) و «عيديد» ويسيطر عليه «ابن همام» واتباعه فى مسجد «فضل بامقاصير» والمسيطرون هم بن «لبعوس» التى تتطاحن وتتآكل بالقتال داخل «تريم» وترهب سكانها وبقيت من الثلاث مشيخة «غرامة» حتى أجلتها السلطنة الكثيرية فاستولت عليها بعد قتال مرير تتخلله هدنة وصلح . وبرز فى هذا الدور قلائل من العلماء فى حين اطبق الجهل وعم معظم مدن حضرموت ومنهم سبعة علماء فى هذا الدور جمعوا بين العلم والثقافة والصدارة والتصوف والتدريس والتأليف والاصلاح الاجتماعى ينضم إليهم علماء آخرون من هذا اطراز كالامامين الكبيرين الحسن بن صالح البحر المقيم فى «ذى اصبح» والمتوفى بها عام ١٨٥٦ واحمد بن عمر بن سميط المقيم فى «شبام» والمتوفى بها عام ١٨٤١ وعلوى بن سقاف الجفرى المقيم فى «تريس» والمتوفى بها عام ١٨٥٥ والمحسن بن علوى السقاف المقيم فى سيؤن والمتوفى بها عام ١٨٧٥ واحمد بن على الجنيدى المقيم فى «تريم» والمتوفى بها عام ١٨٥٨ أما العبادلة السبعة فهم كما يلى[٥٦]:

الاسم	الموطن	الوفاة
عبدالله بن ابى بكر عيديد	تريم	١٨٣٩
عبدالله بن سعد بن سميد	خلع راشد	١٨٤٥
عبدالله بن على بن شهاب	تريم	١٨٤٧
عبدالله بن عمر بن يحيى	مسيلة آل شيخ	١٨٤٨
عبدالله بن حسين بلفقيه	تريم	١٨٤٩
عبدالله بن احمد باسودان	الخريبة دوعن	١٨٤٩
عبدالله بن حسين بن طاهر	مسيلة آل شيخ	١٨٥٥

وقد قام كل من هؤلاء العلماء وآخرون غيرهم بدور بارز فى مكافحة الظلم ونصر الضعيف واصلاح ذات البين بواسطة الاتصال الشخصى والجماعى بالمناصب وشيوخ القبائل وشاركوا مشاركة فعالة فى النهضة الاسلامية للامام طاهر بن الحسين وكيف لا ومنهم أقربائه وزملاؤه وتلاميذه وبالتالى شاركوا فى الحركات والنشاطات المتوالية لتقويض القوى القبلية واقامة دولة قوية فى حضرموت حتى تأسست السلطنات الكثيرية والقعيطية فيما بعد ، ومن هؤلاء العلماء من قتل ومنهم من سجن ومنهم من هدد بالقتل إلى غير ذلك من صنوف الأذى ولكنهم تحملوا كل هذا بصبر وجلد فى سبيل الدين والوطن وهؤلاء العلماء وغيرهم امتازوا أيضا بالانتاج الفكرى والأدبى وبالزعامة الاجتماعية وبالتقوى والاتساع فى العلوم والمعارف بحيث يمكن الكتابة عن حياة كل فرد منهم فى مجلد أو أكثر ويعتبرون المع النجوم الهادية فى هذا العصر المظلم وهناك زعيم اجتماعى آخر فى هذا العصر هو الحسين بن عبد الرحمن بن سهل المتوفى «بالشحر» عام ١٨٥٧ والذى اشترى مدينة «تريم» من الشيخ عبدالله عوض غرامة بعشرة آلاف ريال نمساوى وله اعمال كثيرة فى الكرم والاحسان والشجاعة والاصلاح ومواساة الفقراء .

ضرب عملة بحضرموت وهى فضية ونحاسية وقد جزء الريال النمساوى إلى نصف أوقية تقريبا وزنا ويضاهى الريال قيمة والى مائة وعشرين سنتا يسمى السنت «خمسية» وكان الضرب يتم فى احدى المدن النمساوية حتى عام ١٨٤٢ حيث ارسل القالب أى قالب العملة إلى حضرموت فى مدينة «الشحر» وكان التعامل بالريال النمساوى بحضرموت منذ أواخر القرن الثامن عشر كما انتقلت بعض النقود الدولة الرسولية اليمنية إلى حضرموت فى هذه الفترة ولكن عملة السلطان بدر ابى طويرق الكثيرية كانت أكثر شيوعا حتى تناقصت ووصل الحال ببعض المقاطعات «كدوعن» إلى التعامل «بالحب» وهو طعام «الذرة» يجعلونه مقياساً للائتمان فى البضائع الغير مهمة ومع هذا كان «للعمودى» عملة متداولة فى «دوعن» تقرب فى بعض وحداتها من عملة بن سهل كما كان «الكسادى» عملة بالساحل وقد استمر التعامل بعملة «ابن سهل» حتى تناقصت وقلت فصك الشريف شيخ بن عبدالرحمن الكاف الثرى الشهير عملته عام ١٨٩٧ على غرار عملة «ابن سهل» وهو الضامن لها كما كان يضمن صاحب كل عملة عملته وللسلطان القعيطى فيما بعد كانت له عمله معروفة ، وعندما استولى عمر عبيد بن عبدات الكثيرى على مدينة «الغرفة» باسم أخيه صالح صك له عمله

خاصة أجرى التعامل بها فى منطقة «الغرقة» وكل هذه العملات المحلية انتهى امرها عام ١٩٤٣ بوجود «الروبيات» الهندية ثم «الشلنات» الافريقية عام ١٩٥١ ثم عملة الجنوب العربى عام ١٩٦٣ وهى «دينار» المربوط بالجنيه الاسترلينى بعد تغطيته بما لا يقل عن ٩٠٪ ذهبا . أما بالنسبة للنقل بين الساحل والداخل فقد كان من حسن حظ السكان أن تقوم بعض العشائر البدوية بنقل البضائع والمسافرين فيما بين الساحل والداخل على جمالهم وهم خفراء والمسؤلون عنها كما كان بأجرة يتفق معهم عليها بواسطة الدلالين وتختلف باختلاف الفصول ولعل هذا هو سبب تسميتها «بالفصل» وهذا هو الذى ضمن استمرارها وسلامتها من النهب والسرقات فى الطريق ، أما الصناعة والزراعة وكذلك العادات والتقاليد فهى لم تختلف كثيرا عما كان فى الفترة الماضية فى القرنين السابع والثامن عشر فى حين قل الاهتمام بعلم الطب ويكاد يكون مفقودا إلا فى تجبير الكسور فى العظام والرضوخ وعلاج الاصابات وخصوصا اخراج الرصاص من الجسد وقد تقدموا فى ذلك بفضل التجارب المستمرة ولهم تجارب طبية أخرى عامة كما كان لأبناء العصور الماضية مثل الطبيب المشهور على زين العابدين العيدروس [٥٧].

٢- امارة الكسادى فى المكلا

قامت امارة الكسادى لأول مرة فى «المكلا» لقد كانت الشحر هى المدينة الأولى فى ساحل حضرموت من حيث اتساع رقعتها وكثرة سكانها ومركزها التجارى والسياسى لكونها اهم الموانئ التى تصدر منها وترد إليها حاصلات البلاد ووارداتها ولأن الحكومات الحضرمية التى تستقل بشؤن الساحل تتخذ الشحر عاصمة لها والحكومة التى تتخذ عاصمتها فى الداخل ويمتد سلطانها إلى الشواطئ الجنوبية تجعل من الشحر العاصمة الثانية لحكومتها فعظم بذلك شأن هذه المدينة واقبل التجار والعلماء والأدباء على الاقامة بها والتردد إليها فلم تستطع لذلك أية مدينة ساحلية أن تنافسها أو تبرز معها فى مضمار ولم تكن «المكلا» أثناء هذا التاريخ الطويل أكثر من قرية صغيرة تتكون بيوتها من أكواخ صغيرة يسكنها صيادو الاسماك وظلت كذلك حتى بدأت العشائر اليافعية تتمركز فى أهم مدن الحضرمية على أنقاض الحكم الكثيرى الذى تداعى وتلاشى وكانت «المكلا» من نصيب قبيلة «آل كساد» وقد استطاع الأمراء من آل كساد أن يلفتوا الانظار إلى مدينتهم ويحببوا إلى الناس الاقامة بها بفضل ما عرفوا به من حسن المعاملة والتساهل مع التجار فى فرض الضرائب

فأخذ عدد سكان المكلا فى الارتفاع وقصدها الناس كسوق للتجارة وبناء يستغنون به عن الذهاب إلى الشحر وهكذا اصبحت المكلا الميناء الثانى بعد الشحر من حيث الاهمية وقوة التجارة واقدم من يعرف من آل كساد هو التقيب صلاح بن سالم وقد تولى الامارة بعد وفاته ابنه عبد الرب ثم اخوه عبد الحبيب ثم محمد بن عبد الحبيب ثم صلاح بن محمد عبدالحبيب وكانت كلمة النقيب لقب معروفا يطلق على كل امير من آل كساد وكان النقيب صلاح منذ تولى الامارة شاعرا بضيق مساحة امارته التى لم تكن تتجاوز أكثر من ضواحى المكلا ومنها «بروم» و «فوة» و «البقرين» و «الحرشيات» فظل يترقب كل فرصة لتحقيقآماله فى التوسع والاستيلاء على أكبر رقعة ممكنة (٥٨).

٣- امارة «آل بريك» فى الشحر

قدم إلى «الشحر» عام ١٧٥١ من «حريضة» سبعة أخوة أبناء عمر بن بريك وكان ناجى أكبر اخوانه فقصدوا حارة «المجرف» وسكنوا بها وكانت الشحر إذ ذاك يتنازع النفوذ فيها عشائر متعددة من يافع حتى اصبحت المدينة فى فوضى عانى الاهالى منها مالا يطاق من الفتن والجور والعنف والقسوة الامر الذى جعل هؤلاء الاخوة من «البريك» يرون فى هذه الفوضى أكبر تشجع لهم فى محاولة الوصول إلى حكم «الشحر» وكان أول ما فكر فيه آل بريك القيام بعقد اتفاقات واحلاف مع قبيلة «الحموم» وغيرهم من القبائل الحضرمية التى تعيش فى المنطقة المحيطة بمدينة الشحر لكى يأمنوا عدوانهم على الأقل ثم أخذوا يتقربون من البادية والاهالى ويتحببون إليهم بما عرفوا به من الأخلاق الكريمة فأحبهم الناس وطبيعى أن يتخوف منهم اصحاب السلطة فى المدن وأن يقدروا خطر هؤلاء المنافسين الجدد وأن يفكروا فى التخلص منهم ولكن الاختلاف فيما بينهم كان معجلا بنهايتهم ومعطيا الفرصة لآل بريك فى تثبيت اقدامهم وتعزيز مركزهم فقد استطاعوا أن ينشؤا فى حى «المجرف» ميناء صغير على البحر ويبنون حصونا فى رباط «باجوبان» فى الجانب الشرقى من المدينة وحفروا آبار فى «العيص» خارج المدينة ثم خطوا الخطوة الأخيرة فجعلوا اخاهم الأكبر ناجى بن عمر اميرا عليهم وأسندوا إليه القيام بتصريف شئون الامارة الناشئة وقد استطاع هذا بفضل حكمته أن يسكت معارضيه من يافع ويتغلب عليهم بعد حوادث وحروب جرت بينه وبينهم وكان «لابن معوضة» حصن فى «مرير» خارج الشحر جعل فيه جماعة من اصحابه لأخذ الضريبة على الأموال المارة بهذا الموقع من «المكلا» و «غيل باوزير» وكان يستعين بهذه الجباية فى حروبه

مع «آل بريك» ومقاومته لهم وقد ظل الأمير ناجى بن عمر متابعا محاولاته لاخضاع «ابن معوضة» حتى توفى عام ١٧٧٩ وقام بالأمر بعده ابنه على بن ناجى الملقب «بالقحوم» وكان شجاعا نابها وضيق عليه الخناق وحاصره محاصرة شديدة قطع عليه بها جميع السبل حتى اضطر إلى التسليم وعقد صلح دخل بموجبه تحت طاعة آل بريك كانت غيل باوزير فى تاريخها السياسى تخضع للسلطة التى تتولى «الشحر» بحكم اضطرارها إلى هذا الميناء فى توريد حاجياتها الضرورية وكمالياتها فخضعت لسلطنة آل كثير حكام الشحر قبل استيلاء يافع عليها ثم استقل من بها من قبائل آل همام وآل عمر باعمر بشئون مدينتهم متعاونين مع المشايخ آل باوزير اصحاب النفوذ الروحى فى المنطقة حتى تكونت امارة آل بريك بالشحر وحاول هؤلاء ضم هذه المنطقة إلى امارتهم والتدخل فى حكمها مباشرة فابدى النقيب محسن بن جابر بن همام معارضة فى ذلك وانضم إليهم آل عمر باعمر وساندوه فى حركته وجمع الامير على ناجى جيشا من الشحر للهجوم على «غيل باوبزر» وكانت هذه الحملة مزودة بالمدافع ومعدات حربية تضمن اسكات عبدالرب الكسادى وبذلك استولى آل بريك «لغيل باوزير» وحاول النقيب محسن بن جابر أن يقوم برد فعل لهذه الحادثة فقد استطاع ان يقنع النقيب عبدالرب الكسادى بضرورة مساعدته فى الهجوم على الغيل واسترجاعها من «آل بريك» وتجهز النقيب من «المكلا» على رأس عدد كبير من العساكر وبينما هم بموضع «الحدبة» أسرع «آل بريك» لصد هذه الحملة وهاجموا معسكر الكسادى «وابن همام» وبعد معركة عنيفة كان النصر فيها حليف «آل بريك» عاد الكسادى إلى المكلا بعد أن قتل محسن بن جابر فى المعركة ، ثم تحركت بعد ذلك من المكلا حملة كبيرة من مختلف عشائر يافع للهجوم على «الشحر» طلبا للثأر من «آل بريك» ولكنها عادت دون أن تصنع شيئا فقد استطاع آل بريك أن يوقعوا فى صفوفهم خسائر كبيرة (٥٩).

توفى الأمير على ناجى عام ١٨٠٥ ودفن فى قبة الشريف سالم بن عمر العطاس بعد أن اكمل ما بدأ به والده من تثبيت الامارة ونشر هيبتها واظهار قوتها ثم خلفه أخوه الحسين بن ناجى ثم خلع نفسه بعد عامين لابن أخيه ناجى بن على بن ناجى ، وكان النقيب عبدالرب الكسادى أعد سفنا فى عام ١٨١٢ وحشد فيها جنوده وامرهم بأن يتعرضوا للسفن القادمة من سواحل افريقيا الشرقية إلى الشحر فى أيام الموسم وكانت أكثر هذه السفن لتجار الشحر وقد قامت سفن الكسادى بمهمتها وساقت جميع سفن الشحر بما تحمل من بضائع إلى المكلا،

وأعد الامير ناجي بن على العدة لحرب الكسادى والانتقام لحادث السفن واسترداد اموال الرعايا وعلم النقيب بهذا الهجوم فخرج بمن معه من الجيش للقاء «آل بريك» إلى «الحرشيات» وبعد معركة حامية تقهقر جنود الكسادى إلى «البقرين» و «الديس» واستولى «آل بريك» على «الحرشيات» وما خلفه جنود النقيب من مؤن وعتاد ثم تابعوا زحفهم واستولوا أيضا على البقرين» و «الديس» بعد أن انسحب حاميتها من عسكر النقيب إلى المكلا ومنع الجيش الزاحف الماء عن أهل المكلا فى اليوم الثالث تسلق «آل بريك» الجبل المطل على المكلا واحتلوا الحصون المشرفة على المدينة واطلقوا نيران مدافعهم على حصن النقيب وتضايق سكان المدينة وحل بهم الرعب ولم يلبث احمد بن عبدالرب بن صلاح الكسادى أن تقدم فى جماعة من اصحابه مهاجما «آل بريك» فى قمة الجبل وهم فى الحصون وحدثت مناوشات لم تؤد إلى نتيجة قتل اثناءها احمد بن عبدالحبيب الكسادى وآخرون وتوسط فى النهاية بعض الاشراف من العيدروس واحد المشايخ من آل باعمر وتم الصلح على أن تعاد جميع السفن التى أخذها الكسادى بما فيها من اموال لأهل الشحر ويعود «آل بريك» إلى حيث أتوا وبذلك انتهى النزاع واوقفت الحرب ، ولكن النقيب عبدالرب الكسادى عاد فى عام ١٨١٥ فحشد حوالى خمسة آلاف جندى وتوجه بهم قاصدا مهاجمة الشحر فعسكر «بتبالة» ثم تحرك الجيش منها للهجوم على الشحر واصطدم بآل بريك فى «المشراف» خارج الشحر وعاد الكسادى دون أن يظفر بطائل ، وفى بداية عام ١٨٢٧ توجه الأمير ناجي فى نحو مائة من اصحابه إلى سلطان عمان فى مسقط سعيد بن سلطان ومعه النقيب عبد الرب الكسادى وأنهما حكماه فى الخلاف الواقع بينهما وبعد وصولهما إلى مسقط بنحو شهر اصيب الامير ناجي بمرض الزمه الفراش ثم توفى ودفن بقرية «سداب» بالقرب من مسقط ، واسندت الامارة إلى إبنه على وكان إذ ذاك فتى صغير فنازعه عليها الامير محسن بن حسين وانقسمت ، اسرة آل بريك إلى فريقين . طال النزاع واستعرت نار الفتنة واحتدم الخلاف واستمرت المناوشات سنة كاملة اضطر أثناءها كثير من اهالى الشحر إلى الرحيل عنها وتوقفت الاعمال وتضرر الناس حتى توسط بعض الاشراف من آل العطاس وتم الصلح على أن تكون شئون الامارة خاصا بالامير على ناجي وحده دون شريك بذلك حسم الخلاف وقضى على اسباب الفتنة (٦٠).

٤- الحكم المصرى وحضرموت

تعود علاقة محمد على باشا بحضرموت إلى بدء فترة تدخله فى اليمن وأن محمد بن عقيل صاحب ظفار طلب فى عام ١٨٢٢ من محمد على باشا أن يمده بقوة لانقاذ بلاده من اعتداءات قبائل وحكام حضرموت الذين حاولوا استعادة ظفار إلى الحكم الحضرمى ولم يجد العون من حاكم مسقط سعيد بن سلطان ولا من امام اليمن حين يمم وجه شطرها لسوء أوضاعها ولذا لجأ إلى محمد على باشا يطلب العون منه كما لجأ إليه أن يعينه فى استرداد امواله التى اقترضها منه امام صنعاء وكذلك فى استرداد قرض آخرله طرف شخص يسمى الشريف زين جمل الليل وأعلن محمد بن عقيل أنه فى سبيل تلقى العون من محمد على باشا أنه على استعداد لاعلان طاعته وولاءه ولكن محمد على لم يكن يريد فى تلك الفترة أن يورط نفسه فى الصراعات المحلية فى جنوب الجزيرة العربية تقديرا منه لخطورة أوضاع القبائل على قواته فى تلك المناطق من ناحية وخشيته من ترصيد بريطانيا بقواته فى تلك الجهات التى كانت اتصالات مندوبيها برؤساء قبائلها قائمة على قدم وساق بل أنها كانت تلعب دورها فى إزكاء هذه الصراعات المحلية تمهيدا لتدخلها والسيطرة على تلك المناطق وبدأت تحذيراتها لمحمد على بعدم تدخله أو اقترابه من تلك المناطق ولذا فان محمد على كتب إلى محافظ المدينة يطلب منه أن يستخلص حق صاحب ظفار من الشريف زين جمل الليل متجاهلا مطالبه الأخرى ومؤجلا تدخله فى ظفار إلى حين ولكن هذا الحين لم يأت نظراً لتأزم الموقف الدولى ضده وسحب قواته من الجزيرة العربية قبل حلول هذا الحين (٦١).

ويرجع صلة محمد على باشا مع اقليم حضرموت منذ أن عمل اعداد كبيرة من أبناء حضرموت كجنود فى قوات محمد على التى خاضت المعارك فى «عسير» و «اليمن» حتى أن قائد عام القوات المصرية فى اليمن فكر فى اعداد قوة خالصة من الحضارمة وإشراكهم فى القوات التى كانت تقوم بحماية قلاع «ابى عريش» و «صبيا» حيث أنهم اقدر على مجابهة هجمات القبائل اليمنية فى عسير وأكثر فهما لأسلوبهم القبلى فى القتال . كما أن عدد من الرسائل وردت إلى محمد على باشا من وجهاء وأعيان وحكام حضرموت يطالبه اصحابها بالانضمام إلى الادارة التى اقامها ابراهيم يكن باشا فى اليمن ومن أهم هذه الرسائل التى يطلب اصحابها من محمد على ارسال موظفين وجنود لتنظيم أحوال حضرموت واعادة الامن إليها وكان على رأس موقعى هذه العريضة على بن عمر بن سقاف وسالم بن حماد باعبيد

ومحسن بن علوى ، وهكذا كانت علاقة محمد على باليمن شماله وجنوبه وتطلعه إلى السيطرة الكلية عله ومحاولة اسقاط نظام الامامة الزيدية ولكن الظروف لم تمكنه من ذلك حتى أجبر على سحب قواته من الجزيرة العربية .

رابعًا : الحكم المصرى وشرق الجزيرة العربية

بدأت العلاقة بين محمد على وشيوخ القبائل فى شرق الجزيرة العربية منذ عام ١٨١١ أي مع بدء حملة «طوسون» باشا إلى الحجاز وليس بوصول ابراهيم باشا إلى الاحساء فى عام ١٨١٩ ووضحت تلك العلاقات الأولى مع عمان بصفة خاصة والتى كانت فى ذلك الوقت على عداء مع النجديين حكام الدرعية وما أن علم سلطان عمان بتقديم القوات المصرية لقمع آل سعود حتى اسرع بتقديم عرض صريح إلى «طوسون» باشا الذى كان على رأس القوات المصرية الزاحفة على «الدرعية» ويقضى هذا العرض باجياد تحالف بين مصر وعمان ضد آل سعود وعندما أرسل «طوسون» باشا إلى والده محمد على يستطلع رأيه فى شأن ذلك أجاب محمد على أنه لايجد ثمة حاجة لعقد مثل ذلك التحالف ولذلك اكتفى «طوسون» باشا بطلب تأجير عشرين سفينة من عمان لأنه كان فى حاجة إلى قطع بحرية لنقل المؤن والامدادات إلى جنوده ، وقد يرجع رفض محمد على التحالف مع عمان فى أنه كان لايريد التورط فى عقد معاهدة تحالف معها حيث كان النفوذ البريطانى قد تغلغل فى تلك السلطنة ومن ناحية ثانية فان الموقف العسكرى في داخل «نجد» أخذ يتحول سريعا إلى صالحه عام ١٨١٣ مع توالى الانتصارات التى حققتها القوات المصرية فى نجد رغم المشكلات الكبيرة التى تعرضت لها فقد نجح ابراهيم باشا فى اسقاط الدرعية عام ١٨١٨ ، وبينما كان ابراهيم باشا يحاصر الدرعية وفد إليه زعماء بنى خالد برئاسة محمد وماجد ولدى عريعر بن ديجين وزينوا له فتح الاحساء على أن يكونوا نوابا على تلك البلاد وكانت هذه فرصتهم التى طالما انتظروها بفارغ الصبر فوعدهم ابراهيم باشا بذلك خاصة إن الاحساء كانت ملكهم قبل سيطرة آل سعود عليها وفى هذه الاثناء والحصار ما زال مستمرا جاءت لابراهيم باشا رسالة من والده يأمره فيها بتدمير الدرعية نهائيا وبفتح الاحساء بعد ذلك .

يبدو هنا بأن محمد على بدأ يتطلع إلى الخليج العربى فرأى أن الاحساء خير قاعدة يمكنه الانطلاق منها إلى أهدافه فى السيطرة على الخليج العربى ذلك الممر المائى الهام كما وجد ابراهيم باشا الاحساء نقطة الانطلاق للتوسع فى سواحل شرق الجزيرة العربية وهذا ما يتفق

مع السياسة المصرية التى رسمها محمد على للسيطرة على تلك المناطق فالامر لاشك فيه أن ابراهيم باشا أدرك أهمية الحساء الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة للتواجد المصرى فى نجد ولعله استجاب لطلب آل عريعر لكى يمهدوا له الاستيلاء على الحساء دون أن يكلفه ذلك الكثير من النفقات والرجال وبفضل الدعم المصرى لشيوخ بنى خالد تمكن شيوخ آل عريعر من السيطرة على الاحساء دون مقاومة وبذلك أوفى ابراهيم باشا بوعده لبنى خالد وبعد مجئ القوات المصرية فى شرق الجزيرة العربية رأت بريطانيا أن تنتهز تلك الفرصة لتضرب بشدة على قبائل ساحل عمان وكانت الخطة البريطانية تهدف إلى التنسيق بين حاكم عمان ومحمد على للقضاء على نفوذ قبائل ساحل عمان البحرى ولعل مما ساعد بريطانيا تنفيذ تلك الخطة مشاعر السرور التى عبر عنها سلطان عمان على أثر سقوط حكم آل سعود حيث أرسل كتابا إلى محمد على يهنئه فيه على الانتصارات التى أحرزتها قواته على «الدرعية» وعبر عن استعداده للتعاون معه ومن ثم بادرت حكومة بومباى بارسال أحد ضباطها وهو «جون فوستر سادلر» ومعه رسالة إلى كل من ابراهيم باشا سعيد بن سلطان تحثهما على توثيق أواصر الصداقة والتعاون فيما بينهما بهدف تحقيق الأمن البحرى فى الخليج العربى والقضاء على نفوذ قبائل ساحل عمان البحرى على أن بعثة «سادلر» لم تحرز أى تقدم يذكر لرفض محمد على التعاون مع بريطانيا لضرب اخوانه عرب ساحل عمان [٦٣].

أخذ مركز القوات المصرية فى الاحساء يهتز بشدة عندما استطاع الوالى العثمانى فى العراق ان يميل بنى خالد إلى جانبه والذى لم يكن ينظر إلى تقدم المصريين نحو الخليج العربى وبلدانه بعين الرضى وكان يخشى من أن تلتقى مطامع محمد على مع المطامع البريطانية فى المنطقة وبذلك بذل الوالى المملوكى فى العراق دواد باشا كل جهده واستطاع التأثير على الباب العالى الذى أوعز بدوره إلى محمد على بضرورة الانسحاب من الجزيرة العربية ونفذ ابراهيم باشا أوامر ابيه وأما الاحساء فقد عاد إليها بنو خالد ولاة من قبل الدولة العثمانية ويتبعون بغداد من الناحية الادارية ولاغرو فى ذلك فلقد كانوا يدينون بالولاء لوالى العراق قبل وصول القوات المصرية إلى الاحساء وانسحبت قوات ابراهيم باشا عام ١٨١٩ وتابعت تلك القوات انسحابها من نجد فى نفس الوقت مخلية البلاد للقوات العثمانية التى حلت محلها وكانت حالة نجد عند انسحاب القوات المصرية فى غاية الفوضى وعدم الاستقرار أما الاحساء فكان اوضاعها افضل من نجد إذا لم تدخلها القوات العثمانية من العراق وتركت

الادارة فيها لبنى خالد فشاع فى ربوعها الاستقرار (٦٤). وعلى الرغم من أن الخطة البرياطنية قد باءت بفشل ذريع ولم يتحقق التحالف بين محمد على وسعيد بن سلطان إلا أن العلاقات ظلت ودية بين الحاكمين وأن الأخير وفد حاجا إلى مكة عام ١٨٢٤ وهناك استقبله والى جدة استقبالا طيبا كما ارسل محمد على بعثة من كبار رجاله لاستقباله تقديرا لعلاقاته كما احسن شريف الحجاز يحيى بن سرور استقبال سعيد بن سلطان الذى وفد إى جدة على ظهر سفينته الكبيرة «ليفر بول» .

شهدت العلاقات المصرية مع شرق الجزيرة العربية أكثر اتساعا فى المرحلة الثانية إذ أنها لم تقتصر على عمان فحسب وإنما امتدت لكى تشمل معظم إدارات شرق الجزيرة العربية وخاصة الكويت والبحرين وساحل عمان وجاء هذا التواجد المصرى إلى الخليج العربى عام ١٨٣٣ نتيجة لتوقيع صلح «كوتاهية» بين محمد على والسلطان العثمانى مما اتاح تلك المهادنة انسحاب قسم كبير من القوات المصرية من آسيا الصغرى وإرسالها إلى الجزيرة العربية وتحركت بعض القوات التى كانت تتألف من عدة آلاف مقاتل من الحجاز صوب ساحل الاحساء بقيادة خورشيدة باشا حيث أحرز لجا كبيرا فى القبائل العربية تحت لوائها وعند مصب شط العرب كان مقدرا أن تلتقى هذه اقوات بالأسطول المصرى الذى كان قد ابحر من البحر الأحمر لتحقيق أهداف التوسع المصرى فى سواحل شرق الجزيرة العربية ولكن انشغال الاسطول المصرى ضد مقاومة القبائل اليمنية فى موانئ اليمن «الحديدة» و«المخا» و«القنفذة» منعها من الابحار إلى الخليج العربى .

اختلفت هذه المرحلة عن سابقها التى أيدتها بريطانيا لتحقيق أهدافها وبما أنها حققت أهدافها فوقفت ضدها فى المرحلة الثانية وعارضت التوسع المصرى بشدة بعد أن نجحت فى احتلال ساحل عمان (دولة الامارات العربية المتحدة حاليا) عام ١٨١٩ ووقعت مع شيوخ قبائلها معاهدات السلام العامة وبذلك أخذت فى تدعيم نفوذها فى المنطقة ومن ثم كان من المستبعد بطبيعة الحال أن تقبل ظهور قوة جديدة تنازعها النفوذ فى الخليج العربى وظهر ذلك واضحا فى معارضتها لأى اتصال يقوم به خورشيد مع شيوخ القبائل فى ساحل عمان خاصة حينما حاول خورشيد باشا أن يتخذ من «القطيف» مركزا للاتصال بعمان وساحل عمان والبحرين والكويت محاولا اغراء شيوخها بالانضواء تحت سيادة مصر حيث لقيت هذه المحاولات معارضة شديدة من بريطانيا التى قدرت أن وصول القوات المصرية إلى سواحل

شرق الجزيرة العربية يمكن مصر من السيطرة على الخطوط الملاحية التى تصل أوربا بالهند ومما يستلفت الانتباه أن محمد على باشا لم يشأ فى البداية الاصطدام مع بريطانيا إذا أعلن أنه لم يبغ من توسعه فى الجزيرة العربية وخاصة فى شرق الجزيرة العربية واليمن أكثر من اخضاع النجديين وحماية الحرمين الشريفين كما أعلن عن استعداده لتقديم كافة الضمانات لتيسير الاتصال بين مصر والهند غير أنه لم يكن من السهولة أن تسلم بريطانيا بذلك وإنما سارعت بتوطيد علاقاتها بشيوخ القبائل فى ساحل عمان كما كلفت بعثة «كسنى» بمسح نهرى دجلة والفرات واختيار صلاحيتهما للملاحة التجارية فى عام ١٨٣٤ وذلك لكى تفتح طريقا أخر للمواصلات بدلا من طريق البحر الأحمر الذى أصبح تحت السيطرة المصرية حتى احتلال بريطانيا لعدن عام ١٨٣٩ كما أرسلت بريطانيا قواتها إلى البصرة واحتلت جزيرة «خرج» ١٨٣٨ التى تقع بالقرب من طريق البصرة البحرى بهدف مراقبة التحركات المصرية فى الأجزاء الشمالية من الخليج العربي وفى عام ١٨٣٨ أخذ الموقف يتأزم بين بريطانيا ومحمد على تأزما شديدا حيث كتب كولونيل تايلور» المقيم البريطاني فى بغداد إلى اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا يوضح العواقب التى سوف تترتب على تقدم القوات المصرية فى سواحل شرق الجزيرة العربية وبادر «بالمرستون» بالكتابة إلى الكولونيل «كامبل» ممثل بريطانيا فى القاهرة يبلغه بتلك المعلومات التى كان مفادها اتجاه القوات المصرية إلى الاحساء تمهيدا للسيطرة على البحرين وطلب منه الاستفسار من السلطات المصرية فى القاهرة عن صحة هذه المعلومات مؤكدا أن هذه التحركات تنظر إليها الحكومة البريطانية نظرة غير ودية وسلم «كامبل» احتجاج «بالمرستون» إلى «باغوص بك» وزير محمد على حيث كان الاخير متغيبا فى السودان فى ذلك الوقت وحصل كامبل على وعد من «باغوص» بأنه سيبادر بتبليغ ذلك الاحتجاج إلى الوالى فور عودته وانكر «باغوص بك» بأن تكون لدى محمد على أية اطماع فى جزر البحرين ومما تجدر الاشارة إليه أن تحركات القوات المصرية فى الخليج العربى قد أثارت وزارة الخارجية «بلندن» ومن المعروف أن شؤون الخليج العربى كانت من اختصاص حكومة «بومباى» ولم يكن تدخل الحكومة البريطانية فى لندن فى شؤون الخليج العربى إلا فى الأمور الهامة التى تتوجب تدخلها ومن ثم فان اهتمام وزارة الخارجية بلندن بالتحركات المصرية فى شرق الجزيرة العربية يؤكد لنا أهمية تلك التحركات ليس بكونها خطرا على حكومة الهند فحسب وإنما على الامبراطورية الاستعمارية البريطانية بأسرها [٦٥] .

أرسل «بالمرستون» إلى حكومة الهند يلفت نظرها إلى ضرورة معارضة أى تقدم يقوم به خورشيد باشا فى شرق الجزيرة العربية ويطالبها بالتدخل المسلح إذا ما اقتضت الضرورة ذلك وقد ركز «بالمرستون» الذى عرف بسياسته العدائية ضد محمد على ، على جزر البحرين وما يمكن أن يشكله استيلاء مصر على تلك الجزر من خطر على مركز بريطانيا فى الخليج العربى فى الوقت الذى كان خورشيد باشا فعلا يتجه للسيطرة على البحرين كما كان يعمل على اخضاعها للسيادة المصرية واتجهت السياسة البريطانيا إلى منع القوات المصرية من السيطرة على البحرين لأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية وشدد «بالمرستون» على استخدام القوة أو إلى الاحتلال الفعلى تقوم به حكومة بومباى من أجل ذلك سارع الادميرال «فردريك ميتلاند» قائد البحرية البريطانيا فى الهند إلى الخليج العربى ليقدم ما يلزم من حماية إلى شيوخ البحرين وغيرهم من شيوخ قبائل ساحل عمان وقد وصل «ميتلاند» إلى البحرين فى الوقت الذى كان فيه خورشيد باشا قد انتهى من الاستيلاء «للقطيف» و «العقير» ووجد أن شيوخ البحرين كانوا على استعداد للاعتراف بالسيادة المصرية ولذلك رأى من الحكمة عدم القيام بأى عمل عسكرى وطلب من الكولونيل «هنل» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى أن يعمل على وقف الضغط المصرى بالطرق السلمية ويقرر «هنيل» فى تقرير بعث به إلى حكومة الهند أنه وجد من الامراء الذين زارهم أنهم كانوا أكثر تقديرا لعظمة القوات المصرية كما فوجئ «هنل» بأن هناك معاهدة تم توقيعها بين خورشيد باشا وشيوخ البحرين فى مارس ١٨٣٩ ويتضح لنا من توقيع تلك المعاهدة أن شيوخ البحرين ابدوا ترحيبهم بالوجود المصرى املا فى التخلص مما كان يحين بهم من خطر الاستعمار البريطانى وعمان وخاصة أن محمد على لم يتجه إلى طلب ضرائب أو زكاة كبيرة كما كان يفعل غيره من العمانيين وأن خورشيد باشا كان قد أوفد أحد مبعوثيه ويدعى محمد افندى رفعت إلى البحرين للتفاوض فى عقد معاهدة ود وصداقة وأن محمد افندى رفعت كان يحاول أن يسبغ شرعية على التحرك المصرى فى البحرين وأنه نجح فى عقد معاهدة مع شيوخ البحرين قبلوا فيها الخضوع لسيادة المصرية وأن يسلموا كل عام ثلاثة آلاف ريال غساوى على سبيل الزكاة.

أثار توقيع هذه المعاهدة قلقا شديدا لدى البريطانيين حتى «هنيل» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وجه احتجاجا شديدا إلى خورشيد باشا محملا إياه أى ضرر

يحدث للرعايا البريطانيين فى البحرين كما أخذ ينشر النشرات المعادية للحكم المصرى وطلب من شيخ البحرين أن يعطيه المعاهدة ليمزقها وأن بريطانيا على استعداد لتقديم الحماية للبحرين وضمان الحكم لأسرة آل خليفة والا يتاقضوا ايرادا من البحرين لمدة عشرين عاما وعلى الرغم من الضغوط التى استخدمها «هنيل» إلا أن الشيخ عبدالله امتنع عن قبول الحماية البريطانية ولم يكتف «هنيل» بتهديد شيخ البحرين وإنما أرسل إلى خورشيد باشا محتجا على المعاهدة ورفض القائد المصرى هذا الاحتجاج ولم يقف نشاط خورشيد عند البحرين فحسب بل حاول أيضا الاستيلاء على المقاطعات التابعة لعمان منتهزا فرصة التفكك الاقليمى الذى كانت تعانيه تلك السلطنة بانتقال حاكمها إلى زنجبار وإلى الثورة التى تزعمها حمود بن عزان فى عام ١٨٣٠ والتى أدت إلى استقلاله بميناء صحار فى عام ١٨٣٩ ومن الثابت أن محمد على كان يفكر جديا فى السيطرة على عمان تحقيقا لمشروعه الذى كان يستهدف منه السيطرة على جميع سواحل الجزيرة العربية وخاصة لتقديره أهمية موقع ميناء مسقط ورغبته فى التحكم فى مدخل الطرق البحرية للخليج العربى يضاف إلى ذلك أهمية ميناء مسقط فى نقل الامدادات إلى القوات المصرية فى شرق الجزيرة العربية إذ أن نقل الغلال من مسقط أسهل وأقل تكلفة من نقلها عن طريق جدة ، وتؤكد بعض المصادر أن القوات المصرية سببت فزعا كبير لسلطان عمان ولو لم تبادر بريطانيا بمساعدته لسقطت عمان فى قبضة خورشيد باشا ، واسرعت بريطانيا بعقد اتفاقية بين سعيد بن سلطان وحمود بن عزان بهدف توحيد الجبهة العمانية ضد القوات المصرية وقد نصت الاتفاقية على أن يحتفظ كل طرف بممتلكاته وأن يتعهد الطرفان بأن يعيش كل منهما داخل ممتلكاته دون عدوان واشترط سعيد بن سلطان أن تعاونه «صحار» عسكريا حين يطلب منها ذلك كذلك بادرت بريطانيا فى عام ١٨٣٩ باعادة عقد معاهدة مع عمان بعد أن استنفذت معاهدة ١٧٩٨ أغراضها فى حين لم يتضح مخاوف عمان من التوسع المصرى إلا فى عام ١٨٣٩ عندما قرر خورشيد باشا التدخل فى «البريمى» و«ساحل عمان» وأخذ يمهد لمشروعه للسيطرة على المقاطعات العمانية عن طريق سيطرته أولا على واحة «البريمى» التى هى بمثابة المفتاح الرئيسى لعمان وكان من المتوقع لنجاح خورشيد باشا فى السيطرة على عمان وساحل عمان لولا وقوف سعيد بن سلطان موقفا مضادا حيث أخذ يعمل على تأليب قبائل بنى نعيم من البوشامى وهى آخر قبيلة جاءت من اليمن إلى عمان فى أواخر القرن الثامن عشر ،

ويحرضهم على عدم الاذعان للوضع القائم وأن يحتفظوا باستقلالهم على عدم وقوعهم فى أيدى المصريين إذا لم يستطع هو فى اخضاعهم للسيادة العمانية فهو لا يمكن أن يرحب بطبيعة الحال بأن تقوم إلى جواره قوة عسكرية فنية اثبت كفايتها العسكرية فى الجزيرة العربية [٦٦].

أخذ البريطانيون أيضا يشتركون مع سلطان عمان فى تحريك قبائل النعيم على الثورة ضد سعيد بن مطلق المطيرى القائد المصرى الذى أرسله خورشيد باشا للسيطرة على البريمى وقد استغل «هنيل» المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى هذا الوضع لإرسال احد ضباطه إلى البريمى ليقوم بتوزيع السلاح والعتاد والمواد الغذائية واجراء المصالحات بين قبائل «الظواهر» و «النعيم» كما بادر «هنيل» بارسال احتجاج شديد اللهجة إلى خورشيد باشا وكانت الحكومة البريطانية لاتكف عن تنبيه سعيد بن سلطان بأن يكون على أهبة الاستعداد لمقاومة القوات المصرية الزاحفة فى أى وقت ومما لاشك فيه أن محمد على كان يعمل فعلا على الاستيلاء على عمان وقد اعرب عن رغبته هذا فى حديث بينه وبين الكولونيل «هودجس» القنصل البريطانى العام فى القاهرة فى ابريل ١٨٤٠ وقد أدت محاولات خورشيد السيطرة على البريمى وغيرها من المقاطعات العمانية إلى إيجاد علاقات قوية بينه وبين شيوخ القبائل فى ساحل عمان والذين تعرضوا بدورهم لمواجهة التوسع المصرى مما استلزم من الادميرال «ميتلاند» الالتقاء بشيوخ القبائل فى ساحل عمان وتذكيرهم بروابط الصداقة بينهم وبين بريطانيا وقد أعرب بعض شيوخ القبائل لبريطانيا عن ثقتهم بالجيش المصرى وعدم قدرة جميع سكان عمان وساحل عمان بمواجهة خورشيد باشا أو الوقوف ضده وهنا أجاب «ميتلاند» بأن قبائل الساحل العمانى فى وسعها التصدى لخورشيد باشا لو إنها وحدت صفوفها وان قبائل ساحل عمان الشمالية تستطيع وحدها تعبئة أحد عشر ألف مقاتل ومما تجد الاشارة أن كل من الشيخ خليفة بن شخبوط حاكم ابوظبى وسلطان بن صقر حاكم الشارقة رفض تعبئة هذه القوة تحت اشراف بريطانيا لما قد يؤدى إليه ذلك من كثرة الحزازات القبلية وقد ورد التقرير الذى كتبه «ميتلاند» وبعث به إلى حكومة «بومباى» أنه لما يحز فى النفس أن ارى زعماء قبائل ساحل عمان غير مدركين للخطر الذى يراهم وأنهم برغم المخاطر التى يتعرضون لها فأنهم لم يتخذوا أية خطوة لمواجهتها . ولم تلبث الامور أن تأزمت فى ساحل عمان حينما وصل القائد سعيد بن مطلق المطيرى إلى الشارقة وابلغ أنه جاء موفدا من

خورشيد باشا لاخضاع البريمى للسيادة المصرية وقد بادر سلطان بن صقر باستضافته فى امارته خوفا من أن ينصرف إلى منافسه خليفة بن شخبوط حاكم ابوظبى ولكن مساعد المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «ادمونز» نصح سلطان بن صقر بضرورة التخلص منه مهما تكن مخاوفه من ردود الفعل وادرك «هنيل» الذى وصل إلى المقيمية البريطانية في الخليج العربى بأنه إذا سمح لسعيد بن مطلق المطيرى بالبقاء فى منطقة ساحل عمان فلن يمضى وقت طويل حتى يكون جميع شيوخ قبائل ساحل عمان قد خضعوا لمحمد على ولذلك اسرع «هنيل» بالحصول على تعهدات خطية من شيوخ القبائل بمقاومة نفوذ خورشيد باشا واضيف نص خاص بالنسبة للشيخ سلطان بن صقر حاكم الشارقة يتعهد فيه صراحة بعدم اجراء أية علاقات أو مراسلات أو اتفاقيات مع محمد على أو أنصاره أو أية قوة أجنبية أخرى بدون موافقة الحكومة البريطانية وأن يعتبر حلفاء تلك الحكومة حلفاءه وأعداءها أعداءه وبعث سلطان بن صقر إلي المقيم البريطاني يطلب منه التعرف على موقف الحكومة البريطانية إذا ما تعرض لتوسع القوات المصرية وكتب المقيم البريطانى إلى حكومة الهند معلقا على رسالة حاكم الشارقة بأنه كان يريد أن يؤكد للسلطان بن صقر بان الحكومة البريطانية تمتنع عن التدخل فى الشئون الداخلية كما كانت تفعل ذلك في الماضى ولكن الظروف تبدو مختلفة الآن اختلافًا كبيرا عما كانت عليه قبل ظهور القوات المصرية [٦٧] ولعل ذلك ما دفعه إلى تقديم ضمانات الحماية لسلطان بن صقر مما كان له الأثر فى الزام الشيخ نفسه بالتعهد الذى اشرنا إليه .

مما تجد الاشارة إليه أن سعيد بن مطلق المطيرى كان يحمل معه رسائل من خورشيد باشا يطلب فيها من شيوخ قبائل ساحل عمان تقديم المساعدة له ومحذرا إياهم من عدم الانصياع له وقد أحدث هذا التحرك أثرا كبيرا لدى شيوخ القبائل إلى درجة أفزعت «هنيل» الذى وجه تحذيرات إلى شيوخ القبائل فى ٥ / ٦ / ١٨٤٠ جاء فيها : «وفليكن معلوما اننا قد انذرنا العامة أن كل واحد من المشايخ الداخلين فى سلك الصلح البحرى مع جناب السركار بهادور يعطى لسعيد بن مطلق المطيرى مكانا عنده يقع الخلل فى صداقته مع حضرة السركار ذى الاقتدار ولايلومن إلا نفسه » .

نجح «هنيل» فى الحصول على تعهدات من شيوخ قبائل ساحل عمان بعدم التعاون مع سعيد بن مطلق المطيرى أو خورشيد باشا إذ أن هذا التعاون يعد خوفا صريحا لروابط الاتحاد والصلح القائم بينهم وبين الحكومة البريطانية وكان أبرز الشيوخ الذين كتبوا هذه التعهدات

الشيخ خليفة بن شخبوط شيخ قبيلة بنى ياس ومكتوم بن بطى شيخ قبيلة البوقلاسة وسلطان بن صقر شيخ قبيلة القواسم ولم تكن هذه التعهدات إلا مقابل وعد شفهى بأن يمد «هنيل» أولئك الشيوخ يالآت الحرب ومعدات القتال إذا ما اقتضت الضرورة ذلك ، كذلك امتدت التحركات البريطانية إلى قبائل «النعيم» فى قطر الذين ظلوا على موقفهم المعارض لتقدم القوات المصرية على عكس قبائل «البوكوارة» التى أخذت تدفع الزكاة إلى شيخ البحرين لصالح القوات المصرية ، وكاد أن يتم الصدام بين القوات المصرية والبريطانية فى ساحل عمان ويتضح ذلك من رسالة بعث بها خورشيد باشا إلى محمد على يؤكد فيها أن هدف بريطانيا الاستيلاء على الخليج العربى ويتساءل خورشيد باشا فيما يجب عمله ضد بريطانيا ولكن محمد على كان متورطا فى مشاكل الشام فكتب إليه فى سبتمبر ١٨٤٠ بأن الوقت اصبح غير مناسب للتدخل فى ساحل عمان وأنه يتعين عليه العودة إلى مصر ويغلق باب المصروفات الذى فتحه فى نجد بعد أن يترك خالد بن سعود ، ولعل محمد على كان يأمل باتخاذ قرار الانسحاب من الخليج العربى لكسب ود بريطانيا لكى تغض الطرف عن مشروعاته التوسعية فى الشام ومصر وهو أمل لم يتحقق له بطبيعة الحال وكان التوسع المصرى يضع الكويت أيضا ضمن مخططاته العسكرية على الرغم من أن النشاط المصرى لم يتضح فى الكويت بالقدر الذى كان عليه فى الاحساء والبحرين وساحل عمان وعمان ولكن من الثابت لدينا أنه حينما وصلت القوات المصرية بقيادة خورشيد باشا إلى سواحل الاحساء فى عام ١٨٣٨ أرسل خورشيد باشا مندوبا عنه ليقيم فى الكويت على أنه وكيل لشراء الامدادات اللازمة للقوات المصرية ولاشك أن خورشيد باشا كان فى حالة شديدة إلى الاستعانة بسفن الكويت التى كانت مجهزة تجهيزا طيبا وأن لم يثبت مع ذلك استفادة القوات المصرية بالاسطول الكويتى باستثناء شحنة واحدة من الذخيرة والعتاد نقلتها سفن الكويت إلى القوات المصرية خلال وجودها فى الاحساء من ميناء «الحديدة» اليمنى على أنه لم يلبث أن اتضح الهدف الحقيقى من اقامة الوكيل المصرى بالكويت وهو أن يكون مبعوثا سياسيا وجامعا للأخبار المتعلقة بامكانية نجاح خطة خورشيد باشا فى تطويق العراق بقوات من الحساء وقد استرعى وجود المندوب المصرى فى الكويت نظر البريطانيين ولما كان الشيخ جابر بن الصباح حاكم الكويت يحرص على علاقات حسن الجوار مع الدولة العثمانية والصلات الودية مع الحكومة البريطانية فقد آثر الوقوف على الحياد وإن لم يمنع ذلك من أنه منح المدنوب المصرى مكانه خاصة فى مجلسه كما أبدى فى بعض المناسبات تعاطفا مع التقدم المصرى فى سواحل الخليج العربى [٦٨].

خامسًا : الانسحاب المصرى من الجزيرة العربية

أحرزت القوات المصرية فى شرق الجزيرة العربية على ساحل الخليج العربى تقدما كبيرا إلا أن الأوضاع المتأزمة فى شمال الخليج العربى وفى بلاد الشام وعدم استطاعة الحكومة المصرية ارسال المزيد من القوات العسكرية إلى الاحساء بسبب عدم مقدرة السفن المصرية من الوصول إلى الخليج العربى بسبب احتلال بريطانيا لميناء «عدن» فى عام ١٨٣٩ كانت من اهم الأسباب التى أدت إلى الانسحاب المصرى من شرق الجزيرة العربية هذا بالاضافة إلى عوامل أخرى من بينها كثرة الأوامر المتشددة التى كان يطلب فيها محمد على من خورشيد باشا ضرورة الانسحاب مما دعى البعض إلى التشكيك فى غيرة محمد على من خورشيد باشا وما حققه من انتصارات متوالية مما دعاه إلى التفكير فى ضرورة الحد من نشاطه ومطالبته بالعودة إلى مصر وبذلك كان الانسحاب المصرى من شرق الجزيرة العربية على سواحل الخليج العربى حدث قبل أن تجبر مصر على االنسحاب من المناطق التى توسعت فيها بمقتضى اتفاقية لندن ١٨٤٠ والفرمانات الصادرة على أساسها والتى وضعت نهاية لمخططات محمد على التوسعية ولتطلعاته فى إنشاء دولة عربية موحدة فى المشرق العربى تمتد من النيل إلى الفرات ودجلة وذلك بعد أن أجبر من قبل قوات التحالف الدولى المشترك من الدولة العثمانية وبريطانيا والنمسا ورسيا وبروسيا .

بدأت المتاعب تظهر لمحمد على منذ الاحتلال البريطانى لعدن وهذا ما أدى فيما بعد إلى الانسحاب المصرى ليس من اليمن وإنما من الجزيرة العربية وكان هذا من أهم اسباب الانسحاب المصرى ، وقد سعى الاستعمار البريطانى بالقمع والمال فى التوسع خارج إطار «عدن» بل لقد كان ضربة موجهة إلى مشروعات وأماله وأنه بداية لإجلاء قواته لاعن اليمن فحسب بل عن المنطقة كلها وأنه فقد الامل نهائيا فى كسب صداقة بريطانيا مهما ابدى لهم من تنازلات فى الوقت الذى كان التنافس الفرنسى - البريطانى يغذى القضية ورأت بريطانيا أن ذلك كان بوجه رسمى وبالفعل فقد أبلغ قنصل فرنسا فى القاهرة محمد على فى ابريل ١٨٣٩ بأن «امتلاك البريطانيين لعدن لم يكن الغرض منه احتكار تجارة البن فى اليمن وجعل الجزيرة العربية كلها سوقا لبضائع ومصنوعاتهم فحسب بل أنهم يهدفون أيضا إلى السيطرة على مدخل البحر الأحمر حتى يساعدهم ذلك فى المستقبل على غزو مصر وضمها إلى املاكهم » .

ورغم أن الحكومة البريطانية ابلغت محمد على عن طريق «كامبل » ممثلها فى مصر فى اكتوبر ۱۸۳۹ رغبتها فى جلاء قواته عن اليمن لارتباطها بالمصالح البريطانية إذ لا علاقة لها بانتهاء «المسألة الشرقية» بينه وبين السلطان العثمانى والتى تتفاوض بشأنها الدول فقد حاول محمد على أن يكسب الوقت أمام هذه المفاجأة القاسية فما كان من «بالمرستون» وزير الخارجية إلا أن عين العقيد «هودجز» خلفا لكامبل وطلبا منه اقناع محمد على بالجلاء عن اليمن وجاء «هودجز» إلى القاهرة وكان أول تقرير أرسله إلى وزير خارجيته فى ٢٤ / ٣ / ١٨٤٠ يقول فيه[٦٩] :

« أن حاكم عدن البريطانى «هينز» افاده بأن قوات الفرسان التابعة للباشا أخذت فى الازدياد فى اليمن وأن العرب القاطنين بجوار عدن يتجمعون ضد الحكم البريطانى فى عدن بتحريض من المصريين ولعل الاهم هو أن محمد على قد أرسل مبعوثا اسمه السيد حسين إلى امام اليمن يعرض عليه اقتراحين هامين :

الأول : أن الباشا على استعداد لمساعدة الامام بامال والمؤونة ومده بالرجال والذخيرة إذا قدم الامام على مهاجمة البريطانيين وطردهم من «عدن» ويتعهد له أنه بمجرد الانتهاء من الحرب سوف يسلم كل الأراضى المفتوحة فى اليمن إلى الامام حتى يظل اليمن الجنوبى فى يد عربية .

الثانى : الاقتراح الثانى الذى عرضه السيد حسين على الامام أن يقبل الامام السيادة المصرية على صنعاء على أن يمنح مرتبا كبيرا مدى الحياة .

لم يصل هذا التقرير إلا بعد أن كان محمد على قد أصدر أمره فى ١٣ / ٣ / ١٨٤٠ إلى حاكم اليمن وقائد القوات المصرية بالجلاء عن اليمن بعد أن تحالفت عليه الدول الكبرى الخمس عقب اندحار الجيش العثمانى فى موقعة «نزيب» فى ٢٤ / ٦ / ١٨٣٩ وانحياز الاسطول العثمانى إلى محمد على ثم تلا ذلك ارسال المذكرة المشتركة فى ٢٧ / ٧ / ١٨٣٩ إلى الباب العالى وادراك محمد على أنه قادم على حرب خطيرة مع الحلفاء شغلت باله وتضاءلت معها مسألة اليمن فى الوقت الذى لم تتوقف فيها انذارات بريطانيا تطالبه بالجلاء ، وغادر ابراهيم يكن باشا وقواته اليمن فى ٩ / ٥ / ١٨٤٠ بعد أن سلم «عسير» إلى الشريف حسين بن على بن حيدر وكذلك جميع الموانئ اليمنية المطلة على ساحل البحر الاحمر أما تسليمه المنطقة بدلا عن امام اليمن فلإن امام صنعاء رفض أن يدفع للباب العالى

ضريبة سنوية لسوء أوضاعه وضعف امكاناته وكان شريف الحجاز محمد بن عون يطمع كذلك في السيطرة على تهامة لكن ابراهيم يكن رأى فى الشريف حسين بن على بن حيدر حاكما أكثر قدرة من الآخرين كما أن محمد على كان قد ارسل إلى امام اليمن مرة على الأقل بعثة يطلب إليه طرد البريطانيين من «عدن» ولكن امام صنعاء وقف عند رأيه القائل باستحالة ذلك عليه ونتيجة لذلك سلم ابراهيم يكن مقاليد «عسير» وموانئ اليمن إلى الشريف حسين بن على بن حيدر على أن يدفع ضريبة إلى الباب وأرسل «هينز» سفينة إلى «الحديدة» خلال عملية التسليم والتسلم هذه لحماية المصالح البريطانية وأظهر الشريف حسين بن على بن حيدر الذى أصبح يسيطر على «تهامة» بعد الجلاء عداء شديد للبريطانيين فى عدن وكان هذا العداء ينصب بصفة خاصة على نائب القنصل البريطانى والرعايا البريطانيين فى «المخا»(٧٠).

سحب ابراهيم يكن قواته من «تعز» و «عدين» و «المخا» فى سرية تامة فى حين احتاط احمد يكن باشا للأمر عن طريق تثبيت الاشراف فى مناطقهم ليقوموا بعمليات الحماية للقوات أثناء انسحابها فثبت الشريف «شنبر» فى أطراف شمران» و «بالقرن» والشريف زيد فى تهامة» والشريف منصور فى «غامد»و «زهران» وأمر بانزال القوات المصرية إلى «القنفذة» وأصدر أوامره بصفته القائد العام بترتيب اقامة قوات ابراهيم يكن فى مكان مناسب فى جدة على أن ترسل القوات غير النظامية إلى غامد» و «زهران» وعدم ابقائهم فى «القنفذة» لسؤ مناخها ورداءة هوائها واصابة الكثير منهم بالامراض بناء على تقرير الاطباء وقد كان لانتشار أنباء انسحاب القوات أثر سيئ على إثارة الموقف ضد قوات محمد على حيث جرت اتصالات مكثفة بين الجبهات المضادة فى «عسير» خاصة من جانب الشريف حسين بن على بن حيدر مما احدث بالقوات المصرية بعض الخسائر حتى اضطرت اثناء انسحابها من اليمن إلى ترك بعض مهماتها فى بعض الموانئ اليمنية واحراق بعضها الآخر كما تركت بعض العتاد من غير اشراف أو حراسة عليها وسلمت الموانئ اليمنية إلى الشريف حسين بن عى بن حيدر الذي تعهد بان يرسل العتاد والاسلحة والذخيرة وكميات الغلال التابعة للقوات المصرية إلى جدة ولكنه لم يف بتعهده بل استغل الموقف لصالحه وأخذ يسئ معاملة الرعايا الذين قام بعضهم بالهروب إلى الحجاز للاحتماء بالشريف محمد بن عون شريف الحجاز مثل قبيلة الحوازم» (٧١).

يتضح من ذلك كيف لعبت بريطانيا دورها الاستعمارى فى ضرب قيام الوحدة العربية التى حاول محمد على تحقيقها وكانت البداية من «عدن» عندما طلب «بالمرستون» من محمد على سحب القوات المصرية من اليمن وعندما اكتفى محمد على بالاجابة بانه سيضع هذا المطلب موضوع النظر عندما تفرغ السياسة الدولية الاستعمارية الخمسة التى يتكون منها التحالف الدولى المشترك من بحث المسألة الشرقية ثم شاءت السياسة الدولية لتحالف الدولى أن تقف موقف العداء من محمد على فى مؤتمر لندن ، فأخذت بريطانيا على عاتقها تنفيذ قرارات المؤتمر بالقوة مما اضطر محمد على إلى سحب اقوات المصرية من اليمن وبذلك انفسح المجال امام بريطانيا للتوسع الاستعمارى فى جنوب اليمن بعد أن توطدت اقدامها فى «عدن» وتخلصت من المنافسة المصرية إذا كان وجود المصريين فى اليمن قد شكل منافسا خطيرا للتوسع الاستعمارى البريطانى فى جنوب البلاد فان اليمنيين أنفسهم قاموا بدورهم فى مقاومة البريطانيين منذ وصولهم إلى «عدن» والمعروف أن القائد البريطانى «هينز» الذى احتلا عدن لقى مقاومة شديدة من جنود سلطان «لحج» فى خلال يومين من وصوله رجحت بعدها كفة الجيش البريطانى نتيجة لتفوقهم الحربى ، كما أن أحد أشراف مكة ويدعى الشريف اسماعيل خرج إلى اليمن عام ١٨٤٦ واستنهض همم الناس للجهاد واخراج الاستعمار البريطانى من «عدن» فاجابه جماعة من اليمنيين ، أما العثمانيون فلم يفعلوا شيئا ضد الاحتلال البريطانى لعدن على الرغم من أنهم كانوا يدعون أحقيتهم الاسمية فى اليمن بل إن البريطانيين استطاعوا أن يحصلوا على فرمان من الباب العالى يسمح لهم باستخدام الاسطول البريطانى لميناء عدن وأن فضل البريطانيون عقد معاهدة مع أهالى البلاد ليعطوا لوجودهم هناك شيئا من الشرعية ويبدو أن العثمانيين قبلوا الأمر الواقع ورأوا أن الاحتلال البريطانى لعدن ليس إلا من نوع المكافأة للاستعمار البريطانى على معاونته للدولة العثمانية فى وقف اطماع والى مصر الثائر محمد على[٧٢] ولعل عدن لم تكن حينذاك وهى تقع فى اقصى جنوب الدولة العثمانية ذات أهمية للعثمانيين إذا ما قورنت برغبتهم فى المحافظة على علاقتهم مع بريطانيا وبخاصة وهم يواجهون تحديات محمد على وطموحه إلى تكوين الدولة العربية الموحدة فى المشرق العربى على حساب ممتلكات الباب العالى فى حين استغل البريطانيون دورهم الاستعمارى لمنع تكوين هذه الدولة مقابل الحصول على «اليمن الجنوبى» بصك شرعى من الدولة العثمانية فى الوقت الذى كان الجنود المصريون وصلوا إلى

اليمن والجزيرة العربية لمحاربة «قوات الدرعية» وتخليص «الحرمين الشريفين» من تلك الحركة الانفصالية بناء على تكليف من السلطان العثمانى .

قيام الفتن فى الحجاز فى الاربعينات وحروب المتمردين إلى اليمن اضطر المصريين إلى التوجه إليها للتخلص نهائيا من قادة التمرد من امثال «تركى بليمز» وهنا كانت فكرة اقامة الدولة الموحدة العربية فى المشرق قد تبلورت فى ذهن محمد على مما دفعه إلى الدخول فى صراعه المعروف مع الباب العالى وقد حاول المصريون أن يحققوا فكرة هذه الدولة الموحدة باقامة حكم منظم فى المناطق التى تحت أيديهم ومن بينها تهامة اليمن وقد نجحت الادارة المصرية فى اليمن لجاح وهيأت حالة من الامن والاستقرار ليس فى اليمن وإنما فى الجزيرة العربية كما دعم المصريون ادارتهم هذه بخلق روح من المودة والصداقة مع الشعب اليمنى ظلت ذكراها قائمة فى نفوسهم حتى بعد جلاء المصريين عن بلادهم بامد طويل غير أن بريطانيا خشيت على مصالحها الاستعمارية التى اصبح يهددها ذلك التوسع المصرى فاندفعت إلى احتلال «عدن» عام ١٨٣٩ والتوسع حولها وإلى مساندة الباب العالى ضد طموح محمد على أما الدولة العثمانية فقد تنازلت عن حقوق الشعب اليمنى بترك «عدن» للبريطانيين دون أن تفعل شيئا للاحتجاج كما أنها تعاونت مع بريطانيا لاجلاء المصريين عن اليمن وقد نجحت الدولتان فى مؤتمر لندن فى فرض الانسحاب من اليمن والجزيرة العربية على المصريين وقامت بريطانيا بتنفيذ هذا القرار بالقوة ونشر المصريون فى ربوع الجزيرة العربية واليمن الامن والطمأنينة واقاموا ادارة مستقرة فى كل من الحجاز واليمن ونجد من المصريين بعد أن اصبحت أكثر انتظاما واستقرار فتهيأت لهم الفرصة لأن يحكموها بيد أقوى وسلطان اظهر مما كان لهم قبل أن تتعهدها يد الادارة المصرية بالتنظيم والاصلاح (٧٣).

نلاحظ من خلال دراستنا للحكم المصرى فى الجزيرة العربية برغم ايجابياته الكثيرة إلا أنه اقرب إلى التفكير العثمانى فى عهد سلاطينها العظام وفى أوج قوته دون أن تتعدى الحدود الاستراتيجية التى حولها أو تستوعبها ، وليس التفكير الأوربى وأننا لانقصد النمط الأوربى العلمانى وإنما المشاركة الشعبية فى الحكم وفى اتخاذ القرارات السياسية والمصيرية ذات استراتيجية مدروسة وهذا ما افتقر إليه الحكم المصرى فى عهد محمد على ، وقد يرجع تلك السلبيات التى أدت إلى الانسحاب وتكالب القوى الاستعمارية من التحالف الدولى إلى عدم وجود مؤسسات ديموقراطية وعلمية أكاديمية تشارك الحاكم أو الحكومة فى اتخاذ سياسة

مستقلة ووضع استراتيجية طويلة الامد داخليا وخارجيا حسب المصلح والأولويات العسكرية والقومية ؛ كما كان يحدث فى فرنسا وبريطانيا وأنه من السهل جدا بناء القوة العسكرية ولكن من الصعب جدا المحافظة على استمرايتها وحمايتها لأطول فترة ممكنة كأداة ردع . حيث نجد أن القوات المصرية كانت قد قاب قوسين أو أدنى من قربها للمواقع الاستراتيجية سواء فى مضيق «هرمز» فى «ساحل عمان» من مدينة رأس الخيمة أو الشارقة أو وجودها فى «المخا» و «تعز» فى اليمن فى الوقت الذى كانت عدن على مرمى حجر بقربها ذات موقع استراتيجى فريد فى مضيق «باب المندب» .

لم تهتم الحكومة المصرية لاخضاع هاتين المنطقتين اللتين تتحكمان فى مدخل الخليج العربى والبحر الأحمر وبرغم أن بريطانيا هى التى كانت تسعى لدى مصر للاستيلاء على رأس الخيمة فى ساحل عمان التى تقع فى مدخل الخليج العربي حين رفضها محمد على وأمر ابنه ابراهيم باشا بالانسحاب من شرق الجزيرة العربية عام ١٨١٨ وجاء الاحتلال البريطانى لرأس الخيمة وساحل عمان فى العام التالى ديسمبر ١٨١٩ فى حين جاء الاحتلال البريطانى لعدن ١٨٣٩ ، ولم تكن موضوع المسألة الشرقية التى أثارتها بريطانيا عن طريق «التحالف الدولى المشترك» ضد مصر هو ما كانت تعنيه بقدر خوفها على مصالحها الحيوية وخاصة الشريان الحيوى لمواصلاتها البحرية والتى كان نابليون يهددها بالأمس القريب لتجد امامها محمد على من جديد بعدما تقدمت القوات المصرية على شكل كماشة بجناحيها الشرقى عن طريق خورشيد باشا فى شرق الجزيرة العربية بالقرب من مدخل الخليج العربى فى عمان وساحل عمان عندما بعث هذا القائد بقوات بقيادة سعيد مطلق المطيرى إلى ساحل عمان وعمان أما الجناح الغربى فقد جاء بقوات ابراهيم يكن باشا إلى جنوب غرب الجزيرة العربية فى اليمن واصبحت على مقربة من مدخل البحر الأحمر فى «مخا» و «تعز» ومنطقة «الحجرية» القريبة أو المجاورة «لعدن» مما جعل بريطانيا تسرع باحتلال عدن ، ولهذا فان الهدف البريطانى من الانسحاب المصرى هو الخوف على مصالحها فى مضايق الخليج العربى والبحر الاحمر شريان الحياة الاقتصادية لمستعمراتها فى الشرق وخاصة الهند وليس «المسألة الشرقية» التى كانت تستخدمها كستار لتخفى هدفها الحقيقى كما لاننسى أن بريطانيا والدول الكبرى فى تلك الفترة وهى فى يومنا الحاضر يقفون دائما ضد فكرة قيام «الدولة العربية الموحدة القومية» وأن السيطرة المصرية على تلك المضايق و «ساحل عمان»

و«عمان» يمكن أن يؤدى إلى المساومة مع بريطانيا مقابل السماح بقيام الدولة العربية الموحدة وهذا يحتاج إلى القدرة التفاوضية فى السياسة الدولية والدبلوماسية وهذا ما كانت يحتاج إليه محمد على وخاصة خبراء فى هذا المجال . علما بأن الخبرة فى هذا المجال لا يأتى بسرعة كسرعة تكوين الجيش وإنما لفترة زمنية مع وجود اجهزة ومؤسسات تعتنى وتهتم بالدراسات الاستراتيجية والمستقبلية وليس الاعتماد على القدرة العسكرية .

يجب أن يواكب القدرة العسكرية المؤسسات الدستورية فأنها تحمى وتحافظ على استمرارية القدرة العسكرية مع الزمن كما يجب أن يلازمها التنمية الشاملة وخاصة القوة الاقتصادية التى تعتريها وبدون ذلك فان القوة الاقتصادية هو «الغذاء الاساسى» للقوة العسكرية والمؤسسات الدستورية والمشاركة الشعبية هى «الروح المحركة» والمحافظة على استمرارية الآلة العسكرية وهذا ما كان ينقص محمد على وكذلك سلاطين آل عثمان ، ولهذا فبمجرد أن مارست الدول التحالف الكبرى الضغط على مصر بدأت فى التراجع وجاء الانسحاب بعد تلك التضحيات من أبناء مصر . كما لاننسى أن القوى الدولية الأوربية المسيحية الصليبية كانت وما زالت إلى يومنا هذا لاتريد للقوى العربية والاسلامية أن تتقدم وتتوحد وبذلك فانها دائما تعمل ضد الاسلام والمسلمين بمعنى أن الحروب الصليبية أو عقلية الحروب الصليبية كانت وما زالت قائمة إلى يومنا ولايمكننا فهم الصراع «العربى - الاسلام» مع «الغرب المسيحى» إلا من خلال النظرة الصليبية الحاقدة التى يختفى وراءها السياسة الغربية تحت اقنعة مختلفة أو ستار مثل «المسألة الشرقية» «الرجل المريض للدولة العثمانية» وحاليا الديمقراطية التجارة الحرة ، حقوق الانسان وغيرها من الشعارات الزائفة «كالاصولية» و «الارهاب» .

الهوامش

١- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٣٠ .

٢- جون . ب كيلى - المرجع السابق ص٢١٢ .

٣- جون . ب كيلى - المرجع السابق ص٢١٣

٤- د. فروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٣١ .

٥- ك . م . ابير - التجديد والرجعية وامبراطورية محمد على ص٢٠٥ .

٦- ك . م .ابير - نفس المرجع ص٢٠٦ .

٧- د. جمال ذكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٥٦ .

٨- د. عبد الرحمن عبدالرحيم - المرجع السابق ص٣٣٠ .

٩- د. عبد الرحمن عبدالرحيم - نفس المرجع ص٣٢٤ .

١٠- ك . م . ابير - المرجع السابق ص٤٠٨ .

١١- ك . م .ابير - نفس المرجع ص٤٠٨ .

١٢- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٣٢ .

١٣- د. عبد الرحمن عبدالرحيم - المرجع السابق ص٣٣٠ .

١٤- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٣٣ .

١٥- د. عبد الرحمن عبدالرحيم - المرجع السابق ص٣٣٢ .

١٦- د. عبد الرحمن عبدالرحيم - المرجع السابق ص٣٤٦ .

١٧- جورج انطونيوس - المرجع السابق ص٨٣ .

١٨- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٣٤ .

١٩- ك . م . ابير - المرجع السابق ص٢١١ .

٢٠- ك . م .ابير - نفس المرجع ص٢١٢ .

٢١- د. سيد رجب حراز - المرجع السابق ص١٠٨ .

٢٢- د. سيد رجب حراز - نفس المرجع ص١٠٩ .

٢٣- ك . م . ابير - المرجع السابق ص٢١٥ .

٢٤- ك . م .ابير - نفس المرجع ص٢١٦ .

٢٥- ك . م .ابير - نفس المرجع ص٢٢٩ .

٢٦- ك . م .ابير - نفس المرجع ص٢٣٢ .

٢٧- ك . م .ابير - نفس المرجع ص٢٣٤ .

٢٨- فاروق عثمان اباظة - المرجع الساق ص٣٥ .

٢٩- د. عبدالرحمن عبدالرحيم - محمد على وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ - ١٩٤٠ ص٣٣٠ .

٣٠- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٧٠ .

٣١- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٨٧ .

٣٢- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٩٥ .

٣٣- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٢٢٦ .

٣٤- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٢٢٨ .

٣٥- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص١٩٨ .

٣٦- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٢٠٢

٣٧- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٢٠٢ .

٣٨- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٢٢٨ .

٣٩- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٢٣١ .

٤٠- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٢٤٦ .

٤١- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٣٦ .

٤٢- د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص٣٧ .

٤٣- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص ٢٠٩ .

٤٤- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - نفس المرجع ص٢١٠ .

٤٥- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ٣٨ .

٤٦- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٢١٦ .

٤٧- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٢١٦ .

٤٨- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٢٦٧ .

٤٩- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٢٢٦ .

٥٠- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٢٦٩ .

٥١- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٢٣٣ .

٥٢- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٢٧٢ .

٥٣- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٢٣٥ .

٥٤- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٣٨٩ .

٥٥- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٣٩٢ .

٥٦- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٣٩٦ .

٥٧- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٣٩٩ .

٥٨- سعيد عوض باوزير - المرجع السابق ص١٧٥ .

٥٩- سعيد عوض بأوزير - نفس المرجع ص١٨٢ .

٦٠- سعيد عوض باوزير - نفس المرجع ص١٨٦ .

٦١- د. عبد الرحمن عبد الرحيم- المرجع السابق ص٢٢٢ .

٦٢- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٣٧ .

٦٣- محمد عرابى نخلة - المرجع السابق ص٣٤ .

٦٤- محمد عرابى نخلة - نفس المرجع ص٣٩ .

٦٥- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٦٣ .

٦٦- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٤٧١ .

٦٧- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٤٧٤ .

٦٨- د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٤٧٦ .

٦٩- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٢٧٤ .

٧٠- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٢٧٦ .

٧١- د. عبد الرحمن عبد الرحيم - المرجع السابق ص٢٢٠ .

٧٢- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٧٢ .

٧٣- د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص٤٢ .

الفصل الرابع

الجزيرة العربية فى العصر العثمانى الثانى ١٨٤٠-١٩١٦

أولا : شرق ووسط الجزيرة العربية تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠-١٩١٦ .

ثانيا : الوضع فى عمان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ثالثا : الوضع فى حضرموت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

رابعا : اليمن تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠ - ١٩١٦ .

خامسا : الحجاز تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠ - ١٩١٦ .

سادسا : التنافس الانجلو - عثمانى فى شرق الجزيرة العربية ١٨٧١ - ١٩١٦ .

أولا: شرق ووسط الجزيرة العربية تحت الحكم العثمانى الثانى ١٨٤٠-١٩١٨

حاول على رضا والى العراق العثمانى استمالة خورشيد باشا ليسند إليه أمر الجزيرة العربية التى أبدى خورشيد باشا مهارة فائقة فى السيطرة على قبائلها ، بالاضافة إلى أن خورشيد باشا كان يحظى بتأييد بعض قبائل جنوب العراق خاصة «المنتفق» الذين بعثوا إليه بعريضة يطلبون فيها انضمامهم إليه ؛ وليس أدل على شعبية خورشيد فى جنوب العراق آنذاك من التأييد الذى أعلنته احدى الكتائب العثمانية إذ فرت على السفن الكويتية والتحقت بقوات خورشيد باشا فى الاحساء لقد كان على رضا الذى اسندت إليه ولاية جدة بالاضافة إلى ولاية العراق يبحث عن نائب له ليعينه على تلك الولاية فراى فى خورشيد خير من يصلح لذلك المنصب ولكن خورشيد رفض العرض الذى قدمه والى العراق وأثر الانسحاب متقيدا بأوامر سيده مطيعا لشرفه العسكرى وعلى الرغم من أن بعض التقارير البريطانية كانت قد عزت إنهاء حملة خورشيد باشا إلى حسد محمد على الذى كان يجيش فى صدره للانتصارات التى حققها ذلك القائد فى جبهة الخليج العربى فى شرق الجزيرة العربية إلا أن ذلك غير صحيح ويرجع سبب الانسحاب إلى موقف بريطانيا على مصالحها الاستعمارية فى المنطقة . مما سبب هذا الانسحاب المصرى من الجزيرة العربية فراغا كبيرا فى المنطقة لم يتمكن احد من ملئ هذا الفراغ وخاصة بعد الاحتلال البريطانى لجزيرة خرج ١٨٣٨ الواقعة فى الشمال من الخليج العربى بالقرب من مصب شط العرب وبقاء الاحتلال البريطانى فى تلك الجزيرة حتى عام ١٨٤٠ فى الوقت الذى كانت الدولة العثمانية منشغلة بتنظيماتها الداخلية ، وبمشاكلها الخارجية كما كانت كيانات شرق الجزيرة العربية قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والتفكك ، بحيث لم تستطيع أن تسد جانبا من هذا الفراغ بما فى ذلك عمان التى انصرف حاكمها إلى «زنجبار» ولم تعد هناك قوة محلية يعتد بها فى حين عملت بريطانيا على تأكيد نفوذها السياسية وملئ الفراغ فى الخليج العربى وشرق الجزيرة العربية بصورة أقوى مما كانت عليه فى النصف الأول من القرن التاسع عشر[1] .

أخذ مركز بريطانيا يزداد قوة فى علاقاتها مع شيوخ القبائل فى شرق الجزيرة العربية وخاصة فى عمان وساحل عمان والبحرين وقامت بريطانيا بتعزيز قواتها فى تلك الجهات وبعثت سفنها الحربية لمحاصرة ساحل الاحساء فى لحظات انسحاب القوات المصرية من شرق

الجزيرة العربية فى شكل استعراض للقوة من جانب ، ومن جانب آخر منع بقاء أى قوات مصرية فى المنطقة لمصلحة أى جهة محلية أو العمل لصلحها أو الانضمام إليها كما أرادت بريطانيا باستعراض قواتها لتنبيه شيوخ القبائل العربية فى عمان وساحل عمان والبحرين والمصريين أيضًا بأنها سيدة الموقف فى المنطقة وفعلا بدأ واضحا أن نفوذها أخذ يزداد قوة على أثر ذلك الانسحاب المصرى فقد تركت تلك القوات المنسحبة فراغا كبيرا ولكن الدولة العثمانية التى عادت لها السيطرة الاسمية على المنطقة باسم والى العراق لم تحسن استغلال تلك الفرصة لتقوم بتدعيم سلطانها فى تلك الجهات وكانت امارات شرق الجزيرة العربية مثل البحرين وساحل عمان وعمان التى وضعت نفسها تحت السيطرة البريطانية كانت أيضا ضعيفة فلم تستطع إحداها أن تسد ذلك الفراغ .

عملت السلطات العثمانية فى العراق على أن ترث الحكم المصرى فى الجزيرة العربية بعد إنسحاب القوات المصرية منها إذ برزت فى أذهان العثمانيين أهمية الجزيرة العربية بعد ذلك التوسع المصرى ، وبدأ العثمانيون يفكرون من جديد فى العودة إليها فراح الباب العالى يصدر فرمانا باسناد ولاية «جدة» وتوابعها من «نجد و «الاحساء» إلى والى العراق على رضا وعين الاخير من قبله نائبا عنه ليقوم بأمور ولاية «جدة» وطلب من السلطات البريطانية أن تحمل نائبه المتوجه إلى مركز عمله فى «جدة» على ظهر إحدى اسفن الحربية البريطانية خوفا من أن تتعرض له القوات المصرية وكان من الطبيعى أن ترحب به السلطات البريطانية بذلك التى قامت بنقل نائب الوالى العثمانى إلى مقر عمله الجديد على إحدى سفنها المتوجهة إلى هناك وكانت الدولة العثمانية بذلك تعود إلى حكم الجزيرة العربية ومعها النفوذ البريطانى ولم يحاول على رضا والى العراق تغيير الأوضاع المحلية فى داخل الجزيرة العربية فترك أمراء آل سعود مثل خالد بن سعود أميرا على «نجد» ، وأحمد بن مبارك بدير شئون الاحساء ، وكانت القوات المصرية انسحبت من الاحساء عام ١٨٤٠ ثم تابعت انسحابها من «نجد» مخلفة وراءها خالد بن سعود وعلى الرغم من أنه كان لايملك القوة الكافية لتدعيم حكمه إلا أننا نراه فى أكتوبر ١٨٤١ يزحف إلى الاحساء من أتباعه ويستولى عليها . ومن هناك راح يعد حملة لارسالها إلى «عمان » عن طريق «البريمى» التابعة لقبائل «النعيم» و «البوشامس» العمانية لاخضاعها لنفوذه وقبل أن يخرج مشروعه ذاك إلى حيز التنفيذ واجه معارضة صريحة من السلطات البريطانية فى الخليج العربى إذ أرسل المقيم السياسى

البريطانى إليه أحد ضباطه ليحذره من القيام بأى عمل ضد كيانات ساحل شرق الجزيرة العربية المرتبطة بمعاهدات الحماية مع الحكومة البريطانية . ولقد كان لتلك المعارضة أكبر الأثر فى تنى خالد بن سعود عن مجرد متابعة التفكير بارسال تلك الحملة وفى ديسمبر من عام ١٨٤١ كان قد أطيح بخالد بن سعود من قبل عبدالله بن ثنيان الذى كان ينقم على خالد بن سعود ويتهمه بالخضوع للمصريين والبريطانيين ولم يستطع خالد المقاومة بل سارع إلى الفرار تجاه الاحساء واستقر فيها محاولا اتخاذها مقرا لمقاومة عبدالله الذى كان شيوخ القبائل فى نجد تسارع فى االنضمام إليه مما أسقط الاحساء من يد خالد فهرب إلى «الدمام» ومنها إلى الكويت وأخيرا استقر بمكة وقبل أن يتخلص خالد بن سعود نهائيا عن الحكم وأثناء التجائه «للدمام» طلب من شيخ قلعة «الدمام» مبارك بن عبدالله بن احمد الخليفة المساعدة فوعده أخيرا وأرسله إلى والده أمير البحرين الذى كان يقيم فى «خور حسان» على ساحل «قطر» وقد زاره خالد فى ابريل عام ١٨٤٢ وعرض عليه الوضع وطلب منه المساعدة فاوعز شيخ البحرين إلى ابنه مبارك بالقيام ببعض الغارات على بعض موانئ ساحل الاحساء «كالعقير» باسم خالد بن سعود ، وكان شيخ البحرين يرى فى قضية خالد ورقة رابحة للسيطرة على بعض سواحل الاحساء الهامة لتدعيم وجود ابنه «مبارك» على ذلك الساحل وللحد من اطماع حفيد الشيخ «محمد بن خليفة» الذى كان يحاول بتشجيع من بنى خالد ومن بريطانيا السيطرة على ساحل الاحساء وذلك فى أعقاب انسحاب القوات المصرية إذ كان قد وصل إلى البحرين عام ١٨٤٠ احد شيوخ بنى خالد يعرض على محمد بن خليفة تنصيب نفسه حاكما على تلك المنطقة ولقد لاقى ذلك الطلب هوى فى نفس محمد بن خليفة ولكن حاكم البحرين «عبد الله بن احمد» عارض تلك الفكرة يومها مما كان سببا فى قيام نزاع عنيف وطويل بين حاكم البحرين ، وبين محمد بن خليفة الذى استطاع فى نهاية المطاف التغلب على عم أبيه وطرده من البحرين عام ١٨٤٣ (٢).

أخذ عبد الله بن ثنيان بمجرد استيلائه على الاحساء فى التطلع إلى التوسع إلى كيانات شرق الجزيرة العربية فبدا على الفور يرسل الكتب الى شيوخ القبائل فى ساحل عمان وعمان ويدعوهم إلى تأييد ومناصرة القائد الذى سيرسله إلى ساحل عمان وعمان وكان قد عقد العزم على ارسال سعيد بن مطلق المطيرى إلى تلك المناطق ولكن عبدالله بن ثنيان واجه موقفنا صلبا من بريطانيا التى ارسلت رسالة عن طريق المقيم السياسى البريطانى فى الخليج

العربى يحتج فيها على مخططاته التوسعية فى شرق الجزيرة العربية وأوضح له بأن بريطانيا لن تقف من تلك المخططات مكتوفة الأيدى . ولكن «عبدالله بن تنيان» واجه صعوبات فى الحكم عندما عاد «فيصل بن تركى» من منفاه فى مصر وتسلم فى أوائل عام ١٨٤٣ وهناك عدة آراء أجمعت على عودة فيصل وعلى رأسهم «ابن بشر» المؤرخ النجدى الذى يقول ان فيصل تمكن من الهرب من سجنه دون علم سلطات المصرية وراح يصف فراره حتى وصل إلى «جبل شمر» حيث لقى الترحيب والكرام من صديقه القديم شيخ الجبل «عبدالله بن رشيد» ولقد أيد تلك الرواية «حافظ وهبة» ولكنه جعل ذلك الفرار بعلم رجالات السلطة فى مصر إذ يقول : «تمكن فيصل بن تركى من الفرار من مصر ويقال أنه تمكن من ذلك بمساعدة عباس الأول» وهناك من يقول بأن «فيصل» كان قد أطلق سراحه من مصر ليعود إلى حكم نجد برضى محمد على وعلمه وبأن عودة فيصل إلى الحكم كانت بتأثير من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى الكابتن «هنيل» الذى بعث رسالة إلى محمد على يرجوه فيها الافراج عن فيصل بن تركى خاصة وأن حملة خورشيد باشا التى وجهة ضده قد انتهت ، ولهذا فان قصة هرب فيصل كما اوردها ابن بشر غير مقبولة بحزافيرها إذا كان من الصعب افلات فيصل بن تركى ورفاقه من سجن محمد على ووصولهم إلى «نجد» دون علم السلطات المصرية ودون محاولتها إلقاء القبض عليهم إذ ان هرب أى أسير يكتشف عادة بعد ساعات قليلة ويجرى تعقبه وخاصة إذ كانت الدولة تخشى قراره أو إذا كان فراره بدون علمها . أما الرأى الثانى لماذا أقدم عباس باشا ولى عهد مصر على اطلاق سراح فيصل ؟ وقد يكون وراء تهريبه هدف خاص يتصل بسياسة مصر الخارجية ، ولماذا لم يرسل محمد على اسيره فيصل بن تركى فى موكب رسمى مثل «الامير خالد بن سعود» فى السابق وجعله حاكم لنجد ، ولماذا اجرى تهريبه بصورة سرية . اما عن الرأى الآخر الذى يجعل من تدخل المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى سببا فى اطلاق سراح فيصل بن تركى «عسى أن يكون أكثر اعتدالا من عبدالله بن ثنيان ذلك النجدى المعادى للاستعمار البريطانى الذى كان يسعى للتوسع فى كيانات شرق الجزيرة العربية المرتبطة بمعاهدات مع بريطانيا وهل كان محمد على يوافق على اقتراح «هنيل» ذلك المقيم السياسى البريطانى الذى وقف ضد المصريين فى شرق الجزيرة العربية ؟ ويمكننا القول بأن السلطات المصرية التى كان «عبدالله بن ثنيان» يناصبها العداء فموقفه من بقايا تلك القوات التى كانت مع خالد بن سعود معروف تماما وربما كان لطلب بريطانيا وقع يوافق ما فى نفس محمد على ولكنه لم يطلق سراحه علنا خوفا عليه من

عبدالله بن ثنيان وخوفا من أن يقف أهل نجد وقبائلها موقفا معارضا كما وقفوا من خالد بن سعود فيصفوه بالعمالة لمصر ولذا راحت السلطات المصرية تهربه وربما كان عباس باشا هو الذى نفذ تلك العملية بصورة سرية ليشاع بين الناس أنه فر من سجنه ولكى يتمكن من أداء دوره فى حكم نجد هذه المرة ولكن دون معارضة والى مصر أو الدولة العثمانية فلقد بعث إلى المقيم البريطانى فى أكثر من مرة بعد عودته يؤكد تبعيته للباب العالى كما أن بلاطه لم يخل من موفدى والى مصر بعد ذلك (٣).

ويقول جون كيلى (٤): فى شهر مايو ١٨٤٣ أفرجت السلطات المصرية فى القاهرة عن فيصل بن تركى حاكم نجد السابق ويبدو أن فيصل بن تركى قد عاد إلى السلطة فى نجد كصنيعة محمد على والسلطان العثمانى فى نفس الوقت لأنه شرع منذ ذلك الوقت فى دفع الزكاة إلى محمد بن عون شريف الحجاز الذى أوكل إليه محمد على السلطة فى الحجاز على أثر انسحاب القوات المصرية منها وقد سبق أن اعترف الامير خالد قبل عامين بالسيادة العثمانية على الحجاز على الرغم من أن الباب العالى لم يكن يتمتع بالأسس القانونية للسيادة على نجد ، على أن السلطات البريطانية فى الهند أخذت تنظر إلى عودة فيصل بن تركى إلى الحكم بتحفظ كبير أما «هنيل» فقد كان يتصور أن فيصل بن تركى سيمارس نفوذا أكثر ثباتا فى الأوضاع السياسية للجزيرة العربية من خالد بن سعود حتى أنه أوصى فى شهر فبراير ١٨٤١ بممارسة الضغط على محمد على للافراج عن فيصل بن تركى اعتقادا منه أن مثل تلك الخطوة بالاضافة إلى أن الانطباعات التى كان فيصل بن تركى قد كونها عن قوة النفوذ البريطانى قد تشجعه على تأييد الجهود البريطانية التى تبذل لتحقيق السلم والاستقرار فى المنطقة حسب المفهوم البريطانى ، وقررت حكومة بومباى وبعد إجراء مشاورات مع حكومة الهند فى نهاية العام ١٨٤٣ أن تستمر فى اظهار مشاعر الصداقة تجاه فيصل بن تركى طالما اقتصرت جهوده على تثبيت حكمه على ممتلكاته السابقة (وذلك أيضا حسب مفهوم وتفسير السياسة البريطانية) . أما إذا أصبحت علاقته بالبحرين وساحل عمان وعمان تهدد بالاعمال العدائية ضد بريطانيا فى المنطقة فينبغى مقاومة تلك السياسة وبعبارة أخرى فلم تكن هناك نية لوضع حدود معينة للمناطق التى يشملها نفوذه وعليه فعندما اتصل شيوخ البريمى من «النعيم» و «البوشامس» التابعين لعمان بالمقيم البريطانى فى نوفمبر ١٨٤٣ يعربون عن مخاوفهم من هجوم فيصل بن تركى محتمل على منطقتهم ويطالبون

بالمساعدة البريطانية لرده وقد اخبرهم المقيم بأن سياسة المحافظة على استقلال منطقة البريمى العمانية فى وجه التهديدات القادمة من نجد إنما كانت تنطبق فقط على الفترة التى كان المصريون يحكمون فيها الجزيرة العربية وخلال حكم مرشح الادارة المصرية الامير خالد بن سعود اما وقد انسحب المصريون والأمير خالد من المسرح فان الحكومة البريطانية بدورها لن تسعى إلى التدخل فى سياسات المنطقة وفى شهر ديسمبر تلقت الممثلية البريطانية رسالة من فيصل بن تركى يبلغها فيها استئنافه الحكم فى نجد والاحساء ويعرب عن أمله فى استمرار العلاقات الودية التى كانت قائمة بينه وبين الحكومة البريطانية . وقد بعثت حكومة الهند بردود إليه وأشارت فى ردها إلى حرص الحكومة البريطانية على الامن البحرى فى مياه الخليج العربى كما أشارت بنوع خاص إلى أنها تأمل بأن لايتعرض امتداد نفوذه مع ممارسة شيوخ القبائل فى ساحل عمان لالتزامهم للمحافظة على السلم فى المنطقة .

التزم فيصل بن تركى بتعليمات البريطانية بعدم التعرض لشيوخ القبائل العربية الموقعة مع بريطانيا اتفاقيات الحماية والهدنة البحرية وأن فيصل بن تركى يعتبر نفسه قائمقام عثمانيا وأن السلطات البريطانية اعترفت بذلك بعدما لعبت دورا كبيرا لدى السلطات المصرية للافراج عنه من السجن وتعينه قائمقام عثمانيا فى «نجد» و «االحساء» وكان فيصل بن تركى يدفع مبلغا من المال من الضرائب والزكاة إلى شريف الحجاز الذى كان بدوره تابعا للدولة العثمانية ، وعندما قامت بريطانيا بطرد «محمد بن عبدالله الخليفة» من الدمام بالقوة وقصفت موانئ ساحل الاحساء بنيران مدافعها فى نوفمبر ١٨٦١ فان السلطات العثمانية فى العراق قدمت احتجاجا شديد اللهجة لدى الحكومة البريطانية على تلك التصرفات على أساس أن «الدمام» تابعة للامير فيصل بن تركى الذى كانت تعتبره «قائمقام نجد» وتابعا من اتباع الباب العالى وأرضه جزء من املاك السلطان الموروثة ، وكان «احمد توفيق باشا» والى العراق وجه رساله عام ١٨٦١ إلى «كمبول» القنصل البريطانى فى بغداد يحتج فيه على سياسة المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى «فلكس جوفز» الذى كان قد هاجم «الدمام» التابعة «لفيصل بن تركى» ولقد صرح والى العراق فى احتجاجه بأن «فيصل بك» قائمقام» عثمانى وأن الدمام أرض عثمانية ، لايحق للبريطانيين مهاجمتها وكان «كمبول» قد ارسل نسخا من تلك الرسالة مع تعليقه عليها إلى كل من السفير البريطانى فى «الآستانة» والى حاكم الهند وقد أكد فى رسالته أنه لايستطيع انكار فيصل بن تركى تابع

للدولة العثمانية وأن منطقة الدمام تابعة له ، ولما احس فيصل بن تركى بضعفه فى يونيو ١٨٦٥ كان قد عين ابنه عبدالله وارثا للحكم ولقائمقامية «نجد» العثمانى بشكل رسمى فأخذ عبدالله بن فيصل يسير أمور القائمقامية لنجد منذ تلك اللحظة حيث توفى والده بعد قليل ، وفى الثانى من فبراير ١٨٦٦ قصفت القوات البريطانية ميناء «القطيف» ، وراح عبدالله بن فيصل يستنجد بوالى العراق العثمانى آنذاك «نامق باشا» ويعترف بتبعيته للدولة العثمانية لتساعده ضد تدخل البريطانى فى منطقته ؛ ولكن يبدو أن السلطات العثمانية آثرت عدم التورط بالدخول فى صراع مع البريطانيين آنذاك ولم تتعد مساعدة العثمانيين الاحتجاج لدى قنصل بريطانيا فى بغداد على تلك الاعمال ؛ ولذا أدرك «عبدالله بن فيصل» أن عليه الاسراع لاسترضاء بريطانيا وخاصة حينما فشل فى جلب مساعدة من قبل الدولة العثمانية ولذا راح عبدالله بن فيصل يرسل أحد اتباعه «محمد بن عبدالله بن مانع» إلى المقيم السياسى البريطانى فى بوشهر لتقديم الغرامة والاعتذار كما أنه اعلن عن رغبته فى صداقة بريطانيا وتعهد باحترام مصالحها فى المنطقة وقد وضع ذلك الاعلان وتم التوقيع عليه فى ٢١ / ٤ / ١٨٦٦ وهذا نصه [٥]:

«... أقر أنا محمد بن عبدالله بن مانع بالنقاط التالية وأؤكدها :

١- خولنى عبدالله بن فيصل أن طلب إلى الصاحب المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ليكون وسيط الصداقة بين عبدالله بن فيصل والحكومة البريطانية .

٢- أؤكد للمقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى نيابة عن عبدالله بن فيصل أنه لن يلحق الأذى أو الضرر بالرعايا البريطانيين المقيمين فى الاراضى الواقعة تحت سيطرة عبدالله بن فيصل .

٣- أؤكد للمقيم السياسى البريطانى نيابة عن عبدالله بن فيصل بأنه لن يهاجم أو يلحق الأذى بأراضى القبائل المتحالفة مع الحكومة البريطانية ولاسيما تلك المقيمة فى ساحل عمان وعمان .

وبرغم تلك الاتفاقية والتزام عبدالله بن فيصل بتعليمات بريطانيا فانها لم تكن راضية عن سلوكه منذ أواخر عهد أبيه فيصل وهو على فراش الموت عندما كان يشتكى دائما لدى الوالى العراقى الذى بدوره يرفع تلك الشكاوى إلى الباب العالى وخاصة فى عامى ١٨٥٩

و١٨٦٦ عندما ارسل القائمقام عبدالله بن فيصل فى ٢٩ / ٣ / ١٨٦٦ رسولا عنه اسمه «عبد العزيز بن سويلم» إلى والى العراق «نامق باشا» يطلب مهن العون لصد الاعتداءات المتكررة التى تتعرض لها سواحل بلاده من قبل السلطات البريطانية فأرسل والى العراق احتجاجا إلى القنصل البريطانى فى بغداد على تلك الاعمال وطلب أن ينقل احتجاجه إلى حكومة الهند ويطلب منه عدم تكرار الاعتداء على الاراضى العثمانية ، ولقد نقل «كمبول» القنصل البريطانى فى بغداد وجهة نظر والى العراق إلى سفيره فى الآستانة وأخبره بأن الموفد من قبل القائمقام عبدالله بن فيصل إلى العراق سيواصل سفره إلى الآستانة ليشرح وجهة نظره للباب العالى وحذر «كمبول» فى رسالته تلك من أن نامق باشا يعتزم البدء بتنفيذ سياسة جديدة تتعلق ببعض الموانئ على ساحل شرق الجزيرة العربية هدفها تقوية الروابط بين هذه الموانئ والدولة العثمانية . وكانت الوثائق البريطانية تصف القائمقام عبدالله بن فيصل بأنه قصير - قوى - شجاع - ذو مهارة عسكرية فائقة - متعطش للدماء - مخادع وقاسى بينما تجعل من اخوه سعود طويلا جميلا - شجاعا - كريما روحه مرحلة وقلبه طيب مما جعل شعبيته عالية بين صفوف الشعب وخاصة البدو منهم وفى ذلك تحامل بريطانيا على عبدالله ومحاباة لأخيه سعود . وأن الخلاف بينهما كان قد وصل إلى ذروته وتدخلت فيه اسباب عديدة وربما كانت خارجة عن ارادتهما ، وتمكن سعود من الحصول على مساعدات من شيوخ القبائل المتحالفين مع بريطانيا مثل عزان بن قيس فى عمان الذى قدم له بعض المساعدة وشجعه على المضى فى قتال اخيه غادر سعود البريمى إلى البحرين وهناك لقى مساعدة من آل خليفة وكان الدور البريطانى واضحا فى مساعدة سعود ضد عبدالله وكانت بذلك تخالف سياستها - كما تدعي التى تقضى بالمحافظة على الأمن فى المنطقة وعدم الاعتداء من قبل أى طرف ضد الآخر ولقد ثبت أن البريطانيين كانوا يشجعونه على القيام بهذا العمل [٦١].

انتصر سعود بمساعدة بريطانيا ماديا وعسكريا وقبائل العجمان الذين استطاعوا بزعامة شيخهم «راكان بن حثيلين» وعدو «عبدالله بن فيصل» القديم ابادة جيش عبدالله فى معركة المسمى بآيار «جودة» فى ٢٠ / ١٢ / ١٨٧٠ وفى العام التالى ١٨٧١ استقر سعود فى الحساء ورتب أموره فيها وزحف إلى الرياض فرحل عبدالله قبل وصول اخيه ، استطاع سعود أن يستولى على مقاليد الامور فى «نجد» و «الحساء» واضطر عبدالله بن فيصل إلى اللجوء إلى «آل رشيد» حكام جبل شمر فى نجد الشمالى ومن «حائل» عاصمة آل رشيد بدأ

عبدالله يتصل بوالى العراق يستعد به علي اخيه واعدا بأن يقدم ولاءه الكامل للباب العالى ولاسيما أن السلطان العثمانى كان قد منحه لقب قائمقام «نجد» بعد وفاة والده فيصل بن تركى ١٨٦٥ .

يبدو أن والى العراق مدحت باشا والباب العالى كانا بانتظار مثل هذا الحدث وهذه الدعوة إذ أن فكرة اعادة الحكم العثمانى المباشر للاحساء ونجد كانت قائمة لاسيما وأن ممتلكات الدولة العثمانية كانت قد بدأت فى التقلص فى كل من البلقان وعلى الحدود مع روسيا فى وآسيا غير أن الاستعدادات للحملة فى العراق ومباركة الآستانة لها قد أثار مخاوف البريطانيين فى كل من لندن والهند ؛ ذلك أن بريطانيا كانت قد وطدت اقدامها فى شرق الجزيرة العربية القريبة من الاحساء فى كل من ساحل عمان بمعاهدة ١٨٦١ البحرية وكذلك البحرين وعمان وأن البريطانيين كانوا حريصين على ألا تنتقص حملة الاحساء هذه من نفوذهم فى مياه الخليج العربى إذ انهم كانوا حريصين على البقاء سادة مياهه ثم مد نفوذهم فى بعض كياناته برا والتى ارتبطت معهم باتفاقيات خاصة مثل البحرين وساحل عمان وعمان فما دام العثمانيون لم يتعرضوا لتلك السيادة فسوف يبقى موقف بريطانيا فى المنطقة موقف المراقب ، تجمعت الحملة العثمانية المؤلفة من جنود اتراك وفرسان من عرب «المنتفق» فى البصرة وكان عدد الجند العثمانى ثلاثة آلاف فى حين بلغ عدد الفرسان العرب الفان وزودت الحملة بتسعة مدافع ميدان وحملت السفن الحربية العثمانية عددا كبيرا من الجند الاتراك وتقدم الفرسان العرب على طريق البر وأن نقطة التجمع كانت الكويت التى اعدت أسطولها البحرى وكذلك كثيرا من الفرسان العرب ليتجهوا برا إلى نقطة التلاقى للقوات البحرية والبرية فى الاحساء وفى يوم ٢٠ / ٤ / ١٨٧١ حملت باخرة حربية عثمانية عددا بين ٤٠٠ , ٥٠٠ جندى على ظهرها وتحركت من البصرة باتجاه الجنوب وكذلك غادرت بطريق البرقوة المدفعية وبعض الخيالة وفى ٢٣ ابريل تبع هؤلاء عدد اكبر من المشاة وآخرون بطريق البحر وأن كلا من السفن والحملة البرية قد تجمعت فى الكويت حيث انضم اليها فرسان من القبائل العربية فى الكويت وحملت السفن الكويتية المعدات والذخائر بعد أن تقابلت السفن والحملة البرية عند رأس « «تنورة» يوم ٢٦ مايو تحركت جموع الجيش بحرا وبرا متجهة إلى هدفها الأول وهو «القطيف» والتى رفض قائد حاميتها التسليم وفى هجوم بحرى قام به أسطول الكويت وبرى قام به الجيش العثمانى سقطت المدينة بعد أن امطرتها القوات المحاصرة

بالقنابل ولم تدم معركة القطيف سوى ثلاث ساعات ثم تحركت الحملة جنوبا لمهاجمة «الدمام» التى سقطت بيد المهاجمين دون مقاومة وفى أوائل يوليو واصلت الحملة زحفها متجهة إلى واحة الاحساء ·الهفوف) التى بلغتها بعد أسبوعين وفى هذه الأثناء توجه الشيخ عبدالله بن صباح حاكم الكويت إلى الدوحة بحرا فى مهمة تهدف إلى اقناع «محمد بن ثان» للانضمام إلى صف العثمانيين واسفر عنه هذه الزيارة رفع العلم العثمانى فى الدوحة رغم رفض الاخير وكان هدف ابنه «قاسم بن محمد» الذى وافق بالسيادة العثمانية للتخلص من نفوذ آل خليفة حكام البحرين (٧).

قرر مدحت باشا القيام بجولة تفتيشية على قواته فى الاحساء فى أواخر عام ١٨٧١ وهناك أعلن أن نجد والاحساء إنما يخضعان للادارة العثمانية مباشرة وذلك بناء على التماس قدمه تجار وزعماء الاحساء وهو يعلن أن حكم آل سعود قد انتهى وأن نافذ باشا قد عين متصرفا لسنجق نجد الذى يضم الاحساء ولما سمع عبدالله بن فيصل باعلان مدحت باشا المذكور فرمن المعسكر العثمانى «بالهفوف» واستنكر الاعلان قائلا بأن العثمانيين إنما جاؤوا إلى الاحساء لاعادة حقه فى الحكم لا ليخلفوه فى الحكم وبعث إلى الباب العالى يعلن أنه ما زال مستعدا للخضوع للسلطان العثمانى ، وكانت الكويت قد لعبت دورا بارزا فى هذه الحملة حيث كانت نقطة التجمع للقوات الزاحفة برية وبحرية على حد سواء وأن تلك السفن حينما غادرت البصرة لم تكن محملة بالذخائر ولذلك كان لابد للجيش المحمول على ظهرها أن يتزود بذخائره من الكويت من ناحية وأن تحمل معظم تلك الزخائر على عشرات السفن التى وعدت الكويت الحملة بها التى بلغ عددها نيفا وثلاثمائة سفينة اضافة إلى التأكد من وصول القوات العربية البرية قوات «المنتفق» إلى الكويت فى طريقها إلى الاحساء جنوبا وهذه ليست هى المرة الأولى التى تمر فيها القوات العثمانية عن طريق الكويت فقد حدث مع حملة «ثوينى» زعيم «المنتفق» وحملة على باشا كيخيا بغداد فى أواخر القرن الثامن عشر والامر الذى يسر للقوات العثمانية استخدام ميناء ليس فقط ترحيب الشيخ عبدالله بن صباح بالمساهمة فى الحملة بل عدم مقدرة السلطات البريطانية على التدخل فى شئون الكويت الداخلية لتمنع مساهمة الكويت فى الحملة بارسال سفنها للقتال بحرا والخيالة بقيادة الشيخ مبارك بن صباح للقتال برا ، وبذلك لعبت الكويت دورا سياسيا وعسكريا لابد أن يرى بوضوح المركز السياسى الهام الذى كانت ستؤول إليه على الصعيدين المحلى والدولى وأنه

لابد من توفر قدر كبير من الحصافة السياسية لدى المسؤلين فيها حتى يستطيعوا تجنب اخطار كانت محدقة ببلدهم وأن عبدالله بن صباح آل صباح قد استطاع بما أوتى من بعد النظر والحكمة فى معالجة موقف الكويت اثناء تلك الفترة الحرجة فترة الحملة على الاحساء أن يجنب الكويت الوقوع فى قبضة ولاة بغداد العثمانيين ؛ وهكذا تكون الكويت قد استطاعت المحافظة على استقلالها فى هذه الفترة بنفس الطريقة التى جنبها عبدالله الأول بن صباح الأول مخاطر مماثلة [٨]. واستمر الحكم العثمانى المباشر لشرق الجزيرة العربية حتى قيام الحرب العالمية الأولى .

ثانيا : الوضع فى عمان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

تتكون عمان فى عام ١٨٣٢ من اقليمين الاقليم الاسيوى الذى كانت مسقط عاصمة له والاقليم الافريقى الذى كانت عاصمته زنجبار وفى هذه السنه أى ١٨٣٢ اتخذ سعيد بن سلطان زنجبار عاصمة لسلطنة العمانية ومع ذلك فانه ترك لمسقط دورها كمدينة اساسية مع أن كل العلاقات التى تتم كان مركزها زنجبار وكان سعيد بن سلطات قد وصل إلى الحكم عام ١٨٠٦ وواجهته على مدى عشرين سنة حروب تكاد لاتنقطع شنها «النجديون» الذين كانوا يهاجمون بعض مدنها وانتهت هذه الحروب لصالح سعيد بن سلطان الذى اظهر فى هذه المرحلة الحرجة اقصى درجات الذكاء والحكمة وبعد أن تمتعت عمان بالهدوء لبعض الوقت أدرك سعيد بن سلطان أن عليه أن يهتم دون تأجيل بالممتلكات العمانية فى افريقيا وخاصة فى زنجبار والواقع أن القادة الذين كانوا مسؤلين عن هذه الممتلكات كانوا قد بدأوا يتمردون ضد السلطة المركزية فى عمان فرفضوا دفع الخراج وزادت سلطتهم الشخصية بصورة غير شرعية ، ومن جهة أخرى كان هؤلاء يتوقعون نصرا لغارات النجدية كما يمكن أن يخلصهم من سعيد بن سلطان ولكن وصوله إلى زنجبار عام ١٨٢٨ وضع حدا فجائيا لطموحات هؤلاء فاضطروا للخضوع ودفع الضريبة المقررة عليهم ، ولكن ما أن رجع سعيد بن سلطان إلى مسقط حتى تجاهل أولئك الوجهاء التزاماتهم مما دفع سعيد للمجئ للاستقرار بصوره نهائية فى زنجبار عام ١٨٣٢ وبفضل ادارته للشئون الداخلية عاد الهدوء والرخاء إلى الجزيرة وفى ابريل اضطر للتوجه إلى مسقط لتسوية نزاع بينه وبين مجموعة من القادة التابعين لشاه ايران فى «بندر عباس» ولكنه عندما أراد العودة مجددا إلى زنجبار فى اكتوبر ١٨٥٦ اصيب فى الطريق بعارض صحى عجل بموته قبل أن يصل إلى الجزيرة ، قامت حكومة سعيد بن سلطان

على أساس السلطات الفردية فكان من الصعب فى هذه الحالة الحفاظ على وحدة بلاده التى كانت تضم بالاضافة إلى عمان جزء من شرق افريقيا تابعا لزنجبار وبالاضافة إلى بعد المسافة كان تدخل الدول الاستعمارية الاوربية وخاصة بريطانيا احد الأسباب الرئيسية للانقسام علما بأن بريطانيا وقد عملت بنشاط من اجل الانقسام حتى عندما كان سعيد بن سلطان ما يزال حيا غير أنه تمكن طيلة حكمه من الحفاظ على سلطته فوق كامل أراضى دولته ، وعندما نقل عاصمته إلى زنجبار عند نهاية حكمه اكتشف بسرعة أن الأجزاء الآسيوية التابعة له سوف تعانى من هذا الوضع وأدرك بصورة تامة الخطر الذى كان يتشمل فى ازدواجية المركز فى دولته ولكن الخيار كان صعبا بين العاصمتين فاذا بقى فى زنجبار فان مشكلات عمان سوف تتفاقم وإذا عاد فاستقر مجددا فى عمان فان عليه أن يتخلى عن مطامحه التوسعية ولما رأى الانقسامات الداخلية التى تمزق عمان اختار «زنجبار» وسعى حتى تاريخ موته لتوطيد سلطته فى الجزء الافريقى من بلاده وأوكل سعيد وهو على قيد الحياة إلى كل من ولديه أمر جزء من بلاده معتقدا أنه بذلك يمنع اغتصاب السلطة ولما كان يرغب فى أن ياتم احترام خططه حتى بعد موته فانه طلب دعم الحكومة البريطانية وكتب إلى اللورد «ابردين» عام ١٨٤٤ يقول (٩):

« قررت أنه بعد موتى يتم تقسيم بلدى بين ابنى «خالد» الذى سوف يحكم الجزء الافريقى فى ممتلكاتى وبين ابنى «ثوينى» الذى سيكون له الجزء الآسيوى اننى آمل فى أن يكون ولداى فى مستوى مهمتهما وذلك بعون من الحكومة البريطانية كان سعيد مقتنعا بأنه انقذ دولته والواقع أنه لم يفعل اكثر من «تسليم الحمل للذئب» فخالد الذى كان من المفترض أن يستحق الشطر الافريقى مات عام ١٨٥٤ فى أيام والده الذى توفى بدوره بينما كان يستعد لاختيار خليفة لخالد وذلك فى ٣٠ اكتوبر ١٨٥٦ خلال رحلته من مسقط إلى زنجبار وهنا جمع أحد أبنائه ويدعى ماجدا وجهاء زنجبار وطلب إليهم أن يعترفوا به خليفة وهو أمر سهل لأن والده سبق له أن أوكل إليه شئون الحكم كافة خلال غيابه وفى ١٠ / ١١ / ١٨٥٦ اصبح ماجد حاكما لزنجبار و «ثوينى» لعمان ولكن ولدا آخر من أولاد سعيد بن سلطان ويدعى «تركى» انتهز فرصة وفاة والده ليعلن نفسه حاكما للمنطقة الشمالية من عمان ، واصطدم ماجد بن سعيد بسرعة كبيرة بالعديد من المتاعب ، فقد اضطر أولا للاحتراس من طموحات قبيلة «الحارثى» التى كانت تحكم زنجبار قبل أن يستلم الحكم فيها آل بوسعيد

ومن جهة أخرى فان وفاة أخاه ثوينى كان يطالب بدمج عمان وزنجبار تحت ظل سلطته نظرا لأنه كان معاديا لفكرة التقسيم وكان يعرف أن عائدات زنجبار وثرواتها أكبر من نظيرتها فى عمان وفى عام ١٨٥٦ - ١٨٥٧ عقد الأخوان اتفاقا فقد خشى ماجد من طموحات أخيه وما يمكن أن يؤدى إليه من صراعات دامية فوافق لتجنب ذلك على دفع اتاوة لثوينى مقدارها اربعون ألف «كورون» سنويا وأن هذا الاتفاق لم يحظ باحترام طويل الأمد فقد رفض ماجد أن يدفع عندما ابلغه ثوينى أن اتاوة الاربعين الف «كورون» تثبت برأيه تبعية زنجبار لمسقط وسرعان ما أعلن ثوينى الحرب على اخيه ، وكسب إلى جانبه شقيقا آخر هو «برنش» الذى كان يطمع بأن يحل محل حاكم زنجبار ولذلك فقد آثار القبائل المستءة على ماجد ومنها قبيلة «الحارثى» كما أنه نجح فى الحصول على دعم القوى الاجنبية وعلى الرغم من تركيع زنجبار إلا أن عمان بدورها لم تكن فى منأى عن الخطر لأن الايرانيين عرفوا كيف يستفيدون من النزاع بين أولاد سعيد الحاكم الأسبق لعمانْ ليستعيدوا المناطق التى كانوا قد فقدوها فى جنوب ايران مثل «بندر عباس» وجزيرة «قشم» و «بلوشستستان» فى حين نجح ماجد فى تأليف اخيه تركى على ثوينى بعد أن سبق لتركى أن أعلن استقلال صحار تحت رايته وقد توصل ماجد إلى ذلك من خلال تقديم السلاح والمعدات لتركى وفى الوقت نفسه استمرت الانتفاضات المحدودة فى تعكير عهد ثوينى واسهمت فى اضعاف عمان وهكذا باءت الدولة التى بذل سعيد بن سلطان الكثير من الوقت والعناية لبنائها منقسمة من الآن فصاعدا وأدت النزاعات بين خلفائه إلى الضعف الذى خدم مصالح فرنسا وبريطانيا على وجه الخصوص مما سمع لهما ببسط هيمنتها على هذه المنطقة وبمقتضى الاعلان - البريطانى- الفرنسى المشترك فى ١٠ مارس ١٨٦٢ تم الاعتراف بزنجبار ومسقط ككيانين مستقلين بعضهما عن بعض .

عرف عهد ثوينى بن سعيد العديد من الأزمات السياسية لم يكن ثوينى قادرا لمواجهتها وأظهر أنه عاجز عن حسم الامور فى اللحظة اللازمة مع أنه كان شجاعا واضطر ثوينى تحت وطأة انخفاض العائدات التجارية الناجمة عن المنازعات بين افراد الاسرة إلى ايكال أمر المناصب الرئيسية فى السلطنة إلى افراد من عائلته آل بوسعيد ويزيد من احتمال هذا الخطر أن المشكلات التى تسببها له زنجبار والنجديون والايرانيون كانت تتزايد يوما بعد يوم ولكنه نجح فى السيطرة على مسقط والمناطق الساحلة الاستراتيجية وبعد أن وصل إلى الحكم وجد ثوينى أن مشكلة زنجبار على حدتها ليست هى المشكلة الأهم وبالفعل فان الخطر كان يأتى

خصوصا من الوضع السياسى المضطرب الذى ورثه عمن سبقوه مما جعل بلاده مهددة من الخارج والداخل معا وعلى الصعيد الداخلى كانت توجد إلى جانب المناطق التى كان يسيطر عليها منطاق نفوذ ليس له عليها أية سلطة ومعروف أنه من الخطر الشديد على أى حاكم أن لايتمكن من فرض ارادته السياسية فى كل مكان من بلاده ومن جهة ثانية كان ثوينى موضع غيرة شديدة من داخل عائلته بالذات من جانب اخيه تركى المقيم فى صحار مع انصاره ومن جانب ابنه سالم الشديد الطموح واخيرا من منافسيه المحافظين أمثال عزان بن قيس ومع ذلك نجح ثوينى فى الحصول على ولاء القوى القبلية الرئيسية فى عمان وخاصة قبائل الهناوية التى يتزعمها صالح بن على الذى سبق له ان كان من المعادين لثوينى اما على الصعيد الخارجى فان «النجديين» الاعداء التقليديين لعمان قاموا بشن سلسلة من العمليات على الحدود لتوسيع رقعة نفوذهم السياسى ومن جهة أخرى كان البريطانيون يتدخلون مباشرة منذ «تحكيم كاننغ» حاكم الهند العام فى الشؤون الداخلية لعمان عبر الاشراف على كمية الضرائب التى كانت زنجبار تقدمها لمسقط ولكن ثوينى الذى سبق له أن كان حاكما على عهد ابيه كان قد اكتسب على الرغم من كل شئ مهارة كبيرة فى طريقة ارضاء الجميع والتعامل معهم كان يعرف منذ وقت طويل أنه بصفته حاكما عليه أن يتوقع حصول منازعات من أجل الحكم كما كان الحال دائما بالنسبة لكل حكام عمان ولكن الوضع السياسى الاقتصادى العام بعد ١٨٥٦ كان قد أصبح شديد الاضطراب والخطورة وأمضى ثوينى حياته كلها وهو يحاول الامساك بالوضع العام فى عمان دون أن يوفق فى ذلك على الاطلاق ومنذ بداية عهده اضطر لمواجهة انتفاضات قبلية قمع وصوله لمنطقة «العرض» تمردت قبيلة «الغوافر» ولكنه تمكن من اخماد التمرد وأخطر تمرد هو الذى قاده أخوه الاصغر «تركى» فلما نجح فى اعتقاله استطاع ثوينى أن يوسع نفوذه إلى المنطقة الساحلية التى سلمها لابنه سالم وعينه حاكما وبعد المشكلات مع عائلته بالذات جاء دور مقاطعة «الباطنة» للتمرد مما خلق لثوينى مصدرا جديدا للمتاعب ثم لما نجح ثوينى فى حل مشكلاته الداخلية اضطر لمقاتلة عزان بن قيس مدة سنتين وفى عام ١٨٦٤ أرسل ثوينى قوات إلى الرستاق لاحتواء حركة عزان وشلهاولكنه لم ينجح نتيجة لمقاومة عزان بن قيس ولكن ثوينى بعد أن اسر اخاه تركى نجح فى جذب كل القبائل العمانية لمهاجمة «البريمى» وعند بداية ١٨٦٦ توجه «ثوينى» الى «صحار» على رأس قواته بعد أن بلغ ذروة قوته ولكن بينما كان ينام فى قلعة «صحار» فى

فبراير قتله ابنه سالم بدعم من «النجديين» وهكذا انتهت حملة ثوينى بسرعة وانهارت الوحدة الوطنية [١٠]، ورث سالم ١٨٨٦-١٨٦٨ وضعا صعبا عن إبيه وعلى الرغم من النجاحات فى السياسة الداخلية فقد أظهر عجزه عن حل المشكلات السياسية الخارجية ولذلك تمت اقالته بعد سنتين من الحكم .

لم تكن أحداث ١٨٦٨ مجرد تبديل بسيط فى الحكم بل كانت حصيلة ثورة قامت بها عمان بأسرها وكانت أول ثورة تبدل مجرى تاريخ عمان بصورة جذرية منذ حكم اليعاربة الذين أرسوا أسس ممارسة السلطة فى عمان فى القرن السابع عشر ولاتختلف الثورة العمانية عام ١٨٦٨ كثيرا بتوجهها عن الثورات التى وقعت عند ظهور الاسلام فايديولوجية الثورة العمانية استوحت من مبادئ الاسلام بالذات وهو الدين الذى شكل اساس هذا المجتمع العمانى وقد تصدى المسئولون عن الثورة للوضع والمفهوم الدينى واعتبروه وضعا ومفهوما ارتداديا وبعد حرب السلطان «سالم بن ثوينى» دعا قادة الثورة علماء الدين إلى اجتماع عام لتوضيح اسس «الدولة الاسلامية المثلى» انطلاقا من المبادئ «الاباضية» وكانت أول نقطة على جدول الاعمال هى اختيار امام فرشح بعض القادة عزان بن قيس الذى تم انتخابه ، وما أن تشكل هذا النظام حتى شرع الامام عزن بسلسلة من الاعمال لتوطيد سلطته على عمان ولجح خلال السنوات الأولى من فرض ارادته السياسية على كامل الاراضى العمانية وفى عام ١٨٦٩ بلغ امامة عمان ذروته فكان الحكم فى هذه الفترة أقوى حكم عرفته عمان فى تاريخها إلا أن هذا النظام المركزى كان يحمل من داخله بذور ضعفه وسقوطه فالواقع أن النجاحات التى أحرزها الامام عزان كانت ترجع إلى التضامن الذى اظهرته له قبيلة «الهناوية» فى حين لم تكن قبيلة «الغافرية» متحمسة أبدا لهذا الامام دون أن تتمرد مع ذلك عليه بل بقيت فى حالة ترقب مما جعل الامامة بين ١٨٦٨ - ١٨٧١ تشهد هيمنة من جانب الهناوية لم يكن قائما على أكثر من تفاهم قام بين القبيلتين وأن أية حكومة فى تاريخ عمان لايمكن أن ترسخ اقدامها من دون تفاهم مسبق بين الهناوية والغافرية ، وهذه الهيمنة «الهناوية» مضافا إليها المتاعب المالية أدت إلى سقوط الامامة عام ١٨٧١ فقد عجز الحكم عن حل المشكلات الاقتصادية التى كانت عمان تشكو منها وأدى الشلل فى المبادلات التجارية هروب رؤوس الاموال إلى الخارج إلى حرمان الحكومة من التأييد الشعبى وخاصة فى المنطقة الساحلية التى تقطنها غالبية من الوسط التجارى وقد لعبت بريطانيا دورا

رئيسيا فى اسقاط الإمام عزان خوفا من بعث الامامة من جديد فى عمان كما حدث فى عهد اليعاربة ، وكان بمقدور الامام عزان أن يتجاوز كل هذه المتاعب لو لم يقف فى وجهة تركى بن سعيد وذلك بتحريض من بريطانيا كما حظى بدعم مالى من أخيه ماجد حاكم زنجبار لمهاجمة الامام عزان وبدعم من القبائل المعادية لعزان هاجم تركى «مطرح» فى نهاية يناير ١٨٧١ مستفيدا من الموقف السلبى الذى التزمته القبائل «الهناوية» الموالية للحكومة وهكذا تم قتل الامام ودخل تركى إلى مسقط واصبح حاكما لعمان ، وكان سالم ثوينى نفى تركى بن سعيد إلى الهند عام ١٨٦٧ مما أتاح له الفرصة أن يترقب أكثر مع بريطانيا التى ساعدته للوصول إلى الحكم ولهذا فقد ظل محتفظا بالثقة والاحترام تجاه بريطانيا طيلة حكمه (١٨٧١-١٨٨٨) احترم تركى التقاليد العمانية على الرغم من أنه لم يعتمد على عائلته فكان يستشير القنصل البريطاني الكولونيل «ميلس» والسير «ادوار روس» رئيسه بصورة منتظمة وكانت له معهما علاقات ودية ولما كان ينقصه المستشارون المجربون داخل عمان فقد ترك البريطانيون يوطدون دعائم نفوذهم دون منازع كما أوكل تركى إلى بريطانيا سياسته الخارجية فكانوا هم الذين قاموا بتسوية مشكلاته مع العثمانيين وباسمه أجرى البريطانيون الاتصالات مع الدول الغربية مثل هولند التى وقعت على معاهدة تجارية مع عمان عام ١٨٧٧ وكان تركى يعتقد أن استمرار حكمه مرتبط بدعم بريطانيا له وبمشيئتها ، وهذه القناعة جعلته يترك الهيمنة البريطانية تتعزز على عمان لدرجة أنه فى ١٣ / ٦ / ١٨٧٦ أعلنت حكومة الهند رسميا أنها المسؤولة عن استقلال عمان [١١].

خلف فيصل والده تركى (١٨٨٨-١٩١٣) وهو الحاكم الوحيد الذى صعد إلى الحكم فى جو من السلام وكان لايقر سياسة والده التابعة بصورة كبيرة لبريطانيا وأنه كان يأمل فى تحويل عمان إلى بلد موحد وحر من أى نفوذ خارجى ومنذ بداية عهده أعرب عن استيائه تجاه التدخل البريطاني فى الشئون الداخلية لعمان وقام بتسريح رئيسى الوزراء الذى خدم والده طويلا وكان مواليا لبريطانيا وفى سعيه ليكون الرئيس المعترف به لكل العمانيين حاول عقد صلات وطيدة مع القبائل التى كانت معادية تقليديا للحكومة المركزية وتعامل بالطريقة نفسها مع القبائل الموالية للامامة ومع وجهاء عمان وحتى ينجح فى تدعيم الجبهة الداخلية لابعاد أنصار التقارب مع بريطانيا ، ولكن هذه المحاولات كانت تعبر عن نقص فادح فى الخبرة لأن سياسته المعادية لبريطانيا تسببت له بالعديد من المتاعب وفرضت عليه بريطانيا

عام ١٨٩١ تعهدا بألا يتخلى عن أى جزء من أراضى عمان لأحد سواها ثم فى عام ١٨٩٩ تعرض فيصل لعملية إذلال كبير على يد بريطانيا وقد تأثرت هيبته كثيرا بهذا التنبيه البريطانى فاضطر لإقرار الواقع وكان من المستحيل له أن ينتهج سياسة معادية للمصالح البريطانية وهكذا بدل رأيه فجأة وعادة للسير على سياسة والده (١٢).

ثالثا : الوضع فى حضرموت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

تعتبر فترة ما قبل ظهور السلطنة «الكثيرية» و «القعيطية» فترة القبلية الفوضوية فلا دولة راسخة ولاسلطنة مستقرة فيه فقد كانت هناك سلطنة آل عمر بن جعفر الكثيرية التى تأسست «بهينين» عام ١٨٠٥ وانتهت عام ١٨٢٣ وسلطنة آل عيسى بدر الكثيرية التى ورثتها فى ذلك العام نفسه «بشبام» وانتهت عام ١٨٥٧ بقتل آخر سلاطينها منصور بن عمر بمؤامرة فى «شبام» من الجمعدار «عوض عمر القيعطى» وسلطنة عمر عبدالله اليافعى التى تأسست فى بيت «جبير» عام ١٨٢٦ والتى لم تدم أكثر من سنتين فقط هذه السلطنات الثلاثة اسمية بداخل حضرموت وكذلك أمارتى «آل كساد » «بالمكلا»و «آل بريك» فى الشحر اليافعتين اللتين ظهرتا واختفيتا فى القرن التاسع عشر وورثتهما السلطنة القعطية إذ ليس لأى ممن ذكرنا من السلطنات السابقة من الاستقرار واتساع الرقعةوالهيبة فى نفوس القبائل المسلحة وصحيح أن للقبائل فى الأدوار الماضية سلطة قوية ، ولكن السلاطين الاقوياء إذ ذاك يقوون باخضاعها وتأديبها وكبح جماحها فى أكثر الحالات والمواقف عكس ما يجرى فى هذه الفترة فى الحروب المسلحة والفوضى كالشنافر ومنهم الكثير والعوامر والقبائل اليافعية والنهدية والتميمية والعمودية والحموم والصيعر والمناهيل المهرة وسيبان وغيرها من القبائل الحضرمية .

بذل علماء الدين والأعيان جهودا كبيرة لتصحيح الوضع الداخلى بحضرموت وقطع دابر الفساد واصلاح هذا الوطن باقامة دولة قوية شاملة وكان هناك علماء ووجهاء لهم اتصالات مع الدولة العثمانية وكان من نتائج تلك الاتصالات ارسال حملة صغيرة عام ١٨٤٧ من ثكناتها فى «الحديدة» لاتتجاوز بضع مئات بقيادة اسحاق بن عقيل بن يحيى العلوى لفك الحصار الذى ضربت امارتا «الكسادى» و «ابن بريك» فى الساحل على الشعب فى الداخل الذى هو تحت سلطنة عدوتها السلطنة الكثيرية ولمساعدة هذه السلطنة الناشئة على اصلاح ما يمكن اصلاحه بواسطتها وانقاذ ما يمكن انقاذه ، وجاء اختيار اسحاق بالذات كقائد للحملة

لمعرفته بحضرموت كما عين الشريف محمد بن عون قائدا عاما للجيش المتوجه لاخضاع اليمن وقد فرز منه جيش حضرموت وكان توجهة من الحجاز بأمر واليه حسيب باشا إلى «الحديدة» ، وبعد المداولات مع اعيان وامراء داخل حضرموت اتجهت المفرزة بحرا إلى بعض السواحل الغربية من «بروم» ثم الشحر تساندها من البر قوات الكثيرية . وكانت الامارتان الساحليتان مستعدتين للحرب وكانت الريح تجرى بما لا تشتهيه السفن بسواحل حضرموت فانهزمت فى النهاية . وبذلك لم يصاحب الحملة التوفيق لأسباب طبيعية وعسكرية ، ومن جهود أولئك الرجال المشار إليهم الأخذ بيد ابن «مقيص الاحمدى اليافعى» ليكون على رأس دولة حضرمية فخيب آمالهم بضعفه وتلفتوا إلى محمد على باشا خديو مصر ليمدهم بقوة تساعدهم على مشاريعهم الاصلاحية لإقامة حكومة حضرمية فأنشغل عنهم ومن نتائج جهودهم وتضحياتهم تشجيع السلطان غالب بن محسن الكثيرى على احياء السلطنة الكثيرية والأخذ بيده ولكنها كانت دون ما يأملون ، ولما ظهر الحاج عمر عوض القعيطى فى ميدان الصراع اليافعى - الكثيرى كان هناك منهم سعى وجهد لإصلاح ذات بينهما وإقامة وحدة أو اتحاد بينهما تشمل جميع القطر فلم تثمر الجهود إلا بالنزر اليسير من الاصلاح المنتظر [١٣]. وكناقد ذكرنا سابقا أن كثيرا من الحضارم بدأو هجرتهم إلى الهند وجنوب شرق آسيا وشرق افريقيا وقد كان فقدان الأمن أحد اسبابها ومنها الهجرة إلى «حيدراباد الدكن» فى الهند التى اتجه إليها الكثير من الحضارم لينتظموا فى سلك العسكرية عند حكومة النظام ، ملكها الغنى الثرى حيث كان يتألف جيشه العربى معظمه من عرب حضرموت وقواده منهم وقد نبغ من بينهم ثلاثة وهم غالب بن محسن الكثيرى وعمر بن عوض القعيطى وعبدالله بن على العولقى وكان هؤلاء الثلاثة يتحلون بالعصامية والشجاعة والطموح والتمسك بالعقيدة الدينية وحسن السلوك وكلهم أيضا من أصحاب الرتب العسكرية الرفيعة واتساع الثروة وكل منهم له أنصار وأتباع وعصبية فى حيدرآباد ولايرى مسرحا لتنفيذ رغباته السياسية واشباع طموحه سوى وطنه حضرموت حيث يجد بها من يؤيده أكثر ومن ينطوى تحت لوائه من قبيلته وما عليه إلا أن يرسل المبالغ التى تمون مشاريعه السياسية ويرسم لها الخطو العريضة والتعليمات اللازمة .

أصبحت حضرموت ميدانا للصراع والتصادم بين أتباع هؤلاء الثلاثة الذين لكل منهم عشائر لها نفوذها القبلى وتاريخها القديم وتحول الصراع بين القبائل من أجل الثأر والغارات

إلى صراع أوسع نطاقا وأشد ضراوة هدفه السلطة والملك حين وجدت كل منها زعيمها وسلطانها الذى يقودها إلى نهاية الطريق ، حيث توزعت تحت زعامة هؤلاء القادة الثلاثة الذين تحركها اصابعهم وتدير دفة السياسة الحضرمية وهم هناك «بحيدر اباد» على يد قوادهم واخوانهم وبينهم ومستشاريهم بحضرموت وفى وقت تغلبت فيه الانانية وحب السلطة والظهور على المصلحة الوطنية العامة التى تدعوا إلى حسم النزاع والانضواء تحت لواء حكومة وطنية موحدة مؤتلفة كما يجب ويختار الشعب ولكن أين ذلك على أرض الواقع بينما لم يحصل ذلك والشعب الحضرمى يطالب سلاطينه ومسؤلية بالوحدة الحضرمية بأى شكل يرفع من مستواه السياسى والاجتماعى وهم واتباعهم بتأييد بريطانيا فى نعراتهم وأنانياتهم يعمهون والشعب هو الضحية الحقيقية ورغم ذلك فقد يكون وجود سلطتين فى حضرموت خير من وجود العديد من امارات أو سلطنات صغيرة للسلطات القبلية العديدة ، ولم يطل عبدالله بن على العولقى على المسرح الياسى والعسكرى بحضرموت حتى استطاع القعيطى وهو منافسه الأول أن يقضى على مطامعه حيث يعترض النجدات المبعوثة من حصنه المسمى «حصن العولقى» الواقع شرقى «غيل باوزير» وقرب قرية «الصداع» وكانت هذه النجدات قد أدت مع خصوم القعيطى من كثيرين وغيرهم فى الاستيلاء على الساحل الحضرمى وقد توفى بحيدرآباد عام ١٨٦٧ ونائبه وخليفته بحضرموت ابنه محسن فحاصره فى حصنه هو وحامية الحصن الجمعدار عوض بن عمر القعيطى لمدة اشهر حتى سلم وانتهى امره ، وأما القائدان الآخران فقد استطاع من «راشدية» و «بنى ظنة» و «كثيرية» ولم تستطيع أى منهما أن تبسط نفوذها على حضرموت كله فتم الوحدة بينهما وتشمل جميع ارجاءها وفيما يلى السلطنتين «الكثيرية» و «القعيطية» .

١- السلطنة الكثيرية

ولد مؤسس السلطنة الكثيرية الثانية فى «غنيمة» «بوادى تاربة» السلطان غالب بن محسن بن احمد بن محمد بن على بن بدر الذى يتصل بالسلطان عبدالله بن عمر بن بدر «ابى طويرق» ولذلك تسمى هذه السلطنة الكثيرية سلطنة آل عبدالله وكانت ولادته عام ١٨٠٧ أى فى العام الذى توفى فيه الامير جعفر بن على بن عمر بن جعفر الكثيرى الذى بذل جهودا كبيرة لإعادة السلطنة الكثيرية ففشل بعد أن استولى على «شبام» ودحر يافع عنها كما استولى على «وادى عمد» وبعض «دوعن» و«حورة» و «الكسر» وبوفاته

انحصرت سلطة ابنائه وخلفائه فى شبام فقط يجاذبهم حبل السيطرة فيها بعض قبائل «الموسطة» من يافع وعلى أنقاض هذه الامارة قامت دولة آل عيسى بن بدر الكثيرى فى «شبام» عام ١٨٢٣ الذين كان آخرهم منصور بن عمر المقتول فى «شبام» عام ١٨٥٧ ، نشأ غالب بن محسن محبا للعزلة كثير التفكير فى ضياع تراث قومه وربما اشترك مع اسرته فى النزهة بالقنص والصيد ، ولكنه لم يكن يخالطهم إلا بمقدار وكان يطلب المعمرين من الرجال فيرتاح لما يسوقون له من أخبار آبائه وما جاء عنهم وفيهم من اشعار تتعرض لتاريخهم وأوصافهم ، وبذلك تأثر منذ نشأته بما يسمعه عن تاريخ ابائه الذين كانوا سلاطين حضرموت وله المام كبير ببعض العلوم الدينية والادب الشعبى واتصل منذ صباه باكابر علماء حضرموت من اشراف العلويين ، وأخذ عنهم معلوماته العلمية والدينية وتلقى عنهم دروسا فى الدين والأخلاق ، وأخذ معلوماته التاريخية المحلية عن أعمامه وانتظم سلك الجندية «شبام» وحاكمها يومئذ عمر بن جعفر ثم اخوه الوصى على ابنه منصور .

فنشأ لذلك نشأة دينية عسكرية حماسية خلقت منه قائد صالحا للمهمة التى اضطلع بها فيما بعد وكان هدفه البعيد الذى شغل به فراغ ذهنه دفعه إلى الهجرة إلى الهند التى كانت ذلك العهد أحد المهاجر التى كان الحضارم يهاجرون إليها مدفوعين بعوامل طبيعية واجتماعية باحثين عن حياة الرخاء والسعادة ومفتشين عن مجال اوسع لاستخدام مواهبهم وارضاء مطامحهم وكان لغالب بن محسن أقارب سبقوه إلى «حيدراباد» احدى امارات المسلمة فى الهند من بينهم على بن احمد وعبود بن سالم الكثيرى فلحق بهم عام ١٨٣٠ وعمره ثلاثة وعشرون عاما وكان قد ألف حياة الجندية والتمرن على القتال بحضرموت مما سهل له الترقى فى الرتب العسكرية بجيش نظام حيدرآباد الذى وجد نفسه مندفعا إليها من حين وصوله إليها حيث تقدم بسرعة حتى أصبح بدرجة «الجمعدار» بما أظهر من كفاءة وبما لقى من عون وتأييد بواسطة الجمعدار عبدالله بن على العولقى الذى مهد له الطريق للاتصال بالوزير ناصر الدولة ولم يلبث أن لحق بالعسكريين المقربين لدى نظام حيدر آباد الذى كان يضم عددا من يافع على رأسهم الجمعدار عمر بن عوض القعيطى الذى اتسعت ثروته ، ولقى حظوة كبرى لدى نظام حيدر آباد وكان هذا واسع المطامع بعيد النظر ، وبدأ غالب بن محسن من حيداباد يفكر فى بعث السلطنة الكثيرية التى تلاشت امام سيطرة يافع وكانت حضرموت منقسمة إلى معسكرين الأول «كثيرى» والثانى «يافعى» ولكل معسكر دعاة وانصاره وكان

حضارم حيدرآباد شاعرين بسوء الحالة متتبعين لكل الامواج الصاخبة ، وتنذر بهبوب عاصفة لم يكن أحد يتوقع نتائجها فى ذلك الحين وكان غالب بن محسن يعرف أن التفكير فى بعث السلطنة الكثيرية معناه التعرض لتضحيات جسيمة وجهود مضنية ستراق دماء وتبذل أموال وتقتحم أخطار لن تتخلى يافع عن مواضع نفوذهم التى أصبحت وطنا لهم ولأبنائهم ؛ ولن يتأخر ذلك المنافس الخطير صاحب الثروة الواسعة والعسيرة اليافعية الجمعدار عمر بن عوض القعيطى عن امداد عشيرته من يافع وشد ازرهم بكل مستطاع ولن يسمح بأى عمل حربى ضدهم أو أى طمع فى الاستيلاء دون أن يقاومه ويستغله لقضاء حاجه فى نفسه ولكن الحياة كفاح فى نظر الجمعدار غالب بن محسن لقد صمم على أن يستعيد مجد آبائه مهما كلفه من ثمن فلينزل إلى الميدان ، وكان غالب بن محسن قد تناجى مع عمه على بن احمد وعبود بن سالم طويلا ودرسوا الموقف من جميع نواحيه وانتهوا إلى أن يبحر على بن احمد إلى حضرموت فيتصل بأنصار الحركة من رجال «الشنافر» قبائل آل كثير وكبار علماء الاشراف العلويين ، ويضع معهم المناهج للسير عليها وقد عمل على بن احمد فور وصوله إلى حضرموت بالاشتراك مع عبدالله بن محسن شقيق غالب بن محسن على بث الفكرة والاتصال بانصارها ومؤيديها ، وكانت أولى الخطوات العملية ابتياع بلدة «الغرف» من قبيلة «القرامصة» من «التميم» عام ١٨٤٥ لتكون نواة للدولة ومركزا لأعمالها ولما قدم عبود بن سالم اشترى حصن «ابن مطهر» من «آل مقيص» وأقام فيها رجاله فى نفس العام ونشط بعد ذلك لمحالفة القبائل فاتصل بآل كثير» بدوا وحضرا فحالفهم ثم سار إلى «ريدة الصيعر» ثم «الكسر» وحالف «نهدا» ثم حالف «الجعدة» و «سيبان» و «الحموم» و «عبيدة» ومازال يضرب فى الأرض حتى انتهى إلى عين «بامعبد» وهو يحالف كل من يمر عليهم من القبائل وكانت الدعاية بحضرموت تسير سيرا حثيثا لاحياء السلطنة الكثيرية يمدها غالب بن محسن من الهند بماله ورأيه ويتخذ أنصاره فى حضرموت كل وسيلة لنجاحها(١٥) .

تعد القبائل التى حالفها عبود بن سالم باسم سلطنة آل عبدالله الكثيرى الناشئة من أشد القبائل الحضرمية بأسا وأكثرها عددا وقد أمن شرها بهذا التحالف وضمن عدم تعاونها مع يافع فلم يبق إلا الشروع فى تطبيق البرنامج واعلان الحرب والبدء بالهجوم لقد كانت «تريم» التى تسيطر عليها قبيلة «لبعوس» اقرب المدن الى مركز الدولة واهمها وأول مدينة فى شرق

الوادى تحت سيطرة يافع والأمل بعد ذلك قوى فى الاستيلاء عيها بسبب النزاع والتنافس بين حكامها الذى نشبت من أجله معارك دموية فقد كانت فى «تريم» ثلاث سلطات : سلطة «لعبد القوى غرامة» فى حارة «الحوطة» وأخرى «لابن عبدالقادر» فى «النويدرة» وثالثة للنقيب بن لحمان فى «الخليف» وبين هذه السلطات خصومة وتناصر ، فقد وافق كل من صاحب «الخليف» و «النويدرة» التنازل مقابل مرتب خصص لهما فى حين رفض ذلك «عبدالقوى غرامة» وبذلك دخلت قوات غالب الكثيرى إلى «تريم» فى موكب حافل قرعت فيه الطبول ونشرت الاعلام واطلق الرصاص استبشار بهذا الفتح الذى لم يرق فيه دم ، ولم يكلفهم غاليا من ثمن الامر الذى تألم منه «عبدالقوى غرامة» وجعل يضمر فى نفسه الثورة والانتقام وانتهز «غرامة» عارضا من سوء تفاهم بينه وبين الكثيرى فثار وثار معه بعض «آل تميم» ووصلته نجدة من يافع سيؤن ونشبت الحرب واضطرب الأمن واستولى «غرامة» على المراكز الخارجية «كالمحيضرة» و «حصن الشاطرى» وغيرهما واستمرت الفتنة حوالى سبعة شهور حفرت اثناءها خنادق تحت الأرض واشعل البارود تحت عدد من المنازل فحصل حريق وخراب ودمار واقبل عبود بن سالم الكثيرى بجنود قدم بهم من «مأرب» ومن «العوالق» و «الكرب» وحاصروا «تريم» واشتد الحصار على رجال غرامة حتى أكلوا مالا يؤكل فى الاختيار فاضطر إلى التسليم عام ١٨٤٦ وغادر «تريم» إلى «سيؤن» ومنها إلى «المكلا» وبذلك تم استيلاء الكثيرى لتريم أولى المدن الحضرمية الهامة وبعدها توجهت أنظارهم إلى «سيؤن» فتعرض لها آل كثير فى «وادى جثمة» وقد انهزم اليافعيون واستولى جماعة من «العوامر» على القافلة واتوا بها إلى «تريم» الأمر الذى شجع المقدم عبود بن سالم الكثيرى إلى الاسراع بالهجوم على «سيؤن» فقد أقبل عليها بألفى مقاتل من «آل كثير» و «العوامر» و «آل باجرى» و «آل جابر» و «الحموم» وبعد حصار دام ثلاثة أيام هاجم المدينة من الشرق والقرب فلم تقاوم يافع طويلا وخلصت المدينة لآل كثير بعد خمسة عشر يوما من بداية الهجوم عام ١٨٤٧ ، حاولت جماعة كبيرة من يافع استرداد «سيؤن» عام ١٨٤٨ وباغتوا حاميتها عند الفجر واحتلوا أكثر المدينة ولكن آل كثير هاجموهم بنحو ثلاثة آلاف مقاتل واستمر القتل فى الطريق ودافع اليافعيون دفاع المستميت ولكنهم اضطروا فى النهاية للانسحاب ورأى آل كثير أن بقاء «تريس» الواقعة بالقرب من «سيؤن» فى يد يافع خطر يهدد «سيؤن» فحاصروها شهرين ومنعوا عنها الماء حتى اضطر حاكمها إلى التسليم ، كانت

أنباء الانتصارات تصل إلى الجمعدار غالب بن محسن وهو فى الهند فتضاعفت من عزيمته وتدفعه إلى مواصلة الكفاح[١٦].

خلقت هذه الحوادث الدموية فى حضرموت بين يافع وآل كثير جوا من الضغينة والتنافس بين غالب بن محسن وأنصاره من جهة وبين عمر بن عوض القعيطى وأنصاره من جهة أخرى وأخذ كل فريق يهدد ويتوعد ويعمل كل ما فى وسعه للفوز والغلبة وكان الاشراف العلويون وشيوخ الكثير يقدمون الدعم والمساعدة لاحياء السلطنة الكثيرية فقد أمده أشراف العلويين بالأموال والرأى والدعاية والمعدات الحربية فى حين ساعده قبائل الشنافر وآل كثير مباشرة بالرجال فى ميادين القتال وكان ممن امده الشريف عمر بن على الجنيد بعدد كبير من المدافع مكتوب عليها اسم الجنيد وبثلاثين مملوكا وبمبلغ كبير من المال كما قدم الشريف اسماعيل العيدروس بسبعة عشر ألف ريال نمساوى ؛ والعلامة الشريف عبدالله بن عمر بن يحيى بمبلغ كبير من المال وكان يدير له الأمور السياسية هو والشريف المحسن بن علوى السقاف وغيرهما وكان الاشراف العلويون يوجهون ويشتركون فى رسم الخطوط العريضة لاقامة سلطنة آل عبدالله بن عمر بن ابى طويرق مع السلطان غالب بن محسن وكبار الكثيريين والشنافر الذين وقفوا جنبه ضد القعيطى فيما بعد ظهوره فى الميدان مباشرة وقد حاول غالب بن محسن الكثيرى الاستيلاء على حضرموت كله ساحله وداخله ، وكادت ترجح كفته على يافع لولا نزول القعيطى فى الميدان[١٧] مما أدى إلى سيطرة الاخير على الساحل فى حين سيطر غالب فى الداخل ، وقد غادر السلطان غالب بن محسن الهند متجها إلى حضرموت ليشرف على تنفيذ بقية المنهج الضخم وليقود المعارك بنفسه ووصل إلى «سيؤن» قادما إليها بطريق ظفار عام ١٨٥٥ حيث قوبل بحفاوة بالغة واستقبل استقبال الفاتحين وحدث ما كان يتوقعه غالب من خطر منافسه الكبير الجمعدار عمر بن عوض القعيطى فقد أيقنت قبائل يافع بأن ما تلقت من صدمات انما هو نتيجة تفرقها وتخاذلها فاتحدت تحت قيادة القعيطى وتوجيهه فتغير الموقف وتكافأت القوى ، حاول السلطان غالب بعد وصوله أن يستولى على «شبام» وكان القعيطى قد استولى عليها قبله فحشد ما لايقل عن ألفى جندى اتجهت إلى «شبام» عام ١٨٥٨ فلم يتمكن المهاجمون منها وغير غالب اتجاهه إلى الساحل محاولا الحصول على منفذ إلى البحر يضمن به سلامة مواصلاته من الخارج وجهز جيشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل هاجم بهم مدينة الشحر واستولى عليها عام ١٨٦٦ وواصل الجيش الكثيرى زحفه محاولا

الهجوم على المكلا فبدأ بمهاجمة «الحرشيات» و «البقرين» واستولى عليهما وكانت قد وصلت نجدة يافع من الداخل محاولة الدفاع عن الشحر فلما علمت بسقوطها اتجهت إلى المكلا وانضمت إلى جنود الكسادى للدفاع عن المكلا فاشتبكت مع المهاجرين وانتهى بهزيمة آل كثير وتخليهم عن مراكز «البقرين» و «الحرشيات» .

أعد عمر بن عوض القعيطى حملة كبرى فى أواخر عام ١٨٦٦ من البحر والبر يقدر رجالها بثلاثة آلاف مقاتل هاجمت الشحر من جميع جهاتها واقتحمت الأسوار ، ولم يستطع حامية السلطان غالب المقاومة فتخلف عن المدينة ولم ييأس غالب ولم يضعف من عزيمته هذا الفشل الذى لاحقه فى الساحل فأعاد الكرة لاسترداد الشحر عام ١٨٦٧ وتمكن من اقتحام المدينة واستولى على جانب كبير منها ولكن يافع استبسلت فى الدفاع واستمرت المعارك عدمة أيام فى المنازل والشوارع بالبنادق والسلاح الابيض فاضطر السلطان غالب إلى الانسحاب وعاد إلى سيؤن ليستأنف نشاطه ، وبعيد التفكير فى برامجه من جديد ورأى أن بقاء آل البكرى فى «مريمة» وسط المنطقة الكثيرية خطر يهدد المصالح الكثيرية فاجلاهم عنها بدون حرب إلى شبام وكرد فعل لهذا التصرف اجلى القعيطى «آل زيمة» من غربى شبام وهم من آل كثير واسكن «آل البكرى» فى مساكنهم ثم انتقلوا بعد ذلك إلى «الريضة» بالقطن أما «غيل بن يمين» التى يسكنها «الشناظير» من قبيلة «لبعوس» اليافعية فقد سلمت لال كثير ذلك بواسطة «بيت على» من «الحموم» الذين اتفقوا مع آل كثير على أن يقوموا بحرب «الشناظير» ولهم نصف اموال يافع فى هذه المنطقة وبعد مقاومة دامت أربعين يوما سلم «الشناظير» عام ١٨٥٨ ولم يستطع القعيطى إرسال نجدة لهم لبعض المسافة وكان القعيطى قد تشاور مع كبار رجال يافع وقرروا غزوا آل كثير فى عقر دارهم واسترداد ما فقدوه من أموالهم وبيوتهم فى المنطقة الكثيرية وأعدوا لهذا الغزو سبعة آلاف مقاتل من يافع ومواليهم ومن «هنود» و «رويلة» و «كرب» وقبائل «دهم» و «يام» و «آل تميم» و «نهد» اضافة إلى قبائل أخرى وفى عام ١٨٦٨ بدأوا هجومهم وكانت مدينتا «تريم» و «سيؤن» الهدف الأول من هذا الزحف وقد وضع الجمعدار عوضى بن عمر مع اخوانه خطه محكمة تكفل نجاح هذه الحملة ولكنها فشلت فشلا زريعا نتيجة لمقاومة آل كثير فى وجه المهاجمين الذين يرون فيه معركة حياة أو موت ، بالنسبة لهم ، وبعد عامين من هذه المعركة توفى السلطان غالب عام ١٨٧٠ بسيؤن عن اربعة وستين عاما حافلة بالأعمال وأنه كان شهما مقداما حسن

السيرة متمسكا بالدين يقول ابنه السلطان منصور : لا أذكر أن ابى ضربنى الا مرة واحدة كنت نمت عن صلاة الصبح جماعة فى المسجد فضربنى بفتيلة البندقية بعد أن أقفل باب الغرفة ضربا مبرحا . فقد تولى السلطنة الكثيرية بعد وفاة غالب ابن المنصور الذى توفى عام ١٩٢٨ ثم على بن المنصور المتوفى بسيؤن عام ١٩٣٨ ثم جعفر بن منصور الذى توفى عام ١٩٤٨ ثم الحسين بن على الذى اجبر على التنحى بعد قيام الجمهورية ، وفى عهد السلطان جعفر بن منصور تعينت لجنة لتحديد الحدود بين السلطنتين الكثيرية والقعيطية مكونة من مندوبى السلطنتين تحت اشراف المستر «شبرد» المستشار المقيم وقد انتهت هذه اللجنة المشتركة إلى قرار حاسم فى موضوع الحدود وقعت المصادقة عليه رسميا وهذه هى حدود السلطنة الكثيرية نقلا عن الخريطة الرسمية التى وضعت لتتبين الحدود (١٨):

تتبدئ فى الشمال الشرقى من شرق تريم مباشرة وتمتد فى خط متعرج شرقى جنوبى إلى حصن «الطبيعة» قريب من منطقة «الحموم» ثم يذهب الخط فى اتجاه غربى جنوبى إلى «حرزيون» شمال «ريدة المعارة» ويعود الخط فى اتجاه غربى شمالى ثم فى اتجاه اقرب إلى الاستقامة منحرفا قليلا إلى الشمال إلى أن يحاذى.«وادى الحرية» فيتجه إلى الشمال محاذيا لهذا الوادى حتى يصل إلى «الحزم» شرق شبام حيث يمر غربى «الحزم» وغربى «المحجر» إلى قارة «آل عبدالعزيز» فينحرف غربيها إلى الشمال ، ويدخل فى هذه الحدود من الأودية : «وادى عدم» «واودية مدر» و «جعيمة» و «عيديد» و «جثمة» واعالى «وادى ثبى» و «وادى بن على» و «وادى تاربة» وغيرها وتشتمل على المدن والقرى التى تبتدى من «تريم» شرقا إلى «الحزم» شرقى «شبام» غربًا ومن بينها عاصمة السلطنة «سيؤن» و «الغرفة» و «الحوطة» و «جفل» و «تريس» و «مريمة» و «تاربة» و «ممدودة» و «الغرف» واهم القبائل التى تسكن المنطقة الكثيرية هم «آل كثير» و «الشنافر» أي القبائل التابعة لآل كثير مثل «آل جابر» وآل «بجارى» والعوامر اضافة إلى الاشراف العلويين من «العيدروس» و«السقاف» و«الجفرى» وغيرهم .

٢- السلطنة القعيطية

نزح آل القعيطى من يافع إلى حضرموت ضمن بطون القبائل اليافعة التى جلب طلائعها بادئ ذى بدء إلى حضرموت السلطان بدر احد احفاد «ابى طويرق» واستوطن آل القعيطى قرية «لحروم» فى وادى «عمد» وبها ولد ونشأ عمر بن عوض القعيطى الأول ثم انتقل منها وهو يتيم فقير إلى «شبام» ثم هاجر إلى الهند وهو شاب وانتظم فى سلك الجندية «بناكبور» ثم «حيدر آباد دكن» وبلغ أعلى زينتها بالنسبة إلى أبناء جنسه فكان له ثراء واسع وجاه عريض وكاتبه بنو جلدته اليافعيون الحضارمة الذين اصبح وجودهم بها مهددا من قبل «سلطنة الكثير» أعداءهم التقليديين والحروب ناشئة بين الطرفين ووفد إليه بعض الوفود اليافعية إلى الهند معربين له بأنهم يجدون فيه زعيمهم المنقذ مما أثارفى نفس هذا الرجل تأسيس السلطنة القعيطية التى هو أول ولاتها ودوره دور تأسيس وتمهيد وقذف إلى الميدان بالمال والرجال ودبر الخطط معهم وهو «بحيدر آباد» وتوفى وقد اقام له سلطنة منسوبة إليه ولكنه لم يزرها ولم يشهد شيئا منها بأم عينه فقد توفى بالهند بحيدر آباد عام ١٨٦٥ عن عمر ناف عن الثمانيين خريفا أمضى معظمه فيها ومدة حكمه حوالى ربع قرن ثم تولى السلطنة بعده ابنه عوض بن عمر القعيطى الذى لايقل عن ابيه فى صفاته النبيلة وإذا كان ابوه هو الرأس المفكر بالهند فانه هو اليد المدبر والرأس المفكر معا فى حضرموت وكان هو المبرز بين اخوانه ومواليه وزعماء قومه فى ادرة وقيادة المعارك الناشئة لتأسيس هذه السلطنة وامتدادها فى حضرموت ، وكان قد حشد أكثر من ثمانية آلاف مقاتل من يافع والهنود ومماليك من افريقيا ومن قبائل الحضرمية الأخرى للقضاء على السلطنة الكثيرية الناشئة التى أقامها السلطان غالب بن محسن واعوانه فى «سيؤن» و «تريم» ولكن لم يتم له النصر حيث استمات آل كثير فى الدفاع عن مواطنهم وسلطنتهم كما حاول السلطان غالب مد سلطانه على حضرموت داخلها وساحلها ولكنه لم ينجح ولو تم لاحدى السلطنتين التغلب على الأخرى أو لو قدر لحضرموت أن تتوحد تحت لواء احدى السلطنتين لكان فى مصلحتها ومصلحة شعبها الذى حرم منذ قرون عديدة دولة موحدة وبالتالى من وحدة النظام فى جميع مرافق ومجالات الحياة ولكن السلطنة القعيطية استطاعت فيما بعد أن يكون لها نصيب الأسد ؛ بحيث أصبحت السلطنة الكثيرية فيما بعد بمثابة لواء من الويتها السبعة وكان من حسن حظها أنها حظيت بوزير محنك داهية هو الشريف الحسين بن حامد المحضار بن الشيخ

ابى بكر بن سالم العلوى الذى استوزره السلطان عوض بن عمر هذا ثم ابناه غالب وعمر وقد أخلص الشريف الحسين لهذه السلطنة وتم لها بفضل دهائه وتخطيطاته الاستيلاء على «حجر بن دغار» و«ميفع» و «دوعن» وجزء من «بالحاف» وضم «ريدة آل عبدالودود الكثيريين» إلى سواحل السلطنة» بحيث لم يبق لسلطنة آل كثير منفذ بحرى وكل احتياجاتها تمر عبر أراضى جارتها القعيطية .

قضى السلطان عوض على امارة الكسادى بالمكلا بمساعدة الحكومة البريطانية عن طريق مقيمها السياسى فى عدن فى محاكمة بينه وبين اميرها «الكسادى» واظهرت فيها بريطانيا ميلها إلى جانب السلطان القعيطى وتم ترحيل «الكسادى» على بارجة حربية بريطانية من المكلا إلى عدن ثم زنجبار كما انتزعت بريطانيا «الشحر» من السلطنة الكثيرية الذين قضوا على امارة «ابن بريك» وسلمت للقعيطى وفى عهده تمت معاهدة الحماية بينه وبين بريطانيا ليطمئن فى نظره على بقاء سلطنته بواسطة الحماية البريطانية وهو أول من دعى من حكام هذه السلطنة بلقب سلطان وقد توفى بالهند عام ١٩٠٧ وبذلك قضى حوالى ثلث قرن معظمها فى حضرموت فى حروب ونزاع مع سلاطين «الكثير» ومع غيرهما من القبائل ومع ابنى اخيه عبدالله منصر وحسين ولكنه انتصر فى النهاية على خصومه ومناوئيه وتولى بعده ابنه غالب المتوفى عام ١٩٢١ وقد عرف بعطفه الشديد على البوساء والمساكين وبالكرم والاحسان وميله وتشجيعه للاشراف العلويين أكثر من آبائه وفى عهده أبرمت بريطانيا معاهدة صداقة وتعاون ، بعدن بينه وبين السلطان الكثيرى عام ١٩١٧ ومن تاريخها هدأت الفتن وتوقفت الحروب بين السلطنتين الحضرمتين وحاولتا أن تدخلا بعض الأنظمة الادارية والمالية والعسكرية والقيام بحفظ الامن ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح المنتظر الذى كان يعلقه عليها المواطنون والمهاجرون من الحضارمة وان كان فى وجودها درء الكثير من الاخطار والاتعاب التى كان يلاقيها الشعب فى العهد القبلى وكان المنتظر أيضا أن يشمل الامن جميع حضرموت ولكنه أصبح مقصورا على مدنهما وقراهما وعلى خطوط الطرق التى بنيت عليها المراكز والثكنات العسكرية وتولى بعد غالب اخوه عمر المتوفى عام ١٩٣٥ ثم السلطان العلامة صالح بن غالب المعروف بثقافته واتساعه فى كثير من العلوم والتأليف النافعة وبحبه للنظام والاصلاح وكان يود أن يتم ذلك على يد الوطنيين انفسهم إلا أن حكومة بريطانيا تدخلت تدخلا مباشرا وفرضت على السلطنتين استشارة مستشار وقد تم لهذا

السلطان بعض ما أراده ؛ ولعله لو تولى وهو فى شبابه لاستطاع أن يفيد حضرموت أكثر فقد تولى وعمره قد ناهز الستين وتوفى عام ١٩٥٥ وتولى بعده ابنه عوض الذى جعل عليه ابوه مجلس وصاية إلى جانب مجلس الدولة وهناك مكتب المستشارين البريطانية ومكتب الوزارة ولم يكن فى عوض الثانى هذا المذكور استعداد للحكم ولكنه فرض فرضا بوصاية من والده وبتأييد من الحكومة البريطانية على أن البعض يرى صالحا فى وجوده بهذه الصفة حتى لايتدخل شخصيا فى الأمور كما يتدخل سلاطين الكثيرى ، وعندما توفى عام ١٩٦٦ تولى ابنه غالب ، وكان السلاطين القعيطين كلهم أو معظمهم ولدوا بالهند بحيدر آباد وتوجد فى طباعهم وعلى بلاطهم ميول وتقاليد هندية وفى السنتهم شئ يميزه الملاحظ من العجمة وهم أقل اتصالات بجماهير شعبهم لانهم يقضون معظم أوقاتهم فى قصورهم إلا فى المناسبات النادرة ولكنهم موصوفون بالطيبة وحسن الاخلاق وعلوا الهمة والشعور بحشمة وكرامة المركز الذى هم فيه بحيث يترفعون عن كثير من الدنايا (١٩).

٣- الجيش فى السلطنتين

يتألف الجيش فى السلطنة القعيطية من أفراد القبائل ومنهم المرتزقة اليافعية ومنهم المرتزقة المجلوبون من جبل يافع ولكنهم يقاتلون باخلاص عن السلطنة القعيطية اضافة إلى الرقيق من المماليك الافريقية الذين اشتراهم السلطان والهنود ويلقبون «الرويلة» ويبلغ عدد الجيش النظامى حوالى ألف جندى وضابط من غير المماليك وأفراد القبائل الذين قد يرتفعون أثناء المعارك الكبيرة إلى ثمانية آلاف . أما الجيش فى السلطنة الكثيرية مثلها مثل القعيطية فى البداية كان كبير عند تأسيسها وبعد تخطيط الحدود بواسطة بريطانيا انخفض إلى اربعمائة جندى نظامى معظمهم من المماليك الأفريقيين بعدما كان يعتمد على قبائل الشنافر وكان هذا الجيش تحت الاشراف البريطانى مثلما كانت الادارة المالية وغيرها من المصالح الحكومية .

٤- الموارد المالية فى السلطنتين .

اعتمدت السلطنة القعيطية فى بداية تأسيسها على المبالغ المرسلة من سلاطينها الأول من «حيدرآباد دكن» حيث يتلقون مرتبات ضخمة من خزينة النظام الحاكم فى الامارة الهندية الاسلامية ويتوارثون رتبة الجمعدارية واحدا بعد واحد وبعدما استقرت السلطنة اصبحت

تعتمد على دخلها من الجمارك الساحلية وعلى بعض الضرائب الجمركية القليلة الأخرى وكان السلطان عمر الثانى بن عوض كان يأخذ من الخزينة القعيطية بحضرموت مبلغا من المال إلى حيدر آباد حث ينفقه هناك ، فى حين كانت السلطنة الكثيرية تعتمد فى مبدأ تأسيسها على ارسالية سلطانها الأول غالب بن محسن ايام وجوده بحيدر آباد وعلى المعونات التى تتلقاها من أثريا الاشراف العلويين وغيرهم ثم أصبحت فيما بعد تعتمد على ضرائب المعشرات الزراعية وعلى ضرائب المفروضة على التجار والمياسورين ليس لهم نظام معروف وإنما تفرضها بواسطة موظفيها على من تتوسم فيهم الغنى وحسن الحال شريطة أن لايكون قبيليا أو يحميه قبيلى فانها لضعفها تتحامى من يسكن مناطقها من هذا النوع فتعفيه عنها وكان أكثر دخلها من الضريبة التى تفرضها على من لهم حواصل كبيرة من المهجر فى «الهند» وشرق افريقيا و «مليزيا» و «سنغافورة» و «اندونيسيا» فتضايقهم بضريبة على مال لم يستفيدوه من بلادها وإنما أفادوها به وتسمى هذه الضريبة بـ «الدفعة» ويرونها ضريبة غير مشروعة ومن تأخر عن الدفع فان مماليك السلطان يكبسون منزله ويذبحون أغنامه ويطبخون طعامه ويضايقونه وربما يسجنونه حتى يدفع ، ولهذا عندما شعر الشريف شيخ بن عبدالرحمن الكاف وهو أغنى شخصية فى عصره بحضرموت بثقل الضريبة التى يفرضها عليه محسن بن غالب سلطان الكثيرى فى «تريم» هرب هو وعائلته فى الخفاء إلى «دمون» احدى ضواحى «تريم» ولكن تحت حكم قبيلة آل سلمة التميميين واستجار بآل سلمة وغيرهم من القبائل وأمدهم بكل ما يحتاجون إليه من مال ورجال لحرب سلطان الكثيرى فى تريم ودامت بينهم الحرب عدة أشهر عام ١٨٩٦ حتى تم الاتفاق على مبلغ لايتجاوز ألفى ريال يساوى يسلمه سنويا الشريف «شيخ الكاف» لسلطانالكثيرى فى تريم مقابل أى ضريبة من أى نوع تخصه هو أو احد اسرته دائما واصبحت الضرائب تثقل كاهل البقية من المواطنين الذين ليس لهم حول ولاقوة ولايفى دخلهم بعشر دخل الشريف « شيخ الكاف» الذى ازداد نفوذه ونفوذ اسرته فى السلطنة الكثيرية ولايعصى السلاطين له أمرا بدافع من الرغبة والرهبة واصبح بقية المواطنين كبش فداء واشترك الكاف فى السلطة بدون عناء كبير ولكن تساوى الناس بعد ذلك عندما نظمت الضرائب تحت الاشراف البريطانى المباشر [٢٠].

٥- حضرموت تحت حماية الاستعمار البريطانى

تلفتت بريطانيا بعد ان استولت على «عدن» بحوالى قرن وربع إلى حضرموت وربط جميع أمراء ومشايخ وسلاطين جنوب اليمن باتفاقيات متقاربة فى الشكل ومتفقة فى الهدف كل على حدة ومنهم سلاطين حضرموت وغرض بريطانيا معروف من هذه الاتفاقيات أو المعاهدات التى ينقصها التكافؤ بين الطرفين المتعاقدين والتى تهدف بالنسبة لبريطانيا إلى تأمين احتلالها واستعمارها «لعدن» وبالتالى لتأمين ما تؤديه لها عدن من ربط التموينات والمواصلات والقواعد فى امبراطوريتها الواسعة الارجاء ، فلاتسبقها إليهم دولة أخرى مثل اليمن أو الدولة العثمانية التى بالقرب من مستعمرتها فى «عدن» وخاصة بعد الحملة العثمانية على شرق الجزيرة العربية عام ١٨٧١ ولهذا فانها خشيت من امتداد النفوذ العثمانى إلى جنوب الجزيرة العربية انطلاقا من اليمن وتركت للسلاطين الحبل على الغارب داخل أراضيهم التى تسمى بالمحميات فى الوقت الذى كان الحكام العرب من السلاطين والأمراء يهدفون إلى الاطمئنان على ما تحت أيديهم من ملك فلا يطردوهم منه احد لامن الابعدين ولامن الاخرين والحصول على ما تنصحهم بريطانيا من معاشات بسيطة أو معونات خفيفة وبذلك بقيت هذه المنطقة مبعثرة مقطعة الأوصال ينخر فيها سوس التخلف والانحطاط وحضرموت أوسع وأبرز اماراتها ، وقد أبرمت بريطانيا أول معاهدة حماية مع أكبر حكامها السلطان عوض بن عمر القعيطى عن طريق حاكم «عدن» البريطانى الجنرال «هوج» فى ١٣ فبراير عام ١٨٨٨ لاتخرج عن نطاق معاهدات الحماية التى أبرمت مع من سبقه من شيوخ القبائل العربية ، ثم أعقبتها معاهدة ثانية بين السلطان غالب بن عوض القعيطى وبين السلطانين منصور ومحسن ابنى غالب الكثيريين كطرفين لاقامة صلح مؤيد بينهما وتعاون على الاصلاح ولتوسيع نفوذ القعيطى وحصر سلطة الكثيرى فى مدينتين وثلاث قرى وفيما شملته حدود اربع قبائل هم «الشنافر» وبين هؤلاء الحكام الثلاثة وبين بريطانيا كطرف هذا مع ما ضم إليه فى احد عشر بندا وذلك عام ١٩١٧ تم تلتها معاهدة ثالثة بين كل من السلطانين منفردا وبين بريطانيا يلتزم فيها كل منهما فى معاهدة بقبول الاستشارة البريطانية فيما عدا الدين والعادات والتقاليد وهى معاهدة الاستشارة [٢١].

٦- الشريف أبوبكر شهاب العلوى

يعتبر العلامة الكبير الشاعر الشريف ابوبكر بن شهاب العلوى من أعلام هذا العصر وهو أستاذ المدرسة الشعرية والأدبية بل والعلمية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ليس فى حضرموت واليمن وإنما فى الجزيرة العربية بأسرها كما يتجلى ذلك إذا قارنا بين أشعاره وأشعار زملائه من كبار الشعراء فى الجزيرة العربية وهو إلى ذلك فى طليعة زعمائها وعلمائها ومفكريها والمصلحين الاجتماعيين بها . وقد ولد فى عام ١٨٤٥ باحدى قرى «تريم» الغناء المسماة «حصن فلوقة» وتوفى عام ١٩٢٢ «بحيدر آباد دكن» وقد امضى صباه وشبابه فى الطلب والتحصيل وكان يعتمد على ذكائه مما يعتمد على جده واجتهاده ومعظم تحصيله للعلم إنما هو فى وطنه وعلى يد كبار علماء حضرموت وفى مقدمتهم والده وأخوه الأكبر عمر وكذلك مفتى الديار الحضرمية العلامة الشريف عبدالرحمن بن محمد المشهور وكذلك شيخه العلامة على بن محمد الحبشى ، و «للشريف ابن شهاب» تصانيف عديدة حوالى الثلاثين مصنفا أكثرها مطبوع ومعظمها فى المنطق والتوحيد والفقه والتاريخ والطبيعة وقد صنف فيها مصنفا اسمه «رفع الخبط فى مسألة الضغط» كما اشتغل بالتدريس والافتاء فى وطنه حضرموت ثم فى «حيدر آباد الدكن » فى الهند وفى مدرستها النظامية .

قام «ابن شهاب» بدور فعال بين علماء حضرموت ثم بين علماء الاسلام فى النزاع حول معاوية بن ابى سفيان بل هو فى الحقيقة بطل المعركة الجدلية فقد ألف صديقه العلامة الشريف محمد بن عقيل بن يحيى باشرافه كتابه «النصائح الكافية لمن يتولى معاوية» ونشره وقامت ضجة حوله لأنه حكم فيه بمروق معاوية عن مبادئ الاسلام وبأنه ليس من الصحابة وصدر أمر من المجلس النيابى للدولة العثمانية بمصادرة نسخ الكتاب ومن ابرز من رد عليه صديق الشريف «ابن شهاب» واحد افراد اسرته من آل بيت العلويين الشريف العلامة حسن بن علوى بن شهاب العلوى بكتاب سماه «الرقية» الشافية من سموم النصايح الكافية » حاول فيه إثبات صحبة معاوية وأنه من أهل العدل وأول كل ما يخالف ذلك من الأحاديث والوقائع التاريخية بتأويلات وتفسيرات تنطبق على مبدئه ولكن الشريف «ابن شهاب» رد على «صاحب الرقية» بكتاب أسماه «الحمية من مضار الرقية» وكل هذه الكتب مطبوعة وقد قام بالاحتجاج على «النصائح الكافية» وعلى «الحمية» لما ظهرتا فى طليعة القرن

العشرين فان معظم فقهاء وصوفية حضرموت اعتبروها من الكتب الضارة التى تسمم افكار الجيل وتصبغه الرفض وبالرغم من أن الموضوع لايعتبر جديدا فى حد ذاته إلا فان تقادم العهد به والتربية التقليدية على احترام معاوية وتسييره كل هذه احدثت ثورة ضد «ابنى عقيل» و «بن شهاب» المؤلفين لهذين الكتابين وكأنهما يمثلان إذ ذاك نفس الدور الذى يمثله اليوم من يقوم بدور التشكيك فى معاوية الذى جعل الحكم الاسلامى وراثى ملكى ولما انتشر الوعى فيما بعد أصبح موضوع معاوية حاليا عندما عرضه «العقاد» و «طه حسين» وغيرهما من علماء التاريخ موضوعا واضحا كما عرضه «ابن شهاب» ولم يسع كل قارئ منصف إلا أن يتلقاه بما يستحقه من الاعتبار والقدر خصوصا من ناحية العدالة الاجتماعية وما كان لمعاوية من أثر فى الخروج عنها وهى العدالة الاسلامية إلى ماله من دور معروف فى انحراف وتغير مجرى التاريخ الاسلامى الذى سار عليه الخلفاء الراشدين (٢٢).

أ- إصلاحاته وأعماله السياسية

قام «ابن شهاب» باصلاحات كبيرة فى وطنه حضرموت وفى الخارج كان يقوم دائما باخماد نار الفتن التى تقع بين القبائل المسلحة بحضرموت كالقبائل «التميمية» والكثيرية ومن اعظم اعماله الاصلاحية قيامه بالصلح بين السلطانين الكثيرى والقعيطى عام ١٨٧٧ إذ نشبت الحرب بينهما حوالى سنتين وتضرر منها الشعب الحضرمى فأخمد نارها بحكمته ومهارته السياسية وكانت الحكومة البريطانية قد ضغطت عليه ومدت له شباك الرغبة والرهبة عندما قامت الحرب العالمية الأولى متوسلة به فى أن يجعل من حضرموت قاعدة حربية لها ضد العثمانيين والعرب المسلحين والمقيمين «بعدن» و «لحج» ولكنه تخلص منها ورفض كل ما عرضته عليه من مال ونفوذ وسلطة وقال انى أخاف الله وأحترم شرفى وشرف امتى وآبائى واجدادى الذين يرقدون فى هذه البقاع الطاهرة «ولابن شهاب» مواقف مع زعماء القبائل والمناصب ومع سلاطين حضرموت أثبت فيها شجاعته وذكاءه حين يقوم باطفاء نار الفتن فيما بينهم وإذا قام ضد الجانب المعتدى منهم ناصبه العداء ، وقام بمؤامرات لاغتياله ولكنه ينجو منها بفضل شجاعته على الحق والصدق وربما ربط فم مركوبه حتى لاينهض فيحسن به حين يقطع عليه القفار ليلا من اجل الاصلاح المنشود والى جانب ذلك له اعمال اقتصادية نافعة كثيرة فى الزراعة والتعمير بحضرموت . أما من الناحية العلمية فكان يقوم بدور فعال فى

التدعية وفهم الاسلام وتعاليمه على وجهها الصحيح فكان يعارض المجدين للأمراء والشيوخ والملوك بعامة ومن «بنى امية» و «بنى العباس» بخاصة المعروفين بالاقطاع والاستغلال والمناهضين للدعاة إلى الثورة الاجتماعية الاسلامية الصحيحة من أئمة «آل البيت» عليهم السلام .

يشجب «ابن شهاب» الأعمال المادية التى يقوم بها معاوية وشركاؤه من توريث للملك والسلطة ومن تصرفات خاطئة ضد الامام على بن ابى طالب وحصلت بينه وبين بعض علماء عصره مراجعات ومؤلفات معروفة حول ذلك ولم تقتصر على النشر العلمى بل تعددت إلى القصائد والاشعار ، كما أنه قام بمقارنات بين من جاء فيما بعد من الملوك والحكام الامويين وبين الأئمة الثوريين من «أهل البيت» النبوى فارهف قلمه فى تخطئة الاولين وأشاد بمذاهب وعقائد الآخرين ودافع بقلمه واشعاره ، وكان هناك علماء جامدون فى عصره لهم أثر فى تخذيل الأمة وخمولها وجمودها على ظواهر النصوص وعدم التوسع فى المفاهيم والعلوم الكثيرة الأخرى فبقيت رازحة فى محلها لاتتقدم ، كما كان هناك دجالون فى الهند وغيرها يتظاهرون بالدين والتقوى ولهم أعمال ضد ذلك يغشون بها السذج والعامة فانبرى «ابن شهاب» لهؤلاء ، ويرى «ابن شهاب» وجوب اصلاح العقيدة وتصحيحها بالنسبة لما رسب فى الاذهان عن ملوك بنى امية فى المشرق وفى طليعتهم معاوية الأول من صحة تصرفاتهم وأن ذلك فى مقدمة ما يلزم العلماء المصلحين القيام به خدمة للعدالة الاجتماعية فى الاسلام وانصافا للخلفاء والأئمة العادلين ولكنه اصطدم بمعارضين متعصبين فى الجانب الآخر نواصب وغير نواصب رد عليهم فى كتبه وفى مدائحه للامام على وبنيه وبهذا يبرز لونا من الوان الشعر الشيعى الذى اتصف به كثير من فحول الشعراء الاقدمين «كالمكميت» و «دعبل» و «الفرزدق» و «الشريف الرضى» و «مهيار» و «الصفى الحلى» ومن بعدهم إلى اليوم مما قل أن يخلو عنه شعر شاعر فحل ، اضافة إلى ذلك فان «لابن شهاب» رحلات وجولات فى كثير من البلاد المتمدنة عربية وغير عربية للحج ودراسة الاوضاع ولاعمال تجارية وشخصية ، فأول رحلة له إلى الحجاز وهو شاب عام ١٨٦٩ فحج ذلك العام واتصل بعلماء الحجاز وغيرها ثم عاد إلى «تريم» ولم تطل اقامته بها إذ رحل عنها عام ١٨٧١ إلى «عدن» و«اليمن» و «لحج» ثم إلى الشرق الاقصى «اندونيسيا» و «مليزيا» حيث تقيم الجاليات العربية الحضرمية هناك بهذين المهجرين وتعاطى التجارة هناك ثم رجع إلى حضرموت بعد

سنوات وأقام بها مستمرا فى اصلاحاته وزعامته العلمية ولكنه لقى مضايقات شديدة وضغطا قويا من بعض اقاربه وحساده ومن رجال الثروة والسلطة «بتريم» اضطر بسببها إلى النزوح إلى الخارج وطاف فى فى نزوحه هذا كثيرا من البلاد ومنها شرق افريقيا ومصر والشام ثم تركيا حيث أهدى له سيفا السلطان عبد الحميد وقلده بها الوسام المجيدى المرصع وانتهى به المطاف إلى «حيدرآباد دكن» احد مهاجر قومه الذى توجد به جالية حضرمية كبيرة وحيث نشأت المطامح والمطامع من القادة الحضارمة الثلاثة وقد اصحبوا فيما بعد وقبيل أن يصل إليها «ابن شهاب» سلاطين حضرموت ودعموا سلطاتهم بالمال الذى اكتسبوه من حيدر آباد المشار إليها واضافوا إليه المساعدات الأخرى التى جمعت لهم بحضرموت حيث استطاعوا أن ينهضوا بجناحى المال والرجال من عشائرهم ومناصريهم ، وفى أثناء رحلاته كان موضع الحفاوة والاحترام وتبادل الابحاث العلمية والمجلات الأدبية مع كبار القوم ببلادهم «واقام ابن شهاب» بحيدر آباد سنين عديدة ، نافت على العشرين ، الف بها اسرة اخرى إلى اسرته بحضرموت وكان محط آمال الجميع بها ومطمح انظارهم وزعيمهم العلمى والأدبى ومع هذا لم يكن سعيدا فى غربته بقدر ما لم يكن سعيدا كذلك فى بلاده التى يضم بها ، وهكذا يعيش كثير من الأحرار والعلماء والعظماء الكبار الذين يحاربهم الزمان إينما حلوا فى حين ينعم السفلة والجهال برغد العيش ، ولكنه مع هذا دائما يحن إلى وطنه ويستولى عليه القلق لبعده عنه بدافع من وفائه له ونبل عاطفته ، ثم عاد إلى حضرموت عام ١٩١٣ فاستقبل استقبالا شعبيا وحكوميا وقوبل من الجميع بالحفاوة والاحترام وقد بلغ من الكبر عتيا وتهافت عليه الجميع وانتهزوا فرصة وجوده بينهم واستفادوا من علمه وآرائه وعاد بعد نحو عامين إلى حيدر آباد لينقل اسرته منها إلى حضرموت وحالت ظروف الحرب العالمية الأولى دون ذلك وكف بصره آخر عمره وتوفى بحيدر آباد عام ١٩٢٢ (٢٣).

ب- ثقافة ابن شهاب

تثقف «ابن شهاب» ثقافة علمية وأدبية رائعة فقد نشأ فى بيئة علمية ومدينة علمية فى تريم وعند شيوخ علماء كبار وتأثر بالتصوف ونشأ عليه ولكنه التصوف المعتدل الذى يتمشى مع الشرع وتعاليمه جنبا إلى جنب ثم أن استعداده الفطرى أهله لأن يعلو بثقافته فوق الوسط الذى نشأ فيه وحدة ذكائه وبعد نظره جعلاه يدرك مالايدرك اقرانه من المعرفة والاطلاع والتفنن يضاف إلى ذلك ما ساهده وجربه وخبره أثناء رحلاته الطويلة إلى كثير من البلاد

المتقدمة وجلساته وندواته ومباحثاته مع رجالها كل ذلك اكسبه اطلاعا اكثر وخبرة أطول ، وكان لتربيته الدينية الصوفية أثر كبير فى اخلاقه العالية فهو متواضع كريم نبيل صبور بشوش رقيق وهكذا تنعكس عليه سمات الفضل الذى نشأ عليه ، وحباه الله صورة جميلة مهيبة وتقاطيع بديعة ولطفا جما ويتجلى ذلك فى مجموعة كتبه ومجالسه وعشرته لمن يعرفه ولايزال كثير وكثير ممن يعرفونه موجودين كما ينطبع كثير من اوصافه فى شعره وادبه فهو من الأفذاذ القلائل الذين أنجبتهم بلاد العرب وليس حضرموت وحدها ، وفى شعر «ابن شهاب» عدة ظواهر منها الرقة والبلاغة والطلاوة والفن وهو كالشعراء الذين قبله فى العربية منذ قرون عديدة وكالشعراء الذين فى عصره يبدأون مدائحهم بالغزل التقليدى ويعنون بالمديح ولكنه لايتكلفه وهو حين يمدح إنما يمدح من أجل الفن ومن أجل تقديم شعره ليذاع ويضم إلى أشعار المكتبة الأدبية فأشعاره لاتقل روعة وفنا عن أمثالها فى عالم الشعر والأدب العربيين، وتناول «ابن شهاب» المرأة وموقفه العام معها موقف عدالة وانصاف فيما لها وعليها بمقتضى النظم التى سنها الاسلام فى المجتمع وقد اجمل ذلك فى قصيدته الحائية التى تتضمن مساجلة بينه وبين سيدة ، وهى مثبتة فى ديوانه وله مواقف جزئية ينظر فيها إلى المرأة نظرة حيطة وحذر وله نصائح وتعليمات خاصة بالمرأة فى أرجوزته التى طبعت بمفردها وبمعية ديوانه ، ونجد خلال ديوانه قصائد ومقاطيع عديدة يعالج بها النعرات والامراض الطائفية الاجتماعية واشعاره كثيرة ومعظمها مثبتة فى ديوانه وله اشعار بالعامية أيضا قال معظمها فى عنفوان شبابه وكما انتشرت كتبه وآراؤه فقد سجلت قصائد له حكمية ودارجة فى مناسبات عديدة يتناقلها رجال الفن والأدب وأنصارهما (٢٤). وبذلك فقد توفرت فى شخصية «ابن شهاب» صفات العلم والأدب والاصلاح والسياسة تتفوق إلى جانب التمسك بمادئ العروبة والاسلام إلى الزعامة القوية فى المجتمع الذى يعيش فيه فاستحق أن يوضع فى مصاف الرواد الأوائل فى الفكر المعاصر مع العلم بوجود شخصيات كثيرة انجبتها حضرموت فى هذه الفترة ولكن لم يلمع منها احد فى كل الصفات التى المعت فى شخصية «ابن شهاب» وانما كان لمعانها وتفوقها فى بعض دون بعض .

٧- سلطنة المهرة

ينحدر عرب المهرة من قبيلة قضاعة ويسكنون الشريط الساحلى الشرقى بحضرموت وتغلب عليهم البداوة وفيهم عديد من القبائل وتكون فيهم السلطة على مر الزمان للقبيلة

القوية التى يكثر فيها الأفراد المسلحون ولديها المال اكثر من غيرها من القبائل وفى الحقبة الزمنية القريبة كانت الهيمنة لقبيلة «بنى زياد» واسم مقدم هذه القبيلة ابن «عفرير» الذى نودى به سلطانا على منطقة المهرة عندما وقع على معاهدة الحماية مع بريطانيا عام ١٨٨٦ ومقر السلطان جزيرة «سقطرة» وهى جزيرة خصبة غريزة الامطار وقد سيطر عليها الاتحاد السوفيتى فى السبعينات من القرن العشرين وجعلها قاعدة حربية كما قام بترحيل جميع سكانها من قبائل المهرة وتم تحويلها تابعة «لعدن» فى التقسيم الادارى الجديد بدلا من المهرة . وقد كان سلطان المهرة يعين احد أفراد أسرته كنائب عنه فى عاصمة السلطنة «سيحوت» ولم يكن لهذه السلطنة جيش ولاشرطة بل يعتمد سكان المهرة فى أمنهم على نظام جعل حراسا من قبائل المهرة يحرسون وهو المسمى فى العرف القبلى «الوجه» ، والاحكام طيلة الاستعمار البريطانى عرفية وللمهرة لغة يتفاهمون بها يقال أنها بقية لسان «حمير» وهذه اللغة لاتكتب ولكن يتحدثون بها ؛ ولكن المهرة يتكلمون باللغة العربية ولم يدخل هذه السلطنة من التعليم سوى الحلقات التعليمية التى تقام فى المساجد من قبل الاشراف السادة من آل الشيخ ابوبكر بن سالم العلوى المقيمين «بسيحوت» و «الغيضة» و «قشن» وقد اسقطت هذه السلطنة عند جلاء الاستعمار البريطانى عن حضرموت وفى عهد الاستقلال سمية بلاد المهرة بالمحافظة السادسة وادخلت حكومة جنوب اليمن لهذه المنطقة نظام الادارة والشرطة ومهدت الطرق وبنت المدارس الابتدائية والمستوصفات الصحية وبدأت هذه المنطقة تدخل الحضارة [٢٥].

٨- سلطنات «الواحدى» و«العوالق» و «بيحان» و«ابين» و «العوالق» و «الضالع»

يعد سكان هذه المناطق أنفسهم بوادى حضرموت باعتبارها مركز الحضارة وسوقا لمنتجاتهم الزراعية ومواشيهم ومنتجاتها ومنها يجلب الحضارم العساكر والحراس وكانت الحال فى هذه المناطق شبه بدوية وتتناثر فى هذه المناطق بعض البلدان والقرى على سواحلها ومنابع العيون فيها ، وفى الحقبة الاخيرة من الزمن ارتبطوا بمدينة عدن لوجود السوق التجارية الضخمة بها وميناثها الدولى فحولوا تجارتهم إلى عدن وابتعدوا إلى حد ما عن ارتباطهم بحضرموت أى ساحل «الشحر» ومكلا ووادى حضرموت الرئيسى وكانت قبيلة «الجعفيين» الحضرمية تسكن هذه المناطق ولم تعرف هذه المناطق شكل الحضارة إلا عند دخولها تحت الحماية البريطانية ،

فعملت بريطانيا على ادخال التعليم ونظام الادارة والمستوصفات الصحية ومهدت بعض الطرق لكى تخدم المصالح البريطانية فى عدن واقامت بريطانيا بعض مشايخ القبائل كسلاطين على هذه المناطق حتى تضمن ولاء هذه المناطق لها ولخدمة مصالحها ومصالح قواعدها العسكرية فى «عدن» وعند استيلاء الحكم الوطنى على مقاليد الأمور أسقط هذه السلطنات وقسمها تقسيما اداريا جديدا فجعل منطقة «العوالق» و «بيحان» و «الواحدى» تحمل اسم المحافظة الرابعة ومنطقة «أبين» و «يافع» و «العوازل» تحمل اسم المحافظة الثالثة وسلخ منطقة الضالع واضافها إلى المحافظة الثانية التى تشمل «لحج» و «الصبيحة» ومنذ أن احتلت بريطانيا عدن عام ١٨٣٩ شخصت بأطماعها نحو المناطق التى تحيط بمدينة «عدن» لتحقق حزاما حولها يضمن لها الأمان بأقل التكاليف ومن أهم هذه المناطق التى تحرص بريطانيا على ادخلها فى منطقة نفوذها منطقة حضرموت التى سمتها فيما بعد محمية «عدن» الشرقية فوجدت بريطانيا ضآلتها فى السلطان عمر بن عوض القعيطى وابنه عوض الذين يسعون إلى انشاء دولة لهم فى حضرموت فدعموه بالمال والسلاح والقوة العسكرية فى بعض الحالات ثم وقعوا معه معاهدة حماية ١٨٨٨ وبعد ذلك قامت السلطنة «القعيطية» بتوسيع نفوذها فى سائر المناطق مما أخاف بقية السلطنات الموجودة بحضرموت فرأى هؤلاء الحكام المحليون فى سلطنة «الكثيرى» و «المهرة» و «الواحدى» وغيرهم أن النجاة من التهام القعيطى لهم هو الدخول فى معاهدة حماية مع بريطانيا ووقع «آل كثير» على المعاهدة التى بين بريطانيا والسلطنة القعيطية وتتابع بعدها بقية الحكام والمشايخ على توقيع معاهدات تشبه هذه المعاهدات وتم لبريطانيا مأربها السياسية والعسكرية بأبخس الاثمان وهذه المعاهدات جعلت للسلطنات الاستقلالية فى امورهم الداخلية [٢٦] وهذا مما اراح لسكان حضرموت بعض الشئ من السيطرة المباشرة .

رابعا : اليمن تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠-١٩١٦

١- الامام الهادى محمد بن المتوكل ١٨٤٠-١٨٤٣

قتل الامام الناصر فى «وادى ظهر» فى كمين اعد له قبائل «يام» فى مدخل الوادى وكان لمقتل الامام الناصر ردود فعل متباينة واضطربت الاحوال بشكل عام وخاف الناس من الفوضى والاقتتال ، وكما جاء الجيش بالامام الناصر لينصبوه امام ويخلعوا على بن المهدى ويلقوا به مع عمه محمد بن المتوكل فى سجن القصر ، فقد قام قائد الحرس باطلاق السجين

على بن المهدى وعمه محمد بن المتوكل وتوجه بهما إلى دار الذهب «دار المتوكل احمد» واجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والاعيان وتقرر تنصيب محمد بن المتوكل احمد إماما وتلقب بالمتوكل متيمنا بأبيه ثم لم يلبث أن غير لقبه إلى الهادى بعد ثلاثة أشهر . أما ابن اخيه الامام السابق على بن المهدى فقد اكتفى مسرورا بالخروج من السجن على أن دورا آخر ما زال ينتظره ، ولم يعترض أحد على تنصيب الهادى اماما فى مايو ١٨٤٠بل ربما كان هنالك رضى واعتقاد بعودة الشرعية ومن ثم عطف عام بعد تجربة الناصر ومالاقاه الهادى نفسه مع آخرين على يديه من السجن منذ اليوم الأول لحكمه حتى مقتله ويبدو أن عددا من رجال الناصر العسكريين كانوا يرون فيه بديلا صالحا للحكم ولم يكن هنالك بطبيعة الاوضاع والظروف الصعبة العامة احد من البارزين قد رأى فى نفسه أن يكون مرشحا للامامة أو مزاحما فى هذا الوقت العسير فقد واجه الامام الهادى منذ بداية حكمه مشكلة القبائل واضطراب الامن فى اليمن الأسفل وذلك منذ أن كان الامام الناصر قد هرب من منطقة «إب» عام ١٨٣٨ وانسحاب القوات المصرية من «تعز» ثم من اليمن عام ١٨٤٠ تركا المنطقة كلها مفرغة من أى شكل من اشكال سلطة الدولة فبقى اليمن الاسفل كله نهبا لطغيان قبائل «بكيل» الشمالية من «ذى محمد» وغيرهم من القبائل وبعض مشايخ المنطقة من المتنفذين فعانى الفلاحون وغيرهم الامرين من الظلم والاستغلال وانتهاك الحرمات وخيم الخوف وتقاسمت حوادث السلب والنهب وقطع الطرقات وخرج الامام الهادى إلى اليمن الاسفل واستطاع اخضاعه بسيطرته فى ديسمبر ١٨٤٠ وقام بتعيين العمال والقضاة فى مختلف مناطق «إب» ، واستقامت الامور للامام الهادى وهدأت القلاقل فى مختلف المناطق نحو عامين نعم الناس خلالهما بالأمن وعاد الزارعون من القبائل والفلاحين إلى العمل فى اراضيهم ، ونهض الامام الهادى خلال سنوات حكمه الثلاث والاشهر الثمانية بدور شبيه بما قام به والده المتوكل واخوه المهدى عبدالله بقيادة الحملات العسكرية بنفسه ومواجهة الاخطار، وكانت صحة الهادى قد تدهورت واستمر مرضه شهرين ثم توفى فى ١٥ يناير ١٨٤٣ .

٢- عودة الامام على بن المهدى إلى الحكم ثانية ١٨٤٣-١٨٤٥

قضى على بن المهدى فترة حكم عمه الهادى محمد بن المتوكل فى هدؤء بعد سنوات السجن التى قضاها مع عمه فى سجن الامام الناصر وفى يوم وفاة الامام الهادى قام قائد العسكر بعمل الاحتياطات الامنية وشدد الحراسة على المدينة والاماكن الهامة ثم توجه إلى

«دار المخا» حيث يسكن على بن المهدى وخرج معه إلى بستان المتوكل فى ٢٠ / ١ / ١٨٤٣ ودعا الناس اليه فى تلك الليلة فبايعوه ووجد على بن المهدى نفسه امام فرصة تعيد إليه الاعتبار فقبل ركوب الخطر من جديد وتلقب بالمهدى فى هذه المرة وبدأ المهدى على عهده الجديد باطلاق كل السجناء واظهر حسن نواياه حتى إزاء أولئك الذين كانوا سبب نكبته الأولى وعين الحكام والعمال ثم قام بحملة إلى «يريم» لمعاقبة بعض القبائل ثم واصل مع جيشه إلى اليمن الاسفل ووصل إلى «قعطبة» فأوجس البريطانيون فى «عدن» خيفة من حملته تلك خاصة وقد بلغهم نواياه فى مواصلة السير جنوبا إلا انه عدل عن ذلك ورجع إلى صنعاء .

جاء الخطر للامام المهدى على بن المهدى عبدالله هذه المرة من شخص لاحدود لطموحه فى الوصول إلى الحكم مستعدا للتعاون مع أى كان والسفر إلى أى مكان لتحقيق هذه الغاية مهما كانت وسائلها واخطارها وقد نجح فى ذلك وكان هو محمد بن يحيى بن المنصور على الذى كان قد هر مع والده عام ١٨٢٩ إلى تهامة خلال حكم الامام المهدى عبدالله ابن عمه ثم استقر بعد فى تهامة وأقام بعلاقات واتصالات بسبب تشرده مع ابيه من صنعاء ونقمته على ابن عمه المهدى ثم من بعده ابنه ثم من تلاه فى حكم صنعاء وأن محمد بن يحيى قد اقام علاقات خاصة مع المصريين المختلفين مع امام صنعاء ولايستبعد أنهم وجدوا فيه بغيتهم كما وجد فيهم الوسيلة إلى الوصول إلى الحكم بالتعاون معهم ولكن سرعة الأحداث واضطرار محمد على إلى سحب قواته من اليمن أحبط آمال محمد بن يحيى فانه لم ييئس فبعد الانسحاب المصرى بنحو عامين قرر السفر إلى القاهرة ليستعين بوالى مصر فى حكم اليمن وينسق معه ذلك وبقى هناك من عام ١٨٤٢ حتى عام ١٨٤٤ لكنه لم يظفر بما كان يأمله فقد اصبح وضع محمد على مختلفا عما كان عليه من قبل فعاد أدراجه إلى تهامة[٢٧] وكان الشريف حسين بن على حيدر قد اصبح سيد المنطقة كلها بدون منازع وقد ذكرنا أن ابراهيم يكن باشا الوالى المصرى فى اليمن سلم مدينة «الحديدة» التى كانت مركزا للادارة المصرية هناك إلى الشريف حسين بن على بن حيدر حاكم «المخلاف السليمانى» الذى كان قد تحالف مع جاره امير عسير لمناواة المصريين واخراجهم من اليمن وقد فعل الوالى المصرى ذلك بناء على الأوامر التى وردت إليه من محمد على الذى اضطر إلى تنفيذ قرارات «التحالف الدولى» فى مؤتمر لندن ١٨٨٤ بسحب قواته من الجزيرة العربية وهكذا تولى الشريف حسين

زمام الامور فى تهامة والمخلاف السليمانى بعد أن أعلن اعترافه وتبعيته للسيادة العثمانية كما تعهد بان يدفع سنويا للباب العالى مبلغا من المال .

رأت الدولة العثمانية أن تبادر بتأييد الشريف الحسين فى حكم البلاد اليمنية التى تسلمها من المصريين حتى يحفظ لها سيادتها الاسمية عليها إلى أن تحين الفرصة المناسبة لاخضاعها لسيطرتها الفعلية ولهذا أرسل السلطان العثمانى عبدالمجيد تأييده للشريف حسين بن على عن طريق حاكم جدة وشريف الحجاز مشترطا أن تكون الخطبة للسلطان العثمانى على منابر المساجد اليمنية كما اطلق الباب العالى عل الشريف الحسين لقب «حاكم اليمن حسين باشا» وذلك فى عام ١٨٤٧ حتى يطبعه بالطابع العثمانى الذى يرمز إلى تبعيته للدولة وكان طبيعيا أن يتلقى الحسين هذا التأييد العثمانى بالقبول والرضا لأن ذلك سيدعم مركزه أمام أعدائه ومنافسيه كما سيمكن لنفوذه أن يقوى فى المنطقة التى يحكمها وقد استقر الشريف حسين فى مدينة «الحديدة» وأخذ ينظم شئونها كما بدأ يوسع حدود المنطقة التى يحكمها فى تهامة فاستولى على «مخا» و «زبيد» و «حيس» حتى امتد نفوذه من المخلاف السليمانى فى الشمال إلى ميناء «مخا» فى الجنوب وفى مدينة «ابى عريش» عاصمة المخلاف السليمانى شيد الحسين قلعته المعروفة باسم «نجران» التى وصفت بأنها من امنع المعاقل فى تهامة كما كانت تشتمل على أربعين منزلا على أحسن نسق بلغه فن العمارة اليمنية حينذاك وقد حصنها بثلاثة ابراج مجهزة بالمدافع ونقل إليها تحفا ثمينة ومكتبة تحتوى على ثلاثمائة مجد ، وعلى الرغم من ان الشريف الحسين حاول القيام بالمهمة المللقاة على عاتقه خير قيام فانه لم يسلم من المخاطر التى سببها ذلك الصراع الدامى المستمر بين المتنافسين على الامامة الزيدية فى صنعاء واستعانة كل منهم بحشود القبائل الطامعة فى السلب والانتقام من اعدائه ثم رغبة من ان يستأثر منهم بالامامة بمد سيطرته على املاك الشريف الحسين فى تهامة والمخلاف السليمانى باعتبارها كانت تابعة لأسلافهم من الأئمة السابقين ؛ بل أن اشراف اليمن كانوا يطمعون أيضا فى ملك الشريف الحسين فى تهامة ولم يكن تعاونهم معه فى محاولة اجلاء المصريين عن المنطقة يسلموها إليه لقمة سائغة بل ليسيطروا عليها بعد أن يطيحوا بحكمه وقد تأكد ذلك عندما التجأ الامام الزيدى محمد بن يحيى بن المنصور إلى الشريف الحسين فى تهامة يرجو مساعدته ضد منافسه الامام المهدى على بن المهدى عبدالله فى صنعاء وقد رأى الشريف الحسين فى الاستجابة إلى مساعدة محمد بن يحيى ما يحقق

أهدافه التوسعية فى المنطقة الجبلية التابعة للأئمة الزيدية فجند قواته لمناصرة محمد بن يحيى وشغل بذلك عن تنفيذ الفكرة التى كانت تراوده فى ذلك الوقت بغزو عدن وتحريرها بطرد الاستعمار البريطانى منها بعد أن اخفقت المحاولات العربية الأخرى لاستعادتها كما شغل فى الوقت نفسه باخماد تمرد قبيلتى «القحرية» و «اسلم» حتى اخضعهما لطاعته (٢٨).

واستقبل الشريف الحسين بعد عودة محمد بن يحيى فى عاصمة امارته «ابى عريش» فاكرمه الشريف الحسين غاية الاكرام واحتفل به كحاكم ووعده بالنصرة وانفاق المال فى سبيل الوصول إلى هدفه حكم اليمن والحقيقة أن كلا الرجلين وجد فى الآخر ضالته المنشودة فمحمد بن يحيى وصولى يهمه حكم صنعاء والشريف حسين طامع فى توسيع امارته إلى ما هو أوسع من المخلاف السليمانى والساحل التهامى وضم المرتفعات واليمن الأسفل وصنعاء وبقية اليمن لو أمكنه ذلك ؛ وهذا ما كان يريده سلفه السابق من قبل ابن عمه الشريف حمود بن محمد عام ١٨١٨ فخاب ذاك الطموح بمجيئ الحملة المصرية الأولى التى اعادت حكم «المخلاف السليمان» إلى امام صنعاء المهدى عبدالله وها هى ذى الحملة الثانية تمنع امام صنعاء من السيطرة على المنطقة نفسها وتسلمها إلى الشريف حسين الذى قوى مركزه ووجد نفسه بعد عامين يستضيف مغامرا يساومه سلفا على اقتسام اليمن أن هو ساعده فى الوصول إلى حكم «صنعاء» وهكذا رأى الشريف الحسين فى الاستجابة لمحمد بن يحيى ما تقتضيه سياسته وآماله فى التوسع واتفق مع ضيفه على شروط المساعدة ، ولم تكن وصول بعض مشايخ «ريمة» إلى «ابى عريش» لاستدعاء الشريف حسين ليتولى امور بلادهم حين وصل محمد بن يحيى إلا عاملا مشجعا لسرعة تنفيذ خططه فى التوسع وبعد أن استكمل استعداداته العسكرية سار بجيش كبير فى مطلع عام ١٨٤٥ إلى مدينة «زبيد» ومعه محمد بن يحيى ومن زبيد وجه قسما من الجيش ومعظمه من قبائل سحار بقيادة محمد بن يحيى ليستولى على «ريمة» فتم له ذلك بسهولة ، ويرجع ذلك إلى رغبة سكانها وبعد أن وصلت الشريف الحسين بشائر الاستيلاء على «ريمة» عقد الالوية لاقربائه وامر جيشه الذى يتكون من قبائل «يام» فاستولى على «حيس» ثم تقدم صاعدا مشارف الجبال فأقبل أهلها للانضمام إلى جيشه فوالى تقدمه حتى عسكر على «تعز» ثم استولى عليها وما أن حل يونيو ١٨٤٥ حتى اكمل الشريف الحسين سيطرته على جميع اليمن الاسفل وعين العمال وأخذ فى تنظيم شئون هذه المناطق متتبعا خلال ذلك تنفيذ حليفه محمد بن يحيى القسم

الثانى من الخطة وهو تقدمه من «ريمة» عبر منطقة الجبال للاستيلاء على صنعاء واسقاط امامها المهدى على وكان محمد بن يحيى بدوره بعد أن ثبت مركزه فى منطقة «ريمة» تقدم وتمكن من الاستيلاء على بلاد «عتمة» و«وصاب» و «بلاد آنس» فاستقر بحصن مركزها «ضوران» وجاء إليه المبايعون بالامامة ، واصبح محمد بن يحيى فى مركز قوى هدفه القادم التوجه إلى صنعاء لاسقاط الامام المهدى على . أما حليفه الامير الشريف الحسين فبعد أن رتب أوضاع اليمن الاسفل واطمأن إلى مركز صاحبه محمد بن يحيى قرر العودة إلى «زبيد» وأسند القيادة العامة فى اليمن الاسفل إلى محمد بن يحيى تاركا له مواجهة امام صنعاء وقواته والذى حاول ايقاف زحف ابن يحى لكنه لم يفلح ثم انشغل خلال تلك الفترة ببعض المشاكل عام ١٨٤٥ منها خروج قبائل «بلاد البستان» وكانت الاوضاع العامة سيئة فانقطعت التجارة والواردات التى كانت تصل إلى صنعاء نتيجة سيطرة الشريف الحسين وابن يحيى على تهامة والمناطق الوسطى واليمن الاسفل ولم يكن امام الامام المهدى على والحال تسير من سيئ إلى أسوأ وخطر ابن يحيى يقترب إلا أن يعد قواته وخرج من صنعاء لمواجهة منافسه قبل أن يصل إليه ويحصره فى العاصمة ثم ما يتبع ذلك لودخلتها جيوش القبائل الملتفة حول ابن يحيى فى «ضوران» وهكذا خرج الامام المهدى من صنعاء فى ١٦ / ٦ / ١٨٤٥ على رأس جيشه وكانت الاخبار قد بلغت ابن يحيى فتوجه بقواته حيث التقى الجيشان فى معركة هزم فيها الامام المهدى على وانحصر مع اصحابه فى قرية «النقيل» وأن بعض المقربين من الامام المهدى على كانوا يرون فى خصمه الكفاية والقوة بالاضافة إلى واقع الحال الذى حسمته المعركة ولهذا فقد دارت الوساطة بين الرجلين على أن يتنازل المهدى لابن يحيى فالتقيا فى خيمة واحدة وتمت المصالحة ولقب الامام الجديد نفسه بالمتوكل وتوحد الجيشان فى ٢٤ / ٦ / ١٨٤٥ وارتحلوا إلى صنعاء[٢٩] .

٣- الامام محمد بن يحيى ١٨٤٥-١٨٤٩

حاول الامام المتوكل محمد بن يحيى منذ دخوله إلى صنعاء أن يكون حازما سريع المبادرة فى مواجهة أى خطر يتهدده كما أثبت أنه أكثر كفاية من المهدى على وابعد نظر واعظم طموحا وسياسة وهو فى مواقفه السياسية لاتهمه الا منفعة ومصالحه الشخصية ولو غير بسببها مواقفه وصداقاته وهو من ناحية أخرى واسع الافق فى الفكر ومتسامح مذهبيا ولهذا فقد كان شديدا على المتعصبين صارما فى تنفيذ الحدود وقام بتعزيز جماعة يبيعون المسكرات

فطيف لهم فى شوارع صنعاء كما أمر بتكسير الملهيات من الدفوف والمعازف والمطربات وحث الناس إلى المحافظة على الجمعة والجماعات فى أوقاتها ولما كانت الشريعة ومسائل القضاء تمس حياة كل الناس وكانت الشكوى دائمة من تردى القضاء ونقض الاحكام فقد حرص المتوكل على أن يحضر بنفسه «ديوان الشريعة» وعند اصدار الاحكام ومنع المناقضة والمخالفات» وقد قوى موقفه هذا ومسلكه السليم فى نزاهة القضاء أن جمع فى يونيو ١٨٤٦ الحكام فى «ديوان الشريعة» فى «بستان السلطان» وأصدر أمره بتعيين القاضى العلامة احمد بن محمد بن على الشوكانى قاضيا للقضاة وهو المنصب الذى تسنمه والده الامام الشوكانى قرابة اربعين عاما من قبل وسار ابنه على نهج والده عدلا وانصافا ووقوفا فى وجه كل ظالم ولاقى من جراء ذلك الكثير من المشقة والعدوات بل والسجن حتى توفى عام ١٨٦٤ ، ولم يتح للمتوكل دوام الاستقرار فبعد عودته من حملته الأولى على «اريان» و «وصاب» و «ريمة» كان عليه أن يحل بعض المشاكل ويواجه تهديدات بعض القبائل الشمالية لحكمه أو صراعها فيما بينها بما يجعل حبل الأمن والسلامة العامة فى اضطراب وقد نجح فى ذلك باستخدام المبادرة واظهار الشجاعة مع حسن النية ، وليس من شك فى أن «ابن يحي» ما كان يمكنه أن يصبح امام وحاكما مطلقا على اليمن باستثناء تهامة و«المخلاف السليمانى» و «عسير» بدون مساعدة الشريف الحسين وما قدمه له من عون مادى ومعنوى حتى دخل صنعاء واعاد له السيطرة على «تعز» ومناطقها ، وهو حين فعل ذلك لم يكن على أى حال بلا هدف أو منزها من كل مطمع أو غاية فقد كان له بالتأكيد مطامع وآمال عريضة فى توسيع نطاق امارته ولن يتأتى له ذلك مالم يضمن اخلاص امام صنعاء أو على الأقل حياده بل كان هاجسه كيف يمكن له الاحتفاظ «بتهامة» و «المخلاف السليمانى» نفسها إذا كان امام صنعاء يعتبرهما جزءا لايتجزأ من مملكته وأن حاكم «ابى عريش» أحد ولاته وقد ظن الشريف الحسين خطأ أن «ابن يحيى» امامه المطلوب ، وبالمقابل لم ير المتوكل وقد تحقق له ما تحقق ولا أنه صاحب الحق الشرعى اضطرته الاحوال وارغمته الظروف إلى الاستعانة بأمير أسلافه تابعين للأئمة وأنه قد قابل جميل الامير الشريف الحسين بالمثل عندما بعث له بعد دخوله صنعاء مجموعة من الهدايا الثمينة كان من ضمنها خزانة كتب مخطوطة نادرة وجدت قبولها لشغف الشريف بالكتب فضمها إلى مجموعته الثمينة ورغم هذا التباين فى النظرتين فقد كان من المحتمل استمرار علاقة الود والتحالف بين الرجلين لولا أن المتوكل وجد نفسه محكوما بظروف اقتصادية صعبة سببها خواء خزينته ونضوب مصادر الدخل لسيطرة

الشريف الحسين على موانئ تهامة التى كانت دائما مصدرا اساسيا لصنعاء ثم حملات المتوكل العسكرية المكلفة والتى كان بعضها بغرض جمع الزكاة والضرائب التى كان فى حاجة إليها لتسيير حكمه والامام المتوكل قبل ذلك وبعده طموح «ميكافلى» النظرة فبدل أن تجد القبائل فيه شغلها فتحاربه ويضطر بدوره إلى حربها فلماذا لايشغلها عن نفسه باستعادة «تهامة» فيحقق طموحه ويفتح متنفسا للقبائل هناك ويستعيد موردا يوفر لحكومته دفع التزاماتها للجند والموظفين وغير ذلك وإذا كانت تلك العوامل قد تجمعت مسرعا خلال عامين من حكم المتوكل فانه «قبل أن يدخل صنعاء بقليل كان قد سبقه إليها الشيخ على حميدة رئيس قبيلة «القحرى» هاربا من «باجل» مستغيثا بامام صنعاء من عدوان الشريف الحسين وتوسعه وكان الامام المهدى على حينئذ فى شغل شاغل فخطر«ابن يحيى» كان قد اقتراب من صنعاء فعاد الشيخ أدراجه [٣٠]:

تجددت الأمور بعد أن أصبح المتوكل محمد بن يحيى اماما فى عامه الثانى فلقد طلب الشريف الحسين قبائل «يام» وبذل لها الاموال وجهز جيشه وخرج بغرض استئصال الشيخ على حميدة والاستيلاء على بلاده ووقعت حروب شديدة بين الطرفين انهزم فيها الشريف الحسين واصحابه وتبعهم قبائل «القحرى» بعد خروجهم من قلعتهم «باجل» المحاصرة وقد عقد صلح بعد ذلك وتواصل الشريف الحسين وحميدة وتبادلا الهدايا بيد أن الشيخ على حميدة كان خائفا من الشريف فما برح بكاتب إلى الامام المتوكل ويعده تمام ولاية «تهامة» وأنه سينفق معه الاموال ويعضده بالرجال ووصلت الأمور إلى درجة حرجة فقد بدأ الامام المتوكل يعد جيشا لغزو «تهامة» واستعادة سيطرته عليها وقد استغل المناوئون للشريف الحسين والمتضررين منه رغبة الامام المتوكل فى استعادة تهامة فأغروه بذلك لأن الشريف الحسين فرض ضرائب باهظة على التجار والأهالى فى المناطق التابعة له . بحجة أنه يقوم باعداد جيش كبير يهاجم به عدن لينتزعها من أيدى البريطانيين ، وقد ضاق الأهالى بعبء هذه الضرائب وبدؤا يفرون من «المخا» والحديدة» متجهين إلى عدن فالمتوكل راسل الشريف حول ايرادات الموانئ لكنه لم يستجب له فيما طلب كما طلب الامام أن يرجع إليه بعض الموانئ ولكنه لم يقبل ويتضح نكث الشريف فى تعامله مع حلفائه حينما كان حليفا لأمير عسير عائض بن مرعى الرفيدى فتخلى عنه وهو فى أوج تحالفه معه حين وجد نفسه فى مركز القوة ولديه حليف جديد هو الامام المتوكل فعندما طالب امير عسير صاحبه الشريف المتفق

عليه نتيجة قيامه بغزو «باقم» واخضاع قبائل «بنى جماعة» لصالح الشريف حسين أخذ بدوره فى المماطلة والتسويف لتلك الطلبات بيد أن الحليف الجديد الذى استند إليه مبدئيا لم يدم فقد لمس الشريف من الحليف الجديد «ابن يحيى» بوادر العداء والخطر المحقق وعندما نظرا إلى خلفه فوجد عائض مكشر الانياب متحفز للوثوب فلم يرى من حسن التدبيران يجعل نفسه بين شقى الرحا وترجع له أن مصادقات عائض اجدى فائدة وامن غائلة من الحليف الجديد فبعث ابن اخيه الحسن بن محمد إلى عسير فعمل ما فى وسعه حتى تمكن من اعادة حسن العلاقات وعقد معاهدة دفاعية تعهد الأمير عائض بموجبها من دفع كل اعتداء على بلاد الشريف الحسين الذى كان يرى أنه لابد من الركون إلى حليفه الأول أمير عسير فيما لو حدث هجوم من قبل الامام المتوكل واقام الشريف فى «الحديدة» بعدما خفض قواته من قبائل «يام» و «همدان» دون أن يعمل حسابا لخصمه وبقيت لديه بعض الجنود من الهمدانيين بمثابة حرس خاص له وهم بالطبع يدينون بالولاء الدينى والروحى للامام الزيدى لكنه بعد ذلك بدأ يعد جيشه بعد أن بلغته حشود الامام المتوكل واستعداده للحرب وخرج الامام من صنعاء فى ديسمبر ١٨٤٧ إلى تهامة فى «باجل» فاستقبله شيخها على حميدة وانضمت قبيلة من «القحرى» وفى اليوم التالى ٢٠ ديسمبر ١٨٤٧ وقعت معركة حامية هزم فيها الشريف الحسين الذى استسلم لحليفه القديم متنازلا له عن تهامة لقاء سلامته واطلاق سراحه وبعد أن كتب وثيقة التنازل توجه الامام المتوكل بصحبة اسيره إلى «زبيد» وتركه تحت حراسة «قبائل ذى حسين» وذهب إلى «المخا» ودخلها وبهذا امتدت سيطرة المتوكل على تهامة من «المخا» جنوبا إلى «الزيدية» شمالا ولم يبق غير «الحديدة» التى تمركز فيها الاشراف وعاصمتهم «ابو عريش» فى حين خيب الامير عائض العسيرى استنجاد الشريف الحسين لطمعه هو نفسه فى الاستيلاء على تهامة ولموقف الشريف غير الودى منه قبل مصالحته حين احسن بخطر المتوكل فى حين لبت قبائل «يام» الدعوة وهبت بكل رجالها بعد أن وعدت بالمال والغنائم وقد وقع الامام المتوكل الذى استقر فى «المخا» فى ثلاثة اخطاء كانت سببا فى تدهور الموقف لغير صالحه ، أولها اطلاقه ابن حامد من السجن وهو المسؤل عن اموال الشريف ووكيله فقد انضم إلى من «بالحديدة» وصرف الاموال لقبائل «يام» ، وثانيهما : عدم أخذ الاسير الشريف الحسين إلى صنعاء وتركه فى حراسة قبائل «ذى حسين» فى «البيشية» خارج «زبيد» فقربه من «تهامة» ترك املا فى انقاذه والاعتماد على «ذى

حسين» خطأ آخر لسهولة استمالتهم بالمال ، وثالثها : سوء عامل «بيت الفقيه» الشيخ «ابكر شرف» الذى اساء إلى الناس فأخلوا بالأمن وقطعوا الطرق فى حين كان المتوكل بعيدا عما يجرى فى المنطقة كما تشتت قوات الامام المتوكل فى المناطق والمدن التى استولى عليها وتراخت همم القبائل التى تركت حاميات غير مستعدة لخوض معارك جديدة وهمها المال وأى سلب سهل وهكذا رجحت كفة الميزان الشريف الحسين الاسير بمجئ قبائل «يام» المتشوقة للقتال والمغانم الموعودة ودخلت «زبيد» فاستباحتها . أما الاسير الشريف الحسين فقد سلمته «ذو حسين» مقابل فدية من المال دفعت لهم دون قتال أو وفاء للامام المتوكل الذى ترك تهامة خلف ظهره فى حين نجح الشريف الحسين فى اعادة سيطرته على تهامة من جديد ولكن خذلان الامير عايض له بل وعمله السريع خلال تلك الاحداث لضم تهامة إلى امارته عسير ثم جحود المتوكل لصنيعه معه وهزيمته واسره كل ذلك خلف لديه عقدة نفسية وصدمة عصبية اثرت ابلغ التأثير فى مجرى حياته وأسدلت على فكره حجب قاتمة من اليأس : لهذا فقد عزم على قرار خطير فى طلب العثمانيين للمجئ لحكم البلاد اليمنية فلاله ولا لامام صنعاء خصمه اللدود المتوكل الذى لم يكن بدوره أقل مبادرة فى هذا الاتجاه وكان فى ذلك نهايتهما معا كما كان بداية حقبة تاريخية تالية هى فترة الدور الثانى للحكم العثمانى فى اليمن(٣١).

عاد الامام المتوكل إلى صنعاء ليواجه العديد من المشاكل الاقتصادية والسياسية لكن اهمها ظهور خارجين يدعوان لنفسيهما للامامة وبعد جهد تمكن الامام المتوكل من اعادة الامن والهدوء ولكن اقتتال الامام المتوكل محمد مع الشريف الحسين وما جر ذلك من احداث فى تهامة كانت بمثابة الارهاصات لتدخل اليمن فى دور آخر فى ظل الحكم العثمانى فقد اغتنم الباب العالى الفرصة فى استدعاء الشريف الحسين للسلطات العثمانية فصدر الأمر إلى والى الحجاز توفيق باشا وشريف الحجاز محمد بن عون بالتوجه إلى اليمن على رأس جيش عثمانى من ثلاثة آلاف رجل فوصلوا إلى «اللحية» ومنها إلى «الحديدة» فى ابريل ١٨٤٩ فقابلهم بها الشريف الحسين مرحبا ومقدما كل التسهيلات ولما وصل الخبر إلى صنعاء لم يرغب الامام المتوكل أن ينفرد خصمه بالتزلف إلى العثمانيين ويتأخر هو عن الترحيب بهم وبالتالى تفوته الفرصة فسارع بالكتابة إليهم وأرسل بعض الهدايا النفيسة وكان شريف الحجاز قد ارسل من جانبه الشيخ اسحاق بن عقيل العلوى الحضرمى وهو من علماء الشافعية بمكة المكرمة بمكاتب إلى الامام المتوكل فحواها أوامر السلطان وأن خروجه مع الباشا توفيق

إلى اليمن هو اعانة المتوكل وتقرير امور اليمن ورفع ما تكاتف الفتن وكان الأمر مخرجا جديدا للمتوكل ولم يفكر فى العواقب أو ردود الفعل التى يمكن أن تحدث من قبل اليمنيين الذين لم ينسوامجئ العثمانيين قبل أكثر من قرنين وما دار بينهم من معارك وقتال لازالت ماثلة فى أذهانهم متناقلة قصصا وبطولات لأسلافهم لكن هم المتوكل الذى كثرت من حوله المشاكل والمؤامرات كان قد تبلور بأسلوبه السياسى ومذهبه النفعى فى انتهاز الفرص فى التعاون مع العثمانيين واحضارهم بنفسه إلى صنعاء ليستريح من تعنت القبائل وتخبطهم واستطالتهم فى المطالب مع عدم النفع منهم وتظاهرهم على الغدر والمكر وما أن وصل المتوكل إلى صنعاء حتى بدأت الشائعات تتحقق من أنه ذهب لدعوة العثمانيين للحضور لحكم اليمن فتحفز الناس واستفزت حفائظهم ضد المتوكل والعثمانيين وما هى إلا أن دخلت القوات العثمانية صنعاء فى ٢٤ / ٧ / ١٨٤٩ وابلغ المتوكل الناس بأن امورهم مناطة بالباشا ومن هنا تيقن كل من سمع من المتوكل صدق الاقاويل وعلموا بخديعته لهم وخيانته لامانته واعلم الناس بعضهم بعضا وعلموا أن الأمر صعب عصيب وكانت الكارثة فى اليوم الثانى حينما انتشر بعض الجنود العثمانيين فى المدينة للتسوق وشراء الحاجيات فقد عقد أهل صنعاء وبعض الجنود اليمنيين اجتماعا فى مسجد «ازدمر باشا» القريب من باب شعوب وأجمعوا رأيهم على الفتك بالعثمانيين وثارت العامة معهم فى تلك الحال فأوقعوا بكل من وجدوه من العثمانيين فى «صنعاء » و بئر العربى» وبلغ القتلى من العثمانيين إلى نحو مائة قتيل وأخذت خيلهم وأمتعتهم واشتدت الثورة فتوجه الناس لمحاصرة المتوكل فى قصر «بستان السلطان» للفتك به لاعتباره مسؤلا عن حضور العثمانيين إلا أن الحراسة كانت عليه شديدة فى هذا اليوم واستمروا فى مطاردة الجنود العثمانيين الذين تجمعوا فى داخل القصر لحماية انفسهم ولما هدأت الامور بعض الهدوء مع حلول الليل بعد أن قام قائد القوات اليمنية بحفظ الأمن واغلاق الابواب رأى عقلاء صنعاء وأهل الحل والعقد ضرورة تنصيب امام جديد وشاءت الاقدار ان يعود إلى سدرة الحكم للمرة الثالثة الامام المهدى على الذى كان المتوكل قد هزمه قبل اربع سنوات فتنازل له عن الحكم واستقر مؤثرا العافية فى صنعاء فتوجه الناس إليه فى الليل وعولوا عليه فى القيام لدفع المصيبة النازلة وحفظ دمائهم واموالهم وهو من ابى ذلك لأنه قد عرف ذلك مرتين ويخذله أصحابه فتحمل المشاق واصبح على بن المهدى اماما يمثل الانقاذ الوطن يوم ٢٦ / ٦ / ١٨٤٩ كما بات المتوكل المحصور فى قصر «بستان السلطان» رمزا للخيانة والتعامل مع الغريب الاجنبى ومما لاشك فيه أن المتوكل كان من أكفأ

الأئمة المتاخرين وأكثرهم مقدرة وذكاء إلا أنه جاء فى وقت صعب داخليا وخارجيا كما أن سياسته الانتهازية أودت به فى آخر المطاف (٣٢).

ثارت العامة من جديد صباح السبت ٢٦ / ٧ / ١٨٤٩ واقتحمت قصر «بستان السلطان» فهرب ليسجن فى دار الجنات لكنهم لم يقتنعوا بذلك فقد كانوا يطالبون برأسه فحوصر من جديد فأخرج إلى بيت «اسماعيل الامير» ومن هناك قيد وأوثق بالحديد ونقله السجانون إلى سجن القصر حيث كان فى مأمن من قتل العامة له ، وكانت الاخبار قد سرت فى مختلف الانحاء فهبت القبائل القريبة من العاصمة لتساهم فى تشديد الحصار على العثمانيين من الجانب الشرقى للقصر والأبواب القريبة منه حيث تحصن العثمانيون ونصبوا المتاريس والمدافع حول الاسوار وألقيت المسؤلية بكل صعابها على الامام المهدى على الذى وعى الدرس واستفاد من اخطاء خصمه القديم المتوكل فعين لنفسه الفقيه محمد بن احمد بن اسماعيل العطارى وزيرا وكان عاملا على «ذمار» واثبت الوزير فى هذا الوقت الحرج قدرته وكفايته أمر الامام المهدى بفتح الابواب الخارجية للمدينة بعد أن اتفق مع القبائل التى خارج الاسوار بأن الهدف والغاية محاصرة العثمانيين حتى يتم اعادتهم من حيث اتوا وليس مضايقة الأهالي وازعاجهم وكان من العسير على العثمانيين الخروج لإحضار وشراء ما يحتاجون لأنفسهم وحيواناتهم حتى تم التفاوض بينهم وبين الامام المهدى على ان يجلب لهم حاجاتهم إلى القصر ويدفعون ثمن ذلك على أن يتهيؤا للرحيل ومرت الايام وخشى الامام المهدى والناس أن العثمانيين يكسبون بذلك الوقت ليصلهم دعم من تهامة وبخاصة وهم ما زالوا يستعملون مدافعهم واسلحتهم فى محاولاته يائسة لفك الحصار من أنفسهم ؛ لكنهم عانوا الكثير وبدأت خيولهم وحيواناتهم تنفق فتجدد التفاوض والاتصال واستقبل المهدى «بيرم باشا» اكبر معاونى قائد الحملة «توفيق باشا» وبعض مرافقيه فبحث معهم أمور انسحابهم ومغادرتهم فطلبوا الطعام والعلف وثلاثة مائة وخمسين جملا لنقل اثقالهم على أن يمنحوا الأمان والحماية حتى يصلوا «الحديدة» ومقابل ذلك يتركون رهائن إذا هم تأخروا فى الرحيل فقتلهم مباح كما أنهم سيدفعون التكاليف وتولى الوزير العطارى الاجراءات والترتيبات الخاصة بتنفيذ الاتفاق فاستلم الرهائن وزودهم بالمؤن وما يحتاجون إليه ثم جهز الجمال المطلوبة ، وفى يوم العيد الأول من شوال الموافق ١٨ / ٨ / ١٨٤٩ اقفلت ابواب العاصمة وفتح باب القصر الجنوبى «باب ستران» وخرجت قافلة الانسحاب العثمانى منكسة

مدفوعة وخرج لتشييعهم وحمايتهم الوزير العطارى ومعه مئتان وعشرون من الحرس والفرسان والناس يتزاحمون من خلف سور المدينة لمشاهدتهم فرحين معيدين عيدين عيد الفطر وعيد خروج العثمانيين إلى «الحديدة» وقد كتب الامام المهدى إلى قبائل بلاد «البستان» و «الحيمة» تأمين انسحابهم حتى يبلغوا مأمنهم ومع ذلك فقد عانوا فى طريقهم بعض المتاعب والهجمات رغم حماية الوزير وحرسه واضطر الامام المهدى على إلى ارسال عساكر جديدة للحماية حتى استطاع العثمانيون وقائدهم «توفيق باشا» الوصول فى آخر الأمر إلى تهامة بعد أن تبين لهم أى مركب صعب ستخوضه جيوش السلطان العثمانى عندما ستحاول العودة للاستيلاء على عاصمة اليمن بعد أقل من ربع قرن بقليل ، وفى «تهامة» قنع العثمانيون بالسيطرة على ساحلها لقربها من مراكزهم وقواتهم فى الحجاز وتعاونوا لوقت قصير مع الشريف الحسين الذى عاد إلى وطنه الأول مدينة «ابى عريش» واقام بقصره المسمى «لجران» إلى أن صدرت الأوامر من الآستانة بترحيله إليها وبعد وصوله إلى الآستانة قرر له راتب شهرى وخير فى الاقامة فى أى محل أراده من البلاد العثمانية فاختار الاقامة بمكة إلى أن ادركته الوفاة عام ١٨٧٦ . أما صنعاء فقد تنفست الصعداء برحيل العثمانيين وبدأ الامام المهدى على فى ولايته الثالثة التى تطول يواجه مشاكل الفوضى والفتن التى انتشرت فى اماكن كثيرة وعلى مقربة منه كان خطر «الهادى الويسى» يقترب ، وبعد مضى نحو اربعة اشهر قام الامام المهدى لكن الأهم من ذلك أن الامام المهدى قرر اعدام المتوكل ليرتاح ويخلص من خطره فأمر يوم ١١ / ١٢ / ١٨٤٩ بقطع رأسه وتم انفاذ ذلك فى السجن فجر ذلك اليوم وما هى إلا أشهر أخرى حتى خلع الامام المهدى على ودخلت البلاد في فترة معتمة من صراع الأئمة الصغار وفوضى القبائل حتى عاد العثمانيون من جديد للاستيلاء على صنعاء [٣٣]. وقد أراد العثمانيون أن يكتسبوا ببقائهم هناك موطنا صالحا يمكنهم من مراقبة الأحداث الجارية داخل اليمن عن كثب حتى تتاح لهم الفرصة من جديد للسيطرة على صنعاء واخضاعها للحكم العثمانى .

أثرت الامامة الزيدية تأثيرا عميقا فى توجيه أحداث التاريخ الحديث وبخاصة قبيل وفى أثناء خضوع اليمن للحكم العثمانى كان نظام الامامة الزيدية الذى واجهه العثمانيون فى اليمن هو نتاج عشرة قرون ونيف من الزمان التى قامت على أساس دينى وهى الدولة الاسلامية العربية الوحيدة التى واصلت حكمها وحافظت على كيانها أكثر من ألف عام منذ

قيامها حتى الثورة اليمنية عام ١٩٦٢ وكان نفوذها يمتد تارة حتى يشمل جميع بلاد اليمن من العسير فى الشمال إلى حضرموت وظفار فى الجنوب وتارة ينحصر سلطانها فى قسم من البلاد الجبلية اليمنية كمدينة «صعدة» وما يحيط بها وكمدينة »شهارة» و «حجة» وكل هذه المناطق جبلية حصينة كانت تعتبر من حصون الزيدية فى اليمن ومعاقلها وقد عاصرت الدولة الزيدية فى اليمن كثيرا من الدول العربية التى قامت فى الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر والتى عاشت مدة ثم اصبحت فى ذمة التاريخ وكان الصراع الدموى بين الاشراف السادة الزيديين الطامعين فى نصب الامامة هو المثل النمطى لتاريخ اليمن فى عهد الامامة الزيدية وحتى الوقت الذى سيطر فيه العثمانيون على العاصمة اليمنية فان ذلك لم يعطيهم سيطرة فعلية على اليمن بأكمله فقد ظلت الامامة الزيدية فى الشمال وفى صعدة الحصن الحصين للمذهب الزيدى منذ ظهورها فى اليمن وتواصل جهودها لتؤكد حقها المقدس فى الحكم ومنذ وصول العثمانيين إلى اليمن فى مطلع العصور الحديثة قامت بينهم وبين اليمنيين بصفة مستمرة حروب كثيرة وكانت تلك الحروب التى تزعمها الأئمة الزيدية أكسبتها اثراء سياسيا كبيرا فكرة الدولة فى النظرة الزيدية التى شكلت الاساس الذى قام عليه نظام الامامة، هو ذلك التنظيم الدينى السياسى الوحيد الذى اصطدم به العثمانيون فى اليمن ، رعلى الرغم من اتفاق الزيديين مع جمهرة الشيعة فى احقية الامام على كرم الله وجه وابنائه من السيدة فاطمة بالامامة فانهم يقولون بجواز امامة المفضول مع وجود الفاضل والافضل ولهذا فان الزيدية لايتبرؤن من ابوبكر وعمر كما يفعل غيرهم من الشيعة وبذلك تبدو الزيدية اكثر الفرق الشيعية اعتدلا واقربها إلى السنة بوجه عام وشروط الامامة عند الزيديين هى اربعة عشر شرطا تتلخص فى أن يكون الامام «مكلفا» - «ذكر» - «حر» - «مجتهدا» - «علويا» - «فاطميا» - «عدلا» - «سخيا» - «سليم العقل» - «سليم الحواس» - «سليم الاطراف» - «صاحب رأى وتدبير» - «مقداما فارسا» وكان الشرط الاخير للامامة من الأمور الهامة فى المذهب الزيدى التى أثرت فى تاريخ اليمن وأدت إلى تعدد الأئمة الزيديين فى وقت واحد إذ كان الامام زيد يرى الخروج على «الظالم المتغلب» ويرى الخروج شرطا فى كون الامام امام . حتى أن اخاه الامام محمد الباقر اعترض عليه فى هذا الرأى وقال له : «على قضية مذهب والدك ليس بامام (يقصد عليا زين العابدين) لأنه لم يخرج قط ولاتعرض للخروج» . وأدى هذا الشرط الاخير من شروط الامامة الزيدية إلى استمرارها وكفاحها ضد العثمانيين وضد أى غازى اجنبى لليمن وتعتقد الزيدية أن الامامة ليست شأنا

عاما تفوض للامة الاسلامية للنظر فى تعيين الشخص الصالح لشغل المناصب بل تؤمن أن النبى (ﷺ) فوض الامامة لعلى زوج ابنته ولنسله من زوجته ابنة النبى السيدة فاطمة كما أن الزيدية تختلف عن غيرها من فروع الشيعة فى أنها لاتوافق على تعيين الامام لمن يخلفه بل تصر على أن الامام يجب أن يختاره المسلمون ذو الكفاية أهل الحل والعقد ويتضح من هذا أن رأسالدولة فى النظرية الزيدية يعتبر موضع صفات يخلعها الله عليه لايقدر غيره على بلوغ مثل هذه المكانة وهذا ما عبر عنه بوضوح أكبر باشتراط أن يحوز الامام بجانب الصفات الأخرى السابق بيانها «صفة العصمة» كما اشترطت الزيدية أن يكون الامام على استعداد لانشاق سيفه لتأكيد حقه واعلاء شأن العقيدة الاسلامية وجعلت الثورة ضد الامام مشروعة إذا ما رئى أنه غير عادل أو خالف الشريعة الاسلامية لو ان شخصا اكفأ منه طالب بالمنصب على أن يكون من الاشراف السادة نسل النبى (ﷺ) وإلا أنه دفع بأنه زنديق ، مخالف ، باغ وعدو الله واجازت الزيدية أن يكون هناك أكثر من امام فى الوقت نفسه إذا كانت مناطق نفوذ كل منهم متباعدة بعدا كافيا وكانت عواقب هذه الشروط بالاضافة إلى ضرورة الانتخاب، أن تقوم دائما حروب متصلة بين المطالبين بالامامة بل أن هذه الحروب أعطيت لها صفة القداسة واعتبرت أساسية للدفاع عن العقيدة الاسلامية وللضرب على ايدى الطغاة والزنادقة ، وكان رجال القبائل اليمنية وسكان الريف الميالون للحرب من أهل الشمال مستعدين دائما للقتال مع أى كان ضد من كان تدفعهم إلى ذلك الاسباب الاقتصادية وكانت هذه الفوضى المستمرة على حساب رخاء البلد المادى .

وتحدد الوظيفة الادارية الأولى للامام هى جباية الضرائب والمحافظة على الأمن والنظام وكان الامام هو الشخص الذى يرجع إليه فى جميع الامور ولينفذ الامام هذه الوظيفة الادارية كان يعين من قبله حاكما لكل لواء وقضاء وناحية ومديرا للعمال وامينا للصندوق ومديرا للأوقاف وما يلزم من الكتبة وفى أثناء حكم الزيدية فى اليمن احتفظت الملكية الخاصة للأرض ببقائها بصرف النظر عن المفهوم النظرى أن الملكية النهائية على الأرض للدولة فعند التطبيق كانت معظم الأرض دائما مملوكة ملكية خاصة مع الاعتراف بكامل الحقوق للمالك فى التصرف بالمال ويمكن أن تعزى سيادة الملكية الخاصة فى اليمن خلال تاريخها الاسلامى حتى الحديث إلى عاملين وهما : العامل الأول : أن اليمن خلافا للاقطار الأخرى خارج بلاد العرب لم تدخل تحت سيطرة الاسلام بالفتح وتبعا لذلك بقيت اراضيها فى يد مزارعيها الاصليين كما أن الحكم العثمانى الأول فى اليمن فى القرن السادس عشر لم يستطيع أن يضمن سيطرة

حقيقية على البلاد حتى أن العثمانيين خرجوا من اليمن بعد قرن من الحروب التى كادت تكون مستمرة دون أن يتمكنوا هناك من فرض النظام الاقطاعى الذى فرضوه على مصر والشام والعراق ، العامل الثانى الذى ساعد على بقاء الملكية الخاصة فى اليمن قد نتج عن الطبيعة الجغرافية التى جعلت الهضبة الوسطى اكثر ملاءمة من ناحية الظروف المناخية مما زاد من كثافة السكان الذين اكتسبوا معظم الأراضى الصالحة للزراعة والتى احتاجت لمجهود انسانى مباشر لتكون منتجة ولم تكن منحة الطبيعة ولم يهيئ هذا لنظام اقطاعى او اقتصادى قائم على العبودية أن يقوم فى الهضبة الوسطى فكادت الملكية الكبيرة أو ملكية الدولة تكون مختفية تماما لأن كل بقعة قابلة للاستصلاح قام الافراد باستغلالها بينما على العكس من ذلك قلت كثافة السكان بالنسبة إلى الأرض المنخفضة فى تهامة نظرا لسؤ الظروف المناخية فعاشت الملكية الكبيرة هناك كدليل على قيام نظام اقطاعى كما وجد اقتصاد قائم على العبودية وظلت هناك حتى الآن مساحات واسعة من الأرض تعود ملكيتها قانونا إلى الدولة وقد ساهم قانون الإرث والوصايا فى تفتيت ملكية الأرض وهذا لايتضمن الحجم الصغير غير الاقتصادى فحسب بل الوقت الضائع فى الانتقال بين رقعة وأخرى أيضا ولتجنب قانون الارث توضع الارض كوقف عائلى وبه تصبح غير قابلة للانتقال وفى معظم الحالات يمنع الوقف الأضرار التى تنتج عن تفتيت الارض إذ أن الأرض تقسم بين المتفعين بالوقف طبقا لأنصبتهم النسبية وفوق ذلك كله تعدم جواز نقل ملكية الارض مما قد يؤدى إلى افتقار التحسينات ان لم يكن المنتفع مهتما بالاصلاح ومن مشكلات الانتفاع بالأرض عدم وجود موثقين عموميين وعدم وجود نظام ملائم للتأكد من صحة الوثائق وتسجيلها وقد زاد هذا النقص من حدة النزاع حول ملكية الأراضى وتشجع التقاضى بين اليمنيين ، وقام اقتصاد اليمن فى عهد الأئمة على الزراعة وكان معظم الانتاج للاستهلاك المباشر ومن العوامل التى أدت إلى تخلف الاقتصاد اليمنى شدة الافتقار إلى الأمن والطمأنينة نتيجة للصراع الدائم بين المتنافسين على الامامة وعدم ملاءمة المواصلات وعدم وجود مؤسسات مالية أو نظام نقدى مناسب وأدى احتكار التجارة الخارجية المحددة بوسطاة قلة من اصحاب النفوذ فى اليمن إلى هجرة رجال الاعمال الاكفاء كما اقام سدا فى وجه نمو طبقة تجارية تعمل على تنشيط التجارة وتقدمها ، أما النظام الضرائبى فى اليمن فقد كان يقوم من الناحية النظرية على اساس الشريعة الاسلامية ، وكانت الحروب الدائمة وخاصة ضد العثمانين من العوامل التى أدت إلى عدم تزايد السكان نظرا للمجاعات والدمار الذى كانت تسببه تلك الحرروب الطاحنة .

٤- النفوذ العثمانى فى «تهامة» و «المخلافالسليمانى» و «عسير»

ارتد العثمانيون إلى تهامة بعد أن اخفقوا فى حملتهم للسيطرة على صنعاء عام ١٨٤٩ وقنعوا بالبقاء هناك حتى تحين لهم الفرصة لاعادة الكرة من جديد فى ظروف افضل وقد اتخذ العثمانيون من الحديدة مركزا لتجمعهم كما نصبوا الحسن بن الحسين حاكما «للمخلاف السليمان» فى شمال اليمن على أن يكون تابعاللسيادة العثمانية غيرا أن ثمة نزاعا نشب بين الحسن بن الحسين وبين ابن عمه الحسين بن محمد فى مدينة «ابى عريش» عاصمة «المخلاف السليمانى» مما أدى إلى انقسام أهلها إلى فريقين متصارعين فتحصن الحسن فى قصر «لجران» وأخذ يطلق نيران مدافعه على خصمه المتحصن فى «قصر الشامخ» فكانت قذائف الفريقين تتساقط وسط المدينة وتقتل الابرياء واخيرا ارسل الحسين جماعة من رجاله اغتالوا الحسن فى قصره ثم انفرد بحكم «ابى عريش» بينما كان العثمانيون يوطدون نفوذهم فى أرجاء «تهامة» على أن حكم الحسين بن محمد «للمخلاف السليمانى» لم يكن افضل من سابقه إذ افتقدت «شمال اليمن» حالة الأمن والاستقرار مما دفع أهالى «ابى عريش» إلى الاستنجاد بالعثمانيين فى «الحديدة» حتى يخلصوهم من ظلم الحسين وجبروته وقد استجاب قائد العثمانيين لمطلب «أهالى المخلاف» واستدعى الحسين لمقابلته فى «الحديدة» وأن الحسين عندما بلغ منتصف الطريق بين «ابى عريش» و «الحديدة» وصلته قصيدة من أحد اعوانه يحذره فيها من غدر العثمانيين المعروف فبادر الحسين العودة إلى «ابى عريش» تفاديا للتصادم مع العثمانيين فى معركة خاسرة غير أن الحسين بن محمد لم يغير من سياسته فى حكم المخلاف السليمانى بل ساءت الأمور عما كانت عليه قبل حتى اضطر رئيس مدينة ابى عريش احمد بن حسن العمرى إلى الاستنجاد بأمير عسير محمد بن عائض بعد أن تعهد له نيابة عن أهل المدينة بالتأييد والمساندة ولقى هذا المطلب لدى امير عسير كل قبول ورضا لأنه كان يطمع فى السيطرة على المخلاف السليمانى من جهة كما كان يهدف إلى طرد العثمانيين من تهامة واخضاعها لحكمه من جهة أخرى لهذا تقدم حاكم عسير صوب «ابى عريش» منتهزا فرصة اشتغال العثمانيين عنه فى «الحديدة» بقمع التمرد والثورات ضدهم فى تهامة وقد اقتحم العسيريون على الشريف الحسين بن محمد فى قصر «الشامخ» وسيطروا على المدينة بعد أن تخلى سكانها عن مساندته مما اضطره اخيرا إلى القرار ناجيا بنفسه فى عام ١٨٦٣ . وقد شجع النجاح الذى احرزته قبائل شمال اليمن العسيرية فى المخلاف السليمانى

على تدعيم المقاومة لقبائل اليمنية فى «تهامة» ضد العثمانيين التى ازعجتها هذا الانتصار وتحرج موقف متصرف «الحديدة» العثمانى «على ياور باشا» وطلب النجدة من عزت حقى باشا حاكم عام الحجاز وكان مجئ القوات العثمانية الجديدة إلى تهامة كافيا لانسحاب القبائل اليمنية الثائرة عن «الحديدة» واعتصامها فى المناطق الجبلية المجاورة لها ، على أن خطر الثوار اليمنيين لم ينته بهذا الانسحاب لأنهم ظلوا يسيطرون على بعض المناطق الحصينة على الساحل والتى مكنتهم من مطاردة السفن التجارية المارة بمحاذاة الساحل اليمنى فى «عسير» والاستيلاء على ما تحمله من متاجر وكان على السلطات العثمانية الحاكمة فى الحجاز والتى تتمثل فى عزت حقى باشا الوالى العثمانى والشريف عبدالله حاكم مكة أن تقضى على تلك «الثورة اليمنية» حتى لاينحسر نفوذ الدولة العثمانية عن اليمن والجزيرة العربية تدريجيا ولكن نظرا لعدم تحديد اختصاص كل من الرجلين المسؤلين تحديدا دقيقا فقد حاول كل منهما أن يفتت سلطة الآخر فكثر الاحتكاكا بين هاتين الشخصيتين الكبيرتين وساعد على ذلك الكراهية المتبادلة بينهما فعزت باشا كان يمثل القومية التركية الحاكمة بينما الشريف عبدالله يمثل القومية العربية المحكومة وأدى ذلك فى النهاية إلى عدم القيام بعمل ايجابى مشترك لإخماد تلك الثورة اليمنية كما أن موقف شريف مكة تحرج كثيرا عندما كلفه الباب العالى بالقضاء على ثورة «قبائل اليمن فى عسير» وذلك لأن تلك القبائل كانت من اهله وعشيرته العرب بل أنه كان على العكس من ذلك يحرضهم سرا على الثورة ضد الحكم العثمانى ولهذا لم تستطيع السلطات العثمانية الحاكمة فى الحجاز القيام بعمل ايجابى حاسم للقضاء على ثورة القبائل اليمنية فى «عسير» وفى «المخلاف السليمانى» وفى «تهامة» ، وإزاء هذا الموقف اضطر الباب العالى أن يلجأ إلى والى مصر «الخديوى اسماعيل» للاستعانة به فى اخماد ثورة قبائل اليمن فى «عسير» والمخلاف السليمانى» و «تهامة» حتى لاتخرج تلك المناطق اليمنية نهائيا عن حظيرة الدولة العمانية ولما كان والى مصر يسعى فى ذلك الوقت للحصول على فرمان من الباب العالى يجعل ولاية مصر وراثية فى أكبر ابنائه ، رحب بتلك الدعوة ارضاء للسلطان العثمانى ومن ثم فقد أعدت مصر قوة حربية قوامها ٥٤٤٤ جنديا من المشاة والفرسان مزودين باربعة مدافع جبلية تحت قيادة اسماعيل صادق بك وابحرت تلك القوة فى ٣ / ٦ / ١٨٦٤ من ميناء السويس على الباخرة «الحديدة» متجهة إلى جدة ومنها إلى شمال اليمن فى «عسير» وهكذا كان تدخل مصر فى اليمن فى النصف الثانى من القرن التاسع يشبه تدخلها فى شئون الجزيرة العربية فى عهد

محمد على إلى حد ما ولكن والى مصر الخديوى اسماعيل لم يكن على استعداد لأن يقدم تضحيات كبيرة كتلك التى قدمها محمد على ثم يكون شأنه فى النهاية شأن جده من قبل، ولهذا فقد آثر سياسة اللين وعدم المخاطرة فى حرب ضد الثوار باية حال من الأحوال مع بذل كل المساعى الممكنة للوصول إلى تسوية سلمية بين الطرفين المتنازعين هذا فضلا على أن مصر حرصت أيضا على اقناع الباب العالى بوجهه نظرها فى حسم النزاع بالطرق الودية ونجحت فى الحصول على موافقة الباب العالى على تلك السياسة وخصوصا بعد أن اظهر الثوار اليمنيون ميلهم للتفاهم والدخول فى طاعة الدولة العثمانية حقنا للدماء وحفظا للأموال والممتلكات[٣٤] .

زاد من اشتعال الثورة اليمنية فى «عسير» ضد النفوذ العثمانى فى «تهامة» و «المخلاف السليمان» انضمام ثلاثة قبائل عربية كبيرة كانت تقيم بالقرب من «الطائف» إلى الثوار اليمنيون بعد أن خضعت تلك القبائل فترة طويلة من الزمن لحكومة الحجاز وقد اصرت السلطات العثمانية على عودتها واتخذت التدابير اللازمة للقيام بعمل حاسم فاجتمع مجلس عسكرى ضم كلا من اسماعيل صادق بك ، والشريف عبدالله ، وعزت حقى باشا وبعض الضباط الكبار لبحث الموقف ووضع الخطط الحربية الكفيلة بقمع الثورة اليمنية فى «عسير» واستقر رأى المجلس العسكرى على ايفاد القوات المصرية والعثمانية إلى بلدة «قنفذة» لاتخاذها مركزا أماميا للعمليات الحربية وفى ١٢ / ٨ / ١٨٦٤ خرج شريف الحجاز على رأس قوة قوامها ٢٥٠٠ من الفرسان والمشاه والمدفعية متخذا الطريق البرى المؤدى إلى «قنفذة» من ناحية الشرق حيث تتجمع القوات المصرية والعثمانية قبل بدء الهجوم ولحقت به أيضا قوة حربية أخرى قوامها ١٨٠٠ فارس كما سارت قوة حربية أخرى تحت قيادة اخى الشريف لدخول «قنفذة» من ناحية الغرب فاصبحت جملة القوات الزاحفة على الثوار من القبائل اليمنية فى عسير حوالى ٨,٥٠٠ مقاتل تحت قيادة الشريفين «واسماعيل صادق بك» وكان يقابل هذا العدد من الثوار عشرون ألف مقاتل فكانت فرصة النجاح امام القوات «المصرية - الحجازية - العثمانية» ضيئلة للغاية وهذا ما جعل شريف الحجاز إلى التروى وعدم القيام باية عمليات حربية ضد الثوار اليمنيين فى عسير ،وكان والى مصر الخديوى اسماعيل اشد حرصا من شريف الحجاز على عدم خوض معارك حربية ضد القبائل اليمنية فى عسير . كما يبدو هذا من الرسالة الذى أرسله الأول إلى قائد حملته اسماعيل صادق بك فى

أواخر اغسطس ١٨٦٥ وجاء فيه : «إذا صدر اليكم تنبيه بالسفر إلى جهة ما أو بالهجوم ورايتم فى ذلك خطرا فلا تعيروهم أذنا صاغية وتجهلوا فى تنفيذ طلباتهم واعلموا جيدا أن امراء وضباط الجانب الآخر «يقصد العثمانيين» اناس غريبوا الاطوار لايهتمون قيد شعرة إذا ما هلكتم جميعكم ولايسألون عنكم فكونوا على حذر وبصيره واجتنبوا اتلاف الجنود واتعابهم » بل أن الخديوى اسماعيل حذر قائده فى نهاية الرسالة ايضا من الدخول فى حرب جدية مع قبائل عسير اليمنية وامره بأن يتجنب القتال قدر المستطاع كما ارسل الخديوى اسماعيل رسالة أخرى إلى شريف الحجاز يلفت نظره إلى ضرورة ابعاد القوات المصرية عن ميناء «قنفذة» لأن جوه لايتلاءم مع الحالة الصحية للجنود المصريين وطالب بسحبهم فى الحال إلى منطقة أكثر ملاءمة لطبيعتهم ومن الملاحظ أن والى مصر أراد أن يوفق بين مصلحته وبين تنفيذ بنود فرمان عام ١٨٤١ الذى نص على اعتبار الجيش جزءا من الجيش العثمانى وعلم وجوب مساعدة مصر للدولة العثمانية إذا ما طلب منها ذلك فى أى وقت من الاوقات أى أنه أراد أن يحافظ على نصوص هذا الفرمان من ناحية الشكل لا من ناحية الجوهر ولذا حرصت مصر على مساعدة الدولة العثمانية فى مختلف المناسبات دون أن تكيد نفسها خسائر كبيرة كان فى مقدورها تجنبها وتلافيها ودون أن تثير حربا جدية مع اليمنيين فى عسير إلا لالزامهم باحترام السيادة العثمانية مع تجنب القتال قدر المستطاع ولا أدل على ذلك من رفض والى مصر اجابة مطلب الشريف لتزويده بكتيبتين سودانيتين علاوة على ما لديه من جنود لاخماد ثورة اليمنيين فى عسير لأن والى مصر لم يشأ أن يذهب فى مساعدته للباب العالى فى مسألة عسير إلى أبعد من هذا الحد كما أنه كان يخشى على الحالة فى السودان من جراء سحب هاتين الكتيبتين نظرا لقلة مالديه من القوات ولذا امر والى مصر قائد قواته فى عسير بتجاهل طلب شريف الحجاز وبأن ينفذ التعليمات السرية حرفيا وبكامل الدقة والعناية وألا يهتم بتعليمات الباب العالى إذا ما تعارضت مع تلك التعليمات بل أن خديوى مصر حاول أن يتوسط لفض مشكلة ثوار عسير وديا موجها النصح إلى امير عسير اليمنى محمد بن عائض حتى يخلد الهدوء والسكينة ويحترم سيادة الدولة العثمانية إذا أرسل إليه كتابا فى سبتمبر ١٨٦٥ يوضح له فيه ما تأمر به تعاليم الدين الاسلامى الحنيف من اطاعة ولى الامر ويعده فى حالة استجابته لنصحه بان يسعى لدى الباب العالى على عفوه وموافقته على تعيينه اميرا على عسير بعد أن يتنازل عن الأراضى والقبائل التى

ضمها إليه وفى ختام هذا الكتاب وجه خديوى تحذيره لأمير عسير اليمنى من عاقبة تمادية فى العصيان بقوله [٣٥]: «وإذا لم تقبلوا النصيحة الخيرية فى الدين فتكونون السبب فى سوق الجيوش المتكاثرة من أرض مصر القاهرة إلى تلك البقاع وخراب تلك الديار وسفك الدماء ... فالأولى الانقياد والطاعة قبل ووقوع تلك الساعة » . وقد ارسل هذا الكتاب مع مندوب خاص من قبله يدعى «احمد افندى اليمنى» لتسليمه إلى امير عسير اليمنى كما طلب إلى هذا المندوب أن يتفاوض معه سرا بشأن الوصول إلى اتفاق فيما بينهما وفى الوقت نفسه ارسل الخديوى اسماعيل إلى قائده فى عسير بأن يترقب عودة المندوب والايعلن عن نتيجة تلك المفاوضات إلا إذا اسفرت عن نجاحها حتى لايضعف مركزه امام شريف احجاز وامام الباب العالى .

يلاحظ فى هذا الخطاب أن الحكومة المصرية كانت تقوم من نفسها بالوساطة للصلح وأنها تقدم كل هذه الوعود السخية «لأمير عسير اليمنى» فتعده لا بالعفو عنه فحسب ولكن أيضا بتعديل حدود امارته وتغيير اسمها تبعا لذلك وبالانعام عليه بالباشوية ولاشك أن هذا يدل دلالة واضحة على مدى نفوذ مصر فى بلاد اليمن فى ذلك الحين بل أمير عسير اظهر ميله إلى السلم والرجوع إلى حظيرة الدولة العثمانية بعد أن تلقى هذا الخطاب مما يظهر مدى فعالية النفوذ المصرى فى تلك الجهات هذا فضلا على أن خديوى اسماعيل علم أن دعوته إلى السلم وجدت قبولا لدى امير عسير اليمنى بعث اليه بكتاب آخر يبشره بقرب صدور فرمان سلطانى يمنحه رتبة امير الامراء والباشوية كما وعده من قبل على أن مصر طالبت الباب العالى أيضا بتنفيذ ما وعدت به امير عسير اليمنى حتى تخرج معه وحتى لاتتجدد ثورة اليمنيين فى عسير كما اشارت مصر إلى ماكان لمسألة اقليم عسير اليمنى من الأهمية القصوى فى الاقطار العربية تحت الحكم العثمانى ولذا فان حسمها بالطريقة المقترحة يوفر على الدولة الشئ الكثير من الجهود والنفقات وعلى الرغم من جنوح امير عسير اليمنى للسلم فان الباب العالى لم يسمح للقوات المصرية بالانسحاب من الأراضى اليمنية بل أصدر أمره بأن تظل تلك القوات مرابطة فى ميناء «قنفذة اليمنى» ريثما يحسم الأمر بصفة نهائية فربما تتطور الامور فجأة وهكذا لم يكن هناك مناصا من بقاء القوات المصرية فى مواقعها فى اليمن فترة اخرى من الزمن فلم يجد خديوى مصر بدا من الرضوخ لهذا الامر ومن ثم اخذ يلمح على الباب العالى فى سحب قواته بعد أن استقرت الامور محتجا بأن بقاءها خارج

مصر فى مهمة حربية يحمل الميزانية المصرية اموالا اضافية خصوصا وأن تكاليف الحملة بلغت حتى ذلك الوقت فى اكتوبر عام ١٨٦٥ أربعين ألف كيسة أى « ٢٠٠,٠٠٠ » جنيه كما أن مصر فى ذلك الوقت لم تكن لها سياسة عربية تشجعها على ابقاء جنودها فى الجزيرة العربية على النحو الذى حدث فى عهد محمد على باشا ، وإن حاولت مصر أن تفيد من وجود قواتها فى اليمن عندما علمت بوجود بعض الأماكن الغنية بالفحم الحجري فى منطقة «الحديدة» وكانت مصر تهدف من استخراج تلك الثروة الطبيعية إلى انعاش البلاد اليمنية من جهة ودر الخير على الخزانة المصرية وخزانة الدولة العثمانية من جهة أخرى ولهذا ارسل خديوى مصر إلى ممثل الدولة العثمانية فى الحديدة خطابا فى نوفمبر ١٨٦٥ يخطره فيه بأنه ارسل إلى «الحديدة» على باخرة خاصة بعثة برئاسة «امين بك» مهمتها التنقيب والبحث عن هذا النوع من الفحم وطلب منه أن يسهل لهذه البعثة مهمتها وأن يقدم لها كل عون ومساعدة كما ارسل خديوى مصر خطابا آخر فى التاريخ نفسه إلى اسماعيل صادق بك قائد الحملة المصرية فى عسير اليمنية يخطره فيه بارسال بعثة التنقيب المذكورة بأمره بتخصيص بعض الجنود المصرين لمصاحبة البعثة واطاعة أوامر رئيسها حتى تنتهى مهمته فى بلاد اليمن، وفى ديسمبر من نفس العام ١٨٦٥ وصلت اوامر إلى قائد الحملة المصرية من القاهرة بأن يشرع فورا فى ترحيل الجنود وقد تم بذلك انسحاب القوات المصرية من شمال اليمن مع بداية عام ١٨٦٦ بعد أن امضت حوالى السنتين دون حرب أو قتال مع الثوار اليمنيين فى عسير وتقديرا لما قام به والى مصر من خدمات لفض هذا النزاع ارسل الباب العالى رسالة شكر كما أرسل خديوى مصر رسالة تهانية إلى «محمد باشا بن عائض قائمقام سنجق العزيزية اليمانية» فى يناير ١٨٦٦ بمناسبة تسوية النزاع بينه وبين الدولة كما بشره بوفاء الباب العالى بالوعود التى وعده بها فى اثناء قيامه بالوساطة بينهما بل أن الحكومة المصرية ارسلت هدية لمحمد بن عائض فى ١٠ / ٣ / ١٨٦٧ عبارة عن «بندقية مذهبة مسدسة من المصنوعات المصرية وخيمة كبيرة مع ما يتعلق بها من الأدوات وزوج من المسدسات الذى يضرب ست مرات كما ارسلت مع الهدية خطابا آخر تدعوه فيه للمحافظة على صلات الود والصداقة وكانت مصر تعمل على تنمية هذه الصلات الطيبة مع الحكام المحليين فى البلاد اليمنية وتعمل على توثيقها خاصة مع الحكام اصحاب النفوذ الحقيقى فى تلك المناطق ، على أنه لم تمضى فترة طويلة حتى ظهرت من جديد بوادر استعدادات الامير اليمنى فى عسير وتحركاته العدوانية لتحقيق اهدافه فى طرد الجنود العثمانيين من اليمن

عند ذلك كتب اليه خديوى مصر عام ١٨٦٨ محذرا من نتائج العودة للعصيان من جديد بقوله : «انكم إذا كنتم قد تخطيتم إلى محل خارج حدود «سنجق العزيزية اليمانية» على خلاف ما سبق الاتفاق بينكم وبين امارة مكة المكرمة وولاية الايالة الحجازية فتخلوا عنه واخلوا جندكم منه وعودوا للطاعة .... وابدى الامير اليمنى فى عسير لخديوى اسماعيل اعتزازه بصلات الود والصداقة مع الحكومة المصرية واوضح ذلك فى الخطاب الذى ارسله فى ٣٠ / ٧ / ١٨٧٠ وقد ذكر فيه أن الخديوى هو محط رحال الآمال وأن الحساد يحسدونه على ما بينه وبين مصر من ود كما طلب ارسال اخصائيين وفنيين مصريين لاصلاح المدافع فى عسير غير أن محمد بن عائض كان يعد العدة لتحقيق آماله فى طرد العثمانيين من المناطق اليمنية فى «المخلاف السليمان» وتهامة واخضاعها لحكمه ولهذا قام فى عام ١٨٧١ بالاستيلاء على «المخلاف السليمانى» وتمكن من طرد القوات العثمانية من تلك المناطق اليمنية ورحلها بحرا إلى «الحديدة» التى كانت مركزا لتجميع القوات العثمانية فى اليمن ثم تقدم امير عسير صوب اقليم «تهامة» حتى وصلت طلائع جيشه إلى «مخا» و «زبيد» واشتبكت قواته اليمنية مع العثمانيين فى الحديدة فى نوفمبر عام ١٨٧١ غير أن قوات عسير منيت بالهزيمة، وعندما وصلت انباء اغارة امير عسير على تهامة إلى الدولة العثمانية فقد رأت من الضرورى لابقاء اليمن تابعة لها وللمحافظة على الحامية العثمانية هناك وارسال حملة عسكرية إلى اليمن للقضاء على الثورة اليمنية فى عسير ولهذا وصلت قوات عثمانية جديدة إلى ميناء «القنفذة» فى عام ١٨٧١ يقودها محمد رديف باشا فى عسكر يزيد عدده على ستة آلاف ومعهم الاسلحة الثقيلة وتكلفت مصر بارسال المؤن اللازمة من ارز وسمن وسكر للقوات العثمانية فى اليمن التى زحفت تجاه العسير واستولت على «حلى بن يعقوب» ثم سيطرت على «محائل» وكان ابن عائض قد استنجد بقبائل «المع» اليمنية التى رابط رجالها فى «وادى حلى» غير أنهم لم يتمكنوا من صد الزحف العثمانى فولوا منهزمين على أن رديف باشا بعد أن انتصر على رجال قبائل المع اليمنية الموالية لأمير عسير واصل زحفه حتى وصل إلى وادى «العوص» وتسلقت قواته «العقبة الصعبة» ونصبت خيامها فى سطح «تهلل» وقد ارتبكت خطة دفاع محمد بن عائض فاضطر إلى الانسحاب محاولا القيام بحركة خاطفة لمفاجأة العثمانيين بالهجوم غير أنه منى بالفشل واضطرإلى الانسحاب تجاه «الحفير» بينما تقدم القائد العثمانى واستولى «السقا» وضيق الخناق على الامير اليمنى فى عسير الذى التجأ إلى قرية «ريدة» وتحصن بها ونظر لما امتازت به قرية «ريدة» من حصانة

طبيعية وما اعده ابن عائض فيها من وسائل الدفاع فان العثمانيين لم يضفروا من هجماتهم المتتالية عليها بطائل فأصدر القائد العثمانى رديف باشا أوامره إلى قسم من الجيش الاحتياطى المرابط فى ميناء «القنفذة» بان يبحر إلى «الشقين» بقيادة احمد مختار باشا على أن تزحف هذه القوات العثمانية إلى قرية «ريدة» من جهة الغرب وقد نجحت هذه الخطة لأنها جعلت القرية محصورة بين قسمى الجيش العثمانى وهكذا شدد العثمانيون الهجوم على قرية «ريدة» من الشرق بقيادة محمد رديف باشا ومن الغرب بقيادة احمد مختار باشا واستمر القتال خمسة ايام متتالية ضعفت بعدها مقاومة القبائل اليمنية فى عسير كما أن الخيانة لعبت دورها فى هزيمة امير عسير حتى استسلم من اتباعه كل من كان منهم فى قصر «شهدان» كما استسلم «آل مفرح» ولم يجد ابن عائض لدى حرسه الخاص ورجاله المقربين الرغبة فى المثابرة على المقاومة والدفاع واخيرا استسلم الثوار اليمنيون فى عسير للعثمانيين الذين حاصروا قصر اميرهم محمد بن عائض مما اضطره أخيرا إلى طلب الامان من العثمانيين ثم سلم نفسه إليهم بعد أن تعهد قائدهم احمد مختار باشا بتأمينه واتصل الشريف محمد بن عون شريف الحجاز بالامير اليمنى فى عسير محمد بن عائض الذى وافق على أن يسلم شمال اليمن للدولة العثمانية وأن املاكه وخيوله وحصونه تحفظ وتخصص مرتبات له ولعائلته ولبعض الرؤساء المستحقين ويستخدم جميع من يستحق الخدمة فى الوظائف العالية (٣٦).

رفع شريف الحجاز ما تم الاتفاق عليه إلى السلطان العثمانى الذى أصدر فرمانا أوصله إلى امير عسير رسول من قبل الشريف محمد بن عون وتضمن تأمينه وضمان سلامته وموافقة السلطة على مطالبه التى عرضها عنه شريف الحجاز وقد طلب السلطان العثمانى من امير عسير أن يسلم كل ما تحت يده من الأراضى اليمنية إلى القائد العثمانى محمد رديف باشا على الا ترد له الدولة امواله وخيوله وجميع املاكه الخاصة إلا إذا وافق على قرار السلطان وبعد أن اطلع أمير عسير على ما ورد بالفرمان فقد كتب إلى القائد العثمانى احمد مختار الذى كان يحاصر قصره بقواته ما يؤكد أنه اصبح تابعا للسلطان وفقا للشروط التى اوردها الفرمان المشار إليه وقد تمكن العثمانيون بعد ذلك من دخول قصر امير عسير الذى سلم نفسه إليهم كما تمكنوا من السيطرة على القلاع الهامة فى شمال اليمن وعلى الرغم من العهد الذى قطعه على نفسه القائد العثمانى احمد مختار باشا بسلامة امير عسير واهله ومواليه وعدم تجريدهم من اسلحتهم واودعوهم السجن بل أن القائد العثمانى رديف باشا عندما عاد من «السقا» ودخل قرية «ريدة» فى اليوم نفسه الذى دخل فيه زميله احمدمختار

باشا فقد شاهد محمد بن عائض جالسا بجوار مختار باشا فأصدر اوامره فورا بالقبض عليه وايداعه السجن غير مراع لما قطع له من العهود من قبل زميله وما جاء بالفرمان من قبل السلطان العثمانى نفسه بل ان رديف باشا فى مساء تلك الليلة أمر بقتل محمد بن عائض مع خمسة وثلاثين شخصا من رؤساء رجاله اليمنيين من العسير وذلك فى ابريل عام ١٨٧٢ وهكذا سيطر العثمانيون على الاقاليم اليمنية فى كل من «المخلاف السليمانى» و«عسير» وضموها إلى المنطقة الخاضعة لنفوذهم فى تهامة واستولوا على كل ما كان يملكه امير عسير من خيل ونقود واسلحة ومدافع وغيرذلك من الأحجار النفيسة ولم تكن سيطرة العثمانيين على تلك المناطق اليمنية سيطرة كاملة على الاطلاق ؛ إذ كانت سلطة المدير العثمانى لاتتعدى بناية المركز الحكومى فى معظم الاحيان كما أن هذه المناطق لم تعرف الهدوء والاستقرار النسبى الذى شهدته تهامة فى «عسير» و «المخلاف السليمانى» لم تكن لتهدأ قليلا عن شن الغارات المستمرة على بعضها البعض من جهة وعلى القوات العثمانية المعسكرة فى أراضيها من جهة أخرى وقد شكلت سيطرة العثمانيين هذه على شمال اليمن اكبر تمهيد لسيطرتهم على «صنعاء» ذاتها فى عام ١٨٧٢ وبالتالى لنجاحهم فى اقامة الحكم العثمانى الثانى فى اليمن من جديد بعد مضى قرنين ونيف من زواله .

وجود القوات العثمانية فى تهامة شجع بعض اليمنيين الذين رأوا الاستعانة بالعثمانيين وأن يطلبوا معونتهم وتدخلهم لمساعدتهم فى اقرار الامور فى بلادهم بينما كان العثمانيون تدفعهم العوامل العديدة إلى اعادة فرض سيطرتهم الفعلية على اليمن سواء ما كان متصلا من تلك العوامل بأوضاع الدولة العثمانية نفسها أو ما كان متصلا منها بأوضاع اليمن الداخلية فى ذلك الحين لقد اتفق وصول مطلب اليمنيين إلى السلطان العثمانى بالتدخل لاقرار الامور فى اليمن فى نفس الوقت الذى كانت القوات العثمانية قد تجمعت فى أثنائه على سواحل البلاد وفرغت من عملياتها الحربية بالقضاء على ثورة الأمير اليمنى فى عسير محمد بن عائض وكانت تلك القوات على استعداد لتنفيذ ما يصدر إليها من أوامر بالتحرك فى أى اتجاه طالما أن الامدادات اللازمة كانت ترد إليها تباعا ، وقد بادر السلطان العثمانى إلى تلبية دعوة اليمنيين الذين طلبوا منه التدخل لاقرار الأمور فى بلادهم لأن تلك الدعوة كانت تتفق تماما مع سياسة الدولة العثمانية واتجاهها وهكذا صدرت الأوامر من الآستانة إلى احمد مختار القائد العثمانى فى الحديدة بالتوجه إلى صنعاء والقاء القبض على الثوار واقرار الامور فى بلاد اليمن وتنفيذا لهذه الاوامر توجه احمد مختار باشا على رأس قواته العثمانية

من «الحديدة» إلى «صنعاء» حتى وصل إلى «عنارة» الواقعة فى بلدا «حراز» واصطدمت نواته مع الثوار الذين اتخذوا من «عتارة» مركزا لتجمعهم وقد منى الثوار بالهزيمة واستسلم زعيمهم بعد أن تعهد العثمانيون بتأمينه وكل من يستسلم معه على حياتهم غير أن لعثمانيين غدروا به كعادتهم وقتلوه هو وأولاده وصادروا أمواله وممتلكاته ، وأن اليمنيين ستاءوا من سياسة الغدر والخيانة التى اتبعها العثمانيون مع زعيم الثوار ومع أمير عسير من قبل برغم وعودهم بتأمين حياتهما وعادت ذاكرة اليمنيين من القرن السادس عشر عندما غدروا بحاكم «عدن» ثم حاكم «المخا» وأولاده برغم وعودهم لهؤلاء بضمان سلامتهم ، ثم واصل العثمانيون زحفهم تجاه صنعاء حتى وصلوا إلى «مناخة» حيث كان وفد الامام المهدى على بن المهدى فى انتظار القائد العثمانى ودعوه إلى دخول صنعاء تنفيذا لأوامر الباب العالى الذى استجاب لندائهم حتى يؤوب العصاة والثوار والخارجين عن طاعة الامام على ، أن يرجع من حيث أتى بعد انقضاء مهمته فى حين كان مختار باشا القائد العثمانى هز لهم رأسه وتكلم بكلمات تركية لايفهمونها فظنوا أن الأمر كما يريدون ، غير أن الأمر فعلا لم يكن كما أراده اليمنيون إذا اخفى القائد العثمانى عنهم اتجاه الدولة ورغبتها فى اعادة بسط نفوذها الفعلى على اليمن واحالتها إلى ولاية عثمانية واراد مختار باشا أن يطمئن اليمنيين فى بادئ الأمر ويقنعهم بأنه جاء ليساعدهم على أن يحكموا بلادهم بأنفسهم بعد القضاء على الفوضى والاضطراب وكان يهدف من ذلك إلى ضمان جانبهم والابقاء على ثقتهم حتى يتمكن من دخول صنعاء ويسيطر على زمام الامور فيها ثم يواجههم بعد ذلك بحقيقة نياته وسياسة دولته . ودخل العثمانيون مدينة صنعاء فى يوم الخميس ٢٦ / ٤ / ١٩٧٢ وقد حاول الوالى العثمانى احمد مختار باشا أن يجتذب إليه قلوب العامة من اليمنيين دون الخاصة حتى يحببهم فى النظام العثمانى الجديد وقام هذا الوالى بطرد الموظفين اليمنيين وعين فى وظائفهم مأمورين من الترك حتى يكونوا أداة طيعة فى يده لتدعيم الحكم العثمانى فى البلاد أما بالنسبة للامام فقد عرف العثمانيون مكانته الروحية بين اتباعه الزيديين فرأوا أن يسترضوهم بالسماح له بالاقامة فى صنعاء مع منحه معاشا شهريا بشرط أن يقتصر نشاطه على ممارسة نفوذه الروحى بين أتباعه بما لايتعارض مع مصالح الحكومة العثمانية فى البلاد اليمنية أما اقارب الامام فقد امر الوالى العثمانى بوقف المرتبات التى كانت تصرف لهم كما سد فى وجوههم اسبابا المعيشة حتى أن الامام نفسه وجميع اقاربه شرعوا فى بيع املاكهم عد ذلك بوقت قصير ، عندما فتح العثمانيون بلاد اليمن فى مطلع القرن السادس عشر كانت حدودها تمتد من «الحجاز» فى الشمال إلى بحر العرب فى الجنوب وساحل عمان وعمان

فى الشرق والبحر الاحمر فى الغرب وكانت هذه الحدود القديمة المعروفة لليمن الكبرى غير أن حدود ولاية اليمن العثمانية تغيرت تبعا لما انتهت إليه تطورات الاحداث عندما اعاد العثمانيون فتحها فى منتصف القرن التاسع عشر فأصبح يحد ولاية الحجاز فى الشمال والاحتلال البريطانى فى جنوب اليمن . لم تكن تخضع جميع اليمن للحكم العثمانى بل وجدت قبائل يمنية باكملها لم تقبل الخضوع للعثمانيين وإن كانت تابعة من الناحية الاسمية للسيادة العثمانية ، وكان يحكم ولاية اليمن والى عثمانى مقره فى «صنعاء» عاصمة الولاية ويصدر بتعيينه فرمان من الباب العالى ولم يكن الفرمان يحدد مدة ولايته ، وكان يتبع هذا الوالى متصرفون فى الوية اليمن الأربعة وهى «لواء صنعاء» و «لواء الحديدة» و«لواء عسير» و «لواء تعز» والمتصرف يمثل الوالى فى حدود اللواء الذى يحكمه ويرجع إليه فى مختلف الامور وكان يتبع المتصرفين قائمقاتون للأقضية التى تنقسم إليها الألوية ويلى هؤلاء المديرون الذين يبسطون نفوذهم على مناطق محدودة داخل الأقضية ولم يكن النفوذ العثمانى ممتلا فى المناطق اليمنية التى لايمكنه فيها حماية ممثليه العثمانية حتى أن كثيرا من الاتراك المكلفين بمهام ادارية فى المناطق النائية داخل الولاية كانوا يتعرضون لصعاب جمة ولأخطار تكاد تؤدى بحياتهم وقد اشتمل كل لواء من ألوية اليمن الأربعة على عدد من المدن الهامة فلواء «صنعاء» كان يضم «حراز» - «حجة» - «ذمار» - «يريم» - «رداع» - «عمران» -بينما كان يضم لواء «الحديدة» : «زبيدة» - «اللحية» - «الزيدية» - «ريمة» - «بيت الفقيه» - «باجل» - «ابي عريش» - أما لواء «عسير» فقد اشتمل على : «أبها» - «قنفذة» - «لواء تعز» كان يضم : «اب» - «الحجرية» - «مخا» - «قعطبة».
ويوضح الجدول التالى عدد الاقضية والنواحى والقرى التابعة لكل لواء من هذه الالوية حسب ما جاء فى الجريدة الرسمية العائدة ١٩٠٤ (٣٧):

	أقضية	نواح	قبائل	عزلات	قرى
لواء صنعاء	٨	٢٦	ــــ	١٠٣	٣٦٧٢
لواء الحديدة	٨	١٦	٣٨	١٧٣	ــــ
لواء عسير	٦	١	٣٤٣	ــــ	ــــ
لواء تعز	٥	١١	ــــ	٢٧٦	٢٦٦٧
المجموع	٢٧	٥٤	٣٨١	٢٧٦	٦٣٣٩

٥- الثورة اليمنية على الحكم العثمانى ١٨٩١

بذل الولاة العثمانيون جهودا كبيرة لتوطيد نفوذهم فى اليمن ولكن المناطق الشمالية من اليمن ظلت فى حالة تمرد على الحكم العثمانى وفى عام ١٨٩٠ خرج الامام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين من «صنعاء» وتوجه إلى جبل الاهنوم ومن هناك راح يرسل اتباعه ورجاله إلى جميع جهات اليمن لاستثارة القبائل ضد العثمانيين ولما كانت القبائل قد سئمت الحكم العثمانى فقد استجابت لدعوة الامام وضربت الحصار على صنعاء فى عام ١٨٩١ وفشلت القوات العثمانية بادئ ذى بدء فى ارغام القبائل اليمنية على رفع هذا الحصار الذى استمر عدة اشهر ولكن الوالى احمد فيضى باشا تمكن فى العام التالى من فكه ودخول صنعاء وحاول السلطان عبد الحميد الثانى أن يستقصى أسباب تذمر اليمنيين من الحكم العثمانى توطئة لحل المسألة اليمنية التى أقضت مضاجع الباب العالى فأرسل لهذا الغرض «نامق بك» الذى وصل إلى اليمن عام ١٨٩٢ وتقدم اليمنيون إلى مبعوث السلطان بشكاوى عديدة من سوء ادارة احمد فيضى باشا واضطر السلطان أن يعزل هذا الوالى ويعين مكانه حسين حلمى باشا الذى قام ببعض الاصلاحات فى اليمن لكنه لم يلبث أن عزل وعين مكانه عبدالله باشا وبرغم المحاولات التى قام بها الدولة لإصلاح احوال اليمن فقد ظل التذمر على اشده من الحكم العثمانى فى هذه البلاد مما أدى إلى انفجار الثورة اليمنية من جديد عام ١٩٠٤ وكان الامام المنصور بالله قد قضى نحبه فى هذا العام وتولى الامامة من بعده يحيى بن محمد حميد الدين الذى تلقب بالمتوكل على الله ويبدو أن الثورة على الحكم العثمانى قد أعد لها قبل أن يفاجئ الموت الامام المنصور بالله ، وقام سيف الاسلام يحيى ببعض المجهودات الضخمة فى الاتصال بالقبائل وتنظيمها وتجهيز الجيوش منهم للزحف على المناطق التى كانت تحت حكم العثمانيين وعلى ذلك فقد كان أول عمل قام به الامام المتوكل يحيى بعد مبايعته بالامامة هو المناداة «بالجهادودعوة اليمنيين لمحاربة الذين سعوا فى الأرض بالفساد وتركوا الشرائع وظلموا العباد» هذا ما جاء فى بيان نشره على الناس واستجابت القبائل لدعوة الامام فحملت على العثمانيين ونكلت بهم واستولت على حصونهم وضربت الحصار على صنعاء وكان حصارا شديدا استمر ستة أشهر واصبحت الحالة فى اليمن سيئة ولم يجد العثمانيون المحصورون داخل صنعاء بدا من التسليم فارسلوا لهذا الغرض وفدا إلى الامام يحيى فى «كوكبان» وحصل الاتفاق على تسليم المدينة إليه بدون شروط ولم يرغب الامام فى دخول صنعاء على الفور خوفا من المفاجآت بل كلف أحد رجاله وهو احمد بن قاسم

حميد الدين بتسليم المدينة من العثمانيين وانتقل هو من «كوكبان» إلى قرية «القابل» التى تبعد عن صنعاء حوالى خمسة عشرا كيلو مترا إلى الشمال الغربى وبعد ان استقرت الاحوال فى صنعاء دخلها الامام مع حاشيته رسميا فى ٢١ / ٤ / ١٩٠٥ وسمح للجنود العثمانيون الذين وجدهم داخل المدينة بالخروج منها إلى الساحل مع تأمينهم على أرواحهم وذلك بعد أن جردهم من اسلحتهم وذخيرتهم غير أن ما كاد الامام ينصرف إلى تنظيم الامور واقامة احكام الشرع والدين حتى ارسل الباب العالى امدادات كبيرة إلى اليمن وعين احمد فيضى باشا واليا على اليمن للمرة الثانية وكلفه باسترداد صنعاء واعادة السيطرة العثمانية إليها وخرج فيضى باشا من «الحديدة» فى حوالى منتصف عام ١٩٠٥ متجها إلى صنعاء على رأس قوات تبلغ خمسين الفا واستطاع ان يخضع القبائل التى اشتبكت معه أثناء زحفه واضطر الامام ومن معه إلى الانسحاب من صنعاء فدخلها فيضى باشا فى أول سبتمبر من عام ١٩٠٥[٣٨].

٦- العثمانيون يفاوضون الامام يحيى

لم يؤد استرجاع صنعاء إلى هدوء الأحوال فى اليمن فقد ارتد الامام يحيى إلى المنطقة الجبلية فى الشمال واعتصم بها ولم تلبث أن دارت بين قوات الامام والعثمانيين معارك عنيفة فقد فيها العثمانيون نصف جيشهم فى اليمن والتى كانوا يسمونها «مقبرة الاتراك» ولما كانت العمليات الحربية المستمرة فى اليمن تكلف الدولة العثمانية كثيرا من الاموال والرجال فضلا عن أن مشكلة اليمن كانت تشغلها عن المشاكل الأخرى فى بقية اجزاء الدولة فقد رأى الباب العالى أن يعقد صلحا مع الامام وأرسل وفدا لمفاوضته وفى ابريل عام ١٩٠٦ عرض الامام على الوفد العثمانى شروطا للصلح مهد لها بمقدمة وذيلها بخاتمة وفيما يلى نص ما تقدم به الامام بهذا الصدد فيما يلى[٣٩]:

«وافقت مستمدا بعون الله على شروط الصلح ما بينى مأمور سلطان الاسلام الذى أدعو الله أن يؤيد ملكه لإطفاء نار الحرب الموقدة وأن تستبدل الفوضى والعداوة بالصداقة لتسلم البلاد من القلاقل وتحقق الدماء وتزول المحن من هذه البقعة ويستتب الأمن ويربط المؤمنين برابطة الإخاء التى لاانفصام لها ويرتفع الظلم فيما بينهم :

١- أن تطبق الأحكام وفقا للشريعة الاسلامية الغراء .

٢- أن يعود إلى الامام حق عزل القضاة وحكام الشرع وتعينهم .

٣- أن تكون معاقبة الخائنين والمرتشين منوطة بالامام .

٤- أن تخصص رواتب كافية للحكام والموظفين كى لاتدفعهم قلة ذات اليد إلى الارتكابات .

٥- أن تحال الاوقاف إلى عهدة الامام لإحياء المعارف فى البلاد .

٦- اقامة الحدود الشرعية على مرتكبى الجرائم من المسلمين والاسرائيليين كما أمر الله تعالى بها واجراها رسوله والتى ابطلها المأمورون العثمانيون كأنها لم تكن شيئا مذكورا .

٧- يؤخذ العشر من المزروعات التى تسقى بماء السماء واما التى تسقى بمياه الآبار فيؤخذ منها نصف العشر بعد أن يقدر ذلك ارباب الخبرة وإذا حصل خلاف يرجع إلى الأصول التى وضعها عبدالله بن رواحة فى «الخرص» ويؤخذ عن «البقرة» و «الغنم» النصاب الشرعى وأما الأراضى التى تغل مرتين أو ثلاثة فيؤخذ عنها نصف العشر أو ربعه ودفع ما سوى ذلك من التكاليف .

٨- جباية الأموال المار ذكرها تكون بواسطة مشايخ البلاد تحت نظرة مأمورى الدولة وإذا تجاسر احد على اخذ زيادة عن التكاليف المار ذكرها فعزله أو تحديد الجزاء له راجع إلى الامام ولايكون للإمام علاقة بقبض الأموال الأميرية .

٩- تعفى عشائر «حاشد » و «خولان» و «الحدا» و «ارحب» من التكاليف .

١٠- يسلم كل من الفريقين المتعاقدين الخائنين الذين يلتجئون إليه .

١١- اعلان العفو العام فى البلاد كى لايسأل احد عن ماضيه .

١٢- أن لايولى احد من أهل الكتاب على المسلمين .

١٣- أن تشمل احكام هذه المواد المار ذكرها «صنعاء» «وتعز»وملحقاتها .

١٤- أن لاتتدخل الحكومة فى شؤون «آنس» ولاتعارض الامام فى تعيين المأمورين لهذا القضاء لفقر سكانه وقلة حاصلاتهم ولما يخشى من وقع محظور فى مخالفة مأمورى الحكومة لهم .

١٥- أن تكون المحافظة على هذه البلاد من تعديات الدولة الاجنبية راجعة للدولة العلية.

« أن تنفيذ هذه الشروط فى البلاد اليمنية يكون سببا لسلامة الافراد البشرية وترقى البلاد واحيائها فيظهر الأمر بأبهى مظاهره ويحصل منه خير كثير ولايخفى أن البعض يستفيدون من كثرة سوق العساكر إلى البلاد اليمنية إذ لايخلو ذلك من الفائدة المادية لهم ولعلهم لايرضون بهذه الشروط لأنه باتباعها يستتب الأمن وينقطع ورود العساكر إلى هذا القطر فيخسرون بذلك ما كانوا يؤملون لذلك اطلب صدور فرمان سلطانى يتضمن قبول الشروط المار ذكرها كى يطمئن اليمانيون وترتاح قلوبهم ولايعترض المأمورون فى اجراء الاحكام التى تخولها الشروط واحالة ادارة البلاد الشرقية التى تشابه بلاد «آنس» إلى «عهدتى» .

ويتضح من هذه الشروط التى عرضها الامام يحيى للصلح مع العثمانيين إنما تعكس موقفه من قضيتين اساسيتين هما قضية السيادة العثمانية على اليمن وقضية التنظيمات العثمانية الجديدة المستندة على المبادئ الأوربية والتى حاولت حكومة الأستانة تطبيقها فى اليمن وفى غيرها من الولايات ففيما يختص بالقضية الأولى نجد الامام :

١- لم يحاول الاعتراض على سيادة العثمانيين على اليمن بل ابدى نوعامن الاعتراف بهذه السيادة فى مقدمة شروطه .

٢- طالب الامام الدولة العثمانية بأن تحافظ على أمن اليمن الخارجى وأن تمنع عنه اعتداء الدول الاجنبية (شرط ١٥) .

واما فيما يختص بالقضية الثانية فقد رفض الامام رفضا قاطعا تطبيق التنظيمات العثمانية الجديدة فى اليمن ويتضح ذلك من النقاط التالية[٤٠] :

١- مهاجمته للسياسة الادارية العثمانية فى البلاد وتحميله رجال الادارة العثمانية مسؤلية اثارة الحروب ثم مطالبته بتعديل النظام الادارى المتبع بما يكفل القضاء على الرشوة واسباب الفساد الأخرى (شروط ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨) .

٢- اصراره على تطبيق الاحكام وفقا للشريعة الاسلامية (شرط١) . ومطالبته بتعديل نظام الضرائب المتبع والرجوع به إلى الأصول الاسلامية (شرط٧) .

٣- مطالبته باقامة الحدود الشرعية على مرتكبى الجرائم من المسلمين واليهود وهى الحدود التى كان الموظفون العثمانيون قد ابطلوها تمشيا مع التنظيمات العثمانية الجديدة (شرط٦) .

٤- مطالبته بعدم تولية احد من أهل الذمة على المسلمين فى اليمن (شرط١٢) .

٥- موقف الادارسة من الحكم العثمانى فى اليمن ١٩٠٨-١٩١١ .

يرجع تاريخ الادارسة فى عسير إلى وصول مؤسس هذه الاسرة السيد احمد الادريسى إلى مدينة «صبيا» فى مطلع القرن التاسع عشر ولد احمد فى بلدة العرائش فى المغرب عام ١٧٥٨ وتعد المغرب وايران القطبان الرئيسيان الموردان للصوفية فى العالم الاسلامى وتوجه السيد احمد إلى مكة عام ١٧٩٩ وقد التقى السيد عبد الرحمن بن سليمان الاهدل مفتى «زبيد» بالسيد احمد الادريسى فى مكة ولما عاد الأهدل إلى «زبيد» دعا السيد احمد لزيارة اليمن فتوجه الاخير من مكة إلى اليمن فمر بمدينة «جيزان» فى طريقه إلى «الحديدة» وكان منتهى سيره إلى «زبيد» فاستقبله السيد الاهدل ، عبد الرحمن وقد أخذ الادريسى يبشر بعقيدته ويدعو إلى طريقته الصوفية والتف حوله العلماء والمشايخ وتهافت عليه الناس وخاصتهم وكانت «زبيد» مركز نشاطه يطوف فى تهامة ثم يعود إليها حتى أخذ الناس يتسابقون إلى اعتناق دعوته ونشر طريقته وقد اجاز الادريسى طريقته للسيد الاهدل وأولاده اجازة عامة فتسلسلت زعامتها بعد ذلك فى بيت «الأهدل» وقد سمى السيد احمد طريقته «احمدية» نسبة إلى اسمه وهى تدعى كذلك فى «تهامة» و «عسير» اما عنوانها فعنوان الطريقة الشاذلية لان اتباعها يسلكون بالتهليل والادعية مسلك «الشاذلين» ، ثم اتجه الادريسى شمالا فقام بزيارة «الحديدة» ومراوغة» و «باجل» ثم توجه إلى «صبيا» التى كانت تابعة لحكم اشراف «ابى عريش» فاستقر فيها واستوطنها وكانت اقامته هناك خاتمة لرسالته الصوفية وفاتحة لطريقته «الاحمدية» واعتبر وليا من الاولياء المحليين عند وفاته فى عام ١٨٣٧ وقد خلف الادريس لأولاده ثروة مادية ومعنوية هائلة إذ عاشت أسرته من بعده تتمتع بنفوذ كبير وسلطان عريض فظلت أسرته يحفها هذا الاجلال الدينى العميق مما اكسبها مكانة خاصة اعتمد عليها حفيده محمد بن على بن احمد الادريسى الذى اسس فيما بعد حكومة الادارسة فى «عسير» وشكل خطرا كبيرا على النفوذ العثمانى فى اليمن .

ولد محمد بن على بن احمد بن ادريس فى صبيا فى عام ١٨٧٦ وتلقى تعليمه على يد اساتذة الازهر وفى مدينة «الكفرة» مقر «السنوسيين» فى برقة فى ليبيا ، وجاء منها إلى السودان فأقام فى «ارجو» «بدنقلة» وتزوج بابنة الشيخ هارون الطويل شيخ الطريقة «الاحمدية» ثم عاد محمد الادريسى إلى عسير مسقط رأسه فى أوائل القرن العشرين وكانت البلاد تعانى من الفوضى والاضطراب وكان العثمانيون فى عسيريحكمون المناطق التى

يستطيعون فيها حماية أنفسهم كما كانوا يستميلون رؤساء العشائر بمشاهرات لايدفعون منها غير اليسير مما أدى إلى انقلاب أصحاب الديون عليهم وقد نجح الادريسى فى أن يستميل إلى جانبه رؤساء العشائر فى «عسير» كما استغل فرصة النزاع القائم بين مشايخ البلاد فأعان بعضهم على بعض حتى كانت له السيادة عليهم فأخذ منهم الرهائن ليأمن منهم الردة والخيانة على نحو ما كان يفعل معهم امام صنعاء ثم مد الادريسى سيادته شمالا وشرقا فى الجبال المحيطة بعسير فجمع عدة افخاذ وبطون من العشائر تحت لوائه الذى رفع فترة من الوقت عند حصن «ابها» وعلى حدود «حاشد» و«بكيل» واصبح الادريسى عام ١٩٠٧ شخصية قوية لها خطورتها فى شمال اليمن فى «عسير» ولم يهتم العثمانيون بأمره عند بداية ظهوره إذا اعتبروه احد رجال الدين العديدين أو المتصوفين الذين سرعان ما تنطفى نجومهم بينما تجاهله الشريف حسين امير الحجاز واعتبره حديث نعمة سينتهى امره سريعا اما الامام يحيى فكان اكثر ادراكا لحقيقة محمد الادريسى وخطورة حركته وكان الامام يحيى يعتبر عسير جزءا لايتجزأ من اليمن وعندما رأى الامام يحيى أن الادريسى نجح فعلا فى نشر دعوته خارج المخلاف السليمانى وبسط نفوذه شمالا وجنوبا حتى أن بعض القبائل المنتشرة حول «صعدة» - «مركز الزيدية فى اليمن» - اعتنقت تعاليمه الصوفية وأبدت ولاءها لسيادته فقد رأى الامام يحيى مضطرا أن يرحب بالتحالف مع الادريس حتى يحمى مؤخرته عندما يخوض معركته ضد العثمانيين فى «صنعاء» وتجبره خطة الحرب أن يزحف جنوبا من معاقله فى شمال الهضبة وسيؤدى هذا لفترة محدودة إلى تحالف الامام يحيى مع الادريسى فى أثناء صراعهما المشترك ضد العثمانيين فى اليمن ، وقد ارادت ايطاليا أن تشغل الدولة العثمانية باشعال نار حرب فى جهة من الجهات التابعة لها لاحداث خلخلة فى الجبهة العثمانية فى ليبيا مما يتيح لايطاليا فرصة السيطرة عليها دون جهد كبير وكانت ايطاليا فى ذلك الوقت تستعمر «ارتيريا» وقد رأت ايطاليا أن تعتمد على الادريسى وتقدم له العون المادى والحربى فى سبيل مناوأته للدولة العثمانية وفتح جبهة حربية تستنفذ الدولة العثمانية فيها مجهودات كبيرة مما يسهل على ايطاليا مهمة تحقيق مخططها الاستعمارى بالسيطرة على ليبيا ، وقد التقت رغبة ايطاليا فى تحريض الادريس على محاربة العثمانيين فى اليمن مع رغبته الشخصية فى بناء ملك عريض فى شمال اليمن فى «عسير» و «المخلاف السليمانى» وفصله عن «اليمن الأم» وخلق كيان انفصالى جديد مستفيدا من مكانة أسرته وبطبائع القبائل اليمنية هناك ، وكانت أسباب الاضطراب ترجع إلى عوامل

خاصة باليمن مثل جغرافيته وأحواله الاجتماعية وعوامل أخرى خاصة بطبيعة الحكم العثمانى مثل ضعف القوات العثمانية وقصورها عن القيام بالمهام الملقاه على عاتقها وعدم تمكن العثمانيون بالتالى من احكام قبضتهم على زمام الأمور فى ارجاء اليمن وكان كل ذلك يهيئ الفرصة للامام يحيى والادريسى للاتصال بالقبائل اليمنية وأثارتها وتحريضها ضد العثمانيون وقد استمرت احوال اليمن بصفه عامة فى فوضى واضطراب حتى بداية العهد الدستورى العثمانى عام ١٩٠٨ وخاصة بعد أن افصح الاتحاديون عن حقيقة مقاصدهم وأوضحوا معالم سياستهم العلمانية «التتريكية» إزاء الولايات العربية والمعادية «للقومية العربية» وان الحكومة العثمانية كانت لاتسمح بتسرب اخبار الولاية الثائرة إلى الخارج كما أنها لم تسمح بوجود مراسلين يوافون صحفهم بأنباء الثورات اليمنية مما جعل الصحف لاتبرز إلا القليل عن حقيقة الاحداث الدامية هناك ، وعمل الادريسى على عقد الصلح بين أهل «صبيا» وبين قبائل «الجعافرة» التى تسيطر على «قوز الجعافرة» المرسى الطبيعى «لصبيا» حتى يأمن على وصول السلاح الذى ينزل فى ساحلهم إلى مدينة «صبيا» وقد ترتب على نجاحه فى عقد هذا الصلح أن امتدت سيادته على اهالى «صبيا» والمخلاف السليمانى و«الجعافرة» وحلفائهم فأصبح نفوذه يمتد من من «بيش» شمالا إلى «سبخة ميناء جيزان» كما افتتحت طريق مواصلاته بحرا مع «مصوع» حيث أمكنه الحصول على مساعدات حليفته ايطاليا فى اثناء صراعه ضد العثمانيين فى اليمن وتمكن الادريسى من تشكيل حكومة جعل له فيها اربعة وزراء عام ١٩٠٨ كما اقام محكمة شرعية عليا شكلها من خمسة قضاة شرعيين للنظر فى القضايا والبت فى الخصومات ، وفى ذلك الوقت علم الادريسى بأن العثمانيين جادون فى الاستعداد للقضاء عليه فقام الادريسى باستدعاء كبار رؤساء قبائله وزعماء الاسر ذات المكانة فى المنطقة الجنوبية الشرقية من عسير فوفد إليه معظم شيوخ القبائل وقدموا إليه الرهائن عند ذلك أمر بتعيين عمال له فى تلك الجهات كما قام الادريس بجولة تفقد فيها المنطقة وكان لجولته هذا رد فعل شديد لدى الامام يحيى الذى اعتبر المنطقة الجبلية فى الجنوب الشرقى لعسير مجال نفوذه الروحى ولدى العثمانيين الذين قابلوا أنباء نجاح الادريسى بالغيظ والتحفز وقد اتفقت جهود الطرفين العثمانى والامام يحيى على مقاومة الادريس وتصفية نفوذه الذى وصل إلى المنطقة الجبلية الشمالية وقد بعث الامام يحيى بقوة من رجال قبائل «حاشد» و «همدان» للتنكيل بقبائل خولان التى والت الادريسى ورضخت لطاعته وقد استطاعت هذه القوة أن توقف الزحف الادريسى الصاعد الذى كاد أن

يستولى على «صعدة» مركز الامامة الزيدية فى اليمن ، أما العثمانيون فلم يكن يدور فى خلد ولاتهم أن الادريسى سوف يحصل على ما حصل عليه من نجاح ولم تكن عسير من الاهمية بالقدر الذى يشغل بالهم حتى برز خطر الادريسى ورفعت المذكرات للدولة عن نشاطه المتزايد فاستفاقت الحكومة العثمانية حينذاك وتمخضت كل اجراءاتها عن ارسال وفد إلى « جيزان» وقد تكون الوفد برئاسة سعيد باشا وعضوية توفيق الارناءوطى شيخ الطريقة الاحمدية فى الآستانة وقد وصل الوفد إلى «جيزان» فى اوائل عام ١٩١٠ ثم اتجه إلى «صبيا » فاستقبله الادريسى بحنكته السياسية ودهائه المعروف وذكر لهم أنه رجل من رعايا الدولة ليس له مطمع فى امارة أو ملك ولم يدفعه إلى ما قام به سوى غيرته الدينية واوضح الادريسى للوفد أن الدولة العثمانية اهملت شمال اليمن فى «عسير» والمخلاف السليمانى اهمالا نتج عنه قيام الفتن والحروب بين القبائل وأنه رأى من واجبه أن يصلح بينهم ويرشدهم لحقيقة الدين وأنه بذلك قدم خدمة كبيرة لدولته العثمانية باقرار الأمن وتصفية الضغائن واحياء معالم الشريعة الاسلامية وكان طبيعيا أن يكون تأثير الادريس على رئيس الوفد بالغا إذ كان الارناءوطى شيخ الطريقة الاحمدية الادريسية فى الآستانة فقام بزيارة ضريح شيخه وتمسح بالاعتاب وتبرك بحفيده وعاد بعد ذلك مقتنعًا وتقرر عقد اجتماع بين الادريسى ورئيس الوفد العثمانى سعيد باشا فى قرية «الحفائر» وقد اكد الادريسى ما سبق أن أوضحه لتوفيق الارناءوطى من قبل وتمكن بلباقته من اقناع سعيد باشا بحسن نواياه تجاه الدولة وانتهت المفاوضات بالتفاق على ما يلى (٤١):

١- أن يعترف الادريسى بالتبعية العثمانية وشرعيتها على المخلاف السليمانى .

٢- أن يمنح الادريسى رتبة قائم مقام ويقوم كموظف عثمانى بشئون «صبيا » وما يتبعها أى من «سامطة» جنوبا إلى «حلى» شمالا .

٣- يتعهد الادريسى بمد السلك «اسلاك البرق» عبر المخلاف السليمانى بين اليمن والحجاز.

٤- أن يسمح الادريسى للدولة بمراكز جمركية فى موانئ المخلاف يديرها مأمورين من قبل الدولة .

٥- تتعهد الحكومة بالغاء الضرائب بناء على اقتراح الادريسى وتكتفى بحاصلات الزكاة الشرعية للحبوب والمواشى ، وينوب الادريسى عنها فى الاستحصال مقابل أن يكون له الثلث لنفقاته ولنفقات جيش وطنى لاقرار الامن الذى تعهد باستقراره فى المنطقة .

وهكذا كانت هذه الاتفاقية المرنة فى مصلحة الادريسى إذ حصل بموجبها على اعتراف الدولة العثمانية ضمنيا بكيانه واعتبرت الاتفاقية كسباله ، وقد سلم سعيد باشا لمتصرف عسير العثمانى نسخة من هذه الاتفاقية والزمه التصرف على ضوئها مع مراعاة تبعية «المع» لمنطقة» حكم الادريسى وقد عمل الادريسى لساعته على تنفيذ بنود الاتفاقية وبدأ أولى خطواته بتوزيع نوابه فى ارجاء المنطقة التى يحكمها وقد رأى متصرف عسير العثمانى أن الادريس بناء على اتفاقية «الحفائر» بينه وبين الدولة العثمانية قد أصبح أشد خطرا وأكثر قوة وأثبت مركزا خاصة بعد أن اعترفت الدولة بمكانته وقد أخذ هذا المتصرف يرفع للمسؤلين فى الدولة من آن لآخر ما يلفت نظرهم لخطورة الادريسى وقوته المتزايدة غير أن الادريسى لم يعرف تصرفات متصرف عسير أدنى اهتمام لثقته بنفسه وبقوة مركزه اما الموظفون الذين ارسلتهم الدولة للمراكز الجمركية بغية حجز الادريسى فى الداخل وقطع وصول المؤن والامدادات اليه من ايطاليا فقد أعادهم الادريسى بكل سهولة من حيث اتوا بعد أن أثار عليهم رجال القبائل وجعلهم فى شبه عزلة مما اضطر بعضهم إلى الاحتماء بنواب الادريسى بينما لاذ بعضهم بالفرار ناجيا بنفسه وقد كتب الادريسى للدولة العثمانية عن هؤلاء المأمورين بأنهم لم يتمسكوا بأهداب الدين وأنهم ارتكبوا كثيرا من المعاصى امام اعين اهالى البلاد الذين نفروا منهم وثاروا عليهم ولما رأى متصرف عسير أن مذكراته للدولة لتحذيرها من خطورة الادريسى لم تأت بالنتيجة المرجوة بل وجد أن اتفاقية الحفائر بدأت تتبخر على حرارة الدهاء الادريسى فان هذا المتصرف توجه من «السراه» باليمن مارا «بصبيا» لدراسة الموقف والوقوف على مجريات الامور فى شمال اليمن فى «عسير» فراعه قواعد الدولة التى اشادها الادريسى والامكانات الضخمة التى تنهال عليه وتزيد من قوته فتوجه إلى «جيزان» ومنها إلى «كمران» واتصل بالآستانة عن طريق البرق البحرى ثم ذهب إلى «الحديدة» ولم تفلح محاولات متصرف عسير لاثارة الدولة العثمانية ضد الادريسى أو لتدبيره الأمر مع ولاة العثمانيين فى اليمن للتخلص منه فرأى أخيرا أن يفاوض الادريسى حول التصريح للدولة باقامة معسكر فى «ابى عريش» غير أن هذه المحاولة المكشوفة لم تطل على دهاء الادريسى الذى اجابه بقوله : «أن هذا يخالف نصوص الاتفاقية» .وبعد ذلك جردت الدولة العثمانية حملة قوية بقيادة محمد راغب وقد وصلت الحملة إلى «جيزان» ووجد قائد الحملة أمامه شخصية داهية فى السياسة وغاية فى الشجاعة وكان الادريسى على علم تام بهذه الحملة فما كادت تصل إلى «جيزان» حتى اصدر أوامره لاستدعاء رجال القبائل من «حلى» إلى «بنى

شبيل» كما استدعى قائده فى المنطقة الشمالية وهو حمود سرداب الذى عاد على رأس قواته فانضم إليه رجال القبائل فمروا بقرية الحفائر وحاصروا جيزان على شكل نصف دائرة تبدأ من «تل المنجارة» إلى «رأس السويس» فى الجنوب بينما خرج الادريسى بنفسه من «صبيا» ورابط بجيش احتياطى» فى قرية «الغراء» واناط قيادة الميدان بمحمد طاهر رضوان احد رجاله المخلصين من أهالى «صبيا» وقد هاجم الجيش العثمانى مدينة «جيزان» فى حين كانت تحميه نيران المدافع من القلاع والاسطول العثمانى وقد تم الهجوم فى عتمة الفجر فى ثلاثة اتجاهات وعندما انحسر الظلام كانت مقدمات الجيش العثمانى قد بلغت نهاية منطقة «السباخ» التى كانت ارضا مكشوفة فتقدمت قواتهم فى بسالة وهم يطلقون نيران رشاشاتهم وبنادقهم على جنود الادريسى المختبيئين خلف الروابى المحيطة بمنطقة «السباخ» المكشوفة وكان قائد الادارسة قد امر جنوده بعدم اطلاق نيرانهم حتى يقترب العثمانيون من مواقعهم وقد زاد ذلك فى جرأة الجيش العثمانى فواصلوا السير يتقدمهم ضابط عثمانى يدعى «مشرم» حتى بلغت المسافة بينهم وبين الادارسة ستون مترا تقريبا فاطلق الادارسة نيرانهم بشدة وعنف فقتلوا «مشرم» هذا وتمكنوا من هزيمة الجيش العثمانى وأصدر القائد العثمانى أوامره بالتراجع مما جعل رجال القبائل اليمنيين يحملون على العثمانيين بالسلاح الابيض ويتعقبون فلولهم المتراجعة فى أرض مكشوفة فنالوا من العثمانيين كل منال حتى غطيت المنطقة بجثث قتلاهم التى بلغت أكثر من الفى قتيل وقد تمكنت بعض فلول الجيش العثمانى المنسحب من دخول «جيزان» تحت حماية نيران مدفعية القلاع والاسطول غير أن الجيش الادريسى من القبائل اليمنية بقى يوالى الغارات الليلية على مواقع العثمانيين إلى أن وصلت اوامر الباب العالى بجلائهم عن «جيزان» إلى «القنفذة» بعد انسحاب الجيش العثمانى من «جيزان» وصلت إليها القطع الحربية الايطالية وعلمت برحيلهم إلى «قنفذة» ، واصدر الادريسى أوامره بمهاجمة العثمانيون فتحركت قواته وتمكنت من تطويق «آبها» و «جبل عسير» تطويقا كاملا وذلك فى عام ١٩١٠ واستمر الحصار مدة اشتدت فيهاوطأته علي العثمانيين حتى اضرتهم المجاعة إلى أكل القطط حتى استسلمت الحامية العثمانية فى «عصبة شعار» واستحوذ قادة الادريسى على المدافع والمؤن الموجودة فى ذلك المركز الممتاز ، وطلب الباب العالى من شريف الحجاز المساعدة فتحركت قوات الشريف الحسين بن على بقيادة ابنائه الامير فيصل والامير عبدالله وبالقرب من حدود «القنفذة» تحرك الجيش العثمانى الرابط بقيادة نشأت باشا وتقدما إلى منطقة «قوز ابى العير» وجرت معركة فى

منطقة «القنع» فأندحر الجيش الادريسى وتقدم جيش الحجازى إلى «وادى عجلان» فانهزم الادريسى هناك أيضا ومن ثم تقدم جيش الشريف الحسين إلى «آبها» وسيطر على المدينة وقد تراجعت الجيوش الادريسية إلى مواقعها الأولى حتى أعلنت ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية عام ١٩١١ وذلك بعد أن اخفقت فى التوغل داخل طرابلس الغرب وقامت ايطاليا بضرب الموانى العثمانية فى سواحل «عسير» مما ساعد القوات الادريسية على استعادة منطقة «وادى حلى» وبدأت فى مهاجمة «القنفذة» فى الوقت الذى كان الاسطول الايطالى فى البحر يرميها بقذائفه ، وسوف يؤدى اتفاق الصلح الذى سيعقد بين الدولة العثمانية والامام يحيى عام ١٩١١ والذى ستعترف الدولة العثمانية فيه بوضعه الخاص فى «صنعاء» بدون أن يكون لديها قابلية لعقد اتفاق مماثل مع الادريسى فى شمال اليمن فى عسير مما يؤدى هذا الاتفاق إلى انفراد الادريسى بالنضال ضد العثمانيين بل وضد الامام يحيى صديقه بالأمس الذى حالفهم (٤٢).

٨- ثورة اليمن ضد الحكم العثمانى ١٩١٠ واتفاق «دعان» ١٩١١ :

نتج عن سياسة الحزم والعنف التى اتبعها طلعت بك الاتحادى المتطرف فى أثناء تولية وزارة الداخلية العثمانية وسحبه لمشروع اصلاحات اليمن أن اصبحت البلاد اليمنية من عسير شمالا إلى تعز جنوبا مسرحا لحروب وثورات عنيفة وقد تزعم الامام يحيى الجهاد ضد جماعة الاتحاد والترقى العثمانيين فى جبال اليمن ، وأصدر نداء للقبائل اليمنية بالانضمام إليه كما شاركه محمد الادريسى فى محاربة جماعة الاتحاد التركية فى عسير واعلان الثورة عليهم ؛ وقد بدأ الثوار اليمنيون يفتكون بعساكر الاتراك فتكا ذريعا بين الحديدة وصنعاء واستولوا على الاسلحة والمدافع والذخيرة التى كانت فى ايديهم وطالبوا بحكام وطنيين وبالحكم بموجب الشرع الاسلامى . وكان اليمنيون يهتمون بتطبيق الشريعة ويركزون عليها أهمية خاصة إلى درجة أن المحاكم الحكومية التركية الرسمية لم يكن يتقدم إليها احد وإنما كان السكان يلجئون إلى القضاء الذى كان الامام يقيمه هو بوساطة قضاة يعتمدهم لذلك وجدير بالذكر أن اليمنيين وحدهم بين العرب هم الذين لم يعترفوا لسلاطين آل عثمان بخلافة المسلمين بدعوى أنها يجب ألا تكون إلا لقرشى وأن أجدر من يتولاها أئمة اليمن الذين ينتسبون إلى بيت النبوة ، وقد كان الخاتم الذى يستعمله الامام يحيى يحمل العبارات التالية: «السيد يحيى حميد الدين امير المؤمنين المتوكل على الله رب العالمين نصره الله »

ودليلا على تمسكه بالخلافة يختم به مراسلاته إلى اصدقائه وإلى بعض الصحف المصرية ولقد كانت صدور اليمنيين ممتلئة بالنزعة إلى الاستقلال والفخر بأنفسهم وبالنفور من نيران االتراك الذين كانوا يطلقون عليهم اسم «الروم» وأن أبدى اليمنيون استعدادهم مرارا للاعتراف بالسلطان العثمانى فى حالة حصولهم على الامتيازات الخاصة لولايتهم فى الوقت الذى كان وما يزال حتى يومنا الحاضر السلاح ارخص فى اليمن من اوربا ومتوفر بكثرة بمختلف انواعه ولهذا دارت المعارك الدامية بين الثوار اليمنيين والعساكر العثمانية وتفاقمت الامور بحيث اضطرت الدولة أن تسحب جيوشا من ألبانيا تقدر بحوالى سبعة آلاف جندى ونظرا لأن هذه النجدة لم تكف فان الدولة اضطرت إلى استقدام البقية الباقية من جندها فى طرابلس الغرب ثم ضمت اليهم ثلاثة أفواج من الآستانة علاوة على الاحتياطى الذى دعته للخدمة من ولاية «اسكوب» فى البانيا أى ما مجموعة «٣٥» طابورا قررت ارسالها إلى اليمن ، كما أن الاتحاديين لجأوا بالاضافة إلى استخدام القوة إلى اسلوب الدسائس وايقاع بين زعماء العرب بعضهم ببعض فكلفوا شريف حسين امير مكة فى السير لقتال محمد الادريسى حليف الامام يحيى (٤٣).

يرجع تجدد الاضطرابات والثورات فى اليمن التى بلغت ذروتها فى عام ١٩١٠ عندما رفض الباب العالى شروط الامام ، وكان رجال الاتحاد والترقى قد احبطوا فى ابريل من العام الماضى حركة الانقلاب المضاد التى قام بها السلطان عبد الحميد الثانى فى الآستانة وخلعوه من السلطنة وعينوا مكانه أخاه الاصغر باسم السلطان محمد الخامس الذى ظل العوبة فى ايديهم ولما كان الاتحاديون الذين سيطروا منذئذ على الحكم فى تركيا يريدون تقوية قبضتهم على شتى ولايات الدولة ، وأخذوا يعملون حتى قبيل قيام الحرب العالمية الأولى من أجل «تتريك» كافة القوميات التى تضمها الدولة ومنها القومية العربية نظراً لتعصبهم للقومية التركية فقد كان من المنتظر أن يلجأ هؤلاء الاتحاديون إلى سياسة الشدة والعنف فى سبيل حل المشكلة اليمنية وفى يونيو عام ١٩٠٩ عين الاتحاديون أحد رجالهم وهو محمد على باشا واليا على اليمن الذى وصل فى مايو ١٩١٠ وكان احد اعضاء جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تمثل أفكار الاتحاديين العنصرية ، وسياستهم المركزية المتطرفة التى كان يؤمن بها خاصة فى الحكم التى تقوم على العنف ، والشدة فى قمع كل اضراب يحدث فى اليمن والقضاء معنويا وماديا على نفوذ الامام يحيى ومحمد الادريسى واقرار الامور فى البلاد

مهما كلفهم الثمن فى ذلك فراح الوالى يحبس هذا ويضرب هذا من دون سبب ورجع إلى ما كان عليه الوالى فيضى باشا فى حبس من كان بينه وبين الامام علاقة لو ادعاء بلاصحة وعلى ذلك فقد انتهز الامام يحيى فرصة موقف الدولة السئ فى ليبيا امام الايطاليين وتحالف مع محمد على الادريسى فى عسير ضد الحكم التركى وكان غرض الامام من هذا التحالف أن يحمى الادريسى ظهره فى عسير وهو يزحف جنوبا نحو صنعاء وعندما اعلن الامام يحيى الثورة على الاتراك فى عام ١٩١٠ حذا الادريسى حذوه وضرب الحصار على مدينة «آبها» عاصمة العثمانيين فى عسير ؛ ولكن الدولة سرعان ما كلفت الشريف حسين امير مكة بتسير حملة ضده وفى اواسط عام ١٩١٠ دخلت قوات الشريف الحسين «آبها» وهزمت الادريسى كما ذكرنا سابقا ، اما الامام يحيى فقد عمد بعد اعلانه الثورة على الاتراك إلى الزحف برجاله نحو صنعاء وضرب عليها حصارا شديدا وبرغم المصاعب العديدة التى كانت تتعرض لها الدولة العثمانية وقتئذ فقد قررت حكومة الآستانة ارسال حملة إلى اليمن بقيادة المشير عزت باشا وزودته بسلطات واسعة لحل مسألة اليمن وبعد أن نزلت الحملة فى «الحديدة» فى فبراير ١٩١١ اسرعت فى الزحف نحو صنعاء فدخلتها فى ابريل من العام نفسه وكان الامام يحيى قد رفع الحصار عنها وانسحب صوب الشمال ، ولما كانت الدولة العثمانية على اهبة الحرب مع ايطاليا فى ليبيا فقد سعى عزت باشا إلى التوصل إلى اتفاق مع الامام يحيى يكفل عدم انحيازه إلى جانب الايطاليين ، كما فعل الادريسى ومن ثم فقد ارسل عزت باشا الرسل إلى الامام يحملون إليه رغبته فى عقد الصلح وبعد أن التقى الرسل بالامام عادوا وأبلغوا القائد التركى باستعداد الامام يحيى لعقد الصلح وحقن الدماء وتم الاتفاق على أن يجتمع الطرفان لهذا الغرض فى قرية «دعان» وبالفعل لم يلبث أن اجتمع عزت باشا والامام يحيى فى «دعان» وابرم الطرفان فى مايو عام ١٩١١ اتفاقا عرف باتفاق «دعان» وقد نص هذا الاتفاق على ما يلى [٤٤]:

١- ينتخب الامام حكاما لمذهب الزيدية وتبلغ الولاية «ولاية صنعاء» ذلك وهذه تخبر الاستانة لتصديق المشيخة على ذلك الانتخاب .

٢- تشكل محكمة استئنافية للنظر فى الشكاوى التى يعرضها الامام .

٣- يكون مركز هذه المحكمة صنعاء وينتخب الامام رئيسها واعضاءها وتصدق الحكومة على تعيينهم .

٤- يرسل الحكم بالقصاص إلى الآستانة للتصديق عليه من المشيخة وصدور الارادة السنية به وذلك بعد أن يسعى الحاكم فى التراضى ولايصلح ولاينفذ الحكم إلا بعد التصديق وصدور الارادة بشرط ألا يتجاوز اربعة اشهر .

٥- إذا أساء أحد المأمورين «الحكام والعمال» الاستعمال فى الوظيفة بحق للامام أن يبين ذلك للولاية .

٦- يحق للحكومة أن تعين حكاما للشرع من غير اليمانيين فى المناطق التى يسكنها الذين يتمذهبون بالمذهب «الشافعى»و «الحنفى» .

٧- تتشكل محاكم مختلطة من حكام الشافعية والزيدية للنظر فى دعاوى المذاهب المختلفة .

٨- تعين الحكومة «محافظين» تحت اسم مباشرين للمحاكم السيارة التى تتجول فى القرى للفصل فى الدعاوى الشرعية وذلك دفعا للمشقات التى يتكبدها أرباب المصالح فى الذهاب والإياب إلى مراكز الحكومة .

٩- تكون مسائل الاوقاف والوصايا منوطة بالامام .

١٠- الحكومة تنصب الحكام للشافعية والحنفية فيما عدا الجبال .

١١- صدور عفو عام عن الجرائم السياسية والتكاليف والضرائب الاميرية التى سلفت .

١٢- عدم جباية التكاليف الاميرية لمدة عشر سنوات من اهالى «أرحب» و «خولان» لفقرهم وخراب بلادهم وارتباطهم التام بالحكومة .

١٣- تؤخذ التكاليف الأميرية بحسب الشرع .

١٤- إذا حصلت الشكوى من جباة الاموال الاميرية لحكام الشرع أو للحكومة فعل هذه أن تشترك مع الحكام فى التحقق وتنفذ الحكم الذى يحكم به عليهم .

١٥- يحق للزيدية تقديم الهدايا للإمام أما مباشرة واما بواسطة مشايخ الدولة أو الحكام.

١٦- على الامام أن يسلم عشر حاصلات للحكومة .

١٧- لاتجبى ، الأموال الأميرية من جبل الشرق لمدة عشر سنوات .

١٨- يخلى الامام سبيل ما عنده من الرهائن من أهالى صنعاء وما جاورها «وحراز» و «عمران» .

١٩- يمكن لمأمورى «موظفى» الحكومة واتباع الامام أن يتجولوا فى انحاء اليمن بشرط ألا يخلوا بالسكينة والأمن .

٢٠- يجب على الفريقين ألا يتعديا الحدود المعينة لهما بعد صدور الفرمان السلطانى بالتصديق على هذه الشروط .

تلك هى شروط أو مواد اتفاق «دعان» ذلك الاتفاق الذى يحمل بين طياته جوهر وخلاصة كل العروض والمطالب والحلول التى ظهرت قبله فى فترات الهدوء النسبى وقيام المفاوضات بين الطرفين ، أو فى المشروعات التى كانت تنظرها الدولة لحل قضية اليمن ولكنها لم تكن تنتهى فيها إلى رأى نهائى وهذا التشابه بين هذا الاتفاق وبين ما سبقه من عروض وحلول يعنى مباشرة أنه لم يفرض من الخارج أو أنه نتيجة مؤشرات خارجية بل هو منبثق من احداث اليمن الخاصة وواقع ظروفه وأوضاعه إل جانب الأحداث العامة الخاصة بالدولة العثمانية وإذا أمعنا النظر فى مواد أو صلح «دعان» نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام (٤٥):

أولا : مواد عامة تعكس الرغبة الصادقة فى اصلاح احوال اليمن والقضاء علي اسباب الاضطرابات والثورات ، ويبدو ذلك فى معالجة نظام التكاليف الاميرية أو الضرائب فقد نص الاتفاق على اخضاع قيمة الضرائب المفروضة للأسس الشرعية الاسلامية مع اعفاء بعض المناطق اليمنية الفقيرة التى أضيرت من الحروب والاضطرابات السابقة من دفع هذه الضرائب لمدة عشر سنوات وعلاوة على ذلك فقد نص الاتفاق على ضرورة صدور عفو عام عن الجرائم السياسية والزم الامام باخلاء سبيل الرهائن الموجودين لديه .

ثانيا : مواد تعترف بوضع الامام وحقوقه كحق انتخاب حكام المذهب الزيدى فى جميع الهضاب والمرتفعات حيث تسود الشيعة الزيدية وحق انتخاب رئيس المحكمة الاستئنافية بصنعاء وأعضائها وحق مراقبة اعمال الموظفين الاتراك وابلاغ الولاة بما يصل إليه عن استغلال هؤلاء الموظفين السئ لنفوذهم وحق الحصول على هدايا أو اموال من الزيدية على أن يقوم بتسليم عشر دخله للحكومة ؛ وهذا فضلا عن اعطاء الامام مسائل الاوقاف والوصايا بحيث تكون هذه المسائل من اختصاصه هو وحده .

ثالثا : مواد تقرر تبعية ولاية اليمن للدولة العثمانية إذ احتفظت الدولة لنفسها بحق التصديق على انتخاب الامام للحكام والقضاة الزيدية وكذلك حق التصديق على أحكام القصاص «الاعدام» التى يصدرها الامام وهذا إلى جانب حق تعيين الحكام الشافعية والحنفية فى منخفضات تهامة على الساحل حيث يشكلون السنيون الاكثيرة العددية من السكان .

تأكد اتفاق «دعان» بالفرمان السلطانى الصادر فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩١٣ الذى قرئ علنا فى صنعاء فقد أقر هذا الفرمان ما سبق الاتفاق عليه حيث عدم ارتكاز القانون المدنى والجنائى فى اليمن على التشريع العثماني بل على الشريعة الاسلامية التى اصبح الامام يحيى مسؤلا عن تطبيقها فى اليمن ومن الجدير بالذكر أنه على خلاف امراء الجزيرة العربية ظل الامام يحيى فى اليمن مواليا للدولة العثمانية ابان الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ .

خامسًا : الحجاز تحت الحكم العثمانى فى العصر الثانى ١٨٤٠-١٩١٦ .

يرجع اخفاق محمد على باشا فى اقامة دولة عربية إلى عاملين أحداهما : معارضة بريطانيا وثانيهما : عامل سلبى هو فقدان الوعى القومى بين العرب ، فقد كان تخوف بريطانيا وغيرها من الدول الأوربية مثل روسيا والنمسا وبروسيا راجع إلى قيام الدولة العربية التى قد تعود إلى سابق عهدها ؛ كما كان أثناء الدولة العباسية والاموية أى أنها لاتقتصر إلى فتوحات محمد على فى الجزيرة العربية والشام والسودان بل تتعدى مما يعنى انبعاث هذه الدولة من جديد مما قد يشكل خطرا كبيرا يصعب القضاء عليه ، ولهذا يجب القضاء على هذا الوليد فى المهد قبل أن يكبر ولهذا تكالبت الدول الاستعمارية الصليبية للقضاء على مشروع الدولة العربية . أما قضية السيطرة المصرية على المضايق أو الملاحة فى الخليج العربى والبحر الاحمر وتهديد التجارة العالمية أو طريق المواصلات إلى الهند إنما كانت تبريرات لإخفاء حقيقة التخوف من قيام دولة عربية قد يبعث فيها روح الاسلام مما يشكل تهديدا حقيقيًا وإلا لماذا لم تشكل السيطرة العثمانية منذ قرون على البحر الاحمر التى جعلتها بحيرة عثمانية خطرا على المصالح البريطانية لان الدولة العثمانية كانت قد استنفذت قدراتها ومقوماتها وبذلك فانه يجب أن تنتهى بحقن دماء جديدة قادرة على مواجهة التحدى الاستعمارى الجديد بما يتمثله من تطور صناعى وتقدم فى التجارة العالمية واستعمار الشعوب العالم الثالث وخاصة الاسلامية وبذلك كانت هذه هى المناسبة الأولى فى العصر الحديث التى

برزت فكرة الدولة القومية العربية الموحدة وصارت احدى مشكلات السياسة الدولية وكانت الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا تقاوم هذه الدولة العربية الموحدة [٤٦].

فى حين كان العامل الثانى هو الافتقار إلى التضامن القومى فى العالم العربى فقد أضعفت عصور الانحطاط وفساد الحكم من روح الجماعة بين السكان واوهنت فيها من صلابة وتماسك وكانت عوامل الوحدة التى أوجدها الاسلام تظل دائما قوية فعالة ما دام العرب هم أصحاب السيادة فلما وهنت قوتهم وضعف أثرها فى التوحيد بينهم وتفرقت الجماعات المتعددة وصار لكل مجموعة عربية كيان اقليمى ومذهبى منفصل عن غيرها وفقا لما كانت تنتسب إليه من مكان أو عشيرة أو عقيدة قبل الاسلام فى الجاهلية وكان أثر هذا التفكك فى الجزيرة العربية واضحا ؛ وكان ترحيب المسلمين بمجى حكم محمد على باشا إلى الشام والجزيرة العربية ومصر والسودان يرجع إلى اعتقادهم بأن تأسيس الدولة العربية الموحدة واسترجاع الخلافة إلى ايدى العرب كما كانت ايام الأمويين والعباسيين ، سيقوى من سيادتهم ولكن هذا المشروع للدولة العربية الموحدة الذى تخيله محمد على وتعهده ابنه ابراهيم باشا قد أخفق لأنه لم يجد من العرب السند الذى كان يتطلبه وبذلك كان من السهل على بريطانيا والدول الاستعمارية الأوربية الأخرى أن تقضى عليه وكان أضعف جانب فيه أنه سبق زمانه واريد تطبيقه قبل تكوين الوعى القومى بين العرب وتعهده رجلان من غير العرب بالرغم من نشاط محمد على وحماسة ابراهيم باشا كمن ينفخ فى رماد واختفت الفكرة بهزيمتها ولم يظهر لها وجود وبعد ذلك بين مشكلات السياسة الدولية إلا فى حرب العالمية الأولى حين عاودت الظهور حلما يراود رجلا وابنه ولكنهما من العرب فى هذه المرة وكانا يرميان إلى التسلح بالسلاحين نفسيهما اللذين لم يتاحا لمحمد على وهما تنبه الشعور بالقومية العربية ومساندة بريطانيا التى عارضتها فى السابق وأن قصة الحركة القومية للعرب تدور حول سلسلة الحوادث التى أدت بالشريف الحسين وبابنه عبدالله إلى أن يقوما بثورة مع بريطانيا[٤٧].

أعلن الشريف محمد بن عون امير الحجاز عن موقفه من الصراع بين محمد على من جهة والعثمانيين وحلفائهم الأوربيين باخلاصه لمحمد على وتأييده لسياسته وكانت هناك اتصالات بين القاهرة ومكة المكرمة اطلع محمد على باشا الشريف محمد بن عون من خلالها على تطورات الموقف وتعنت الدول الأوروبية بزعامة بريطانيا وتهديداتها لمصر فأبرم الشريف

محمد بن عون على الفور إلى محمد على عام ١٨٤٠ بأنه إذا حدثت أية اعتداءات من قبل بريطانيا فانه يكون من اقصى امانيه ان يجمع جندا من العرب يبلغ عدده مائتى الف مقاتل مجهزين بأنواع الاسلحة الحربية ويقودهم الشريف ويحارب بهم المعتدين ويهلكهم فى الفيافى والصحارى ، وكان موقف الشريف هذا فيه افراط فى الحماس ومبالغه فيه إلا أنه يظهر لنا الموقف الرسمى لحكومة الحجاز وهو بلا شك تعضيد لمحمد على ليس على بريطانيا فحسب وإنما على العثمانيين أيضا وبذلك يختلف عن بقية زعماء الجزيرة العربية وبلاد الشام كما يرجع إلى ما كان من ود بين الزعيمين المصرى والحجازى ولقد ترجم الشريف أقواله إلى أفعال، عندما أصدر أوامره بتحصن «جدة» كما قام بمساعدة القادة المصريين فى توزيع المشاه فى مواضيع استراتيجية بالاضافة إلى توزيع الفرسان فى عدة مناطق على الطريق الواقع بين مكة المكرمة وجدة تحسبا لأى اعتداء بريطانى على القوات المصرية المطلوب جلاؤها عن الجزيرة العربية ، أما السفن الراسية فقد تم لتكون على أهبة الاستعداد لصد أى اعتداء يحدث لها من الخارج ، وعندما طلب قائد الاسطول المصرى فى البحر الأحمر ثلاثمائة جندى جدد فأحضر له الشريف على الفور وقد اتبع ذلك الشريف بتقوية قلعة جدة وترصيفها برا وبحرا وعهد إلى معاونيه بعقد مجلس للتشاور فى تنظيم الامور اللازمة على أن ترسل تقارير يومية بذلك إلى مصر وقد أدى تحرج موقف مصر الحربى والسياسى على الصعيد الدولى إلى إذعان محمد على لقرارات معاهدة لندن ١٨٤٠ فأصدر أوامره باخلاء الجزيرة العربية من جنوده وترحيلهم إلى مصر وقد شرع محمد على فى تنفيذ خطه اجلاء بتولى الشريف محمد بن عون امر اشرافها ليسهل عمليات ترحيل الجيش المصرى واتجه الشريف إلى «ينبع» ومنها صوب قبيلة «حرب» فشد عليها ثم انطلق إلى المدينة المنورة ثم شرع أثناء اقامته فى اماكن قبائل «حرب» حول المدينة المنورة فى ترحيل الجيش المصرى وتريب الاعمال الادارية على أساس الخضوع للحكم العثمانى المباشر من جديد ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة بعد أن سبقه إليها ابنه عبدالله وقام بشئون أمارتها نيابة عنه فلما دخلها اتم عمليات ترحيل الجيش المصرى منها أما قوات الجيش المصرى الرابطة فى اليمن فقد تم تجميع الجنود فى ميناء «القنفذة» وذلك تمهيدا لنقلهم إلى «جدة» ليتم ترحيلهم بعد ذلك إلى مصر (٤٨).

أرسل الشريف محمد بن عون برسالة إلى محمد على يبلغه فيها باقلاع السفن التى تحمل الجنود بصحبة احمد باشا من «جدة» فى طريقهم إلى «القصير» كما كتب الشريف إلى

محافظ ينبع بسرعة ارسال كل السفن إلى ميناء «جدة» لنقل الجنود وكان الشريف يشرف على تلك العمليات بنفسه لاتمام عملية سفر الجنود بأسرع ما يمكن على الرغم من قيام محافظ «جدة» بواجباته خير قيام واصبح الجنود المصريون يتدفقون فى آمان ويسر إلى مصر لكن مشكلة نقل الذخائر الكثيرة والثقيلة من الحجاز إلى مصر باتت تحتاج لكثرتها ؛ مما اضطر محمد على إلى تركها كلها فى الحجاز بعد تقويمها وحصرها لتخصم أثمانها من قيمة الخراج المقرر على الدولة العثمانية ويبدو أن المهمات والمؤن كانت كثيرة جداً ؛ وقد تشكلت لجنة مصرية - حجازية - عثمانية لتصفية الاموال المصرية فى الحجاز فأحصت جميع المهمات والذخائر الموجودة به للمصريين وراجعت الأوراق وقدمت ذلك بأثمان وأبقته فى الحجاز بعد تعهد العثمانيين بقبوله مما يستحق على مصر من خراج المقرر عليها ؛ وكان هذا الحل مرضيا لكل الاطراف اما الامر الذى شغل فكر الجميع فهو استكمال ترحيل جميع جنود الجيش المصرى بعد اتمام تجميع جنود كل فرقة من جميع أنحاء الجزيرة العربية وارسالهم إلى مصر فى أمان ، ولم تكن السفن المصرية والحجازية المتاحة تكفى لهم ولمهامتهم ومؤنهم فاضطر محمد على إلى استئجار سفن اخرى عربية ومما لاشك فيه أن محمد على تكلف كثيرا من الاموال لنقل جنود الجيش المصرى وضباطه إذ إنه كان قد رتب معاشات ومرتبات لكثيرين من الاشراف وغيرهم كما أنه أبطل دفاتر جراية القمح القديمة المرتبة لأهالى مكة على النظام العثمانى عندما وجدها تصب فى أيدى التجار والمؤثرين مع حرمان الفقراء منها على الرغم من تخصصها فى الأصل لهم ثم رتب القمح للفقراء فى دفاتر حديثة على النظام المصرى وهذه تعد واحدة من محاسن محمد على الكثيرة فى الحجاز ولقد استقر الامر بعد خروج الجيش المصرى من الحجاز على أن تبقى تلك الرواتب والجرايات كما هى وأن لاتحول على حساب الخزينة العثمانية (٤٩).

أثر الحكم المصرى تأثيراته المباشرة وغير المباشرة على الجزيرة العربية بعامة والحجاز بخاصة وهى تأثيرات مشابهة لتأثيرات الحكم المصرى فى بلاد الشام فقد أسهم الحكم المصرى فى تقريب جزيرة العربى ليس فقط للمعرفة الأوربية بل فى ادخال الجزيرة العربية فى اطار السياسات الأوربية محمد على هو الذى سمح للرحالة جون لويس بركهارت بزيارة الحجاز والاقامة فيها بعض الوقت ، كما شجع غيره من الأوربيين على زيارة أجزاء أخرى من الجزيرة العربية الذى وفر الحماية للاجانب مما مكن الكابت «سادلير» مبعوث حكومة الهند البريطانية

من عبور الجزيرة العربية من شرقها فى القطيف عام ١٨١٩ إلى غربها فى «ينبع» حيث راح يسجل أثناء هذه الرحلة ملاحظاته عن الاماكن التى مر بها وهى الملاحظات التى ضمنها تقريره الذى رفعه إلى حكومة الهند وطبع فى بومباى عام ١٨٦٦ وبفضل كتاب رحلة سادلير وبركهارت لم يعد وسط الجزيرة العربية مجهولة للأوربيين ، وعلى أثر انسحاب القوات المصرية عام ١٨٤٠ بادر السلطان عبد المجيد بتعيين أحد الباشوات الاتراك على «جدة» ولم يكن هذا الباشا التركى يتمتع بادئ ذى بدء بنفوذ كبير أو بأى نفوذ على الاطلاق فى الحجاز بل كانت السلطة الحقيقية بيد امير الحجاز الشريف محمد بن عون الذى كان قد نجح فى اقامة علاقات طيبة مع قبيلة «حرب» ومن ثم فقد أخذ حملة إلى اقليم «القصيم» فى وسط الجزيرة العربية واستطاع أن يهزم قوات الامير فيصل بن تركى الذى اضطر إلى دفع الزكاة للشريف وقدم فيصل هدية من الخيل والمطايا ومبلغا كبيرا من المال فأخذها الشريف ورحل من القصيم عائدا إلى مكة ، وعلى الرغم من نفوذ الشريف محمد بن عون فان مؤامرة الشريف عبد المطلب بن غالب فى البلاط العثمانى بالآستانة قد نجحت فقد تلقى باشا جدة فى اغسطس ١٨٥٢ تعليمات من الباب العالى بارسال شريف الحجاز وابنيه الكبيرين إلى الآستانة وكان معنى ذلك أن الدولة قد قررت عزل محمد بن عون من شرافة مكه ونفيه إلى عاصمتها وتعيين غريمه عبدالمطلب مكانه وهكذا يضطر الشريف محمد بن عون ١٨٢٨-١٨٥٢ أن يرحل من الحجاز إلى الآستانة بعد أن ترك أمور شرافة مكة بيد منصور بن يحيى لحين عودة الشريف عبد المطلب من العاصمة العثمانية ، غير أن الشريف عبد المطلب فى شرافة الحجاز لم يستمر سوى اربع سنوات ١٨٥٢-١٨٥٦ عزل بعدها ونفى إلى الآستانة على أثر الفتنة التى وقعت بين أهل مكة والاتراك التى كان سببها تحريم الاتراك لبيع الرقيق فى مكة ، وأعادت الدولة العثمانية الشريف محمد بن عون إلى شرافة الحجاز فظل يتولاها حتى قضى نحبه فى مارس ١٨٥٨ بالغا من العمر تسعين عاما وخلفه ابنه عبدالله الذى كان يوجد وقتئذ فى «استنانبول» كعضو فى مجلس الدولة وعلى هذا النحو تعاقب الاشراف على منصب الشرافة واحدا بعد الآخر ابان العصر العثمانى الثانى ، وكان مما ساعد العثمانيين على التدخل فى شئون شرافة الحجاز وبالتالى تشديد قبضتهم عليها خلال العصر العثمانى الثانى حفر قناة السويس وفتحها للملاحة البحرية عام ١٨٦٩ . الأمر الذى أوجد طريقا مائيا مباشراً بين «استنانبول» وساحل البحر الأحمر الشرقى ، واتاح امكانية سيطرة الدولة العثمانية على الاجزاء الغربية من جزيرة العرب . ففى خلال الستينات لم تكن

هناك وسيلة امام الدولة للحفاظ على الطريق مفتوحا إلى اليمن سوى ارسال قواتها العسكرية برا إلى الحجاز وعسير وكانت هذه القوات تصل إلى هناك منهوكة القوة ؛ وبعد أن تكون قد فقدت الكثير من الضحايا بسبب الأهوال التى تلاقيها فى سيرها عبر الفيافى والصحارى الطويلة بل كانت تصل فى بعض الاحيان بعد فوات الأوان ، ولكن منذ عام ١٨٧٠ فصاعدا اصبح فى وسع الدولة أن ترسل سريعا المؤن والامدادات العسكرية إلى جيوشها باليمن بحرا عبر قناة السويس وعلى ذلك ففى عام ١٨٧٢ استطاع العثمانيون أن يغزوا اليمن من جديد دون مساعدة شريف الحجاز ، وعندما تولى عبد الحميد الثانى الحكم عام ١٨٧٦ كان يتولى امارة مكة الشريف عبدالله بن محمد بن عون منذ عام ١٨٥٨ ولكن السلطان عزلة فى العام التالى لتولية الحكم أى عام ١٨٧٧ وعين مكانه أخاه الشريف حسين بن محمد بن عون الذى استمر متواليا شرافة الحجاز حتى قتل بطعنة سكين فى جدة عام ١٨٨٠ فأعاد عبدالحميد الثانى الشرافة إلى ذوى زيد فى شخص الشريف عبد المطلب بن غالب الذى كان قد تولى الشرافة قبل ذلك مرتين الأولى من عام ١٨٢٧ إلى ١٨٢٨ والثانية من ١٨٥٢ إلى ١٨٥٦ غير أن اعادة الشرافة إلى ذوى زيد أغضب ذوى عون فأرسلوا وفدا إلى الآستانة لتحريض الباب العالى ضد الشريف عبد المطلب الذى تولى الشرافة للمرة الثالثة (١٨٨٠-١٨٨١) ولجأ الوفد فى العاصمة العثمانية إلى وسيلتين لتحقيق اغراضه وهما[٥٠]:

١- اتصل اعضاء الوفد بالسفير البريطانى وحثوه على وجوب اعتماد بريطانيا على ذوى عون دون غيرهم فى اتصالات بريطانيا مع امراء الجزيرة العربية وردودا على مسامعه ما كان قد اشيع بان الشريف السابق حسين بن محمد بن عون قد قتل لأنه كان صديقا لبريطانيا وعلى صلة سرية بهم .

٢- اتصل اعضاء الوفد بالسلطان عبد الحميد وحدثوه عن صداقة الشريف عبد المطلب بن غالب لمدحت باشا وكان الأخير قد عزل من الصدارة العظمى عام ١٨٧٧ بسبب مشاريعه الاصلاحية ونفاه السلطان إلى خارج الدولة ثم سمح له بعد مدة بالعودة إلى الدولة وعينه واليا على سوريا فأمير ولكنه فى آخر الامر اتهمه بقتل السلطان عبدالعزيز ونفاه إلى الطائف ويبدو أنه كان بسبب وشايات وفد ذوى عون أن ارسل السلطان إلى الشريف عبد المطلب بأمره بقتل مدحت باشا غدرا إلا أن الشريف رفض تنفيذ الأمر فما كان من عبد الحميد إلا أن اصدر فرمانا بعزله .

كلف السلطان عبد الحميد الثانى القائد التركى عثمان نورى باشا بتنفيذ فرمان العزل مع اتخاذ ما يلزم من اجراءات لمنع الشريف المعزل من الهرب إلى القبائل العربية أو إلى اطائف فوصل عثمان باشا على رأس قوات جديدة إلى الحجاز فى نوفبر ١٨٨١ وأمر جنوده بمحاصرة قصر الشريف الصيفى فى المثنى دون توجيه أى انذار للشريف كما نصب المدافع على التلال المجاورة ووجه فوهاتها نحو القصر وفى أثناء ذلك كان الأشراف العبادلة قد جمعوا رجالهم بسرعة واحتشدوا غير بعيدين عن القصر استعدادا للتدخل ضد الشريف عبد المطلب وفى الفجر اقتحم القائد العثمانى القصر وقرأ على الشريف فرمان العزل واقتاده مقبوضًا عليه إلى الطائف وزج به فى سجنها ثم نقل من هناك فيما بعد إلى بيته بالقرب من «منى» حيث قضى بقية حياته حتى توفى فى ٢٩ / ١ / ١٨٨٦ ، وبعد عزل الشريف عبد المطلب بن غالب اقام عثمان نورى باشا الشريف عبدالله بن محمد بن عون اميرا على مكة ولكن السلطان عبد الحميد الثانى استبدل عام ١٨٨٢ الشريف عون بن محمد المعروف بعون الرفيق بأخيه عبدالله ثم عين الأخير وزيرا فى الآستانة نكاية بذوى زيد ومكافأة لذوى عون الذين نفذ أوامر السلطان فقتل مدحت باشا فى سجنه بالطائف شر قتله فى ابريل ١٨٨٣ ومع أن شرافة الحجاز فقدت خلال العقدين الثامن والتاسع الكثير من نفوذها التقليدى وخسر الحجاز استقلاله الذاتى الذى كان يتمتع به من قبل وأصبحت الامور هناك تجرى وفق مشيئة الوالى العثمانى فقد استمرت المنافسة على الشرافة على أشدها بين ذوى عون انفسهم من جهة ثم بينهم مجتمعين وبين ذوى زيد من جهة أخرى ، فقد اغضب الشريف حسين بن على وهو من ذوى عون أن تصبح الشرافة من نصيب عمه الرفيق بدلا من أن تكون من نصيبه هو وحده ولذا أخذ ينشر الاتهامات ضد عمه حتى غضب العمر وارسل يشكوه إلى السلطان فما كان من عبدالحميد إلا أن أرسل يدعوا الشريف حسين واسرته للاقامة فى استانبول وعلى ذلك فمنذ عام ١٨٩٣ اقام الشريف حسين مع اسرته وابنائه الثلاثة على وعبدالله وفيصل فى العاصمة العثمانية ويقول الشريف عبدالله (ملك الاردن فيما بعد) فى مذكراته [٥١]:

لقد كانت اقامتنا باستنبول اقامة جبر وإكراه ... وبالرغم من أن السلطان عبدالحميد الثانى لما مثل والدى فى حضرته يوم وصوله الآستانة قال له أنه إنما استدعاه لينشئه ويرجو منه أن يخدم الدولة ويخدمه بالرغم من أنه عينه عضوا فى شورى الدولة وأمر بأن تهيأ له دار ساحلية فى «البسفور» وتفرش فقد كان فى الحقيقة وبرغم هذه الاعتبارات أخذ إلى الآستانة نفيا

وتغريبا بناء على معارضة سياسة الظلم والاعتساف بالحجاز وأخذ الاموال الطائلة من الحجاج بشتى الاسباب تلك السياسة التى اختطها ولاة الحجاز والامير عون الرفيق » .

بلغة امارة الحجاز فى عهد عون الرفيق منتهى الضعف وغاية الهبوط وأدى اهمال الشريف لأمور البادية أن ساء الأمن وعم القلق وانتشرت الفتن وكان هم الشريف التظاهر بالبلبة والاعمال الفوضوية لكى يكون السلطان راضيا عنه ، اتفقت مصلحة الوالى العثمانى الشخصية مع مصلحة الشريف فتقاسما المصالح حتى أتت الناس وتصرخ من الجور والظلم إلى أن توفى الشريف عون الرفيق عام ١٩٠٥ وبرغم تدهور احوال الحجاز فقد كان يحظى وقتئذ باهتمام خاص من جانب الدولة العثمانية ويرجع ذلك إلى سياسة السلطان عبد الحميد الثانى الاسلامية واحتضانه لفكرة الجامعة الاسلامية تلك الفكرة التى كان جمال الدين الافغانى رائدها وداعيتها الأكبر فى تلك الفترة ، فقد كان الافغانى يؤمن بقوة الوحدة االسلامية ، ويسعى إلى اقامة حكومة اسلامية قوية ينضوى إلى رايتها جميع شعوب الاسلام بهدف مقاومة الاطماع الأوربية فى العالم الاسلامى والقضاء عليها والتخلص منها وكانت دعوة الافغانى تقوم على ركنين اساسيين وهما :

أولا : الحج إلى بيت الله الحرام فى مكة باعتبار أن الحج ليس فريضة دينية فحسب بل هو كذلك بمثابة مؤتمر اسلامى سنوى كبير يلتقى فيه المسلمون من كافة ارجاء الأرض حيث يتعارفون ويتبادلون العواطف الدينية فى الشؤون الاسلامية ويضعون الخطط ويرسمون الطرائق للدفاع عن الاسلام والمسلمين .

ثانيا : التفاف المسلمين شعوبا وحكومات حول السلطان العثمانى باعتباره خليفة المسلمين وحامى حمى الاسلام . وكان إن التقت دعوة الافغانى للوحدة الاسلامية مع أهداف السلطان عبد الحميد الثانى السياسية فتبنى عبد الحميد فكرة الجامعة الاسلامية لثلاثة اسباب وهى[٥٢] :

أولا : باعتبار الجامعة الاسلامية أداة تضمن التفاف العالم العربى حول الخلافة العثمانية فتدعم السيطرة العثمانية على الولايات العربية فى وقت كانت الدولة العثمانية تفقد املاكها فى البلقان بسرعة آنذاك .

ثالثا: كان عبد الحميد الثانى يهدف من وراء فكرة الجامعة الاسلامية إلى اتخاذها أداة للضغط على الدول الأوربية وذلك إذا التفت حوله الشعوب الاسلامية العربية وغير العربية الخارجة عن نطاق الدولة العثمانية والتى كانت تسيطر عليها الدول الأوربية وبالذات الشعوب العربية فى المغرب العربى والمسلمون فى الهند والتتر فى روسيا القيصرية .

ويقول جب إنه [٥٣]: على الرغم من أن جمالد الدين الافغانى كان صريحا فى فضح الاستبداد والحكم الفاسد اللذين وجدهما سائدين فى الممالك الاسلامية المستقلة ولم يكونا أقل سيادة فى الدولة العثمانية إلا أن المثل لفكرة الجامعة الاسلامية كان مغريا جداً وكانت المصالح والعواطف التى أهاب بها من القوة بحيث الفكرة أمكنها أن توقظ شعورا يعطف عليها فى كل جزء من الأمة الاسلامية وأنه وإن كانت الفكرة قد قوبلت بأعظم الحماس لدى الذين لم تكن لهم خبرة شخصية بالحكومة العثمانية ولاسيما لدى مسلمى الهند الذين شعروا بعد سحق أسرة المغول الاسلامية بالحاجة إلى التأييد الخارجى أمام خطر النهضة الهندوكية فقد كان من نتائجها ايقاظ الشعور بالوحدة الاسلامية من جديد وتقويته إلى حد لم يسبق له مثيل حتى ذلك الوقت » .

والواقع أنه كان فى اطار سياسة عبد الحميد الثانى الاسلامية وتبينه لفكرة الجامعة الاسلامية أن حظيت امارة الحجاز بصفته مركز الحرمين الشريفين باهتمام السلطان وعنايته ويتضح ذلك من اعمال السلطان فى الحجاز وأهمها ما يلى [٥٤]:

أولا : زيادة الأموال التى كانت تدفع للقبائل العربية القاطنة على طول طريق الحج .

ثانيا : رصد المبالغ الطائلة الاصلاح الحرمين الشريفين .

ثالثا: إنشاء سكة حديد الحجاز . وكان السلطان قد أعلن فى ابريل عام ١٩٠٠ إلى العالم الاسلامى عن عزمه على بناء خط حديدى من دمشق إلى الاراضى المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة وأهاب بالمسلمين فى شتى أرجاء العالم أن يكتتبوا بأموالهم لهذا المشروع وحرص السلطان على أن يكون على رأس قائمة المكتتبين فاكتتب بما قيمته ربع مليون دولار وفى عام ١٩٠٤ بلغ قيمة ما جمع من تبرعات من العالم الاسلامى زهاء ثلاثة ارباع مليون دولار وفضلا عن ذلك فقد أمر السلطان بخصم ما قيمته ١٠٪ من مرتبات جميع موظفى الدولة المدنيين والعسكريين لمصلحة المشروع ويقدر مجموع الأموال التى جمعت أخيرا للمشروع بحوالى خمسة عشر مليون دولار ومع أن المهندسين الذين اشرفوا على المشروع الذى بدئ العمل به فى ربيع ١٩٠٠ كانوا من الايطاليين رلا أن الذين قاموا بالدور الاكبر فى بناء الخط الحديدى كانوا من جنود الجيش والفلاحين وفى وقت من الأوقات بلغ عدد العاملين فى بناء الخط حوال سبعمائة الف شخص وفى ٣١ / ٨ / ١٩٠٨ أى فى عيد

جلوس السلطان الثانى والثلاثين وصل الخط الحديدى إلى المدينة المنورة . وبذلك قدم السلطان عبد الحميد خدمة كبيرة لحجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم إلى الأراضى المقدسة وبذلك ظهر امام ثلاثمائة مليون من المسلمين فى ثوب الخليفة الذى هو الرئيس الوصى للدين الاسلامى وقدم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى وغيرته الدينية ببناء سكة حديد الحجاز وأصبح السلطان عبد الحميد حائزا على خضوع رعاياه له بشكل لم يسبق له مثيل فباتوا نتيجة هذا الخضوع راضين عن حكمه ، كما نجح السلطان فى ايجاد وسيلة فعالة للنقل البرى إلى الجزيرة العربية وأن هذا الطريق البرى قد فاق الطريق البحرى عبر قناة السويس من ناحية السرعة والسهولة فقد كان الطريق البحري يستغرق حوالى اثنى عشر يوما ساحل الشام إلى الحجاز فى حين كان الطريق البرى لايستغرق سوى أربعة أو خمسة أيام على الأكثر وعلاوة على ذلك الدولة العثمانية لم تكن تملك وقتئذ الكثير من السفن الصالحة التى يمكن الاعتماد عليها لتنفيذ سياسة عبد الحميد الثانى العسكرية فى الجزيرة العربية وعلى العموم فقبل أن يصل الخط الحديدى إلى المدينة المنورة عام ١٩٠٨ كان الشريف عون الرفيق قد قضى نحبه منذ عام ١٩٠٥ فتولى شرافة مكة أحد أقربائه وهو على بن عبدالله بن محمد بن عون (١٩٠٥-١٩٠٨) الذى ترك الحجاز ليعيش فى مصر بعد ثورة ١٩٠٨ فى تركيا وعين الباب العالى بدلا منه فى شرافة الحجاز الشريف عبدالإله وهو أخ لعون الرفيق ولكنه كان مسنا توفى فى استانبول قبل أن يتسلم الشرافة فعلا .

نجم عن وفاة الشريف عبد الإله ان صار كل من الشريف الحسين بن على والشريف على حيدر يبذلان قصارى جهدهما فى المسعى لدى الباب العالى للظفر بمنصب شرافة الحجاز وكان الشريف على حيدر ، هو حفيد الشريف عبدالمطلب بن غالب من ذوى «زيد» يرى أنه أحق بالشرافة من الحسين بن على وجدير به أن يرجعها إلى ذوى «زيد» أما الحسين بن على فكان يقيم مع اسرته فى استنابول منذ عام ١٨٩٣ اقامة من قبل السلطان عبد الحميد ، ويروى الشريف عبدالله بن الحسين فى مذكراته ما قام به من أجل اعطاء الشرافة لأبيه الحسين فيقول: « سعيت أنا لدى والدى لمطالبة بحقه من الامارة من حيث أنه الاحق الأكبر فاقنعته بعد جهد وقبل تسطير مذكرة بهذا الطلب إلى السلطان بوساطة الصدر الاعظم كامل باشا وكانت المذكرة كما يلى :

«بناء على وفاة عمى الشريف عبدالإله بن محمد امير مكة بعد عزل ابن عمى الشريف على بن عبد الله بن محمد وخلو مقام الإمارة ولكونى أسبق العائلة الهاشمية واحقها بمقام الآباء استرحم جلالة السلطان أن يتكرم بايصالى إلى حقى الذى لايخفى على جلالته مع صداقتى واخلاص » . وأخذت المذكرة بنفس وذهبت بهاإلى الصدر الأعظم كامل باشا ودفعتها إليه (ثم) كتبت برقية إلى مقام السلطنة قلت فيها «نظرا لشغور مقام الامارة الجليلة بمكة المكرمة ولكونى صاحب الحق فاننى انتظر من الاعطاف السنية السلطانية عدم حرمانى حقى وتعينى في مقام آبائي «وعنونتها بثلاثة عناوين للعرض على السلطان بوساطة الصدارة العظمى إلى الاعتاب السنية وبوساطة مشيخة الاسلام العليا إلى الاعتاب السنية وبوساطة رئيس كتاب القصر السلطانى إلى الاعتاب السنية» . وكان رجال الاتحاد والترقى يميلون بادى ذى بدء إلى اعطاء امارة مكة للشريف على حيدر ولكن ظروفا خاصة جعلتهم يختارون الحسين ، على الرغم من صداقته للسلطان عبد الحميد وكان من العوامل التى ساعدت الحسين بن على ، على تبوؤ شرافة مكة ما يلى (٥٥):

أولا : الوعود الكثيرة التى صار الحسين يبذلها للدولة بالوقوف إلى جانبها وخاصة بمقاومة الثائرين فى اليمن .

ثانيا : حاجة الاتحاديين إلى امير عربى قومى يبطش لهم بالمعارضين فى الجزيرة العربية بعد أن خرج «آل الرشيد» عليهم بالرغم من ولائه السابق للدولة حتى اقتسم النفوذ فى الجزيرة العربية عدد من الامراء العرب الذين لايقيمون للدولة وزنا كبيرا .

ثالثا : حاجة الحكومة المركزية فى استانبول إلى أمير الحجاز لانجاح مشروع سكة حديد وحماية الخط من غارات القبائل العربية وكان هذا الخط قد وصل إلى المدينة المنورة عام ١٩٠٨ وأريد الآن مده إلى مكة المكرمة .

لتلك الأسباب مال الاتحاديون إلى جانب الحسين بن على فعينوه فى سبتمبر ١٩٠٨ أميرا على الحجاز ، ومنذ هذا الوقت حرص الشريف الحسين على اظهار ولائه للاتحاديين الذين أصبح لهم النفوذ الأعلى فى الدولة بعد عزل السلطان عبد الحميد الثانى عام ١٩٠٩ ومع أن الشريف حسين ناضل ضد تدخل هؤلاء فى شئون امارته إلا أنه صار يبذل قصارى جهده لتأييد نفوذ العثمانيين فى سائر الجزيرة العربية ويتحد معهم فى مناوأة اعدائهم والسبب فى

ذلك أن الحسين أراد أن يتخذ من ولائه الظاهر للاتراك ستارا يخفى وراءه سياسته الحقيقية التى كانت تدور حول توسيع سلطان حجاز على القبائل فى المناطق التى كانت قد تقلص نفوذها عنها ايام شرافة عمه عبدالله بن محمد عون (١٩٠٥-١٩٠٨) . وعلى ذلك فاستجاب لرغبة الدولة سير الشريف الحسين عام ١٩١٠ الحملات الى عسير ضد محمد الادريسى الذى تزعم الثورة بها ضد الاتراك وسير الشريف الحسين كذلك الحملات إلى وسط الجزيرة العربية وكانت تسانده قبائل الحجاز من «الحرب» و«عتبية» وغيرهم ومع ذلك فقد كانت علاقات الشريف الحسين بالاتحاديين آخذة فى التوتر ويرجع ذلك إلى سياسة الاتحاديين القائمة على المركزية الادارية الصارمة والغاء الامتيازات التى تمتعت بها من قديم امارة مكة فدأبوا على التدخل فى شئون الولايات وراح انصارهم فى الحجاز يعملون لتقييد سلطة الشريف ولما كان الأخير حريصا على دعم مركزه فى شرافة مكة ، وبقاء هذة الامارة فى «ذوى عون» فقد كانت سياسة الاتحاديين هذه كفيلة بأن تجعله منقلب على الدولة ويستعين عليها ببريطانيا التى لوحت له بامكانية تبوئه منصب الخلافة[٥٦] مقابل اعلانه الثورة على الاتراك وفى الوقت الذى كانت بريطانيا أجهضت قيام الدولة القومية العربية فى عهد محمد على وحافظت على الدولة العثمانية هاهى تحاول القيام بالدولة القومية العربية وتنهى الدولة العثمانية بعدما استنفذت قدراتها ولم تعد وجودها فى صالح بريطانيا وهذا ما تعمل به ضد الشريف الحسين وتسلط عليه جيرانه حتى لايكون عقبة فى طريقها لاقامة كيانات قطرية صغيرة .

قام الشريف الحسين بن على بالثورة العربية الكبرى فى ١٠ يونية ١٩١٦ على الاتراك وهى الثورة التى خدمت استراتيجية الحلفاء وأثناء الحرب العالمية الأولى وانتهت فى اكتوبر عام ١٩١٨ بتحرير الجزيرة العربية والعراق وبلاد الشام من الحكم التركى جماعة الاتحاد والترقى العلمانية .

سادسًا : التنافس الانجلو - عثمانى فى شرق الجزيرة العربية ١٨٧١-١٩١٦

تقدم العثمانيون إلى شرق الجزيرة العربية بعد استيلائهم على العراق وبخاصة البصرة التى خضعت لحكمهم المباشر عام ١٥٤٦ وقاموا بمحاولات من أجل طرد البرتغاليين من الخليج العربى دون جدوى فاكتفوا بالسيطرة على شرق الجزيرة العربية التى اعترف حكامها المحليون بدافع الرابطة الدينية بالولاء للدولة العثمانية ؛ ونظرا لأهمية الخليج العربى لوقوعه على أقصر الطرق المؤدية إلى الشرق فقد اهتمت به دول استعمارية أوربية أخرى استطاعت أن ترث المنطقة بعد نجاح اليعاربة العمانيون ليس فى تحرير عمان من البرتغاليين بل فى تعقبهم الهند ، وشرق افريقيا وكانت فى مقدمة الدول الاستعمارية بريطانيا بعدما أخذت تدعم نفوذها فى الهند وتبعد عنها منافسيها وبخاصة فرنسا عقب صلح باريس ١٧٦٢ ولقد فطنت حكومة الهند البريطانية إلى أهمية موقع الخليج العربى والبحر الأحمر وخطورتهما على الهند لقربه منها مما يعنى أهمية الجزيرة العربية خصوصا وأن الربع الأخير من القرن التاسع عشر شهد ظهور دول أوربية استعمارية أخرى كروسيا وألمانيا ومن هنا قام التنافس بين الدول الأوربية فى الوقت التى كانت قد اهملت الدولة العثمانية هذه المنطقة بسبب حالتها العامة عندما بدأت تتجه فى طريق الضعف إلى جانب بعد المنطقة عن مركز الدولة مما اتاح الفرصة للنشاط الأوربى وبخاصة البريطاني لأن ينفرد بالنفوذ فى اطراف الشرقية والجنوبية من الجزيرة العربية ، ولكن الدولة العثمانية لم تلبث أن تنبهت إلى أهمية هذه المنطقة وضرورة الاهتمام به خصوصا وأنه فى عام ١٨٦٩ افتتحت قناة السويس للملاحة وعين فى السنة ذاتها الوالى العثمانى النشيط مدحت باشا واليا على العراق مما دعا الحكومة العثمانية إلى اتباع سياسة نشطة فى المنطقة ، وقد مرت هذه السياسة العثمانية باطوار متعددة تختلف من حين لآخر وتختلف من اقليم لآخر من اقاليم الجزيرة العربية واماراته ومشيخاته خصوصا وأنها واجهت النفوذ البريطانى الزاحف على امارات ومشيخات شرق الجزيرة العربية وتابعت تلك السياسة العثمانية حتى نشوب الحرب العالمية الأولى .

جردت بريطانيا حملتين عسكريتين ضد ساحل عمان فى عامى ١٨٠٦ و ١٨٠٩ ورغم قوة الاسطول البريطانى فان سكان ساحل عمان بامكاناتهم المتواضعة وبايمانهم القوى بحقوقهم وتصميمهم على حماية هذه الحقوق استطاعوا الصمود ومجابهة الاسطول البريطانى مما أدى إلى فشل هاتين الحملتين فى تحقيق أغراضهما فى القضاء على المقاومة العربية ولم

يكد يمضى وقت طويل على حملة ١٨٠٩ حتى عاد سكان ساحل عمان إلى التصدى للسفن البريطانية وعندئذ قررت السلطات البريطانية وضع حد لهذه القوة التى باتت تفرض نفسها بوضوح وتشل حركة الاسطول البريطانى فاتجهت سلطات الهند البريطانية إلى التحالف مع محمد على ولكنه رفض ومن ثم اتجهت إلى التحالف مع سلطان عمان الذى وجدت فيه خير حليف مستعد لتقديم المساعدة التى تطلبها منه بريطانيا لكى يعيد ساحل عمان الى عمان بعدما انفصلت عنه وإيجاد الوحدة العمانية كما كانت فى عهد دولة اليعاربة ولكن اختلف الاسلوب وذلك بالاعتماد على بريطانيا التى عارضت ذلك بعدما حققت هدفها من القضاء على مقاومة ساحل عمان عندما جردت حملة عسكرية مشتركة مع سلطان عمان فى عام ١٨١٩ ضد ساحل عمان وتمكنت هذه الحملة من تدمير المعاقل الرئيسية للمقاومة العربية برغم استبسال سكان ساحل عمان فى الدفاع عن مواقعهم مما نجم عنه انهاء هذه المقاومة العربية التى طالما ارهقت الأسطول البريطانى فى الخليج العربى وفرضت بريطانيا بالتالى «المعاهدة العامة» عام ١٨٢٠ على شيوخ القبائل فى ساحل عمان وبموجب هذه المعاهدة اصبح لبريطانيا حق معاقبة كل من يعمل فيما أسمته «بالقرصنة» بعقوبات صارمة تصل إلى الموت وبعد أن فرغت بريطانيا من ساحل عمان أخذت تعمل على تثبيت نفوذها وفى هذا السبيل وجدت فى تجارة الرقيق التى كانت قائمة فى المنطقة فرصة للتدخل فبدأت فى فرض المعاهدات على عمان وساحل عمان وذلك بحجة منع هذه التجارة : على حين كانت تلك المعاهدات فى حقيقتها معاهدات تفرض السلطة البريطانية على عرب عمان وساحل عمان والبحرين وبالتالى تنفى الصفة الانسانية التى ادعت بريطانيا أنها الدافع لمحاربة هذه التجارة وبذلك فرضت بريطانيا معاهدة عام ١٨٢٢ على عمان ومعاهدة عام ١٨٣٩ على شيوخ القبائل فى ساحل عمان ثم معاهدة عام ١٨٤٥ على عمان ومعاهدة عام ١٨٤٧ على ساحل عمان وقد حصلت بريطانيا بموجب المعاهدة الأخيرة على حق تفتيش السفن والقبض على التى تعمل منها بتجارة الرقيق ، كما وأن النزاعات بين القبائل العربية البحرية فى ساحل عمان أثناء موسم صيد اللؤلؤ كانت تشكل مصدر قلق للسلطات البريطانية لما قد ينتج عنها من القيام بأعمال قرصنة قد تمتد إلى السفن البريطانية فسارعت إلى فرض نظام الهدنة البحرية على شيوخ قبائل ساحل عمان فعقدت هدنتين بحريتين بينهم فى عامى ١٨٣٥ و ١٨٤٣ ومن ثم راحت السلطات البريطانية تمهد الطريق امام اقامة معاهدة دائمة

حتى تمكنت من ذلك وفرضت على المشايخ معاهدة السلام الدائم عام ١٨٥٣ التى اصبحت بريطانيا بموجبها المشرفة الفعلية على شئون عمان وساحل عمان (٥٧).

١- التنافس الانجلو - عثمانى فى ساحل عمان

برز التنافس الانجلو - عثمانى فى ساحل عمان بعد حملة مدحت باشا للاحساء عام ١٨٧١ وقد كان لمشكلة «خور العديد» دور رئيسى فى اثارة هذا التنافس حيث كانت قبيلة «القبيسات» قد سكنته عامى ١٨٣٥ بعد أن انشقت عن قبائل ابوظبى ثم مرة ثالثة عام ١٨٦٩ ولم تأخذ بريطانيا اهتمامها فى المرتين السابقتين ؛ ولكن الاهتمام البريطانى بهذه المنطقة جاء بعد وصول حملة الاحساء العثمانية إلى سواحل قطر واتخذ طابعا مميزا بعد محاولات حاكم « خور العديد» بطى بن خادم ربط بلاده بقطر مما آثار المخاوف البريطانية من أن يؤدى ذلك إلى تغلغل النفوذ العثمانى عبر العديد إلى ساحل عمان فسارعت السلطات البريطانية إلى مجابهة الموقف وذلك بان اتصل المقيم السياسى فى الخليج العربى بحاكم أبوظبى وأبلغه بان بريطانيا تؤيد حقه فى «العديد» وفى الوقت نفسه ابلغ حاكم العديد بأنه هو ورعاياه يتبعون أبو ظبى وعليهم أن يعلنوا ذلك حتى لايضطروا شيخ ابوظبى إلى تحقيق ذلك بالقوة ، والواقع أن حملة الاحساء العثمانية قد تركت اثرا كبيرا على تفكير رجال السياسة البريطانين الذين رأوا فيما وصلت إليه الحملة بوادر خطر يهدد الوجود البريطانى على ساحل عمان وعمان والبحرين ، وعلى ذلك لم يترك البريطانيون فرصة دون انتهازها فى تنبيه السلطات العثمانية إلى الاتفاقيات المبرمة بين بريطانيا وهذه الامارات وحرص بريطانيا على منع أى نفوذ اجنبى من التقدم نحوها ورغم ذلك كله فلم يكن الساسة البريطانيون ليطمئنوا لنيات العثمانيين بل بقى الشك يخالج نفوسهم رغم التنظيمات العثمانية ولكن السلطات العثمانية عملت على انشاء مخافر عسكرية فى «العديد» عام ١٨٩٦ فأحتجت بريطانيا على ذلك إذا اعتبرته تعديا على حقوق شيخ ابوظبى مما جعل العثمانيون يتراجعون عن هذا العمل امام اصرار بريطانيا على عدم الاعتراف به غير انهم أعادوا الكرة فى عام ١٩٠٢ بمحاولة ضم «العديد» إلى قطر وفشلوا فى ذلك مرة أخرى امام الاعتراض البريطانى عندئذ ادركت بريطانيا أنه لابد من تأكيد حق شيخ ابوظبى فى «العديد» فاعلنت عام ١٩٠٥ أن «العديد» من ممتكلات ابوظبى ولايحق لأية قوة الاعتداء على هذا الحق بيد أن ذلك لم يضع حدا لهذه المشكلة بشكل نهائى إذ أن السلطات العثمانية لم تعترف بهذا

الاعلان بل بقيت تعمل على تقويض النفوذ البريطاني حتى تمكنت من السيطرة على «العديد» في عام ١٩١٠ فاحتجت بريطانيا بشدة على ما قام به العثمانيون دون أن يغير ذلك من الوضع القائم شيئا بل بقي الأمر كذلك حتى عام ١٩١٣ حين تم وضع مشروع الاتفاقية «الانجلو - عثمانية» والذى وافقت الحكومة العثمانية بموجبه على الانسحاب من «العديد» واعطت الحرب العالمية الأولى الفرصة لبريطانيا لطرد كل أثر للنفوذ العثماني في المنطقة (٥٨).

أدركت بريطانيا أبعاد الخطر العثماني على نفوذها في ساحل عمان بعد حملة الاحساء ومشكلة «خور العديد» مما جعلها تتجه في تفكيرها إلى زيادة القيود على شيوخ ساحل عمان علها بذلك تبعد هذا الخطر الذى بات يقترب منها وفي الواقع أن هذا الاسلوب في السياسة البريطانية ليس جديدا فقد اتبعته بريطانيا منذ وطئت اقدامها المنطقة واعطت نفسها بموجبه حق التدخل في الشئون الداخلية والخارجية للمشيخات العربية ولقد ساعدها في ذلك التفكك الذى خلفته في المنطقة وتشجيعها للنزاعات القبلية فأذكت بذلك مشاعر الخوف في نفوس الشيوخ من بعضهم البعض ، ولم تترك لهم الفرصة حتى يتفرغوا للتفكير في الخطر الحقيقي وهو الوجود البريطاني بل استطاعت اقناعهم بان كلا منهم مدين ببقائه في مركزه للدعم البريطاني الذى يبعد عن كل منهم اطماع الآخرين من جيرانه والقوى الأخرى وبصورة خاصة الدولة العثمانية ودرجت بريطانيا على تقييد شيوخ ساحل عمان بين حين وآخر باتفاقيات بحجة معالجة قضايا معينة على حين كانت في واقع الأمر تنفذ سياسة مرسومة لتأكيد استعمارها وعلى هذه المنطقة ، ففي عام ١٨٧٣ فرضت عليهم تجديد معاهدة محاربة تجارة الرقيق بحجة أنه نمى لعلمها أن تجارة الرقيق ما زالت قائمة في ساحل عمان ولم يمضى وقت طويل على ذلك حتى احست بريطانيا بان الاضطرابات التى تسود ساحل عمان بسبب هروب بعض رعايا احد الشيوخ إلى مشيخة اخرى وخاصة أولئك المدينين نتيجة للعمل في صيد اللؤلؤ وما كان يؤدى إليه ذلك من صراع بين المشيخات احست بريطانيا أن ذلك من شأنه أن يؤدى إلى التأثير على تجارتها فوضعت حدا لذلك في عام ١٨٧٩ بأن اعطت نفسها الحق في التدخل في كل ما من شأنه تعكير صفو البحرى عن طريق المقيم البريطاني وبذلك بقيت بريطانيا تمهيد لفرض الحماية على ساحل عمان حتى كان لها ذلك عام ١٨٩٢ بعد أن ازداد النشاط العثماني وتم توقيع شيوخ في ساحل عمان على المعاهدة في شهر مارس

١٨٩٢ تعهد بموجبها كل منهم عن نفسه وبالنيابة عن ورثته وخلفائه بما يلى أولا : أن لا يدخل فى أية اتفاقات أو مراسلات مع أية قوة أخرى غير الحكومة البريطانية . ثانيا : ألا يسمح لأى وكيل لأية دولة غير بريطانيا بالاقامة فى ممتلكاته بدون موافقة الحكومة البريطانيا ثالثا: ألا يؤجر أو يبيع أو يرهن أو يسمح باحتلال أى جزء من ممتلكاته إلا للحكومة البريطانية . وبتوقيع هذه المعاهدة التى سميت بالمعاهدة المانعة انتقلت العلاقات البريطانية بساحل عمان إلى مرحلة جديدة إذ فقدت كل مقومات الاستقلال واصبحت خاضعة كلية للسيطرة البريطانية وبقيت على هذا الوضع حتى خروج بريطانيا من المنطقة عام ١٨٧١[٥٩].

٢- التنافس الأنجلو - عثمانى فى قطر والبحرين

استهدفت الحملة العثمانية على الاحساء مد سلطان الباب العالى على الساحل الغربى من الخليج العربى بامتداد شرق الجزيرة العربية من الكويت حتى مسقط جنوبا وكان ضمن ذلك قطر التى وصلتها حملة عثمانية يقودها شيخ الكويت عبدالله الصباح عام ١٨٧١ ومعها الرايات العثمانية التى قبلها الشيخ قاسم بن ثانى مبررا بأن خضوعه للعثمانيين سيجعله آمنا فى البر لأن الدولة العثمانية قوة برية عظيمة وأن الحكومة البريطانية أخفقت فى تحقيق العدالة لرعاياه فى أكثر من حادثة من حوادث السلب والنهب ، وفى أواخر يناير ١٨٧٢ تحولت قطر إلى قائمقامية تتبع لواء الاحساء الذى يحكمه متصرف يرجع فى أموره إلى والى البصرة، منذ مجئ حملة مدحت باشا على الاحساء تحاول الدولة العثمانية ادخال البحرين ضمن نشاطها باعتبارها من توابع «سنجق نجد العثمانى» لولا معارضة الحكومة البريطانية وكان النشاط العثمانى إزاء البحرين يتخذ بعض المظاهر غير الصريحة مثل محاولة بناء مستودعات للفحم أو تشجيع بعض شيوخ البحرين الخارجين مثل ناصر بن مبارك أو تجنيد البحرينين فى العراق ولم تكف الدولة العثمانية عن محاولة اثبات وجودها فى البحرين ففى مايو ١٨٧٩ ابرق القنصل البريطانى فى بغداد بأن الحكومة العثمانية تعتزم اقامة مخزن للوقود فى البحرين لتموين بواخرها فى الخليج العربى وكانت وزارة الهند ترى أن هذا الأمر سيزيد الوضع تعقيدا فى شئون الخليج العربى فطلبت من الخارجية البريطانية سرعة الاتصال بالباب العالى لوقف هذا المخطط وقد عللت السلطات العثمانية فى ١٦ يونيو ١٨٧٩ انشاء

مستودع الفحم بانه يدخل ضمن العمل على الحفاظ على أمن الخليج العربى وهو الأمر الذى يتفق مع ومصالح بريطانيا حيث أن ضرب القرصنة فى المياه العثمانية فى الخليج العربى يقتضى تواجد سفنها فى المنطقة وأن العثمانيين إذا لم يقيموا هذا المخزن فى البحرين فسيكون على السفن العثمانية أن تتجه إلى البصرة للتزود بالفحم وأن فى ذلك مضيعة للوقت والجهد ، ولكن بريطانيا اصدرت تعليماتها إلى مقيمها فى الخليج العربى يمنع حاكم البحرين بتشيد هذا المخزن إلا بموافقة الحكومة البريطانية وحصل المقيم البريطانى على تعهد من حاكم البحرين بهذا المعنى فى يونيو ١٨٧٩ وكان هذا أولى بذور الاتفاقيات المانعة التى بدأت فى البحرين وتدرجت تحت النفوذ البريطانى الذى بدأ واضحا حتى فى السياسة الداخلية وذلك حينما صدرت الأوامر لمساعد المقيم السياسى البريطانى فى ١٨٧٩ بالاقامة فى البحرين ومعه فرقة من المشاه ليخمدوا بعض الاضطرابات الاهلية وكان المقيم السياسى البريطانى يرى أن وضع البحرين رسميا تحت حماية بريطانيا هو أفضل وسيلة لمنع العثمانيون من ضمها وقام المقيم البريطانى فى ٢٢ / ١٢ / ١٨٨٠ باستصدار تعهد من حاكم البحرين التزم بموجبه بان يمتنع هو وخلفاؤه عن الدخول فى مباحثات أو ابرام معاهدات مع أية حكومة أو دولة غير بريطانيا بدون موافقة الحكومة البريطانية ورفض السماح لأية حكومة أخرى بتأسيس وكالات قنصلية أو دبلوماسية أو مستودعات فحم فى أراضى البحرين إلا بموافقة الحكومة البريطانية وتم التصديق عليه من جانب الحكومة البريطانية فى عام ١٨٨١ ، ولقد عانت حكومة الهند البريطانية من احتجاجات العثمانيين على ايقاف بناء مخزن للوقود العثمانى فى البحرين لكى يتخذه العثمانيون أساسا لتوسيع نفوذهم السياسى فى البحرين خصوصا وأنهم كانوا لايزالون يتعاملون مع ابناء ناصر بن على الخليفة الذين كانوا يطمعون فى حكم البحرين تحت العلم العثمانى ، وفى ١٣ / ٣ / ١٨٩٢ عملت بريطانيا على تأكيد الاتفاقية السابقة مع ادخال التزامات جديدة على اتفاقية ١٨٨٠ وذلك بسبب تدخل العثمانيين والشيوخ التابعين لهم فى فترات متقطعة فى شئون البحرين حين ظهرت شائعة بان هناك هجوما عثمانيا وشيكا على البحرين واخطرت لندن الحكومة العثمانية بأنها ستواجه بالقوة أية محاولة للعثمانيين لبلوغ البحرين ، واضافت بريطانية فقرة ثالثة وهى «ألا يتنازل حاكم البحرين بأية حال أو يبيع أو يرهن أو يسمح باحتلال أى جزء من أراضيه إلا للحكومة البريطانية » وهكذا فان هاتين المعاهدتين منحتا بريطانيا سلطة كافية لمناوأة مطالب

العثمانيين وجعلت البحرين تابعا تبعية مطلقة لبريطانيا ومما أكد تلك التبعية أن نفس الاجراءات تمت مع ساحل عمان التى التزمت باتفاقيات المانعة مع بريطانيا مما أدى إلى ايجاد امارات تحت الحماية البريطانية فى المنطقة(٦٠) .

استمرت محاولات العثمانيين لمد سيطرتها على البحرين وذلك بمساعدة القبائل العربية التى كانت تقوم بتجارة السلاح مما أدى ببريطانيا بمنع دخول الاسلحة الى البحرين أو خروجها وسمح حاكم البحرين للسفن البريطانية بتفتيش السفن التى تعمل فى تجارة الاسلحة فى مياه البحرين ولتأكيد سيطرة بريطانيا الفعلية عينت عام ١٩٠١ مستشارا بريطانيا إلى جانب حاكم البحرين بالاضافة إلى عدد من الجنود يتبع حكومة الهند كما تم تزويد الوكيل البريطانى بصلاحيات واسعة ، ولم تفلح السياسة النشطة التى اتبعتها الدولة العثمانية فى الخليج العربى فى تحقيق اهدافها بالكامل برغم ما كان لها من سند قانونى وتعلق مشاعر الاهالى بها فى بعض المناطق فقد كان للنشاط العثمانى رد فعل قوى لدى بريطانيا مستخدمة الاتفاقيات التى كبلت بها شيوخ المنطقة واستعراض القوة الذى كانت تقوم به من حين لآخر مع تقديم الاحتجاج تلو الاحتجاج إلى السلطات العثمانية وذلك من اجل الحيلولة دون دعم النفوذ العثمانى فى الخليج العربى سواء بكسب ولاء بعض الشيوخ أو باقامة بعض الحصون «الفاو» أو بتعزيز اسطولها فى المنطقة وفى بعض الاحيان كانت بريطانيا تحاول اثارة ايران للوقوف إلى جانبها ، ومن جهة أخرى لم يعقب مدحت باشا فى ولاية العراق ولاة بنفس درجة حماسه لمتابعة النشاط العثمانى بل أن الحكومة العثمانية فى الآستانة والتى كان يرأسها محمود نديم والتى جاءت بعد تحمس حكومة عالى باشا لم تكن هى الأخرى متحمسة للمشروع عالى باشا له هذا بالاضافة إلى المشكلات التى كانت تواجهها الدولة العثمانية فى أوربا كل هذا أدى إلى تراجع الدولة العثمانية عن نشاطها لتأكيد سيادتها فى المنطقة بينما بريطانيا تتقدم تحت ستار محاربة اعمال القرصنة التى كانت تدعى أنها تنطلق من ساحل الاحساء (٦١).

٣- اتفاقية الانجلو - عثمانية ١٩١٣ لتقسيم النفوذ فى الجزيرة العربية

رأينا كيف أن الدولة العثمانية قد نشطت منذ عام ١٨٧٠ فى محاولاتها مد سيادتها على مشيخات الخليج العربى المختلفة على ساحل الشرقى من الجزيرة العربية يساعد فى ذلك الرابط الدينى الذى يربط سكان هذه المنطقة بالعثمانيين ؛ غير أن مصالح بعض الشيوخ كثيرا ما كانت تتعارض وأهداف العثمانيين مما جعل بريطانيا تستغل مثل هذه الامور لتزيد من نار الخلافات اشتعالا وتحاول فرض سيطرتها مستعملة شتى الوسائل فتارة بالترغيب والحماية وأخرى بالتهديد بالقوة إذ أن النفوذ العثمانى كان يشكل أكبر خطر يهدد النفوذ البريطانى والمصالح البريطانية فى المنطقة وبالتالى فقد كان هذا الخطر هو الشغل الشاغل للساسة البريطانيين فلم يتركوا فرصة سانحة لدحر النفوذ العثمانى إلا واستغلوها احسن استغلال ؛ وعندما ظهرت بوادر الضعف العثمانى فى أوائل القرن العشرين سارعت بريطانيا إلى العمل بكل جهد لتطويق العثمانيين فى شرق الجزيرة العربية توطئة لإخراجهم من هذه المنطقة الحيوية ذات الأهمية الاستراتيجية للمصالح البريطانية وبقيت تعمل على هذا المنوال حتى وصلت إلى بداية الطريق لتحقيق ما كانت تصبو إليه وذلك فى عام ١٩١١ حين اضطرت الدولة العثمانية تحت وطأة ظروفها الداخلية والخارجية إلى فتح باب المفاوضات مع بريطانيا لإنهاء المشاكل المعلقة بينهما فى المنطقة خاصة مسألة خط حديد بغداد ومناطق النفوذ المتنازع عليها ولقد طال امد هذه المفاوضات حيث استمرت من عام ١٩١١ إلى عام ١٩٠٨ قام بعض الضباط العثمانيين من جماعة الاتحاد والترقى ذات الميول المتطرفة إلى العلمانية والقومية التركية بالاطاحة بالسلطان عبد الحميد الثانى وكان لمعظم هؤلاء الضباط ميول المانية وكان الحماس يدفعهم لتقوية النفوذ العثمانى فى شرق الجزيرة العربية وذلك بضم امرائه العرب إلى الجامعة الاسلامية التى كان يدعو لها من قبل السلطان عبد الحميد فأثار هذا الحماس مخاوف السلطات البريطانية التى كانت قد قررت أن تتخذ مواقف صلبة ضد تقوية النفوذ العثمانى فى الجزيرة العربية وقد اتضح ذلك فى تصريحات نائب الملكة فى الهند ووزير الخارجية البريطانى اللذين أكدا فى أكثر من تصريح بأن السلطات البريطانية لن تقف مكتوفة الأيدى أمام أية محاولات للأتراك فى توسيع مناطق نفوذهم مهما كلف ذلك من ثمن ومما زاد فى مخاوف بريطانيا تلك العلاقات الحميمة التى كانت قائمة بين تركيا وألمانيا لما يمكن أن تؤدى إليه هذه العلاقات من حصول المانيا على امتيازات من تركيا فى

شرق الجزيرة العربية وهذا سوف يزيد الموقف تعقيدا وبالتالى تصبح امام خطر محدق بمصالحها فى المنطقة (٦٢).

اتجهت سياسة الاتحاديين نحو تقوية السيطرة العثمانية فى شرق الجزيرة العربية فأفدوا موظفيهم للعمل على اضعاف سلطة الشيوخ فى المنطقة وجذبه نحو فكرة الجامعة الاسلامية كما تحمسوا لتدعيم النفوذ العثمانى فى العراق فقد كتب اسماعيل حقى مبعوث الدولة العثمانية إلى بغداد عدة تقارير ترسم صورة سيئة للمنطقة وقبائلها وكان أبرز هذه التقارير الذى نشر فى جريدة «طنين» فى ٢٨ / ١٢ / ١٩١٠ وفيه ابرز وضع البريطانيين فى الكويت وعلاقتهم بشيخ المحمرة وعبر فيه أيضا عن استيائه وكرهه للبريطانيين وأوصى بضرورة قمع تجارة السلاح التى تمارس تحت علم السلطات البريطانية التى كانت تتساهل فى مرور تلك التجارة يستخدمها السكان فى الثورة ضد الاتراك وكانت كتابات اسماعيل حقى تعبر عن انعدام تام للثقة فى أهداف بريطانيا واطماعها فى العراق ؛ وكان يرى ضرورة استخدام القوة الصارمة ضد القبائل العربية وارغامهم على اعلان ولائهم للدولة بفرض الضرائب عليهم وتجنيدهم فى الجيش التركى لأن تلك التصرفات كانت سيؤدى حتما إلى تجدد النزاع البريطانى - العثمانى الذى أخذ فى التصاعد حينما قام الاتراك فى يوليو ١٩١٠ بارسال قوات عسكرية من البصرة لتعزيز مواقعهم الدفاعية فى الاحساء فى جزيرة «الزخنونية» ورفع العلم العثمانى ، وقد أثار هذا العمل احتجاج السلطات البريطانية وقدم السفير البريطانى فى الآستانة إلى الباب العالى احتجاجا جاء فيه أن هذه العمليات من شأنها أن تؤدى إلى اضطرار بريطانيا لاتخاذ اجراءات حاسمة لمجابهة الموقف غير أن هذا الاحتجاج لم يثنى السلطات العثمانية عما هى سائرة فيه ولم تعبأ باعتراضات الحكومة البريطانية إذا استمر والى البصرة يعزز الحاميات العسكرية فى «جزيرة الزخنونية» باعتبارها مقاطعة عثمانية وأنكر على القنصل البريطانى حقه فى أن يناقش معه هذه المشكلة رسميا أو شخصيا كما أن العثمانين فى ردهم على الاحتجاج البريطانى ذكروا أن ظهور الجنود الاتراك فى هذه المنطقة أمر لازم لحفظ الأمن بين قبائل «الدواسر» الذين يترددون على الجزيرة واستمرت السلطات العثمانية فى البصرة فى التجهيز للامتداد بسيطرتها ويظهر اصرار هذه السلطات فى تقرير بعث به متصرف الاحساء إلى الباب العالى مؤكد أن السيادة العثمانية لاتمتد إلى الزخنونية فحسب بل الى جميع الساحل الواقع جنوب

شرقى «العقير» كما اتخذ والى البصرة خطوة أكثر جرأة بأن عمل على تعيين مديرين عثمانيين فى منطقة «العديد» و «الوكرة» و «الزبارة» وغيرها من المناطق المجاورة على ساحل قطر وكانت هذه الموانئ موضع منازعات سابقة بين حكام قطر وأبوظبى والبحرين أو بالاحرى بين السلطات البريطانية والسلطات العثمانية فى شرق الجزيرة العربية (٦٣)، ورفع السفير البريطانى فى الآستانة تقريرا لوزير خارجيته بين فيه مدى المخاطر التى باتت تهدد النفوذ البريطانى فى الخليج العربى «نتيجة للتحركات العثمانية وما ترمى إليه من التأثير على عرب المنطقة باستغلال النوازع الدينية وتقوية حامياتها العسكرية وخلص إلى أن اوصى بضرورة العمل لمجابهة الاخطار بهدوء بعيدا عن الضجة الاعلامية حتى لايؤدى ذلك إلى مزيد من التصلب من جانب العثمانيين وبذلك تزداد الامور تعقيدا ويصعب حلها (٦٤).

بدأ الموقف العثمانى فى هذه الفترة أيضًا يتغير نتيجة للمشاكل التى أخذت تعانى منها الدولة العثمانية مع الايطاليين فى ليبيا ومع روسيا فى البلقان إذ أخذ العثمانيون يميلون إلى تسوية نزاعاتهم مع بريطانيا سلما حتى يتفرغوا لمشاكلهم الأكثر أهمية وعلى ذلك فبعد أن انتهت الحرب البلقانية اتجهت الدولة العثمانية إلى فتح باب المفاوضات مع بريطانيا تلك المفاوضات التى امتد من عام ١٩١١ إلى عام ١٩١٣ ولقد كانت هذه المفاوضات شاقة فى كثير من مراحلها نتيجة للجدل الذى ثار بين رجال الساسة البريطانيين حول تحديد مناطق النفوذ العثمانى حتى تم التوصل إلى حصر هذا النفوذ ضمن الحدود التى كان عليها فى عام ١٨٧١ وذلك اعتمادا على تأكيدات الباب العالى آنذاك بأن العثمانيين لن يتدخلوا فى البحرين وعمان وساحل عمان وبعد أن تم الاتفاق فى الأوساط البريطانية على هذا الوضع قام السير «جراى» فى يوليو ١٩١٢ بتسليم السفير العثمانى فى لندن توفيق باشا رسالة جاء فيها شرح لوجهة النظر البريطانية بشأن الكويت وعمان وساحل عمان والبحرين حيث ذكرت السلطات العثمانية بالتصريح البريطانى لعام ١٩٠١ الذى كان قد لقى موافقة العثمانيين عليه الذى جاء فيه أن بريطانيا لن تحتل الكويت طالما التزمت تركيا بعدم ارسال قوات إليها وأن بريطانيا مستعدة للاعتراف بشيخ الكويت كقائمقام عثمانى شريطة أن تحترم الدولة العثمانية الاتفاقات المعقودة بين الكويت وبريطانيا وأما بالنسبة للمشيخات الأخرى فقد طالبت بريطانيا بالاعتراف العثمانى بحقها فى حراسة وحماية هذه المشيخات فرد توفيق باشا على هذه الرسالة مؤكدا حق بلاده فى السيادة على الكويت مستشهدا بأوضاع الامارة

وتبعيتها للدولة العثمانية منذ زمن طويل واما بالنسبة للعمان وساحل عمان وقطر والبحرين فقد أوصى فى رده أن من السهل التوصل إلى حل لموضوعاهما وقد كان هذا الردمشار جدل ونقاش فى أوساط الحكومة البريطانية ومن ثم بين المفاوضين البريطانى والعثمانى حتى تم أخيرا الاتفاق علي مشروع الاتفاقية الذى وقعه المفاوض العثمانى ابراهيم حقى باشا ناظر الخارجية العثمانية والمفاوض البريطانى السير «ادوارد جرى» وزير الخارجية فى ٢٩ يوليو ١٩١٣ ومما يجدر ذكره أن مما ساعد بريطانيا على فرض شروطها خشية العثمانيين من أن يتم الاتفاق بين بريطانيا والمانيا بخصوص سكة حديد بغداد دون علم الدولة العثمانية على غرار ما جرى بين المانيا وروسيا فى «مؤتمر بوتسدام» من تجاهل الدولة العثمانية[٦٥]هذا ما دفع بالعثمانيين إلى تقديم مزيد من التنازلات لبريطانيا خاصة فى موضوع «قطر» .

أثناء المفاوضات الدائرة بين بريطانيا والدولة العثمانية أعلن ابن سعود فى شهر مايو ١٩١٣ عن عزمه فى ادارة منطقة الاحساء مباشرة بدلا من العثمانيين الذين كان لهم حامية وقوات عسكرية فى جزيرة «الزخنونية» فى الاحساء وفى شهر يونيو نفس العام كتب ابن سعود إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى بيرس كوكس يقول : «اننا قد استولينا الآن على ارض آبائنا وأجدادنا الاحساء والقطيف وملحقاتهما ونظرا لما أكنه لكم من مشاعر الصداقة فاننى أرغب فى الاحتفاظ بالعلاقات كما كانت على عهد أسلافنا كما أعرب ابن سعود عن التزامه بالاتفاق الذى تعهد فيه بعدم مهاجمته أو تعرضه للدول الساحلية المتحالفة مع الحكومة البريطانية » واستطرد ابن سعود فى رسالته يقول : «وانى لأرغب فى الاحتفاظ بالعلاقات وبنفس الأسس التى قامت عليها بينكم وبين اسلافنا وهذا ما دعانى إلى الكتابة اليكم » . وعند توقيع اتفاقية الانجلو - عثمانية لعام ١٩١٣ فى ٢٩ يوليو بين تركيا وبريطانيا تم الاتفاق على سحب القوات العثمانية من قطر بمجرد التصديق على المعاهدة استمرت القوات العثمانية فى مراكزها فى الاحساء وفى شهر اكتوبر عام ١٩١٣ تقدمت وزارة الخارجية إلى حكومة الهند بالاقتراح التالى : «يجب أن يقوم السير برس كوكس بابلاغ ابن سعود الذى لابد وأنه يقدر مضمون هذه الرسالة بأننا عازمون على تنفيذ الاتفاقية المعقودة مع الدولة العثمانية بمجرد التصديق عليها وأن حكومة صاحب الجلالة تتوقع أن يتم التصديق عليها قبل انتهاء العام واستطردت المذكرة التى ارسلت التعليمات

إلى الهند يوم ٤ نوفمبر وجاء فيها « أن على كوكس أن يبلغ ابن سعود إذ اثار هذا الموضوع بأن الاتفاقية الانجلو - عثمانية سوف تدخل إلى حيز التطبيق بمجرد أن يتم التصديق عليها وبعث كوكس برسالة إلى ابن سعود فى ١١ / ٩ / ١٩١٣ جاء فيها : «لقد خولتنى حكومتى أن أوكد لكم بأن الحكومة البريطانية ستواصل الاحتفاظ بالعلاقات الودية التى كانت قائمة فى الماضى إذا تعهدتم من جانبكم بالامتناع عن أية اجراءات قد تعكر صفو الأوضاع القائمة أو تثير القلاقل بين الامارات العربية المرتبطة بعلاقات مع الحكومة البريطانية بما فى ذلك امارة قطر التى تم الاعتراف باستقلالها أيام حكومة المرحوم الشيخ قاسم وخلفائه من أسرة آل ثانى من جانب كل من الحكومتين التركية - والبريطانية »[٦٦].

وتنقسم الاتفاقية الانجلو - عثمانية لعام ١٩١٣ إلى خمسة اقسام كما يلى[٦٧] :

القسم الأول : الكويت

(مادة أولى) يعتبر الكويت قضاء مستقلا ضمن الحدود المبينة فى المادتين الخامسة والسابعة .

(مادة ثانية) يرفع شيخ الكويت كما كان فى السابق العلم العثمانى ويمكنه إذا أراد اضافة كلمة «كويت» فى زاويته وتمتنع الدولة العثمانية عن التدخل فى شئون الكويت الداخلية بما فى ذلك شئون الوراثة ولايحق لها أن تحتل أى جزء من املاك الكويت المحددة فى المواد اللاحقة ويحق لشيخ الكويت أن يعين وكلاء لرعاية مصالحه فى الولايات العثمانية .

(مادة ثالثة) تعترف الدولة العثمانية بالاتفاقيات المعقودة بين شيوخ الكويت والحكومة البريطانية فى ٢٣ / ١ / ١٨٩٩ ، ٢٤ / ٥ / ١٩٠٠ ، ٢٨ / ٢ / ١٩٠٤ ، ٢٤ / ١٠ / ١٩١١ .

(مادة رابعة) تتعهد الحكومة البريطانية بأن لا تعقد أى اتفاق جديد مع الكويت ولاتقوم باحتلالها طالما بقيت الدولة العثمانية ملتزمة بهذا الاتفاق .

(مادة خامسة) جعلت منطقة نفوذ شيخ الكويت على شكل نصف دائرى تتوسطها مدينة الكويت وأن يكون حدها الشمالى خور «الزبير» وحدها الجنوبى «القرين» ويتبعها جزر « و «ربة» و «بوبيان» و «فيلكه» و «عوهة» و «كبر» و«قارة» و «ام المرادم» ومياهها الاقليمية ويعنى هذا خروج «ام قصر» و «صفوان» من حدود الإمارة .

(مادة سادسة) كما أعطت هذه المادة لشيخ الكويت السيادة على القبائل الداخلة ضمن دائرة أخرى ملاصقة لتصف الدائرة الواردة ذكرها فى «المادة الخامسة» فيحق له جمع العشور وممارسة الحقوق الادارية فيها بصفته قائمقاما عثمانيا على أن لاتمارس الحكومة العثمانية أى عمل ادارى مستقل عنه ويعتبر البعض أن اعطاء هذه المنطقة صفة خاصة والحاقها بدائرة نفوذ شيخ الكويت جاء على أساس أن اغلب السكان فيها من قبائل البدو الرحل يتنقلون وراء الكلأ مع قطعانهم ولايمكن والحالة هذه تحديد تبعيتهم فى حدود سياسية ضيقة وقد قصد أيضا بهذه المادة تلافى اهمال الجانب الاجتماعى للقبيلة التى لها أكثر من مركز فى تلك الفيافى .

(مادة سابعة) وحددت هذه المادة حدود المنطقة المضافة إلى الكويت بخط يبدأ من الساحل عند مصب خور الزبير» ويسير إلى الشمال الغربى مارا بشكل مباشر جنوب «ام قصر» غرب البصرة على بعد ٢٥ ميلا و «صفوان» و «جبل سنام» غرب ناحية «صفوان» وهو تل منعزل على بعد خمسة أميال منها تاركا هذه الأماكن وآبارها لولاية البصرة وعند وصول خط الحدود إلى «الباطن» منخفض اراضى عمقه ١٨٠ قدما يمتد بين «الحفر» و «جبل سنام» باتجاه الجنوب الغربى إلى نقطة «حفر الباطن» حيث يتركها للكويت ينحرف الخط إلى الجنوب الشرقى تاركا للكويت آبار «الصفة» و «القرعة» و «الهبة» و «وبرة» و «اتنه» حيث يصل إلى البحر بالقرب من جبل «منيفة» واشير له بخط أخضر .

(مادة ثامنة) تناولت هذه الحكومتان العثمانية والبريطانية على الاسلوب اللازم لحمايته .

(مادة تاسعة) تنص هذه المادة على اعفاء املاك شيخ الكويت فى البصرة من الضرائب .

(مادة عاشرة) لن يسمح للمجرمين الفارين من الامارات المجاورة الالتجاء إلى الكويت بل سيتم طردهم وكذلك الامر بالنسبة للمجرمين الفارين من الكويت إلى الامارات المجاورة .

القسم الثانى : البحرين

(مادة ثالثة عشرة) تتنازل الدولة العثمانية عن جميع ادعاءاتها فى البحرين وتعترف باستقلالها ومن الجانب الآخر تعلن الحكومة البريطانية أنها لاتنوى ضم البحرين إلى ممتلكاتها .

(مادة رابعة عشرة) تتعهد الحكومة البريطانية بالزام شيخ البحرين أن لايفرض رسوما اضافية على الرعايا العثمانيين الذين يعملون بصيد اللؤلؤ .

(مادة خامسة عشرة) يعتبر رعايا شيخ البحرين المقيمون فى الأملاك العثمانية كأجانب ويرعى القناصل البريطانيون مصالحهم فيها .

القسم الرابع : الملاحة فى الخليج العربى

(مادة سادسة عشرة) تحترم الدولة العثمانية الجهود البريطانية لحراسة الملاحة فى الخليج العربى من «قطر» حتى المحيط الهندى لحماية مصالحها بصورة خاصة ومصالح البشرية بصورة عامة وتعترف كذلك بالتنظيمات التى اقامتها بريطانيا فى المنطقة كادارة الفنارات واعمال الشرطة البحرية والحجر فى الوقت نفسه تحتفظ الدولة العثمانية بحقوقها فى المياه الإقليمية والسواحل التابعة لها .

القسم الخامس : خاص بتشكيل لجنة الاقرار الحدود

توافق الحكومتان على تشكيل لجنة لدراسة الحدود التى تم تحديدها بموجب المادتين الخامسة والسابعة على الطبيعة لتقوم بوضع مخطط ومذكرة تفصيلية بها وبعد أن تم اعتمادها ستكون متممة لهذه الاتفاقية .

ركز ابن سعود اهتمامه فى الربع الأخير من عام ١٩١٣ أى بعد توقيع الاتفاقية الانجلو – عثمانية فى ٢٩ يوليو ١٩١٣ لتحسين علاقاته بالباب العالى ففى الاجتماع الذى عقده ابن سعود مع المعتمدين السياسيين البريطانيين فى البحرين والكويت فى «العقير» يوم ١٥ ديسمبر ١٩١٣ قدم لهما صورة من مسودة الاتفاق الذى تم بينه والباب العالى وقد عاد ابن سعود فكتب رسالة أخرى فى شهر ابريل إلى المعتمد السياسى البريطانى فى البحرين يقول فيها (٦٨):

«على ان احيطكم علما من جديد أنه فى يوم ١١ من الشهر الحالى سأصل إلى منطقة «الجبيل» وقد وصلتنى معلومات من المفوض العثمانى الذى وصل من الآستانة رأسا ويدعى بن باهى «اوبن باشى» السيد عمر فوزى بك المردينى وكان واليا على البصرة سابقا ووالى سوريا حاليا وهو يحمل رسائل وخطابات وقصده حسم المسائل المعلقة بيننا وبينهم ولقد وصل هذا الوالى إلى البصرة ويبدو أنه سيزور الكويت إذا لم يكن قد وصلها فعلا وهو لاشك سوف

يجتمع بى وانى سوف اقابله فى الكويت إذا شاء الله » . ولقد تمخضت مفاوضات ابن سعود مع الباب العالى عن اتفاق وقع بينهما فى ١٥ / ٥ / ١٩١٤ اعترف فيه بالسيادة العثمانية على نجد والاحساء كما وافق بموجب المادة الثانية من الاتفاق على قبول منصب والى العثمانيين فى نجد مدى الحياة ينتقل المنصب بعد وفاته إلى ابنائه ثم احفاده كما كان يدعى اجداده بالولاة العثمانيين السابقين وبموجب المادة الرابعة من الاتفاق اعترف ابن سعود للعثمانيين بحق مرابطة جيوشهم فى موانى «العقير» و «القطيف» وبمقتضى المادة السابعة وافق ابن سعود على رفع العلم العثمانى وبموجب المادة التاسعة تعهد بعدم التدخل أو الاتصال فيما يتعلق بالشئون الخارجية والمعاهدات الدولية أو منح امتيازات للأجانب فى البلاد . وبذلك تم فى اجتماع «الصبيحية» التوصل إلى اتفاق فيما يلى [٦٩]:

١- أن تبقى ولاية نجد تحت حكم ابن سعود ويخلفه فى حكمها ابناؤه بمقتضى فرمان سلطانى شريطة أن يظل مخلصا للحكومة العثمانية .

٢- أن يدير ابن سعود الجمارك والعوائد والموانئ والفنارات وذلك طبقا للأنظمة العثمانية.

٣- اعتراف ابن سعود للعثمانيين بحق مرابطة جيوشهم فى موانئ «العقير» و «القطيف» .

٤- يرسل إلى الأستانة عشر الايرادات المحلية والفائض من المعونة السلطانية .

٥- أن توجه طلبات الاسلحة إلى وزارة البحرية فى الآستانة .

٦- يرفع العلم العثمانى على المبانى والسفن .

٧- أن يكون اتصال ابن سعود بوزارتى الداخلية والحربية العثمانية راسا «مباشرة» .

٨- أن لايسمح للوالى والقائد المذكور «ابن سعود» بالمداخلة فى الشئون الخارجية أو المعاهدات الدولية أو منح امتيازات للأجانب .

١٠- اقامة مكاتب بريد فى ولاية نجد وتكون الطوابع عثمانية .

٧- فى حالة نشوب حرب بين الدولة العثمانية ودولة اجنبية إذا طلبت الحكومة من الوالى المذكور قوة تتعاون مع قواتها فعلى الوالى أن يعد قوة كافية بامدادتها ومؤنها ويستجيب للطلب فى الحال حسب قوته وامكاناته .

وصدر فى ٨ / ٧ / ١٩١٤ فرمان سلطانى منح فيه ابن سعود لقب باشا ولقب والى لنجد والاحساء ورد فيه «أن جلالة السلطان واثق من حمية ابن سعود وصدق عثمانيته وأنه يمنحه سلطة تجنيد الجنود وتسليحهم والمحافظة على الأمن والنظام فى بلاد العرب واجراء العدل بين القبائل واكتساب ولائها للعرش العثمانى» كما جاء فى الفرمان أيضًا على أن تنقل ولاية نجد بالوراثة بين أبناء عبد العزيز » واشترط الفرمان أن يبقى علم البلاد ومصلحة البرق والبريد والطوابع عثمانية وأن تتقاضى الدولة ربع صافى الايراد ات وتتعهد حكومة نجد بمؤازرة الدولة العثمانية فى جميع محنها ويقرر شفيق باشا والى البصرة فى مذكراته عن بلاد العرب » أن هذه التسوية كانت نموذجا صالحا لطريقة الحكم اللامركزى التى يجب أن تقررها الدولة فى بلاد العرب منذ وقت طويل » . وقد قبل ابن سعود الاتفاق برحابة صدر مع أنه لم يدفع للدولة شيئا من المال فيما بعد نظرا للعجز المالى الذى كانت تعانيه نجد على أن القوات التى قبلها ابن سعود كان سيحصل فى المقابل على ٢٥٠ ليرة عثمانية على اعتبار أنه حاكم الاحساء العثمانى وعليه القيام بتحصيل الرسوم الجمركية مقابل تسديد قيمة عشرها للحكومة العثمانية من هذه الرسوم وبما أن ابن سعود بمقتضى تلك المعاهدة اصبح واليا لنجد والاحساء فابمكانه الاتصال مباشرة بأنور باشا وزير الحربية العثمانى ووفاء عبد العزيز كان يملى عليه أن يبقى على عهده مع الدولة العثمانية فحاول تجميع الزعماء والامراء العرب للعمل تحت سلطان الدولة العثمانية بناء على رغبة والى البصرة العثمانى وقد اغضب ذلك طبعا الحكومة البريطانية وجعلها تبعث «شكسبير» لإفساد هذا المخطط . وهكذا حال ابن سعود دون الدخول فى صدام مع حكومة الاتحاديين كماحال دون تورط العثمانيين مع البريطانيين فقد يصل العثمانيون إلى حد التنازل للبريطانيين عن الاحساء فى المفاوضات التى كانت جارية بين الدولتين آنذاك فى لندن كما ضمن ابن سعود حسب اتفاقه مع العثمانيين مصدرا آخر للسلاح وكان العثمانيون حريصين على الوفاء به لاحتياجات ابن سعود من الاسلحة والذخائر [٧٠]. وبذلك تم تحديد الحدود الشرقية لولاية نجد العثمانى عن طريق الخط الازرق الذى جاء فى اتفاقية ٢٩ يوليو لعام ١٩١٣ يقول «اما الخط الذى يبدأ من اقصى اطراف الخليج العربى من «جزيرة الزخنونية» ويتجه مباشرة حتى جنوب الربع الخالى يفصل بين ولاية نجد العثمانى وشبه جزيرة قطر بالحدود الموضحة بالخط الازرق على الخرائط الملحقة بهذه الاتفاقية » اما حدود «ولاية نجد» مع الكويت فقد جاء فى المادة الثانية

«أن السنجق العثماني في نجد وحيث يوضح الحد الشمالي وفقه الخط التوضيحي الوارد بالمادة السابعة من هذه الاتفاقية «الكويت» ينتهي باتجاه الجنوب عند الخليج في مواجهة «جزيرة» زخنونية» التي تنتمي إلى سنجق نجد » [٧١].

سلم السفير العثماني في لندن في يوم ٩ يوليو ١٩١٤ مذكرة إلى زارة الخارجية البريطانية تؤكد تعيين ابن سعود واليا على نجد من قبل العثمانيين وقد جاء في هذه المذكرة:

«بموجب مرسوم» فرمان من السلطان العثماني» عين ابن سعود حاكما عاما وقائدا على نجد وسوف لايكون لابن سعود الحق في عقد معاهدات او الالتزام بأي تعهدات مع الدول الاجنبية وعليه في جميع الاحوال احترام المعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانية والدول الاجنبية الأخرى » . وبرغم أن الباب العالي كان قد وافق على اعتبار «الخط الازرق» الحدود الشرعية للممتلكات العثمانية في شرقي الجزيرة العربية التي تفصل بين سنجق نجد واالحساء العثماني عن الممتلكات البريطانية في كل من ابوظبي وعمان وحضرموت في صحراء الربع الخالي بموجب الاتفاقية الانجلو عثماني لعام ١٩١٣ إلا انه أكد تلك الحدود للمرة الثانية في الاتفاقية التي عقدها الباب العالي مع بريطانيا في الاتفاقية الانجلو - عثمانية لعام ١٩١٤ التي عقدت في ٩ مارس وهي اتفاقية جديدة للحدود تم بمقتضاها تخطيط حدود السيادة العثمانية في جنوب غربي شبه الجزيرة العربية وتتضمن إشارة محددة إلى الخط الأزرق الآنف الذكر ، وقد صدقت الحكومة العثمانية على هذا الاتفاق يوم ٥ يونيو ١٩١٤ ، اما الاشارة إلى الخط الأزرق فقد وردت في البند الثالث من الاتفاقية وتنص على أنه ابتداء من الجنوب الغربي الجزيرة العربية تتخذ حدود الاراضي العثماني خطا مستقيما يبد من «لقمة الشعب» في اتجاه شمالي شرقي صحراء «الربع الخالي» بميل قدره ٤٥ درجة ويلتقي هذا الخط في الربع الخالي على خط متواز ٢٠ درجة بالخط المستقيم والمباشر في اتجاه الجنوب الذي يبدأ من نقطة ما على الشاطئ الجنوبي من «خور العقير» الذي يفصل اقليم نجد العثماني عن أراضي قطر وذلك طبقا للبند الحادي عشر من المعاهدة الانجلو - عثمانية المعقودة بتاريخ ٢٩ / ٧ / ١٩١٣ «وأول هذين الخطين بين باللون البنفسجي أما الثاني فمبين باللون الأزرق على الخريطة ، وتم التصديق على اتفاقية ١٩١٤ بعد بضعة اسابيع من عقد ابن سعود معاهدته مع الباب العالي ولهذا فقد أصبح ملزما بهذه المعاهدة وبمراعاة «الخط الأزرق» الذي أتخذ صبغة قانونية بموجب اتفاقية ١٩١٤ لاسيما وأن الخط المذكور كان متفقا مع حدود

وسلطة ابن سعود فى المنطقة الشرقية من نجد وقد اشار هو بنفسه فى خطابه المؤرخ ١٣ / ٦ / ١٩١٣ إلى كوكس إلى هذا الموضوع وحدد فيه أراضى المنطقة التى كان يحكمها اجداده بأنها الاحساء والقطيف وملحقاتها بالاضافة إلى نجد ولم يمارس أى من أفراد اسرته أى سلطة على المنطقة الواقعة إلى الشرق من الجافورة (٧٢).

٤- اتفاقية الانجلو - عثمانية لعام ١٩١٤

لم تكن الاتفاقية الانجلو - عثمانية لعام ١٩١٤ وثيقة الصلة بالمفاوضات الجارية بين بريطانيا والدولة العثمانية ولكنها عملية تكييف لوضع قائم تم اجازه متزامنا مع اجراء التقدم فى المفاوضات الأساسية الجارية وكانت بمثابة اضفاء الطابع الرسمى لوضع تم الاتفاق عليه مع الدولة العثمانية ولايعنى ذلك أيضا أن تلك الاتفاقية كانت جزءا من المعاهدة الرئيسية بخصوص الخليج العربى وتم استخراجه من سياق الاتفاقية والتصديق عليه . ورغم أن الدولة العثمانية اضطرت للاعتراف بالسيادة البريطانية على «عدن» فى اعقاب الاحداث التى تلت دخولها إلى صنعاء ١٨٧١ ثم طرد العثمانيين من «لحج» مما دفع إلى التوصل إلى اتفاق بشأن تعيين بعثة لرسم الحدود إلا أن الدولة العثمانية ظلت على صلة بالقبائل فى المناطق الحدودية من «عدن» وخاصة مع قبائل الخاضعة لأمير «الضالع» فى اقصى الشمال من حدود «عدن» ورغم ان بريطانيا قد انتهجت مقابل ذلك سياسة عدم التسامح ازاء التدخلات العثمانية وبخاصة فيما عرف باسم «المشيخات التسع» إلا أنها قد سلكت سياسة مغايرة لحد ما مع تلك القبائل رغم الخاضعين لسلطتها بالمرة، ولم تدخل تلك القبائل فى اطار الترتيبات الخاصة بوضع عدن كمحمية بريطانية جتى إذا سمحت فى احدى المراحل العثمانيين باستيعاب قبائل «الضالع» ولكن التوغل العثمانى فى المناطق الحدودية أدى إلي اعادة تقييم الموقف حتى تم طرد العثمانيين من اقليم «الحواشب» فى عام ١٩٠١ ذلك الاقليم الذى لم يشرف فقط على الطريق التجارى الرئيسى من «عدن» إلى «تعز» ولكن باعتباره المصدر الرئيسى للمياه فى «لحج» وكان النزاع داخل ذلك الاقليم داعيا إلى العمل على وقف المزيد من تلك النزاعات والعمل على تعيين بعثة لتبدأ فى تحديد حدود ذلك الاقليم والتقى المفوضون برسم الحدود فى عام ١٩٠٢ فى تزامن وصولهم لأداء المهمة مع المزيد من التوسع العثمانى وكان واضحا من بداية المناقشات أن للعثمانيين مطالب فى تلك المنطقة وأصبح عمل البعثة البريطانية مستحيلا واجتمع البريطانيون ولكن دون جدوى وقررت بريطانيا تهدئة

الوضع بالتخلى المؤقت عن رسم الحدود فى سهل «الضالع» مقابل التركيز على المنطقة المجاورة «يافع العليا» وهى تقع على بعد اميال من الحافة الغربية «لوادى البنا» وهى منطقة التقاء بين «الضالع» و«يافع العليا» تشكل واحدة من «المشيخات التسع» إلا أن اتحاد قبائل «اليافع» كان من الناحية الفعلية ينقسم إلى قسمين «يافع العليا» و «يافع السفلى» التى يتكون من خمس عشائر يسمونها «يافع بنى عفيف - يافع بنى قاصد» ويخضعان لحكم موحد وهى واحدة من المشيخات البريطانية أما «يافع العليا» فهو الأكثر اتساعا ويعيش إلى الشمال فى منطقة وديان قادمة من مرتفعات اليمن وقد حاولت بريطانيا من جانبها التركيز على منح تلك القبائل الجزء الحدودى الأكبر من الاقليم واساسا منطقة قبيلة «شعيب» الواقعة بعيدا عن التأقلم مع ذلك وعندما ذهب فريق العمل إلى ما وراء الوادى ليدخل منطقة «الربيعان» هاجمت القبائل موقع البعثة وحاول العثمانيون من جانبهم بذل كل الجهد حتى تحول دون عمل اللجنة ودون احراز مزيد من التقدم فى المنطقة ووصل المقيم السياسى فى «عدن» إلى نتيجة مؤداها عدم ضرورة السيطرة البريطانية على منطقة «يافع العليا» حتى يمكن طرد العثمانيين من حضرموت والمنطقة الوحيدة التى انجزت فيها اللجنة عملها ارض «شعيب» قرب «وادى البنا» وما وراء ذلك ظلت الحدود غامضة واستطاعت بريطانيا فيما بعد التوصل إلى اتفاقيات فى الشهور التالية مع شيخ «يافع السفلى» وبعض عشائره ، وانتهت سيطرة شيخ «الضالع» نهائيا عندما ارسلت بريطانيا قوة عسكرية وسفنا حربية لمنع وصول التعزيزات العثمانية إلى شيخ «الضالع» عبر «الحديدة» وبفضل تلك الاجراءات انسحبت القوات العثمانية من أراضى «الضالع» وبدأ فى النهاية ترسيم منطقة الحدود ، حتى انتهى عمل لجنة رسم الحدود فى ديسمبر ١٩٠٣ كما انتهى العمل فى رسم حدود اقليم «الحواشب» بعد شهرين من ذلك وأن ظلت بعض المشكلات الأخرى معلقة وتناول البروتوكول النهائى فى ٢٠ / ٤ / ١٩٠٥ تلك المشكلات المتبقية وكل الحدود من «باب المندب» وحتى «وادى البنا» ووضع حلولا نهائية لتلك المشكلات وكشف المفوض البريطانى عن ذلك فى تقريره عن مهمة رسم الحدود أن الوثائق والبراهين والحجج التى قدمها مشايخ «يافع» اثبتت أن الاماكن المسماه «الربيعان» فعوه «ذبيانى» تشكل جزءا من مشيخة «يافع» بينما «العولاق» التى تشمل كل الأجزاء الفرعية والتوابع وأى مناطق أخرى تابعة ليافع تقع فى الجنوب وشرق ذلك الخط المذكور وتنتهى إلى المشيخات التسع ووافق المفوض العثمانى فى عملية رسم الحدود على خط الحدود العام واضافت بريطانيا فى المذكرات المتبادلة المتعلقة بالاتفاقية أن الرسم الفعلى للحدود فى شمال شرق وادى «البنا» سيؤجل إلى اللحظة المناسبة[٧٣].

ويرجع السبب وراء ذلك أن تلك المناطق لم تكن ذات أهمية لبريطانيا التى لم تكن قد سيطرت على منطقة «يافع» وبرغم أن بريطانيا لم تحتل تلك المناطق الحدودية بعد فى تلك الفترة فانها لم تكن تسمح للقوى الأخرى وخاصة العثمانيين فى الاستيلاء عليها ولذلك كانت منطقة الحدود فيما وراء وادى «البنا» بمثابة منطقة نفوذ بريطانية وإن كان ذلك لايبرر بأى حال التكاليف المادية التى أنفقت فى عمل لجنة رسم الحدود علاوة على أن ذلك فتح باب النزاع على مصراعيه كما بدا واضحا فى عام ١٩٠٤ بشأن المنطقة المتاخمة لوادى «البناء» وإن حصلت بريطانيا فى النهاية على ما أرادت وهو اتفاقية جازمة تتعلق بالجزء الادنى من الحدود وأسسا لاتفاقية لرسم بقية الحدود ، وطفت مشكلة الحدود التى لم ترسم على السطح فى عام ١٩١٣ عندما لاحظ حاكى باشا أثناء مفاوضاته مع «هرتزل» حول «الخط الأزرق» والتى افترض فيها «هرتزل» إن «الخط الأزرق» يمتد إلى حدود «عدن» ودعا هذا الاعتراف بأهمية الوصول إلى اتفاقية كاملة لكل الحدود وكان مفترضا فى تلك الفترة أن «حضرموت» والمناطق المجاورة يوجد بها نفط وفى تلك الاثناء أيضا توصلت بريطانيا وفرنسا إلى تفاهم احباط تجارة السلاح فى عمان ووافقت وزارة الخارجية الهندية على الفور حيث أن ذلك يضغط على الدولة العثمانية ويحملها على الاعتراف بان كل الحدود الجنوبية الشرقية للجزيرة العربية بالكامل تقع خارج حدود مجال نفوذ الدولة العثمانية ولما لم تكن البروتوكولات الأولية قد وقعت وهناك صعوبات فى العثور عليها ولهذا فانه مع بداية عام ١٩١٤ اثار السير «ادوارد جراى» المشكلة مع حاكى باشا وابرق إلى «ماليت» سفيره فى الاستانة فى ١٩ / ١ / ١٩١٤ بالبرقية التالية :

«بخصوص مسألة الموافقه من حيث المبدأ على مد الخط من «القطبة» (القائم الحدودى داخل الاقليم العثمانية وفق برتوكول عام ١٩٠٥ فى الاتجاه الشمالى الشرقى وحتى الاتجاه الجنوبى للخط الازرق على الخريطة والملحق باتفاقية ٢٩ / ١ . ١٩١٣ الانجلو - عثمانية التى فتح فيها حاكى باشا الذى أبدى تفهما لذلك رغم تعليله من أهمية رسم الحدود فعليا ، وبذلك دخلت اتفاقية عام ١٩١٤ حيز الوجود ولم تكن أكثر من تثبيت الوضع القائم الفعلى كما تؤكده السرعة التى تم بها انجاز الاتفاقية والتصديق عليها ، وتقع الاتفاقية فى جزأين أساسيين متميزين الجزء الرئيسى تم التوقيع عليه وكان اعترافا بوضع قائم منذ عقد من الزمان اضافة إلى البروتوكول والخرائط الملحقة التى ضمنت الاتفاقية وملاحقها ، وكانت

المشيخات التسع هى الاساس كما جاء فى مقدمة الاتفاقية للاستكمال والتصديق على البرتوكول الموقعة من حيث المبدأ ملحق ٤ «من المفوضين البريطانيين والعثمانيين فى عام ١٩٠٣ ، ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ لبيان خط الحدود المقر بمعرفتها لفصل ولاية اليمن عن المشيخات السبع . ثم تضمنت الاتفاقية اربع مواد محدودة الاولى تؤكد على البروتوكول الموقعة فى الماضى ، والثانية تعيد التأكد على التعهد العثمانى الوارد فى بروتوكول ٢٠ / ٤ / ١٩٠٥ عن عدم تدخل الدولة العثمانية فى الشئون السياسية للمنطقة الواقعة شمالا من أرض «صبيح» التى تبدأ من الساحل وتلغى المادة الثالثة النقطة فى وادى «البناء» الموضح فى أول الخرائط الملحقة بالاتفاقية (ملحق ب) هى النقطة الأخيرة فى الشرق ووافق عليها الطرفان المشتركان ووفق مسئوليتها بالاستناد إلى البروتوكول الآنف الذكر (٢٠ابريل ١٩٠٥) وأن حدود الاقاليم العثمانية ستتبع خطا مستقيما من «ليكمة الشوب» وحتى شمال شرق صحراء «الربع الخالى» بزاوية ٤٥ درجة وهذا الخط سير تبط فى الربع الخالى وبموازاة ٢٠ درجة ، الخط المستقيم الذى سيتجه مباشرة إلى الجنوب من نقطة على الشاطئ الجنوبى لخليج «العقير» الذى سيفصل الاقليم العثمانى «سنجق نجد» من اقليم قطر واتساقا مع المادة العثمانية الواردة فى الاتفاقية الانجلو - عثمانية فى ٢٩ يوليو ١٩١٣ والمتعلقة بالخليج العربى والاقاليم المحيطة به . وأول الخطين موضحان باللون «البنفسجى» والثانى باللون «الازرق» على الخرائط المعدة خصيصا والملحقة بالاتفاقية (ملحق س) ونصت المادة الرابعة يتم التصديق على الاتفاقية والتى انجزت فى ٣ يونيو ١٩١٤ وسلمت نسخة من تلك الاتفاقية إلى الألمان(٧٤) .

استمدت تلك الاتفاقية نصوصها من نصوص البرتوكولات وهى مجرد رفع لمستوى الاتفاق الدبلوماسى بين الطرف إلى مستوى الاتفاقية وطبقت نصوصها بالاساس على ولاية اليمن وحددت حدود اليمن مع المشيخات السبع ومن ثم الخطى «الأزرق» و«البنفسجى» ، وإذا كان الخطان «الازرق» و «البنفسجى» جاء بالتراضى المشترك وجاء رسم الخطوط المستقيمة للحدود كتصميم بريطانى وخطوط تأمين لابعاد العثمانيين عن مجالات النفوذ البريطانى ، وعلى الجانب العثمانى فان الخط «الأزرق» و «البنفسج» حدد نهاية لنفوذهم وبموافقته وتخلو أخيرا عن أية مطالب لهم فيها وراء هذين الخطين وأيا كانت تلك المطالب تاريخية أو مطالب وفق الشرعية الاسلامية ، وكان على الجانب الآخر ضمنيا مجالات النفوذ

البريطانى ولكن لم تتحدد لأن المحميات لم تكن لها حقوق أو أهلية فى اثبات تلك المسائل أو حتى المشاركة فى نقاش مثل تلك الأمور وهذا ما ينطبق على مشايخ وأمراء شرق وجنوب الجزيرة العربية سواء التى كانت تحت النفوذ البريطانى مثل «عدن» و «حضرموت» و «عمان» و «ساحل عمان» و «البحرين» و «الكويت» أو التى كانت تحت النفوذ العثمانى مثل «امام صنعاء» أو ابن سعود فى سنجق «نجد» أو حاكم قطر . ومن الواضح أن اتفاقية عام ١٩١٤ كانت خاصة بالوضع فى جنوب وجنوب شرق الجزيرة العربية سواء فى ما بين شمال اليمن وجنوبه فى «عدن» والضالع» أو فيما بين نجد العثمانى وحضرموت وعمان وابوظبى فى صحراء الربع الخالى وإن الخط الازرق كان جزءا من مفاوضات معقدة وكان متوقعا فى المستقبل المنظور فان تلك الاتفاقيات سيجرى التوقيع عليها لاستكمال الأطر الرسمية كما كان حقى باشا يقترح ذلك وليس بغرض خلق فجوة بين حدود المنطقتين المذكورتين والتى ثبتت حدود جنوب شرق الجزيرة العربية بشكل نهائى وكذلك الحدود الشرقية ، ولذا تمت الموافقة على تلك الحدود التى تنتهى فى الصحراء فى «رملة السبعين» وتحددت حتى تقاطعت مع «الخط الأزرق» المار بالخليج العربى ولذا فان المادة الثالثة فى اتفاقية ١٩١٤ كانت واسعة النطاق على غير ما كانت عليه المادة الثانية من اتفاقية ١٩١٣ «لأنها تتناول حدود أراضى الدولة العثمانية عبر اتساع الجزيرة العربية من حدود محمية «عدن» فى الجنوب الغربى حتى شواطئ الخليج العربى إلى الجنوب من جزيرة «الزخنونية» فى شرق الجزيرة العربية وأن الاتفاقيتين ١٩١٣ و ١٩١٤ متكاملتان لتقسيم النفوذ البريطانى والعثمانى فى الجزيرة العربية على حساب الشعب العربى الذى لم يكن له حولاة ولا قوة فى تقرير مصيره وإنما فرضت عليه هاتان الاتفاقيتان وفرقت شمل القبائل العربية فيما بين النفوذين العثمانى فى الشمال والبريطانى فى الجنوب ولهذا نجد بان بريطانيا برغم أنها استفادت إلى حد كبير من المتاعب العثمانية مع الأدارسة فى عسير فى شمال اليمن والوضع المتأزم فى ليبيا على يد ايطاليا واهتمت أيضا بتقويض أوضاع العثمانيين فى تركيا الأسيوية إلا أنها فى المقابل كانت ترى ضرورة الحفاظ على أن تماسك الاقليم العثمانية فى الجزيرة العربية يؤدى إلى تأمين الطرق الشرقية والغربية إلى الهند بما يمنع أى أسباب للخلاف والانشقاق فى أوروبا وتحاول بريطانيا أيضا التخفيف من حدة التوجه العثمانى المؤيد لالمانيا ، واما الكويت والترتيبات مع مبارك كانت اجراءات استباقية للحيلولة دون وصول الاطماع الالمانية العثمانية إلى الخليج العربى (٧٥).

الهوامش

١- د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ص٤٧٨ .

٢- د. محمد عرابى نخلة - المرجع السابق ص١٠٦ .

٣- د. محمد عرابى نخلة - نفس المرجع ص١٠٩ .

٤- جون . ب . كيلى - المرجع السابق ج١ ص٦٧٣ .

٥- د . محمد عرابى نخلة - المرجع السابق ص١٣٦ .

٦- د. محمد عرابى نخلة - نفس المرجع ص١٤٢ .

٧- د. احمد مصطفى ابوحاكمة - تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠ - ١٩٦٥ ص٢٥٢ .

٨- د. احمد مصطفى ابوحاكمة - نفس المرجع ص٢٦٠ .

٩- د. خالد الوسمى - المرجع السابق ص٢١٥ .

١٠- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص٢٢١ .

١١- د . خالد الوسمى - نفس المرجع ص٢٢٨ .

١٢- د. خالد الوسمى - نفس المرجع ص٢٢٩ .

١٣- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٣٨٧ .

١٤- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٤٠٤ .

١٥- سعيد عوض باوزير - المرجع السابق ص١٩٢ .

١٦- سعيد عوض باوزير - نفس المرجع ص١٩٥ .

١٧- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٤١٠ .

١٨- سعيد عوض باوزير - المرجع السابق ص٢٠٠ .

١٩- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - المرجع السابق ص٤٠٨ .

٢٠- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٤١٢ .

٢١- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٤١٤ .

٢٢- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٤٥٢ .

٢٣- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٤٥٩ .

٢٤- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - نفس المرجع ص٤٦٣ .

٢٥- سقاف على الكاف - المرجع السابق ص٦٨ .

٢٦- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص٧١ .

٢٧- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٣٠٨ .

٢٨- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٤٣ .

٢٩- د. حسين عبدالله العمرى - المرجع السابق ص٤٣١٤ .

٣٠- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٣٢١ .

٣١- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٣٣٠ .

٣٢- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٣٣٨ .

٣٣- د. حسين عبدالله العمرى - نفس المرجع ص٣٤١ .

٣٤- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٧٠ .

٣٥- د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص٧٣ .

٣٦- د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص٧٥ .

٣٧- د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص١٠٤ .

٣٨- د .سيد رجب حراز - المرجع السابق ص٨٨ .

٣٩- د .سيد رجب حراز - نفس المرجع ص٨٩ .

٤٠- د .سيد رجب حراز - نفس المرجع ص٩٢ .

٤١- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص٢٠٨ .

٤٢-د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص٢١٤ .

٤٣-د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص٢٣٩ .

٤٤- د .سيد رجب حراز - المرجع السابق ص٩٤ .

٤٥- د .سيد رجب حراز - نفس المرجع ص٩٧ .

٤٦- جورج انطونيوس - المرجع السابق ص٩٤ .

٤٧- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص٩٧ .

٤٨- د. سعيد بدير الحلوانى - العلاقات بين مصر والحجاز ونجد فى القرن ١٩ ص٥٥ .

٤٩- د. سعيد بدير الحلوانى - نفس المرجع ص٦٤ .

٥٠- د. سيد رجب حراز - المرجع السابق ص١١٥ .

٥١- د. سيد رجب حراز - نفس المرجع ص١١٧ .

٥٢- د. محمد أنيس - الدولة العثمانية والمشرق العربى ص٢٣٩ .

٥٣- جب - وجهة الاسلام ص٣١ .

٥٤- جب - المرجع السابق ص١٢٥ .

٥٥- جب - نفس المرجع ص١٢٥ .

٥٦- جب - نفس المرجع ص١٢٧ .

٥٧- د. فؤاد سعيد العابد - سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ١٨٣ . - ١٩١٤ ص١٧ .

٥٨- د. فؤاد سعيد العابد - نفس المرجع ص٩١ .

٥٩- د. فؤاد سعيد العابد- نفس المرجع ص٩٤ .

٦٠- د.عبدالله سراج عمر المنسى- المواجهة العثمانية البريطانية فى الخليج العربى١٨٦٩- ١٩١٤ ص٢٠٥ .

٦١- د.عبدالله سراج عمر المنسى - نفس المرجع ص٢٠٨ .

٦٢- د. فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص٢٥٦ .

٦٣- د. عبدالله سراج عمرالمنسى - المرجع السابق ص٢٥١ .

٦٤- د. فؤاد سعيد العابد - المرجع السابق ص٢٥٦ .

٦٥-د. فؤاد سعيد العابد - نفس المرجع ص٢٥٨ .

٦٦- ج. ج . كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ١٢٥ .

٦٧- د. عبد الله سراج عمر المنسى - المرجع السابق ص٢٨٠ .

٦٨- ج . ب . كيلى - المرجع السابق ص١٢٨ .

٦٩- د. عبدالله سراج عمر المنسى - المرجع السابق ص٢٣٦ .

٧٠- د. عبد الله سراج عمر المنسى - نفس المرجع ص٢٣٩ .

٧١- جون . س . ولينكسون - حدود الجزيرة العربية ص٩٠ .

٧٢- ج . ب . كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية ص١٢٩ .

٧٣- جون - س - ولينكسون - المرجع السابق ص١٢٨ .

٧٤- جون - س - ولينكسون - نفس المرجع ص١٣١ .

٧٥- جون - س - ولينكسون - نفس المرجع ص١٤٤ .

الفصل الخامس

الجزيرة العربية
من الثورة العربية الكبرى إلى الوحدة اليمنية
١٩١٦ - ١٩٩٠

أولا : الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى .

ثانيا : الجزيرة العربية بين الحربين العالميتين وحتى قيام الوحدة اليمنية ١٩٩٠ .

الجزيرة العربية من الثورة العربية الكبرى إلى الوحدة اليمنية ١٩١٦-١٩٩٠

أولا الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى

لم تجف الدماء العثمانية التى أريقت فى حرب البلقان حتى كان التغلغل الالمانى فى شئون الدولة العثمانية قد بلغ أوجه وبخاصة عندما عقدت الحكومة العثمانية مع المانيا معاهدة سرية فى ٢ / ٨ / ١٩١٤ وهو نفس اليوم الذى أعلنت فيه المانيا الحرب على روسيا وقد تعهدت الدولة العثمانية فى هذه المعاهدة بمساعدة الالمان ضد الروس كما تظاهرت بالحياد فترة من الزمن حتى بدا لها أن استعدادتها الحربية قد اكتملت بدرجة كافية أرسلت أسطولها فضرب فى ٢٩ / ١٠ / ١٩١٤ الموانئ الروسية على البحر الاسود وقد ردت روسيا على هذا الاعتداء العثمانى باشهار الحرب على الدولة العثمانية وهكذا اقتحم العثمانيون انفسهم فى الحرب العالمية الأولى دون مبرر وكانت بريطانيا قد ارتابت فى الاستعدادات الحربية التى اجراها العثمانيون فى الجزيرة العربية فى مطلع ١٩١٤ بعد التقارب الذى تم بينهم وبين الالمان مما جعلها تحس بخطورة التغلغل الالمانى فى شئون الدولة العثمانية على مصالحها ومواصلاتها إلى الهند ولما كانت المصالح البريطانية متضاربة مع المصالح العثمانية فى الجزيرة العربية مما آثار الاحتكاك والنزاع الدائمين بين الجانبين فان ميدان الحرب كان سيصل حتما إلى هناك لاسيما وأنه كان واضحا منذ البداية انحياز الدولة العثمانية فى ٥ / ١١ / ١٩١٤ أثر هجوم الاسطول العثمانى على الموانئ الروسية فان الدولة العثمانية اعلنت بدورها الحرب على الدولتين فى ١١ / ١١ / ١٩١٤ واشهرت انضمامها إلى المانيا فأصبح العداء صريحا بينها وبين الحلفاء فكانت الامبراطوريات الالمانية والنمساوية والعثمانية فى جانب ، وروسيا وفرنسا وبريطانيا ومستعمراتها واليابان والبلجيك فى الجانب الآخر وشملت الحرب فى فترة لم تزد على ثلاثة أشهر من ٢٨ يوليو إلى اكتوبر ١٩١٤ خمسا من قارات العالم ومنذ بداية هذه الحرب حرص الجانبان المتصارعان على اتخاذ الخطوات الحربية والدبلوماسية لكسب المعركة فكانت الجزيرة العربية أحد ميادينها وأن انحصر الصراع فيها بين العثمانيين والبريطانيين ؛ نظرا لما كان لهما هناك من نفوذ ومصالح عديدة ، على أن كسب معركة العالم العربى كله وليس الجزيرة العربية وحدها اصبح هدف

الجانبين المتصارعين فى الحرب العالمية الأولى إذ أن موقف العرب ازدادت أهميته فى ترجيح كفة الحلفاء على اعدائهم وأصبح أمر ذا أهمية مباشرة للحلفاء عامة وللمصالح البريطانية بصفة خاصة وكانت الدولة العثمانية فى مركز تستطيع معه أن تهدد مصالح بريطانيا فى نقطتين هامتين بفضل استيلائها على الشام والعراق فكانت تسيطر على قناة السويس من جانب فى رأس البحر الأحمر وعلى عربستان والكويت فى رأس الخليج العربى حيث تقع آبار النفط الهامة التابعة لشركة البترول البريطانية فى «عربستان» وكانت بريطانيا تدرك الخطر الذى يهددها فى الجزيرة العربية نفسها إذ كان العثمانيون يستطيعون اتخاذ مراكز عدة على طوال ساحل البحر الأحمر لبث الالغام التى تدمر البواخر البريطانية كما كان يمكنهم أن يبعثوا برسلهم من هناك إلى مصر والسودان وداخل افريقيا لامداد السكان بالسلاح واثارة مشاعرهم ضد الحلفاء هذا فضلا عن وجود الحامية العثمانية فى اليمن التى كانت مؤلفة من فرقتين وكان يخشى تهديدها للبريطانيين فى «عدن» وثمة أمر خطير كان الحلفاء يهتمون به ويتوجسون من نتائجه لتعلقه بالدعاية السياسية ضدهم وهو : الخليفة السلطان العثمانى إذا اعلن الجهاد ونال تأييد شريف مكة له تمكن من تحول الحجاز إلى مركز لبث الدعاية المهيجة لا لتثير البلاد العربية فحسب بل لتحرك كذلك بقية المسلمين فى انحاء أخرى غير العربية ومن هنا كانت الجزيرة العربية مسرحا للمنافسة فى المجالين الحربى والدبلوماسى على السواء فى اثناء الحرب العالمية الأولى وخاصة من العثمانيين والبريطانيين مما جعل كلا الجانبين يستميتان فى محاولات كسب ود الامراء والزعماء المحليين على اختلاف درجات قوتهم واهميتهم وكان يزيد من عنف هذه المنافسة اعتماد العثمانيين على ما لخلافتهم من نفوذ معنوى فى الجزيرة العربية وحاميات عثمانية موزعة فى ارجائها واستناد بريطانيا إلى مناطق نفوذها ومستعمراتها الواقعة على بعض سواحل الشرقية والجنوبية من الجزيرة العربية فى كل من «البحرين» و«عدن» إلى جانب سلسلة المعاهدات والاتفاقيات التى عقدتها مع بعض الزعماء المحليين امثال ساحل عمان وعمان والكويت و «لحج» و «يافع» على أن النفوذ العثمانى فى الجزيرة العربية كان يمتد على مساحات أوسع وابعد مدى من النفوذ البريطانى فقد كانت بريطانيا تختار النقط الاستراتيجية التى يهمها الاستيلاء عليها دون أن تهتم كثيرا بضيق الرقعة المحتلة أو اتساعها وهذا ما فعلته عند سيطرتها على «عدن» وقد كان هذا الفارق المساحى يعتمد على اساس تاريخى فضلا عما كان يصاحبه من نفوذ معنوى

للخليفة العثمانى فى الجزيرة العربية ولهذا كانت الجزيرة العربية خاضعة للنفوذ العثمانى اساسا بينما كان النفوذ البريطانى لايمثل إلا منافسا زاحفا يحتل نقطا معينة لحماية خطوط مواصلات الامبراطورية البريطانية (١).

غير أن النفوذ الفعلى للعثمانيين فى الجزيرة العربية كان ضعيفا بوجه عام ولم يكن يبدوا واضحا إلا حيث وجدت القوات العثمانية والتى كانت معظمها موزعة فى غرب الجزيرة العربية مؤلفة من اربع فرق موزعة بين «الحجاز» و «اليمن» فى «صنعاء» و «عسير» وكانت سلطة الحسين شريف الحجاز على القبائل العربية كافية من بينها يمكنها الاشتراك فى الهجوم على مصر إذا أراد الشريف الحسين ذلك بل كان باستطاعته أن يجند من البدو ما لايقل عن الأربعين ألفا ببنادقهم فى حين كان يستحيل على العثمانيين أن يتوصلوا إلى إثارة البدو بدون مساعدته وكانت الحامية العثمانية فى الحجاز وعسير مؤلفة من فرقتين فان تمرد القبائل هناك كان قد وصل إلى حد لم يتجرأ معه العثمانيون على التوغل فى داخل البلاد بل ظلوا محصنين فى قلاعهم ومراكزهم البعيدة وقد فرض هذا الوضع على العثمانيين ضرورة الحصول على مؤازرة الشريف الحسين إذا أرادوا أن يتوصلوا إلى تجنيد العشائر العربية وكان تأييد الحسين للعثمانيين سيمكنهم من توجيه حامياتهم المحصورة كيفما شاءوا كما سيساعدهم على تشكيل قوة كبيرة من رجال القبائل العربية يمدون بها القوى التى تتألف منها الحملة الموجهة إلى قناة السويس حينذاك لمحاربة البريطانيين فى مصر والسيطرة على قناة السويس ، اما نفوذ الادريسى فى «عسير» فى شمال اليمن فلم يكن له قيمة عسكرية فى مطلع الحرب العالمية الأولى إلا فى نطاق حدوده المحلية فقد كان باستطاعته ان يعطل خطوط المواصلات العثمانية بين الحجاز واليمن وأن يهدد مؤخرة العثمانيين إذا هاجموا عدن على أن فائدة الادريسى الكبرى للحلفاء انحصرت فى سيطرته على المنطقة الساحلية مما جعله يتمكن من الحيلولة دون استعمال العثمانيون لشواطئ عسير الطويلة كقاعدة بحرية معادية ، وكان موقف الامام يحيى بالنسبة لطرفى النزاع فى الحرب العالمية الأولى يعد من أخطر المسائل التى أثارت اهتمام البريطانيين فى عدن ، ذلك لأنه بدأ واضحا أن الصلات الظاهرية للحامية العثمانية فى اليمن التى كانت تتألف من فرقتين كاملتين مع السكان اليمنيين كانت ودية وبخاصة فى الفترة التى اعقبت الصلح بين الامام يحيى والدولة العثمانية بموجب اتفاقية «دعان» فى عام ١٩١١ مما كان يخالف تماما طبيعة العلاقة التى

كانت بين حكام الحجاز العثمانيين وسكانها التى كانت تكتنفها البغضاء والكراهية ولما كان هجوم العثمانيين على «عدن» امرا محتمل الوقوع فان الأمل فى نجاح هذا الهجوم يقوى ويتحقق إذا وقف الامام من العثمانيون موقفا مؤيدا أو اشترك معهم اتباعه فى هذا الهجوم، اما فى الجهات الشرقية من الجزيرة العربية فان موقف «ابن الرشيد» فى «شمر» وابن سعود فى «نجد» كان يتوقف بالدرجة الأولى على النزاع القائم بينهما وكان من المسلم به أن «ابن الرشيد» سيقف فى صف العثمانيين حالما تعلن الحرب ولهذا عندما انضمت الدولة العثمانية إلى جانب المانيا فى الحرب اسرعت بريطانيا تفاوض امراء العرب للوقوف إلى جانبها أو لتضمن على الاقل حيادهم وعدم انحيازهم للدولة العثمانية وحلفائها واستمرت المفاوضات فى عام ١٩١٥ بين بريطانيا وكل من الادريسى والشريف حسين وابن سعود وكان هدف بريطانيا من هذه المفاوضات مع الامراء العرب هو محاربة العثمانيين فى الجزيرة العربية نفسها وصدهم عن تأليف كتلة عربية يقفون بها فى وجه النفوذ البريطانى أو يقطعون على بريطانيا الطريق إلى الهند ، ولقد كان محمد الادريسى أول من لبى دعوة بريطانيا فحالفهم فى ابريل ١٩١٥ وتلاه فى ذلك ابن سعود فعقد مع بريطانيا معاهدة بعد ستة اشهر تقريبا أي فى ديسمبر ١٩١٥ وكان الشريف الحسين ثالث الامراء العرب الذين تحالفوا مع بريطانيا فى مطلع الحرب العالمية الأولى فحالفهم فى نياير ١٩١٦ واعلن الثورة العربية الكبرى ضد الحكم العثمانى[٢].

قد اختلفت هذه الاتفاقيات بعضها عن البعض الآخر وأن اتحدت معاهدة بريطانيا مع الادريسى وابن سعود فى الغرض الذى طمحت إليه بريطانيا إذ لم يكن فى وسع الاميرين العربيين القيام بدور اكبر من طاقتهما العسكرية ضد العثمانيين ولهذا كانت القيمة الفعلية لهاتين الاتفاقيتين مبنية بالدرجة الأولى على نتائجها السلبية أذ قضيا نهائيا على أى أمل فى التحالف بين هذين الاميرين والدولة العثمانية ولايعنى هذا التقليل من أهمية العمليات الحربية التى قام بها الادريسى ضد العثمانيين فى اليمن وبخاصة فى منطقتى «عسير» و «تهامة» ولكننا نهدف إلى القول بان تحالف بريطانيامع الشريف حسين كان أكثر فعالية وأكبر أهمية بالنسبة لبريطانيا تبعا لما كان يتمتع به الشريف الحسين من مركز كبير ومكانة روحية مرموقة بين أمراء العرب وقبائله فى ذلك الحين جعلته زعيما للنضال العربى ضد الاستبداد العثمانى وضد حركة الاتحاد والترقى العلمانية ذات الضبغة المتطرفة للقومية التركية والمعادية للقومية العربية وبذلك قاد الثورة العربية الكبرى .

في الوقت الذي بذلت بريطانيا جهودها لجذب الأمراء العرب للوقوف إلى جانبها أو لضمان حيادهم على الأقل في مطلع الحرب العالمية الأولى فان العثمانيين أيضًا قاموا بدورهم بالمجهودات الضرورية للحصول على تعهد العرب بمساعدتهم ضد بريطانيا وحلفائها في الحرب العالمية ولهذا بعثوا برسلهم في ارجاء الجزيرة العربية يحملون الهدايا والعبارات المعسولة إلى امراء ومشايخ الجزيرة العربية وكان طبيعيا أن اثمرت مفاوضاتهم فورا مع «ابن الرشيد» الذي كان تواقا إلى محالفة العثمانيين وأن لم يؤد ذلك إلى نتيجة ذات فائدة كبيرة ولم ينتفع العثمانيون كثيرا وكما يئس العثمانيون من الادريسي قبل نشوب الحرب بل اصبح عدوهم اللدود بعد تحالفه مع بريطانيا في ابريل ١٩١٥ ، فانهم يئسوا كذلك من الشيخ مبارك الصباح امير الكويت الذي كان مرتبطا بمعاهدة مع بريطانيا في عام ١٨٩٩ وعقد معها معاهدة ثانية عندما قامت الحرب تقضي بقيام التحالف الفعلي بين الطرفين في ٣ / ١١ / ١٩١٤ . ولم يفز رسل العثمانيون أيضا من ابن سعود بأي وعد قاطع منه حيث كان ابن سعود في ذلك الوقت يتفاوض مع الحكومة البريطانية وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة الحماية البريطانية لابن سعود عام ١٩١٥ وكان العثمانيون يأملون حتى بداية الحرب العالمية الأولى في انضمام الشريف الحسين إلى جانبهم وكانوا يعرفون أهمية مركزه بين الامراء العرب في ذلك الحين غير أن علاقة الشريف الحسين بالعثمانيين كانت تتحدد دائما برغبته الشخصية في الاستقلال وانتهت اتصالاته السرية مع بريطانيا في القاهرة إلى اعلانه الثورة العربية الكبرى في يناير ١٩١٦ [٣]، وبذلك كان هذا هو موقف كبار امراء العرب الستة في الجزيرة العربية في مطلع الحرب العالمية الأولى من القوى المتصارعة وبخاصة الدولة العثمانية من جهة وبريطانيا من جهة أخرى لما لهما من حاميات ومناطق نفوذ ومطامع واسعة في الجزيرة العربية في الوقت الذي انحاز بن الرشيد إلى العثمانيين وابن سعود وآل صباح قد انحازوا إلى بريطانيا بينما وقف الامام يحيى على الحياد وأن وضع تقربه للعثمانيين وتضامنه معهم هذا في الوقت الذي كان الشريف حسين والادريسي يقبلون على محالفة بريطانيا وينتظرون أن تحقق لهم وعودها المغرية ثمن ثورتهم وخروجهم على الدولة العثمانية .

١- الكويت أثناء الحرب العالمية الأولى

تحول الخلاف بين صديقي الامس إلى عداء اليوم أي بين مبارك وابن سعود فلقد كان الامير عبد الرحمن بن فيصل ومعه ابنه ابن سعود لاجئين إلى الكويت عام ١٨٩٧ ونزلا

ضيفين عزيزين على مبارك الذى ساعد ابن سعود فى احتلال الرياض عام ١٩٠٢ ثم فى حروبه اللاحقة مع « آل الرشيد » وكان الشيخ مبارك يطمح أن يصبح سيد الجزيرة ولكن بريطانيا قيدت تحركات مبارك وتطلعاته فيما وراء حدود الكويت الكبرى بعد أن عينوا أول معتمد سياسى بريطانى فى الكويت وجعلوا منه رقيبا على تطلعات مبارك وحددوا من معاداته لجيرانه فى الشمال لأنهم كانوا لايريدون أن يدخلوا فى صراع مع الصحراء إلى الغرب من الكويت أو جنوبها سواء كان الحاكم من «ابن سعود» أو «ابن رشيد» وكان من عواقب اتفاقيات الكويت مع بريطانيا أن تمثيل الكويت الخارجى انحصر بيد بريطانيا دون الكويت ولعل مؤتمر العقير خير شاهد فمع أن حدود الكويت كانت بموجب اتفاقية ١٩١٣ غير بعيد عن رأس «تنورة» جنوبا فتنازلت بريطانيا فى مؤتمر العقير عام ١٩٢٢ عن ثلثى مساحة الكويت لابن سعود ، وكانت الكويت خير ميناء على الساحل الشرقى من الجزيرة العربية وهى المعبر الطبيعى إلى قلب «نجد» التى كانت منذ عهد طويل تتلقى احتياجاتها عن طريق الكويت ولعل هذا هو السبب الذى جعل «الشمر» من آل رشيد يحرصون على محاولة ضم الكويت إلى ممتلكاتهم فى نجد إذا سنحت لهم الفرصة لأنها منفذ منطقة «شمر» الوحيد إلى البحر والكويت كانت تتمتع بميناء بحرى ممتاز وكانت تملك اسطولا تجاريا كبيرا فى هذه الفترة واستمرت تجارتها التقليدية مع الهند وشرق افريقيا والعراق قائمة ومما زاد فى نشاطها التجارى عودة السفن التجارية البريطانية فى رحلتها الأسبوعية المعتادة التى كانت تقوم فيها بزيارة الكويت وهى عائدة من الهند وكانت هذه الزيارة قد انقطعت قبل فترة بالنظر لاحتجاج والى البصرة على تعريجها على الكويت لأن فى ذلك ضررا يلحق بميناء البصرة ، وكان الشيخ مبارك قد عقد معاهدة ١٨٩٩ مع بريطانيا ثم تعاون مع الحلفاء ضد العثمانيين اثناء الحرب العالمية الأولى وأن ينال بالتالى تأييد بريطانيا ودعمها السياسيين وهو بالطبع لم يكن الوحيد بين حكام شرقى الجزيرة العربية ممن اتخذوا هذا القرار الخطير وتعنى بذلك الانحياز إلى جانب البلدان الاجنبية الاوربية التى كانت تحارب الدولة العثمانية المسلمة فقد وقف إلى جانب بريطانيا أيضا ابن سعود ولكن الشيخ مبارك توفى عام ١٩١٦ وخلفه ابنه الشيخ سالم الذى اختلف فى تعاونه مع بريطانيا عما كان عليه فى عهد والده وعهد أخيه جابر الذى حكم فى الفترة من ١٦ - ١٩١٧ وفى عهده ازدهرت الكويت بسبب ازدياد التجارة مع بلاد الشام حيث كانت القوافل المحملة بالبضائع تتجه إلى سوريا حاملة لاسكانها وللعثمانيين بها مختلف البضائع التى كانوا فى امس الحاجة إليها وكأن الكويت

بعملها ذاك رفعت الحظر الاقتصادى المفروض على العثمانيين كما قد كسرت حلقة الحصار البرى والبحرى الذى كان يفرضه الحلفاء على الدولة العثمانية وبالطبع لم ينظر البريطانيون بعين الرضا إلى موقف حاكم الكويت الذى وإن لم يكن يؤيد تهريب البضائع عبر الكويت إلى العثمانيين فانه لم يكن ليتدخل فى تلك التجارة ويأمر بايقافها والغريب ان البريطانيين لم يجاهروا باحتجاج علنى لدى شيخ الكويت فيما يتعلق بتلك التجارة ولعل السبب فى ذلك أن جابر كان قد اعلن رسميا وقوف الكويت إلى جانب بريطانيا والحلفاء فى جدالهم مع الدولة العثمانية ، وبعد مرور اكثر من عام على تولى جابر الحكم توفى وصار امر الكويت إلى اخيه سالم ١٩١٧-١٩٢١ الذى كان البريطانيون يخشون منه أن تميل الكويت إلى جانب العثمانيين علنا وتندفع فى مساعدة الدولة العثمانية بقوة ولقد كان سالم حريصا على القيام بذلك الدور وهو إن لم يقم به رسميا خشية تدخل بريطانيا فى امور الكويت الداخلية فانه أخذ يؤيد استمرار تدفق القوافل المحملة بالبضائع إلى سوريا حتى ضج البريطانيون بذلك الأمر ، واحتجوا عليه احتجاجا شديد اللهجة لدرجة أنهم هددوا الكويت قائلين أن بريطانيا لن تنفذ وعدها بالمحافظة على سلامة الكويت إذا تعرضت لخطر غزو خارجى إن لم يكف سالم عن سياسته المنحازة للدولة العثمانية [٤].

ولعل أمير الكويت قد أدرك مغبة ذلك التهديد البريطانى حين علم بنيات ابن سعود تجاهه شخصيا وتجاه مدينة الكويت وأهلها وذلك عندما كان الشيخ مبارك قد ارسل لنجله سالم بصحبة حفيده أحمد الجابر على رأس قوة كويتية لمساعدة ابن سعود المحاصر فى «الهفوف» من قبل العجمان وكانت نتيجة هذه الحملة الكويتية بقيادة الشيخ سالم فك الحصار وذلك فى ديسمبر ١٩١٥ عن «الهفوف» وهزيمة «العجمان» وكان ابن سعود يأمل بعد هزيمة قبيلة «العجمان» هذه على يد القوات الكويتية أن يلاحق العجمان المنهزمين وينزل بهم أشد انواع العقاب ويطاردهم إلى حيث يذهبون غير أن سالم بتوجيه سابق من والده الشيخ مبارك قد منح «العجمان» بعد هزيمتهم مأوى فى أراضى الكويت وبالطبع لم يتمكن ابن سعود من ملاحقة قبائل العجمان الاقوياء بعد تلك الهزيمة لأنه لم يكن قادرا على القيام بذلك العمل بمفرده أى بدون مساعدة من الشيخ سالم وجيشه الكويتى وكانت هذه الحادثة هى بداية النزاع مع ابن سعود واتباعه ذلك النزاع الذى كان من نتائجه موقعة «الجهرة» بين الكويت وقائد ابن سعود فيصل الدويشى [٥] على رأس قواته من فرقة «الاخوان» الوهابية عام ١٩٢٠ .

٢- ابن سعود وبريطانيا

لم يؤثر نشوب الحرب العالمية من الوجهة المادية على مركز ابن سعود فى وسط وشرق الجزيرة العربية الذى كان يتلقى دعما عسكريا وماديا من العثمانيين فطوال سنوات هذه الحرب كان ابن سعود يركز جهوده على تقليص نفوذ خصمه «ابن رشيد» شيخ قبائل «شمر» فى شمال الجزيرة العربية ومن ثم غير ابن سعود ولائه من والى عثمانى إلى الخضوع تحت الحماية البريطانية وكان ابى سعود يعتمد فى عملياته ضد القبائل العربية من «العجمان» و «المرة» ضد «ابن رشيد» على المساعدات المادية والعسكرية البريطانية التى كانت تقدمها له ومنها المخصصات الشهرية التى قررتها له الحكومة البريطانية فى حدود ٥,٠٠٠ جنيه استرلينى ولكنه كان يتطلع إلى شئ اكثر من مجرد ايقاع الهزيمة بخصمه «ابن رشيد»، فلقد كان ابن سعود مهتما قبل كل شئ بعقد اتفاقية الحماية مع الحكومة البريطانية لأنه كان يرى فيه بريطانيا الضمان الوحيد لمصالح اسرته حاضرا ومستقبلا وبعبارة اخرى كان ابن سعود يتطلع إلى أن تعترف الحكومة البريطانية به كحاكم تحت حمايتها مثل بقية حكام الخليج العربى وقد تحقق له هذا عن طريق معاهدة عقدها مع المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى السير «بيرسى كوكس» فى جزيرة «تاروت» المواجهة «للقطيف» وتم توقيع هذه المعاهدة يوم ٢٦ ديسمبر عام ١٩١٥ وذلك بعد أن نجح الشيخ سالم بن مبارك الصباح بقواته الكويتية أن يفك حصاره المفروض على ابن سعود من قبل «العجمان» فى «الهفوف» ، وقد نصت المادة الأولى من اتفاقية دارين البريطانية على ما يلى :

«إن الحكومة البريطانية لتقر وتعترف بأن «نجد» و «الاحساء» و «القطيف» و «جبيل» وما يتبعها من اراضى وملحقات سيتم تحديدها فيما بعد وما يتبعهما من موانئ على ساحل الخليج العربى هى اراضى تابعة لابن سعود ولأجداده من قبله وان الحكومة البريطانية لتعترف بابن سعود كحاكم على هذه المناطق » وفى مقابل هذا تعهد ابن سعود على غرار ما فعل شيوخ ساحل عمان والبحرين والكويت وعمان بالاتفاقيات «المانعة» أو الحماية بعدم انشاء علاقات مع الدول الاجنبية أو التنازل عن أى جزء من اراضيه بدون موافقة الحكومة البريطانية كما ان العرض الذى تقدم به ابن سعود سابقا إلى المقيم السياسى البريطانى «كوكس» فى عام ١٩١٣ لتجديد اتفاق التعهد الذى وقعه الامير عبدالله بن فيصل آل سعود فى عام ١٨٩٦ قد اعيد النظر فيه وادرج فى المادة السادسة من المعاهدة المذكورة التى تنص على [٦]:

«يتعهد ابن سعود كما تعهد اباوه من قبل بالامتناع عن شن العدوان أو التدخل فى اراضى الكويت ، البحرين ، كذلك فى شئون حكام قطر وساحل عمان الذين تحت الحماية البريطانية ويرتبطون بمعاهدات مع تلك الحكومة أما فيما يختص بحدود اراضى هذه الدول فهذه مسألة سوف يتم الاتفاق عليها فيما بعد» .

٣- الثورة العربية الكبرى (الشريف الحسين والثورة العربية الكبرى)

انضمام الدولة العثمانية إلى جانب الدولة المركزية معناه أن قضية آمال العرب القومية لابد لها من أن تقحم فى فلك السياسة الاوربية واصبح موقف العرب منذ ذلك الوقت موضع اهتمام مباشر من قبل الحلفاء وخاصة بريطانيا ولعل «كتشنر» كان أكثر ساسة الحلفاء ادراكا للأخطار الناجمة عن الموقف فى المنطقة العربية وسيبقى له و «لرونالد ستورز» الفضل فى أنهما أول من فكر فى مواجهة هذه الاخطار بخطواتهما الجرئية بعقد تحالف مع شريف الحجاز الذى كان موقفه فريداً لانظير له سواء من ناحية المساعدة العسكرية التى استطاع ان يقدمها أو من ناحية القيمة السياسية لاشتراكه وتدخله وكان الشريف حسين يتمتع من وجهة موقعه الحربى فى وسط القوات العثمانية فى الجزيرة العربية وكان اكثر ما يستطيع أن يقوم به الادريسى فى عسير والامام فى اليمن هو أن يشل الحاميات العسكرية المحلية ويجعلاها عاجزة عن العمل . أما ابن سعود فلم يكن على صلة بالقوات العثمانية بينما كان الشريف الحسين قادرا بجيشه من القبائل العربية على أن يضرب قلب القوات العثمانية فى الجزيرة العربية ويقطع خطوط مواصلاتها مع الشمال فيعزل بذلك الحاميات المعسكرة فى «عسير» و «اليمن» اما ميزته الثانية فهى مكانته الفريدة التى لاتعادلها مكانة شخص آخر فى العالم الاسلامى تلك المكانة التى تستمد قوتها من نسبه إلى بيت النبوة ﷺ ومن منصبه أيضا وبينما كانت سلطة جيرانه محصورة فى نطاق اراضيهم فان سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده ويمتد حدوته إلى الجموع الغفيرة من سكان العالم الاسلامى فهو حفيد النبى والقيم على الاماكن المقدسة ، وان مؤازرته فى امر كالدعوة للجهاد كانت عاملا مهما بل عاملا حاسما ولذلك كان العثمانيون يسعون بلهفة إلى الحصول على هذه المؤازرة وللاسباب نفسها التى كانت الحلفاء يخشون مؤازرته للعثمانيين كان يريدون كسبه إلى جانبهم ، وكان لشريف حسين ثلاثة أبناء على وعبدالله وفيصل ، وكان الامير عبدالله فى مقدمة النواب العرب فى البرلمان العثمانى وشخصا بارزا فى الدوائر السياسية وميله الطبيعى لمزاولة الشئون السياسية القبلية

وحماسته لإعلاء شأن أسرته كان سببا فى اختيار والده للأمور التى تحتاج إلى الثقة كالنيابة والوساطة وكان فى ذلك يبدو أنه أليق من أخيه الاكبر على الرقيق الخجول ومن اخيه الاصغر فيصل الذى كان حتى ذلك الحين يبحث عن المجد فى اعمال البطولة العسكرية وحقق مبتغاه من ذلك وكان عبدالله أشهر الاخوة الثلاثة وأحبهم إلى الناس ، وفى شهر فبراير ١٩١٤ كان كتشنر معتمد بريطانيا فى مصر وعبدالله فى القاهرة فى طريقه إلى الآستانة فاتصل «بكتشنر» متظاهرا بأنه يرد زيارة مجاملة وحضر اجتماعهما المستر «رونالد ستورز» وكان آنئذ السكرتير الشرقى فى دار الاعتماد البريطانى فرد عبدالله لكتشنر عن العلاقات المؤثرة بين جماعة الاتحاد والترقى والشريف حسين ومع أن هذه المحادثات لم تنته إلى نتيجة عملية غير أنها كانت ذات أثر فعال فى سير الحوادث فقد نبهت «كتشنر» إلى ما فى العداء بين الاتراك والعرب من قوة وعمق والى أن رغبة العرب فى الاستقلال رغبة صادقة فحفزه كل ذلك إلى أن يبدأ بعد بضعة شهور بالخطوة الأولى من سلسلة خطوات نتهت اخيرا باشتراك العرب فى الحرب حلفاء لبريطانيا وحين نشبت الحرب فى اغسطس كان كتشنر فى بريطانيا فاستدعاه رئيس الوزراء وعينه وزيرا للحربية والذى بعث برسالة سرية عن طريق «ستورز» إلى الامير عبدالله يستفهم منه عن موقف شريف مكة إذا ما استطاعت ألمانيا أن تحمل تركيا على دخولها الحرب فى صفها وهل سيناصر الشريف فى هذه الحالة تركيا أو بريطانيا» فقد وضعت رسالة كتشنر شريف مكة فى موقف حرج جدا وكان امام العرب طريقان إما أن يقفوا بجانب الدولة العثمانية فى ساعة محنتها فيكسبون بذلك عرفانها لهم بالجميل ؛ وإما أن يثوروا عليها ويطلبوا حريتهم بحد السيف فأى هذين الطريقين يسلكون ؟ .

لجد ابنى الشريف الحسين اللذين استشارهما لهما رأيان متناقضان فكان فيصل يميل إلى سلوك الطريق الأول إذ كان مقتنعا بأن لفرنسا مطامع فى بلاد الشام ولبريطانيا فى المناطق الجنوبية من العراق وإن ما عرضه «كتشنر» لم يشتمل على أية ضمانة إزاء هذين الخطرين وكان يرى فضلا عن ذلك أن العرب لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكافى فكان يخشى أن تخفض الثورة ، وكان عبدالله يرى رأيا آخر فان انتماءه إلى احدى الجمعيات السرية العربية جعله يدرك قوة الشعور الثورى ولما كان ذا طبيعة متفائلة فقد كان واثقا من أن «دمشق» و «بغداد» ستتجاوبان مع الدعوة إلى الثورة تجاوبا مرضيا وكان يرى أن الطريق السليم ليس فى رفض ما عرض «كتشنر» بحجة أنه عرض غير كاف بل فى الوصول عن طريق المفاوضة

الى معرفة المقصود بهذا العرض وهل يعتبر ضمانا كاملا لاستقلال العرب ، وقد تشبث كل واحد من الأخوين برأيه وأصر عليه خلال الاجتماعات التى واصل والدهما عقدها معهما ولم يزحزح أى واحد منهما عن موقفه وإن كان الحسين يميل بصورة عامة إلى رأى فيصل ومع ذلك فقد دعاه اصرار عبدالله والحاجة إلى الترتيب وأخيرا انتهى إلى قرار وسط وهو أن يوفد مبعوثين إلى بلاد الشام وبغداد والى كبار الحكام العرب ليطلعوا على حقيقة الشعور الوطنى ومدى الاستعداد للثورة كما قرر من جهة أخرى أن يمد «كتشنر» حبال التشجيع بالقدر الذى يكفى دون زيادة الابقاء الصلة بينهما وقد آثار الشريف حسين غضب الاتراك عليه بسبب امتناعه عن تأييد الدعوة إلى الجهاد وكانت جميع الجهود تبذل خلال ذلك النزاع لخداع العالم العربى وحمله على الاعتقاد أن شريف مكة قد بارك الدعوة إلى الجهاد وكانت الاوامر تقضى بان تعلن هذه الكذبة بدون تحفظ فى خطبة الجمعة فى جميع مساجد بلاد الشام والعراق جمعة بعد جمعة وحملت الصحف على أن تقوم بدورها فى هذا المجال فتكررت فيها البيانات التى تتضمن اكاذيب جديدة وفى شهر ديسمبر ١٩١٤ ارسلت راية النبى ﷺ وقد اعلن عنها فى اوسع نطاق ممكن ففى ٣٠ / ١١ / ١٩١٤ نشر بلاغ فى صحف بلاد الشام فحواه أنه نتيجة لإعلان الجهاد الاكبر جرى احتفال مهيب عند قبر رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة شهده عشرون الفا من المؤمنين اخرجت اثناءها راية الرسول ﷺ بما يليق بها من التبجيل تمهيدا لنقلها إلى دمشق حتى تبارك الجيش العثمانى وفاز بشرف نقل الراية عميد «آل البيت» واكبرهم سنا «السيد علوى بالفقية العلوى» وابناؤه الثلاثة ووصلت الراية وموكبها بالقطار إلى دمشق فى ١٥ / ١٢ / ١٩١٤ وكان فى استقبالها كل من جمال باشا وهيئة اركان حربه والوالى واعضاء مجلسه وكبار ذوى المكانة الدينية ولم ينته موكب الراية فى دمشق بل نقلت فى احتفال مماثل إلى بيت المقدس وأقيم احتفال كبير فى الساحة المحيطة بقبة الصخرة برئاسة جمال باشا أيضا ووضعت الراية هناك مؤقتا لاخراجها فى اليوم الذى سيزحف فيه الجيش على مصر وبعد ثلاثة ايام توفى عميد الاسرة الهاشمية «السيد علوى بالفقيه العلوى» فحقق بذلك وعده قصدرت الاوامر إلى الوعاظ أن ينتشروا بين الناس يشيدون بموته ويعتبرونه قدوة تحتذى ويعظمون من شأنه ولكن الناس اخذوا يتساءلون عن السبب فى تخلف الشريف عن حضور الموكب إذا كان قد أيد حقا الدعوة إلى الجهاد ولو فرض وجود ما يدعو إلى تخلفه فى مكة فلماذا لم ينب عنه أحد أبنائه ؟ وبينما كان الشريف حسين يتلمس الظروف والاحتمالات من حوله وصل إليه رسول من جمعية «العربية الفتاة» التى أصبح

مقرها فى «دمشق» وكان هذا الرسول هو «فوزى البكرى» وحملته الجمعية رسالة لينقلها إلى الشريف وكانت الرسالة شفهية فحواها «أن الزعماء الوطنيين فى الشام والعراق ومن بينهم ضباط كبار من العرب فى الجيش التركى يميلون إلى الثورة للحصول على استقلال العرب فهل يوافق الشريف على قيادة هذه الثورة ؟ وإذا وافق على ذلك فهل يستقبل وفدا من الجمعية فى مكة أو يرسل إلى دمشق مندوبين عنه يثق فيهم للاتفاق على مراحل التنفيذ ؟ ولهذا ارسل الشريف الحسين ابنه فيصل إلى دمشق حيث وصل إليها فى ٢٦ / ٣ / ١٩١٥ وكان فى استقبال جمال باشا ثم نزل فى منزل البكرى واطلع على اسرار الحركة العربية القديمة وكانت أولى هذه الاجتماعات مع الاعضاء البارزين وصرح فيصل بأن تفضيله للاتراك ناجم عن مخاوفه من الاوربيين وقد غير هذا التصريح مجرى الحديث ودل على وحدة المشاعر بين فيصل ومحدثيه ووافقت اللجنة العليا «الجمعية العربية الفتاة» فى اجتماعها الذى عقد قبل مجئ فيصل على القرار التالى [٨]:

«نتيجة لاشتراك تركيا فى الحرب اصبح مصير الولايات العربية فى الدولة العثمانية معرضا لمخاطر شديدة ويجب بذل جميع الجهود لضمان حريتها واستقلالها كما تقرر أنه إذ تحقق أن للدول الاوربية مطامع فى هذه البلاد فان الجمعية ملزمة بان تعمل إلى جانب تركيا لكى تقاوم التدخل الاجنبى مهما تكن صورته» .

أصبح فيصل اقرب إلى نفوس اعضاء جمعية «العربية الفتاة» بعد اكتشاف الاساس المشترك بين اتجاهيهما المختلفين وبذلك سادت مباحثاتهم روح المودة والتفاهم وكشفت الجمعية اسرارها لفيصل فأصبح عضوا فيها بعد أن حلف اليمين ثم اجتمع ببعض اعضاء «جمعية العهد» وهى المنظمة السرية التى تضم ضباط الجيش وقد وجد أن موقف هذه المنظمة مطابق لموقف الجمعية السابقة فكانت كلتاهما ترغبان فى الانفصال عن الاتراك ولكن هذه الرغبة كان يكبحها الخوف من المطامع الفرنسية والبريطانية والايطالية والروسية ، وحينما استأنف الشريف الحسين المفاوضات مع بريطانيا فى يوليو ١٩١٥ لم تكن الحرب فى الشرق الأدنى تسير كما ينبغى وفق مصلحة الحلفاء فقد كلفتهم الاعمال الحربية فى «غاليبولى» كثيرا ولم تكلل بالنصر ومع أن هجوم الاتراك على مصر قد صد غير أن الخطر كان لايزال قائما وكان يستدعى حشد قوات كبيرة ، ولقد انفق من قبيل المصادفة أن نشبت الثورة العربية فى اليوم الذى توفى فيه كتشنر وذلك يوم الاثنين ٥ / ٦ / ١٩١٦ وذلك بعدما قدم

«هنرى مكماهون» التعهد المضمن فى مذكرته الثانية ذكر أن بريطانيا تعترف بقيام دولة عربية مستقلة فى جميع المناطق الواقعة داخل الحدود التى اقترحها شريف مكة وذلك على أثر اتفاق جمعيتى «الفتاة» و«العهد» اللتين وضعتا «ميثاق دمشق» ويتضمن الشروط التى يطالب الزعماء العرب بتحقيقها لكى يؤازروا بريطانيا على تركيا واتفقوا على أن يحمل الامير فيصل هذا الميثاق إلى مكة ويطلب من والده أن يعرف من الحكومة البريطانية هل تقبل هذه الشروط اساس للعمل المشترك وهى كما يلى :

«اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية :

شمالا : خط مرسين - أضنه - إلى ما يوازى خط العرض ٣٧ شمالا - ثم على امتداد خط بيريجيك أو رفة - ماردين - مديات - جزيرة ابن عمرو - العمادية إلى حدود ايران .

شرقا : على امتداد حدود ايران إلى الخليج العربى جنوبا .

جنوبا : المحيط الهندى «باستثناء عدن يبقى وضعها الحالى كما هو » .

غربا : على امتداد البحر الاحمر ثم البحر الابيض المتوسط إلى «مرسين» .

الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التى منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الاجنبية عقد معاهدة دفاعية بين بريطانيا وهذه الدولة العربية المستقلة ، تقديم بريطانيا وتفضيلها على غيرها من الدول فى المشروعات الاقتصادية » .

تلك هى الشروط التى كان يتمسك بتحقيقها الزعماء العرب لكى يقوموا بثورة عربية يعلنها شريف مكة ويبذلوا اقصى جهدهم لمؤازرة قضية الحلفاء وأن «ميثاق دمشق» ذو قيمة كبيرة ولاتقتصر قيمته على أهمية ما تضمنه من شروط فحسب وإنما تتمثل أيضا فى أن الشريف الحسين قد استخدم «ميثاق دمشق» وطالب فى تحقيقها فى مباحثاته مع بريطانيا ، كما يرجع أهمية «ميثاق دمشق» أنها وثيقة تاريخية تتمثل فى أنها توضح موقف العرب تجاه الدول الغربية الكبرى وكان الهدف هو الاستقلال استقلالا مضمونا محصنا عن أى تدخل اجنبى حتى ما كان يعرف باسم الامتيازات الاجنبية اما إذا كانت بريطانيا مستعدة لأن تعترف للعرب بهذا الاستقلال فانهم حينئذ يرحبون بالتحالف معها . وكان الامير فيصل يرى أن هذه الشروط هى اقل ما يمكن المطالبة به فى سبيل قيام العرب بالثورة ثم حلف الزعماء الرئيسيين يمين الولاء وتعاهدوا على أن يعتبروا الشريف الحسين هوممثل الشعب العربى وعلى

أن تهب الفرق العربيـة المرابطة فى بلاد الشـام هبة رجل واحـدا إذا مـا اتفـقت بريطانيـا مع الشريف الحسين على تحقيق الشروط الواردة فى «ميثاق دمشق» وتأكيدا لهذا العهد اعطى الشيخ بدر الدين الحسينى اكبر علماء دمشق خاتمه إلى فيصل ليسلمه إلى الشريف الحسين رمزا لثقة أهل الشام به ، وافقت بريطانيا على مطالب الشريف حسين ولكنهـا أبدت تحفظا فى الحدود الشمالية الغربية كما يلى :

«إن ولايتى مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربيـة لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لايمكن أن يقال أنها عربية محضة وعليه يجب أن تستثنى من الحدود مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب (فى الخليج العربى) نحن نقبل تلك الحدود » . وأن الجواب الذى بعث به الشريف الحسين ردا على مذكرة مكماهون الثانية يظهره سياسيا بعيد النظر من ارفع طراز فقد جاء فى جوابه الذى استهلها الشريف حسين ببيان موقفه من قضية الحدود ووافق دون تلكؤ على استثناء ولاية «اضنه» التى تضم ميناء «مرسين» ولكن رفض أن يوافق على استثناء تلك الاجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات «دمشق الشام» و«حمص» و «حماة» و «حلب» على اساس أنها تختلف عن «مرسين» واضنه فى أنها مناطق عربية محضة كما أنه لم يوافق على استثناء «الاسكندرونة» ثم وافق على التحفظات الخاصة بالامراء العرب الذين تربطهم ببريطانيا علاقات تحالف مثل الكويت - البحرين - ساحل عمان - عمان- وابن سعود - عربستان - ولكن هذه الموافقة وردت فى سياق عبرات جعلت من الممكن أن تفهم على أنها تقتصر على الامراء فى «الكويت» - و «عربستان» - و «ابن سعود» ، اما ما طلبه «مكماهون» من التعاون العربى - البريطانى المشترك فى الولايات العراقيـة فـان الشريف الحسين لم يقبله جملة ولكنه وافق على أن تحتل القوات البريطانيـة لفترة ما بعد الحرب «تلك الاجزاء من العراق التى كانت آنئذ فى نوفمبر ١٩١٥ فى قبضة بريطانيا على أن يكون مفهوما أن ذلك الاحتلال مؤقت وأنه لايعنى سلخ أية بقعة عربية وأن تدفع بريطانيا مقابل ذلك معونة مالية يتفق عليها للدولة العربية التى ستستقل مساهمة منها فى موارد ميزانيتها وذلك خلال سنوات نشأتها ، ويطالب أن يشترك العرب فى مؤتمر الصلح محاربين «غير رسميين» وأن تقدم بريطانيا ضمان فى صورة تعهد بان تقف فى صف العرب وتدافع عن قضيتهم فى مفاوضات الصلح وقد ابدى عدم رغبته فى اعلان الثورة فورا قبل اتمام الاستعداد لها ومهما يكن فقد اكد وجوب حصوله على هذه الطمانات قبل أن يخطوا أية خطوة .

وبعد الموافقة البريطانية على المطالب العربية التى قدمها الشريف الحسين انتهت المفاوضات واعتبر الفريقان أن الصفقة قد تمت وفى يوم السبت العاشر من يونية ١٩١٦ فى الصباح ابتدا اطلاق النار بشدة على الشكنات العسكرية فى مكة المكرمة و «الحميدية» دار الحكومة وبذلك قامت الثورة العربية وحوصرت الجنود التركية فى حصونها فى قلعة «جياد» التى سقطت يوم الثلاثاء وفى نفس يوم السبت نشبت الثورة فى مكة قامت قبائل «الحرب» بهجوم على الحامية التركية فى «جدة» واحدثت انباء الثورة ذهولا فى تركيا والمانيا وثار غضب جمال باشا متجاوزا كل حدود فصب غضبه على القادة العرب واصدر اوامره للقبض على الناس بالجملة ومنهم شكرى باشا الايوبى وعبدالحميد باشا القلطقجى وزكى بك العظمة وفارس الخورى وكذلك شكرى القوتلى الذى كان من أشد أعضاء «سورية الفتاة» حماسة واصغرهم سنا حاول أن ينتحر بعد أن مزقوا جلده بالسياط فعمد إلى سكين يقطع بها شرايينه خشية أن يبوح وهو فاقد الوعى من شدة التعذيب بشئ من اسرار الجمعية وفى الوقت نفسه زور جمال واعوانه شهادات تسوغ لهم اصدار احكام بالاعدام ولاريب فى أن الكثيرين كانوا سيواجهون المولات لولا أن تدخل فيصل فى الوقت المناسب فكتب إلى جمال باشا بأنه إن مات واحد من المتهمين بسبب سوء المعاملة أو اعدام فانه سينتقم له من الضباط الاتراك الذين اسرهم فى «مكة» و «الطائف» و«جدة» و«المدينة» وأنه لن يتردد فى أن يقتل بالرصاص عشرة ضباط اتراك مقابل كل عربى واحد يروح ضحية لطغيان جمال وكان لهذا الوعيد اثره فاطلق سراح المتهمين ووضعوا تحت رقابة بوليسية مشددة (٩).

اثر ثورة الشريف حسين فى العراق الذى كان لايزال تحت حكم الاتراك فى قبضة هيئة عسكرية صارمة وكانت قد عمته أيضا موجة من الارهاب اعتقالا وتغريبا وشنقا وإن لم تبلغ ما بلغته فى بلاد الشام وكان العراق يختلف عن بلاد الشام فيما يتعلق بقيادة الثورة فقد كان كل القوميين العاملين فيه ضباطا فى الجيش يعملون فى وحدات مرابطة فى جهات اخرى من الدولة العثمانية وأولئك هم الذين كانوا يمثلون صلب جمعية «العهد» وهم الذين اصبحوا من بعد ركن الحملة العربية التى انبثقت عن الثورة وادوا فيها الدور الكبير ، واما فى الجزيرة العربية فقد كان لأنباء الثورة اثر عميق وكبير نعم إنها لم تكسب إلى جانبها الحاكمين العربيين «ابن الرشيد» وامام اليمن الذين كانا قد وضعا ايديهما فى ايدى الترك ولكنها جعلتهما يعيدان النظر فى موقفهما متأملين وحرمتهما من عون بعض كبار رؤساء

القبائل مثل شيوخ «بنى حاشد» و «بكيل» اللذين كان هذان الشيخان يحاولان أن يكفلا معونتهم للأتراك ، كذلك فان سائر الحكام فى الجزيرة العربية رحبوا بالثورة وعبروا عن تأييدهم لها فى مهرجان كبير عقدوه فى العشرين من نوفمبر ١٩١٦ بالكويت وكان فيمن شارك فى هذا المهرجان الكبير «ابن سعود» والشيخ خزعل حاكم عربستان وحاكم الكويت مع ما يزيد على مائة وخمسين شيخا من شيوخ القبائل العربية والقى «ابن سعود » فى المجتمعين خطابا بليغا يمدح فيه الشريف حسين ولخص فيه الموقف ضد الاتراك فأثار حماسة منقطعة النظير وفى ذلك الخطاب حث جميع العرب على أن ينضموا تحت راية الشريف حسين وثورته العربية الكبرى وألا يوفروا جهدا فى أن يعضدوا القضية التى تهم كلا من بريطانيا والعرب وسرت اخبار الاجتماع ومهرجان الكويت وكلمات «ابن سعود» المثيرة لثورة الشريف حسين الكبرى فى جنبات الجزيرة العربية سريان النار العارمة وكان نقلة الاخبار يسردون عبارات كاملة من خطابه وليس ذلك بغريب على النقلة اهل الحفظ والرواية فى الجزيرة العربية مرحلتان اختتمت الأولى منهما بالسيطرة على «الوجه» فى ٢٥ / ١ / ١٩١٧ وابتدأت الثانية بالاستيلاء على «العقبة» فى يوليو وكانت المرحلة التى تمثل اتجاه العرب إلى «دمشق» ابرز المرحلتين واهمها وفى صباح أول اكتوبر ١٩١٧ دخلت دمشق» مفرزة من الخيالة البريطانية وقوات الشريف ناصر ونورى الشعلان بينما كان الامير فيصل و ١٢٠٠ من اتباعه على ظهور خيولهم يدخلون دمشق التى كانت عاصمة الامويين فيما مضى وتم الاستيلاء على سوريا كاملة قبل نهاية شهر أكتوبر نتيجة لحركتين حربيتين متميزتين سارت الأولى على طول الساحل مارة «بصور» و «صيدا» إلى «بيروت» و «طرابلس» وسلكت الثانية الطريق الداخلية من خلال «حمص» و «حماة» و«حلب» ولم يقم العرب بدور فى الأولى وإنما كان لهم الدور الأول فى الثانية . وأصبحت دول الحلفاء كلما تقدمت الحرب أكثر حرصا على تفكيك أوصال تركيا وكانت الدولة العثمانية إلى ذلك الوقت قد احتفظت بالوحدة الاساسية لاراضيها نتيجة المنافسة بين تلك الدول الاوروبية الاستعمارية وإن تقلصت مساحتها بالنسبة لما كانت عليه أولا وكان الشعار القديم الذى وقفت بريطانيا تؤيده بقوة واختارته دول التحالف الأوروبية الاستعمارية اساس لسياسة موحدة هى الحيلولة دون انهيار الدولة العثمانية وظلت تلك هى السياسة السائدة منذ التكالب على قوات محمد على ومنعه من تحقيق قيام الدولة القومية العربية التى تبناها الشريف حسين فى هذه الفترة ، وقد استمرت تلك السياسية البريطانية حتى قيام الحرب العالمية الأولى تقريبا وفى تلك السياسة

جميع ما فى مبدأ نكران الذات من فوائد دون أن يكون فيها شئ من عيوب ذلك المبدأ لأنها أساس حققت غايتها المزعومة وسمحت مع ذلك لكل واحدة من تلك الدولة الاستعمارية الأوربية أن تسرق أو تستعمر أية منطقة تطمع إليها رغباتها من مناطق السلطان العثمانى وفى خلال الاربعين سنة التى انقضت بين اعتلاء عبد الحميد للحكم ومجئ جماعة الاتحاد والترقى حتى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ أرغم الاتراك على أن يتنازلوا عن عدة مقاطعات غنية فى آسيا الصغرى لروسيا وعن «قبرص» و «مصر» لبريطانيا وعن «تونس» لفرنسا وعن «ليبيا» لايطاليا وعن «البوسنة والهرسك» للنمسا هذا فضلا عن تلك المقاطعات البلقانية التى ارغمت الدولة العثمانية عن التخلى عنها بضغوط روسية وعندما دخلت تركيا بدأت الكثير من الرغبات الحبيسة تتحسس طريقها نحو التجسيد فأرادت روسيا احتلال الآستانة والمضايق وطالبت فرنسا بلاد الشام وبدأت بريطانيا تحس بحاجها إلى العراق والجزيرة العربية اضافة إلى الاطماع الايطالية فى اسيا الصغرى وافتتح باب المفاوضات فى أوائل عام ١٩١٥ وابرمت تلك الدول الاستعمارية المسيحية سلسلة من المعاهدات السرية فى السنوات الثلاث الأولى من الحرب توزعت فيها بينها شرائح من الدولة العثمانية ومن بينها تقطيع أوصال الجسم العربى فى المشرق إلى دويلات قطرية وامارات قذمية سواء فى العراق وبلاد الشام أو شرق الجزيرة العربية وبذلك بدأت بريطانيا تناقض عهودها التى قدمتها للعرب باتفاقية «سايكس- بيكو» التى عقدت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا لتقطيع الشرائح من المشرق العربى وأن اتفاقية «سايكس - بيكو» البريطانية - الفرنسية وثيقة مروعة فليست هى فحسب وليدة الجشع فى اسوأ صوره حين يكون الجشع مقترنا بالريب فيؤدى إلى الحماقة بل هى أيضا صورة مرعبة للمخادعة والمكر الاستعمارى البريطانى - الفرنسى المسيحى .

انتصر الحلفاء ووجدت الحركة القومية العربية نفسها لأول مرة فى التاريخ جنبا إلى جنب مع ما قدر لها إذ مشى النصر بأعلامها شمالا إلى الحدود التى تمنت أن تبلغها فتحررت سوريا من سيناء إلى «طوروس» وتحررت العراق حتى الموصل ولم يبق فى الجزيرة العربية نفسها من السلطة التركية إلا بضع حاميات لاحول لها وسيكون الاستسلام مصيرها وهكذا اخيرا تخلفت كل الولايات الناطقة بالعربية فى الدولة العثمانية من الحكم التركى الذى جثم على ارضها فى مدى أربعة قرون ومن قبلهم المماليك من الاتراك أيضا ، ويبدو كأنما آلة

الحرب نفسه انحنى اجلالا للدور الذى لعبته اللغة فى تاريخ الحركة القومية العربية فظل يقود الخطى شمالا إلى أن وقف عند الحد الفاصل بين لغتين العربية والتركية وكان المجال الذى انهزم فيه الترك هو بالضبط المنطقة التى تتعداها امانى العرب وتتفق حدودها تماما مع الحدود التى عينها الشريف الحسين واعتبرها حدودا طبيعية لمدى ما سيبلغه الاستقلال العربى؟ وبذلك كان التلاحم القومى لأبناء الجزيرة العربية مع اخوانهم ابناء الشام تحت قيادة الشريف الحسين .

ولقد زاد إلى ابتهاج الشعب وقادته أن الثورة العربية الكبرى أسهمت فى احراز النصر المشترك بجهد بارز إذ آدت دورها المقدر لها وتجاوزته احيانا فى قهر الاتراك . وباستثناء العراق حيث تم طرد الأتراك على أيدى الجيوش الهندية - البريطانية وحدها دون سواها ولم يشن العرب الحرب على الاتراك وحدهم بل حاربوا أيضا كل من أيد الاتراك عمليا من أبناء جنسهم واحسن زعماء الثورة العربية الكبرى أنهم قد دفعوا كل النصيب المطلوب منهم فى الصفقة المعقودة بين «السير هنرى مكماهون» والشريف الحسين وتوجهت انظارهم الواثقة إلى بريطانيا لتؤدى النصيب المقرر عليها ولكن حين جاء دور الحساب فى مؤتمر الصلح تبين أن ثمة بونا شاسعا بين ما يطالب له العرب وبين ما ترضى الحكومة البريطانية أن تعترف به نصيبا مقررا عليها فى الصفقة فقد فرضتا كل من بريطانيا وفرنسا على العربى تسوية انتهكت حرمة كل من الوعود الصريحة التى قطعت لهم المبادئ التى اعلن الحلفاء أنها ستكون أسس السلم المقبل ولكن طريقة المعالجة للمسألة العربية بعد الحرب العالمية الأولى هى التى أدت بصورة مباشرة حتمية إلى انفجارات وثورات ما كانت لتحدث لو لم تجر تلك التسوية وإذن لأبقينا على آلاف النفوس وملايين الجنيهات ووفرنا مالا يحصى من الآلام والاضرار وإذن لما حدثت ثورة العراق ١٩٢٠ والثورة السورية ١٩٢٥ والانفجارات المتكررة فى فلسطين لأنها جميعا كانت نتيجة مباشرة لنظم الحكم المختلفة التى فرضت ظلما وبالاكراه على العرب فى العراق وسوريا وفلسطين وفى ذلك انتهاك للعهود التى دخل العرب الحرب بمقتضاها وبذلك تعكرت العلاقات البريطانية - العربية وأحدث الاشمئزاز والمرارة اللذان ولدتهما طريقة الحلفاء فى الحجاز وعودهم بعد الحرب قد أحس العرب أن الخيانة قد حاقت بهم وأن الذى خانهم أعز أصدقائهم من البريطانيين الذين استعمروا «العراق» و «فلسطين» و «شرق الاردن» اضافة إلى شرق وجنوب الجزيرة العربية فى حين استعمرت فرنسا بلاد الشام

وقطعته إلى «وسوريا» و «لبنان» وسلخت «الأردن» و «فلسطين» لصالح بريطانيا أما الجزيرة العربية فقد تركت على حالها ففى الحجاز كان الملك الحسين هو السيد الاسمى لما كان سابقا يعد ولاية من ولايات الدولة العثمانية ثم اصبح دولة عربية مستقلة ولم يكن يهدد مركزه الذى لايكفل بقاءه سوى اعتراف دول الحلفاء به وخاصة بريطانيا وابن سعود فى «الاحساء» و «نجد» وتقع إلى الشمال من بلاد «الشمر» «الممتدة» من «نجد» جنوبا إلى «العراق» و «سوريا» شمالا وكان ما يزال يحكمها «ابن الرشيد» الذى ضعفت قوته ومكانته كثيرا بسبب انحدار الاتراك وفى الجنوب «الادريسى» والامام يحيى وأولهما يحكم فى شمال اليمن فى مقاطعة عسير والثانى يبسط سلطانه فى اليمن الاوسط فى «صعدة» و «صنعاء» ما دام الاتراك قد استسلموا إلى القيادة البريطانية فى «عدن» ولم يتأثر عمليا مركز كل من الكويت الذى كان له أو احتفظ به فى الحرب ، وهذه الفروق هامة فى مغزاها لأن فيها دلالة على الدوافع الخفية التى كانت لدى الحلفاء فيما أن هناك اعتبارات عملية واخرى سياسية تحول دون امكانات التغلغل الخارجى فى داخل الجزيرة العربية تركت الجزيرة فى أكثر الاحوال وشأنها اما فى الاقطار العربية الشمالية التى اتجهت نحوها شهوة الاستيلاء فى نفس الاستعمار البريطانى والفرنسى المسيحين فقد اقيمت فيها التنظيمات الادارية الاستعمارية (١١).

٤- اليمن والحرب العالمية الأولى

قام بعض الضباط من اركان حرب القوات العثمانية فى اليمن يرافقهم بعض مشايخ البلاد بالطواف على الحدود الممتدة والمتاخمة لمنطقة نفوذ بريطانيا وأرسلوا رسلهم إلى داخل «لحج» لمعرفة آخر الانباء كما قاموا بنقل عدد من المدافع من صنعاء إلى تعز لتدعيم قواتهم فى الجنوب هذا فضلا عن أن الترك استحصلوا على تعهد من بعض المشايخ اليمنيين بحماية الحدود الجنوبية لليمن من أى عدوان بريطانى ولم يطلبوا من الدولة من أجل ذلك إلا امدادهم بالاسلحة والذخيرة وقام الترك بمحاولات سلمية لجذب سلطان «لحج» إلى جانبهم بشتى الوسائل والدعايات الممكنة غير أن سلطان «لحج» اطمئن للبريطانيين فى عدن وكان قد ارتبط معهم بمعاهدات واتفاقيات تعهدوا له فيها بحمايته من أى عدوان تتعرض له بلاده ، واتخذ امام اليمن الموقف المحايد وأرسل مندوبا عنه إلى «لحج» فى يناير ١٩١٥ تمكن من مقابلة السلطان بحضور حاكم عدن وقد عبر المندوب اليمنى عن اعتذار الامام عن الاشتراك

فى أى أعمال عدائية ضد الترك نظرا لارتباطه باتفاقية «دعان» وأنه لن يخونهم ولذلك فان الامام والعثمانيين تعرضوا لوطأة الحصار الذى فرضته بريطانيا على سواحل اليمن أثناء الحرب العالمية الأولى وبذلك اجتاحت اليمن ضائقة اقتصادية ؛ كما زاد من ضيق الحصار فى اليمن التحالف الذى تم بين الشريف حسين ومحمد الادريسى مع بريطانيا ضد العثمانيين بعد اشتعال الثورة العربية الكبرى مما أدى إلى انقطاع الطريق الصحراوى مع الحجاز فكادت الدائرة بذلك تكون مقفلة حول العثمانيين المحصورين فى اليمن اضافة إلى الامام وشعبه أيضا [١٢].

ولهذا اتجه العثمانيون لمهاجمة «لحج» ومحاولة غزو «عدن» وكانت تلك خطه عسكرية صائبة ابعدت قواتهم من مرمى قذائف الاسطول البريطانى وكان البريطانيون يرون فى «لحج» خط دفاع أول عن «عدن» نفسها ، وقد نجحت القوات العثمانية إلى «الضالع» فى فبراير عام ١٩١٥ كما اشترك بعض القبائل اليمنية من اتباع الامام مع العثمانيين فى الهجوم على «لحج» بصفتهم الشخصية وليس بصفتهم ممثلين للامام يحيى الذى رفض أن يقحم نفسه فى تلك الحرب وارسل البريطانيون قواتهم إلى «لحج» للدفاع عنها ويعتبر هذه المعركة هى أول معركة والوحيدة فى الجزيرة العربية بين القوات البريطانية والتركية كما يعتبر هذه المنطقة الوحيدة التى حققت فيها القوات التركية انتصارا كاسحا على القوات البريطانية التى لم تستطيع الصمود امام الزحف التركى فتقهقرت عن «لحج» مهزومة فدمر الاتراك «لحج» فى ٥ يوليو ١٩١٥ ثم زحفوا على «الشيخ عثمان» فاستولى عليها فى اليوم التالى وبرغم وصول التعزيزات البريطانية الكبيرة إلى «عدن» لاخراج الترك من «لحج» ومحاولاتهم العديدة إلا أنها فشلت ولم يتمكنوا من ذلك فظل الاتراك فى «لحج» حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وكان معظم الجنود الاتراك فى اليمن من «السوريين» ، وقد تخلى عن مساندة سلطان «لحج» ضد الاتراك عدد كبير من الامراء اليمنيين فى المشيخات المجاورة لبلاده لخوفهم من قوة الترك ولعدم ثقتهم فى مساعدة بريطانيا وحمايتهم وذلك بعد انهزام البريطانيين امام القوات التركية فى حين لم يحاولوا الاتراك مهاجمة «عدن» لعلمهم بحصانتها ومنعتها لأن البريطانيين كان يمكنهم الحصول على الامدادات اللازمة عن طريق الاسطول البريطانى[١٣] واستمر الوضع كذلك حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وارسل البريطانيون إلى القائد العثمانى على سعيد باشا خطاب بقبول الدولة العثمانية الشروط التى

فرضها الحلفاء لوقف القتال فى ٣١ / ١٠ / ١٩١٨ وبذلك سلم القائد العثمانى نفسه والحاميات التركية التى نقلتها السفن البريطانية من اليمن إلى اسطنبول .

ثانيا : الجزيرة العربية بين الحربين العالميتين

بدأ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى اضافة إلى الاستعمار الانجلو - فرنسى مولد قوى ونزعات إقليمية قطرية عربية جديدة لم تكن ملازمة لاتجاهات الحركة القومية العربية فى العشرين عاما الاخيرة فى الوطن العربى وقد يرجع تلك التطورات إلى اليقظة العربية المميزة التى كانت فى القرن التاسع عشر والقوى التى اثارتها ووجهتا فى ميدان انتشارها الرئيس ، وكانت الجزيرة العربية جزء من الدولة العثمانية ما عدا «البحرين» و «ساحل عمان» و «عمان» و «حضرموت» و«عدن وملحقاتها السبع» التى كانت تحت الحماية البريطانية ، وبما أن الجزيرة العربية يتألف من ولايات تعتمد بدرجات متفاوية على الحكم المركزى فقد كان يتمتع بوضع سياسى موحد فلما تقلص عنه ظل السيادة العثمانية وانتهى بعد الحرب العالمية الأولى تكونت دويلات قطرية ونظم جديدة تتباين فى وضعها السياسى بين الاستقلال التام كحكم الامامة الزيدية فى اليمن والخضوع الفعلى للاستعمار البريطانى لبقية اجزاء الجزيرة العربية بدرجات متفاوتة » ، وقد كان هذا التباين خليقا أن يجر فى اعقابه سلسلة مماثلة من الفروق فى الأهداف والاساليب فى مجال النشاط القومى فى كل قطر وأن الدول التى شكلت بعد الحرب فورا كانت تقع فى قسمين أولهما دول الجزيرة العربية نفسها وثانيهما دول المستطيل العربى إلى الشمال من القسم الأول وأن الحرية التى نالتها دول الجزيرة العربية بالحكم الذاتى ماعدا اليمن تقف موقف المفارقة من حال الخضوع للحكم البريطانى أو الفرنسى المفروض على دول القسم الثانى وهى العراق وسوريا ولبنان والاردن وفلسطين وكانت هناك عوامل تضافرت فى ذاتها ضد اتخاذ نظام موحد للعالم العربى كله مثل الفروق فى التكوين الاجتماعى وفى النضج السياسى غير أن العامل الحاسم فى التمييز الذى اقامه الحلفاء بين القسمين هو أنهم كانوا يعتبرون الجزيرة العربية على خلاف المستطيل العربى العراق وبلاد الشام غير مجدية بالتغلغل الاجنبى وغير ذات نفع له فى أى حال وكان التغيير الاساسى الذى شهدته الجزيرة العربية هو حلول السيادة العربية محل السلطان العثمانى فتكونت خمس دول جديدة أى أن خمسة من عمال الدولة العثمانية استأثروا لأنفسهم بامتيازات الحكم المستقل وهم الملك الحسين بن على فى مملكة الحجاز والسلطان عبدالعزيز ابن

سعود فى سلطنة «نجد» والامام يحيى فى امامة اليمن ومحمد الادريسى فى مقاطعة عسير اليمنية وابن الرشيد فى امارة «شمر» وتشمل هذه الدول الخمس فيما بينها كل المنطقة المأهولة بالسكان فى الجزيرة العربية باستثناء «الكويت» و «البحرين» و«ساحل عمان» و «عمان» و «حضرموت» و «عدن وملحقاتها السبع» وكان كل واحد من الحكام الخمسة يعد نفسه سيدا مستقلا فى مقاطعته وقد افتتح ظهور هذه الدول المستقلة عن الحكم العثمانى فصلا جديدا فى تاريخ الجزيرة العربية كان مقدورا له أيضا أن يكون فاتحة سلسلة من التغييرات الأخرى واقامت بعض هذه الدول روابط بينها وبين بريطانيا وفوق ذلك كانت هناك مشكلات شائكة تتطلب تسوية وتؤثر فى العلاقات بين واحدة واخرى منها وكان النزاع بين آل الرشيد» فى امارة «شمر» و«ابن سعود» مشكلة حية اكثر منها فى أى وقتٍ مضى وكان الامام يحيى ينظر إلى توحيد اليمن الشمالى الذى حكمه الادريسى ويرى فى وجوده فى عسير تدخل فى مملكته[١٣] وتعديا عليها بعد انفصالها عنها ولهذا كان الامام يحيى يعمل على اعادة شمال اليمن فى عسير إلى حكم صنعاء .

١- الكويت ونجد واتفاقية «العقير» ١٩٢٢

بدأت أولى بوادر الخلافات بين نجد والكويت فى منطقة «بلبول» وقد بدأ الخلاف حين قرر الشيخ سالم أن يبنى قلعة هناك وبعث ابن سعود خطابا إلى الوكيل السياسى البريطانى فى الكويت يخبره أن منطقة «بلبول» تقع ضمن اراضى «القطيف» غير أن الشيخ سالم أكد أن «بلبول» ضمن اراضى الكويت ولاعلاقة لها «بالقطيف» واستند فى ذلك إلى بنود المعاهدة البريطانية - العثمانية لعام ١٩١٣ والتى جاء فيها بان بريطانيا تعترف بسيادة الدولة العثمانية على الكويت والتى تضم الاراضى والجزر المجاورة لها والتى تضم من «صفوان» فى الشمال إلى «حفر الباطن» فى الغرب وجبل «منيقة» فى الجنوب وتكون قضاء متمتعا بالاستقلال الذاتى ضمن اراضى الدولة العثمانية ومع ذلك فان الشيخ سالم عدل عن انشاء قلعة منطقة «بلبول» [١٤]. برغم اهميتها كخط دفاع أول عن بلاده وذلك لتحسين علاقاته مع ابن سعود تجدد الخلاف على الحدود مرة أخرى حين هاجرت جماعة من جيش «الإخوان» السعودية يقودهم «ابن شقير» إلى مكان يدعى «قرية» وشرعوا فى تأسيس بعض المستوطنات لهم وقد اعترض الشيخ سالم وحذر قائد جيش «الاخوان» من الاستمرار غير أن قائد «جيش الاخوان» اجابه بأنه لن يكف عن البناء ما لم يرد إليه امر صريح من ابن سعود

وقد عرض الشيخ سالم ذلك الامر على الوكيل البريطانى الذى لم يهتم بالامر كثيرا بل لم يجب عليه ، وكان من البديهى أن «ابن شقير» عندما رفض تهديدات الشيخ سالم شرع فى اقامة المساكن استعدادا للاقامة فيه مما أدى إلى قيام الشيخ سالم بتصعيد الموقف وهو ما حدث بالفعل . وأن شعور الشيخ سالم بالاحباط لعدم استجابة السلطات البريطانية لشكواه فضلا عن غضبه من رد «ابن شقير» العنيف عليه جعلته يفضل الاعتماد على قوته الذاتية لانهاء المشكلة مما جعل ابن سعود يرسل قوة من قبائل «المطير» للاغارة على أطراف الكويت ليبعد الشيخ سالم من استعادة منطقة فى «قرية» من قائد جيش الاخوان «ابن شقير» الذى بدأ يبنى مستوطناته مما جعل الشيخ سالم يرسل قواته إلى «حمص» حيث اثارت قوات الشيخ سالم مخاوف «ابن شقير» من أن يؤخذ على غرة فطلب قوات اضافية من ابن سعود والذى أمر قائده «فيصل الدويش» بأن يمد ابن شقير بقوات من «جيش الاخوان» اصبح كفته «ابن شقير» وقوات «فيصل الدويش» اقوى وقادرة على وقوف الهجوم الكويتى وبذلك اشتبكت القوات الكويتية مع جيش «الاخوان» السعودى فى ٤ / ٣ / ١٩٢٠ وانتهى بهزيمة قوات الشيخ صباح ولجا عبدالله الجابر الصباح بما يشبه المعجزة وقد ترك ذلك اثر حذرا على الشيخ سالم وراجت الاشاعات باقتراب هجوم سعودى على الكويت ولما تيقن الشيخ سالم من نوايا ابن سعود شرع يخطط للدفاع عن مدينة الكويت نفسها وذلك بان طلب من اهلها جميعا المعاونة فى بناء سور جديد لحمايتها من هجمات ابن سعود عن طريق «جيش حركة الاخوان». فأمر الشيخ سالم ببناء سور للدفاع عن المدينة وكان له ذلك [١٥].

جاء رد فعل بريطانيا من هجمات ابن سعود على الكويت فى معركة «حمص» فى ٤ / ٣ / ١٩٢٠ فاترا وغير مهتما فقد اشار الوكيل البريطانى فى الكويت على الشيخ سالم بتسوية سلمية لهذه الخلافات غير أن الطرفين فشلا فى الوصول إلى تسوية مباشرة من خلال المراسلات بينهما وطلب ابن سعود من بريطانيا تعين الحدود الجديدة مع الكويت فطلبت بريطانيا من الشيخ سالم بان يقدم تأكيدا كتابيا مسبقا بأنه يلتزم بما تنتهى إليه الواسطة من قرار وقد رد الشيخ سالم بخطاب يوافق على تعيين الحدود ويطلب دراسته اسباب الخلافات وجذورها كما وافق الشيخ سالم على توقيع التعهد بالالتزام بما تنتهى إليه الواسطة وارفق ثلاثة شروط تضمن الأول حدود الكويت كما يتصورها الشيخ سالم من «حفر الباطن» إلى «جبل منيقة» فى الجنوب اما الثانى فتضمن هجوم «جيش الاخوان» السعودى فى حين

تضمن الشرط الثالث مواد الصلح بينه وبين ابن سعود ، اما بالنسبة لابن سعود فقد وافق على الوساطة البريطانية بشرط ان يسحب الشيخ سالم قواته من «الجهراء» إلى مدينة الكويت وألا يقترف أي عمل عدوانى ونظرا لتمسك الطرفين بمواقفه فلم يتوصلا إلى حل حيث تمسك الشيخ سالم بحدود الكويت من «حفر الباطن» فى الغرب إلى جبل «منيقة» فى الجنوب وتمسك ابن سعود بانسحاب القوات الكويتية من «الجهراء» وبذلك تصاعدت الاحداث بينهما وصولا إلى الصدام المباشر فى معركة الجهراء .

٢- معركة الجهراء ١٠ / ١٠ / ١٩٢٠ .

تعتبر معركة الجهراء علما فى تاريخ الكويت الحديث وذلك لأكثر من سبب فهى الحادثة التى برهنت صلابة موقف الشيخ سالم فى الدفاع عن أراضى الكويت الطبيعية وليس عن مدينة الكويت فحسب علما بأن الشيخ سالم كان قد توجه إلى «الهفوف» على رأس قوات كويتية فى ديسمبر ١٩١٥ لنجدة ابن سعود الذى كان محاصرا داخل مدينة «الهفوف» من قبل قبائل «العجمان» وقد نجح شيخ الكويت فى فك الحصار عن ابن سعود غير أن العلاقات الكويتية - النجدية تعكرت بسبب قبول الشيخ سالم وهو المنتصر على «قبائل العجمان» بأن سمح لهم باللجوء إلى ارض الكويت فى نفس العام وبعد هزيمتهم مباشرة ، ولكن انشغال ابن سعود بترتيب أوضاعه وفرض الاستقرار الداخلى واخضاع قبائل «العجمان» و «المرة» و «الهواجر» ثم «الرشيد» فى منطقة «الشمر» جعله مشغولا عن الكويت حتى عام ١٩٢٠ ولاسيما بعد أن بدأت «قوات الاخوان» تستعر نيرانها فى تلك الفترة بالذات [١٧]. فقد ركز ابن سعود جهوده فى هذه الفترة فى الاطاحة بحكم أسرة آل البيت فى الحجاز ضد الشريف الحسين وفى السعى لفرض اعادة النظر فى تخطيط حدود مملكته فى كل من الكويت والعراق ولقد كان سلاحه الوحيد للوصول إلى هذين الهدفين هو جيش الاخوان وهم فئة من قبائل البدو الأكثر تشبعا بالنزعة الحربية ومن هؤلاء استطاع ابن سعود ان يخلق قوة جبارة تحركها روح الجهاد والولاء له شخصيا وللقضية الوهابية ولقد كتب الكولونيل «ديكسون» الذى شغل الممثل السياسى البريطانى فى الكويت عن عمليات «جيش الاخوان الوهابية» فى العشرينات من القرن العشرين يقول [١٨] :

«لقد عوملت النساء معاملة كريمة وبعطف لفترة طويلة من التاريخ العربى ولكن حدث فى عام ١٩٢٠ وماتلاها من الاعدام عندما كان الاخوان الذين ظهروا إلى الوجود بفضل ابن سعود وذكائه وفى سبيل تحقيق اغراضه السياسية فى أوج قوتهم ان اغاروا على قبائل الكويت والعراق والاردن وفتكوا بمجموعات البدو الرعاة من القبائل الكويتية والعراقية التى تسكن فى انحاء متفرقة من الصحراء الجنوبية وفى هذه الغارات ذبح جيش الاخوان الوهابية النساء والاطفال بمنتهى القسوة واذا شئنا التخفيف من بشاعة هذا الجرم فانه يمكن القول أن معظم النساء والاطفال قد سقطوا صرعى رصاص جيش الاخوان السعودية الذين انقضت على ضحاياهم بالسيوف والخناجر وفتكوا بهم فتكا .

ويرجع الفضل فى الدرجة الأولى إلى هؤلاء «الاخوان» فى سقوط «مكة» فى ايدى ابن سعود كما تم الاستيلاء على «المدينة» و «جدة» وقد اعلن ابن سعود نفسه بعد ذلك ملكا على الحجاز على أن محاولاته لتعديل حدود ممكنة مع الكويت والعراق لم تتمخض عن نجاح برغم الغارات الوحشية العديدة التى شنها جيش الاخوان الوهابية على قبائل الحدود فى الكويت والعراق (١٩).

ولقد وقع ما كان فى حسبان الشيخ سالم فعلا حين بدأت جماعات من جيش الاخوان السعودية فى التحرك بقواتها بقيادة فيصل الدويش متجهة صوب الكويت شمالا ولايخفى أن نيتها كانت مبينه لمداهمة المدينة واخذها عنوة فرأى الشيخ سالم عندها أن خط الدفاع الاول عن الكويت لابد أن يكون فى «الجهراء» فتوجه إليها مع العديد من سكان مدينة الكويت وانضم إليهم صفوف المقاتلين من قبائل البدو وخاصة من قبائل العجمان والشمر وفى اليوم العاشر من اكتوبر ١٩٢٠ وقع الهجوم المرتكب عندما اصدر ابن سعود امرا إلى القائد العسكرى «لجيش الاخوان الوهابى» فيصل الدويش بمهاجمة «الجهراء» وكانت المعركة فى بدايتها فى غير صالح الكويت واضطر الشيخ سالم وقواته إلى اللجوء إلى «القصر الاحمر» والتحصن فيه لوقفة أخيرة امام جيوش السعودية التى كانت تفوقهم عددا ولاريب ان وقوف الشيخ سالم بالجهراء فى مقدمة المقاتلين للدفاع عنها من القصر الاحمر ليدل على شجاعة نادرة فى الحفاظ على أرض الكويت كما كان امراً له أهميته العسكرية لأن انهاك قوات ابن سعود حول الجهراء قد كفى مدينة الكويت شرهم وان كنا لن نطيل شرح حصار القصر الاحمر

والمقاومة الكويتية بقيادة حاكمها الشيخ سالم الصباح الذى صمد لغزو قوات بن سعود من «الاخوان» لابد من أن نشير إلى ابعاد هذه المعركة محليا وخارجيا اما اثر هذه المعركة على الصعيد المحلى الكويتى وعلى ارضها واستقلالها فكان بعيد المدى فلقد جعلت الكويت تقف بأهلها صفا واحداً يتحدون هجمات شرسة لوقدر لها النجاح لأضاعت استقلالهم ولصيرتهم تابعين للبلد الغازى اما على الصعيد الخارجى فى شرق الجزيرة العربية فان القتال الكويتى - السعودى قد أجبر بريطانيا على أن تقوم بتنفيذ وعودها حسب اتفاقية ١٨٩٩ مع الكويت إذ أن الطائرات البريطانية المرابطة بالعراق قامت بالقاء المنشورات المحذرة على جيش ابن سعود ان هم استمروا فى غيهم ثم كذلك قامت السفن الحربية البريطانية بالمرابطة فى ميناء الكويت على مرآى من الغزاة بما لزم من واجب إنذارهم أيضا وكذلك عجلت هذه الهجمات السعودية بعقد مؤتمر لاحق فى «العقير» ١٩٢٢ كان القاضى والحكم فيه بين العراق والسعودية والكويت هو السير «بيرسى كوكس» حاكم العراق البريطانى والصديق الوفى لابن سعود ، غير أن العلاقات بين الشيخ سالم وابن سعود لم تتحسن فى العام التالى لمعركة «الجهراء» وكانت آخر محاولة لرأب الصدع الذى اصاب العلاقات الكويتية - السعودية خلال تولى الشيخ سالم امارة الكويت الوساطة التى قام بها الشيخ كاسب ابن الشيخ خزعل حاكم امارة عربستان والشيخ احمد الجابر وهى وساطة قام بها فى اوائل شهر مارس حيث تم اجتماعهما به آنذاك(٢٠) .

طالبت بريطانيا من الشيخ سالم بعدم ارسال أى تعزيزات إلى «الجهراء» فى الوقت الذى سعى شيخ عربستان للتوسط فى عقد صلح بين الطرفين الكويتى والسعودى وقد وافق السير «بيرسى كوكس» الحاكم البريطانى فى العراق على ذلك واشترطت بريطانيا على الشيخ خزعل عدم النظر فى الصلح لموضوع الحدود بين «نجد» والكويت حيث سيترك ذلك لوجهة النظر البريطانية ويظهر هذا الشرط حرص السياسة البريطانية على عدم اجتياز أى أمر من وراء ظهرها بهدف تحقيق مصالحها الحالية والمستقبلية وقد ترأس الوفد الكويتى ولى العهد احمد الجابر غير أن وفاة الشيخ سالم فى ٢٧ / ١ / ١٩٢١ جعل الشيخ احمد الجابر يسارع بالعودة إلى الكويت وهو الذى كان قد تولى حماية مدينة الكويت من هجمات ابن سعود عندما كان عمه الشيخ سالم يدافع عن الجهراء ، ولم يكن السير «بيرسى كوكس» متحمسا لايجاد حل جذرى لمشكلات الحدود بين الكويت وابن سعود خلال النصف الأول من عام

١٩٢١ لوجود حاكم قوى معارضة للتوسع ابن سعود فى تلك الفترة مثل الشيخ سالم والذى كان يقف موقف عدائى من بريطانيا التى كانت مشغولة فى تلك الفترة أيضا بالثورات الشعبية فى العراق المحتل غير أن وفاة الشيخ سالم الذى كان حجر عثرة امام السياسية البريطانية فى المنطقة قد دفعت بريطانيا إلى الاسراع فى ايجاد الحدود التى تراها مناسبة لمصالحها ولحليفها ابن سعود على حساب الحدود الجنوبية للكويت فكانت معاهدة المحمرة وبروتوكول العقير .

٣- بروتوكول العقير ١٩٢٢

تولى الشيخ احمد الحكم فى فترة عصيبة من فترات تاريخ الكويت إذ أن العلاقات السعودية الكويتية التى بدأ أنها ستتحسن عادت لتتدهور من جديد بسبب ما عرف بمشكلة «السابلة» وكان على احمد الجابر أن يعالج بحكمة علاقات الكويت بجيران آخرين وان يكون حصيفا فى معاملاته مع البريطانيين الذين لم ينصفوا الكويت حين كان الامر بيدهم فى العام اللاحق لتوليته شئون البلاد والذى كان قد مارس الحكم والسياسة وتدبير امور الكويت ايضا فى حياة عمه سالم إذ أنه كان مسؤلا عن تسيير دفة الامور فى مدينة الكويت حين توجه سالم إلى الجهراء للدفاع عنها امام خطر السعوديين كذلك فانه كان قد شارك عمه سالم فى رفع الحصار عن ابن سعود فى «الهفوف» فى ديسمبر ١٩١٥ حين حاصر العجمان تلك المدينة ثم أنه كان أيضا ممثلا لعمه سالم حين ذهب مفاوضا ابن سعود مع الشيخ كاسب بن خزعل عام ١٩٢١ حين ارسلا إلى الرياض لتسوية الخلاف الناشب بين الكويت ونجد فى شهر فبراير من ذلك العام وبالرغم من أن «بيرسى كوكس» لم يكن متحمسا لتسوية الحدود النجدية - لكويتية إلا أن تصاعدا الغارات جيش الاخوان السعودى على حدود العراق دفع «بيرسى كوكس» للتحرك لايجاد حلول لهذه المشكلة حرصا على سلامة العراق البريطانى بمعنى أن تسوية الحدود العراقية - النجدية هو الذى كان محل اهتمام «بيرسى كوكس» وليست مشكلة الحدود الكويتية - النجدية التى كانت تحصيل حاصل لانها ادخلت هذه المشكلة الأخيرة ضمن بنود التسوية فى بروتوكول «العقير» [٢١]. وبذلك فان مشكلة الحدود بين نجد والعراق كانت هى الشغل الشاغل لبريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لان البريطانيين قد صارت بيدهم مقاليد الامور فى العراق ثم أن الكويت كانت بيدهم مقاليد شئونها الخارجية وفقا الاتفاق ١٨٩٩ وكذلك كانت لهم سيطرة على ابن سعود الذى كان قد طلب منهم الحماية عام ١٩١٥ وكانوا يمدونه بالسلاح والمال باستمرار .

رأى بيرسى كوكس الحاكم البريطانى فى العراق أن تأتى الحدود السياسة على غرار ما عرف فى اوربا بحيث تكون واضحة المعالم تبين نواهى كل قطر من الاقطار العربية الثلاثة دون مراعاة لوحدة القبائل العربية من الناحية الاجتماعية والانسانية أو لحركة تنقل الدائبة بينها وكانت القبائل تتجول بين اراضى الكويت والعراق ومنطقة شمر والاردن دون تقيد فى عهد الحكم العثمانى وكانت بريطانيا تعتبر حدود الكويت وفقا لاتفاقية ١٩١٣ التى كانت تصل بالحدود الكويتية جنوبا إلى «جل منيفة» على مسافة تبعد نحو مائة وستين ميلا عن حدود الكويت الحالية مع السعودية وكذلك الحال مع حدود الكويت الغربية التى تمتد إلى «حفر الباطن» . وبالطبع فان ما كان يجوز لكويت القوية فى عهد مبارك لم يكن ليصبح فى عرف «بيرسى كوكس» بعد وفاة مبارك حين صار يربط مع ابن سعود بعلاقات خاصة ولكل هذا رأى حاكم العراق البريطانى أن يوضح الحدود السياسية للدولة المذكورة وذلك من اجل أن يعترف بها دوليا ويدأ بالطبع يرسم الخطوط الرئيسية للعراق لكى يستطيع توقيع اتفاقيات خاصة بنفط الموصل ومن هنا كانت اتفاقية «المحمرة» المعقودة فى ٥ / ٥ / ١٩٢٢ اوضحت معالم الحدود السياسية بين العراق والسعودية ووافق عليها ابن سعود آنذاك ليعود وينقضها بعد قليل فى نفس العام قائلا أنها قد غبنته وأضافت حدود كبيرة للعراق مالم يكن لها وكذلك لأنها ابقت حدود الكويت مع نجد والاحساء كما كانت عليه فى اتفاقية ١٩١٣ وكان ابن سعود يطمع فى اقتطاع جزء كبير من اراضى الكويت التى حددت بموجب تلك الاتفاقية ولما رأى «بيرسى كوكس» حاكم العراق البريطانى موقف صديقه ابن سعود آنف الذكر قرر اعادة تخطيط الحدود العراقية الكويتية مع ابن سعود بما يتناسب تطلعات الأخير وقرر عقد مؤتمر العقير لهذا الغرض ويبدو من خلال جلسات المؤتمر الأول أن «بيرسى كوكس» كان حريصا على رسم الحدود بين الدول المعينة بما يرضى ابن سعود وان تكون الكويت دولة حدود تفصل بين العراق والسعودية وبذك تمنع الاحتكاك بينهما ، وعلى الرغم من علاقات الشيخ احمد الجابر الطيبة مع بريطانيا منذ أن تولى مقاليد الحكم قبل عقد «بروتوكول العقير» بعام فان «بيرسى كوكس» كان فيما يبدو قد مال إلى مساندة الجانب القوى وهو السعودية على حساب الجانب الضعيف وهو الكويت وخلاصة القول فى «بروتوكول العقير» التى وقعتها الاطراف المعينة يوم ٢ / ١٢ / ١٩٢٢ أنها حجمت حدود الكويت الجنوبية والغربية وجعلها إلى الوراء بنحو مائة وستين ميلا فى الجنوب وكذلك فى الغرب وليس كما كانت رسمتها

خريطة اتفاق ١٩١٣ وقد ضم ذلك الجزء المقتطع لممتلكات.ابن سعود كما رسمت تلك المعاهدة قيام منطقتين محايدتين بين السعودية والكويت من جهة ثم بين العراق والسعودية فى الشمال وحين بلغ «بيرسى كوكس» الشيخ احمد الجابر بشروط المعاهدة واوضح له حدود الكويت الجديدة وبعد أن رأى الشيخ احمد الجابر مقدار الحيف الذى نزل بالكويت باقتطاع نحو ثلثى اراضيها وتسليمها لابن سعود ، تردد حاكم الكويت فى توقيع الاتفاقية غير أنه وقعها وهو يلعنها ومن طريف مما يذكر عما ورد حين التوقيع أن قال احمد الجابر «لبيرسى كوكس» بعد أن شرح له الاخير السبب فى ضم ممتلكات الكويت لابن سعود ألا وهى قوة السعودية وضعف الكويت إذ أن الكويت كانت يومها اضعف مما كانت عليه فى عهد مبارك قال احمد الجابر (٢٢):

« وهل يعنى ذلك أن الكويت تستطيع أن تسترد ما سلب منها من أراضيها إذا صار شيخها فى قوة الشيخ مبارك دون معارضة بريطانية ؟ فأكد بيرسى كوكس لشيخ الكويت بان بريطانيا لن تعارض فى ذلك ، وأن الشيخ احمد الجابر لم ينس لبريطانيا تلك الاساءة على الرغم من أنها امنت له حدود الكويت مع جارتها العراق فى الشمال كما وعدت بذلك مبارك وهى تحارب الدولة العثمانية فى العراق أثناء الحرب العالمية الأولى .

يوجد هناك تفسير للوضع القانونى والواقعى بشأن ما تم التوصل إليه فى اتفقيتى «المحمرة» و «العقير» فقد كانت حدود الكويت حتى توقيعه اتفاقية «العقير» هى تلك التى تم الوصول إليها فى معاهدة ١٩١٣ ولم يكن فى الامكان تغيرها إلا باتفاق بين الحكومتين العثمانية والبريطانية وقد اوضح ابن سعود طبقا لهذا التفسير بتفاوضه على حدود بلاده مع الكويت على الحكومة البريطانية موافقته على هذا المبدأ واقر بمركزه القانونى بعد انهيار الدولة العثمانية واصبح ملزما كحاكم على نجد والاحساء باحترام الالتزامات التعاهدية للدولة العثمانية بالنسبة إلى حدود هذه المناطق ويستدل هذا التفسير تبريراته من أن القانون الدولى يقر أن ابن سعود كوارث للسيادة العثمانية فان «الوراثة تحدث بالنسبة إلى الحقوق والواجبات الدولية التى كان السلف يملكها أو يقبلها كالتزام والمتعلقة محليا بجزء من كحدود شرقية لسنجق نجد العثمانى فى المادة الثالثة من المعاهدة البريطانية - العثمانية التى عقدت فى التاسع من مارس ١٩١٤ وتم ابرامها وتصديقها فى ٥ يونيو من نفس العام وكذلك المادة الخامسة والسابعة من المعاهدة البريطانية - العثمانية لعام ١٩١٣ ، واصبح هذا

الخط التزاما دوليا يرتبط محليا بنجد والاحساء ويضيف احد الباحثين الغربيين فى القانون الدولى قائلا :

« أن المرء يجتهد كثيرا فى البحوث التى تعالج الأنظمة الاقليمية للبحث فى كيفية تنظيم الحدود وتجمع الآراء على اعتبارات مثل هذه البحوث متعلقة أيضا بأصحاب السيادة الجدد على الممتلكات موضع البحث ... ويستطرد هذا الرأى فيذكر أن ابن سعود قد اعترف بهذا المفهوم فى ديباجة المعاهدة البريطانية - السعودية فى ٢٦ / ١٢ / ١٩١٥ وذلك فى المادة الأولى من المعاهدة كحاكم لنجد والاحساء والقطيف وجبيل والبلدان والموانئ التابعة لها كما ورد ذكر الخط الازرق فى مفاوضات العقير ١٩٢٢ (٢٣). وبعد فهل قدمت هذه المعاهدة للكويت والمنطقة ما وعدت به من سلام على الحدود بين الجيران ؟ بالطبع لا فان ابن سعود كان لايزال طموحه يمتد شمالا وغربا وكان عداؤه للاشراف الهاشميين حكام مكة المكرمة لازال قائما بعد توقيع اتفاقية العقير التى عززت موقعه فى الشرق ومنعت العراق الهاشمى فيما بعد الملك فيصل من المساعدة لوالده الشريف الحسين فى الحجاز وضمه مما أدى إلى نجاح ابن سعود فى احتلال الحجاز وطرد الاشراف من مكة المكرمة ومدن الحجاز وضمه إلى نجد وذلك بعد توقيع اتفاقية العقير (٢٤). حيث ركز ابن سعود جهوده فى الاطاحة بحكم الاشراف فى الحجاز عن طريق جيشه من الأخوان الوهابية حيث يرجع الفضل فى الدرجة الأولى إلى هؤلاء الاخوان الوهابيين فى سقوط مكة فى ايدى ابن سعود قبيل نهاية عام ١٩٢٥ . كما تم الاستيلاء على «المدينة» و «جدة» فى العام التالى على أن محاولات ابن سعود لتعديل حدود مملكته مع العراق والكويت بعد اتفاقية العقير لم تتمخض عن نجاح رغم الغارات الوحشية العديدة التى شنها الاخوان السعوديون على قبائل الحدود (٢٥).

٤- ضم ابن سعود للحجاز

أصبح الشريف الحسين فى موقف لايحسد عليه نظر لكونه حاكما للبلاد المقدسة ومعبرا عن آمال العرب القومية مما منحه رفعة وتقديا من جهة ومن جهة أخرى اثقل كاهله بمسؤليات امام الحلفاء الذين طعنوا فى ظهره وأخلفوا وعدهم حيث كان الشريف الحسين يضطلع بمسؤليات الاقصى عن حقوق العرب واmانيهم فقد كان من نصيبه أن يلح على الحجاز العهود التى قطعها الحلفاء وكلما اتضح أن بريطانيا وفرنسا تجنحان إلى تفسير وعودهما تفسيرات مشينة ازداد حرج موقفه بين بنى قومه العرب من جهة وحلفائه البريطانيون من جهة أخرى

ووجد نفسه مرغما على السير فى طريق محفوفة بالبغضاء حين ظل يتعقب البريطانيين للوفاء بما كان يعتقده دينا له دون أن يكون له شئ من مصادر القوة التى لاغنى عنها لمن شاء النجاح فى السياسة وكانت القوة الوحيدة لدى الشريف حسين هى القوة المعنوية الكامنة فى عدالة قضيته إلا أن تلك القوة فى ذاتها لم تكن تستطيع السيطرة على جو «فرساى» أو «سان ريمو» ومما زاد أيضا فى حيرته عرفانه أن مصادره الحربية أدنى من مصادر جاره ابن سعود الذى يطمع فى بلاده والذى كانت بريطانيا تدعمه بقوة من الناحية المادية والعسكرية وأن على الشريف حسين أن يتكل على بريطانيا لتمده بالمساعدة أن استدعت المواجهة مع ابن سعود الحليف الاقوى لبريطانيا والذى تعزز مركزه بعد اتفاقية «العقير» الذى حمى ظهره من جهة العراق بعد تولى الملك فيصل ابن الشريف الحسين الحكم هناك ولهذا كان الشريف حسين مضطرا فى تعامله مع الحكومة البريطانية أن يكون من جهة ملحاحا فى المطالبة بحقه وأن يكون من جهة أخرى معترفا بضعفه إذ يلتمس عونها فى النزاع بينه وبين جاره ابن سعود ولم يستطيع الشريف حسين أن ينجو فأدى فى النهاية إلى سقوطه عام ١٩٢٤ ، وكانت بريطانيا فتحت باب المفاوضات بينها وبين الشريف حسين عام ١٩٢١ لابرام معاهدة غايتها المزعومة تسوية كل المشكلات القائمة بينها ، ولم يكن أحد يتوقع أن يبرم الشريف حسين أو أى عربى آخر مسؤل معاهدة تتضمن بنودا كالتى عرضت برغم اقتصارها على سيادة الحجاز فقط لشريف حسين ، فهناك بند جعلته بريطانيا شرطا ضروريا وهو يكفى وحده ليجعل المعاهدة مرفوضة ذلك هو البند الذى طلب فيه الى الشريف حسين أن يعترف بالانتداب التى جازها مؤتمر «سان ريمو» والصفح عن نقض بريطانيا لعهودها فيما يتصل بالعراق وفلسطين وما يكاد احد يصدق أن تكون وزارة الخارجية ساذجة إلى حد أن تتوقع إجازة هذا البند ولكنها كانت تعلم أن مقررات «سان ريمو» لاتتقى الهجوم من الزاوية الخلفية وكان ضميرها مريضا فحاولت شراء المقاومة العربية بان تلوح للشريف الحسين بمعاهدة تحالف رسمية تحمى بموجبها الحجاز من كل التعديات من جيرانه مثل ابن سعود وتعرض عليه استمرارها غير المحدود فى دفع الاعانة له من الخزينة البريطانية وكان رد الشريف حسين صريحا لالبس فيه وهو الرفض التام ، ووجد الشريف حسين الغيظ يثور فى نفسه وتركت هذه الحادثة اثرا عميقا إذ روعه أن يجد بريطانيا تتخلى عن وعودها بهذه الطريقة[٢٦] .

افتتحت بريطانيا المفاوضات ثانية فى ربيع ١٩٢٣ لابرام معاهدة بريطانية حجازية واسترسلت خلال ذلك العام وصيف العام التالى ١٩٢٤ دون أن تؤدى إلى اتفاق وكانت العقبة الكؤود فى طريقها كما كانت عام ١٩٢١ هى مسألة العهود مع فرق بين الحالين وذلك انه في المرة الثانية كانت المسألة التى يدور حولها هى مصير فلسطين ولم يجر ذكر العراق والاردن فى نطاق المفاوضات الثانية لان بريطانيا اعترفت بهما دولتين مستقلتين ، وكانت بريطانيا ترغب فى أن يعترف الشريف حسين بالانتداب البريطانى على فلسطين وبالسياسة المرسومة فى وعد بلفور ورفض الشريف حسين ذلك رفضا قاطعا واستمر فى صلابة موقفه مما استنزفت صبر وزارة الخارجية وحسين يحتج فى الرسالة أثر الرسالة بان دافعه الذى يحفزه ليس دافعا فرديا انانيا وأن موقفه إنما يمليه عليه اعتقاده بان لا سلام فى فلسطين للبريطانيين واليهود والعرب ما دام لدى العرب ما يدفعهم إلى الظن بان غاية الصهيونية القصوى إنشاء دولة يهيودية فى وسطهم وعلى حساب أمانيهم القومية ، ولكن التباين الواسع بين بريطانيا والحسين لم يترك فرصة للتلاقى فرفضت الحكومة البريطانية آراء الشريف الحسين ولعلها استخفت بتنبؤاته فيما قد ينجم من اضطرابات أو لعلها كانت قد تورطت فى عهود للصهيونيين بأعمق مما تستطيع أن تفشيه أو لعلها رغبت فى سياستها أن تبقى الصهيونية والعرب عالة دائما على عطفها وأثناء تلك المفاوضات حلت الكارثة وكان آخر ما اسهم به الشريف الحسين قبل سقوطه رسالة إلى رئيس الوزراء البريطانى «رمزى مكدونالد» بتاريخ ١٤ أغسطس ١٩٢٤ يرجوه فيها مرة أخرى تنفيذ الوعود التى قطعت له فى الحرب لكنه لم يتلق على رسالته جوابا إذ قبل أن ينتهى شهر اغسطس كانت جيوش «الاخوان الوهابية» تزحف نحو الحجاز بعدما انتهت هجماتها على الكويت والعراق بعد اتفاقية «العقير» ١٩٢٢ وعند بداية اكتوبر ضاع الشريف الحسين ومن ثم دخل ابن سعود فى مفاوضات مع بريطانيا لاعادة النظر فى اتفاقية الحماية البريطانية مع ابن سعود لعام ١٩١٥ وكانت تلك الاتفاقية تضعه تحت الحماية البريطانية مثل بقية دول الخليج العربى ولم تكن للاتفاقية مدة معينة محدودة فكان ابن سعود حريصا على أن يفاوض ليحل محلها وثيقة أو اتفاقية أخرى اكثر ملاءمة لوضع الاستقلال الحقيقى الذى كان يطمح إليه وانتظرت بريطانيا حتى أكمل ابن سعود فى القضاء على الشريف حسين وثبت أركان حكمه فى الحجاز وابتدأت المفاوضات عام ١٩٢٦ فأدت إلى عقد معاهدة «جدة» فى ٢٠ / ٥ / ١٩٢٧ وفيها اعترفت بريطانيا اعترافا رسميا بابن سعود - ملك الحجاز ونجد - وهى تختلف من عدة أوجه عن

مسودات المعاهدات التى كانت تقدم من قبل للشريف الحسين غير أن اهم نقاط الاختلاف هى أن البند المتعلق بـ «المركز الخاص» للانتداب البريطانى فى العراق والاردن وخاصة المتعلق بوعد بلفور فى فلسطين ذلك البند الذى جعلته بريطانيا الشرط الأول فى الاتفاق مع الشريف الحسين ليس له أى وجود فى معاهدة «جدة» (٢٧).

٥- ضم ابن سعود لعسير

شهدت ولاية «عسير» فى شمال اليمن اضطرابات بعد وفاة «محمد الادريسى» مؤسس الاسرة الادريسية عام ١٩٢٣ إذ نشأت المنازعات بين خليفته وافراد آخرين من عائلته ونشبت الحرب الأهلية وفى غمرة تلك الفوضى استعاد امام اليمن المناطق الجنوبية فلما برز ابن سعود على مسرح الاحداث التمس الادريسى الحاكم الجديد العون منه على شروط تمنحه السيطرة المعنوية فى «عسير» وحين تطور النزاع وبدأ امام صنعاء يوشك أن يعيد ولاية «عسير» إلى وطنه الام اليمن خطا ابن سعود خطوة وابرم اتفاقية مكة عام ١٩٢٦ مع الادريسى تقضى بان تصبح عسير طوعا تحت ما يشبه حماية يقوم بها ملك الحجاز واثبت هذا العمل أنه الخطوة الأولى نحو ابتلاع «عسير» نهائيا ذلك أن خلفاء محمد الادريسى كان يعوزهم ما لديه من قدرة ومقام كانوا اعجز من أن يوقفوا التفكك الذى بدأ بعد موته أو أن يحموا ولاية «عسير» فى وجه الضغط والعودة إلى امام اليمن أو التبعية لملك الحجاز فآثر الثانية لعدة اسباب وأخيرا عقد اتفاقية اخرى عام ١٩٣٠ اصبحت «عسير» بموجبها تحت حماية ابن سعود وغدت من كل الوحدة والاغراض تابعة لمملكته ، وما كان احد يتوقع أن يتم مثل تلك التسوية دون احتكاك لأن الامام يحيى لم يكن يطيق أن يفرط فى ولاية عسير اليمنية وكان يومئذ فى منتصف العقد السابع من العمر وقد أنفق عمره وهو يحاول أن يؤمن لليمن استقلالها أولا ثم وحدتها فى استرجاع اقاليمها وولايتها التى انفصلت عنها سواء فى الشمال أو فى الجنوب لتشمل ما كان هو واتباعه من أئمة الزيدية يعدونه حدودها التاريخية ضمن حدود اليمن الطبيعية وقد ضم داخل تلك الحدود اقساما واسعة من عسير إن لم يكن معظمه واسترجع «الحديدة» و «تهامة» وامتداد من ارض ذات نجاد واخرى ساحلية كان الادريسى قد احتلها وفصلها من قبل عن اليمن وكان امام صنعاء آخذا فى استرجاع حدوده التاريخية والضم حين لجأ الادريسى الحاكم يومئذ إلى طلب حماية جاره ابن سعود الذى تعهد له بحماية «عسير» ومعنى هذا أن امام اليمن غدا بين خطتين فاما أن يقتنع بما استرجعه من

ولاية «عسير» واما أن يعلن الحرب على ابن سعود لاسترجاع بقية «عسير» وكانت الخطة الثانية اكثر احتمالا لأن الخلاف بين الرجلين لم يكن ناشبا عن التوتر بينهما فى ولاية «عسير» فحسب بل اختلفا على تملك بعض المناطق الأخرى الواقعة فى اقصى الحدود التى لم تكن قد عينت بعد وبدأ كأن الاصطدام حادث ولابد عاجلا أو آجلا وأن حاول الحاكمان فى اخلاص أن يسويا باخلافات بالتفاوض وبعد ثلاث سنوات من المفاوضات انفجرت الحرب بينهم عام ١٩٣٤ اكتسح فيها جيش « الاخوان الوهابية» سهول تهامة واحتلوا «الحديدة» فسعى حكام الدول العربية إلى الصلح بين امام اليمن وابن سعود فكان معاهدة الطائف فى ٢٠ / ٥ / ١٩٣٤ [٢٨].

٦- الحرب الاقتصادية بين الكويت ونجد ١٩٢٣-١٩٣٧

يرجع سبب تدهور العلاقات الاقتصادية بين الكويت فى هذه الفترة إلى «السابلة» أى عربان نجد الذين كانوا يقصدون الكويت فى مواسم خاصة للتزود بما يحتاجون إليه من مؤن وملابس وكانوا لايدفعون اموالا بديلا لذلك بل يعودون بعد عام أو أكثر لسداد دينهم بتسليم تجار الكويت اغناما وجمالا وفاء لدين كانت هذه الطريقة تحرم نجدا من دخل جمركى كبير لو أن القبائل العربية اشترت تلك البضائع من موانئ نجدية فى الاحساء «كالعقير» والقطيف غير أن الكويت كانت هى بوابة التجارة مع نجد منذ تأسيسها وازدهارها فى أوائل القرن الثامن عشر ولما طلب ابن سعود من الشيخ احمد الجابر أن يجمع الضرائب من القبائل العربية النجدية فى الكويت ويرسلها للرياض رفض الشيخ احمد الجابر ذلك بحجة أنه ليس واليا تابعا لنجد ولما اقترح ابن سعود تعيين وكيل له فى الكويت ليجمع تلك الأموال من بادية «نجد» حين دخولهم الكويت لشراء مستلزماتهم رفض الشيخ احمد الجابر ذلك الاقتراح ومن هنا حرم ابن سعود على «سابلة نجد» أى قبائل نجد دخول الكويت والتعامل معها وبالطبع أحدثت هذه المقاطعة الاقتصادية قلقا فى الكويت إذ اصابت تجارتها مع نجد تجارة كبيرة ، وفى هذه الفترة بعد توقيع ابن سعود لاتفاقيات الحدود مع جيرانه فى العراق والاردن والكويت واليمن ولم يعد هناك حاجة «لجيش الاخوان الوهابية» بعد ان بدأ ابن سعود فى تكوين جيش حديث بدأ خلاف مع زعماء هذه الحركة ومنهم «فيصل الدويش» وهو خلاف لم تحسمه سوى معركة فاصلة وقعت بين قوات ابن سعود وهى قوات مدربة ومدرعة حديثة زودة بها البريطانيون وبين قوات «حركة الاخوان الوهابية» على مسافة قريبة من الكويت وقد

انتهت المعركة بتفريق شمل حركة الاخوان الوهابية ولجوء زعمائهم وعلى رأسهم فيصل الدويش إلى الكويت إذ استسلموا للسلطات البريطانية التى كانت ترقب الحوادث هذا وقد سلم البريطانيون زعماء «حركة الاخوان الوهابية» لابن سعود [٢٩]. الذى أودعهم السجن حتى ماتوا .

٧- الحركة النيابية فى الكويت

شهدت الكويت حدثين هامين فى تاريخها وقعا فى الثلاثينات من القرن العشرين وكان أولهما حركة المجلس التشريعى عام ١٩٣٨ واما الحدث الثانى فكان له اثرا بعد تطورها وهو اكتشاف النفط وقد وقع فى نفس العام وتصادف وقوع هذين الحدثين مع بداية الحرب العالمية الثانية وتبعا لظروف العالم آنذاك تأثر هذان الحدثان بما كان يجرى فيه ، فقد الف فى الكويت مجلسا استشاريا وكان هدفه المشاورة مع الامير يتعلق بتسير دفة الامور فى البلاد وكان تأسيس هذا المجلس الذى عرف بالمجلس التشريعى يوم ٢٩ / ٦ / ١٩٣٨ ولعل مما يلفت النظر ومما أثار دهشة بريطانيا آنذاك ما كان من صدور القانون المبين صلاحيات المجلس الذى جاء فى مقدمته أن الشعب ممثل فى اعضاء المجلس المنتخبين هو مصدر السلطة ولاريب أن قيام هذا المجلس فى الكويت فى هذا الوقت من تاريخ الامة العربية وليس الكويت فحسب ، كان له طابع تقدمى غير أن الشيخ احمد الجابر مالبث أن حل هذا المجلس يوم ٢١ / ١٢ / ١٩٣٩ وكان تأليف المجلس الجديد كالتالى : الشيخ عبدالله السالم رئيسا واربعة اعضاء من آل صباح وتسعة من اعيان الكويت ولقد سمى هذا المجلس «بالمجلس الاستشارى»[٣٠].

٨- الشيخ عبد الله السالم الصباح

تحدثنا عن الشيخ احمد الجابر الذى تولى الحكم من عام ١٩٢١ إلى ١٩٥٠ وكانت الكويت قد ازدهرت فى حكمه وبعد وفاته خلفه ابن عمه عبدالله السالم الصباح فى ٢٥ / ٢ / ١٩٥٠ وقد أحدث الشيخ عبدالله السالم فى الكويت انتفاضة اجتماعية وثقافية وسياسية وحدثت فى أيامه تحولات بارزة منها أو أهمها انحسار الهيمنة البريطانية وتراجع الاستعمار البريطانى عن تسلط نتيجة لوعى أفراد والشعب ونتيجة للتطور والتقدم المد القومى العربى العام وكانت الخطوة الأولى فى الأول من فبراير عندما باشرت الكويت ممارسة

بعض الحقوق والصلاحيات التى تنازلت عنها الحكومة البريطانية وهى الخدمات البريدية وتأشيرات دخول الاجانب وفى عام ١٩٦٠ الغيت المحاكم الخاصة التى يتقاضى لديها الرعايا البريطانيون والاجانب منذ عام ١٩٢٥ وأضحى ذلك من اختصاص المحاكم الكويتية وفى عام ١٩٦١ أصدرت الكويت عملتها الوطنية كما بدأت تمارس بعض حقوقها الخارجية وانتمت إلى بعض المؤسسات الدولية بالرغم من أن لبريطانيا الصفة الرسمية فى تمثيلها الخارجى وفى يوم الاثنين من ١٩ / ٦ / ١٩٦١ أعلن استقلال الكويت فى وثيقتين متبادلتين بين الشيخ عبدالله السالم الصباح حاكم الكويت والسيد وليم لوس المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى وبموجب ذلك انتهت اتفاقية عام ١٨٩٩ واعترفت بريطانيا بالكويت دولة مستقلة ذات سيادة وفور توقيع المعاهدة طلبت الكويت الانضمام إلى جامعة الدول العربية وانتسبت إليها فى ١٦ / ٤ / ١٩٦١ كما دخلت الامم المتحدة وفى ٣٠ ديسمبر اجريت انتخابات عامة واختير ٢٠ عضوا لتأليف المجلس التأسيسى حددت مهمته فى وضع دستور للبلاد وتمت الانتخابات وصدر الدستور فى ١١ نوفمبر ١٩٦٢ حدد فى الجزء الأول منه شكل الدولة ونظام الحكم لها ونص على اختصاصات السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية ويتضمن دستور البلاد فى الجزء الثانى منه مبادئ اجتماعية والجزء الثالث ينص على حقوق الافراد والحريات العامة اجريت بعد ذلك الانتخابات فى يناير ١٩٦٣ وعقد مجلس الامة أول جلسة له فى ٢٩ / ١ / ١٩٦٣ وهو منذ تأسيسه أو تشكيله يلعب دورا ديمقراطيا واعيا فى الحياة الكويتية والقومية العربية والاجتماعية ويضم مجلس الامة ٢٤ عضوا انتخبوا من الشعب و١٤ عضوا تم تعيينهم وهم الوزراء الذين تنازلوا عن حقوقهم فى التصويت ليفسحوا المجال للاعضاء المنتخبين فى اتخاذ القرارات دون تدخل منهم (٣١).

وقد ألفت وزارة جديدة بعد تأليف مجلس الامة وتألفت أول وزارة كويتية من ١٤ وزيرا وفيها تولى كل وزير وزارة واحدة فقط وكانت الوزارات قبل ذلك تدعى دوائر ويقوم التنظيم السياسى للكويت الحديث على اساس تولى الارشد من آل مبارك الصباح يعاونه عدد من نفس الاسرة بالتعاون مع المؤسسات الحكومية المذكورة وقد اخذت الكويت بعد الاستقلال تخطو خطوات واسعة نحو التقدم والعمران واخذت تعمل على تطوير البلاد وتجديد نمط الحياة وهى تلعب دورها بالنسبة للبلاد العربية الشقيقة وتقف إلى جانبها فى الملمات والحروب وتساند وتدعم معنويا وماديا للبلدان العربية المتضررة وتفتح مجال العمل لكثيرين من

ابنائها وخاصة للأخوة الفلسطينيين من بعد محنتهم المعروفة وللكويت علاقات دولية واسعة كما أنها تشارك فى معظم المنظمات الدولية ، وفى ٢٥ نوفمبر ١٩٦٥ توفى الشيخ عبدالله السالم الذى قضى فى الحكم مدة ستة عشر عاما كانت من ابرز السنوات فى تاريخ الكويت نهضت الكويت خلالها نهضة عمرانية شاملة ساعد على ذلك الرخاء الاقتصادى نتيجة لزيادة الدخل من النفط مما اسهم فى تحقيق الكثير من المشاريع العمرانية ثم بعد وفاة الشيخ عبدالله خلفه اخوه صباح السالم الذى تميز عهده بنهضة شاملة أيضا ابرزها النهضة العلمية فقد انشئت فى عهده الكثير من المدارس على اختلاف مراحلها وكذلك افتتحت جامعة الكويت واهتم أيضا بالناحية العمرانية فاقيمت الكثير من المساكن لذوى الدخل المحدود ، وقد اختار مجلس العائلة الشيخ جابر الاحمد وليا للعهد فى مايو ١٩٦٦ وعندما توفى الشيخ صباح السالم فى ٣١ / ١٢ / ١٩٧٧ خلفه على الفور ولى العهد الشيخ جابر الاحمد الذى كان الحاكم افعلى للبلاد فى العامين الأخيرين من مدة ولاية الشيخ صباح بسبب توعك صحته وكان على الامير الجديد أن يقوم بمسئوليات توزيع المناصب خصوصا ولاية العهد ورئاسة الحكومة التى هى عادة تشغل من قبل شخص واحد وهو ولى العهد ثانيا كان عليه أن يتعاطى مع الوضع الداخلى واتخاذ قرارات مهمة بالنسبة لحرية الصحافة وخاصة أن الدستور كان معلقا منذ اغسطس ١٩٧٦ ومجلس الامة كان قد حل ، وقد زكى الشيخ سعد العبدالله وليا للعهد ، كما واجه الشيخ جابر خلال حكمه الخلاف السابق الذى كان بين الكويت والعراق بخصوص رسم الحدود مع العراق وظل الخلاف قائما على رغم تحسن العلاقات بين البلدين ، كما انتقل المجتمع الكويتى فى كثير من مظاهرة من المجتمع البدوى الخالص إلى مجتمع متطور مع الحفاظ على التقاليد العربية الاصيلة وهكذا انتقل النظام السياسى فى الكويت من نظام قبلى إلى نظام حديث يحكمه عدد غير قليل من المثقفين والتكنوقراط فى ظل انظمة سياسية وقضائية وتشريعية حديثه كما أن الصحافة فى الكويت تتمتع بقدر جيد من الحرية والديمقراطية وبعضها نشطة وواسعة الانتشار خارج الكويت [٣٢].

٩- اليمن

استمر حكم العثمانيين لليمن حتى عام ١٩١٨ عندما وضعت الحرب اوزارها واستسلم الترك للحلفاء بموجب اتفاق مودروس فى ٣٠ / ١٠ / ١٩١٨ الذى تعهدوا بموجبه الجلاء عن البلاد العربية وكانت اليمن من ضمن تلك الاقطار وسلم القائد العثمانى الاسلحة

والذخائر لليمنيين ولاشك أن القبائل اليمنية قد أتعبت الدولة العثمانية كما اتعبت غيرها من الدول التى وفدت إليها ، وبقيت الخلافات بين اليمن وبريطانيا قائمة حول الحدود اليمنية حاولت بريطانيا أكثر من مرة احتواء اليمن بطرق غير مباشرة لكنها لم تلق نجاحا فقامت بعدوان مسلح عام ١٩٢٨ متهمة صنعاء باحتلال جزء من عدن كان عدوانا وحشيا تخللته مفاوضات واكثر من هدنة حيث ضربت الطائرات البريطانية البلاد الآمنة وجرى اعتداء على الاهالى الآمنين مما أدى إلى قتل النساء والاطفال بوحشية وضراوة اثارت استهجان واستنكار الرأى العام العالمى وكانت الخطوة الوحيدة التى اتخذتها بريطانيا لتهدئة الرأى العام أنها استبعدت بعض الموظفين واستبدلتهم بغيرهم ، حاول الحكم البريطاني تهدئة الامور واجرى مفاوضات ودفع هذا الموقف بالامام إلى عقد معاهدة ١١ / ٢ / ١٩٣٤ بينه وبين بريطانيا اعترفت بموجبها باستقلال اليمن ولكنها ابقيت مشكلة الحدود معلقة مدة اربعين عاما وبعد أن اغتيل الامام يحيى حميد الدين تولى الحكم الامام احمد حميد الدين فحصلت مفاوضات بين الجهتين ظلت تتعثر إلى ان كانت عام ١٩٥٠ اتفق الجانبان على بعض الامور لكن قضية الحدود ظلت على ما هى عليه حسب معاهدة ١٩٣٤ لم تكن المعاهدة حلا لمشكلة الحدود بل كانت محاولة بريطانية لتمييع القضية وتجميد الخلافات مؤقتا فلم يتقبل اليمنيون مضمون هذه المعاهدة فأستؤنف النزاع وزادت حدته نظرا لرغبة بريطانيا فى تحقيق رغبات أخرى وهى السيطرة على البترول وعلى موقع اليمن الاستراتيجى وانشاء قاعدة استعمارية لمقاومة الحركات التحررية فى هذه المنطقة وصد النفوذ الاميركى فى المناطق البترولية لم ينته النزاع البريطانى اليمنى بل كان يظهر حينا ويخبو حينا آخر وذلك بالنسبة لأهمية «عدن» للفريقين فعدن بالنسبة لليمن هى حق طبيعى لها ولأهلها فالمنطقتان تشكلان وحدة طبيعية وجغرافية وتاريخية وبشرية منذ أقدم الازمنة وبالتالى وحدة مصيرية بينما بريطانيا تعتبر عدن حقا شرعيا لها بعد أن اغتصبتها عام ١٨٣٩ وسلختها عن الوطن الام مع بعض المحميات وهى تحاول بين حين وآخر التوسع فى الأراضى اليمنية والتدخل فى شؤونها والاعتداء عليها بغية اضعاف المقاومة فيها . كررت بريطانيا هجومها على اليمن فى عام ١٩٥٦ وكذلك فى عام ١٩٥٧ وظلت تستخدم اقصى وسائل العنف والوحشية ضد الشعب اليمنى مخترقة بذلك ميثاق الامم المتحدة وضاربة بالقانون الدولى عرض الحائط بالاعتداء على دولة ممثلة فى الامم المتحدة [٣٣].

أخذ بعض الشباب اليمنى الواعى بعد الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى يطالبون بتطوير البلاد والعمل على تنميتها فبدأ بحملة توعية داعين للعدالة والمساواة ولم يلق هؤلاء الشبان استجابة بل اصابهم الضرر والاضطهاد وبعد انقضاء الحرب العالمية الثانية نظم هؤلاء صفوفهم بأسلوب اقوى واوضح واعلنوا مولد «حزب الاحرار» بزعامة نعمان الزبيدى واتخذوا عدن مقرا لحزب ورفعوا شعار الدعوة إلى الاسلام ، سمحت السلطات فى بادئ الامر لهذا الحزب فالتجأ اعضاؤه إلى جامعة الدول العربية واتصلوا بكثير من الزعماء العرب ورفعوا مذكرات عن سوء احوال بلادهم «اليمن» محذرين من انفجار الموقف ثم صمم هؤلاء الشباب على القيام بحركة عملية ورأوا ان اصلاح البلاد يبدأ بالتخلص من الاسرة الحاكمة وصادف هذا الاتجاه هوى عند بعض الاسر الطامحة للسلطة وعند بعض افراد الاسرة الحاكمة وكانت المحاولة الانقلابية الأولى عام ١٩٤٨ اشترك فيها بعض الرجال الاحرار تحت قيادة عبدالله الوزير وهو صهر الامام يحيى أى زوج ابنته وجماعة من انصاره انتهت باستيلائه على صنعاء وقتل الامام يحيى وهو فى طريقه إلى «الحديدة» ، وابن الوزير «هاشمى» قوى يملك حق الامامة لذلك التف حوله اليمنيون الأحرار آملين تحقيق اهدافهم عن طريقه بعد التخلص من الامام يحيى ولكن الامام احمد بن الامام حميد الدين استطاع التغلب على الانقلاب واسترد عرش ابيه على تلال من الرؤوس بعد معركة رهيبة كان ضحيتها آلاف من الشباب كما زج بالسجون آلافا آخرين ومع أن هذا الانقلاب فشل فقد كان انذار واشعارا للمسئولين ، وجاء قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر يسجل نمو الوعى القومى العربى فى العالم العربى عامة فنقل احرار اليمن نشاطهم إلى القاهرة وأسسو «الاتحاد اليمنى» وتزايد نشاط هؤلاء الاحرار داخل اليمن وخارجه فقامت محاولة انقلابية اخرى عام ١٩٥٥ بقيادة احمد يحيى التلايا قائد حامية «تعز» وارغم الامام احمد على التنازل على العرش لابنه عبدالله لكن الامام البدر قضى على هذه الثورة باغراء القبائل بالمال وذهب ضحيتها بعض الاحرار وزج البعض الآخر بالسجون من بينهم عبدالله السلال ويرجع فشل هذه المحاولة الثانية لاسباب كثيرة داخلية وخارجة لكن الاسرة المالكة خرجت على اثرها ضعيفة مفككة متناحرة وفى اعقاب قيام الجمهورية العربية المتحدة باتفاق الشعبين المصرى والسورى قام الاتحاد الفدرالى بين الجمهورية العربية المتحدة واليمن فى ٦ / ٢ / ١٩٥٨ للاتفاق على قواعد الاتحاد وأسسه وعقدت عدة اجتماعات ولقاءات انتهت بالتوقيع على ميثاق الاتحاد فى دمشق فى ٨ / ٣ / ١٩٥٨ وكان هذا الاتحاد مثارا للعجب والتساؤل

بالنسبة لانضمام اليمن الذى يجسد الرجعية والعزلة والحكم الفردى المتسلط الذى انضم تلقائيا إلى اتحاد ينطلق من فكرة القومية العربية والوحدة والاشتراكية كانت سياسة الامام سياسة ذات وجهين بدافع النفاق والخوف من المد القومى ومحاولة منه لاحتواء الشباب الواعى المتحرر والهائه عن اهدافه فى التقدم والعمل نحو العدالة الاجتماعية ، قامت المحاولة الثالثة بقيادة العقيد عبدالله السلال فى ٢٦ / ٩ / ١٩٦٢ ولم يمضى على تولى الامام محمد البدر للسلطة أسبوع واحد وقد نسفت القوات المسلحة وفرقة مكونة من الدبابات والمصفحات قصر «البدر» وما هى إلا ساعات قلائل حتى تم الاستيلاء على جميع المرافق والمبانى الحيوية واعلن مع الفجر قيام أول جمهورية فى اليمن وقد لعبت مصر بشخص رئيسها جمال عبدالناصر دوراً عسكريا كبيرا فى اليمن لانجاح تلك الثورة (٣٤).

نجحت الثورة اليمنية بالاطاحة بالامام البدر وفى اقامة نظام جمهورى على انقاض النظام الملكى وانشئ مجلس لقيادة الثورة وآخر للوزراء واعلن فى ٣١ / ١٠ / ١٩٦٢ دستور مؤقت لليمن جاء تعبيرا عن أهداف الثورة وامانيها وتحقيقا للمبادئ العامة فى المجالين الداخلى والخارجى وفى المجال القومى العربى انتخب مجلس قيادة الثورة العقيد عبدالله السلال رئيسا لجمهورية اليمنية إلى جانب رئاسته لمجلس قيادة الثورة ولمجلس الوزراء وانتخب الدكتور عبدالرحمن البيضانى نائبا للرئيس ، استطاع الامام البدر أن ينجو من الموت وان يلجأ جريحا إلى جماعته فى الجبال حيث كانت القبائل الزيدية التى ينتمى إليها واستنجد ما تبقى من الاماميين بالحكومة السعودية لتدعهم فى اعادة الحكم الملكى إلى اليمن وقد أدى الموقف إلى توتر بين مصر والسعودية وقطعت الاخيرة علاقاتها مع مصر فى ٦ / ١٢ / ١٩٦٢ ثم اعيدت بعد عام تقريبا وقد رفضت السعودية التدخل المصرى العسكرى فى اليمن بشدة ومن اسباب الرفض السعودى المقت للتغير إلى الجمهورى عامة وامكانية تهديده لنظام الحكم الملكى فى الجزيرة العربية واستمر هذا الخلاف بين الدولتين إلى ان عدل النظام الجمهورى فى اليمن سياسته وانسحبت القوات المصرية من اليمن عام ١٩٦٧ وسويت الخلافات بين الدولتين ومن نتائج هذه الثورة أيضا انها أثارت المخاوف الايرانية من حيث أن ايران كانت زمن الشاه رضا خان ترغب فى ان تلعب الدور الأول فى الخليج العربى وقد أكد الشاه ذلك فى حديث له عام ١٩٥٩ حيث قال : «إن تفوق ايران فى الخليج امر طبيعى» ولذلك عارض التدخل المصرى فى الحرب الأهلية وارسل خبراء عسكريين لمساعدة

الملكية فى حربها هذه إذ اعتبر نجاح مصر فى الحرب المذكورة هو تدخل لزرع النفوذ المصرى بالخليج العربى وبالتالى تهديد مباشر لنظامه» . تلاحقت الافعال ردودها وبدأت تعقد مؤتمرات السلام لحل القضية اليمنية فعقد مؤتمر «خمر» للسلام فى ٢ و٥ مايو ١٩٦٥ وترأس المؤتمر عبدالرحمن الاريانى وعقدت بعد هذا المؤتمر اتفاقية جدة بين الملك فيصل والرئيس جمال عبدالناصر ما بين ٢٢ و ٢٤ اغسطس ١٩٦٥ بهدف تعزيز المحادثات بينهما وعقدت بعد ذلك مؤتمرات القمة العربية وتضمنت جداول اعمالها ، انهاء مشكلة اليمن وكان آخر هذه المؤتمرات مؤتمر الخرطوم الذى عقد فى اغسطس ١٩٦٧ ونص على تأليف لجنة ثلاثية من رئيس وزراء السودان والمغرب والعراق وقد رفض المشير السلال استقبال هذه اللجنة الثلاثية المنبثقة عن مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧ وكانت مهمتها العمل على تنفيذ الاتفاق واحلال السلام فى اليمن وفى هذه الاثناء كان السلال قد جاء إلى القاهرة ثم انتقل منها إلى بغداد فى طريقه إلى موسكو وفيما هو فى بغداد إذيع من صنعاء أن انقلابا حدث ضد السلال وأن مجلسا جمهوريا تشكل برئاسة الاريانى وعضوية احمد محمد النعمان ومحمد على عثمان كما تقرر تعيين محسن العينى رئيسا لمجلس الوزراء وهو رجل عصرى ينتسب إلى قبيلة قوية أما المشير السلال فقد قرر الاقامة النهائية فى بغداد . وكذلك اصدر محسن العينى بيانا أكد فيه التزام الحكومة فى سياستها الداخلية والخارجية بمبادئ الثورة اليمنية وتمسكها بالنظام الجمهورى وعقب ذلك بدأت اللجنة الثلاثية اعمالها وبرغم فشل المحادثات التزمت مصر بنود اتفاقية الخرطوم وسحبت قواتها من «دبهز» ولم يكن انسحاب قوات المصرية نهاية النظام الجمهورى فى اليمن وإنما استطاع المحافظة على كيانه وعلى اوضاعه الجديدة التى استقرت بعد كفاح طويل بل أن الكفاح كان عاملا حطيرا هز كيان الشعب اليمنى وجعله ينفض عنه غبار السنين ويدخل عصر جديدا من التاريخ وهكذا ادت مساعدة مصر لليمن إلى انتصار المبادئ وبقيت فى صنعاء حكومة جمهورية تحكم بطريقة تتطور نحو الاساليب العصرية فى الحكم (٣٥).

لم يلبث الجمهوريون أن ابدوا بعض التقارب مع السعودية وانتهى هذا التقارب إلى تعايش بين الجمهوريين والملكيين فى اليمن أدى ذلك إلى الحفاظ على النظام الجمهورى مع اشراك بعض الممثلين للملكيين فى حكومة اليمن وكان لمصر فضل كبير فى مساندة هذه الثورة ومساعدتها منذ قيامها وقد بذلت تضحيات كبيرة فى سبيل الحفاظ عليها وتطوير

البلاد فنيا وثقافيا واجتماعيا ومنذ الاطاحة بالمشير عبدالله السلال شهدت رئاسة الجمهورية في اليمن حالة من عدم الاستقرار ففى ١٣ يونية ١٩٧٤ قاد العقيد ابراهيم الحمدى انقلابا انتزع فيه السلطة من الرئيس القاضى عبد الرحمن الارياضى الذى كان فى عام ١٩٧٣ قد استبعد محسن العينى وولى مكانه القاضى عبدالله الحجرى وكان الحمدى قد توصل إلى الحكم عبر الناصرية فى عام ١٩٧٣ وما لبث أن وصل إلى مركز الرئاسة حتى بادر إلى ضرب النفوذ القبلى فى السلطة واستند إلى دعم الضباط فى شد ازره بالتصدى إلى القبائل وكانت سياسة الحمدى تعتمد مبدأ التوازن بين القوى فقد هادنته الحركة الوطنية بعد أن استجاب لمطالب اصلاحية معينة تقدمت بها واجرى بعض الاصلاحات فى عدد من القطاعات الاقتصادية والعمرانية لكنه لم يستمر فى ذلك بسبب الضغط عليه كما واقام الحمدى علاقات طيبة مع السعودية بالرغم من وجود بعض الاختلافات بالنسبة للقرن الافريقى كما استجاب إلى تطلعاتها فقطع العلاقات مع الاتحاد السوفيتى واستبدلها بالعلاقات مع الولايات المتحدة فنال مساعدات مالية متعددة من السعودية كانت عونا ماديا ضروريا لبلاده وفى ١٢ / ١١ / ١٩٧٧ حصل انقلاب اطاح بالرئيس ابراهيم الحمدى وتولى احمد حسين الغشمى الحكم من بعده الذى مكث فى الرئاسة سبعة اشهر وكان مواليا للسعودية ويؤمن بالاتحاد معها منذ أن كان رئيسا للاركان فى حكومة ابراهيم الحمدى عام ١٩٧٦ ، قتل الغشمى فى اواخر شهر يونيو عام ١٩٧٨ نتيجة حقيبة ملغومة كان يحملها مبعوث خاص للرئيس سالم ربيع على رئيس اليمن الجنوبية فانفجرت وقتلت الرئيس الغشمى والمبعوث نفسه والقى رادبو صنعاء مسئولية الاغتيال على اليمن الجنوبية وفى مدة ٤٨ ساعة لقى الرئيس سالم ربع على مصرعه بعد أن قام بمحاولة انقلاب فعزل واعدم فى عدن وبعد مقتل الغشمى شكل مجلس رئاسة فورا مهمته القيام بمهام رئيس الجمهورية واختير القاضى عبدالكريم العريشى رئيسا لمجلس الشعب التأسيسى ورئيس مجلس الرئاسة وظل فى هذا المنصب إلى أن تولى الرئاسة المقدم على عبدالله صالح الذى تحاور مع ممثلى الحركة الوطنية «الجبهة الوطنية الدميقراطية» وتوصل الطرفان إلى الاتفاق على مطالب بسيطة لاتخرج عن نطاق المطالب التى اتفق عليها مع الغشمى (٣٦).

١٠- حضرموت

تعاقبت على حضرموت فيما بين الحربين العالميتين وفى اعقابهما عدة كوارث اقتصادية فقد كان الحضارم يعتمدون فى اقتصاديتهم على مواردهم العقارية والتجارية فى جنوب شرق

آسيا وشرق افريقيا والهند وكانت هذه الموارد توفر لهم الحياة السعيدة فى بلادهم إذ بها تنقطع فجأة نتيجة احتلال اليابان لاندونيسيا وسنغافورة وماليزيا وعقب تلك الحرب العالمية الثانية والجفاف الذى حل بحضرموت انتشرت المجاعة وكثر الموت فى السكان وفى مواشيهم فانتهزت بريطانيا هذا الظرف فمدت لسكان حضرموت بالمعونات الغذائية ولكنها لم تعمل هذا الخير لمجرد العمل الانسانى كما تعلن فمارست استبدادها وتسلطها وارادت ان تتقاضى ثمن ذلك فوقعت مع سلاطين حضرموت معاهدة الاستشارة عام ١٩٣٧ وقبل الحضارم هذا التسلط البريطانى لما قدمته لهم فى سنينهم العجاف المسماة سنين المجاعة وبدافع العرفان بالجميل فعين حاكم عدن مستشارا لحكومة البريطانية بمدينة «المكلا» وجعل المستشار مساعدين له بسائر المناطق وكان قول المستشار هو القول الفصل فى أى أمر من أمور حضرموت سواء كان هذا الامر نصت عليه المعاهدات أو لم تنص وفى هذه الحقبة من الزمن بدأت حضرموت تشهد بعض الأمان والاستقرار ، وأمن الحضارم على أنفسهم وأموالهم فتنقلوا بين مهاجرهم ومساقط رؤوسهم وانشأوا فى بلادهم الطرق وازدهرت المنشآت العمرانية والحركة الزراعية الميكانيكية واقيمت الجمعيات فأقيمت أول جمعية بمدينة «تريم» وتحمل اسم جمعية الحق عام ١٩١٥ وهى جمعية اجتماعية ثقافية وتعاقبت بعد ذلك تأسيس الجمعيات والاندية فأسس الاستاذ المصلح العلامة الاديب محمد بن احمد الشاطرى جمعية «الاخوة والمعاونة» بمدينة «تريم» وشمل اعضاؤهم القطر الحضرمى بكامله وكانت هذه الجمعية تهدف إلى نشر التعليم والدعوة إلى الله وتعبئة الشباب وتدريبهم عسكريا حين نشأتها لتكافح بهم الوجود الاستعمارى البريطانى وهى أول من ادخل نظام التعليم الحديث بنظامه ومنهجه إلى حضرموت ولم يقض على هذه الجمعية ونشاطها إلا حكومة الشيوعيين فى اليمن الجنوبية عام ١٩٦٨ ، ومن أهم النوادى الاجتماعية والرياضية «نادى الشباب» بمدينة «تريم» والنادى الوطنى» و «نادى الموظفين» فى «المكلا» اللذين تطورا إلى حزب سياسى يحمل اسم «الحزب الوطنى» وهو أول حزب سياسى يوجد بحضرموت وبلغت انشطة هذا الحزب ذروتها عندما قاد ثورة جماهيرية شملت جميع فئات الشعب من علماء ومثقفين وعمال وصيادين يطالبون بتعيين وزير حضرمى بدلا من الوزير البريطانى وانتهت هذه المظاهرة بقتل واحد وعشرين من المتظاهرين باطلاق الرصاص عليهم وقد حل هذا الحزب بعد حادث القصر بالمكلا عام ١٩٥٠ .

وجد بحضرموت لأول مرة جهاز ادارى منظم مركب تركيبا هرميا قاعدته صغار الموظفين فى الألوية وقمته الوزير والسلطان والوزير يسمى سكرتير السلطنة فى سائر السلطنات وبجانب النظام الادارى اقيم سلم قضائى يبدأ من محكمة القضاء الابتدائى وينتهى عبر محاكم الاستئناف إلى «المجلس العالى» الذى سلطته بمنزلة محكمة النقض والابرام ، واسست مجالس بلدية وقروية تكاد تشمل سائر المدن والقرى ، واعضاء المجالس البلدية والقروية معينون من قبل السلاطين والقاعدة التى يختارون على أساسها أن يكون من الاعيان والمشتغلين بأمور السوق والخبراء والزراعة والبناء ، وكل هذه الانظمة تلتزم فى اجراءاتها واحكامها والقوانين الصادرة عنها بالشريعة الاسلامية المأخوذة اساسا من فقه الامام الشافعى ولم يطرأ على هذه القوانين من تغيير سوى التعديلات التى اعلنت فى السلطنة القعيطية تحت اسم المسائل المختارة من خارج المذهب الشافعى وادخلت المراسيم السلطانية وقد عارضها بعض علماء حضرموت وقد اصدروا فتوى ضد ذلك من مجلس الافتاء بتريم الذى يرأسه العلامة الشيخ سالم سعيد بكير باغشيان ، وهى مراسيم يصدرها السلطان طبقا للشريعة الاسلامية التى يجوز للحاكم أن يصدر قوانين غير متنافية مع الاسلام ولاتحرم ما كان حلالا ولاتحل ما كان حراما بل ما تقتضيها مصلحة العباد فى المعاملات والعادات والاجراءات ، وفى هذه الفترة أيضا تأسست «الاربطة العلمية» أى «المعاهد الدينية» ومن اهمها «رباط سيؤن» و «رباط تريم» و «رباط غيل باوزير» و «رباط قيدون» و «رباط عينات» و «رباط الشحر» والمدارس الحديثة ومن اهمها «مدرسة جمعية الحق» و «مدرسة الأخوة والمعاونة» ، و«مدرسة الكاف» بتريم و «مدرسة النهضة » بسيؤن ، و «مدرسة طرموم» بالغرفة ، و «مدرسة آل بن محفوظ» بالهجرين ، و «النور بالمكلا، وكل هذه المعاهد الدينية والمدارس الحديثة هى تابع للقطاع الخاص ثم دخل التعليم الحكومى فى الستينات إذ تأسست أول مدرسة حكومية بمدينة الغيل «غيل باوزير» وبعد ذلك انتشرت المدارس الحكومية فى سائر مناطق حضرموت ولكنه كان تعليما يهدف إلى ايجاد موظفين لخدمة مصالح الاستعمار فقد فرغت المدارس الحكومية من التعليم الدينى والوطنى وبلغ إلى المرحلة الثانوية ومعاهد المدرسين وفى المجال العسكرى أنشئت مدرسة تحسين الوحدات التى تغذى الجيش والشرطة بحاجتها من المؤهلات فى شئون الادارة والهندسة وارسلت من حضرموت بعثات للدراسة بالخارج إلى الازهر والعراق والجامعات المصرية وسوريا واروبا وزادهرت أيضا الحركة الثقافية فقد ظهرت لأول مرة «مجلة حضرموت» محررها شيخ بن هاشم السقاف ثم تعاقبت على حضرموت عديد من المجلات والصحف ومنا

«مجلة عكاظ» محررها عبدالله بن احمد بن يحيى العلوى فى مدينة سيؤن ، و «مجلة الاخاء» بتريم التى تصدرها جمعية الأخوة والمعاونة والتهذيب ومحررها على احمد باكثير ، و «مجلة الحلبة» «بالمسيلة» ومحررها على بن عقيل بن يحيى العلوى ، و «مجلة المنبر» فى المكلا ومحررها يسلم بن عبدة ، وصحيفة الطليعة ومحررها احمد عوض باوزير ، وصحيفة «الرائد» محررها حسين البار العلوى ، وصحيفة الرأى العام محررها على عبد الرحمن بافقيه العلوى وهذه الصحف الثلاث التى تصدر فى المكلا تتابعت من بعد عام ١٩٥٩ و ١٩٦٠ واغلقت هذه الصحف والمجلات حكومة الشيوعيين فى «عدن» عند تسلمهم للسلطة من بريطانيا عام ١٩٦٨ ، وقد كان الذى حمل لواء النهضة الادبية والسياسية الحديثة الشريف ابوبكر بن شهاب الذى ولد فى تريم عام ١٨٤٦ وتوفى عام ١٩٢٢ وهو امام متفنن فى العلوم والشعر وله أكثر من ثلاثينات مؤلفا وديوانا ، وقد عرفت حضرموت النهضة الثقافية والادبية وتأسيس الجمعيات واصدار الصحف والمجلات قبل أى جزء من الجزيرة العربية ماعدا الحرمين الشريفين فى بعض الأوجه . وكذلك ترعرعت الزراعة بالوسائل الحديثة وقد حققت الزراعة سد حاجة حضرموت بل فاضت بعض منتجاتها عن الحاجة مثل التمر ولم تستورد حضرموت من الخارج من المنتجات الزراعية سوى الارز والسكر وبعض الزيوت وصدرت القطن والتبغ والجلود كما زادت الحركة التجارية وطرق الصيد الحديثة وبلغ انتاج الصيادين قدرا كبيرا فغطى حاجة البلاد وصدر الكثير منه إلى أوربا وبعض الدول العربية وعلى الاخص سمك «التونة» و «السردين» وزيت السمك . كما توفرت وسائل النقل والمواصلات البريدية واللاسلكية التى تربط جميع المدن والقرى تقريبا وأنشيت شركات المياه التى تمد المنازل بالمياه الصحية وأول شركة تأسست بمدينة «شبام» عام ١٩٦٢ ثم تأسست شركة «تريم» للمياه ثم تتابعت شركات للمياه فى سائر المدن كما دخلت الكهرباء حضرموت فى هذا العهد وأول مدينة انيرت بالكهرباء مدينة المكلا فى بداية الخمسينات ثم فى سيؤن عام ١٩٥٥ ثم عممت الكهرباء سائر المدن الحضرمية شركة المنظمة الوطنية التى قامت بتمويل حضرموت بحاجتها من محروقات النفط وامتد نشاط هذه الشركة فى مجال الاسماك وأنشئ مصنع لتعليب الاسماك وقد حظيت حضرموت فى هذه الفترة بالرعاية الصحية حيث أقيمت المستشفيات والمستوصفات التى جلب لها الاطباء من الخارج وأول مستشفى أسست فى مدينة «تريم» على حساب اسرة آل الكاف وذلك فى مطلع الاربعينات ثم مدينة المكلا ثم عممت الرعاية الصحية سائر المدن والقرى [٣٧].

١- الحزبيات وانتشارها فى حضرموت

يعتبر حضرموت اقليم من اقاليم العالم العربى يتأثر بكل المؤثرات والمتناقضات التى تقع فيه ففى النصف الثانى من القرن العشرين تكاثرت فى الوطن العربى الاحزاب التى عملت على ايجاد فروع لها فى حضرموت عن طريق ابنائها الذين درسوا فى الخارج وجلبوا معهم شتى انواع الافكار الدينية والوطنية والقومية والشيوعية والتقت هذه المتنقضات فى مدينة «عدن» لكونها عاصمة اليمن الجنوبية وملتقى الحضارم المدنيين والقبليين أى الحضر والبدو فى الداخل والمهجر ولكونها مستعمرة بريطانية فان قانون عدن يسمح بانشاء الاحزاب بخلاف قانون حضرموت الذى يحرم النشاطات الحزبية بشتى انواعها فعمل الحضارم العائدون على تشكيل احزاب عقائدية وسياسية ووطنية وقومية مع غيرهم من ابناء عدن والمناطق الاخرى فى الجنوب وانشئت على اثر ذلك رابطة ابناء الجنوب العربى وجماعة الاخوان وحزب البعث الاشتراكى وحركة الشيوعيين وحركة القوميين العرب وكثير من هذه الاحزاب نشأت تحت أسماء غير اسمائها الاصلية أو اندست عناصرها فى نطاق جمعيات واحزاب قائمة فى المنطقة تحمل اسماء غير اسمائها الاصلية أو اندست عناصرها فى نطاق جمعيات واحزاب قائمة فى المنطقة تحمل اسماء ذات طابع محلى وفيما يلى نبذه من تاريخ هذه الاحزاب ومبادئه وأفكارها وتاريخ تأسيسه ومنشئته :

أ- مفهوم الحزبية

تأثرت الاحزاب العربية عامة وفى اليمن الجنوبية خاصة فى نشأتها تأثرا بالغا بالمفاهيم المعاصرة للحزبية التى نشأت فى الغرب والشرق بشقيه الرأسمالى والشيوعى وانشأت هياكلها طبقا لنظام الخلية ثم الفرقة ثم الشعبة ثم اللجنة المركزية أو «ممثلى المؤتمر العام» ثم اللجنة التنفيذية والمكتب السياسى بينما هذا الهيكل يعد دخيلا على المفاهيم الاسلامية التى يتشكل تنظيمها من الفرد كخلية أولى عندما يشهد أن لاإله إلا الله وأن محمد رسول الله» ثم صلاة الجماعة التى تقام فى كل حى وقرية خمس مرات فى اليوم فى المسجد الذى يشكل دار الحزب بالمفهوم الحديث ثم صلاة الجمعة تجمع جميع احياء المدينة ثم المؤتمر العام للحزب الاسلامى الذى ينعقد فى جبل عرفات ومنى ومكة فى موسم الحج الذى يحضره ممثل من كل اقطار الاسلام ولكن للأسف قد فرغ الاسلام اليوم من هذا المفهوم من الجانب السياسى واقتصر على الجانب التعبدى فقط .

ب- الأحزاب التى نشأت فى اليمن الجنوبية

دخل اليمن الجنوبية نطاق الحزبية المعاصرة فأول ما أنشئ فيه :

١- رابطة ابناء الجنوب العربى

نشأت هذه الرابطة فى مدينة عدن عام ١٩٤٨ وجمعت معظم الخريجيين والمثقفين فى اليمن الجنوبية وجل هؤلاء من الحضارم واشتهرت هذه الرابطة فى عام ١٩٥١ وكان فى هذه الرابطة متناقضات من الافكار الدينية والوطنية والقومية والشيوعية وكان فيها الاخوان المسلمون والوطنى والقومى والشيوعى وبالرغم من هذا التناقض إلا أن الجميع التزم بالدين الاسلامى كمصدر اساسى للتشريع فى اليمن الجنوبية ومبادى الرابطة هى :

(١) حرية الجنوب العربى ومن «ضمنها حضرموت» (٢) وحدة الجنوب العربى (٣) العدالة الاجتماعية وقد سنت الرابطة لها دستورا ومبادى اساسية وهى : التحرر - الوحدة - العدالة الاجتماعية - الاسلام تحمل اسم المبادئ الاساسية لرابطة الجنوب العربى وعدد موادها «٢٦» كما سنت لها نظاما داخليا ينظم هيكلها الحزبى من القاعدة إلى القمة فأخذت بمنهج الخلية ثم الفرقة ثم الشعبة ثم المؤتمر العام للحزب ثم اللجنة التنفيذية وتشكل اللجنة التنفيذية من رئيس ونائبه وامانه عامة ومساعد الامين العام وامين الصندوق ومستشارين حسب مقتضى الفروع المطلوب تقديم الاستشارة فيها من قبلية وعمالية ومن المع شخصياتها رئس الرابطة الشريف محمد على الجفرى والشريف شيخان عبدالله الحبشى الامين العام للحزب والشريف سالم عمر الصافى نائب الرئيس والشيخ محمد بن ابى بكر بن فريد والمناضل محمد بن ابوبكر بن عجرومة ولقد حاولت هذه الرابطة من حين تأسيسها انشاء فروع لها فى مناطق حضرموت إلا أن السلطات المحلية من سلاطين ومستشارين بريطانيين لم يسمحوا للرابطة بانشاء فروع لها فى حضرموت فاضطرت لايجاد فروع سرية لها أو شبه سرية فى بعض المناطق حتى عام ١٩٦٦ عندما اصدرت السلطات المحلية فى حضرموت تصريحا بانشاء الاحزاب فقد اعلنت الرابطة فروعها فى المدن ومعظم القرى ومناطق القبائل وقد عانت الرابطة عناء شديدا فى ابراز حق ابناء الجنوب فى الاستقلال والحرية والوحدة فقد عادى الحكام المحليون من سلاطين ومستوزرين مبادئ الرابطة كما عادها حكم الامام فى صنعاء وعندما برز نشاط الرابطة السياسى والمسلح فى العوالق ويافع وحضرموت عمل الضابط البريطانيون على اعتقال قيادتها وتشريد الآخرين ونفيهم فى مصر والسعودية

واليمن ، ويعود الفضل للرابطة فى ابراز قضية الجنوب فى المحافل الدولية و «الامم المتحدة» وقد انتزعت أول قرار باعطاء الجنوب العربى استقلاله من لجنة تصفية الاستعمار وتشكيل لجنة بهذا الصدد عام ١٩٦٣ وقد زارت هذه اللجنة «القاهرة» «وجدة» «وتعز» «والكويت» والحبشة ومنعتها بريطانيا من الدخول إلى الجنوب اليمنى حتى تستقصى اراء ابناء الجنوب فقصرت نشاطها على ابناء الجنوب فى المهجر والقت بشتى الاحزاب المعارضة للوجود البريطانى ودبرت لهذه الرابطة العديد من المكايد حتى انحسر نفوذها وكان يقتصر على نشاطها السياسى والاعلامى وعملت من خلال مؤتمر لندن عام ١٩٦٧ ولجنة تصفية الاستعمار والجامعة العربية لايجاد حكم مختار من قبل الشعب ولكن البريطانيين لم يرقهم هذا الرأى وعملوا على تقوية ركيزتهم وانتهى هذا الصراع بعد مذبحة عدن فى عام ١٩٦٧ بتوقيع الجبهة القومية على اتفاقية الاستقلال مع بريطانيا واعتقل من اعتقل وقتل من قتل وفر من فر من اعضاء الرابطة ولم يبقى لها سوى مكتبها فى مدينة «جدة» وبه اعضاء قيادة الرابطة حيث تجمع عديد من اعضائها بالسعودية ولم تيأس الرابطة فعاودت نشاطها عام ١٩٦٨ للعمل على اسقاط الحكم الشيوعى فى عدن فشنت عليه ثورة مسلحة منطلقة من جبال العوالق ومتعاونة مع بعض الضباط فى مدينة عدن ولكن هذه الثورة تعثرت لعدم توفر الامدادات بالسلاح والمال وقد عملت الرابطة فى نطاق الجماعات المعارضة للحكم من احزاب وقبائل وهيئات وتبلور هذا العمل بانشاء تجمع يشمل المعارضة فى الجنوب اليمنى تحت اسم «الوحدة الوطنية» وتمثل الرابطة احد عناصر هذا التجمع ويشغل امينها العام الشريف شيخان الحبشى منصب امين عام التجمع وفى عام ١٩٧٩ توفى رئيس الرابطة الشريف محمد على الجفرى وتم تعين خلف له الشريف سالم عمر الصافى .

٢- الاخوان المسلمون

بعد أن فشلت ثورة ابن الوزير وجماعته عام ١٩٤٨ فى صنعاء وقتلهم الامام يحيى اندفع إلى عدن من عناصر الثوار ومنهم عناصر ملتزمة بحركة الاخوان المسلمين فعملت هذه العناصر على استقطاب شباب من ابناء الجنوب لحركة الاخوان المسلمين وكانت تنظيماتهم سرية ولم تبرز مطلقة اللهم إلا من خلال المركز الاسلامى فى عدن وبعض المكتبات الاسلامية ولهذا لم يبرز احد من شخصياتها وقد اعتقل عديد من الشخصيات واتهمت بانتمائها لحركة الاخوان وفى أثناء الحكم الشيوعى فى اليمن الجنوبية صار كل متدين وداعية للاسلام ينبعث

بانتمائه لحركة الاخوان المسلمين من غير أى اثبات لذلك سوى دعوته للاسلام وهذه الحركة امتداد لحركة الاخوان فى مصر .

٣- حزب البعث العربى الاشتراكى

اثناء الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ استغل البعثيون هذا الحدث التاريخى وادعوا صنعه مستغلين حب الجماهير لشخصية الرئيس جمال عبدالناصر فعملوا على ايجاد حركة تمثلهم إلا أنهم فضلوا الخدمة تحت اطار اتحاد عدن للنقابات العمالية وحزب الشعب الاشتراكى ومن خلال الجمعيات العمالية فى حضرموت فجعلوا كل هذه الهيئات تتوجه فى فكرها وتنظيمها طبقا لحركة حزب البعث العربى الاشتراكى الذى نشأ فى سوريا بقيادة ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وكان حزب البعث فى الجنوب يعمل على توحيده مع اليمن وكانت له قيادة تسمى قيادة حزب البعث للقطر اليمنى ولهذه القيادة ممثلون فى القيادة العامة بدمشق وبعد انشقاق حزب البعث بين دمشق وبغداد انقسم البعثيون فى الجنوب ما بين بغداد ودمشق ولكون هذه الحركة سرية فى الجنوب لم يكن لها إلا خلايا عددها بين الخمسة والسبعة اشخاص واهداف هذا الحزب هى الوحدة - الحرية - الاشتراكية الماركسية وتقتصر عضوية هذا الحزب على العربى فقط ويستبعد الدين الاسلامى من مبادئه وافكاره ومن اشهر شخصياته الاستاذ الشريف على بن عقيل بن يحيى فكان ممثل اليمن فى القيادة القومية والشريف انيس حسن يحيى والشريف صالح عبدالله الحبشى وقد حسب على البعثيين عبدالله الاصنج رئيس حزب الشعب إلا أنه لم يعترف بذلك وقد انتهى الحال بحزب البعث إلى الانقسام على نفسه إذ انشطر شطرين احدهما يتبع بغداد والآخر يتبع سوريا «دمشق» وقد اندمج شطر دمشق مع الجبهة القومية للحزب الشيوعى فى عدن وشكلوا حزبا واحدا يسمى «الحزب الاشتراكى اليمنى» وعانى الشطر التابع لبغداد العناء الكبير من قتل وسجن وتشريد على يد حكومة الشيوعيين فى اليمن الجنوبية .

٤- الحزب الديمقراطى الشعبى «الحزب الشيوعى»

عمل الشيوعيون فى اليمن الجنوبية فى البداية فى اطار «رابطة ابناء الجنوب» وعرفوا بنشاطهم الشيوعى فأصدرت الرابطة قرارا بفصل عبدالله باذيب واتباعه من الرابطة وعلى اثر ذلك شكلوا «الحزب الديمقراطى الشعبى» وهذا الحزب كغيره من الاحزاب الشيوعية يتبنى الفكر الماركسى فى عقيدته وتنظيمه ولكون الفكر الشيوعى يتناقض مع مبادئ وعقيدة

شعب الجنوب فلم يستطيع هذا الحزب أن يتوسع فى نطاق الجماهير واقتصر نشاطه على ارسال البعثات الدراسية إلى الدول الشيوعية ومن هؤلاء الطلبة صنع قواعده الحزبية واستغل هذا الحزب رغبة الامام احمد بتبعية الجنوب لليمن فرفع شعار يمنية الجنوب وبدأ يتسع نشاطه فى الجمهورية اليمنية محتميا بالسفارة الروسية فى صنعاء التى تكفل له التمويل بالاضافة إلى الحماية وبدأ يصدر منشوراته فى اليمن وادخل عديدا منها فى الجنوب ومن اشهر شخصيات الحزب عبدالله عبد الرازق باذيب واخواه على وابوبكر وكذلك محمد سعيد باخبيرة وبدر باسنيد وعند الاستقلال تحالف الحزب الدميقراطى مع الجبهة القومية حتى انتهى الحال به إلى أن شكل الحزب الاشتراكى اليمنى هدفه النهائى .

٥- حركة القوميين العرب

عندما أسس جورج حبش وهانى الهندى ومحسن ابراهيم حركة القوميين العرب عام ١٩٥٥ التى تحمل الاهداف الآتية : (١) وحدة (٢) حرية (٣) ثأر وجعلت من نفسها حزبا لرئيس جمال عبدالناصر بعد اختلافه مع البعثيين استطاعت هذه الحركة أن تستقطب عناصر لها من ابناء الجنوب فأول من انخرط فيها فيصل عبداللطيف الشعبى وعبدالملك اسماعيل عندما كان طالبين بالجامعات المصرية بالقاهرة وبعد أن انفصل قحطان محمد الشعبى «أول رئيس لليمن الجنوبية» من رابطة الجنوب العربى انضم إلى ابن عمه فيصل وكذا المجموعة التى فصلت من الرابطة فشكلوا عند ذلك حركة القوميين العرب فى الجنوب وبدأت هذه الحركة نشاطها فى الجنوب بتوزيع المنشورات عام ١٩٦٢ وعندما وقع انقلاب عسكرى فى صنعاء عين قحطان الشعبى مستشار للرئيس عبدالله السلال لشئون الجنوب اليمنى حيث أن حركة القوميين العرب رفعت شعار وحدة التراب اليمنى وتعنى به ضم الجنوب إلى اليمن وفى عام ١٩٦٤ شكل القوميون العرب جبهة اطلقوا عليها الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمنى ومدهم الوجود المصرى فى اليمن بالمال والسلاح والتدريب واصدروا ميثاقا وطنيا يحدد اهداف الجبهة القومية وهى : (١) تحرير الجنوب من الاستعمار (٢) الوحدة العربية (٣) الاشتراكية ، ودعوا سائر الجبهات والاحزاب والجمعيات إلى الانضمام لهذه الجبهة ولكن لم ينضم إليها أحد ولم تجعل الجبهة القومية عضويتها مقصورة لا على ابناء الجنوب ولاابناء اليمن بل شملت عديدا من العناصر العربية بحكم انتمائها للقوميين العرب .

بدأوا نشاطهم المسلح فى الجنوب عام ١٩٦٤ وادعت الجبهة القومية تفردها بتمثيل شعب الجنوب وفى اوائل ١٩٦٦ اختلف المصريون فى صنعاء مع قيادة الجبهة القومية وانشقت على نفسها فشكل جناح منها مع «حزب الشعب الاشتراكى» برئاسة عبدالله الاصنج رئيس وزراء عدن عبدالقوى مكاوى والسلاطين جبهة تحرير جنوب اليمن وكانت موالية لمصر وبقى قحطان الشعبى وابن عمه وقطاع كبير من اعضاء الجبهة القومية معارضين «لجبهة التحرير» وعندما اعلنت بريطانيا موافقتها منح الجنوب استقلاله عرضت ذلك على السلاطين والرابطة والشخصيات السياسية المستقلة فرفضه الجميع وقبله قحطان الشعبى وجناحه من عناصر الجبهة القومية وبعد مذبحة عدن المشهورة ١٩٦٧ اخذت الجبهة القومية الاستقلال من بريطانيا وتم لها بسط نفوذها على الجنوب اليمنى وفى اثناء المؤتمر الرابع فى زنجبار حصل انشقاق فى الجبهة القومية وانقسموا إلى قسمين جناح اليمين وجناح اليسار فابعد الأول جناح اليسار واتهمه بالخيانة واستغلال السلطة إلى آخر الاتهامات المعروفة فى الاطر الشيوعية وفى عام ١٩٦٩ وثب الجناح اليسارى على الجناح اليمنى بقيادة محمد علي هيثم وعلى عبدالله ميسرى واطيح بقحطان الشعبى وابن عمه وسائر الجناح اليمنى وتعرضوا للقتل والسجن والتشريد واحتجز قحطان الشعبى فى سجن منفرد إلى أن قضى نحبه ٧ / ٧ / ١٩٨١ وعندما سيطر اليساريون سحب عبدالفتاح اسماعيل وسالم ربيع على هذا الانقلاب من يد محمد على هيثم وعلى عبدالله ميسرى وبالتالى تعرض الاثنان للاضطهاد ففر على هيثم إلى الخارج وقتل ميسرى وفى عام ١٩٧٩ وقعت حركة انقلابية ضد سالم ربيع على بقيادة عبدالفتاح اسماعيل واطاح بسالم ربيع على واتهم هذا الانقلاب سالم ربيع على بما عانته البلاد من تأخر وفساد ادارى وتنظيمى وانهيار اقتصادى وعلى هذا الانقلاب تسلم عبدالفتاح اسماعيل رئاسة الجمهورية وشكل الحزب الاشتراكى اليمنى الذى يمثل الجبهة القومية والشيوعيين والبعث السورى وبعد فترة جرد هذا الحزب عبدالفتاح اسماعيل من جميع صلاحياته ووظائفه السياسية والحزبية وخلفه على ناصر محمد كرئيس لمجلس الرئاسة وانتهج هذا الحزب فى تشكيله نهج الاحزاب الشيوعية تنظيما وفكرا إلا أنه لم يجد تجاوبا من قبل الشعب ماعدا الوصوليين والنفعيين وقد مارس هذا الحزب اصنافا من الارهاب والاضطهاد فى شعب الجنوب فقد بلغ عدد ضحاياه من القتلى آلافا من شعب لايتجاوز عدده المليونين وطبق الشيوعية فى بلد وشعب لايحتاج إلى هذه الافكار والنظريات لقلته وانعدام المشاكل التى يعانى منها وما كانت الشيوعية إلا وبالا عليه اصطلى نارها فأخرته سنين عديد إلى

الوراء ودمرت كل موارده واخلاقياته وبات معظم سكان هذا القطر مشردين فى بقاع الارض من اثر هذه السياسة علما بأنه حدث احداث ومذبحة بين اعضاء الحزب الشيوعى وقتل فيها الكثيرين كما تمكنه محمد على ناصر من الهرب إلى الخارج فى حين تولى السلطة فيها حيدر ابوبكر العطاس رئاسة الجمهورية وتم تعيين سالم البيض الامين العام للحزب . وذلك حتى الوحدة اليمنية بين الشمال والجنوب .

٦- جبهة تحرير جنوب اليمن

صدر في القاهرة وتعز بيان عام ١٩٦٦ يعلن تأسيس جبهة تحرير جنوب اليمن وهذه الجبهة تضم شتاتا من ابناء الجنوب وتم تشكيلها بعد أن اختلفت القيادة المصرية فى صنعاء مع قيادة الجبهة القومية برئاسة قحطان محمد الشعبى فأنشقت جماعة من قيادة الجبهة القومية بقيادة الشريف سالم زين السقاف وعلى السلامى وطه مقبل فشكل هؤلاء مع حزب الشعب الاشتراكى برئاسة عبدالله الاصنج وعبدالقوى مكاوى رئيس وزراء عدن السابق والسلطان احمد عبدالله الفضلى وجعبل بن محسن العوذلى وادعت هذه الجبهة تفردها بتمثيل ابناء الجنوب واعتمدت على شعار وحدة التراب اليمنى وكان لها قيادة عسكرية تنقسم إلى قيادة لجيش التحرير الذى عد ودرب على يد المصريين وسلح بعض التسليح الثقيل وقيادة تنظيم الفدائيين الذى يقوم بالتفجيرات والاغتيالات داخل عدن وبعض المناطق الاخرى ويحمل اسم التنظيم الشعبى وقد وقفت جبهة التحرير فى وجه لجنة تصفية الاستعمار عندما قدمت إلى عدن إذ احبطوا نشاط اللجنة وافشلوها فى تنفيذ اهدافها التى كانت تريد تطبيقها فى الجنوب بأحياء «اتحاد الجنوب العربى» وكان البريطانيون فى عدن يرقبون هذه الحوادث وكانوا ضد جبهة التحرير لأنها تمثل الناصرية فى المنطقة وخوفا من امتداد المد التقدمى القومى الناصرى إلى الجنوب بعدما امتد إلى الشمال اليمن وسوريا وبقية الدول العربية فأنهم فضلوا الجبهة القومية المعادية للناصرية برئاسة قحطان الشعبى وزوده بالمال والسلاح وضمو إليه وحدات جيش الجنوب والشرطة المسلحة والمخابرات المحلية لكى يضرب جبهة التحرير الناصرية المصرية فوقعت مذبحة عدن الشهيرة بين الجبهة القومية وجبهة التحرير عام ١٩٦٧ التى وقع فيها مئات القتلى وامثالهم من الجرحى من الفريقين والمواطنين الآمنين وقد استعملت فى شوارع عدن وازقتها مدافع الميدان ومدافع الهاون والبازوكا واصناف من الصواريخ والمتفجرات ولم تنته المعركة إلا بهزيمة جبهة التحرير فى ساحة المعركة وتم لبريطانيا

مأربها بتصفية الناصرية وبتسليم السلطة لجماعة الجبهة القومية كمكافأة لعملهم هذا والذين يدينون لبريطانيا بالولاء وينفذون مخططاتها وانتهى الحال ببقية اعضاء جبهة التحرير ما بين قتيل وسجين ومشرد فى اليمن الشمالى ومصر والسعودية وتشتت قيادتها وفى عام ١٩٧٢شكلت جبهة تحرير مع عناصر المعارضة للحكم الشيوعى فى الجنوب جبهة تحت اسم «الجبهة الوطنية المتحدة لجنوب اليمن » وفى عام ١٩٨٠دخل هذا التنظيم فى التجمع الوطنى مع رابطة ابناء الجنوب العربى والجناح المنشق من الجبهة القومية برئاسة محمد على هيثم وشغل عبد القوى مكاوى رئاسة هذا التجمع ومكتب الوحدة لوطنية الرئيسى فى القاهرة.

٧- الحزب العربى الاشتراكى

عندما اصدرت السلطنة القعيطية قانون اطلاق الحريات السياسية فى السلطنة انشأ القوميون العرب حزبا تحت اسم الحزب العربى الاشتراكى وكان هذا الحزب يتبنى منطق القوميين العرب هدفا وتنظيما وكانت قيادته تتركز فى مدينة المكلا وما ان انتصرت الجبهة القومية حتى اعلن انضمامه معها واسفر عن هويته الحقيقة .

٨- حركة جيش انقاذ حضرموت

عندما وقعت حضرموت وسائر الجنوب تحت الحكم الشيوعى ، عملت طليعة من ابناء الجنوب فى مطلع عام ١٩٧٠ بانشاء حركة جيش انقاذ حضرموت برئاسة السيد عبدالرحمن بن دواد الجيلانى وقد انضم إلى هذه الحركة اعداد من مثقفى حضرموت والضباط الخرجين من الكليات العسكرية فى القاهرة والسعودية والعراق وسوريا وقد خاضت هذه المنظمة عديدا من المعارك مع الحكم الشيوعى للجبهة القومية وقد كانت مزودة بجهاز اذاعى يطلق على نفسه «صوت الجنوب الحر» وكان يرسل يوميا ما يقرب من سبع ساعات ويديره عناصر حضرمية ويقوم بتوعية الشعب وتعرية الحكم الشيوعى فى الجنوب كما انشأت صحيفة تحمل اسم «نداء الجنوب» ويصدرها نخبة من ابناء حضرموت وتصدر من مدينة جدة وكان لهذه الحركة الأثر البالغ منذ نشأتها فى نفوس الحضارم ولكن ما لبثت أن تضعضعت واستقال رئيسها واستولى عليها النفعيون وباستقلاله استقال عديد من العسكريين والمثقفين ولم يبق لهذه الهيئة سوى مكتبين فى جدة ونجران وكان يفتقر جيش الانقاذ للتنظيم ولاسيما فى الجانب العسكرى .

٩- الحزب الاشتراكى اليمنى «الحزب الحاكم فى اليمن الجنوبية»

على أثر الانقلاب الدموى ضد سالم ربيع على رئيس جمهورية اليمن الجنوبية عام ١٩٧٩ وسيطرة زمرة عبدالفتاح اسماعيل على الأوضاع واستتب له الامر وحقق حلمه الذى يراوده بانشاء حزب شيوعى كيفا وكما ومبدأ ونظرية فعمل على ايجاد هذا الحزب الاشتراكى كما يسميه فدعا التحالف المؤلف من الجبهة القومية ومن القوميين العرب والشيوعيين والشبية والبعثين فرع سوريا وشكل منهم حزبا واحدا فصهرت كل هذه التنظيمات وتبنت الاشتراكية الماركسية علنا من غير موارية وتم تشكيل هذا الحزب على نمط الاحزاب الشيوعية حرفيا ولكن هذا الحزب ما لبث أن اسقط عبد الفتاح اسماعيل من رئاسة الجمهورية وسحب جميع وظائف الحزبية كأمين عام للحزب وقد صبغوا كل مؤسسات الدولة والمؤسسات الشعبية بالصبغة الشيوعية الحمراء وحرم هذا الحزب قيام احزاب اخرى سواء معارضة أو موافقة له .

٢- قضية الاستقلال

كانت بريطانيا تعانى من ازمات اقتصادية واقترنت هذه الظروف بتسلم حزب العمال البريطانى للسلطة فى بريطانيا ووجدت بريطانيا الجنوب اليمنى عبئا عليها اقتصاديا وعسكريا وسياسيا واعلنت عزمها علي اعطاء الجنوب اليمنى استقلاله وبدأت أول خطوة عام ١٩٦٤ بعقد مؤتمر لندن للسلاطين لكى ينسجوا أول خيط من خيوط الاستقلال بحسب الطريقة التى تريدها بريطانيا ولكنها فشلت فى هذا المسعى لما بين السلاطين من شحناء وفرقة من جهة وبين السلاطين ووزراء عدن من جهة أخرى ولكن بريطانيا لم تيأس من محاولاتها فارسلت وزير الكومنولث بعد ذلك إلى عدن وانفق هذا الوزير مع عبدالقوى مكاوى وعبدالله الاصنج على جميع النقاط فى المؤتمر الثانى بلندن وعندما حدد تاريخ للمؤتمر فى اواخر عام ١٩٦٥ طار جميع المؤتمرين إلى لندن وهم السلاطين وحكومة عدن ورابطة ابناء الجنوب العربى وحزب الشعب الاشتراكى وانعقد المؤتمر برئاسة الوزير البريطانى ولكن هذا المؤتمر لم يكتب له النجاح لان عبدالقوى مكاوى وعبدالله الاصبح تنكرا من كل الاتفاقيات التى ابرمها مع وزير الكومنولث وعاد الجميع يجرون ذيول الخيبة مرة اخرى ، وعلى اثر فشل مؤتمر لندن الثانى بواسطة عبدالقوى مكاوى وعبدالله الاصنج والسلطان احمد عبدالله الفضلى عاد الثلاثة إلى القاهرة وشكلوا مع المنشقين من الجبهة القومية وهم الشريف سالم زين

السقاف وعلى السلامى وطه مقبل جبهة تحرير اليمن عام ١٩٦٦ فالتقطت بريطانيا الجبهة القومية بقيادة قحطان الشعبى وابن عمه فيصل المعداى للناصرية فأخذ القضية طابعًا آخر وهو طابع الصراع بين الجبهات وارسلت بريطانيا وزير الخارجية وكان يحمل مشروع الاستقلال فى الدفاع عن الجنوب (ب) استمرار المساعدة المالية المتفق عليها ومقدارها ستون مليون جنيهًا على اقساط متساوية لفترة ثلاث سنوات ولكن حكومة الاتحاد رفضت هذا المشروع فاتصلت بريطانيا برابطة ابناء الجنوب العربى عارضة عليها استلام السلطة ولكن وضعت الرابطة شروطا لاستلام السلطة وهى انتخابات عامة فى اليمن الجنوبية تحت ظل الامم المتحدة أو الجامعة العربية يختارونها الشعب حكامه او تشكيل حكومة ائتلافية بين الاحزاب السياسية المتصارعة ولكن بريطانيا لم ترقها هذه الشروط فاتصلت بالجبهة القومية عارضة عليها تسليمها السلطة فلبت هذه الجبهة من غير قيد ولاشرط فرسمت بريطانيا خطتها ونفذتها الجبهة القومية كما تريد بريطانيا واصدرت بريطانيا للمؤسسات العسكرية فى الجنوب امر بالانخراط تحت قيادة الجبهة القومية فخاضت هذه الجبهة حرب اهلية ضد الحركات الوطنية كافة فى الجنوب فاشبعت الوطنين والمواطنين قتلا وتجريحا وتدميرا وارهابا ودعت بريطانيا الجبهة القومية إلى جنيف عام ١٩٦٧ وبذلك تم تسليم السلطة رسميا فى ٢٩ / ١١ / ١٩٦٧ وقد تقاضى المتقاضون مع بريطانيا ثمن هذه الخيانة واسقطوا جميع الالتزامات التى التزمت بها بريطانيا من مساعدات عسكرية واقتصادية وعندما رسخت قدم الجبهة القومية فى حضرموت عن طريق الارهاب والقتل والسحل وتكميم الافواه وانتزاع الاموال بعد أن انتصر الجناح اليسارى بقيادة عبدالفتاح اسماعيل أكملوا مالم يستطيع قحطان وعصابته القيام من مسخ العقيدة الاسلامية واستبدلوا بها الشيوعية الماركسية الملحدة الذى جعلوه معتقدا لكل عضو من اعضاء الحزب والمعيار الذى يوزن به كل شخص سواء كان مشتغلا بالامور العامة أو الخاصة ومن خالفه سمى «بالثورة المضادة» وهذه الكلمة تعنى أنه مجرم فى نظرهم ويستحق القتل ولقد استهانوا بالله ورسوله والقرآن واما فى المدارس فلا يعلم القرآن واغلقوا جميع المعاهد الدينية وحولوها إلى مدارس شيوعية وتتابعة المراسيم والقوانين التى تلغى الشريعة الاسلامية ففى عام ١٩٧٢ اصدروا مرسوما يحرم استعمال اسم الله «بسم الله الرحمن الرحيم» فى الاوراق الرسمية والاحكام واستبدلوا بها جملة «باسم الشعب» وفى نفس العام اصدروا قانون الاحوال الشخصية الذى حملت مقدمته كل معنى البذاءة ضد التشريع الاسلامى ووصمته بالتخلف والرجعية وامتهان البشرية[٣٩] .

ومضت مواد هذا القانون تحرم ما كان حلالا وتحل ما كان حراما فحرمت الطلاق إلا بموافقة الزوجة والقاضى معا وحرم تعدد الزوجات وألغى الميراث وجعل الحاق النسب بمجرد أن تدعى المرأة أن هذا الحمل لفلان فانهم يقبلون قولها فيه ويلحق هذا الصغير بهذا الرجل المدعى عليه ويلزم القانون بما يلزم الاب وفى هذا القانون مواد كثيرة لاتمت للإسلام بأية صلة واما القانون الجنائى الذى أصدروه فى عام ١٩٧٥ فقد مسخ شخصية حضرموت الاسلامية كلية فقد اباحوا الخمور واقاموا فيها الحانات والبارات وصناعة المسكرات وعاقب القانون كل من يتعرض للخمارات واباح هذا القانون الزنى وجعله حرية شخصية وشجعت الدولة على التبرج واختلاط الجنسين ونشر اماكن اللهو والرقص وقد منع مخالطة الاجانب والالتقاء معهم وتعتبر خيانة يعاقب عليها القانون ، أما القانون المدنى فكاد يكون ملغيا حيث أن العقار قد صودر سواء كان للايجار أو للاستعمال الشخصى وضم إلى وزارة الاسكان والزم صاحب السكن أن يقيم فى مسكنه على أن يوقع عقد انتفاع به بينه وبين وزارة الاسكان وقد دب الخراب فى هذه المساكن لعدم وجود الصيانة لها لا من قبل السكان ولامن قبل وزارة الاسكان، اما فى مجال الاراضى الزراعية والبيضاء فقد انتزعت من ملاكها تحت شعار انتفاضات الفلاحين وغيرت حدود ملكيات الاراضى ومعالمها واختلطت وسيكون هذا الامر عبئا على أى حكومة وطنية حاليا إذ ستيعذر عليها اعطاء كل مالك ارضه وعلى اثر ذلك تدهورت الزراعة ومات النخل واختفت الخضروات والفاكهة والحبوب من الاسواق وهجر كثير الأراضى الزراعية وقد تحولت كثير من المزارع ومناطق النخيل إلى أرض بيضاء وعندما قلبت حضرموت من دار اسلام إلى شيوعية انبرى لمواجهة الموقف عديد من العلماء والدعاة واصحاب الغيرة على دينهم ووطنيتهم من القبليين والعسكريين والعمال والموظفين فأثار ذلك حقد الجبهة القومية المتبنية للشيوعية فملأت السجون بهؤلاء الرجال منتهكة كل الاعراف والاخلاق والمبادى الانسانية فلم تراع فى هؤلاء مكانتهم العلمية أو شيخوختهم فكان هؤلاء الشيوخ يحشرون فى سيارات نقل مارين بهم عبر اودية ويرمون بهم من فوقها .

وبلغت هذه الاعتقالات ذروتها عند الانتفاضات حيث اعتقل آلاف من ابناء هذا الشعب وبعد هذه الاجراءات المأساوية انطلقت ايدى هؤلاء تقطف الارواح الزكية للشرفاء تحت مسميات شيطانية مرة تحت اسم «الكهنوت» ومرة تحت تسمية «الاقطاعيين» واخرى تحت اسم العمالة الاميريالية والرجعية ومن اعلام هؤلاء الشهداء الشريف احمد بن صالح الحداد بمدينة «نصاب» وهو من العلماء والدعاة وكرس كل حياته لخدمة الاسلام وشريعته وسقط

بجواره عديد من علماء «نصاب» سحلا ، وشهدت «حبان مأساة اخرى حيث سحل الداعية العلامة الشريف احمد المحضار عندما وقف ضد تبرج النساء وفى نفس الوقت من عام ١٩٧٣ سحل ستة اشخاص من ابناء «حوطة احمد بن زين» و «وادى ابن على» و «الحزم» وعلى رأسهم الشريف حسين بن احمد العيدروس الذى كان يبلغ من العمر نيفا وسبعين عامًا ولم يكتفوا بهذا الارهاب بل اثاروا حالة من الرعب والفزع فى النفوس معا اذهل المواطنين الآمنين من نساء واطفال وبعد ذلك كله غيروا من اسلوبهم من السحل إلى الاختطاف فاختطفوا مفتى اليمن الجنوبية محمد بن سالم بن حفيظ من مدينة تريم كما اختطف المناضل الاول فى الجنوب ومقاتل البريطانيين من عام ١٩٥٥ السلطان محمد عيدروس العفيفى سلطان يافع السفلى ثم قتلوه فى وادى مسيلة مع سبعة عشر رجلا من جماعته كما اختطفوا العديد من المواطنين من المدن الرئيسة كما اختطفت شخصية حضرموت القبلية الحكم بن ثابت الذى تدين له كل قبيلة «نهد» وأثار هذا الاسلوب الجديد ذعرا فى اوساط الشخصيات العلمية والقبلية والعسكرية مما أدى الفرار لكثير من الشعب .

٣- مكانة حضرموت فى اليمن الجنوبية

لاشك أن حضرموت تأثرت بارتباطها بالحكم المركزى «بعدن» وذلك لما لها من مكانة تاريخية وسكانية واقتصادية وجغرافية وتتلخص هذه المكانة فى عدة اسباب من أهمها ما يلى [٤٠]:

الأول : تعتبر حضرموت المنطقة الواسعة مساحة والغنية موارد والكثيفة سكانا ويكثر فى ابنائها التعليم فاننا لو القينا نظرة على موظفى الجهاز المركزى فى «عدن» لوجدنا أن ابناء حضرموت يشغلون اكثر من نصف موظفيه وكل وظائف حكومة عدن المركزية الفنية والادارية يشغلها الحضارم بالرغم من كثرة المهاجرين منهم من المؤهلات العلمية العالية ونجدهم مسئولين فى سائر المحافظات الأخرى ولانجد أى موظف ادارى أو فنى من ابناء المحافظات الاخرى فى حضرموت الاقلة من المدرسين من المحافظات يعينون بحضرموت وتقصد من وراء ذلك الحكومة فى عدن ايجاد الترابط بين سائر المحافظات وبخاصة حضرموت إذ أن الشعور النفسى عند حكومة عدن أن الحضارم منعزلون عن سائر المحافظات بينما الحضارم يغطون أكثر من ثلث هيئة التدريس فى المحافظات الأخرى ويشكل الحضارم فى مدينة عدن ما يقرب من نصف هذه المدينة .

ثانيــا : بما أن حضرموت محافظة متميزة بخصائص لاتوجد فى سائر المحافظات الأخرى حيث أن فيها المجتمع المدنى والمجتمع القروى الفلاحى والمجتمع القبلى والمجتمع العمالى والمجتمع البدوى فلهذا وقع اختيار المستشارين السوفيت والالمان فى حكومة عدن على أن تكون حضرموت منطقة تجارب للمجتمع الجديد كما يسمونه وكلما نجحت تجربة نقلوها إلى سائر المحافظات بما يلائمها .

ثالثــا : كون حضرموت تشكل اهمية استراتيجية بحكم موقعها الجغرافى إذ يبلغ طول سواحلها أكثر من اربعة آلاف كيلومتر ومجاورتها السعودية واليمن فى الغرب وعمان فى الشرق وهذه خصيصة تنفرد بها حضرموت عن سائر المحافظات .

رابعــا : غنى حضرموت وشهرتها التاريخية وقد أدى هذا الغنى من السيولة النقدية التى تنهمر عليها من مهاجر ابنائها فى السعودية ودول الخليج وجنوب شرق آسيا وشرق افريقيا واليمن وبالرغم من أن حضرموت تشكل مايزيد على نصف موارد اليمن الجنوبية إلا أنها لاتحظى بمشاريع تتناسب مع مواردها وجل المشاريع التى تبرز للعيان من جهد ابنائها فى المهجر ولم تنشئ الجبهة القومية فى حضرموت سوى بعض الطرق التى منحتها الصين والتى ربطت عدن بحضرموت لاسباب عسكرية وتم رصف الطريق ما بين داخل حضرموت وساحله بقيمة القرض المقدم من البنك الدولى وللسبب العسكرى أيضا وكلية متوسطة للتربية فى مكلا منحه من ليبيا واما مصنع الاسماك فقد صادره من شركة المنظمة الوطنية ومصنع صغير لصناعة الطباشير بغيل باوزير الامر الوحيد الذى قدموه لحضرموت هو التوسع فى التعليم الابتدائى والاعدادى والثانوى ولعل ذلك يخدم مصالحهم فى نشر عقيدتهم الشيوعية ومنح من بعض الدول العربية وكل الحضارم يلمسون هذا ويشعرون به ولكنهم يأنفون عن المطالبة بحقهم تلك الاسباب جعلت الحكم المركزى فى عدن يتشبث بحضرموت وقد يستميت عند محاولة انتزاعها منهم لأن حضرموت تشكل فى هذا النظام «جوهرة تاجه» ولايخفى أن الحكم فى اليمن الجنوبية مركزى فى كل أمر من الأمور المالية والادارية والوظيفية حتى فى اصغر الامور لابد فيه من الرجوع إلى عدن وهذا الامر عمق ربط المحافظات بالحكم المركزى فى عدن ، واما عن مدى نفوذ الحزب الشيوعى وتأثر الحضارم به فلم يكن بالحجم والنوعية التى يظنها البعض لو سألت عن اعضاء هذا الحزب الشيوعى من الخريجين الحضارم لاتجد منهم سوى اعداد يحسبون على اصابع اليد بالرغم من كثرة خريجى الجامعات من الحضارم

فى شتى التخصصات العلمية وهذا يعطى اكبر دلالة على مقت الحضارم لهذا الحزب والنظام، والقادمون من حضرموت يذكرون أن حلقات التنظيم لاتنعقد لعدم حضور اعضاء الحلقات فضلا عن عدم انعقاد مؤتمر الشعب وقد انتشرت فى خلال الاعوام الماضية عكس ما يتمناه الشيوعيون ظاهرة التدين إذ اقبل الشباب حتى الصغار منهم الذين فى سن الطفولة على المساجد وعلى علماء الدين وكتب الاسلام وهذا مما أوغر صدور الشيوعيين وجعلهم يتخذون القرارات المتوعدة والزج بهؤلاء الشباب فى الجيش تحت شعار التجنيد الاجبارى آملين أن يفسدوا منهم ويمسخوا عقيدتهم من خلال هذا الاطار وقد قامت الحكومة فى عدن بالقبض على الشباب فى حضرموت من الاسواق والجمعيات الشعبية كالمناسبات الدينية وغيرها ثم يتم ترحيلهم إلى معسكرات الجيش .

١١- الانسحاب البريطانى واستقلال دول شرق الجزيرة العربية

أعلنت بريطانيا انسحابها من دول شرق الجزيرة العربية مما أدى إلى اجتماع حاكمى دبى وابوظبى فى فبراير ١٩٦٨ والذين دعى حكام الامارات التسع إلى اتحاد ولقى ذلك تجاوب بسرعة وجرى لقاء بين حكام الساحل العمانى السبع وانضم اليهم حاكما قطر والبحرين فى ٢٥ / ٢ / ١٩٦٨ وقرروا اقامة اتحاد بين اماراتهم يطلق عليه اسم «اتحاد الامارات العربية» على أن يصبح سارى المفعول ابتداء من أول مارس ١٩٦٨ وهذا الاتحاد كما نصت عليه الاتفاقية هو «اتحاد فيدرالى» ، استؤنف الاجتماعات وتوالت بعد ذلك للبحث فى ميثاق اتحاد الامارات العربية واختيار رئيسه وعاصمته والاتفاق على انشاء جيش موحد وسياسة خارجية موحدة وعملة وجوازات سفر موحدة وشئون الهجرة والجنسية والجمارك والخدمات البريدية والصحة وتنسيق الاعلام وتوحيد العلم والنشيد الوطنى والشعار الرسمى ووضعت لهذا الاتفاق بنود حددت سلطات الاطراف ووضعت احكاما متفرقة ، ومن البنود التى تم التفاهم عليها أن يشرف على شئون الاتحاد مجلس يسمى بالمجلس الاعلى» يشكل من حكام الامارات التسع مهمته تعيين المقر الدائم للاتحاد ووضع ميثاق متكامل ودائم له ورسم السياسة العامة العليا فى جميع المجالات ، وتصدر قراراته بالاجماع وهذا النمط من العمل يعتبر كل حاكم من حكام الامارات نفسه الأول أو المقدم بين «اكفاء» حددت هذه الاتفاقية موعد العمل بها فى ٣٠ / ٣ / ١٩٦٨ فى مدينة المنامة ، كانت لجنة المستشارين قد اعدت مشروع اقتراحات لقيام اجهزة ادارية لحكومة فنية حديثة لكن الحكام تريثوا وترددوا بالنسبة لامور متعددة كما كان للبحرين ملاحظات معينة مما أدى إلى عدم نجاح المشروع .

تغيـر الوضع فى الاجتمـاع الذى عـقد فى الخريف التـالى وكـانت البحرين مـتجاوبة فتم الاتفقا على عدة امور هامة وتوقف الاجتمـاع فجأة عندما وجه المقيم السياسى البريطانى مـلاحظة إلى المجتمعين يطلب فيـها استبعاد بحث موضع الاتحاد المقترح مما حدا ببعض الاعضاء اعتبار ذلك تدخلا غير مبرر فى امور المجلس وكان أول من غادر الاجتماع صقر بن محمد حاكم رأس الخيمة ثم تبعه حاكم قطر ، وتقدمت كل من ابوظبى وقطر بجدول اعمال عرض على لجنة المستشارين التى اقرت مشروع ابوظبى واستبعدت مشروع قطر لكونه لم يتناول الموضوعات الاساسية ، وبرزت اختلافات حول عدة نقاط اهمها : مقر العاصمة وقد اقترحت البحرين أن تكون ابوظبى عاصمة مؤقتة على أن يتفق على مقر العاصمة الدائمة للاتحاد فيما بعد بينما اصرت امارتا قطر ودبى على بناء العاصمة فى «وادى الموت» الذى يقع بين ابوظبى ودبى ، ومن ابرز الخلافات كان موضوع التصويت والتمثيل فى المجلس الاتحادى هل تتخذ القرارات خاصة الاساسية منها بالاكثرية المطلقة اما بالاكثرية النسبية ، وبالنسبة للتمثيل فى المجلس الاتحادى لقد نص الاتفاق الاساسى على أن تمثل كل امارة باربعة مندوبين بصرف النظر عن عدد السكان وعن امكانياتها الاقتصادية وكانت البحرين معارضة لمبدأ التمثيل بالتساوى واصرت على مبدأ التمثيل النسبى ، كما كان الخلاف حول الغاء الجيوش الاقليمية إذ كانت كل امارة تصر على الاحتفاظ بجيشها الخاص بالاضافة إلى الجيش الاتحادى وكذلك دارت مناقشات حول ميزانية الاتحاد إذ كانت الاتفاقية تنص على اسهام كل امارة بنسبة ١٠٪ من عائدات نفطها فى موازنة الاتحاد أما بالنسبة للانضمام إلى المنظمات الدولية فقد طالبت احدى الامارات النفطية بحق انفراد الامارات النفطية فى التمثيل فى منظمة الدول المنتجة للنفط «اوبيك» . وطالبت احدى الامارات عدم اخضاع الشئون الجمركية وقوانين الموانئ والمطارات وتشريعاتها إلى السلطات الاتحادية كما نص عليها الدستور المؤقت ، تعثر الاتفاق بين حكام الامارات المعينة نظرا لاختلاف وجهات النظر فى ما بينهم وتدخلت الدول العربية آملة فى تقريب وجهات النظر بين «الاخوة» وشكلت لجنة وساطة من السعودية والكويت وتنقلت بين امارات الخليج فى شرق الجزيرة العربية وقامت بمساعيها وطرحت عليهم مقترحات لتسوية الخلافات وقد تكثفت جهود لجنة الوساطة ، وافقت معظم الامارات على اكثرية الاقترحات لكن بعض التحفظات ظهرت من البحرين التى يقال انها قبلت بتنازلات عديدة ، ويبدو أن الامارات الصغيرة وافقت على المقترحات وتجاوبت مع اللجنة بينما تحفظت الامارات الاربع الكبرى قطر، البحرين، ابوظبى، دبى[٤١].

تعثر مشروع «اتحاد الامارات العربية التسع» وواجه صعوبة بالرغم من موافقة معظم حكام الامارات على معظم المواضيع وبالرغم من المساعى التى بذلتها الدول العربية لكن الخلافات المتعددة كانت اقوى من الوشائج والمصالح التى تربط شعب شرق الجزيرة العربية ، وكانت البحرين لم تنل استقلالها بعد فخشيت أن ينسحب البريطانيون وتجد نفسها من دون وجود قانونى ما دام مشروع «اتحاد الامارات العربية» لم يتحقق بعد ففكرت فى اعلان استقلالها فى مايو عام ١٩٧١ لكنها رغبت أن تحظى بموافقة الدول العربية كى تنضم بعد ذلك إلى جامعة الدول العربية وبالتالى إلى هيئة الامم المتحدة وهكذا خططت البحرين وتحركت على الصعيد العربى والدولى واعلنت استقلالها فى ١٤ / ٨ / ١٩٧١ فتبعتها امارة قطر التى اعلنت استقلالها هى أيضا فى سبتمبر ١٩٧١ ، ان فشل قيام اتحاد الامارات التسع كان صدمة لشعب الجزيرة العربية خاصة وللشعب العربى عامة إذ كان لايزال تحت وطأة هزيمة الخامس من يونيو ١٩٦٧ وتحديات الدول الأوربية وربيبتها «اسرائيل» وكان للخلافات التى قامت بين الاخوة دور كبير فى هذا الفشل تلك الخلافات التى اثارتها وغذتها بطرق مباشرة وغير مباشرة الدول ذات المصلحة فى المنطقة فقد نشرت اشاعات ووضعت العصى فى الدواليب واشاعت النعرات والعصبيات فمن خلاف على زعامة الاتحاد ومقره بين حكام الامارات إلى انتشار حملات التشكيك وترويجها من قبل الاجهزة البريطانية خاصة .

وكان فشل اقامة «اتحاد الامارات العربية» التساعى حافزا لامارات ساحل عمان السبع لتكوين اتحاد فى ما بينهم ، اجتماع حكام الامارات السبع فى مدينة دبى فى ١٨ / ٦ / ١٩٧١ بغية تحقيق الاتحاد وكانت الخطوة الأولى اقرار دستور مؤقت فبعد التشاور فى ما بينهم اتخذوا مشروع دستور الاتحاد التساعى المؤقت وادخلوا عليه بعض التعديلات المتناسبة مع أوضاعهم الجديدة فأصبح الدستور المؤقت لدولة اتحاد الامارات العربية السبع واتفق الحكام على اصدار قرار باعلان قيام الدولة الجديدة كدولة مستقلة ذات سيادة فى٢ / ١٢ / ١٩٧١ واعتبر الدستور المؤقت سارى المفعول ابتداء من اعلان تأسيس الدولة ويشمل الدستور المؤقت ١٥٢ مادة موزعة على عشرة ابواب حددت فيه مستويات الاتحاد وأهدافه السياسية والدعامات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالاضافة إلى الحقوق والواجبات العامة وحددت السلطات الاتحادية وغير ذلك من احكام كما نص الدستور على تحديد المؤسسات الدستورية للدولة وهى المجلس الاعلى الاتحادى الذى يعتبر اعلى سلطة فى الدولة والمجلس الوزارى الاتحادى والمجلس الوطنى الاتحادى الذى يمثل السلطة التشريعية فى الدولة والسلطة القضائية الاتحادية، واقامت الدولة الجديدة علاقات خارجية فى المجالين العربى والدولى[٤٢].

١٢- مجلس التعاون لدول الخليج العربى ١٩٨١

ترجع خطوات انشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربى إلى عام ١٩٧٥ حيث كان الشيخ جابر الاحمد امير الكويت حاليا وقتئذ وليا للعهد ورئيسا لمجلس الوزراء فى زيارة لابوظبى فى ١٦ / ٥ / ١٩٧٥ بدعوة من الشيخ زايد بن سلطان رئيس الامارات العربية وبعد محادثات مطولة من الجانبين صدر بيان مشترك دعا فى حينه إلى تشكيل لجنة وزارية مشتركة يرأسها وزيرا خارجية البلدين تجتمع مرتين كل سنه على الأقل ، وفى ديسمبر ١٩٧٨ زار الشيخ سعد العبدالله ولى عهد الكويت دول الخليج ووزعت البيانات المشتركة التى صدرت عن محادثاته فى دول الخليج العربى إلى تحرك سريع تتضافر فيه جهود دول المنطقة للوصول إلى وحدة دولهم العربية التى تحتمها الروابط الدينية وامانى شعوبها فى تحقيق المزيد من التقدم ، ويلاحظ أن الجهود المكثفة لبداية التفكير فى انشاء مجلس التعاون بدأت مع مؤتمر القمة العربى الحادى عشر الذى عقد فى عمان فى نوفمبر ١٩٨٠ حيث اطلع الشيخ جابر الاحمد امير الكويت الزعماء الخليجين على التصور الكويتى لاستراتيجية خليجية مشتركة للتعاون فى جميع المجلات وكان التصور الكويتى يقوم على تقوية الروابط بين الدول الخليجية العربية فى كل المجالات السياسية والاقتصادية والنفطية والثقافية والعسكرية فى اطار تنسيق مشترك استراتيجية شاملة وقد رحبت دول المنطقة بالافكار الكويتية بوجه عام وفى يناير ١٩٨١ تم ارسال المشروع الكويتى للتعاون الخليجى إلى الدولة المعنية وفى اثناء انعقاد مؤتمر القمة الاسلامى فى الطائف فى الفترة بين ٢٥ -٢٨ / ٤ / ١٩٨١ جرت بعض الاتصالات بين القادة الخليجين بلورت فيها بعض الافكار التى تركزت حول ضرورة ابعاد منطقة الخليج العربية عن الصراعات الدولية . وفى ٤ / ٢ / ١٩٨١ التقى فى الرياض وزراء خارجية ست دول من شرق الجزيرة العربية لوضع الهيكل التنظيمى لبلورة وتطوير التعاون والتنسيق المنشودين بينها وفى نهاية الاجتماع اصدروا بيانا ختاما اعلنوا فيه موافقتهم على انشاء مجلس التعاون وانعقدوا أول اجتمع لحكام دول المنطقة فى ابوظبى وقد جاء فى مطلع ورقة العمل المشترك التى تبنتها هذه القمة فى ابوظبى «أن ظهور مجلس التعاون دول الخليج العربية إلى الوجود يعنى استجابة للواقع التاريخى والثقافى والاقتصادى والسياسى والاستراتيجى الذى مرت وتمر به منطقة الخليج العربى وهو أشد ما يكون الحاحا فى الوقت الحالى اكثر منه فى أى وقت مضى لصالح شعوب المنطقة » .

وتنتهى ورقة العمل المشترك بانشاء سبع لجان هى لجنة التخطيط الاقتصادى والاجتماعى لجنة التعاون المالى والاقتصادى والتجارى لجنة النقل والمواصلات لجنة التعاون الصناعى لجنة النفط لجنة الخدمات الاجتماعية والثقافية لجنة التعاون المالى والنقدى ولقد توسعت هذه اللجان الوزارية فى عملها وصارت لجانا دائمة عددها حوالى احدى عشرة لجنة . وحدد البيان الختامى فى السياسة الخارجية للمجلس بسياسة عدم الانحياز ، حيث لاقواعد ولا اساطيل ولاتسابق للنفوذ وربط هذا الموقف الرافض للعرض السخى الخارجى بالدفاع عن الخليج باستعداد دول المنطقة بان تتحمل مسئوليتها ، وقامت الامانة العامة بدعوة وزراء المالية الذين اجتمعوا فى الرياض فى يونيه ١٩٨١ واتفقوا على مشروع اتفاقية اقتصادية موحدة صادق عليها الحكام فى اجتماعهم الثانى فى الرياض فى نوفمبر ١٩٨١ والقصد من سرعة انجاز الاتفاقية هو اختيار الانصهار الاقتصادى وربط مصالح ابناء المنطقة وازالة الحوجز بين الدول لخلق قاعدة تجارية وصناعية وزراعية وتكثيف لاندماج بين المواطنين كل ذلك من اجل تحقيق اهداف المجلس . ومن الثابت أن أمن الخليج يرتبط بالأمن القومى العربى فى اطار النقاط التالية (٤٣):

١- إمكانية الوقوف ضد التحديات الداخلية والاقليمية وبذل اقصى الجهد لحل مشكلة العمالة .

٢- أن قضية الامن القومى العربى إنما هى قضية واحدة لايمكن تجزئتها فأمن الخليج العربى هو جزء لايتجزأ من الأمن القومى العربى وعلى هذا يجب اعتبار مجالات التعاون الخليجية فى كافة المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والنفطية هى جزء من العمل العربى المشترك وليست بديلا عنه .

٣- أن أى تهديد لأمن أية دولة عربية إنما هو يشكل تهديدا للأمن الخليجى والأمن القومى عموما فيجب فى هذه الحالة عدم الوقوع فى الخطأ الشائع أن المطامع الاجنبية تستهدف دولة خليجية هنا وهناك فى منطقة الخليج العربى وإنما هى تستهدف الجميع فى منطقة الخليج وبذلك يصبح الأمن القومى فى حالة مهددة بصورة مباشرة .

٤- وضع صيغ واضحة للتعاون بين كافة دول الخليج العربى واستمرار التعاون فيما بينهم.

٥- أن قيام مجلس للتعاون الخليجى من شأنه دعم العمل العربى الاقتصادى المشترك وخصوصا فى مجال النفط .

وخلاصة القول أن قيام مجلس التعاون الخليجى هو خطوة ايجابية هامة وأن بامكانية المجلس التصدى للتحديات وتطوير العمل العربى المشترك والمساهمة فى ضمان الامن القومى العربى هى من الامور التى تقوى الامة العربية كى تتخطى شعوبها الازمات والمحن الحالية.

لقد اثبت مجلس التعاون الخليجى بالفعل بعد الازمة الاخير والغزو العراقى للكويت وبعد تجربة استغرقت عقدا من الزمان وبرغم التحديات التى حجمت من فاعليته إلا أنه اثبت قدرة فائقة على الحفاظ على وحدة الصف إذا اعلنت دول المجلس تصميمها على الا تحجب سحابة الازمة اشرافات سنوات من العمل الدؤوب فى مسيرة المجلس أن أهم الاخطار التى يمكن أن تقف حجر عثرة امام انطلاقة مجلس التعاون تتمثل فى استمرار الاتجاه التقليص فى علاقة المجلس بالنظام العربى من خلال تكريس القطرية وانخراطه فى ترتيبات امنية اقليمية بمعزل عن الأمن القومى العربى .

وقد بادر المجلس من خلال قمتى الدوحة والكويت الاخيرتين إلى بلورة اهم ملامح الاطار الذى حدده للتعامل فى المرحلة القادمة على النحو التالى :

١- دعا المجلس إلى أهمية تطوير ألية العمل وزيادة فاعلية حتى لوا اقتفى الامر إلى ادخال تعديلات على المجلس .

٢- حرص المجلس على تأكيد مبدأ حسن الجوار والاحترام المتبادل للسيادة الوطنية واعتماد الحوار والتفاوض كوسيلة لفض المنازعات .

أنه بعد المراجعة المتعمقة لاحباطات المجلس بهدف التبصر بما يمكن أن يحققه بعد الازمة لمضاعفة فاعليته على الساحة العربية والعالمية يقودنا إلى التركيز على ثلاثة مستويات هى القطرى الخليجى العربى والدولى .

(أ) على المستوى القطرى طرحت الازمة عددا من المطالب الملحة والجوهرية التى تتعلق بتبنى تغيرات جذرية ترتبط باقامة مؤسسات منتخبة وكذلك يتحتم على المجلس بتطوير صيغ مناسبة لمشاركة أكثر فاعلية من قيل مواطنين تتجاوز الصيغ الجامدة التى سبق أن اعاقت حركته .

(ب) وعلى المستوى الخليجى يتحتم على مجلس التعاون توجيه اهمية خاصة لتشكيل قوة خليجية فى اطار قيادة مركزية تتجاوز الحساسيات القطرية وتكون قادرة على تجنيد الطاقات كافة لمواجهة أية اثار وتحديات محتملة فى المستقبل .

(جـ) وعلى المستوى العربى لايجب أن يمثل التراجع النسبى فى العلاقات بين دول مجلس وبقية وحدات النظام العربى اتجاها صاعدا أو أن تنال الاتجاهات القطرية والاقليمية من العلاقات العربية ، فمستقبل مجلس التعاون يرتبط ارتباطا مباشرا بقوميته العربية وعلى المجلس أن يعى هذه الحقيقة وأن يتشبث بالنظام العربى القومى ويسهم فى احيائه .

(د) اما على المستوى الدولى فقد لجأ المجلس بعد ازمة الخليج بالفعل وفى تطوير ايجابى للدبلوماسية الخليجية إلى موازنة علاقاته الدولية فى اطار الاحترام المتبادل للسيادة الوطنية وفى ظل الشرعية الدولية يكفل مصالح اطراف العلاقة .

٣- الوحدة اليمنية فى مايو ١٩٩٠

يمثل قيام الوحدة اليمنية ثالث محاولة وحدوية معاصرة فى الجزيرة العربية فقد سبق هذه التجربة توحيد السعودية فى سبتمبر ١٩٣٢ وبعد تسعة وثلاثين عاما وبالتحديد فى ديسمبر ١٩٧١ قامت وحدة عربية أخرى فى الجزيرة العربية متمثلة فى قيام دولة الامارات العربية المتحدة ، وكما ظهر مجلس التعاون الخليجى فى عام ١٩٨١ ونتمنى له أن يخطوا نحو الاتحاد ليشمل بقية دول الجزيرة العربية كنواة الوحدة العربية ، وبعد قيام دولة الامارات بتسعة عشر عاما أى فى مايو ١٩٩٠ ظهرت التجربة الوحدوية الثالثة فى الجزيرة العربية ممثلة فى قيام الوحدة بين شطرى اليمن ولاشك أن قيام الوحدة اليمنية منها بعثا للمد الوحدوى فى الجزيرة العربية كما أنه تجسيد لظاهرة ثورة الأمم على الدول والتى اعادت شكل الخارطة السياسية فى المسرح الدولى المعاصر ، لقد تحولت الوحدة اليمنية وبشكل مفاجئ من امل ينشده الشعب اليمنى منذ مطلع هذا القرن إلى حقيقة ملموسة تعيشها الجماهير اليمنية . بيد أن هذا التوجه الوحدوى لم يترجم إلى خطوات ملموسة إلا فى عام ١٩٧٢ وعام ١٩٧٩ حينما توصل إلى اتفاقيات الوحدة وحتى هذه الاتفاقيات الوحدوية جاءت نتيجة لضغوط التوتر السياسى والعسكرى بين الشطرين ولم تأت من قناعات وحدوية ولذا لم تخرج إلى حيذ التنفيذ . لقد فاجأت وحدة مايو الموضوعية التى اوجدت الدفع وحددت مساره ، ويمثل تاريخ السياسة الخارجية اليمنية حالة جيدة للتكامل بين التاريخ والسياسة ذلك أن التاريخ يمثل سياسة الماضى فى حين أن السياسة تمثل تاريخ الحاضر أن مسار السياسة الخارجية اليمنية تجاه مسألة الوحدة اليمنية فى الغهد «الجمهورى» لايعد وكونه امتدادا تاريخيا لمسار السياسة الخارجية اليمنية فى العهد «الإمامى» رغم التغير الجذرى الذى طرأ على طبيعة النظام السياسى فى اليمن الشمالى والذى افرزته الثورة الناصرية فى ٢٦ / ٩ / ١٩٦٢ ،

ورغم أن عـامـل الوحـدة فى الشـمـال والجنوب بالشطر الآخر إلا أن عـامل الوحـدة أخـذ شكل التفاعل السلبى حيث شكل أحد مسببات الصراع السياسى ومن ثم العسكرى بين الشمال والجنوب اليمنى فحالما تولت «الجبهة القومية» السلطة فى الجنوب تبنت على الفور الدعوة لإسقاط النظام«الرجعى» فى الشمال لقد حكمت هذه التطورات السلبية العلاقة بين الدولتين اليمنتين بمنهج الصراع والذى شكل اطار التفاعل السياسى بينهما فيما بعد . وفى يونيو ١٩٦٩ انتصر الجناح الماركسى الشيوعى فى «الجبهة القومية» ومن ثم زاد التوتر وحدة الصراع بين الشمال والجنوب وبدأ كل طرف يدعم المعارضة للطرف الآخر ويمدها بالمال والسلاح كما ظهرت بوادر النزوح السياسى الجماعي بين الدولتين حيث توجه معارضو الجنوب إلى الشمال وتوجه معارضو الشمال إلى الجنوب وفى ٢٦ / ٩ / ١٩٧٢ بلغ التوتر ذروته عندما وقع القتال بينهما وتلا القتال الوصول إلى أول اتفاقيات الوحدة بين الدولتين والتى تعرف باتفاقية القاهرة والتى تم التوصل إليها فى ٢٨ / ١٠ / ١٩٧٢ (٤٤).

(أ) قيام دولة الوحدة اليمنية

نشطت مساعى الوحدة اليمنية من جديد مع مطلع عام ١٩٨٧ فقد تم لقاء «تعز» بين الرئيس على عبدالله صالح رئيس الجمهورية اليمنية وعلى سالم البيض الامين العام للجنة المركزية للحزب الاشتراكى فى اليمن الجنوبية وأدى هذا اللقاء إلى وقف التدهور فى العلاقات بين البلدين وفى مايو ١٩٨٨ تم لقاء قمة آخر بين الزعيمين واسفر هذا اللقاء عن تخفيف حدة التوتر تدريجيا حيث اتفق الجانبان على تنقل المواطنين بالبطاقة الشخصية ونفذ ذلك فى الموعد المحدد وهو الأول من يوليو ١٩٨٨ وخلال شهو اكتوبر وتوفمبر ١٩٨٩ اقر برلمان الشطرين الوحدة الانتقالية بين البلدين كما اعلنت اليمن الجنوبية حرية تنقل المواطنين بين البلدين دون تصاريح مسبقة وتم الاتفاق على الاستقلال المشترك للنفط وباشرت الدولتان ذلك ، وفى ٣٠ / ١١ / ١٩٨٩ قام الرئيس على عبدالله صالح بزيارة إلى عدن بمناسبة استقلال اليمن الجنوبية وخلال هذه الزيارة والتى تعتبر أول زيارة يقوم بها رئيس يمنى من الشمال إلى الجنوب وقع على عبدالله صالح وعلى سالم البيض على اتفاقية الوحدة بين الشطرين حيث صادقا على اقرار مشروع دستور دولة الوحدة والذى تم اعداده فى٣٠ / ١٢ / ١٩٨١ ونصت الاتفاقية على احالة مشروع الدستور إلى مجلس الشعب والشورى خلال مدة اقصاها ستة اشهر تشرف على هذه الاعمال ويمكن القول أن اتفاقية عدن التاريخية قد تجاوزت مرحلة الصيغ الانتقالية للوحدة اليمنية ووضعت اليمنيين على اعتاب الوحدة

الاندماجية ، لقد كانت اتفاقية عدن التاريخية بداية للمساعى الجادة لتجسيد الوحدة اليمنية وانهاء تجزئة اليمن فقد تلا هذه الاتفاقية عقد خمسة لقاءات قمة خلال الفترة ما بين ديسمبر ١٩٨٩ ومايو ١٩٩٠ بين الرئيس على عبدالله صالح وعلى سالم البيض وتوجت هذه اللقاءات بعقد اجتماع مشترك يوم ٢٢ مايو ١٩٩٠ فى عدن بين المجلس الاستشارى فى الشطر الشمالى وهيئة رئاسة مجلس الشعب الاعلى فى الشطر الجنوبى وترأس الاجتماع سنان ابو لحوم من اليمن الشمالية بصفة اكبر الاعضاء سنا وقد انتخب المجلس المشترك الاعضاء الخمسة فى مجلس الرئاسة الجديد وهم على عبدالله صالح ، القاضى عبدالكريم العرشى عبدالعزيز عبد الغنى على سالم البيض وسالم صالح محمد وادى اعضاء مجلس الرئاسة اليمنية الدستورية فى حضور اعضاء المجلسين الاستشارى وهيئة رئاسة مجلس الشعب الاعلى تلا ذلك عقد أول اجتماع لمجلس الرئاسة يوم ٢٢ / ٥ / ١٩٩٠ وانتخاب على عبدالله صالح رئيسا للمجلس والسيد على سالم البيض نائبا للرئيس ثم اصدر مجلس الرئاسة عددا من القرارات منها قرار فى شأن العلم الوطنى وقرار فى شأن شعار الجمهورية وهو يوم ٢٢ مايو كما اصدر المجلس قرارا خاصا يكلف بموجبه السيد ابوبكر حيدر العطاس بتشكيل حكومة اليمن الموحدة وفى نفس اليوم اعلن على عبدالله صالح فى خطاب له من قاعدة فلسطين فى عدن قيام «الجمهورية اليمنية» معلنا بذلك نهاية تشطير اليمن وقيام دولة الوحدة وقال الرئيس اليمنى «سنعمل كفريق عمل واحد وقيادة جماعة واحدة من اجل تحقيق كل الأهداف للجمهورية اليمنية كدولة عربية دينها الاسلام والشريعة الاسلامية المصدر الرئيسى لشريعتها » وبتأكيد الرئيس على عبدالله على الهوية الاسلامية لدولة الوحدة يمكن القول ان الوحدة اليمنية قد انهت التجربة العربية الوحيدة لاقامة دولة ماركسية شيوعية . ولقد انهت تلك الوحدة مقولة ان النظامين المتناقضين فى شمال اليمن وجنوبه لن يتفقا على صيغة دولة الوحدة واوجدت اسسا أكثر واقعية لتجسيد الوحدة الاندماجية بين الشطرين وذلك من خلال المصادقة على مشروع دستور دولة الوحدة (٤٥).

لقد نظر البعض إلى دستور دولة الوحدة اليمنية على أنه من ارقى الدساتير اليمنية على الاطلاق وأكثره ديمقراطية ورغم اخذه بالكثير مما جاء فى الدستورين الحاليين لدولتى اليمن فانه لم يكن مجرد تلفيق غير منسجم بل جاء متميزا بالحقوق الديمقراطية التى اعطاها للمواطنين وباختياره للنظام البرلمانى الذى يضمن جماعية القيادة وادارة السلطة من خلال ممثلى الشعب فى البرلمان وفى افراده العديد من مواده للأسس الديمقراطية والسياسية للمجتمع ، بيد أنه رغم هذا الاطراء لدستور دولة الوحدة فان النظرة الواقعية والقراءة المتأنية

للدستور توحى بان هذا الدستور يحتوى على العديد من نقاط الجدل والخلاف التى سوف تجعله يفقد زخمه السياسى حينما يصطدم بأرضه الواقع السياسى اليمنى وتبدأ الممارسة الفعلية لمواده فموقع الاسلام فى دستور دولة الوحدة لايزال محل جدل بين الحكومة والمعارضة كما تطالب الاحزاب والتنظيمات الاسلامية والمحافظة بالغاء جميع القوانين والقرارات التى تعارض مع الحقوق الشرعية والتى لاتزال سارية المفعول فى اليمن الجنوبى اضافة إلى قانون الاحوال الشخصية الذى يتعارض مع الشريعة الاسلامية . ولقد نتج عن الانفتاح السياسى فى اليمن تضخم سياسى بحيث يصعب على المراقب للوضع اليمنى تصور كيف ستتعامل معه الحكومة اليمنية والتى لاتزال فى اولى مراحل التأسيسية السياسية ، فقد بلغت قائمة الاحزاب والتنظيمات السياسية اليمنية عند قيام دولة الوحدة أكثر من اربعين حزبا وتنظيما وتجمعا وجبهة بيد أن هذا العدد تناقص بعد مرور عامين . بحيث وصل إلى ٢٨ حزبا وتنظيما فى مطلع شهر يوليو ١٩٩٢ ويرجع هذا الانخفاض الكبير فى عدد الاحزاب والتنظيمات السياسية اليمنية فى المقام الأول إلى مشكلة التمويل خاصة بالنسبة للأحزاب حديثة العهد التى تفتقر للقاعدة الشعبية والايدلوجية وان تجربة التعددية السياسية فى اليمن لاتزال فى أولى مراحل تطورها وان الشعب اليمنى سوف يستوعب الممارسة التعددية السياسية كما هو حال كثير من الشعوب التى استطاعت أن تصل إلى مرحلة القدرة على التميز السياسى بين القوى السياسية الفاعلة . كما ظهر فى دولة الوحدة اليمنية ١٤٢ مطبوعة ما بين صحيفة يومية واسبوعية ونصف شهرية ومجلات اسبوعية وشهرية وغيرها من الدوريات والنشرات ولم يحل دون زيادة هذا العدد سوى صعوبات التمويل ونقص الامكانات الفنية اللازمة للطباعة وكما هى الحال فى التنظيمات السياسية تعانى الصحافة اليمنية من زيادة فى الكم ونقص فى الكيف إلى الحد الذى وصل بالمسئوليين عن الاعلام وبعض الاعلاميين إلى المطالبة بوضع حد للإسراف الذى وصل إليه حال الصحف اليمنية فى وقت ما زالت فيه اليمن تحتل موقعا يتراوح بين الدول النامية والدول الاقل نمو أو تعانى من ارتفاع نسبة الامية وانخفاض فى مستوى الدخل ، وبرغم هذه السمات السلبية للانفتاح السياسى فى دولة الوحدة اليمنية يمكن القول أنه ساهم فى ايجاد اكثر من مرتكز للوحدة اليمنية فمن ناحية شغل الانفتاح السياسى جماهير الشعب اليمنى والقوى السياسية اليمنية فى صياغة برامجها وبناء تنظيماتها السياسية وكل هذه الاحزاب والتنظيمات نظرت للوحدة اليمنية على أنها اهم الثوابت فى برنامجها السياسى كما أن الانفتاح السياسى زاد من ترشيد الوحدة وبرامجها فاستطاعت الحكومة أن تعرف نقاط الضعف ومصادر القوة فى اليات دولة الوحدة

كما أن الانفتاح السياسى زاد من شرعية حكومة دولة الوحدة اليمنية فى المجال الدولى فقد نظر كثير من الدول الغربية إلى التجربة الديمقراطية فى اليمن رغم تواضعها على أنها خطوة يجب أن تبارك اذانها تجسيد للقيم السياسية الغربية كما أنها تضع دولة الوحدة اليمنية فى الطريق الصحيح للاستقرار السياسى . ولقد رافق الانفتاح السياسى فى داخل اليمن انفتاح سياسى تجاه العالم الخارجى خصوصا المجتمع الغربى بيد أن التحدى الكبير الذى ينتظر قيادة اليمن هو الى أى مدى ستكون الحكومة اليمنية قادرة على توجيه مسار الحياة السياسية فى هذا البحر المتلاطم والملئ بالقوى السياسية والمنابر الصحفية والتى تفتقر للتجربة الديمقراطية (٤٦).

إلا أن هذه الوحدة تعرضت لأولى التحديات وذلك اعقاب الاحداث التى تفجرت فى بداية شهر مايو عام ١٩٩٤ التى ادت إلى هذه الحرب الطاحنة وإلى كل ماجرى وهى اراء متباينة لكن ابرز نقاط الخلاف التى تمثل وجهة نظر غالبية التيارات التى تعاطت وتتعاطى مع هذه القضية هى التالية (٤٧):

١- أن الجمهورية العربية اليمنية السابقة حاولت فرض واقعها القبلى على جمهورية ما بعد الوحدة فوقع التنافر بين الحزب الاشتراكى وحزب المؤتمر الشعبى العام فكبرت الازمة ووصلت إلى الانفجار .

٢- لجأ الحزب الاشتراكى إلى الوحدة عندما كان فى حالة انهيار وضعف بعد احداث يناير ١٩٨٦ وبعد أن اتضح سقوط الاتحاد السوفييتى وعندما تمالك نفسه والتقط انفاسه بدأ يدفع الامور نحو الانفجار للعودة إلى ما اسماه فدرالية وقد يعنى فى مفهومه الحقيقى العودة إلى التشطير .

٣- هناك مجموعة متنفذة داخل الجيش فى الشمال تمثل مراكز القوى وقد لجأت هذه المجموعة إلى الحرب لقطع الطريق على وثيقة العهد والاتفاق التى طبقت ولو فى حدودها الدنيا ستفقد هذه المراكز مواقعها .

٤- وجود الاحتياطى النفطى بحجمه الاكبر فى الجنوب جعل قادة الحزب الاشتراكى يفكرون فى الانفصال مرة أخرى .

٥- القوى المتأثرة بالظاهرة الاصولية خاصة فى الشمال احتضنت ظاهرة ما يسمى بالافغان العرب وساهمت فى تصعيد الامور للتخلص من الحزب الاشتراكى وللاطباق بعد ذلك على نظام على عبدالله صالح فى الشمال كما جرى فى السودان .

٦- العامل الخارجى محدود جدا وإذا كان هناك تدخل خارجى فقد حدث بعد انفجار الازمة وليس قبلها وهذا يعنى أن المشكلة تكمن فى الواقع اليمنى وان الذين يتحدثون عن مؤامرة خارجية يحاولون تكرار العادة العربية بالبحث عن مؤامرة خارجية لتعليق الاخطاء .

٧- لم يكن اليمن موحدا فى حياته وهو لم يتحد فى مايو ١٩٩٠ بقدر ما جرى محاولة لم تكتمل .

٨- من اسباب الازمة أيضا حرب الخليج فعودة العمالة الخارجية ادى إلى ازمة اقتصادية خانقة والازمة الاقتصادية أدت إلى احتقان سياسى والاحتقان السياسى وصل إلى المواجهة والحرب المدمرة .

٩- العوامل الاجتماعية والطائفية من اسباب الأزمة أيضا فهناك مجموعة صغيرة كانت تحتكر الحكم ولاسيما الوحدة اخلت بالتوازت السابق فقد لجأت هذه المجموعة الصغيرة إلى التفجير للتخلص من الوحدة .

ولكن الشعب اليمنى نجح من هذه العقبة واثبت انه لا للعودة إلى التشطير وكان هناك بعض زعماء الحزب الاشتراكى ارادوا الانفصال ولكن باءت محاولتهم بالفشل وتعززت الوحدة اليمنية واصبح من المستحيل فى المستقبل التشطير ولايمكن للشعب اليمنى أن يعيش إلا فى ظل الوحدة اليمنية وأن تشكيل حكومة تتميز بالمشاركة الواسعة وتتيح تمثيل ودمج اليمن الجنوبى تبقى خطوة ضرورية ، وسيكون قيام الحكومة بتوسيع دائرة العفو لتشمل اعضاء القيادة الجنوبية السابقين بادرة طيبة ، ويواجه اليمن الموحد جملة من المشاكل الاجتماعية - الاقتصادية والتى تتراوح بين الأمية ونقص المدارس والخدمات الطيبة اللازمة وبين الفقر المتعاظم والتوزيع غير المتكافئ للثروة مصحوبا بتملك مجموعة من الحكام ورؤساء القبائل والمسؤولين الرسميين للجزء الأعظم من وسائل الانتاج والحد من الانفاق العسكرى لكى ينعم اليمن بالوفاق الداخلى وفى طريقه إلى التعافى الاقتصادى وتقارب أكثر مع دول مجلس التعاون الخليجى .

الهوامش

١- د. فاروق عثمان اباظة - سياسة بريطانيا فى عسير اثناء الحرب العالمية الأولى ص١٥ .

٢- د. فاروق عثمان اباظة - المرجع السابق ص١٥ .

٣- د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص١٦ .

٤- د. احمد مصطفى ابوحاكمة - المرجع السابق ص٣٤٣ .

٥- د. احمد مصطفى ابوحاكمة - نفس المرجع ص٣٤٣ .

٦- ج . ب . كيلى - المرجع السابق ص١٣١ .

٧- جورج انطونيوس - المرجع السابق ص٢٣٧ .

٨- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص٢١١ .

٩- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص٢٣٧ .

١٠- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص٢٩٥ .

١١- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص٣٥٣ .

١٢- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص١٨٨ .

١٣- د. فاروق عثمان اباظة - الحكم العثمانى فى اليمن ص١٩٣ .

١٣- د. فاروق عثمان اباظة - نفس المرجع ص٣٩٦ .

١٤- - قال البكرى أن «بلبول» على وزن مفعول وهى موضع من شق البحرين وقال ابن بلهيد : «الذى اعرفه بهذا الاسم ماء قرب العقير الذى يقع على بحر الخليج العربى ويتبع منطقة الاحساء يقال له بلبول «ومعنى ذلك أن «بلبول» موقع على ساحل الخليج العربى إلى الجنوب من «النويصب» ولايبعد اكثر من ٩٠ ميلا من ميناء «جبيل» راجع فى تفصيل ذلك خالد السعدون «العلاقات بين نجد الكويت ص٢١٥ .

١٥- د. فتحية النبرواى و د. محمد نصر مهنا - الخليج العربى ص٣٤٠ .

١٦- د. فتحية النبراوي و د. محمد نصر المهنا - نفس المرجع ص٣٤١ .

١٧- د. احمد مصطفى ابو حاكمة - المرجع السابق ص٣٤٥ .

١٨- ج . ب . كيلى - المرجع السابق ص١٣٣ .

١٩- ج . ب . كيلى - نفس المرجع ص١٣٣ .

٢٠- د. احمد مصطفى ابوحاكمة - المرجع السابق ص٣٤٩ .

٢١- د. فتحية النبرواى - ود . محمد نصر مهنا - المرجع السابق ص٣٤٣ .

٢٢- د. احمد مصطفى ابوحاكمة - المرجع السابق ص٣٥٩ .

٢٣- د. فتحية النبراوى - ود . محمد نصر مهنا - المرجع السابق ص٣٤٧ .

٢٤- د. احمد مصطفى ابوحاكمة - المرجع السابق ص, ٣٦١ .

٢٥- ج . ب . كيلى - المرجع السابق ص٤٥٠ .

٢٦- جورج انطونيوس - المرجع السابق ص٤٥٠ .

٢٧- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص٤٦٣ .

٢٨- جورج انطونيوس - نفس المرجع ص٤٦٢ .

٢٩- د. احمد مصطفى ابو حاكمة - المرجع السابق ص٢٩ .

٣٠- د. احمد مصطفى ابوحاكمة نفس المرجع ص٣٠ .

٣١- د. زاهية قدورة - شبه الجزيرة العربية كياناتها السياسية ص٥٠٣ .

٣٢- د. زاهية قدورة - نفس المرجع ص٥٠٥ .

٣٣- د. زاهية قدورة - نفس المرجع ص١٩٣ .

٣٤- د. زاهية قدورة - نفس المرجع ص٢٠٠ .

٣٥- د. زاهية قدورة - نفس المرجع ص٢٠٧ .

٣٦- د. زاهية قدورة - نفس المرجع ص٢١٠ .

٣٧- سقاف على الكاف - المرجع السابق ص٧٥ .

٣٨- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص٨١ .

٣٩- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص١٠٥ .

٤٠- سقاف على الكاف - نفس المرجع ص١١٢ .

٤١- د. زاهية قدورة - المرجع السابق ص٥٧٠ .

٤٢- د. زاهية قدورة - نفس المرجع ص٥٧٥ .

٤٣- د. فتحية النبرواى و د . محمد نصر مهنا - الخليج العربى ص٤٦٣ .

٤٤- د. محمد ابراهيم الحلو - الجديد فى الوحدة اليمنية - دراسة عوامل ومشاكل الوحدة اليمنية .

٤٥- د. محمد ابراهيم الحلو - نفس المرجع ص١٩٥ .

٤٦- د. محمد ابراهيم الحلو - نفس المرجع ص٢٠٢ .

٤٧- مجلة المجلة العدد ٧٤٥ الصادرة فى ٢٨ / ٥ / ١٩٩٤ ص

الخاتمة

أختتم فصول هذا الكتاب بالوحدة اليمنية راجيا من الله العلى القدير أن يتوحد شعب الجزيرة العربية ، وأن يتبلور مجلس التعاون الخليجى إلى الاتحاد أو وحدة شعب المنطقة مع انضمام اليمن مستقبلا ، حتى تكون نواة لوحدة الجناح الشرقى من الوطن العربى ، انطلاقا إلى الوحدة العربية الكبرى والشاملة ؛ كما كان انطلاق الاسلام من الحجاز إلى وحدة الجزيرة العربية قبل أن ينطلق إلى الشام والعراق ومن ثم إلى مصر والمغرب العربى فى العهد الاموى والعباسى .

أتمنى أن يكرر التاريخ هذه التجربة العربية الاسلامية المجيدة من الجزيرة العربية ، آملا أن أكون قد وفقت أن أقدم دراسة موجزة عن تاريخ الجزيرة العربية الحديث والمعاصر ؛ وإذا كان هناك بعض النقص فى بعض الاقاليم من شرق الجزيرة العربية فانها أكثر شرحا فى كتابنا عن تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ولهذا لم أكرر تلك المواضيع فى هذا الكتاب مقتصرا على أهم الاحداث وليس الأحداث الثانوية أو الهامشية وإنما الأحداث الرئيسية التى أثرت فى مجرى تاريخ أبناء المنطقة ؛ حيث أن فترة الدراسة طويلة من بداية القرن السادس عشر حتى عام ١٩٩٠ ، ولهذا كان لابد من تناول الأحداث المهمة وبشكل الايجاز بقدر الامكان آملا أن أكتب فيما بعد بتوسع أكثر عن تاريخ المنطقة إذا ما كان لنا فى العمر بقية .

وأن آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد خاتم الأنبياء وعلى آل بيته الغر المحجليين .

د. محمد حسن العيدروس

السالمية – الكويت

المراجع

١- احمد مصطفى ابوحاكمة (د) تاريخ الكويت الحديث - ١٧٥٠ - ١٩٦٥ - ذات السلاسل ، الكويت - ١٩٨٤ .

٢- اريك ماكرو - اليمن والغرب ١٥٧١ - ١٩٦٢ - دار الفكر - دمشق ١٩٧٨ .

٣- السيد مصطفى سالم - (د) الفتح العثمانى لليمن .

٤- ب . ج . سلوت - عرب الخليج - ترجمة عايدة خورى - المجمع الثقافى - ابوظبى ١٩٩٣ .

٥- بدر الدين عباس الخصوصى (د) دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر- ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٤ .

٦- جمال زكريا قاسم - الخليج العربى عصر التوسع الاوربى الأول - دار الفكر العربى - القاهرة ١٩٨٥ .

٧- ج . ب . كيلى - الحدود الشرقية للجزيرة العربية - مكتبة الامل - الكويت ١٩٦٧ .

٨- ج . ب . كيلى - بريطانيا والخليج ١٧٩٥ - ١٨٧٠ - وزارة التراث القومى والثقافة - مسقط ١٩٧٩ .

٩- جاد طه (د) سياسية بريطانيا فى جنوب الجزيرة العربية - الطبعة الثالثة .

١٠- جورج انطونيوس - يقظة العرب - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٧ .

١١- جون . س . ولنكسون -حدود الجزيرة العربية- مكتبة مدبولى- القاهرة ١٩٩٣ .

١٢- جب - وجهة الاسلام - نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الاسلامى - ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى ابوريدة .

١٣- حسين عبدالله العمرى (د) مائة عام من تاريخ اليمن الحديث - دار الفكر - دمشق ١٩٨٤ .

١٤- خالد الوسمى (د) عمان بين الاستقلال والاحتلال - مؤسسة الشراع العربى - الكويت - ١٩٩٣ .

١٥- سيد رجب حراز - (د) الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية ١٨٤٠-١٩٠٩ معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة ١٩٧٠ .

١٦- سعد سعد بدير الحلوانى (د) العلاقات بين مصر والحجاز ونجد فى القرن ١٩ - القاهرة ١٩٩٣ .

١٧- سقاف على الكاف - حضرموت عبر عشر قرنا - مكتبة أسامة - بيروت ١٩٩٠ .

١٨- سعيد عوض باوزير - صفحات من التاريخ الحضرمى - المطبعة السلفية - جدة ١٩٥٧ .

١٩-محمد على رفاعى - الجامعة العربية وقضايا التحرر - الطبعة الثانية - القاهرة - ١٩٧٢ .

٢٠- محمد على نخلة (د) تاريخ الاحساء السياسى - ذات السلاسل - الكويت .

٢١- محمد يحيى الحداد - تاريخ اليمن السياسى - شركة دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت ١٩٨٦ .

٢٢- محمد انيس (د) الدولة العثمانية والمشرق العربى - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٩٣ .

٢٣- محمد بن احمد بن عمر الشاطرى - ادوار التاريخ الحضرمى - عالم المعرفة - جدة- ١٩٨٣ .

٢٤- صلاح العقاد (د) التيارات السياسية فى الخليج العربى - مكتبة الانجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٤ .

٢٥- عدنان ترمبيس (د) اليمن وحضارة العرب - منشوراتمكتبة الحياة - بيروت .

٢٦- عبد الرحمن عبدالرحيم (د) الدولة السعودية الاولى - معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ١٩٧٥ .

٢٧- عبدالرحمن عبدالرحيم (د) محمد على وشبه الجزيرة العربية ١٨١٩ - ١٨٤٠ - دار الكتاب الجامعى - القاهرة ١٩٧٥ .

٢٨- عائشة السيار - دولة اليعاربة - وزارة الاعلام - دولة الامارات ابوظبى -١٩٧٥

٢٩- عبدالله عبدالرحمن احمد البهكلى - نفح العود فى سيرة دولة الشريف حمود - دار الملك عبد العزيز - الرياض ١٩٨٤ .

٣٠- عبدالله سراج عمر المنسى (د) المواجهة العثمانية البريطانية فى الخليج العربى ١٨٦٩ .

٣١- عبدالعزيز عوض (د) تاريخ الخليج العربى الحديث - عمان .

٣٢- فتوح عبد المحسن الخترشى (د) تاريخ العلاقات السعودية - اليمنية - منشورات ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٧ .

٣٣- فاروق عثمان اباظة (د) الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ - ١٩١٨ الهيئة المصرية العامة لكتاب - القاهرة ١٩٧٥ .

٣٤- فاروق عثمان اباظة (د) سياسة بريطانيا فى عسير اثناء الحرب العالمية الأولى - منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - الكويت ١٩٨٣ .

٣٥- فتحية النبراوى ومحمد نصر مهنا (د) الخليج العربى - منشأة المعارف - الاسكندرية .

٣٦- فالح حنظل - المفصل فى تاريخ الامارات العربية المتحدة - لجنة التراث والتاريخ - ابوظبى .

٣٧-فؤاد سعيد العابد (د) سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ١٨٥٣ - ١٩١٤ ذات السلاسل - الكويت ١٩٨٤ .

الدوريات والمجلات

١- محمد عيسى صالحية (د) التدخل العثمانى فى اليمن ١٥٤٠ - ١٥٧٨ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد (٢٤) - اكتوبر ١٩٨٠ .

٢- محمد صابر ابراهيم عرب (د) دولة اليعاربة بين الوحدة الوطنية والانتصارات الخارجية - مجلة الجمعية التاريخية المصرية العدد (٣٧) - ١٩٩٠ .

٣- محمد بن ابراهيم الحلو (د) الجديد فى الوحدة اليمنية - دراسة فى عوامل ومشاكل الوحدة اليمنية - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد (٦٧) .

٤- مجلة المجلة - العدد ٧٤٥ - الصادر فى ٢٨ / ٥ / ١٩٩٤ .

٥- صالح محمد رمضان (د) الصراع البرتغالى فى اليمن ١٥١٧ - ١٥٣٨ مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد (٤٧) - يوليو ١٩٨٦ .

٦-طارق نافع الحمدانى (د) عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامع العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر مجلة دراسات الخليج العربى العدد (٤٢) .

٧- عبدالله محمد عيسى الغزالى (د) اسر الفكر والادب فى اليمن فى القرن الحادى عشر الهجرى - مجلة كلية الآداب - جامعة الامارات - العدد السادس ١٩٩٠ .

٨- فتوح عبد المحسن الخترش (د) التطور المرحلى للحركة الوطنية اليمنية ابان حكم الامام يحيى بن حميد الدين - مجلة الجمعية التاريخية المصرية - العدد (٣٧) ١٩٩٠ .

٩- ك . م . ابير - التجديدات والرجعية وامبراطورية محمد على - المؤرخ العربى - العدد الثامن عشر ١٩٨١ .

الفهرس

رقم الإيداع ٩٦/٩١٨٦

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 49 - 8

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ – ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار – باب اللوق

تاريخ الجزيرة العربية

الحديث.. والمعاصر





Ein

للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES